التراث

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري



قدم له وحققه وعلق عليه
د/ إبراهيم بسيوني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د . سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير :

أميمة على أحمد

الغلاف

جمال قطب

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الأول

الطبعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

مدخـــل

ترجع أهمية نشر هذا الكتاب إلى ثلاثة عوامل رئيسية :

أولا : أنه من الناحية الموضوعية يعالج قضية هامة وهى تفسير القرآن الكريم على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال ، وهذا منهج فى التفسير نادر فى المكتبة العربية ، فأنت تستطيع أن تجد عدداً غير قليل من التفاسير التى تتناول النص القرآنى فى ضوء اللغة العربية أو الإعراب أو البلاغة أو الفقه أو أسباب النزول أو التشريع أو القصص والأخبار أو نحو ذلك مما هو مألوف ومعروف منذ نزل القرآن ومنذ ظهرت الاتجاهات المختلفة فى دراسته ، ويمكن أن تجد عدة مصنفات لعدة شخصيات فى كل لون من هذه الألوان بحيث يغنيك واحد أو اثنان منها عمّا سواها .

فإذا بحثت عن التفسير الصوفى ألفيته — على العكس من ذلك — نادراً ، وألفيت الإنتاج فيه غير شافٍ ، فإمّا أن يكون مقتضباً « كتفسير القرآن العظيم » لسهل بن عبد الله التُسْتَرِى (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) وقد طبعته السعادة فى عام ١٩٠٨ م فيما لا يزيد على مائتى صفحة ، ويستطيع القارىء أن يتصور كيف يمكن لمائتى صفحة أن تعنى بدراسة القرآن على نحو مُرْضٍ .

وإمّا أن يكون مطعوناً فيه كما هو الشأن فى « حقائق التفسير » لأبى عبد الرحمن السُّلمى (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) الذى يقول فى وصفه — ونحن نقتطف منه هذه الفقرة لنوضّح ما قلناه آنفا عن ندرة التفسير الصوفى : « لمّا رأيت المتوسّمين بعلوم الظاهر قد سبقوا فى أنواع فرائد القرآن من قراءات وتفاسير ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجمل ومفصّل ، وناسخ ، ومنسوخ ، ولم يشتغل أحدٌ منهم بفهم الخطاب على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة أحْبَبْتُ أن أجمع حروفا أستحسنها من ذلك وأضمّ أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى »[حقائق التفسير للسلمى مخطوطة ١٥٠ تفسير دار الكتب ص ٢٢١] .

وعندما ظهر حقائق التفسير ، أحدث ضجة كبرى ، فقد لقي معارضات شديدة من معاصريه ومن أتوا بعده ، فاتُّهِمَ بالابتداع والتحريف والقرمطة والتشيع ووضع الأحاديث على الصوفية يقول ابن الصلاح : (وجدت عن الإمام الواحدى أنه قد صنَّف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر)

وقال الذهبي في « تذكرته » : أتى السُّلمى في « حقائقه » بمصائب وتأويلات الباطنية نسأل الله العافية تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ٢٤٩ .

ووصفه ابن تيمية بالكذب : (منهاج السنة جـ ٤ ص ١٥٥) .

وعدَّ السيوطى تفسيره ضمن التفاسير المبتدعة معللا لذلك بقوله : « . . . . وإنما أوردته في هذا القسم لأنه غير محمود (طبقات المفسرين للسيوطى ط ليدن سنة ١٨٣٩ ص ٣١) .

أما إخوان الصفا الذين يحشرهم جولد تسيهر ضمن مفسرى الصوفية في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامى) ، فهم أولاً غير صوفية وإنما هم جماعة من المشتغلين بالفلسفة ذوى أغراض بعيدة خبيثة ، ضمت صفوفهم لفيفاً من الناس مختلفى النزعات والثقافات حتى كان من بينهم ملاحدة ، فإحالتهم على الصوفية تجنٍ على الحقيقة وعلى التاريخ وعلى التصوف ، ولسنا نبرىء جولد تسيهر من ذلك — مع تقديرنا لكتابه القيِّم .

وحتى القرن الخامس الهجرى لا نجد كما يقول صاحب (تاريخ أدبيات درايران) : « أهمّ من حقائق السلمى ولطائف الإشارات للقشيرى وتفسير سورة الإخلاص للغزالى » [تاريخ أدبيات در ايران للدكتور ذبيح الله صفا (مكتوب بالفارسية) فصل التفسير صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧] .

وبعد ذلك بنحو قرن نلتقى بتفسير ابن عربى الذى هو قبل كل شىء مطعون في نسبته إليه ، وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده (اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ، وينسبونه للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى ، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير) ويضيف الأستاذ الإمام (وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز) تفسير المنار جـ ١ ص ١٨) .

ثم صدق الأستاذ الإمام ، فالكتاب مملوء بدعاوى وحدة الوجود ، وما جرّه هذا المذهب من ويلات ، ولسنا هنا بصدد دراسة تفصيلية له ، ولكننا نشعر بالحاجة إلى أن نسوق شواهد قليلة تثبت مجانبة هذا التفسير للحق ، وكيف أنه لا يصح أن يكون نموذجاً للاتجاه الصوفى السديد — كما حلا لجولد تسيهر أن يظهره ويتحمس له ، ليخرج من ذلك بأحكام عامة يصدرها عن التصوف الإسلامى — كأنما يروى غليله .

ففى سورة المزمل عند قوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً ، يقول : (واذكر اسم ربك الذى هو أنت . .) ! ! ج ٢ ص ٣٥٢ .

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) ، يقول : نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا ، وظهورنا فى صوركم) ج ٢ ص ٢٩١ وليس هذا التصوُّر بمستغرب على من يقول إن عِجْلَ بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحلَّ فيها ! !

وليس من الإنصاف أن يقال للناس هذا هو رأى الصوفية المسلمين ولا رأى بعده ، بل يجب أن نضع فى اعتبارنا أن مذهب وحدة الوجود مذهبٌ فلسفى يبتعد عن المنهج القلبى العرفانى الذى اختطه أرباب المجاهدات والأحوال للوصول إلى وحدة الشهود ، وفى وحدة الشهود — ومهما قيل عنها من كلام ظاهره مستشنع وباطنه سليم على حدِّ تعريف أبى نصر السراج الطوسى للشطح — يبقى دائماً شىء هام قوى ناصع أن العبد عبد والرب رب ولا تداخل ولا امتزاج ولا حلول ولا اتحاد ، بل بمقدار ما يصل العبد إلى تحقيق عبوديته يصل إلى التحقق من ربوبية الرب وتنزيهه عن كل إفك وباطل . . . تعالى الله علوًّا كبيراً .

ولا ينبغى لنا أن نغض الطرف عن قيمة التفاسير المبعثرة فى المراجع الصوفية الكبرى لآيات بعينها من القرآن الكريم ، فإن تبعثر هذه التفاسير لا يحول دون تقديرها حق قدرها ، ذلك لأنها غالباً ما سيقت لتدعيم موقفٍ أو لتَشهد على استمداد فكرة أو لفظة ، فهى من هذه الناحية لا تخرج عن كونها تفسيراً صوفياً غير مجموع .

وفيما عدا ذلك يمكن القول إن أبرز التفاسير الصوفية التى نعرفها كتابان أولهما « عرائس البيان فى حقائق القرآن » لأبى محمد روزبهان بن أبى النصر البقلى الشيرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ [كشف الظنون ج ٢ ص ٢١]

وثانيهما التأويلات النجمية » لنجم الدين داية المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وقد مات قبل أن يكمله فأكمله علاء الدولة السمنانى المتوفى ٧٣٦ هـ (كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٨) .

* * *

لأجل هذا كله نحتفل « بلطائف الإشارات » فأغلب ما سقناه من تفاسير صوفية لا يسلم من النقد ، ولا يصحّ أن يكون نموذجاً صالحاً لتمثيل الصوفية والتصوف بأمانة وصدق .

« لطائف الإشارات » سفر نفيس كتبه صاحبه محاولاً أن يوفّق بين علوم الحقيقة وعلوم الشريعة ، وقاصداً إلى هدف بعيد أنه لا تعارض بين هذه وتلك ، وأن أى كلام يناقض ذلك خروج على أىٍّ منهما وعلى كليهما (فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، الشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده) الرسالة القشيرية ص ٤٦ .

وهذا ما حدث فعلاً . . فأنت خلال قراءة « اللطائف » تشعر أن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية لها أصل من القرآن ، ويتجلّى ذلك بصفة خاصة حينما ورد المصطلح الصوفى صريحاً فى النص القرآنى كالذكر والتوكل والرضا ، والولى والولاية والحق والظاهر والباطن ، والقبض والبسط . . . الخ فلا تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم ، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما يحلو لبعض الباحثين حين يتهمون التصوف الإسلامى بالتأثر بالتيارات الأجنبية : اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية ونحوها .

كذلك تلحظ عبقرية القشيرى إزاء اللفظة أو الآية حينما لا يكون فيها اصطلاح صوفى ، فإنه يستخرج لك من آيات الطلاق إشارات فى الصحبة والصاحب ، ومن علاقة النبى بأصحابه إشارات عن الشيخ ومريديه ، ومن مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والمطر والجبال إشارات رائعة تتصل اتصالا وثيقا بالرياضيات والمجاهدات أو بالمواصلات والمكشوفات .

وربما قيل إن صنيع القشيرى مسبوق وملحوق ، ولكن ها نحن منذ قليل أوضحنا مقدار ما أصاب التفاسير الصوفية من سهام النقد ، وبقى أن تعرف الأسباب التى جعلتنا نحكم بأن لطائف الإشارات ، خير مناضل عن التفسير الصوفى بعامة ، بل بأنه من أفضل الأعمال

التى أنتجتها قرائح الصوفية فى شتى العصور ، وربما يبدو فى ذلك بعض التعميم مع أن الأحكام العلمية ينبغى ألا تخضع للتعميم لأننا لا نستطيع أن ندّعى المعرفة الشاملة بكل التراث الصوفى ، ونعترف أن عِشرتنا مع الكتاب وصاحبه عشر سنوات كاملة أثناء إعداد بحثى الماجستير والدكتوراه فى الموضوعات الصوفية ، ونعترف أن حماسنا لما نلحظه من الاعتدال عند القشيرى دون سائر الباحثين ، ونعترف أنّ ما كنا نشعر به من وجوه النقص فى سائر المصنّفات التى نهض بها غيره فى هذا الخصوص — كلٌّ ذلك ربما كان الدافع إلى لجوئنا إلى هذا الحكم الذى سقناه .

ومن أعجب الأمور أن القشيرى يشتهر « بالرسالة » التى لا تخرج عن كونها مجموعة من الأسانيد المنسوبة إلى الشيوخ فى موضوعات بعينها ، ومجموعة من التراجم لأبرز الشيوخ الذين ظهروا منذ نهاية القرن الثانى الهجرى حتى بداية القرن الخامس فى صفحات قليلة ربمّا أغنت عنها الكتب المطولّة التى وضعت خصيصاً لهذا الغرض مثل تذكرة العطار أو طبقات السلمى أو طبقات الشعرانى ونحوها . ومع تقديرنا « للرسالة » إلا أننا لا نعتبرها بحالٍ من الأحوال أفضل أعمال القشيرى ، وأنها ظلمته حين شهرته ، وحين أوقفت اسمه عليها ، وأصبح حتّا منذ الآن أن يقول الناس « القشيرى صاحب اللطائف » لا صاحب « الرسالة » . فاللطائف هى أبلغ أعماله التى تزيد على العشرين — فى نقل صورة واضحة لشخصيته ، ولست أدرى لماذا لم يجد هذا الكتاب ما هو جدير به من الاهتمام فى العصور الماضية ؟ لماذا حكم عليه دائماً أن يبقى فى منطقة الظل ؟ حتى صار ما نعرفه عن نسخه كما نفهم من « تذكرة النوادر » وكما يقول بروكلمان — محدوداً ومبعثراً بين روما وبرلين واسطنبول وتونس والهند والقاهرة ، ومعظمها كما سنذكر بعد قليل غير كامل .

ولكى ندرك أهمية هذا الكتاب فى تصحيح كثير من المقاييس العلمية عن التصوف والتفسير الصوفى لابُدّ لنا أن نلم بشىء من سيرة صاحبه ، ونكتفى من معالم هذه السيرة بما يمكن أن يتبرر به وصول هذا العمل الجليل بتلك الأوصاف وإلى تلك النتائج . وذلكم هو العامل الثانى لأهمية نشر هذا الكتاب :

ثانياً : صاحب هذا الكتاب هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيرى ، ولقبه زين الإسلام ، وشهرته القشيرى .

ولد فى ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ الموافق يوليو ٩٨٦ م .

وتوفى فى يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر عام ٤٦٥ هـ وهو عربى النسب من جهة أبيه فهو من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن ، ويذكر ابن حزم أن سلالات من قشير اتجهت إلى المغرب نحو الأندلس إبَّان الفتح الإسلامى زمن الأمويين ، واتجه بعضها إلى المشرق وكان منها ولاة وقواد على خراسان ونيسابور . (جمهرة الأنساب ٢٧٣ و ٤٥٩) كذلك فإن القشيرى عربى النسب من جهة أمه فهى سلمية وأخوها أبو عقيل السلمى من وجوه دهاقين أستوا ، واستوا هى الناحية التى ولد فيها القشيرى وتلقى بها تعليمه الأولى .

وحَدَثَ أن اجتاحت المنطقة ضائقة اقتصادية ، ففكر الأهالى فى إرسال لفيف من أبنائهم إلى نيسابور لكى يتلقوا من دروس الحساب ما يمكِّنهم — بعد عودتهم — من المشاركة فى تنظيم الأمور الاقتصادية ، وكان القشيرى أحدَ هؤلاء الأبناء .

وبدأ القشيرى فى نيسابور يتهيأ لهذا اللون من الدراسة ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنها عندما اجتذبته مجالس الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب ، ولم تبخل نيسابور عليه بزاد ، فلقد كانت فى ذلك الوقت تعج بالنشاط الفكرى ، وتحفل بكبار الشيوخ أمثال ابن فورك ، ومحمد بن أبى بكر الطوسى ، وأبى إسحق الاسفراييني ، وقد ظفر القشيرى فى كنف هؤلاء الأئمة برعاية خاصة حينما أتيح له الاتصال بهم ، وأتيح لهم معرفته عن قرب ، ووضح لهم فيه حسن الاستعداد ، والدأب ، واستقامة الخُلُق .

ولم يكن القشيرى يضيع فترة مابعد الدرس هباء ، بل كان ينكب على القراءة والاستذكار وكان شديد الوَلَع بالعلوم العقلية ، وبخاصة تلك التى تتناول المسائل التى طالما اشتجر الخلاف حولها بين الأشاعرة وأهل الاعتزال ، واستوعب فى هذه الفترة معظم ما صنَّف الباقلانى .

وجاء يوم سأل فيه الإمام الاسفراييني تلميذه القشيرى — حين وجده لا يكتب كما يكتب سائر الطلاب : أمَا عَلِمت يا بنى أن هذا العلم لا يحصل بالسماع ؟

(ولكن القشيرى أعاد عليه كل ما سمعه ، وقرره أحسن تقرير ، من غير إخلال بشىء فتعجَّب منه وأكرمه ، وقال له ما كنت أدرى يا بنى أنك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج إلى درس يكفيك أن تطالع مصنفاتى ، وتنظر فى طريقتى ، وإن أشكل عليك شىء طالعتنى به

فصل ذلك ، وجمع بين طريقة الاسفراييني وطريقة ابن فورك) طبقات الشافعية للسبكي جـ ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها .

وبينما كان القشيري منصرفاً بكل همته إلى هذا اللون من الدراسة ، دائب الاتصال بهذا الطراز من الشيوخ ساقه القَدَرُ ذات يوم إلى مجلسٍ من لون آخر يتصدره شيخ من طراز آخر . استمع القشيري إلى أبي علي الدقاق وهو يعظ على طريقة الصوفية ؛ ويتحدث في الرياضات والمجاهدات ، والأحوال والكشوفات ، والأذواق والمواجيد ، والمعارف العليا التي تنثال من الحق على عباده الذين اصطفاهم، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه ، ويملكان فيه كل ذرة ، وإذا القشيري يحادث نفسه صامتاً : إني لهذا خُلِقْت !

وعندما كان يتهيأ ليغشى ما اعتاد من مجالس كانت أقدامه تسوقه نحو الدقاق ومجلسه ؛ فكان أول مَن يجلس وآخر من ينهض .

ولمحه الشيخ ، ورأى فيه إصغاء ملفتا للنظر ، فقربه منه ، وحباه بعطفه .

وذات يوم تقدم الطالب — في استحياء — من شيخه ، فشكا إليه أمراً حَزَبَهُ ؛ إنه لا يستطيع أن يجمع بين المواظبة على ما اعتاد من مجالس وبين مجلس الدقاق ، وهو يؤثر أن ينصرف بكل همته وعزيمته إلى علم القلوب ، وابتسم الشيخ للشاب ، وتطلع إلى وجهه ، وربت على كتفه قائلا :

— إنما ينبغي لك أولا أن تتقن دراستك بقدر طاقتك !

ومضى الشاب الطموح يجمع بين الدراستين ، وساعده ذلك على أن يتكون تكوينا عقلياً ووجدانياً في مرحلة من أدق مراحل العمر ، كما ساعده على أن يتجنب كثيراً من المشاكل النفسية التي تلم بأمثاله نتيجة الاغتراب عن بلده ، ونتيجة الملل .

وأعجب الدقاق بمثابرته وطموحه واستقامته وتواضعه (فاختاره لكريمته فاطمة مؤثراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدموا لخطبتها) ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٧٥ .

وهكذا توثقت الصلة بين الشيخ والشاب ، وصار الدقاق رائده وملهمه الذي أعانه على مواجهة مشكلات الحياة ، وبصَّره بآفات النفس وأدوائها ، وكشف له عن الكثير من الخفايا والدقائق .

فكان هذا الاتصال عاملاً جديداً من عوامل الاستقرار النفسى ، وبداية لمرحلة جديدة من النضج الفكرى ، لأنه أتاح له أن يجد فى صهره شيخاً ورائداً وصديقاً ، وسهّل عليه أن يهرع إليه يستنصحه إزاء كل مسألة تعرض له أو أمر ينبهم عليه ، فلم يقع تحت تأثير بلبلة ، ولم يخضع لأزمة ، ولم تتجاذبه ضغوط أو صراعات .

كل ذلك ترك أثره فى شخصيته ، فلسنا نجد فى مؤلفاته اضطراباً أو جموحاً أو غموضاً ، ولسنا نشعر فيما وراء السطور بعقدة من العقد ، ولسنا نحس بميل إلى ابتداع ، إنما نجد أنفسنا أمام شخصية سويّة ، يتميز الخط الفكرى لها بالاستقامة والاعتدال ، والوضوح والصدق ، والإخلاص والبذل .

ولعلّ أبسط دليل على وفاء القشيرى لشيخه أنك لو تصفحت « رسالته » لما غاب اسم الدقاق عن عينك ، وهو يذكر اسمه دائماً مقروناً بالتكريم والترحم ، ويكفيك أن تقرأ هذه الفقرة لتوضح لك أولا شيئاً عن مسلك القشيرى خلال حياته العلمية وتوضح لك ثانياً مدى ما ينبغى أن تكون عليه علاقة المريد بشيخه ، فهذه وتلك تصوّر ما نرمى إليه من بعيد عن كشف جوانب فى سيرة الرجل الذى نقدّم لك كتابه .

يقول القشيرى : « لم أدخل على الأستاذ أبى على — رحمه الله — فى وقت بدايتى إلا صائماً ، وكنتُ أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت ، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غُرِز فىّ إبرة مثلاً لَعَلِّى كنت لا أحسُ بها . ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى لم أحْتَجْ أن أسأله بلسانى عن المسألة ؛ فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى ، وغير مرة رأيت منه هذا عيانا ، وكنت أفكر فى نفسى كثيراً إنه لو بعث الله عزّوجلّ فى وقتى رسولاً إلى الخلق هل يمكننى أن أزيد فى حشمته على قلبى فوق ما كان منه رحمه الله تعالى ؟ فكان لا يتصور لى أن ذلك ممكن ، ولا أذكر أنىّ فى طول اختلافى إلى مجلسه ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى أو خطر ببالى عليه قط اعتراض إلى أن خرج — رحمه الله تعالى — من الدنيا) الرسالة ص١٤٧ .

وليس استطراداً أن نذكر لك كلمة موجزة عن رأى عبد الرءوف المناوى فى الدقاق ،

لأن هذه الكلمة على إيجازها لا تكشف لك عن سمات الدقاق وحسب إنما هى سمات ، القشيرى ذاته فى أدق التفاصيل .

يقول المناوى « هو أبو على الحسن الدقاق النيسابورى الشافعى ، كان لسان وقته وإمام عصره ، فارها فى العلم ، محمود السيرة ، مجهود السريرة ، جنيدى الطريقة ، سَرِّىّ الحقيقة ، أخذ مذهب الشافعى عن القفال والحصرى وغيرهما ، وبرع فى الأصول وفى الفقه وفى العربية حتى شُدَّت إليه الرِّحال فى ذلك ، ثم أخذ فى العمل ، وسلك طريق التصوف ، وأخذ عن النصرابادى ، قال ابن شهبه : وزاد عليه حالاً ومقاماً . . . وقد أخذ عنه القشيرى صاحب « الرسالة » وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة ٤٠١ هـ كلام المناوى بعد أن أخذ يضرب أمثلته لأقواله المنثورة والمنظومة [الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية ترجمة الدقاق] .

أمّا فى مجال الصداقة فلعلّ أوثق من نعرف اتصالا به صديقه أبو عبد الرحمن السلمى وصديقه أبو المعالى الجوينى إمام الحرمين .

وترجع أهمية السُّلمى فى حياة القشيرى إلى أنه غزير الإنتاج فى العلوم الصوفية ، وأن القشيرى استفاد من علمه ، وآية ذلك أنك تجد السلمى فى « الرسالة » حلقة اتصال بارزة فى العديد من الأسانيد والأخبار التى عليها يعتمد القشيرى موصولة بالدارقطنى والسَّراج والنصرابادى وغيرهم ، ولكن الأهم من ذلك — فى تقديرنا — أن القشيرى استفاد من السُّلَمى فائدة أبعد أثراً ، ذلك أنه تجنَّب التورط فى المزالق التى أدَّت بصديقه إلى أن يُتَّهم وأن يكون موضع نقد معاصريه ومن جاء بعده ، وقد نوَّهنا بشىء من ذلك عند كلامنا عن « حقائقه » .

أمّا الجوينى فقد كان — كالقشيرى — شافعياً من حيث المذهب الفقهى ، أشعرياً من حيث العقيدة الكلامية ، وقد تعرَّض — كالقشيرى — لآلام المحنة التى اكتوى بنارها الأشاعرة ، والتى سنتحدث عنها بعد قليل ، وهاجر البلاد وجاور الحرمين ، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد انجلاء الغُمَّة .

وإذا كان السُّلمى صديقاً أقرب إلى الاستاذ فإن الجوينى كان صديقاً أقرب إلى التلميذ ، فقد استفاد من علم القشيرى ، فإذا تذكرنا أن الجوينى أستاذ الغزالى أمكن أن نقول إن

القشيرى موصول بالغزالى لا بطريق للصنفات التى خلَّفها وحسب بل بطريق السَّنَدِ الذى يمثله الجوينى .

وفى مجال الحياة العملية نجد القشيرى يضطلع بأعمال تتفق واستعداده وثقافته ، فقد اشتغل بالتدريس فى مسجد المطرز وهو فى الثلاثين من عمره ويتضح ذلك من هذا النص : « كنتُ فى ابتداء وصلتى بالاستاذ أبى علىٌّ — رضى الله عنه — عقد لى المجلس فى مسجد المطرز ، فاستأذنته وقتاً للخروج إلى « نسا » ، فكنت أمشى معه يوماً فى طريق مجلسه ، فخطر ببالى : ليته ينوب عنًى فى مجالسى أيام غيبتى . . . الخ » الرسالة ص ١١٦ .

وإلى جوار ذلك كان القشيرى يعكف على التأليف دون انقطاع فانتهى من التفسير الكبير المعروف (بالتيسير فى التفسير) قبل عام ٤١٠ هـ ، ومن اللطائف عام ٤٣٤ ، ومن الرسالة عام ٤٣٧ واستمر يمارس هذا النشاط فى دأب لا يعرف الكلال حتى وصلت كتبه إلى خمسة وعشرين كتاباً أو نحوها ، ومن أهمها إلى جوار ما سبق : ترتيب السلوك ، والتحبير فى التذكير ، والأربعون حديثاً ، وشكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، واستفادات المرادات ، والقصيدة الصوفية ، والتوحيد النبوى ، والُّلمع ، والفصول ، والفتوةّ ، ونحو القلوب الصغير ، والكبير ، والمقامات الثلاثة ، وفتوى ، والمعراج .

ولم يطبع من هذه الكتب إلا النذر اليسير ، وفى النية أن نقوم — بعون من الله — بإخراج ما وقع لنا منها خلال رحلات طويلة عديدة ، حتى يزداد الناس علماً به وتقديراً له .

ولم يسلم القشيرى خلال حياته من المحن والآلام ، وربَّما كانت أشدها جميعاً ما حدث له إبَّان حكم السلطان طغرل ووزيره اللعين الكندرى .

كان السلطان طغرل سنياً حنفياً ، ووزيره أبو نصر الكندرى معتزلياً رافضياً ، خبيث العقيدة ، ذا آراء مسرفة فى التشبيه وخلق الأفعال ، والقَـدَر ، وكان متعصباً فى ذلك أشد التعصب .

وفى هذا الوقت كان بنيسابور شخصية فذّة لها فى أوساط العامة والخاصة نفوذ كبير ، ومحبة فائقة ، ذلكم هو الاستاذ أبو سهل بن الموفق أحد رجال الطبقة الرابعة الشافعية ،

وكان كثير المال جواداً ، وكان مرموقاً بالوزارة ، وداره مجتمع العلماء ، وملتقى الأئمة ، ونظراً لما عرف عنه من تعلّق بالمذهب الأشعرى ، وذود عنه ، وسعى حثيث لنشره فقد ألهب ذلك حقد الكندرى ، خاصةً وقد كان يخشى أن يقع اختيار السلطان عليه للوزارة من دونه ، فمضى يلفق — لدى السلطان — عنه التهم . ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى حيلة دنيئة حين حصل من السلطان على تفويض بسبِّ المبتدعة على المنابر ، فلم يجد السلطان فى ذلك بأساً ، فوافق عليه ، ولكن الكندرى استغل هذه الموافقة فأقحم اسم أبى الحسن الأشعرى ضمن المبتدعة الواجب سَبُّهم ، وكل من كان يرفض الانصياع لذلك من الوعاظ والخطباء يفصل من عمله ، ويطرد من البلاد ، فنجم عن ذلك شر خطير ، وفتنة كبرى امتد شررها إلى سائر المشرق ، وبات الأشاعرة فى حزن مقيم .

وفى وسط هذه المحنة ، وذات يوم كئيب أسود جاء الأمر من قبل السلطان بالقبض على القشيرى وإمام الحرمين والرئيس الفراتى وأبى سهل الموفق ، ونفيهم ، ومنعهم من المحافل ، وحين قرئ الكتاب هجم جماعة من الأوباش على الاستاذ الفراتى وعلى القشيرى وأخذوا يجرونهما فى الطرقات ، ويكيلون لهما أقذع أنواع التهكم والاستخفاف حتى وصل الشرطة بهما إلى محبس القهندز .

أمّا إمام الحرمين فقد هرب من البلاد على طريق كرمان ، واتجه إلى الحجاز ، وهناك جاور ، وأمّا أبو سهل . فقد كان لحسن الحظ غائباً فى بعض النواحى .

وبقى السجينان الجليلان فى المحبس ، وقامت جماعات كبيرة من الناس لإنقاذهما ، وحدثت حرب دامية بينهم وبين رجال السلطان انتهت بهزيمة رجال السلطان ، وأخرج السجينان الجليلان من سجنهما ، ولكن كبار الأشاعرة اجتمعوا وقرروا أن جهاز الحكم لن يهدأ له قرار ، وأن الخير فى رحيل أئمة المذهب إلى أماكن نائية عن المشرق .

فترك القشيرى وطنه وبيته وأهله وعشيرته ، ومضى يضرب فى الأرض الواسعة عشر سنوات كاملة ، كان خلالها موضع التكريم والتبجيل ، وأقبل الناس عليه وعلى دروسه إقبالاً عظيماً ، حتى لقد خصص الخليفة العباسى — القائم بأمر الله — له مجلساً خاصاً فى مسجد قصره ، وكان يواظب على شهود وعظه ومجلس حديثه ، ويكرمه ، ويحظى ببركته .

وقد وصف الخطيب البغدادى (صاحب تاريخ بغداد) مقدار إعجاب الناس بالقشيرى ، وكان هو نفسه أحد تلاميذه حيث يقول (حدثنا وكتبنا عنه وكان ثقة) .

(تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٨٣) .

وذهب القشيرى للحج ، وهناك التقى بصديقه الجوينى وبعدد كبير من الأئمة الذين شردتهم المحنة طوال سنوات عديدة ، فاجتمعوا وتدارسوا أحوالهم ومستقبلهم ، واستقر رأيهم على أن يطيعوا كلمة واحد منهم مهما كانت هذه الكلمة حتى يتم الاتفاق على مبدأ ثابت يسرى عليهم جميعاً ، ولم يكن ذلك الذى وقع عليه اختيار الجمع غير عبد الكريم القشيرى .

فصعد للمنبر ، وظل يتكلم ، وهم يجدون لكلامه وقعاً مؤثراً على قلوبهم وعقولهم ، ثم مرت لحظات صمت ، بعدها شَخَصَ القشيرى ببصره إلى السماء ضارعاً ثم أطرق ، والناس من حوله يتابعون أمره ، ويتفرسون ملامحه . . . ثم قبض على لحيته وصاح بصوت عالٍ :

« يا أهل خراسان . . بلادَكم بلادَكم ، إن الكندرى غريمكم يُقطَّعُ الآن إرباً إرباً ، وإنى أشاهده الساعةَ وقد تمزقت أعضاؤه ثم أنشد :

عميد الملك ساعدك الليالى على ماشئت من درك المعالى
فلم يكُ منك شىء غير أمرٍ بلعن المسلمين على التوالى
فقابلك البلاء بما تلاقى فَذُق ما تستحق من الوبال

(تبيين كذب المفترى لابن عساكر ليدن ص ٩٣)

ويقول السبكى فى طبقاته : (وضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع الكندرى إربا إربا . وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان) السبكى فى « طبقات الشافعية » جـ ٢ ص ٢٧٢ .

وهكذا عاد القشيرى بعد هذه السنوات العشر الثقال (من ٤٤٥ إلى ٤٥٥) إلى بلاده ، وهى وإن كانت أقسى فترات عمره ، وأشدها آلاماً إلا أنها كانت حافلة بالتجارب ، وأعانته على زيادة خبرته بالحياة والأحياء ، وساعدت على توثيق الصلة بينه وبين الأوساط العلمية والأدبية خارج المشرق ، ودفعته إلى أن يصنِّف العديد من المصنفات المتصلة بالمذهب الأشعرى

وبخاصة كتابه الجليل القدر « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة »، وهى قبل كل شيء وبعد كل شيء آية ثباته على مبدئه ، وأنه خليق أن يتصدَّر المفكرين الأحرار فى جيله .

وجاء السلطان ألب أرسلان خَلَفاً لعمه طغرل ، وبمجيء أرسلان ووزيره الهمام الفذ نظام الملك استقبل العالم الإسلامى كله والأشاعرة بوجه خاص والقشيرى بوجه أخص عهداً زاهراً آمنا ، وعاد القشيرى إلى مدينته الحبيبة نيسابور حيث قضى بها بقية عمره ، وقضى بها عشر سنوات (كان فيها مرفهاً محترماً ، ومطاعاً معظماً ، وأكثر صفوه فى آخر أيامه التى شاهدناه فيها آخراً ، وازداد من يقرأ عليه كتبه وتصانيفه والأحاديث المسموعة له ، وما يؤول إليه من نصرة المذهب حتى بلغ المنتمون إليه آلافاً ، فأملوا تذكيره وتصانيفه أطراف) « تاريخ نيسابور لعبد الغافر الفارسى حفيد القشيرى » .

وكان نظام الملك أحد تلاميذه والمقربين إليه ، وأعاد الوزير ـ بفضل توجيه القشيرى ـ للأشاعرة والزهاد والعلماء كل ما فقدوه إبَّان المحنة الأليمة من كرامة وحظوة .

أمَّا أبناء القشيرى فلا نعرف له إلا بنتاً واحدة هى أمة الرحيم أم عبد الغافر الفارسى (قاموس الأعلام باللغة الأوزبكية ط اسطانبول سنة ١٣١٤ ص ٣٠٨٠) .

ونعرف له ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة ، سلكوا مسلك أبيهم وقد ترجم لهم السبكى فى طبقاته كما تحدث عنهم ابن عساكر وابن خلكان .

ولهذا ينبغى أن نتحفظ فى نسبة الأقوال المنسوبة إلى القشيرى فى بعض المراجع فقد تكون هذه الأقوال صادرة عن أحد أبنائه فهم جميعاً أشاعرة وهم جميعاً شافعية وهم جميعاً سلكوا طريق الإرادة .

لبث القشيرى فى نيسابور فى أخريات حياته لم يكد يبرحها إلا لزيارة أقاربه فى البلاد المجاورة مثل نسا وأبيورد ، ولكنه كان يعود مسرعاً إلى نيسابور بعد كل زيارة .

وقبل أن تبزغ شمس السادس عشر من ربيع الآخر من عام ٤٦٥ هـ ، كانت روحه الطاهرة قد عادت إلى بارئها . فوورى جثمانه إلى جوار صهره وشيخه وملهمه وصديقه أبى على الدقاق فى مقبرة خاصة بالأسرة مازالت قائمة حتى وقتنا الحاضر يزورها الناس للتبرك .

* * *

من خلال هذه السيرة التي حاولنا إيجازها نستطيع أن ندرك أهمية الكتاب الذى نقدم له .

فصاحب الكتاب رجل أوتى حظًا وفيراً من العلوم العقلية والنقلية قبل أن يلج باب الصوفية ، وهذه فى حدّ ذاتها ظاهرة لها أهميتها ، وقد رأينا كيف نصح الشيخ الدقاق له بالتعمق فى هذه الدراسات قبل البدء بالسير فى دروب الإرادة ، وفى ذلك أبلغ رد على من يتخرّصون الاتهامات عن الصوفية فيقولون إنهم قوم يجانبون العقل ، ويحتقرون العلم ويأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم — كما يدعى ابن الجوزى غفر الله له .

والقشيرى بعد ذلك كله أديب ينظم الشعر ويتذوق الأسلوب العربى تذوقاً يعتمد على أسس قوية ، وقد أوضحنا ذلك بتفصيل كبير فى الأطروحة التى أعددناها عنه ونلنا بها درجة الدكتوراه .

فإذا جاء بعد ذلك ليدرس الأسلوب القرآنى ، وليستخرج منه إشارات لطيفة فهو مُعَدٌّ لذلك أحسن إعداد ، وهو قمين بالوصول إلى نتائج باهرة ، بقدر ما لديه من تهيؤ صالح مكتمل .

ثم هو شافعى أشعرى ، وهو سنى متحفظ ، وهو بهذه الأوصاف باحث متعمق منصف ، لا يأخذ — وهو يستخرج إشارة من العبارة — إلا جانب الحذر والحيطة والاعتدال ، وهو من أجل ذلك لم يخرج قيد أنملة عن هذا الخط ، فلم ينصر الحقيقة على حساب الشريعة ، ولم ينصر الشريعة على حساب الحقيقة ، ولذلك لا نعجب إذا لم نجد عنده جوحاً أو ميلاً إلى جنوح ، ولا نعجب إذا ألفيناه لا يُسْخِط أوساطَ أهل السُّنَّةَ حتى من تعصَّب منهم ضِدَّ التصوف وأهله ، فقد كان رائده دائماً نصرة الحق، فليس غريباً أن يجىء «لطائف الإشارات» تعبيراً صادقاً عن التصوف فى أفضل درجات الاعتدال ، وأنقى صور التناول . فليس عند القشيرى ما عند غيره من مساس بالألوهية ، بل هو طالما يعلنها حرباً لا هوادة فيها على المبتدعين وللضالين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله تارة تحت ستار النوب ، وتارة بدعوى الفناء المُفرق ، ونحو ذلك من الأباطيل .

والتصوف عند القشيرى ليس ثوباً مرقعاً ، أو خرقة بالية تَفْرِد صاحبها عمن سواه ، وتكون عَلَماً على تقواه ، إنما هو صفاء النفس من كدوراتها . وإنَّ من كان صادقاً فى طويته ونيَّتِه سيكون محفوظا فى حالة انمحائه ، سوف يُرَدُّ فى حالة الجَمْع إلى حالة الفَرْق الثانى

ليؤدىَ الفرائض الواجبة عليه ثم يعود إلى حالة الجمع مرة أخرى ، ويكون فى كل أحواله مُصَرَّفاً بإرادة مولاه . كذلك فإن من كان صادقاً فى بدايته ووسيلته وغايته كان محفوظاً — من قِبَل الحق — فى كل كلمة ينطق بها أو كل حركة تصدر عنه ، فإذا نطق نطق بالله ، وإذا تحرّك تحرّك بالله . ومثل هذا العبد لا يُنتظر منه — وهو فى يد الله على هذا النحو — أن يكون غريبَ الأقوال أو غريبَ الأفعال . فالصدق هو عمدة الأمر فى هذا السبيل — كما يرى هذا الإمام الجليل .

ثالثاً : ننتقل بعد ذلك إلى العامل الثالث فى أهمية إخراج هذا الكتاب ، وهو فى هذه المرة يعود إلى النسخة أو النسختين اللتين نعتمد عليهما فى التحقيق .

النسخ الكاملة من « اللطائف » نادرة فهى حسبما تقول تذكرة النوادر لا تزيد على خمس إحداها فى خزانة بانكى پور مكتوبة فى القرن التاسع ، والثانية فى المكتبة الحبيبية تاريخ كتابتها عام ٨٤٤ وهى ناقصة من أولها ، والثالثة فى الخزانة الآصفية بخط قديم جداً ، والرابعة فى مكتبة الجامعة العثمانية بحيدر آباد مكتوبة بخطوط مختلفة سنة ٧٢٦ والخامسة فى مكتبة محمد باشا باسطنبول .

غير أننا نعتقد أن هناك عدداً أكبر من النسخ يزيد عما ذكرت التذكرة وأنها منبثة فى أنحاء متفرقة من العالم ، ونرجح أن النسخ الكاملة نادرة جداً كما يشير بروكلمان . وإنه لمن دواعى التوفيق أن يتاح لنا أن نحصل — لأول مرة — على الكتاب كاملا ، فقد وجدنا فى مدينة طشقند عاصمة جمهوريات أوزبكستان السوفيتية فى المركز الدينى لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان نسخة شبه كاملة تحت رقم ١٣٠٢ تفسير تبدأ بمقدمة بقلم القشيرى — وهى على جانب كبير من الأهمية — لأنها تكشف عن منهجه فى الدراسة ، ثم بعدها الفاتحة والبقرة و . . . . حتى سورة قريش ، ومعنى ذلك أنها تنقص فقط سور الماعون والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس . وهذه السور القصيرة موجودة فى النسخة الأخرى التى عندنا فى مصر ورقمها ٢٦٦ تفسير (أنظر فهرس الخزانة التيمورية ط تفسير ص ٢٣٠) والتى تبدأ بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) فى سورة الأنبياء وقد قمنا بنسخ هذه المخطوطة ، كما قمنا بالتقاط صورة بالميكروفيلم للنسخة الطشقندية ثم أجرينا تصويرها

وتكبيرها بحيث تسهل قراءتها وكانت النسختان المادة الأساسية التي اعتمدنا عليها أثناء إعداد الدكتوراه عند كلامنا عن القشيري المفسِّر .

النسختان إذاً تتكاملان ، ويصبح هذا السفر النفيس كاملا ، ويقع فى نحو ألف ومائتين صفحة ، اخترنا أن نقسمها إلى أربعة أجزاء تصدر متلاحقة فى مدى عام أو عامين حسبما تساعدنا الظروف ويرزقنا الله العافية .

وصف عام للنسخة السوفيتية

تبلغ أوراقها ٥٩٧ ورقة ، والأرقام التى كتبها الناسخ مطموسة فى كثير من الأحيان ولذا حرصنا عند تكبير الميكروفيلم والتصوير والطبع أن نرقمها نحن من خلف حتى لا تضطرب الأمور عند القراءة والدراسة .

وعلى الورقة الأولى توجد تعليقة مكتبة الإدارة الدينية هكذا :

تفسير

أبو القاسم القشيري

200 = ص ا

1302 = II

٣٥

أما الورقة الثانية فيبدو أنها كانت خالية فملأها أحد القراء بأحاديث وشواهد شعرية وكتابة باللغة الفارسية .

ثم تبدأ مقدمة الكتاب بقلم القشيري منذ الورقة الثالثة .

وقد وقع خطأ فى ترقيم الصفحات ، فبينما نجد الحديث متصلاً غير منقطع بعد الورقة ٢١٤ نجد رقم الورقة التالية هو ٢٢٥ بدلا من ٢١٥ ، وهناك خطأ آخر ربما حدث قبل تغليف الكتاب : فالأوراق من ٣٩٤ إلى ٤٠١ كلها موجودة عقب الورقة ٤٣١ دون أن يحدث خلل أو سقوط ، ومعنى هذا أن الكتاب رغم هذا — كاملٌ لم يضعْ منه شيء .

كذلك يقع تفسير أواخر طه وأوائل الأنبياء ـ خطأ ـ ضمن تفسير الفرقان . وقد صححنا هذا الوضع .

ونظراً لعدم اكتمال النسخة من آخرها — كما قلنا من قبل — فلقد كنا نخشى أن يغيب عنّا التذييل الذى يذكر فيه الناسخ اسم وتاريخ انتهائه من عمله كما جرت العادة ، ولكن لحسن الحظ وجدناه قد قسّم الكتاب قسمين كبيرين ينتهى القسم الأول بنهاية تفسير سورة الكهف ورقة ٣٧٨ ، وعندها كتب هذه العبارة باللغة الفارسية المختلفة بالعربية :

(تمّ بعون الله وحسن توفيقه نصف أول إز تفسير محقق إمام أبو قاسم القشيرى رحمة الله عليه بتاريخ شهر شوال سنة ١٢٢٤) .

ومن هذه العبارة يتضح أن الناسخ غير عربى ، وأنه ربما كان فارسياً أو أفغانياً أو أوزبكياً أو أذربيجانياً ، فكثرة من سكان أفغانستان وأزبكستان وأذربيجان يعتبرون الفارسية لغة اتصالهم بالعلوم الإسلامية حتى اليوم .

وقد نجم عن كون الناسخ فارسياً جنساً أو لغةً أن كتابته ومراعاته للإملاء لم تكونا جيدتين ، وكان علينا أن نقرأ الكتاب قراءة متفحصة لنحاول أن نحدد الطريقة التى اتبعها ، لأنها — بما فيها من خطأ أحياناً أو خروج على المألوف فى الرسم أحياناً أخرى — هى التى جرى عليها عند نقله من النسخة الأخرى التى يحتمل أنها تجرى على هذا النحو ، وربما كان الناسخ ينقل على نحو يكون مفهوماً لديه ، وميسور القراءة له وحده .

وهو لايهتم بضبط الكلمات ، ولا بترقيم العبارات فليس هناك ضبط أو فاصلة أو علامات استفهام أو أقواس أو علامات تعجب أو نحو ذلك . وقد وقع الناسخ فى أخطاء عديدة أثناء النسخ ، وربّما كان مسئولاً عن ذلك أو يحتمل أن النسخة التى نقل عنها بهذا الوصف .

وهامش النسخة وبخاصة فى القسم الأول من الكتاب حافلة بالتعليقات ، بعضها مكتوب بالفارسية قصد منها شرح المفردات وترجمتها .

وهناك عناوين جزئية مكتوبة باللغة العربية بخط حسن لتشير إلى موضوعات متنوعة ربما قصد بعض القراء إلى أن يجمعها ليستفيد منها ، وليحدد موقف المصنّف إزاءها مثل (الروح — حقوق الوالدين — الدعاء — النّفْس . . . إلخ) .

وعندما كانت تسقط بعض الكلمات أو العبارات من الناسخ أثناء النقل كان يستدرك

فيضع علامة مميزة على آخر كلة فى المتن بدأ بعدها السقوط ويضع العلامة نفسها فى الهامش فوق الكلمة أو العبارة الساقطة ، فإذا تكرر السقوط فى الصفحة الواحدة ميّز كل موضع وكل مستدرك بعلامة مباينة . كذلك فإنه كان يضع علامة خاصة عندما يعيد كتابة كلة أو عبارة أو سطر بدون داعٍ حتى يلفت نظر القارىء إلى ما وقع فيه من سهو .

ولم يحدث أن وضع الناسخ ترجمة فارسية لكلمة داخل المتن بل كان يكتب الترجمة أسفل نظيرها ، اللهم إلا فى حالة واحدة داخل شاهد شعرى :

أنكه شاد شود در عطا دادن

ومعناها : أصبح حينئذ مسروراً بالعطاء .

ونستبعد أن القشيرى يفعل ذلك ، فعلى الرغم من إتقانه للغة الفارسية إلا أنه حرص فيما نعرف له من مصنفات أن يكتب بالعربية خالصة .

ويبدو أن النسخة أتيح لها أن تراجَع ذات مرة ، فهناك تصحيحات مختلفة فى رسم الكتابة موجودة فى الهامش فى أماكن مقابلة لموضع التصحيح فى المتن . ومن أمثلة ذلك ما جاء فى الورقة ٣٥٠ أول سورة الإسراء (وتوحّد بعلو قمونه) تصحح فى المراجعة (وتوحّد بعلو نعوته) .

وفى الورقة ٣٦١ (لبلّاء أو شدة يقاليها) تصحح فى الهامش (لبلاء أوشدة يقاسيها) .

وفى الورقة ٣٧٢ جاء فى سياق وصف الدنيا (نعمها مشوقة بنقمتها تصحح فى المراجعة (نعمها مشوبة بنقمها) .

وقد كنا نحكِّم الدقة عند الاستفادة من هذه المراجعة لأننا نفترض أنها قد تكون نوعاً من الاجتهاد الشخصى وليست تصويباً على نسخه أفضل .

بقى شىء هام جداً ، وهو توضيح موقفنا من أخطاء الناسخ ، ويمكن أن نقول إننا اتخذنا منها ثلاثة مواقف .

(١) موقفاً نجد فيه الخطأ مؤكداً ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلة أو حرف أو تزيد كلة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

(ب) موقفاً فيه الخطأ شبه مؤكد وعند ذلك نكتب فى المتن ما نراه صواباً دون أن نترك الأمر على عواهنه بل نثبت فى الهامش ما جاء فى النسخة ، موضحين أسباب رفضنا لما كتبه الناسخ حتى نضع أمام القارىء صورة أمينة لما نقوم به من عمل ، وكان المفروض أن نكتب كل ما كتب الناسخ فى المتن وأن نصوّب ما نراه فى الهامش ولكن هذه الأخطاء كثيرة جداً بحيث تعوّق القراءة ، وتشق على الدارس .

(حـ) موقفاً فيه خطأ الناسخ محتمل ، وعند ذلك ننقل عن الناسخ ما كتب فى المتن ، و نشير إلى موقفنا إزاءه فى الهامش قائلين (ونرجح كذا ... أو لا نستبعد أنها فى الأصل كذا) تاركين الرأى للقارىء والدارس فى أن يختارا ما يريانه أقرب إلى الصواب .

أمّا المشتبهات فنضع مكانها نقطاً بين أقواس و نشير إليها فى الهامش ، وليس لنا فيها حيلة إلا إذا ظهرت لنا نسخة من الكتاب أكثر وضوحاً .

وإذا تطلب السياق كلة أو حرفاً ليتماسك ويتضح وضعناها من عندنا بين قوسين مشيرين إليها فى الهامش .

ويجب ملاحظة أننا لا نقحم أنفسنا فى تكملة أو ترجيح إلا بناء على معرفة بأسلوب القشيرى التى ترجع معاشرتنا له إلى سنوات تزيد على العشر ، كذلك كثيراً ما نرجع إلى مصنفاته الأخرى لنتبيّن رأيه فى موضع مناظر ومع كل ذلك فإننا دائماً نضع الأمر بين يدى القارىء لنترك له أن يشاركنا ، وله أن يقتنع بما نقول أو يتقبل ما نقلناه عن الناسخ بحذافيره حسبما يحلو له ، وله أن يرفض .

ومع أن الهوامش لا تخلو من تعليقات وشروح وتخريجات للحديث الشريف إلا أننا نشعر أنها مقتضبة وغير كافية ، لحرصنا على تزويد الناس بالمتن كان رائدنا الأول فى هذه المرحلة ، على أننا نَعِد — إن أعاننا الله — أن نتم هذا العمل بشروح أكثر بسطة ، فليس «اللطائف» بأقل حاجة إلى الشروح من « الرسالة » التى حظيت باهتمام الدارسين والباحثين طوال أجيال متعاقبة .

النسخة المصرية

تبدأ هذه النسخة كما قلنا من قبل بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) حتى نهاية الكتاب ، وترجع أهمية هذه النسخة إلى أنها أولا أكملت ما ينقص النسخة التوفيقية من قصار السور ، كما أنها ساعدت — نظراً لوضوح كتابتها أكثر من زميلتها — على التقليل من المشتبهات ، وتتجلى أهمية ذلك فى المجلد الثانى .

ولسنا ندرى شيئاً عن الناسخ الذى اضطلع بها ولا عن تاريخ نسخها نظراً لأنها ناقصة من بدايتها كما أن الناسخ لم يترك شيئاً عنه فى نهايتها ، ونرجح أنها أحدث عهداً من النسخة السابقة اعتماداً على رسم الكتابة وقواعد الإملاء .

منهج القشيرى فى تأليف الكتاب وأهميته

صدّر القشيرى كتابه بمقدمة مفيدة أوضحت خطته فى تناول الأسلوب القرآنى ، وهذه المقدمة لا تلقى ضوءاً على الكتاب وحده إنما تقف بنا على المقصود بالتفسير الإشارى للقرآن ، وسائله وغاياته .

أطلق القشيرى على كتابه اسم « لطائف الإشارات » وإذاً فالتسمية التى زعمها صاحب كتاب (تاريخ أدبيات درايران) جـ ٢ ص ٢٥٧ ط ثالثة سنة ١٣٣٩ غير صحيحة حيث يقول : « لطائف الإشارات فى حقائق العبارات » .

ومن المقدمة نفهم أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ — مفردة أو مركبة — دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها القاموسية ، وإنما يُنظَر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدق على الفهم العادى ، وأهل التجريد وحدهم هم الذين يتاح لهم — بفضل من الله — العلم الذى يكشفون به عن هذا الجوهر .

وهناك رباط وثيق بين هذا العلم وبين العمل ؛ إذ لا يحظى به إلا من جرّد قلبه من كل سانحة ، وصفّى نفسه من كل كدورة ، وتهيأ بكل الهمة لهذه المهمة الجليلة : دراسة كلام الحق جلّ ذكره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفى ذلك يقول القشيرى فى مقدمته : « أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفىّ رموزه ، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق — سبحانه وتعالى — يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه ناطقون ، وعن لطائفه مخبرون ، وإليه يشيرون ، وعنــه يفصحون ، والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون » .

ويتضح — بادئ ذى بدء — أنّ هذا اللون من الدراسة يفترق عن سائر ألوان الفكر الإسلامى فى أمور كثيرة ، لعلّ أهمها عنصر الاصطفاء من قِبل الله ، فليس يُمكن لغير من اختصهم الله بفضله أن يخوضوا فيه . فأنت تستطيع أن تكون متكلماً أو فيلسوفاً أو نحوياً أو أديباً إذا توَفَّرت لذلك ، وكان لديك استعداد ملائم ، وخصصته بعنايتك ، أمَّا أن تكون مستنبطاً للإشارة من العبارة فهذه خصوصية فريدة لابدّ أن يسبقها اجتباء إلهى . كذلك يمكنك أن تكون عالماً فى أى فرع من فروع المعرفة دون أن يصحب ذلك عمل ، أمَّا أن تقبل على القرآن الكريم لتستشف الجواهر من وراء الظواهر فهذه مسألة ينبغى أن تقترن بجهود مضنية فى تصفية النفس والقلب من كل العلائق ، وتخليتهما عن كل الشواغل الدنية ، وتحليتهما بكل الأوصاف السنيّة .

وربما كانت هذه الشروط المتصلة بالاجتباء المسبوق ، والعمل المقترن بالعلم من أسباب ندرة ما وصَلَنَا من هذا اللون من التفسير ، كما أنها قد تكون أسباب خروج بعض ما يحشر فى نطاقه — زوراً أو خطأ — عن التفسير الإشارى السديد .

فرق آخر يفرق هذا اللون من التفسير عن غيره أنه لا يعتمد اعتماداً كلياً أو مسرفاً على العقل ، إنما هو يعنى بالأمور العقلية بالقَدْر الذى يُعْنَى به الصوفية بالعقل ، ونَعْنِي به أن الذهن آلة لتصحيح الإيمان فى مراحل البداية ، أمّا فيما فوق ذلك وفيما هو حيث الخطو نحو المعارف العليا فهناك ملكات أخرى يناط بها حَمْل هذا العبء ، وهى فى مذهب القشيرى تتدرج صعوداً من القلب إلى الروح إلى السر ثم إلى سر السر أو عين السر . معنى هذا أن استنباط الإشارات اللطيفة من النص القرآنى ليس عمليةً عقلية صرفة إلا فى الحدود التى تضمن عدم

افتيات الإشارة على العبارة ، فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربى سواء من حيث اللغة أو النحو أو الاشتقاق أو الفنون الأدبية ، ولا تخرج بها عن الدلالات التى توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقه ، فكأن الإشارة ليست انبعاثاً تلقائياً محضاً ولكنها مقيدة — منذ البداية — بالكثير من العلوم العقلية والنقلية فما أشبه موقف اللفظة القرآنية فى هذا المجال بموقف من يتهيأ لارتياد الطريق الصوفى فكلاهما يتعرّى عن ظاهره ، وكلاهما يخضع لما تتطلبه المعارف العقلية والنقلية من شرائط البداية ، وكلاهما يصبح صافياً رائقاً يشف درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وارتقى القصود . . فاللفظة القرآنية فيها حياة وفيها نمو ، وفيها عوالم مضيئة متألقة تشبه تلك العوالم التى يتدرج فيها العابد الزاهد المريد العارف المحب .

قد يقال وأى فرق إذاً بين التفسير الإشارى وغيره من التفاسير مادام يعنى بالأمور العقلية والنقلية ؟ والجواب على ذلك أنه لا يعنى بهذه الأمور لذاتها ، ولا يوقف نفسه داخل أسوارها ، ولا يقطع العمر فى حزازاتها وخلافاتها ، إنما هى وسيلة فى الابتداء يلجأ إليها المفسر بمقدار ما يسعفه حظه منها لكى يفض الأغلفة الظاهرية . وهذه العناية إن التزمت بذلك صارت وسيلة من وسائل إقناعنا بأن التفسير الإشارى ليس عشوائياً يخب فيه كل من هبّ ودبّ ولكنه خاضع لنواميس وقواعد .

ونستطيع بعد ذلك أن نميِّز بين تفسير القشيرى فى « لطائفه » وبين أولئك الذين ننسب تفاسيرهم إلى التصوف وأهله ، أولئك الذين أسرفوا حين حمّلوا النص القرآنى فوق مايحتمل ، وبدلاً من أن يَخْضَعُوا للنص القرآنى أخضعوا النصّ القرآنىّ لنصرة مذاهبهم ، وساروا فى الدروب العقلية حتى جمحوا ، وابتعدوا عن الخط الأصيل حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس فى مجالس الفلسفة والكلام لا فى مجالس الرياضات والمجاهدات والأحوال . أمّا عند القشيرى فليس هناك مذهب عقلى خبيء ، ولا عقيدة باطنية مستورة ، كلُّ ما عنده من قصد أن يتمّ لقاء كاملٌ بين الشريعة والحقيقة فى ظلال كلمات الله — جل ذكره ، لأنه إذا لم يتم هذا اللقاء فى كنف كلام الله فأين يمكن أن يتم ؟!

وهنا تلتقى هذه المحاولة التى بذلها فى « اللطائف » مع المحاولة التى بذلها فى « الرسالة »

فهو منذ الصفحة الأولى فى « رسالته » يحاول أن يُعرِّف بأن عقيدة الشيوخ « الذين بهم اقتداء » عقيدة سليمة لا تخرج في قليل أو كثير عن عقيدة التوحيد الرائقة الصافية ، ثم يسير فى تراجم الشيوخ ليختار لك من أقوالهم وأخبارهم وأفعالهم ما يؤيد ذلك ، ثم يبوِّب رسالته إلى التوبة والزهد والتوكل والرضا والمحبة . . . الخ . ولا ينثنى عند استفتاح كل باب عن ذكر آيات من كتاب الله الكريم بعدها أحاديث وأخبار عن الرسول صلوات الله عليه . . لماذا كل ذلك ؟ لكى يثبت أن هناك لقاء بين الشريعة والحقيقة ، وأنهما وجهان لشىء واحد .. تلك هى الغاية القصوى التى يطمح إليها هذا الإمام الجليل ، والتى من أجلها نذر عمره ، وخصص جهده ، ولم يضن عليها بشىء في استطاعته ، ولم يفارقه الطموح إليها فى مصنَّف من مصنفاته . . . وما أعظمها وما أشرفها من غاية !

فإذا كنَّا أخرجنا من نطاق التفسير الإشارى هذه التفاسير المنسوبة لبعض المنتسبين للتصوف فأولى أن نخرج من هذه التأويلات الاعتزالية والشيعية والبدعية والإلحادية وغيرها مما تعتمد فى مباحثها على أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، ذلك لأن قضية الظاهر والباطن استغلت استغلالاً سيئاً لخدمة الكثير من العقائد الهدّامة ، وارتكبت فى حق الظاهر القرآنى جرائم خطيرة حين أريد له أن يؤول لنصرة الأغراض المريضة والدعوات الجامحة ، وفى ذلك يقول التفتازانى فى شرح العقائد النسفية : « سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معانٍ باطنة لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية » ، ويستدرك التفتازانى قائلاً : « وأمَّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان » (شرح العقائد النسفية ط الحلبى سنة ١٣٢ هـ) .

والذى نحمده للقشيرى وينبغى أن نشيد به فى هذا التقديم أنه حرص أشد الحرص على النص القرآنى ، وأنه التزم بالنظر إليه نظرة اعتبار وتقديس ، وكان عمله أشبه بمن يقبس قطفات من الضوء من مشكاة كبيرة ينير بها الطريق أمام الزهاد والعارفين ، دون أن يتورط فى تعسّف أو ينزلق فى درب من دروب الشطط ، والسبب الهام الذى يعود إليه هذا المنهج

أنه سنيّ حريص على سنيته بقدر ما هو صوفى حريص على صوفيته ، فكان عليه أن يرضى أوساط أهل السنة فى الوقت الذى كان عليه أن ينفع الصوفية ، وأن يوضح لكلا الطرفين أن الأصول والفروع فى الحالين مستمدة من كتاب الله الكريم .

ولقد أعان القشيرى فى عمله أنه صنَّف قبل « اللطائف » كتاباً كاملاً فى تفسير القرآن على نحو تقليدى هو « التيسير فى التفسير » — الذى حصلنا على مصورة للجزء الخامس منه من أكاديمية العلوم السوفيتية — ونجده فى « التيسير » يعنى أشد العناية باللغة والاشتقاق والنحو وأسباب النزول والأخبار والقصص . وقد صنَّفه قبل أن يلتقى بشيخه الدقاق أى قبل أن يسلك المسلك الصوفى ، فأعانه ذلك على أن يفقه العبارة من معظم زواياها المتصلة بالظاهر ، حتى إذا بدأ يكتب « اللطائف » كان طريقه إلى الإشارة وإلى فقه الباطن ممهداً ، ومناله ميسوراً ، وآفاقه مُفَتَّحة .

* * *

سار القشيرى فى « اللطائف » على خطة واضحة محددة التزم بها من أول الكتاب إلى آخره ، فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة ، وأحياناً حرفاً حرفاً ، والبسملة تتكرر بلفظها فى مفتتح كل سورة ، ومع ذلك فإننا نجده يلجأ إلى تفسير كل بسملة على نحو ملفت للنظر ؛ إذ هى تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه ، ويزداد إعجابنا بالقشيرى كلما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلها ، فالله والرحمن والرحيم لها دلالات خاصة فى سورة القارعة ، ولها دلالات أخرى فى سورة النساء ولها دلالات خاصة فى الأنفال وهكذا . . .

ولستنتج من ذلك عدَّة نتائج :

أولا : أنه يعتبر البسملة قرآنا ؛ وليست كما يقول البعض — شيئاً يُستفتَح به للتبرك ، شأن ما نصنع فى بداية أقوالنا وأفعالنا (انظر « المغنى » للقاضى عبدالجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ جـ ١١ ط وزارة الثقافة (تراثنا) ص ١٦١) .

ثانياً : أنه ما دام يعتبر البسملة قرآنا ، وما دام يجد لها مقاصد متجددة ، فكأنه لا يؤمن بفكرة التكرار فى القرآن ، وفى ذلك يقول فى الورقة الثالثة من

اللطائف : « فلمَّا أعاد الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الآية ـ أعنى بسم الله الرحمن الرحيم ـ فى كل سورة ، وثبت أنها منها أردنا أن نذكر فى كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة وإشارات غير معادة » .

ثالثاً : أن لدى القشيرى قدرة غير عادية ونَفَساً طويلاً عند استبطان الظاهر ، لأننا نجده أمام أربع كلمات تتكرر بلفظها ومعناها من بداية القرآن إلى نهايته ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه سار على هذه السُّنَّة فى « التيسير » ازداد إعجابنا به وعجبنا له .

ومن الخير أن نضرب هنا مثلين لما صنع فى بسملة « اللطائف » لنستوضح مقاصده من هذا الاتجاه .

يقول فى بسملة سورة « الحجر » : « سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزِيدَ فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، لِيُعْلَمَ أنَّ الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلا يُقْبَلُ من قَبِلَ لاستحقاق علة ، ولا ردَّ مَنْ ردَّ لاستيجاب (= لاستحقاق) علة . فإنْ قيل العلة فى إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال فى كتابتها أُشْكِلَ بأن الباء فى بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها بسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال فيها موجود . فلم يبقَ إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويضع من يشاء » .

ويتضح من هذا أن استنباط الإشارة ليس — كما قلنا من قبل — مسألة عشوائية إنما هو خاضع لقواعد وأصول ، وإلى تفنيد لمختلف الآراء ، ومحاولة للإقناع .

وليس هذا فقط . . بل إنك لو تعمقت داخل السورة لأدهشك — كما أدهشنى — أن هناك صلة وثيقة محكمة بين هذا الذى فسرت به البسملة وبين كلام فى داخل السورة عن رفع الخلق بلا علة ، وخفضهم بلا علة ، وذلك كما ورد فى قصة خلق آدم ، وكيف أن الملائكة (كانوا فى حال سترهم لأنهم نظروا إلى القوالب مع أن الاعتبار بالمعانى التى يودعها ، فالملائكة استصغروا قدْر آدم وحاله وتعجبوا من الأمر لهم بالسجود فكشف لهم شظيَّة مما اختصه فسجدوا للأمر وكذا حال من ادَّعى الخيرية) أما إبليس فلم يفطن للشيئة الإلهية

العليا ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون (بعدما لاحت لهم المعرفة) وبقى هو على عناده متأبياً أن يسجد لبشر مخلوق من صلصال من حمأ مسنون (لأنه لا يعرف أن مشيئة الله تجرى على غير علة).

وفى سورة براءة — التى نعرف أنها السورة الفريدة فى القرآن الكريم التى تبدأ بدون بسملة نجد الأمر يستوقف نظر القشيرى فلا يتركه كى يمر دون استنباط إشارة ، استمع إليه يقول : « الحقُّ — سبحانه — جرَّد هذه السورة عن ذكر البسملة لِيُعْلَمَ أنه يخصُّ من يشاء وما يشاء بما يشاء ، ويفرد من يشاء بما يشاء ، لا لِصُنْعِه سبب ، ولا فى أفعاله غرض ولا أَرَب . ومَنْ قال إنه لم يذكرها لأن السورة مفتتحة بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً فى الإشارة — إلا أنه ضعيف ، وفى التحقيق كالبعيد ، لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل قوله : « الذين كفروا . . » ومثل قوله « ويل لكل همزة لمزة » وقوله : « تبت يدا أبى لهب وتب » وقوله : « قل يأيها الكافرون . . . » فهذه كلها مفاتح السور ، والبسملة مثبتة فى أوائلها ، وهى متضمنة ذكر الكفار .

وقد يقال إنها تضمنت ذكر الكفار دون ذكر صريح للبراءة ، وإن تضمنته تلويحاً وهذه البراءة هنا فى ذكر البراءة من الكفار قطعاً فلم تصدر بذلك الرحمة ، وإذا كان تجرد السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرى أن يخشى أن تجرد الصلاة عنها يمنع كمال الوصلة والاستحقاق » .

... ... وبعد أن ينتهى القشيرى من بسط مذهبه فى كل بسملة على هذا النحو الطريف الممتع يبدأ فى تفسير السورة آية آية ، ولم يتخلَّ عن آية إلا فى مواضع نادرة ، بل ربما تكون الآية طويلة نسبياً ومع ذلك لا يتركها دون إشارة حتى ولو كانت سريعة مقتضبة « على سبيل الإقلال خشية الملال » كما يقول فى مقدمته .

ولا بد أن القارئ يتوقع أن نسوق إليه موقف القشيرى من الحروف المقطعة التى تلى البسملة فى عديد من السور نظراً لما دار حول هذه الحروف من جدل كثير ، ونظراً لأنها لبعدها عن مألوف الكلام العادى أقرب ما تكون إلى الرموز وبمعنى آخر أقرب ما تكون إلى الإشارات أى أدْخَلَ فى عمل القشيرى فى « لطائف الإشارات » . وربما كان أفضل

ما يورده هنا قول القشيرى فى (الم) التى افتتحت بها سورة البقرة لأنها كانت أول حروف مقطعة يقابلها أثناء عمله . يقول : « هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله عند قوم . ولكل كتاب سر ، وسرّ الله فى القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم أنها مفاتيح أسمائه ، فالألف من اسم « الله » واللام يدل على اسم « اللطيف » ، والميم يدل على اسم « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه ، وقيل إنها أسماء السور ، وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام على اسم « جبريل » والميم تدل على اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد (ص) .

والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف فى الخط ، وسائر الحروف يتصل بها إلا أحرف يسيرة ، فلينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة لاحتياج الخلق بجملتهم إليه واستغنائه عن الجميع .

ويقال[1] يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تَقَدُّسَ الحق — سبحانه وتعالى — عن التخصص ، ذلك أن سائر الحروف لها محل من الحلق والشفة واللسان إلى غيرها من المخارج ، غير الألف فإنها هويته لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه ، فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد فى سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بلين الجانب ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه . وقد اختص كل حرف بصفة مخصوصة ، وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشىء من أضرابها من الحروف فجعل لما صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرّد عن الاتصال بالأمثال والأشكال حظى بالمرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصَلُحَ للتخاطب بالحروف المنفردة التى هى غير

---

(١) عندما يقول القشيرى « ويقال ... » فليس معنى ذلك دائماً أن يورد بعدئذ رأياً لغيره فربما — وهذا هو الغالب — أنه يقصد إلى توضيح وجهة نظره من زوايا مختلفة .

مركبة على سُنَّةِ الأحباب فى ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبى من هذه القصة ، قال شاعرهم :

قلت لها قفى قالت قاف

ولم يقل وقفتُ ستراً عن الرقيب ، ومراعاةً لقلب الحبيب ، وهكذا تكثر العبارات للعموم ، والرموز والإشارات للخصوص ؛ أَسْمَعَ موسى كلامه فى ألف موطن ، وقال نبيُّنا صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم فاختُصِرَ لى الكلام اختصاراً » وقال بعضهم :

قال لى مولاى ما هذا الدنف   قلتُ تهوانى قال : لام ألف

... ... ويمضى القشيرى بعد ذلك فيستخرج للصوفية إشارات ثمينة مما يصادفه فى الآية من حكم تشريعى يتصل بالقتال والغنيمة والأسر والكيل والميزان والدين والشهادة ونحو ذلك أو كلام فى العبادات كالصوم والصلاة والحج والزكاة أو ما يعود بالآية إلى أسباب نزولها والأخبار والقصص التى رويت من حولها ، أو ما تحتوى من مظاهر قدرة للمولى ـ جل وعلا ـ فى خلق الإنسان والكون .

وينبغى ألا ننتظر من القشيرى إسهاباً فى الأحكام الفقهية والقواعد التعبدية والأسانيد ونحو ذلك فما لهذا ألَّف كتابه ، ولا يصح للقارئ أن يتوقع منه ذلك فهناك تفاسير مخصوصة وضعت للوفاء بهذه الأمور ، إنما قصد القشيرى إلى استمداد شىء نافع للصوفية يتدعم به رأى من آرائهم أو عمل من أعمالهم ، فهذا هو مقصوده ، وتلك مراميه ، ونحن من أجل ذلك نقول بلا تحفظ إن « لطائف الإشارات » يمثل تمثيلاً صادقاً مذهب القشيرى فى التصوف أكثر مما تمثله « الرسالة » فهو يغنى عنها وهى لا تغنى عنه .

وعلينا الآن أن نسوق أمثلة قليلة توضح موقف القشيرى فى تلك الأمور حتى يعرف القارئ منذ البداية أى نوع من التفسير ذلك الذى نضعه بين يديه . ففيما يختص بالأحكام التشريعية نراه مثلاً عند الآية الكريمة « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأنَّ لله خمسه » يقول : الغنيمة ما يحصل عليه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند الجهاد والقتال . ولمَّا كان الجهاد قسمين : جهاد الظاهر مع الكفَّار وجهاد الباطن مع النفس والشيطان ، وكما أن للجهاد

الأصغر غنيمة عند الظفر كذلك للجهاد الأكبر غنيمة وهو أن يملك نفسه التي كانت في يد عدوّيه: الهوى والشيطان، وبعد أن كانت ظواهره مقراً للأعمال الذميمة وباطنه مستقرّاً للأحوال الدنيئة يصير محلُّ الهوى مسكنَ الرضا، ومقرُّ الشهواتِ والمنى محلاً لما يرد عليه من مطالبات المولى، وتصير النّفْسُ مستلبة من إصرار الشهوات، والقلبُ مختطفاً من وصف الغفلات، والروح منزوعة من أيدى العلاقات، والسرُّ مصوناً من الملاحظات. وكما أنَّ من جملة الغنيمة سهما لله وللرسول وهو الخُمس فما هو غنيمة — على لسان الإشارة — سهم خالص لله وهو مالا يكون للعبد فيه نصيب لا من كرائم العقبى ولا من ثمرات التقريب ولا من خصائص الإقبال، فيكون العبد عند ذلك محرراً عن رقّ كل نصيب، خالصاً لله بالله، يمحو ما سوى الله».

ونلفت نظر القارئ إلى ما ورد في هذا النص من ترتيب الملكات الباطنة للإنسان من أسفل إلى أعلى، وهى: النفس ثم القلب ثم الروح ثم السر، ولكل منها وظيفة ولكل وظيفة غاية، كما أن لكلٍّ منها آفات ولكن لكل علاج... والكلام فى ذلك كله موزع فى الكتاب حسب السياق الذى توحى به آيات الكتاب الكريم. والقشيرى مشكور أعظم الشكر حين التزم بهذا الترتيب، ولم يتخلَّ عنه لا فى اللطائف وحده بل فى كل ما بين أيدينا من مصنفاته، حتى صار له مذهب واضح السمات بارز القسمات فى المعراج الروحى، وتفصيل ذلك موضح فى كتابنا عن «مذهبه فى التصوف» الذى هو القسم الأول من بحثنا للدكتوراه.

ويطابق القشيرى بين ما يحدث من نسخ لبعض الأحكام وبين ما يحدث من نسخ فى السلوك الصوفى حيث يقول عند قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل...» «حكم هذه الآية كان ثابتاً فى الشرع، ولكنه نسخ بعده. والنسخ هو الإزالة، ومعنى النسخ فى سلوك المريدين أنهم فى الابتداء فرضهم القيام بالظاهر من حيث المجاهدات، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شىء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر».

أما فيما يختص بالعبادات فإننا نلحظ أن القشيرى يغتنم كل فرصة كى يوضح ضرورة التزام العبد بأدائها مهما أوغل فى الفناء عن نفسه، فليس ثمة عذر لسقوطها عنه أو إعفائه

منها ، كذلك نراه يهتم اهتماماً ملحوظاً بالحث على التغلغل فى بواطنها ، ومعرفة جواهرها ، فهى ليست رسوماً ظاهرية يؤديها البدن وحسب ولكنها ذات مقاصد بعيدة .

فاستقبال القبلة عند الصلاة له عند القشيرى إشارة : (لتكن القبلة مقصود نفسك ، وسبحانه مقصود مشهود قلبك ، لا تعلق قلبك بأحجار وآثار ، وأفرد قلبك لى) وعند قوله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله » يقول : « إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التى تجب فيه ، وعلى لسان أهل الإشارة الحج هو القصد ، فقصدٌ إلى بيت الحق وقصدٌ إلى الحق ، فالأول حج العوام والثانى حج الخواص ، وكما أن الذى يحج بنفسه يحرم ويقف ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه فإحرامه بعقد صحيح على قصد صحيح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ثم باشتماله بثوبى صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى وإطلاق خواطر المنى ، وما فى هذا المعنى ، ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع والتلبية ، وأفضل الحج الثجّ والعجّ ، فالثج صب الدم والعج رفع الصوت بالتلبية فكذلك سفك دم النفس بسكاكين مخالفتها ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاثة وحسن الالتجاء والوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عرفات وموقف القلوب الأسامى والصفات (= أسماء الله الحسنى وصفاته) ، وطواف القلوب حول مشاهد العز ، والسعى بالأسرار بين صفى كشف الجلال ولطف الجمال ، ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيار والمنى والمعارضات بكل وجه » .

ونسمع القشيرى عند : « كتب عليكم الصيام . . . » يقول : « الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السر عن الملاحظات . . . .

ونهاية الصوم إذا هجم الليل ، ولكن من أمسك عن الأغيار فصومه نهايته أن يشهد الحقَّ . والصوم لرؤية الهلال والإفطار لرؤيته كما يقول عليه السلام فالرؤية عائدة على الهلال ، وعند أهل التحقيق فالرؤية عائدة إلى الحق ، فصومهم لله حتى شهودهم ، وفطرهم لله ، وإقبالهم على الله ، والغالب عليهم الله » .

هذا عن العبادات أما عن أسباب النزول فينظر إليها القشيرى كما ينظر إلى مورد المثل ومضربه ، فالآية « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله » يقول عندها القشيرى : « نزلت حين أمر اللهُ رسولَه بقطع بعضها فقالت اليهود : أى فائدة فى هذا ؟ أمِنَ الصلاحِ قطع النخل وعقر الشجر ؟

فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم ، فأنزل الله تعالى الآية ، وأن ذلك بإذن الله ، وانقطع الكلام ؛ وفى هذا دليل على أنَّ الشريعة غير مُعَلَّلَة ، وأنه إذا جاء الأمرُ الشرعىُّ بطل طلب التعليل ، وسكتت الألسنة عن المطالبة : بِلِمَ ؟ وهكذا من قال لأستاذه وشيخه : لِمَ ؟ لم يفلح ، وكلُّ مريد يكون لأمثال هذه الخواطر فى قلبه جَوَلان لا يجىء منه شىء ، ومَنْ لم يتجرد قلبه عن طلب الاعلال ولم يباشر حسن الرضا لكل ما يجرى ، واستحسان ما يبدو من الغيب من الله — بسرِّه وقلبه — فليس من الله فى شىء » .

وفى قوله تعالى : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » يقول : « نزلت هذه الآية فى أهل رجل من اليمن ترك لهم جنة مثمرة ، وكان يتصدَّق منها للمساكين ، فلما ورثه أهله قالوا : لن نفعل فعله ، وأقسموا ألا يعطوا شيئاً ، فأهلَكَ الله جنتهم . وندموا وتابوا » وهذه حال من له بداية حسنة ، ويجد التوفيق على التوالى ، ويجتنب المعاصى ، فيعوضه الله فى الوقت نشاطاً ، وتلوح فى باطنه أحوال فإذا بَدَرَ منسوه دعوى ، وترك أدباً من آداب الخدمة تنسدُّ عليه تلك الأحوال ، ويقع فى فترة ، فإذا حصل منه بالعبادات والفرائض إخلال انقلب حاله ، ورُدَّ عن الوصال إلى البعاد ، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، وصارت صفوته قسوة ، فإن كان له بعد ذلك توبة على ماسلف ، وندامة على ما فات من أمره ، فقلما يصل إلى حاله ، ولكن لا يبعد أن ينظر إليه الحق بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك ، رعايةً لما سلف منه فى البداية من أحواله ، فإن الله تعالى رءوف بعباده » .

ومن مظاهر القدرة الإلهية فى الكون والحياة والإنسان لا يغيب عن القشيرى أن يستمد إشارات مناسبة يوجهها نحو الموضوعات الصوفية فيقول مثلاً عند « ألم نخلقكم من ماء مهين » : « مهين أى حقير ذكَّرهم أصل خلقتهم لئلا يعجبوا بأحوالهم ، فإنه لا جنس من المخلوقات والمخلوقين أشد دعوى من بنى آدم ، ومن الواجب أن يتفكر الإنسان فى أصله ،

كان نطفة وفى انتهائه إلى جيفة ، وفى وسائط حاله كنيف فى قميص ، فبالحرىّ ألا يدل ولا يفخر . . . ثم صوّره فأحسن صورته ، فهو قادر على أن يرقيك من الأحوال الخسيسة إلى المنازل الشريفة النفيسة .

والإنسان أفضل من الجان لأن الجان من نار ، والنار بالماء تنطفىء وتصبح رماداً ولا يجىء منها شىء . أمّا الطين (الإنسان) فإذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، ولذلك العدو (إبليس) انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة ، ولكن آدم عليه السلام لما افترّ جبّره ماء العناية فقال تعالى : ثم اجتباه ربه » .

« خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى « يحبهم ويحبونه » خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » خلق الإنسان من طين ولكنه يقول « اذكرونى أذكركم » خلق الإنسان من طين ولكن :

فكم أبصرت من حُسْنٍ ولكن عليك من الورى وقع اختيارى

* * *

وبعد . . . فهذه أمثلة سريعة أردنا أن نقدمها للتدليل على المواقف التى يتخذها القشيرى فى ظلال القرآن من زوايا مختلفة وفى ظروف متنوعة ، ومن مجموع هذه المواقف يتحصل مذهبه فى التصوف فضلاً عن مذهبه فى الكلام ، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه حاول أن يحل بطريق العلم الصوفى ما عجز المتكلمون عن حلّه ، فحين حلّ القلبُ محلّ العقل ليصعد ويقصد نحو الملأ الأعلى،وأصبح الحقّ مناط الأمل لم يعد هناك معنى لأى حديث فى الجبر والاختيار والحسن والقبيح والثواب والعقاب — على النحو الذى اشتجر من حوله الخلاف بين المتكلمين . الله — فى عرف هذا الصوفى وفى عرف الصوفية الخُلّص — مشهود ومحبوب لا معبود فقط ، وكلّ كلام عن جبر الحب وعذاب الحب يسمُج ويسخف ، وهل هناك أجمل من أن يتعذب الإنسان فى حبه حتى يهلك ؟ ألا ما أروعها من غاية ! وما أجدر من أن يضيع العمر بين فقد ووجد !

وما أعظم أن يكون الحقّ خلفاً لك عن كل حطام الدنيا وأن تكون مشاهدته بديلاً لك عن كل نعيم الجنان !

* * *

بقيت مسألة هامة لا أحب أن أنهى هذا التقديم دون أن أوضحها ، وهى قيمة هذا الكتاب من الناحية الأدبية .

والواقع أن المسألة أكثر شمولا وأوسع أبعاداً من أن تنصرف إلى « لطائف الإشارات » وحده أو حتى إلى أعمال القشيرى كلها ، إنها تتصل بقضية أعظم هى الطريقة التى يؤخذ بها الإنتاج الصوفى عموماً ، فما زلنا حتى الآن نكتفى بدراسة الأعمال الصوفية ضمن الدراسات الفلسفية والعقلية ، فالتصوف فى جامعاتنا يدرس فى أقسام الفلسفة بينما لا يدرس فى أقسام اللغة العربية وآدابها ، وإذا حدث شىء من ذلك فهو ينتقل إليها بطريق أساتذة الفلسفة .

وإنى لأتساءل : إلى متى يظل الحال هكذا ؟ إن الوضع مقلوب ، فالمشتغلون بالأدب أولى باحتضان التصوف ، لأن الإنتاج الصوفى — فى كثير من الأحوال — درر من المنظوم والمنثور ، والصوفية أنفسهم قوم يصرحون أن مذهبهم لا يعنى بالعقل إلا فى مراحل البداية من أجل تصحيح الإيمان ، أمّا طريقهم بعد ذلك فوثيق الصلة بالقلب والوجدان ، فهم بذلك يقتربون من أهل الفن وينأون عن أهل العقل ، هم فى حاجة إلى من يتذوق أقوالهم أكثر مما هم فى حاجة إلى من يتفكر فيها ، وتجربتهم فى الفناء تدنو من تجربة الإلهام فى الفن ، ومصطلحاتهم التى وضعوها لأنفسهم تنم عن بصر نافذ فى الأسلوب العربى والاشتقاق ، وهكذا يفرض الإنتاج الصوفى نفسه على الدراسات الأدبية ، بينما المشتغلون بهذه الدراسات لا يكادون يحركون ساكناً .

وليس بمعقول أن أقنع القارىء بجدوى دراسة « اللطائف » من الناحية الأدبية بواسطة هذه السطور القليلة ، فهذا له مكان آخر ، إنما قصدت لأثير قضية عامة قد يؤدى الأخذ بها إلى تصحيح كثير من المقاييس التى تتصل بالتصوف وبالأدب على حدّ سواء .

وفى تقديرنا أن منهج القشيرى فى استخراج الإشارة من العبارة منهج أدبى ، لأنه يعتمد على تذوق اللفظة — مفردة ومركبة — تذوقاً ينبنى على أصول من اللغة والاشتقاق والإعراب والبلاغة ، ثم إن التعبير الذى يفصح به القشيرى تعبير أدبى له خصائص الأسلوب الأدبى والصياغة الفنية ، ومعنى هذا أنه نظر للقرآن بمنظار أدبى وعبّر عن نظرته بطريقة أدبية ، وليس أدخل فى التفسير الأدبى من منهج كهذا ، حيث استكمل ناحيتين : أدب للمفسِّر وأدب للمفسَّر .

حقاً إن القرآن كتاب دين وهداية وتشريع وعلم وغير ذلك مما يمكن أن تحتج إليه المقاصد الإنسانية تلتمس فيه زاداً ينمي للمعارف، ويثرى العلوم، ويفتح مغاليق الأمور. ولكنه قبل كل ذلك معجزة فنية بهرت سامعيها أول ما بهرتهم بالبيان، والنظم، والقول، فوجدوا لذلك حلاوة، وعليه طلاوة، وهم أهل لَسَن وفصاحة، فنحن نعلم أن المعجزة تكون من جنس معجزات المخاطبين ولكنها من حيث الدرجة أعلى قَدْراً وأصعب دَرَكا وأعزُّ منالاً.

نخرج من هذا إلى أن دراسة إعجاز القرآن إن أغفلت تفسيراً كاللطائف — راعى فيه صاحبه أدبَ المفسِّر وأدب المفسَّر — إنما تغفل عن رافدٍ غنى من روافد الدراسات القرآنية.

ويمكن أن نضرب أمثلة سريعة توضح طريقة القشيرى عندما يتصدّى لبعض الجوانب فى الأسلوب القرآنى.

فمن اللفظة المفردة تنبعث إيحاءات جميلة مؤثرة تزيد للمعنى قوة وتأكيداً؛ كأن يقول عند قوله تعالى: «بل هم فى شك يلعبون»: اللعب فعل يجرى على غير ترتيب، تشبيهاً باللُّعاب الذى يسيل لا على نظام مخصوص، فوصف المنافق باللعاب تصويراً لتردده وتحيره وشكه فى عقيدته».

والتسبيح عنده مرتبط «بالسباحة فى بحار التوحيد بلا شاطئ، فبعدما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح لحازت أيديهم جواهر التفريد، نظموها فى عقود الإيمان ورصعوها فى أطواق الوصلة».

والفجر «انفجار الصبح كما يتفجَّر الماء من الصخر».

ومن القصة تنبعث إيحاءات ممتعة، فمريم حين خوطبت «وهزّى إليك بجذع النخلة»: كان ذلك الجذع يابساً أخرج الله سبحانه فى الوقت الرُّطَبُ الجنىَّ، وكان ذلك آية ودلالة على أن الذى قدر على فعل هذا قادر على خلق عيسى عليه السلام من غير أب، وقد أمرت بهز النخلة اليابسة حينما جاءتها علاقة الولد بعد أن كانت لا تتكلف السعى إذ كان زكريا يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقا، أمرت بهز النخلة وهى فى أضعف حالها زمان قرب عهدها بوضع الولد ليعلم أن العلاقة توجب المشقة والعناء، أمرت بهز النخلة اليابسة وأمكنها ذلك وهى فى حال ضعفها وفى ذلك أوضح دلالة على صدقها ...».

وإذا ضرب القرآن مثلاً بالكلب أو الذبابة أو البعوضة أو التي نقضت غزلها من بعد قوة ، فإن هذا التصوير القرآني الأخاذ له على وجدان القشيري الأديب وقع مؤثر ، يقول مثلا (. . . . وضرب المثل بالبعوضة لأنها إذا جاعت قويت وطارت ، وإذا شبعت تشققت وتلفت ، كذلك الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . « وما فوقها » أي الذباب ، وجهة الإشارة في أن للذباب وقاحة حيث يعود عند البلاغ في الذب ، والله سبحانه خلق القوة في الأسد ولكنه خلق فيه النفور من الناس ، وخلق الضعف في الذباب ، ولكنه خلق فيه الوقاحة ، وتلك حكمة الله) .

والمظاهر الكونية في القرآن مصادر إشارات لا تنتهي وهي من أقوى الوسائل التي استغلها القشيري لتوضيح حقائق العلم الصوفي فالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والسحب والأمطار . . . . كلها توحي بمعانٍ كثيرة لتوضيح الفروق الدقيقة بين الطوالع واللوامع واللوائح ، وعلم اليقين وحق اليقين ، وعلوم الإنسان العقلية والمعارف اللدنية . . . . إلى آخره .

يقول عند « كلا والقمر » : أقمار العلوم إذا أخذ هلالها في الزيادة بزيادة البراهين فإنها تزداد حتى إذا صارت إلى حد التمام وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، ثم تأخذ علوم البراهين في النقصان حين تطلع شموس المعرفة ، وكما أن القمر كلما قرب من الشمس يزداد نقصانه حتى يصير محاقا كذلك إذا ظهر سلطان العرفان تأخذ أقمار العلوم في النقصان بزيادة المعارف كالسراج في ضوء الشمس) .

وتوقف القشيري طويلاً عند المواقف النفسية وعند الاستدلالات الوجدانية في الأسلوب القرآني فكشف الكثير من أسرار الإعجاز القرآني كما أبان عن عبقريته في التذوق الفني ، وليس ذلك غريباً بالنسبة لصوفيّ ذي بصيرة كاشفة ، وشاعرٍ له حس دقيق مرهف ، وباحثٍ متعمق في أغوار النفس البشرية ، وأديبٍ يحسن التعبير عما يذوق ويجد .

نفعنا الله بعلمه وبركته ؟

دكتور ابراهيم بسيوني

نرمز للنسخة السوفيتية المصوَّرة بالحرف (ص)
ونرمز للنسخة المصرية بالحرف (م)
ونرمز للرسالة القشيرية ط الحلبي سنة ١٩٥٩ (بالرسالة)



رَبِّ يَسِّرْ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرح قلوب أوليائه بعرفانه ، وأوضح نهج الحق بلائح برهانه ، لمن أراد طريقه ، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه ، وأنزل الفرقان هدًى وتبيانا ، على صفيِّه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله — معجزة وبيانا ، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله ، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ، ورزقهم الإيمان بمُحكَمِه ومتشابهه وناسخه ، ووعده ووعيده ، وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنـ(واره) لاستبصار ما ضمنَّه من دقيق إشاراته ، وخفيِّ رموزه ، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون[1] وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحُكْمُ إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون .

قال الإمام جمال الإسلام أبو القاسم القشيرى رحمه الله : وكتابنا هذا يأتى على ذكر طرف من إشارات القرآن[2] على لسان أهل المعرفة ، إما من معانى مقولهم ، أو قضايا أصولهم ، سلكنا فيه طريق الإقلا (ل) خشية الملال ، مستمدين من الله تعالى عوائد المِنَّة ، متبرئين من الحول والمُنَّة[3] مستعصمين من الخطأ والخلل ، مستوفقين لأصوب القول والعمل ، ملتمسين أن يصلى على سيدنا محمد صلى الله عليه و (سلَّم) ، ليختم لنا بالحسنى بمنِّه وأفضاله . وتيسُّر الأخذ

---

(١) وردت فى م (مخبرون) والسياق لا يتطلبها .

(٢) ما تحته خط هو شكلة اعتمدنا فى إثباتها هنا على ما جاء فى (تذكرة النوادر) التى اقتبست بعض فقرات رجوعاً إلى نسخة أخرى .

(٣) المُنَّة بضم الميم القوة .

فى ابتداء هذا الكتاب فى شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة[1] ، وعلى الله إتمامه إن شاء الله تعالى عز وجلّ .

سورة فاتحة الكتاب

هذه السورة بدا (ية) الكتاب ، ومفاتحة الأحباب بالخطاب والكتاب منه أجلُّ النُّعمى ، وأكْرَمُ الحسنى إذ هى (. . .)[2] وابتداء وفى معناه قيل .

أفديك بل أيام دهرى كلها   تفدين أياماً (. . . . .)

سُقْياً لمعهدك الذى لو لم يكن   ما كان قلبى للصبابة معهداً[3]

ولقد كان صلى الله عليه وسلم غير مُرتقِبٍ لهذا الشأن ، وما كان هذا الحديث منه على بال ، وحينما نزل عليه جبريل صلوات الله عليه وسلامه أخذ فى الفرار ، وآثر التباعد لهذا الأمر آوى (. . .) قائلاً : دثرونى دثرونى ، زمّلونى زمّلونى ، وكان يتحنّث فى حِراء ، ويخلو هنالك (. . . .) فجأة ، وصادفته القصة بغتةً كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبى فارغاً فتمكّنا[4]

وكان صلوات الله عليه وسلم رَضِىَ بأن يقال له أجير خديجة ولكن (الحق سبحانه وتعالى أراده لأن)[5] يكون سيد الأولين والآخرين حيث قال «يس والقرآن الحكيم» (رفعه إلى) أشرف المنازل وإن لم يسم إليه بطرف التأميل سُنّةٌ منه تعالى وتقدّس (. . .) إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه ، ولذلك ما قصُّوا العَجَب من شأنه (. . .) يتيم أبى طالب

---

(١) اعتمدنا فى استكمال رقمى الآحاد والعشرات من السنة على (تذكرة النوادر) حيث سقطا فى ص . وبهذا يبطل قول صاحب كشف الظنون (المجلد الثانى ص ١٥٥١) بأن القشيرى ألف اللطائف قبل عام ٤١٠ ، ويبدو أن الأمر قد التبس على حاجى خليفة فظن تاريخ تأليف « التيسير فى التفسير » هو تاريخ تأليف « اللطائف » .

(٢) مابين الأقواس المفرطة ساقط فى ص ومن حسن الحظ أن السقوط الكثير على هذا النحو لا يتكرر بعد الورقتين الأولى والثانية من (ص) .

(٣) اعتمدنا فى تكملة البيت على هذا النحو على وروده فى (م) كاملا عند تفسير سورة الحديد .

(٤) الشطر الثانى من البيت ناقص فى (ص) ومكمل فى (م) عند تفسير آية : علم القرآن من سورة الرحمن

(٥) وبادة أضفناها ليستقيم المعنى .

من بين البرية ، ولقد كان صلوات الله عليه وسلم فى سابق (علمه) سبحانه وتعالى مُقدَّماً على الكافة من أشكاله وأضرابه ، وفى معناه قيل :

هــذا (. . .) أطهار   وكان فى نفر من السيار
آثرُ عنـدى (بالإكبار)   من أخى (ومن) جارى
وصاحب الدرهم (والدينار)   فإن صاحب الأمر مع الإكثار[1]

ولقد كان صلى الله عليه وسلم قبل النبوة حميد الشأن ، (محمود) الذكر ، ممدوح الإسم ، أميناً لكل واحد . وكانوا يسمونه محمداً الأمين ، ولكن (الكافرين) (. . .) حالته ، بدلوا اسمه ، وخرّفوا وصفه ، وهجّنوا ذكره ، فواحد كان يقول ساحر وآخر يقول (. . .) وثالث يقول كاذب ، ورابع يقول شاعر :

أشاعوا لنا فى الحى أشنع قصة   وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حربا

وهكذا صفة المُحِبِّ ، لا ينفك عن الملام ولكن كما قيل

أجد الملامة فى هواك لذيذة   حباً لذكرك فليلمنى اللُّوَّمُ[2]

وماذا عليه من قبيح قالة (من) يقول ، (والحق سبحانه يقول) : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبِّح بحمد ربك» أى استمع إلى ما يقال فيك بحسن الثناء علينا .

[فصل] وتسمى هذه السورة أيضاً أمّ الكتاب ، وأم الشىء أصله ، وإمام كل شىء مقدّمه . وهذه السورة لما تشتمل عليه من الأمر بالعبودية ، والثناء على الله بجمال الربوبية ، ثم[3] كالها من الفضائل — لا تصح الفرائض إلا بها . وقوله صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه وتعالى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » يعنى قراءة هذه السورة ، فصارت أمّ الكتاب ، وأصلاً لما تنبنى عليه من لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب .

---

(١) أضاع البياض الذى فى المصورة كثيراً من ألفاظ هذه الأبيات فحاولنا إضافة بعض الألفاظ . وإن كان وزن الشعر ما زال غير سليم .
(٢) وردت خطأ فى (س) : فليلمنى اللؤم .
(٣) لا نستبعد أن تكون فى الأصل (ثمّ) كالها ...

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الباء فى «بسم الله» حرف التضمين ؛ أي بالله ظهرت الحادثات ، وبه وجدت المخلوقات ، فما من حادث مخلوق ، وحاصل منسوق ، من عين وأثر وغبر ، وغير من حجر ومدر ، ونجم وشجر ، ورسم وطلل ، وحكم وعلل — إلا بالحق وجوده ، والحق مَلِكُه ، ومن الحق بدؤه ، وإلى الحق عوده ، فبه وَجَدَ من وَحَّد ، وبه جحد من ألحد[1] ، وبه عرف من اعترف ، وبه تخلَّف من اقترف .

وقال « بسم الله » ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم، وللفَرْقِ بين هذا وبين القَسَم عند الآخرين ، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء ، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان ، ليكون ورود قوله « الله » على قلبٍ مُنَقًّى وسرٍ مُصَفًّى . وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره)[2] بأوليائه ومن السين سره مع أصفيائه ومن الميم منته على أهل ولايته ، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سرَّه ، وبمنته عليهم حفظوا أمره ، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره . وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء ، وبالسين[3] سلامته سبحانه عن كل عيب ، وبالميم مجده سبحانه بعز وصفه ، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه ، وعند السين سناءه ، وعند الميم ملكه ، فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعنى بسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر فى كل سورة من إشارات هذه الآية[4] كلمات غير مكررة[5] ، وإشارات غير معادة ، فلذلك نستقصى القول ها هنا وبه الثقة .

---

(١) وردت فى ص (ألحد) .

(٢) سقطت فى ص وأثبتناها لأن ما بعدها يدل عليها .

(٣) وردت فى ص (بالسنين) .

(٤) من هنا ندرك أن القشيرى يعتبر البسملة قرآنا خلافاً لمن يعدونها من قبيل الاستفتاح والتبرك ، فتبدأ بها القراءة كما يفعل فى سائر الأفعال (أنظر المغنى للقاضى عبد الجبار جـ ١١ ط وزارة الثقافة سلسلة تراثنا ص ١٦١) .

(٥) من هنا ومما نعلم من مذهب القشيرى نراه لا يعتقد فى فكرة التكرار فى القرآن لأن التكرار أليق بالمخلوقين ولأسباب أخرى لا محل لها هنا .

قوله جل ذكره: ﴿الحمد لله﴾

حقيقة الحمد الثناء على المحمود، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، واللام ها هنا للجنس، ومقتضاها الاستغراق؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمَّا وصفاً وإمَّا خلقاً، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر لوفور إحسانه. والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله؛ فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْله، وحمد الخَلْق له على إنعامه وطَوْله، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو، واستيجابه لنعوت العز والسمو، فله الوجود (قدرة)[1] القديم، وله الجود الكريم، وله الثبوت الأحدى، والكون الصمدى، والبقاء الأزلى، والبهاء الأبدى، والثناء الديمومى، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطوْل، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمده، وحقه يقينه، وثبوته عينه، ودوامه بقاؤه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد فى ملكوته. تبارك الله سبحانه!! فسبحانه ما أعظم شأنه!

[فصل] عَلِمَ الحق سبحانه وتعالى شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه، وعجزَهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه حَمِد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله: «الحمد لله» فانتعشوا بعد الذِّلة، وعاشوا بعد الخمود، واستقلت أسرارهم بكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق، فنطقوا ببيان الرمز على قضية الأشكال. وقالوا:

ولوجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل

هذا خطيب الأولين والآخرين، سيد الفصحاء، وإمام البلغاء، لمَّا سمع حمده لنفسه، ومدحه سبحانه لحقِّه، علم النبي أن تقاصر اللسان أليق به فى هذه الحالة فقال: «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

داوود لو سمعت أذناه قالتَها لما ترنَّم بالألحان داوود
غنت سعاد بصوتها فتخاذلت ألحان داوود من الخجل

---

(١) هذه كلمة زائدة يمكن الاستغناء عنها، ويرجح ذلك نظم الأسلوب وسياق المعنى، أو ربما كانت (قِدَمه).

[فصل] وتتفاوت طبقات الحامدين لتباينهم فى أحوالهم ؛ فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعى صفة نفعه ودفعه ، وإزاحته وإتاحته ، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم قال جل ذكره : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، وطائفة حمدوه على مالاح لقلوبهم من عجائب لطائفه ، وأودع سرائرهم من مكنونات بره ، وكاشف أسرارهم به من خفى غيبه ، وأفرد أرواحهم به من بواده مواجده . وقوم حمدوه عند شهود ما كاشفهم به من صفات القدم ، ولم يردوا من ملاحظة العز والكرم إلى تصفح أقسام النعم ، وتأمل خصائص القِسَم ، و (فرق بين)[1] من يمدحه بعز جلاله وبين من يشكره على وجود أفضاله ، كما قال قائلهم :

وما الفقر عن أرض العشيرة ساقنا ولكننا جئنا بلقياك نسعد

وقوم حمدوه مُسْتَهْلَكين عنهم فيما استنطقوا من عبارات تحميده ، بما اصطلم أسرارهم من حقائق توحيده ، فهم به منه يعبِّرون ، ومنه إليه يشيرون ، يُجرى عليهم أحكام التصريف ، وظواهرهم[2] بنعت التفرقة مرعية ، وأسرارهم مأخوذة بحكم جمع[3] الجمع ، كما قالوا :

بيان بيان الحق أنت بيانه وكل معانى الغيب أنت لسانه

قوله جل ذكره : ﴿ ربِّ العالمين ﴾

الرب هو السيد ، والعالمون جميع المخلوقات ، واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومُنْشِيها ، ومُوجِد الرسوم والديار بما فيها .

ويدل اسم الرب أيضاً على تربية الخلق ، فهو مُربٍ نفوس العابدين بالتأييد ومربٍ قلوب الطالبين بالتسديد ، ومربٍ أرواح العارفين بالتوحيد ، وهو مربٍ الأشباح بوجود النِّعم ، ومربٍ الأرواح بشهود الكرم .

ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمور عباده من ربيت العديم أربه ؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته ، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته ، ومصلح أمور الواجدين

---

(١) وردت (وفر ...) ثم بعدها بياض فأكملناها على هذا النحو ليتم المعنى .

(٢) وردت (وظاهرهم) ولكن السياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وردت (جميع الجمع) ولكن الاصطلاح الصوفى هو جمع الجمع وهو درجة فوق الجمع وجمع الجمع هو الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوى الله (رسالة القشيرى ط سنة ١٩٥٩ ص ٣٩) .

بقديم عنايته ، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعطائه ، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقائه ، وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقائه ، قال قائلهم :

ما دام عزُّكِ مسعوداً طوالعه   فلا أبالى أعاش الناس أم فقدوا

قوله جلَّ ذكره : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾

اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة صفة أزلية وهى إرادة النعمة وهما اسمان موضوعان للمبالغة ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق .

وقيل الرحمن أشد مبالغة وأتم فى الإفادة ، وغير الحق سبحانه لا يسمى بالرحمن على الإطلاق، والرحيم ينعت به غيره ، وبرحمته عرف العبد أنه الرحمن، ولولا رحمته لما عرف أحد أنه الرحمن ، وإذا كانت الرحمة إرادة النعمة ، أو نفس النعمة كما هى (عند قوم فالنعم فى أنفسها مختلفة ، ومراتبها متفاوتة فنعمة هى)[1] نعمة الأشباح والظواهر ، ونعمة هى نعمة الأرواح والسرائر .

وعلى طريقة من فرَّق بينهما فالرحمن خاص الاسم عام المعنى ، والرحيم عام الاسم خاص المعنى ؛ فلأنه الرحمن رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم ، ولأنه الرحيم وفق المؤمنين لما به حياة سرائرهم ، فالرحمن بما روَّح ، والرحيم بما لوَّح ؛ فالترويح بالمبارِّ ، والتلويح بالأنوار : والرحمن بكشف تجلِّيه والرحيم بلطف تولِّيه ، والرحمن بما أولى من الإيمان والرحيم بما أسدى[2] من العرفان ، والرحمن بما أعطى من العرفان والرحيم بما تولَّى من الغفران ، بل الرحمن بما ينعم به من الغفران والرحيم بما يَمُنُّ به من الرضوان ، بل الرحمن بما يكرم به والرحيم بما ينعم به من الرؤية والعيان ، بل الرحمن بما يوفق ، والرحيم بما يحقق ، والتوفيق للمعاملات ، والتحقيق للمواصلات ، فالمعاملات للقاصدين ، والمواصلات للواجدين ، والرحمن بما يصنع لهم والرحيم بما يدفع عنهم ؛ فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية .

قوله جل ذكره : ﴿ مالك يوم الدين ﴾

المالك من له المُلك ، ومُلك الحق سبحانه وتعالى قدرته على الإبداع ، فالملك مبالغة من المالك وهو سبحانه الملك المالك ، وله المُلك . وكما لا إله إلا هو فلا قادر على الإبداع إلا هو ، فهو بإلهيته متوحد ، وبملكه متفرد ، ملك نفوس العابدين فصرفها فى خدمته ، وملك قلوب العارفين فشرَّفها بمعرفته ، وملك نفوس القاصدين

(١) تكملة فى الهامش استدرك بها الناسخ فأثبتناها فى موضعها .

(٢) وردت (أسرى) والأصح (أسدى) .

فتيَّمها ، وملك قلوب الواجدين فهيَّمها . ملك أشباح من عَبَدَه فلاطفها بنواله وأفضاله ، وملك أرواح مَنْ أحبهم (. . . .)[1] فكاشفها بنعت جلاله ، ووصف جماله . ملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ما شاء ووفقهم حيث شاء على ما شاء كما شاء ، ولم يَكِلْهم إليهم لحظة ، ولا ملَّكهم من أمرهم سِنةً ولا خطرة ، وكان لهم عنهم ، وأفناؤهم له منهم[2] .

[فصل] ملَكَ قلوبَ العابدين إحسانُه فطمعوا فى عطائه ، وملك قلوب الموحدين سلطانه فقنعوا ببقائه . عرَّف أربابَ التوحيد أنه مالكهم فسقط عنهم اختيارهم ، علموا أن العبد لا ملك له ، ومن لا ملك له لا حكم له ، ومن لا حكم له لا اختيار له ، فلا لهم عن طاعته إعراض ولا على حكمه اعتراض ، ولا فى اختياره معارضة ، ولا لمخالفته تعرّض ، « ويوم الدين » : يومُ الجزاء والنشر ، ويوم الحساب والحشر — الحق سبحانه وتعالى يجزى كلاً بما يريد ، فَمِنْ بين مقبولٍ يوم الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم ، ومن بين مردودٍ بحكمه سبحانه وتعالى لا بجُرْمهم . فأمَّا الأعداء فيحاسبهم ثم يعذبهم وأمَّا الأولياء فيعاتبهم ثم يقربهم :

قومٌ إذا ظفروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

معناه نعبدك ونستعين بك . والابتداء بذكر المعبود أتمُّ من الابتداء بذكر صفته — التى هى عبادته واستعانته ، وهذه الصيغة أجزل فى اللفظ ، وأعذب فى السمع . والعبادة الإتيان بغاية ما فى (بابها)[3] من الخضوع ، ويكون ذلك بموافقة الأمر ، والوقوف حيثما وقف الشرع .

والاستعانة طلب الإعانة من الحق .

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمُنَّة ، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمِنَّة ، فبالعبادة يظهر شرف العبد ، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد . فى العبادة وجود شرفه ، وبالاستعانة أمان تلفه . والعبادة ظاهرها تذلل ، وحقيقتها تعزُّز وتجمُّل :

وإذا تذللت الرقاب تقرباً مِنَّا إليك ، فعزُّها فى ذُلِّها

(١) مشتبهة فى ص ، وربما كانت (وأحبوه)

(٢) (له) هنا معناها لأجله اى أنه أفناهم من أنفسهم لأجله ليبقوا به ، وكان الأسلم أن تكون العبارة : وأفناؤهم منهم له ولكن حرص المصنف على مراعاة الانسجام بين عنهم ومنهم .

(٣) وردت (بابه)

وفى معناه :

حين أسلمتنى لذالِ ولام ألقينى فى عينِ وزاى[1]

[فصل] العبادة نزهة القاصدين[2] ، ومستروح المريدين ، ومربع الأنس للمحبين ، ومرتع البهجة للعارفين . بها قُرَّةُ أعينهم ، وفيها مسرة قلوبهم ، ومنها راحة أرواحهم . وإليه[3] أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : أرِحنا بها يا بلال » . ولقد قال مخلوق فى مخلوق :

يا قوم ثارى عند أسمائى يعرفه السامع والرائى
لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أصدق أسمائى

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه ، ونزلك بساحة جوده ، وتسليمك إلى يد حكمه ، فتقصده بأمل فسيح ، وتخطو إليه بخطو وسيع ، وتأمل فيه برجاء قوى[4] ، وتثق بكرم أزلى ، وتتكل على اختيار سابق ، وتعتصم بسبب جوده (غير ضعف)[5] .

قوله جل ذكره : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

الهداية الإرشاد ، وأصلها الإمالة ، والمهدىُّ من عرف الحق سبحانه ، وآثر رضاه ، وآمن به . والأمر فى هذه الآية مضمر ، فمنا، اهدنا بنا[6] — والمؤمنون على الهداية فى الحال — فمعنى السؤال الاستدامة والاستزادة . والصراط المستقيم الطريق الحق وهو ماعليه أهل التوحيد . ومعنى اهدنا أى مِلْ بنا إليك ، وخُذْنا لك ، وكن علينا دليلنا ، ويَسِّرْ إليك سبيلنا ، وأقم لنا همنا ، واجمع بك همومنا .

[فصل] اقطعْ أسرارنا عن شهود الأغيار ، ولوِّح فى قلوبنا طوالع الأنوار ، وأفرِدْ

---

(١) وردت و (زار) (٢) وردت (القاصرين) (٣) أى وإلى ذلك أشار

(٤) وردت (قوى) وهى غير مناسبة للمعنى .

(٥) إما أن تكون زائدة أو ينقصها حرف الجر فى فتكون (فى غير ضعف) أو تكون (غير ضعيف) (أساس البلاغة ص ٥٦٣) أى غير متكثر بالأسباب لجلب المال .

(٦) ويكون المعنى على هذا أقم فينا ما يجعلنا نهتدى به إليك ، ولكن نرجح أن يكون قد وقع خطأ من الناسخ وأن الأصل (اهدنا بك) لأن ذلك يتفق مع مذهب القشيرى وغيره من الصوفية حيث يعتبرون كل شىء يقع من العبد مرده إلى الحق سبحانه ، فلا قدرة للعبد — وحده — على معرفة الله ، ولا على الاهتداء إليه ، وتدل الدلائل فيما بعد على ذلك مثل قوله (فنجدك بك) . واما أن يكون الأصل (اهدِ بنا) أى — كما جاء فيما بعد — مِلْ بنا .

قصودنا إليك عن دَنَس الآثار ، ورقِّنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى مجمع ساحات القُرب والوصال .

[فصل] حُلْ بيننا وبين مساكنة[1] الأمثال والأشكال ، بما تلاطفنا به من وجود الوصال ، وتكاشفنا به من شهود الجلال والجمال .

[فصل] أرْشِدْنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات ، ويقع على وجه التوحيد غبار الظنون وحسبان الإعلال .

« اهدنا الصراط المستقيم » أى : أَزِلْ عنَّا ظلماتِ أحوالنا لنستضىء[2] بأنوار قُدْسِك عن التفيؤ بظلال طلبنا ، وارفع عنا ظل جهدنا لنستبصر بنجوم جودك ، فنجدك بك .

[فصل] اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه ، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها ، أو يصدنا عن الوصول تعريج فى أوطان التقليد ، أو يحول بيننا وبين الاستبصار ركون إلى معتاد من التلقين ، وتستهوينا آفة من نشو أو هوادة ، وظن أو عادة ، وكلل أو ضعف إرادة ، وطمع مالٍ أو استزادة .

[فصل] الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل ، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل . الصراط المستقيم ما شهدت بصحته دلائل التوحيد ، ونبهت عليه شواهد التحقيق . الصراط المستقيم ما دَرَجَ عليه سَلَفُ الأمة ، ونطقت بصوابه دلائل العبرة . الصراط المستقيم ما باين الحظوظَ سالكُه ، وفارق[3] الحقوقَ قاصدُه . الصراط المستقيم ما يُفْضِى بسالكه إلى ساحة التوحيد ، ويُشْهِدُ صاحبَهَ أثرَ العناية والجود ، لئلا يظنَّه موجَبُ (ببذل)[4] المجهود .

---

(١) وردت (ساكنة) والأصح بالميم فقد جاءت كذلك فى مواضع كثيرة أخرى .

(٢) وردت خطأ (لنستضىء) .

(٣) وردت (وفارن) فى ص ، والأصح أن تكون بالقاف ، فالحظوظ للعبد والحقوق للحق .

(٤) وردت (بذل) بدون باء والأقوى فى رأينا أن تكون بالباء وأن نقرأ موجب بفتح الجيم أى مستحق ، وبذلك يتضح موقف القشيرى من قضية هامة وهى ؛ هل يجب على الله أن يثيب المطيع ؟ ولا يرى القشيرى هذا الوجوب لأنه يربط كل عمل للعبد بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنسانى . وقد صدق الرسول (ص) حين قال : « ما منكم من أحد ينجيه عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

قوله جل ذكره : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾

يعنى طريق من أنعمتَ عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وهم الأولياء والأصفياء . ويقال طريق من (أفنيتهم)[1] عنهم ، وأقمتهم بك لك ، حتى لم يقفوا فى الطريق ، ولم تصدهم عنك خفايا المكر . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التعريج على استجلاب حظوظهم .

ويقال صراط من (طهرتهم)[2] عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك .

ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان ، ومغاليط[3] النفوس ومخاييل الظنون ، وحسبانات الوصول قبل خمود آثار البشر(ية) .

ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك ، والتبرى من الحول والقوة ، وشهود ماسبق لهم من السعادة فى سابق الاختيار ، والعلم بتوحيدك فيما تُمضيه من المسَار والمضار .

ويقال صراط الذين أنعمتَ عليهم بحفظ الأدب فى أوقات الخدمة ، واستشعار نعت الهيبة .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند غلبات (بواده)[4] الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم ، ولم يُخِلُّوا بشىء من أحكام الشريعة . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم تطفئ شموسُ معارفهم أنوارَ ورعهم ولم يُضيِّعُوا شيئاً من أحكام الشرع[5] .

ويقال صراط الذين أنعمتَ عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

---

(١) وردت (أقمتهم) فى س — (٢) وردت (ظهرتهم) فى س
(٣) وردت (مغاليظ) فى س — (٤) وردت (بواد)
(٥) نلاحظ أن القشيرى يلح كثيراً على التزام آداب الشريعة مهما غلبت على العبد سطوة الامحاء ، واستلبه سلطان الفناء ، ويحسن هنا أن نشير إلى اصطلاح فى مذهب القشيرى وهو الفرق الثانى وهى حالة عزيزة يرد عندها العبد إلى الصحو لكى يؤدى ما يجب عليه من الفرائض فى أوقاتها ، ويكون رجوعه لله بالله (انظر الرسالة القشيرية ص ٣٩) .

المغضوب عليهم الذين صدمتهم هواجم الخذلان[1] ، وأدركتهم مصائب الحرمان ، وركبتهم سطوة الرد ، وغلبتهم بوّاده الصد والطرد .

ويقال هم الذين لحقهم ذل الهوان ، وأصابهم[2] سوء الخسران ، فشغلوا فى الحال باجتلاب الحظوظ — وهو فى التحقيق (شقاء) ، إذ يحسبون أنهم على شىء ، وللحق فى شقائهم سر .

ويقال هم الذين أُنِسُوا بنفحات التقريب زماناً ثم أظهر الحق سبحانه فى بابهم شانا ، بُدِّلوا بالوصول بعادا ، وطمعوا فى القرب فلم يجدوا مرادا ، أولئك الذين ضلّ سعيُهم ، وخاب ظنهم .

ويقال غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق ، والتعامى عن رؤية التأييد . ولا الضالين عن شهود سابق الاختيار ، وجريان التصاريف والأقدار .

ويقال غير المغضوب عليهم بتضييعهم آداب الخدمة ، وتقصيرهم فى أداء شروط الطاعة .

ويقال غير المغضوب عليهم هم الذين تقطعوا فى مفاوز الغيبة ، وتفرّقت بهم الهموم فى أودية وجوه الحسبان .

[فصل] ويقول العبد عند قراءة هذه السورة آمين ، والتأمين سُنَّة ، ومعناه يارب افعل واستجب ، وكأنه يستدعى بهذه القالة التوفيق للأعمال ، والتحقيق للآمال ، ويحط رِجْلَه بساحات الافتقار ، ويناجى حضرة الكرم بلسان الابتهال ، ويتوسل (بتبريه)[3] عن الحول والطاقة والمُنَّة والاستطاعة إلى حضرة الجود . وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستغاثة لتحققه بصدق الاستغاثة .

السورة التى تذكر فيها البقرة . . قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم مشتق من السمو والسِّمَة ، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات ، ويسمو بهمته إلى مَحَالِّ المشاهدات . فمن عدِم سمة المعاملات على ظاهره ، وفَقَدَ

---

(١) يقول القشيرى فى الرسالة (ومنهم من تغيرهم البواده وتصرفه الهواجم ، ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا ووقتاً .. أولئك هم سادات الوقت) ص ٤٤ .

(٢) وردت (أصابهم) .

(٣) وردت (ببريته) والصواب (بتبريه) .

سُمُوُّ الهمةِ للمواصلات بسرائره لم يَجِدْ لطائف الذكر عند قالته ، ولا كرائم القرب في صفاء حالته .

[فصل] معنى الله : الذي له الإلهية ، والإلهية استحقاق نعوت الجلال . فمعنى بسم الله : باسم من تفرَّد بالقوة والقدرة . الرحمن الرحيم من توَحَّد في ابتداء الفضل والنصرة . فسماع الإلهية يُوجِبُ الهيبةَ والاصطلام ، وسماع الرحمة يوجِبُ القربة والإكرام . وكُلُّ مَنْ لاطفه الحق سبحانه عند سماع هذه الآية ردَّه بين صحو ومحو ، وبقاء وفناء ، فإذا كاشفَه بنعت الإلهية أشهده جلاله ، فحاله محو . وإذا كاشفه بنعت الرحمة أشهده جماله فحاله صحو :

أغيب إذا شَهِدْتُك ثم أحيا فكم أحيا لديك وكم أبيدُ

قوله جل ذكره : ﴿ الم ﴾

هذه الحروف المقطعة في أوائل السورة من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله — عند قوم ، ويقولون لكل كتاب سر ، وسر الله في القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم إنها مفاتح أسمائه ، فالألف من اسم « الله » ، واللام يدل على اسمه « اللطيف » ، والميم يدل على اسمه « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه .

وقيل إنها أسماء السور .

وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام تدل على اسم « جبريل » والميم تدل على اسم « محمد » صلى عليه وسلم ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

والألِف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة ، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه ، واستغنائه عن الجميع .

ويقال يتذكر العبد المخلص [1] مِنْ حالة الألف تَقَدُّسَ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص

(١) وردت في ص (المخلص) وهي خطأ من الناسخ .

بالمكان ، فإن سائر الحروف لها محل من الحلق أو الشفة[1] أو اللسان إلى غيره من المدارج[2] غير الألف فإنها هويته ، لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد فى سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه فى (مراعاة) حقه ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه .

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة ، والتميز عن الاتصال بشىء من أضرابها من الحروف ، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة التى هى غير مركبة ، على سنة الأحباب فى ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبى من القصة — قال شاعرهم :

قلت لها قفى لنا قالت . قاف
لا تحسبى أنَّا نسينا لا يخاف

ولم يقل وقفت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل: «قالت قاف» .

ويقال تكثر العبارات[3] للعموم والرموز والإشارات للخصوص ، أسْمَعَ موسى كلامَهُ فى ألف موطن ، وقال لنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم : ألِفْ . . . وقال عليه السلام : أوتيتُ جوامع الكَلِم[4] فاختُصِرَ لى الكلامُ اختصاراً » وقال بعضهم : قال لى مولاى : ماهذا الدنَف ؟
قلت : تهوانى ؟ قال : لام الف

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾

---

(١) وردت فى س (الشفق) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) معناها المخارج — كما جاء فى الهامش .
(٣) وردت فى س (العبادات) والأصح ما رآه لأن القشيرى فى مواضع كثيرة يقابل بين العبارة والإشارة
(٤) وردت فى س (القلم) وهى خطأ من الناسخ . وسيأتى تخريج الحديث فى هامش قريب .

قيل ذلك الكتاب أي هذا الكتاب ، وقيل إشارة إلى ما تقدم إنزاله من الخطاب ، وقيل ذلك الكتاب الذي وعدتُك إنزاله عليك يوم الميثاق .

لا ريب فيه ، فهذا وقت إنزاله . وقيل ذلك الكتاب الذي كتبتُ فيه الرحمةَ على نفسي لأمتك — لا شك فيه ، فتحقق بقولي .

وقيل الكتاب الذي هو سابق حكمي ، وقديم قضائي لمن حكمت له بالسعادة ، أو ختمت عليه بالشقاوة لا شك فيه .

وقيل (حكمي الذي أخبرت أن رحمتي سبقت على غضبي لا شك فيه[1]) .

وقيل إشارة إلى ما كتب في قلوب أوليائه من الإيمان والعرفان ، والمحبة والإحسان ، وإن كتاب الأحباب عزيز على الأحباب ، لا سيما عند فقد اللقاء ، وبكتاب الأحباب سلوتهم وأنسهم ، وفيه شفاؤهم وروْحهم ، وفي معناه أنشدوا :

وكُتْبُكَ حولي لا تفارق مضجعي   وفيها شفاء للذي أنا كاتم

وأنشدوا :

ورد الكتاب بما أقرَّ عيوننا   وشفى القلوب فَنِلْن غايات المنى
وتقاسم الناسُ المسرةَ بينهم   قِسَماً وكان أجلهم حَظّاً أنا[2]

قوله جل ذكره : ﴿ هُدىً للمتقين ﴾

أي بياناً وحجة ، وضياء ومحجة ، لمن وقاه الحق سبحانه وتعالى من ظلمات الجهل ، وبصَّره بأنوار العقل ، واستخلصه بحقائق الوصل . وهذا الكتاب للأولياء شفاء ، وعلى الأعداء عمًى وبلاء . المتَّقي من اتقى رؤية تقاه ، ولم يستند إلى تقواه ، ولم يَرَ نجاته إلا بفضل مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾

---

(١) ما بين القوسين تكملة استدركها الناسخ فأثبتها في هامش الصفحة .
(٢) لم يكن الناسخ يظهر اهتماماً بأبيات الشعر فوصلتنا رديئة الخط كثيرة الأخطاء فقمنا بتصحيحها بقدر الإمكان حتى تبدو ذات معنى ، وذلك استناداً إلى حالة لها أكثر ضبطاً إما في مواضع أخرى من هذا الكتاب أو من كتب القشيري الأخرى .

حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق ، وموجب الأمرين التوفيق . والتصديق بالعقل والتحقيق ببذل الجهد ، فى حفظ العهد ، ومراعاة الحد . فالمؤمنون هم الذين صدّقوا باعتقادهم ثم الذين صَدَقُوا فى اجتهادهم .

وأمّا الغيب فما يعلمه[1] العبد مما خرج عن حد الاضطرار ؛ فكل أمر دينى أدركه العبد بضرب استدلال ، ونوع فكر واستشهاد فالإيمان به غَيْبِيٌّ . فالرب سبحانه وتعالى غيب . وما أخبر الحق عنه من الحشر والنشر ، والثواب والمآب ، والحساب والعذاب — غيب .

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب ، وأن من أيّدوا ببرهان العقول آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين ، فأوْرَدَهم صدقُ الاستدلال ساحاتِ الاستبصار ، وأوصلهم صائبُ الاستشهاد إلى مراتب السكون ؛ فإيمانهم بالغيب بمزاحمة علومهم دواعى الريب . ومن كوشف بأنواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار ، فأغناهم بلوائح البيان عن كل فكر وروية ، وطلب بخواطر ذكية ، وودٌّ وردع لدواعٍ ردية ، فطلعت شموس أسرارهم فاستغنوا عن مصابيح استدلالهم ، وفى معناه أنشدوا :

لَيْلِيَ من وجهك شمس الضحا وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

وأنشدوا :

طلعت شمس من أحبّك ليلاً فاستضاءت ومالها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب[2]

ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب فى شهود الغيب فصار غيباً بغيب .

وأمّا إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها ثم الغيبة[3] عن شهودها برؤية مَنْ يُصَلَّى له[4]

---

(١) وردت (يعمله) والأرجح أن تكون (يعلمه) حتى تتلاءم مع طبيعة الغيب .

(٢) وردت (مما لها) ، (وتغيب بالليل) ، (ليت تغيب) وقد صححنا ذلك بما يتلاءم مع الوزن والمعنى

(٣) وردت (ثم النيت) وهى خطأ من الناسخ والأصح (الغيبة) كما سنجد فى الهامش التالى .

(٤) القشيرى هنا متأثر بفكرة الواسطى حينما دخل نيسابور وسأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها . فقال « ... هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها » الرسالة ص ٣٤ .

فيحفظ عليه أحكام الأمر بمـا يجرى عليه منه ، وهو عن ملاحظتها محو ، فنفوسهم مستقبلة القِبْلة ، وقلوبهم مستغرقة فى حقائق الوصلة :

أرانى إذا صَلَّيْتُ يَمَّمْتُ نحوها   بوجهى وإنْ كان المُصَلَّى ورائيا

أصلى فلا أدرى إذا ما قضيتها   أثنتين صليت الضحا أم ثمانيا؟

وإن أصحاب السوم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من الفرض ، ولـكن عن أودية الغفلة مايرجعون . أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون ولـكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون ؛ فشتَّان بين غائبٍ يحضر أحكام الشرع ولـكن عند أوطان الغفلة ، وبين غائبٍ يرجع إلى أحكام الشرع ولـكن عند حقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وممـا رزقناهم ينفقون ﴾

الرزق ما تمـكَّن الإنسان من الانتفاع به ، وعلى لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إمَّا نَفْلاً وإما فرضاً على موجب تفصيل[1] العلم . وبيان الإشارة أنهم لايدخرون عن الله سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم ؛ فينفقون نفوسهم فى آداب العبودية ، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية . فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال ، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيثُ الأحوال ، فهؤلاء يكتفى منهم عِشْرين بنصفٍ ومن المائتين بخَمس[2] ، وعلى هذا السَّنَن جميع الأموال يعتبر فيه النِّصاب . وأمَّا أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم — لأنفسهم ولحظوظهم — لحظةً قامت عليهم القيامة .

[فصل] الزاهدون أنفقوا فى طريقة متابعة هواهم ، فآثروا رضاء الله على منامهم ، والعابدون أنفقوا فى سبيل الله وسعهم وقواهم ، فلازموا سراً وعلنا نفوسهم . والمريدون أنفقوا فى سبيله ما يشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شىء من دنياهم وعقباهم . والعارفون أنفقوا فى سبيل الله ما هو سوى مولاهم فقرَّبهم الحق سبحانه وأجزاهم ، وبحكم الإفراد به لقَّاهم .

---

(١) وردت (تفضيل) ولا يرجحها السياق فالمقصود ما يفصله العلم من مقادير زكاة المال .

(٢) إشارة إلى ان زكاة الأموال مقدارها ربع العشر .

[فصل] الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عافيتهم. والفقراء أنفقوا من هممهم على مَنَابتهم[1] ويقال العبد بقلبه وببدنه وبماله ، فبإيمانهم بالغيب قاموا بقلوبهم ، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم ، وبإنفاقهم قاموا بأموالهم ، فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم ، وحين قاموا لِحَقّه بالكلية استوجبوا كمال الخصوصية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ﴾

إيمانهم بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن ، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن ، ولكنه أعاد ذكر الإيمان ها هنا على جهة التخصيص والتأكيد ، وتصديق الواسطة صلى الله عليه وسلم فى بعض ما أخبر يوجب تصديقه فى جميع ما أخبر ، فإن دلالة صِدْقه تشهد على الإطلاق دون التخصيص ، وإنما أيقنوا بالآخرة لأنهم شهدوا على الغيب فإن حارثة لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله حقا ، وكأنى بأهل الجنة يتزاورون وكأنى بأهل النار يتعاوون[2] وكأنى بعرش ربى بارزاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبْتَ فالزَمْ .

وهذا عامر بن عبد القيس يقول : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » . وحقيقة اليقين التخلص عن تردد التخمين ، والتقصى عن مجوزات الظنون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أولئك على هُدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ يعنى على بيان

---

(1) من (اناب) وعند القشيرى : التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتهما ، فكل من تاب لخوف عقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعاً فى الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر لا رغبة فى الثواب ، او رهبة من العقاب فهو صاحب اوبة (الرسالة ص ٥٠) .

(2) وردت (وكأنى بأهل النار تعاويون) ووردت فى موضع آخر من الكتاب عند تفسير الآية ٤٩ من سورة البقرة (يتعادون) . وبالرجوع إلى مصادر الحديث وجدناه على النحو التالى : « سأل النبى (ص) حارثة فقال : لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى انظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى انظر إلى اهل الجنة يتزاورون ، وإلى اهل النار فى النار كيف يتعاوون . فقال له النبى (ص) : عرفت فالزم . » .

البزاز بسند ضعيف عن انس ، والطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك ، وسنده ضعيف ايضاً

من ربهم ويقين وكشف وتحقيق ، وذلك أنه تجلَّى لقلوبهم أولاً بآياته ثم تجلَّى لها بصفاته ثم تجلى لها بحقه وذاته .

وقوم « على هدىً من ربهم » بدلائل العقول ؛ وضعوها فى موضعها فوصلوا إلى حقائق العلوم ، وقوم على بصيرة ملاطفات التقريب فبمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين ، وآخرون ظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغيب حقيقة الصمدية ، فوصلوا بحكم العرفان إلى عين الاستبصار .

« وأولئك هم المفلحون » الفلاح الظفر بالبُغية[1] ، والفوز بالطِلبة ، ولقد نال القوم البقاء فى مشهد اللقاء فظفروا بقهر الأعداء ، وهى غاثمة[2] النفوس من هواجسها ، ثم زلات القلوب من خواطرها[3] ، فوقفوا بالحق للحق بلا واسطة من عقل ، أو رجوع إلى ذكر وفكر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾

من كان فى غطاء وصفه محجوبا عن شهود حقه فالإشارة لنعته أنه سيان عنده قول من دلَّه على الحق ، وقول من أعانه على استجلاب الحظ ، بل هو إلى دواعى الغفلة أميل ، وفى الإصغاء إليها أرغب . كيف لا ؟ وهو بِكَيِّ الفرقة موسوم ، وفى سجن الغيبة محبوس ، وعن محل القربة ممنوع ، لا يحصل منهم إيمان ، لأنه ليس لهم من الحق أمان ؛ فلمَّا لم يؤمِّنوا لم يؤمِنوا . حكم سبق من الله حتم ، وقول له فصل ، وإن القدرة لا تُعارَض ، ومن زاحم الحق فى القضية[4] كبسته سطوات العزة ، وقَصَمَتْهُ بواده[5] الحكم .

ويقال إن الكافر لا يرعوى عن ضلالته لِمَا سَبَق من شقاوته ، وكذلك المربوط بأغلال نفسه محجوب عن شهود غيبه وحقه ، فهو لا يبصر رشده ، ولا يسلك قصده . ويقال إن

---

(١) وردت فى ص (بالبغتة) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) الغاغة مرعى البهائم .

(٣) يقول القشيرى فى رسالته : إن الهاجس خاص بالنفس والخاطر خاص بالقلب ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) القضية هنا معناها القضاء .

(٥) البواده ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة (الرسالة ص ٤٤) .

الذى بقى فى ظلمات رعونته سواء عنده نصح المرشدين وتسويلات المُبْطِلين ، لأن الله سبحانه وتعالى نزع عن أحواله بركاتِ الإنصاف ، فلا يدرك بسمع القبول ، ولا يُصغى إلى داعى الرشاد ، كما قيل :

وعلى النصوح نصيحتى وعلىَّ عصيانُ النصوح

ويقال من ضلَّ عن شهود المِنَّةِ عليه فى سابق القسمه توَهَّمَ أن الأمر من حركاته وسَكَنَاته فاتَّكَلَ على أعماله ، وتعامى عن شهود أفضاله .

قوله جلّ ذكره : ﴿خَتَمَ اللهُ على قلوبِهم وعلى سَمْعِهم وعلى أبصارِهم غشاوةٌ ولهم عذاب عظيم﴾

الختم على الشيء يمنع ما ليس فيه أن يدخله وما فيه أن يخرج منه ، وكذلك حَكَمَ الحقُّ سبحانه بألا يُفارقَ قلوبَ أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة ، ولا يدخلها شيء من البصيرة والهداية . على أسماع قلوبهم غطاء الخذلان ، سُدَّت تلك المسامع عن إدراك خطاب الحق من حيث الإيمان ، فوساوس الشيطان وهواجس النفوس شغلتها عن استماع خواطر الحق . وأمّا الخواص فخواطر العلوم وجولان تحقيقات المسائل فى قلوبهم شغلت قلوبهم عن ورود أسرار الحق عليهم بلا واسطة ، وإنما ذلك لخاص الخاص ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فى الأمم مُحَدَّثُون فإن يكن فى أمتى فعمر »[1] فهذا المحدَّث مخصوص من الخواص كما أن صاحب العلوم مخصوص من بين العوام . وعلى بصائر الأجانب غشاوة فلا يشهدون لا ببصر العلوم ولا ببصيرة الحقائق ، ولهم عذاب عظيم لحسبانهم أنهم على شيء ، وغفلتهم عما مُنُوا من المحنة (و . . .)[2] فى الحال والمآل[3] ، فى العاجل فُرقَته ، وفى الآجل حُرقته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾

---

(١) للحديث صورة أخرى « إن من أمتى مكلَّمين ومحدَّثين وإن عمر منهم » .

(٢) مشتبهة فى ص .

(٣) والأرجح أنها (فى الحال والمآل) حتى تنسجم مع العاجل والآجل .

ثبتوا على نفاقهم ، ودأبوا على أن يلبِّسوا على المسلمين ، فهتكَ الله أستارهم بقوله : وما هم بمؤمنين كذا قيل :

من تحلى بغير ما هو فيه فضح الامتحان ما يدَّعِيه

ولما تجردت أقوالهم عن المعانى كان وبال ما حصلوه منها أكثر من النفع الذى توهموه فيها ، لأنه تعالى قال : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » ولولا نفاقهم لم يزدد عذابهم .

ويقال لما عَدِموا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال ، فإن الله تعالى قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فكانوا يقولون نشهد إنك لرسول الله ، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق فى الحال ، وقيل :

أيها المدعى سليمى هواها لستَ منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت فى هواها كواوٍ أُلْصِقت فى الهجاء ظلما بعمرو

قوله جلّ ذكره : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾

عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه[1] إلى أنفسهم فصاروا فى التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم ، فما استهانوا إلا بأقدارهم ، وما استخَفُّوا إلا بأنفسهم ، وما ذاق وبالَ فعلهم سواهم ، وما قطعوا إلا وتينَهم . ومن كان عالماً بحقائق المعلومات فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه .

والإشارة فى هذه الآية أن من تنامى لطفه السابق وقال لى وبى ومنى وأنا يقع فى وهمه وظنه لك وبك ومنك وأنت ، وهذا التوهم أصعب العقوبات[2] لأنه يرى سراباً فيظنه شراباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾

فى قلوب المنافقين مرض الشك ، ويزيدهم الله مرضاً بتوهمهم أنهم نجوا بما لبَّسوا

---

(١) وردت فى ص (عليها) والأصح أن تكون عليه لأن الضمير يعود على الخداع وربما قصد القشيرى عودة الضمير على مفهوم ، وهو جريمة الخداع .

(٢) جاء فى رسالة القشيرى « التوحيد إسقاط الياءات فلا تقول لى وبى ومنى وإلى » ص ١٤٩

على المسلمين ، ثم لهم عذاب أليم مؤلم ، يَخلُص وجعه إليهم فى المآل . (وفى) الإشارة يحصل لمن خلط قصده بحظه ، وشاب إرادته بهواه (أن) يتقدم فى الإرادة بقَدَم ، ويتأخر بالحظوظ ومتابعة النَّفْس بأخرى ، فهو لا مريدٌ صادقٌ ولا عاقلٌ متثبت . ولو أن المنافقين أخلصوا فى عقائدهم لأَمِنوا[1] فى الآخرة من العقوبة كما أَمِنوا فى الدنيا من نحو بذل الجزية وغير ذلك مما هو صفة أهل الشرك والذمة[2] ، كذلك لو صدق المريد فى إرادته لوصل بقلبه إلى حقائق الوصلة ، ولأدركته بركات الصدق فيما رامه من الظفر بالبُغية ، ولكن حاله كما قيل :

فما ثبتنا فيثبت لنا عدل بلا حنف ولو خلصنا تخلصنا من المحن[3]

وإن من سقمت عبادته حيل بينه وبين درجات الجنات ، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القُرْب والمناجاة . وأمَّا من ركن إلى الدنيا واتَّبع الهوى فسكونُهم[4] إلى دار الغرور سقم لقلوبهم ، والزيادة فى علتهم تكون بزيادة حرصهم ؛ كلما وجدوا منها شيئاً — تَعجَّلَ لهم العقوبة عليه — يتضاعف حرصهم على مالم يجدوه .

ثم من العقوبات العاجلة لهم تشتتُ هومهم ثم تَنَغُّص عيشهم فيبغون بها عن مولاهم ، ولم يكن لهم استمتاع ولا راحة فيما آثروه من متابعة هواهم ، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه ، وفى معناه قيل :

تبدلت فتبدلنا واحسرتا لمن ابتغى عوضاً ليسلو فلم يجد[5]

والإشارة فى العذاب الأليم بما كانوا يكذبون إنما هى الحسرة يوم الكشف إذا رأوا أشكالهم الذين صدقوا كيف وصلوا ، ورأَوْا أنفسهم كيف خسروا .

---

(١) وردت (لأمنوا) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) وردت (والزمته) ، هى خطأ فى الكتابة .
(٣) أصلحنا قليلا فى البيت لكى يؤدى معنى ، لأن مافى البيت من اخطاء كتابية تفقده كل قيمة ، ونرجح أنها (حيف) لا (حنف) وإن كان الحنف معناه الميل إلا أن الحيف وهو الظلم أقرب .
(٤) ويحتمل ايضاً انها فى الأصل (فركونهم) حتى تتلاءم مع (ومن ركن ...) ، وكلاهما مقبول .
(٥) وزن البيت غير سليم وقد ورد فيه (واخسراتا) و (ليلى) ويبدو ان الناسخ قد وقع فى اخطاء أخرى عند النقل

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض
قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم
المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾

الإشارة منها : أنه إذا دعاهم واعظ فى قلوبهم من خفى خواطرهم إلى ما فيه رشدهم تتبعوا رخص التأويل ، ولبّسوا على أنفسهم ما يشهد بقساوة قلوبهم ، وحين جحدوا برهان الحق من خواطر قلوبهم نزع الله البركة من أحوالهم ، وأبدلهم تصامماً عن الحق ، وابتلاهم بالاعتراض على الطريقة[1] وسلبهم الإيمان بها .

وكما أن المرتد أشد على المسلمين عداوة كذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والعادة فهو أشد الناس إنكاراً لهذه الطريقة ، وأبعد من أهلها ، وفى المَثَل : من اخترق كُدْسه[2] تمنى أن يقع بجميع الناس ما أصابه .

وإرفاق المرتدين عن طريق الإرادة — عند الصادقين منهم — غير مقبول كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقبل زكاة ثعلبة .

ويقال كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال له فى وجهه كذبتَ ، فهم لمّا قالوا إنما نحن مصلحون ، أكذبهم الحق سبحانه فقال : « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » : إنّا نَعْلَمُهم فَنَفْضَحُهم .

قوله عز ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم
هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾

الإشارة منها أن للمنافقين لما دُعوا إلى الحق وصفوا للسلمين بالسَّفَه ، وكذلك أصحاب الغنى إذا أُمِروا بتَرْكِ الدنيا وصفوا أهل الرشْد بالكسل والعجز ، ويقولون إن الفقراء ليسوا على شىء ، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش ، وفى الحقيقة هم الفقراء وهم أصحاب المحنة ، وقعوا فى الذل مخافة الذل ، ومارسوا الهوان خشية الهوان ، شيَّدوا القصور ولكن

---

(١) يقصد القشيرى طريقة الصوفية .

(٢) الكدْس بضم الكاف وتسكين الدال : المجتمع من كل شىء كالحب المحصود والتمر والدراهم والرمل والجمع أكداس (الوسيط واللسان) .

سكنوا القبور ، زيّنوا المهد ولكن أُدرجوا اللحد ، ركضوا فى ميدان الغفلة ولكن عثروا فى أودية الحسرة ، وعن قريب سيعلمون ، ولكن حين لا ينفعهم علمهم ، ولا يغنى عنهم شىء .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تحتَكَ أم حمارُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئُ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عِشْرة الكفار وصحبة المسلمين ، فإذا برزوا للمسلمين قالوا نحن معكم ، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم ، فأرادوا الجمع بين الأمْرَيْن فَنَفَوْا عنهما . قال الله تعالى : « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ، وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك ، فالضدان لا يجتمعان ، و « المُكَاتَبُ عَبدٌ ما بَقِيَ عليه درهم » ، وإذا ادلهم الليل من هاهنا أدبر النهار من هاهنا ، ومن كان له فى كل ناحية خليط ، وفى زاوية من قلبه ربيط كان نهباً للطوارق ، ينتابه كل قوم ، وينزل فى قلبه كل (. . . .)[1] ، فقلبه أبداً خراب ، لا يهنأ بعيش ، ولا له فى التحقيق رزق من قلبه ، قال قائلهم :

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ولما قال المنافقون إنما نحن مستهزئون قال الله تعالى : « الله يستهزئُ بهم » أى يجازيهم على استهزائهم ، كذلك لما ألقى القوم أزِمَّتهم فى أيدى الشهوات استهوتهم فى أودية التفرقة ، فلم يستقر لهم قدم على مقام فتطوحوا فى متاهات الغيبة ، وكما يمد المنافقين فى طغيانهم يعمهون يطيل مدة[2] هؤلاء فى مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم أطول ما كانوا أملا ، وأسوأ ما كانوا عملا ، ذلك جزاء ما عملوا ، ووبال ما صنعوا . وتحسين أعمالهم القبيحة فى أعينهم من

---

(١) مشتبهة فى ص .

(٢) وربما كانت يطيل (مد) والسياق يتقبل كليهما .

أشد العقوبات لهم ، ورضاؤهم بما فيه من الفترة[1] أَجلُّ مصيبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ﴾

الإشارة منها أن من بقى عن الحقوق بالبقاء فى أوطان الحظوظ خسرت صفقتهم . وما ربحت تجارتهم . والذى رضى بالدنيا عن العقبى لفى خسران ظاهر .

ومن آثر الدنيا أو العقبى على الحق تعالى لأشد خسرانا .

وإذا كان المصاب[2] بفوات النعيم مغبونا فالذى مُنِيَ بالبعاد عن المناجاة وانحاز[3] بقلبه عن مولاه ، وبقى فى أَسْرِ الشهوات ، لا إلى قلبه رسول ، ولا لروحه وصول ، ولا معه مناجاة ، ولا عليه إقبال ، ولا فى سرّه شهود — فهذا هو المُصَابُ والمُمْتَحَن .

وإن من فاته وقت فقد فاته ربه ، فالأوقات لا خَلَفَ عنها ولا بَدَلَ منها ، ولقد قال بعضهم :

كنتَ السوادَ لمقلتى ... فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما
أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم
فى ظلمات لا يبصرون ﴾

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمنافقين بمن استوقد ناراً[4] فى ابتداء ليلته ثم أطفئت النيران فبقى صاحبها فى الظلمة ، كذلك المنافق ظهر عليه شىء من الموافق فى الدنيا بظاهره ثم امْتُحِنُوا فى الآخرة بأليم العقوبة ، أو لاح شىء من إقرارهم ثم بقوا فى ظلمة إنكارهم .

والإشارة من هذه الآية لمن له بداية جميلة ، يسلك طريق الإرادة ، ويتعنَّى مدة ، ويقاسى بعد الشدة شدة ، ثم يرجع إلى الدنيا قبل الوصول إلى الحقيقة ، ويعود إلى ما كان فيه من ظلمات البشرية . أورق عُودُه ثم لم يثمر ، وأزهر غصنه ثم لم يدركه ، وعجَّل كسوف الفترة على

---

(١) الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل ، ووقفة المريد شر من فترته (الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) وردت (المصايب) فى ص وهى غير ملائمة .

(٣) وردت (وأنحاز) والأرجح ما اخترنا .

(٤) وردت (نارى) والأرجح ما اخترنا .

أقار حضوره ، وردّته يد القهر بعد ما أحضره لسان اللطف ، فوطن عن القرب قلبه ، وغلّ من الطالبين نفسه ، فكان كما قيل .

حين قرّ الهوى وقلنا سُرِرْنا   وحَسِبْناً من الفراق أمِنَّا
بعث البَيْن رُسْلَهُ فى خفاء   فأبادوا من شملنا ما جمعنا

وكذلك تحصل الإشارة فى هذه الآية لمن له أدنى شىء من المعانى فيظهر الدعاوى فوق ماهو به ، فإذا انقطع عنه (. . .)[1] ماله من أحواله بقى فى ظلمة دعاواه .

وكذلك الذى يركن إلى حطام الدنيا وزخرفها ، فإذا استتبت الأحوال وساعد الأمل وارتفع المراد — برز عليه الموت من مكامن المكر فيترك الكل ويحمل الكَلَّ .

قوله جل ذكره : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يرجعون ﴾

صم عن سماع دواعى الحق بآذان قلوبهم ، بكم عن مناجاة الحق بألسنة أسرارهم ، عمى عن شهود جريان المقادير بعيون بصائرهم ، فهم لا يرجعون عن تماديهم فى تهتكهم ، ولا يرتدعون عن انهماكهم فى ضلالتهم

ويقال صم عن السماع بالحق ، بكم عن النطق بالحق ، وعمى عن مطالعة الخلق بالحق . لم يسبق لهم الحكم بالاقلاع ، ولم تساعدهم القسمة بالارتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كَصَيِّبٍ من السماء فيه ظُلُمات ورعد
وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق
حَذَرَ الموتِ والله مُحيطٌ بالكافرين ﴾

معنى قوله أو لإباحته ضرب مثلهم إمَّا بهذا وإما بذلك شبَّه القرآن بمطر ينزل من السماء ، وشبَّه مافى القرآن من الوعد والوعيد بما فى المطر من الرعد والبرق ، وشبه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد . كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعهم وعظُ الواعظين، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة ، ولو أقلعوا عمَّاهم فيه من الغفلة لسَعِدُوا ، لكنهم ركنوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة ، وأصروا على طريقتهم الفاسدة ، وتعللوا بأعذار واهية ،

---

(١) هنا كلمات زائدة وضع الناسخ عليها علامات مميزة توضح ضرورة الاستغناء عنها .

ويحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، ويسعون فى الخطر بأيمانهم[1] :

إن الكريم إذا حباك بوُدِّه ستَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا الملولُ[2] إذا أراد قطيعةً ملّ[3] الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ يكاد البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير ﴾

من تمام مثل المنافقين — كذلك أصحاب الغفلات — إذا حضروا مشاهد الوعظ ، أو جنحت[4] قلوبهم إلى الرقة ، أو داخلهم شىء من الوهلة تَقْرُبُ أحوالهم من التوبة ، وتقوى رغبتهم فى الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم ، وشاوروا إلى قرنائهم ، أشار الأهل والولد عليهم بالعَوْدِ إلى دنياهم ، وبسطوا فيهم لسان النصح ، وهَدَّدُوهم بالضعف والعجز ، فيضعف قصودُهم ، وتسقط إرادتهم ، وصاروا كما قيل :

إذا ارعوى ، عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسة

وقال : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » يعني سمع المنافقين الظاهر وأبصارهم الظاهرة ، كما أصمهم وأعماهم بالسر ، فكذلك أرباب الغفلة ، والقانعون من الإسلام بالظواهر — فالله تعالى قادر على سلبهم التوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطاعات ، كما سلبهم التحقيق فيما يستبطنونه من صفاء الحالات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الناسُ اعبدوا ربَّكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾

العبادة موافقة الأمر ، وهى استفراغ الطاقة فى مطالبات تحقيق الغيب ، ويدخل فيه التوحيد بالقلب ، والتجريد بالسر ، والتفريد بالقصد ، والخضوع بالنفس ، والاستسلام للحكم .

ويقال اعبدوه بالتجرد عن المحظورات ، والتجلد فى أداء الطاعات ، ومقابلة الواجبات

(1) جمع يمين ومعناها هنا اليد . (2) وردت (الملوك) وهى خطأ فى النسخ .
(3) وردت (ملا) وهى خطأ فى النسخ . (4) وردت فى س (جنهت) وهى خطأ فى النسخ .

بالخشوع والاستكانة ، والتجافى عن التعريج فى منازل الكسل والاستهانة .

قوله : « لعلكم تتقون » : تقريب الأمر عليهم وتسهيله ، ولقد وقفهم بهذه الكلمة — أعنى لعلّ — على حد الخوف والرجاء .

وحقيقة التقوى التحرز والوقاء (بالطاعة)[1] عن متوعّدات العقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشاً ،
والسماء بناء ، وأنزل من السماء
ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم
فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾

تعرّف إليهم بذكر ما مَنّ به عليهم من خَلْقِ السماء لهم سقفا[2] مرفوعاً ، وإنشاء الأرض لهم فرشا موضوعاً ، وإخراج النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً . ويقال أعتقهم عن مِنّة الأمثال بما أزاح لهم من العلة فيما لا بُدّ منه ، فكافيهم السماء لهم غطاء ، والأرض وطاء ، والمباحات رزقاً ، والطاعة حرفةً ، والعبادة شغلاً ، والذكر مؤنساً ، والرب وكيلاً — فلا تجعلوا لله أنداداً ، ولا تُعلّقوا قلوبكم بالأغيار فى طلب ما تحتاجون إليه ؛ فإن الحق سبحانه وتعالى مُتَوَحِّد بالإبداع ، لا مُحْدِثَ سواه ، فإذا توهمتم أن شيئاً من الحادثات من نفع أو ضرر ، أو خيرٍ أو شر يحدث من مخلوق كان ذلك — فى التحقيق شِرْكاً .

وقوله عز وجل: «وأنتم تعلمون» أن من له حاجة فى نفسه لا يَصْلُحُ أن تَرفَع حاجتك إليه . وتعلُّقُ المحتاج بالمحتاج ، واعتماد الضعيف على الضعيف يزيد فى الفقر، ولا يزيل هواجم الضُر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نَزّلنا على عبدِنا
فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا
شهداءكم من دون الله إن كنتم
صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا
فاتقوا النارَ التى وقودُها الناسُ
والحجارة أُعِدّتْ للكافرين ﴾

---

(١) هذه كلمة احتاجها السياق فأضفناها مستفيدين من أقوال القشيرى فى موقف مماثل فى الرسالة ص٥٦ (وحقيقة الاتقاء التحرز ... ...) .

(٢) وردت (شقفا) وهى خطأ فى النسخ .

لبّس على بصائر الأجانب حتى لم يشهدوا حبيبه صلوات الله عليه ، فتاهوا فى أودية الظنون لما فقدوا نور العناية ، فلم يزدد الرسول عليهم إتيانا بالآيات ، وإظهاراً من المعجزات إلا ازدادوا ريباً على ريب وشكاً على شك ، وهكذا سبيل من أعرض عن الحق سبحانه ، لا يزيده ضياء الحجج إلا عمّى عن الحقيقة ، قال الله تعالى : « وما تُغنى الآيات والنُذُر عن قوم لا يؤمنون » ، وليبلغ عليهم فى إلزام الحجة عرّفهم عجزهم عن معارضة ما آتاهم من معجزة القرآن الذى قهر الأنام من أولهم إلى آخرهم ، وقدَّر عليهم أنهم لو تظاهروا فيما بينهم ، واعتضدوا بأشكالهم ، واستفرغوا كُنْه طاقتهم واحتيالهم لم يقدروا على الإتيان بسورة مثل سورة القرآن . ثم قال فإن لم تفعلوا — وأخبر أنهم قطعاً لا يقدرون على ذلك ولا يفعلون فقال : « ولن تفعلوا » ، فكان كما قال — فانظروا لأنفسكم ، واحذروا الشِّركَ الذى يوجب لكم عقوبة النار التى من (سطوتها)[1] بحيث وقودها الناس والحجارة ، فإذا كانت تلك النار التى لا تثبت لها الحجارة مع صلابتها (   )[2] فكيف يطيقها الناس مع ضعفهم ، وحين أشرفت[3] قلوب المؤمنين على غاية الإشفاق من سماع ذكر النار تداركها بحكم التثبيت فقال : « أُعِدَّت للكافرين » ، ففى ذلك بشارة للمؤمنين . وهذه سُنَّة من الحق سبحانه : إذا خوَّف أعداءه[4] بَشَّر مع ذلك أولياءه .

وكما أنَّ كيد الكافرين يضمحل فى مقابلة معجزات الرسل عليهم السلام فكذلك دعاوى المُلْبِسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين ، وأمارةُ المُبْطِل فى دعواه رجوعُ الزجر منه إلى القلوب ، وعلامة الصادق فى معناه وقوع القَهر[5] منه على القلوب . وعزيزٌ من فصَّل وميَّز بين رجوع الزجر وبين وقوع القهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وبشِّر الذين آمنوا وعملوا
الصالحات أن لهم جناتٍ تجرى من
تحتها الأنهار ﴾ .

---

(١) وردت بالصاد وعند ذلك يكون الخطأ من الناسخ ، وربما كانت فى الأصل (صفتها) ، وقد تخيرنا (سطوتها) لأنها أقرب إلى الشكل الوارد ولتلاؤمها مع المعنى والسياق .
(٢) هنا كلمة زائدة وضع الناسخ عليها علامة مميزة .
(٣) وردت بالقاف وهى خطأ فى النسخ .
(٤) وردت هكذا (اعداويه) وهى خطأ فى النسخ .
(٥) وردت (النهم) ولكن ما جاء بعدها يثبت خطأ الناسخ ؛ فضلا عن أنها غير ذات معنى هنا .

هذه البشارة بالجنان تتضمن تعريفاً بنعمٍ مؤجلة لعموم المؤمنين على الوصف الذى يُشْرَح بلسان التفسير . ويشير إلى البشارة للخواص بنعم مُعَجَّلة مضافة إلى تلك النعم يتيحها الله لهم على التخصيص ، فتلك المؤجلة[1] جنان للثوبة وهذه جنان القُرْبَة ، وتلك رياض النزهة وهذه رياض الزُّلفة ، بل تلك حدائق الأفضال وهذه حقائق الوصال ، وتلك رفع الدرجات وهذه رَوْح المناجاة ، وتلك قضية جوده ، هذه الاشتعال بوجوده ، وتلك راحة الأبشار وهذه نزهة الأسرار ، وتلك لطف العَطاء للظواهر وهذه كشف الغِطاء عن السرائر ، وتلك لطف نواله وأفضاله وهذه كشف جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كلما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقا قالوا
هذا الذى رُزِقْنا من قبل وأُتوا به
متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها
خالدون ﴾ .

كما أن أهل الجنة تتجدد[2] عليهم النعم فى كل وقت ، فالثانى عندهم — على ما يظنون — كالأول ، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدّم — فكذلك أهل الحقائق : أحوالهم فى السرائر أبداً فى الترقى ، فإذا رُقِّىَ أحدهم عن محلِّه توهَّم أن الذى سيلقاه فى هذا النَّفَس مثل ما تقدم فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف ، كما قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحيَّرُ الألبـاب دون نزوله

قوله جل ذكره : « إن الله لا يستحى أن يضرب مَثَلا
ما بعوضة فما فوقها » .

الاستحياء من الله تعالى بمعنى التَّرْك ، فإذا وصف نفسه بأنه يستحى من شىء فمعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحى فمعناه لا يبالى بفعل ذلك .

والخَلْقُ فى التحقيق — بالإضافة إلى وجود الحق — أقلُّ من ذرةٍ من الهباء فى الهواء ،

---

(١) وقع الناسخ فى خطأ فكتبها (المعجلة) والسياق يرفضها لأن الإشارة للبعيد بتلك وللقريب بهذه .
(٢) وردت (يجدد) والسياق يرفضها ويقبل (تتجدد) وربما كانت (يجدد) أى الحق سبحانه وتعالى يجدد .

لأن هذا استهلاك محدود فى محدود . فسيَّان — فى قدرته[٢] — العرش والبعوضة ، فلا خَلْقُ العرش أشق وأعسر ، ولا خَلْق البعوضة أخف عليه وأيسر ، فإنه سبحانه مُتَقَدِّسٌ عن لحوق العُسْر واليُسْر .

فإذا كان الأمر بذلك الوصف ، فلا يستحى أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحى أن يضرب بالعرش — فما دونه — مثلا .

وقيل إن جهة ضرب المثل بالبعوضة أنها إذا جاعت فَرَّتْ[١] وطارت ، وإذا شبعت تشققت فَتَلِفَتْ كذلك (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

وقيل ما فوقها يعنى الذباب ، وجهة الإشارة فيه إلى وقاحته ، حتى إنه ليعود عند البلاغ فى الذب ، ولو كان ذلك فى الأسد لم ينجُ منه أحد من الخَلْق ، ولكنه لمَّا خَلَق القوة فى الأسد خلق فيه تنافراً من الناس ، ولمَّا خَلق الوقاحة فى الذباب خلق فيه الضعف ، تنبيهاً منه سبحانه على كمال حكمته ، ونفاذ قدرته .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمَّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأمَّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ .

فأمّا من فتحت أبصار سرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار ، ولا يزداد إلا نفاذ الاستبصار . وأمَّا الذين سكرت أبصارهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضربُ الأمثال إلا زيادة الجهل والإشكال والأشكال .

قوله جل ذكره : ﴿ يُضِلُّ به كثيراً ويَهْدِى به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين ﴾ .

هذا الكتاب لقومٍ شفاء ورحمة ، ولآخرين شقاء وفتنة . فمن تعرَّفَ إليه يوم الميثاق بأنوار العناية حين سمعوا قوله : « ألست بربكم » تذكَّروا عند ورود الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — قديمَ عهده ، وسابقَ وُدِّه فازدادوا بصيرة على بصيرة ، ومَنْ رَسَمَهُ بِذُلِّ القطيعة ، وأنطقه ذلك اليوم عن الحسبان والرهبة ما ازدادوا عند حصول الدعوة

(١) وردت (فريت) وهى خطأ فى النسخ . (٢) وردت (قدرة) .

النبوية إلا جُحداً على جُحد ، وما خفي عليهم اليوم صادق الدلالة ، إلا لِمَا تقدم لهم سابقُ الضلالة . لذلك قال الله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين » .

قوله جل ذكره : ﴿الذين ينقضون عهدالله من بعدميثاقه . ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ .

الإشارة فيه إلى حال من سلك طريق الإرادة ، ثم رجع إلى ما هو عليه أهل العادة ، قال بِتَرْكِ نفسه ثم لم يَصْدُق حين عزم الأمر ، ونزل من إشارة الحقيقة إلى رخص الشريعة[1] ، وكما أنَّ من سلك الطريق بنفسه — ما دام يبقى درهم في كيسه — فغيرُ محمودٍ رجوعُه فكذلك من قصد بقلبه — ما دام يبقى نَفَسٌ من روحه — فغير مَرْضِيٍّ رجوعُهُ :

إن الأُلى ماتوا على دين الهدى   وجدوا المنية منهلاً معلولا[2]

ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل : وصل أسباب الحق بقطع أسباب الخَلْق ، ولا يتم وصل مَالَهُ إلا بقطع ما لَكَ ، فإذا كان الأمر بالعكس كان الحال بالضد .

ومما أُمِرَ العبد بوصله : حفظه ذِمام أهل هذه الطريقة ، والإنفاق على تحصيل ذلك بصدق الهمم لا ببذل النِّعَم ، فهممهم على اتصال أسباب هذه الطريقة وانتظام أحوالها موقوفة ، وقلوبهم إلى توقع الحراسة من الله تعالى لأهلها مصروفة . وفساد هذه الطريقة في الأرض : أما مَنْ لهم حواشي أحوالهم ، وإطراق أمورهم فيتشاغلون عن إرشادِ مريدٍ بكلامهم ، وإشحاذِ قاصدٍ بهممهم ؛ وذلك مما لا يرضى به الحق سبحانه منهم .

ومِنْ نَقْضِ العهد أيضاً أن يحيد سِرُّك لحظةً عن شهوده ، ومنْ قَطْع ما أُمِرْتَ بِوَصْلِهِ

---

(١) من عناصر المذهب الصوفي عند القشيري إلحاحه الدائم على ألا يلجأ الصوفي إلى الاسترخاص ، ذلك لأن الرخصة — وإن كانت متاحة بأمر الشريعة — إلا أنها — أي الشريعة — للعموم ، وفيها يؤخذ في الاعتبار أمر المستضعفين وأصحاب الأشغال والحوائج أما « هؤلاء الطائفة فليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، فإذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى » . الرسالة ص ١٩٩ .

(٢) وردت (الهوى) وفي موضع آخر من اللطائف (و ١٦٥) وردت : (منهلا معسولا) .

أن يتخلل أوقاتك نَفَسٌ لحظِّك دون القيام بحقه ، ومِن فسادِكَ فى الأرض ساعة تجرى عليك ولم تَرَهُ فيها . ألاَ إن ذلك هو الخسران المبين ، والمحنة العظمة ، والرزية الكبرى .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجَعون ﴾ .

هذه كلة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد ، أى لا ينبغى مع ظهور الآيات أن يجنح إلى الكفر قلبُه .

ويقال تعرَّف إلى الخلق بلوائح دلالاته ، ولوامع آياته . فقال : « وكنتم أمواتاً » يعنى نطفة ، أجزاؤها متساوية ، « فأحيا كم » : بَشَراً اختصَّ بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً ، وبعضها بكونه لحما ، وبعضها بكونه شَعْراً ، وبعضها بكونه جِلْداً . . إلى غير ذلك .

« ثم يميتكم » بأن يجعلكم عظاماً ورفاتا ، « ثم يحييكم » بأن يحشركم بعدما صرتم أمواتا ، « ثم إليه تُرجعون » أى إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة .

ويقال « كنتم أمواتاً» بجهلكم عنّا ، ثم « أحيا كم » بمعرفتكم بنا ، « ثم يميتكم » عن شواهدكم ، « ثم يحييكم » به بأن يأخذكم عنكم ، « ثم إليه ترجعون » أى بحفظ أحكام الشرع بإجراء الحق[1] .

ويقال « كنتم أمواتاً » لبقاء نفوسكم فأحيا كم بفناء نفوسكم ثم يميتكم عنكم عن شهود ذلك لئلا تلاحظوه فيفسد عليكم ، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقلبكم فى قبضته سبحانه وتعالى .

ويقال يحبس عليهم الأحوال ، فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية ، كلّما قالوا هذه حياة — وبينا هم كذلك — إذ أدال عليهم فأفناهم ، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم ، فهم أبداً بين نفى وإثبات ، وبين بقاء وفناء ، وبين صحو ومحو . . كذلك جرت سنته سبحانه معهم .

---

(١) وردت (بأجزاء) وهى خطأ قطعاً .

والمقصود بإجراء الحق هنا هو ما سبق ان نوّهنا به فى هامش سابق عن حالة الفرق الثانى حيث « يرد العبد إلى الصحو عند اوقات أداء الفرائض ليجرى عليه الفرائض فى أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله . فالحق يجرى أفعاله وأحواله عليه » الرسالة ص ٣٩ .

قوله جل ذكره : ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾ .

سخَّر لهم جميع المخلوقات على معنى حصول انتفاعهم بكل شىء منها ، فعلى الأرض يستقرون وتحت السماء يسكنون ، وبالنجم يهتدون ، وبكل مخلوق بوجه آخر ينتفعون . لا بل ما من عين وأثر فكروا فيه إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به يعرفون .

ويقال مَهَّدَ لهم سبيل العرفان ، ونبَّهَهُم إلى ما خصَّهم به من الإحسان ، ثم علمهم علوَّ الهمة حيث استخلص لنفسه أعمالهم وأحوالهم فقال « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

قوله جل ذكره : ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شىء عليم﴾

فالأكوان بقدرته استوت ، لا أن الحق سبحانه بذاته — على مخلوق — استوى ، وأنَّى بذلك ! والأحدية والصمدية حقه وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فمحال ما توهموه ، إذ المكان به استوى ، لا الحق سبحانه على مكانٍ بذاته استوى .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ .

هذا ابتداء إظهار سِرِّه فى آدم وذريته . أمَرَ حتى سلَّ من كل بقعة طينة ثم أمر بأن يخمر طينه أربعين صباحاً ، وكل واحد من الملائكة يفضى[1] العَجَبَ : ما حكم هذه الطينة ؟ فلمَّا ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها فى بديع الصنعة وعجيب الحكمة ، فحين قال « إنى جاعل فى الأرض . . . » تَرَجَّمَت الظنون ، وتقسَّمت القلوب ، وتجنَّت الأقاويل ، وكان كما قيل :

وكم أبصرتُ من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختيارى

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يَقُلْ فى شأن شىء منه ما قال فى حديث آدم حيث قال : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة » ، فظاهر هذا الخطاب يشبه للمشاورة

(١) وردت فى س (يقضى) بالقاف والصواب أن تكون (يفضى) بالفاء .

لو كان من المخلوقين . والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها ، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة ، ولم يقل إنى خالق عرشاً أو جنة أو ملكاً ، وإنما قال تشريفاً وتخصيصا لآدم إنى جاعل فى الأرض خليفة .

[فصل] ولم يكن قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها » على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام ، فإن حَمْلَ الخطاب على ما يُوجِب تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون . . قال تعالى « لا يعصون الله ما أمرهم » .

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكنَّ فى قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب ، فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم : « ونحن نسبح بحمدك » . ثم إن الحق سبحانه عرَّفهم أن الفضيلة بالعلم أتمُّ من الفضيلة بالفعل ، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه ، وآدم كان أكثر علمًا وأوفره ، فظهرت فضيلته ومرتبته .

ويقال لم يقل الحق سبحانه أنتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال : « إنى أعلم مالا تعلمون » ، من غفرانى لهم .

ويقال : فى تسبيحهم إظهارُ فعلهم واشتهار خصائصهم وفضلهم[1] ، ومن غفرانه لمعاصى بنى آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته ، والحق سبحانه غنى عن طاعات كل مطيع ، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه .

ويقال إنى أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم فى محبتنا ، وذكاء سرائرهم فى حفظ عهودنا وإن تدنَّس بالعصيان ظاهرهم ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ   جاءت محاسنُه بألفِ[2] شفيع

ويقال إنى أعلم مالا تعلمون من محبتى لهم ، وأنتم تظهرون أحوالكم ، وأنا أخفى عليهم أسرارى فيهم ، وفى معناه أنشدوا :

ما حطَّكَ الواشون عن رتبة   عندى ولا ضرك مغتاب

كأنهم أثنَوْا — ولم يعلموا —   عليك عندى بالذى عابوا[3]

---

(١) نلاحظ هنا تأثر القشيرى بفكرة الملامة النيسابورية التى ظهرت فى موطنه ، والتى من أصولها عدم إظهار الفعل ، لأن فى ذلك ملاحظة واستجلاب ، ملاحظة لفعل الإنسان وهو مهما بلغ تافه حقير ، واستجلاب لرضاء الناس والاشتهار بينهم ، وكلا الأمرين — فى نظر الملامتية — شرْك خفى .

(٢) وردت (بآلف) وبها ينكسر الوزن .

(٣) وردت أخطاء كثيرة فى البيتين مثل (ضربك) ولم (يعلموا علك) .

ويقال إنى أعلم مالا تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم ، وصولة قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم ، فأنتم فى رتبة وفاقكم وفى عصمة أفعالكم ، وفى تجميل تسبيحكم ، وهم مُنْكَرُون عن شواهدهم ، متذللون بقلوبهم ، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا لذماما قويا .

ويقال أى خطر لتسبيحكم لولا فضلى ، وأى ضرر من ذنوبهم إذا كان عفوى ؟ ويقال لبِسْتُم طاعتكم ولبستهم رحمتى ، فأنتم فى صدار[1] طاعتكم وفى حُلةِ تقديسكم وتسبيحكم ، وهم فى تغمد عفوى وفى ستر رحمتى ألبستهم ثوب كرمى ، وجللتهم رداء عفوى .

ويقال: إن أسعدتكم عصمتى فلقد أدركتهم رحمتى .

وإيصال عصمتى بكم عنده وجودكم وتعلُّق رحمتى بهم فى أزلى .

ويقال : لئن كان مُحسنكم عتيقَ العصمة فإن مجرمَهم غريق الرحمة

ويقال : اتكالهم علىَّ زكَّى أحوالهم فألجأهم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يتبرأوا عن المعارف إلا بمقدار ما منَّ به الحق عليهم فقالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمْتَنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ .

عموم قوله الأسماء يقتضى الاستغراق ، واقتران قوله سبحانه بكُلّها يوجب الشمول والتحقيق ، وكما علَّمه أسماء المخلوقات كلها — على ما نطق به تفسير ابن عباس وغيره — علَّمه أسماء الحق سبحانه ، ولكن إنما أظهر لهم[2] محل تخصصه فى علمه أسماء المخلوقات وبذلك المقدار بان رجحانه عليهم ، فأما انفراده بمعرفة أسمائه — سبحانه — فذلك سِرٌّ لم يَطَّلِع عليه مَلَكٌ مُقَرَّب . ومن ليس له رتبة مساواة آدم فى معرفة أسماء المخلوقات فأى طمعٍ فى مداناته فى أسماء الحق ، ووقوفه على أسرار الغيب ؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يقتضى أن يصحَّ (به سجود)[3] الملائكة

---

(١) الصدار قميص صغير يلى الجسد ، ولاحظ مقابلة القشيرى بين الصدار للملائكة وبين الثوب والرداء للإنسان لتدرك مقاصده البعيدة .

(٢) أى للملائكة . (٣) وردت فى ص (بسجود) ونرجح أنها كما أثبتنا .

ما العلن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه ؟ ما الذى يُوجِبُ لمن أُكْرِمَ به ؟

ويقال خصوصية الملائكة بالتسبيح والتقديس وهذه طاعات تليق بالمخلوقين ، فإنّ الطاعةَ سِمَةُ العبيد ولا تتمّ بهم ، والعلم فى الجملة صفة مدحٍ يجب فى نعت الحق سبحانه واجباً لا يصحُّ لغيره ، فالذى يُكْرِمُه بما يتصف هو سبحانه (بيانه وإن كان للمساواة أتم من الكرام بما يكون مخلوقاً على جنس المخلوقات)[1] .

ويقال أكرمه فى السر بما علَّمه ثم بيَّن تخصيصه يوم الجهر وقدَّمه . ويقال قوله : « ثم عرضهم » ثم : حرف تراخٍ ومهلة . . إمّا على آدم ، فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك فى قلبه ، وتحقق المعلوم له بحقه ثم حينئذٍ استخبره عما تحقّق به واستيقنه . وإمّا على الملائكة ، فقال لهم على وجه الوهلة : « أنبئونى » فلمّا لم يتقدم لهم تعريف تحيّروا ، ولمّا تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر ، ونطق وأفلح ، إظهاراً لعنايته السابقة — سبحانه — بشأنه .

وقوله : « إن كنتم صادقين » فيه إشارة إلى أنهم تعرّضوا لدعوى الخصوصية ، والفضيلة والمزية على آدم ، فعرّفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه فى قديم تخصيصه . ولمّا عَلِمَ الحقُّ سبحانه تقَاصُرَ علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات ثم كلّفهم الإنباء عنها صار فيه أوضح دلالة على أنَّ الأمر أمرُه ، والحكمَ حُكمُه ، فَلَهُ تكليف المستطيع ، ردّاً على من توَهَّمَ أن أحكام الحق سبحانه مُعَلَّلَة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول ، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء ، الحَسَنُ ما حكم بتحسينه والقبيح ما حكم بتقبيحه[2] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قالوا سبحانك لاعِلْمَ لنا إلاّ ماعَلَّمْتنا

إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

قدَّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به ، ونزّهوا حقيقة حُكْمِهِ عن أن يكون يَعرِض وهم المعترضون[3] ، يعنى لا علم لنا بما سألتنا عنه ، ولا يتوجّه عليكَ لوم فى تكليف العاجز

(١) هكذا جاءت العبارة فى ص وهى لا تخلو من غموض ولكننا آثرنا عدم التدخل فى إصلاحها نظراً لخطورة الموقف الذى تصفه ، ونرجح أن الناسخ مخطىء فى نقله .

(٢) يشير القشيرى هنا بالمعتزلة الذين يقيسون الأفعال الإلهية بمقاييس إنسانية عقلية (ولكنهم نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ونزهه الصوفية من حيث العلم فأصابوا) الرسالة ص ٢٩ .

(٣) وردت (للمترضين) ، ويعرض هنا مضارع عرض فى الآية السابقة .

بما علمتَ أنه غير مستطيع له ، إنك أنت العليم الحكيم أى ما تفعله فهو حقٌ صِدْقٌ ليس لأحد عليكَ حكمٌ ، ولا منك سَفَهٌ وقبح .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقُلْ لكم إنِّى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

من آثار العناية بآدم عليه السلام أنَّه لمَّا قال للملائكة : « أنبئونى » دَاخَلَهُم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم ، لا سيما حين طالَبَهم بإنبائهم إياه ما لم تُحِطْ به علومهم . ولما كان حديث آدم عليه السلام ردَّه فى الإنباء إليهم فقال : « أنبئهم بأسمائهم » ومخاطبة آدم عليه السلام للملائكة لم يوجب له الاستغراق فى الهيبة . فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال : « ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض » يعنى ما تقاصرت عنه علوم الخَلْق ، وأعلم ما تبدون من الطاعات ، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام والصلاة .

[فصل] ولمَّا أراد الحق سبحانه أن يُنَجِّيَ[(1)] آدمَ عصمه ، وعلَّمه ، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أخبر به ، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نَسِيَ فى الحضرة عهده ، وجاوز حدَّه ، فقال الله تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » فالوقت الذى ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإحسان ، والوقت الذى أمضى عليه الحكم ردَّه إلى حال النسيان والعصيان ، كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجرى وتمضى ، ذلَّ بحكمه العبيد ، وهو فعَّال لما يريد .

[فصل] ولمَّا توهموا حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرَّفهم أن بساط العز مقدس عن التجمل بطاعة مطيع أو التدلس بزلة جاحد عنيد ، فَرَدَّهم إلى السجود لآدم أظهرَ الغناء عن كل وفاق وخلاف[(2)] .

---

(1) وردت (ينجب) وهى بلا ريب خطأ فى النسخ ويمكن أن تكون ينجى آدم — كما أثبتنا — أو ينجو آدمُ، والأرجح ما اخترناه .

(2) وردت (وخلاق) وهى خطأ فى النسخ ، وقد اخترنا ما يلائم السياق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر
وكان من الكافرين ﴾ .

السجود لا يكون عبادة لِعَيْنِهِ[1] ولكن لموافقة أمره سبحانه ، فكأن سجودَهم لآدم عبادةٌ لله ؛ لأنه كان بأمره ، وتعظيماً لآدم لأنه أمرهم به تشريفاً لشأنه ، فكأن ذلك النوعَ خضوعٌ له ولكن لا يسمى عبادة ، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصح لغيره سبحانه .

ويقال بَيَّن أن تقدُّسَهَ — سبحانه — بجلاله لا بأفعالهم ، وأن التَّجمُّلَ بتقديسهم وتسبيحهم عائدٌ إليهم ، فهو الذى يجل من أجَلَّه بإجلاله لا بأفعالهم ، ويعز من أعزَّ قدره سبحانه بإعزازه ، جَلَّ عن إجلال الخلق قدْرُه ، وعزَّ عن إعزاز الخَلْق ذِكْرُه .

قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس » أبى بقلبه ، واستكبر عن السجود بنفسه ، وكان من الكافرين فى سابق حكمه وعلمه . ولقد كان ابليس مدةً فى دلال طاعته يختال فى صدار موافقته ، سلّموا له رتبة التقدم ، واعتقدوا فيه استحقاق التخصيص ، فصار أمره كما قيل :

وكان سراج الوصل أزهر بيننا   فهبَّت به ريحٌ من البيْن فانطفا

كان يحسب لنفسه استيجاب الخيرية ، ويحسب استحقاق الزلفة والخصوصية :

فبات بخير والدنى[2] مطمئنة   وأصبح يوماً والزمان تقلبا

فلا سالِفَ طاعةٍ نَفَعَه ، ولا آنِفَ رجعةٍ رفعه ، ولا شفاعةَ شفيعٍ أدركتْه ، ولا سابقَ عنايةٍ أمسكتْه . ومن غَلَبَه القضاء لا ينفعه العناء .

ولقد حصلت من آدم هفوة بشرية ، فتداركتْه رحمةٌ أحدية ، وأما ابليس فأدركته شقوة أزلية ، وغلبته قسمة وقضية . خاب رجاؤه ، وضلَّ عناؤه .

---

(١) الضمير عائد على آدم أى ليس السجود لآدم عينه ، ويحتمل أنها (لغيره) بدليل قوله فيما بعد (وذلك لا يصح لغيره سبحانه)

(٢) وردت (والزمان) وقد صححنا البيت طبقاً لما ورد فى عيون الأخبار لابن قتيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا يا آدم اسكنْ أنت وزوجك الجنة وكلا[1] منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هـذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

أسكَنَه الجنةَ ولكن أثبت مع دخوله شجرة المحنة ، ولولا سابق التقدير لكان يبدل تلك الشجرة بالنضارة ذبولاً ، وبالخضرة يبساً ، وبالوجود فقدا ، وكانت لا تصل يد آدم إلى الأوراق ليخصفها على نفسه — ويقع منه ما يقع .

ولو تطاولت تلك الشجرة حتى كانت لا تصل إليها يده حين مدَّها لم يقع فى شأنه كل ذلك التشويش ولكن بدا من التقدير ما سبق به الحكم .

ولا مكانَ أفضل من الجنة ، ولا بَشَرَ أكيس من آدم ، ولا ناصح يقابل قولة إشارة الحق عليه ، ولا غريبة (منه) قبل ارتكابه ما ارتكب ، ولا عزيمة أشد من عزيمته — ولكنَّ القدرةَ لا تُكابَرَ ، والحُكمَ لا يُعَارَض .

ويقال لما قال له : « اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً » كان فيه إشارة إلى أن الذى يليق بالخَلْق السكون إلى الخَلْق ، والقيام باستجلاب الحظ ، وآدم عليه السلام وَحْدَه كان بكل خير وكل عافية ، فلمَّا جاء الشكلُ والزوجُ ظهرت أنياب الفتنة ، وانفتح باب المحنة ، فحين سَاكَنَ حواء أطاعها فيما أشارت عليه بالأكل ، فوقع فيما وقع ، ولقد قيل :

داءٌ قديمٌ فى بنى آدم صبوةُ إنسـان بإنسـان

[فصل] وكلُّ ما مُنِـع[2] منه ابن آدم توفرت دواعيه إلى الاقتراب منه .

فهذا آدم عليه السلام أبيحت له الجنة بجملتها ونُهِيَ عن شجرة واحدة ، فليس فى المنقول أنه مدَّ يده إلى شىء من جملة ما أبيح ، وكان عِيلَ صبره حتى واقع ما نُهِيَ عنه — هكذا صفة الخَلْق .

[فصل] وإنما نبَّه على عاقبة دخول آدم الجنة من ارتكابه ما يوجب خروجه منها حين قال : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » فإذا أخبر أنه جاعله خليفته فى الأرض كيف يمكن بقاؤه فى الجنة ؟

---

(١) وردت خطأ (فكلا) ، والصحيح (وكلا) البقرة : ٣٥ .

(٢) وردت (امتنع) ثم استدرك الناسخ فصححها على هذا النحو فى الهامش .

ويقال أصبح آدم عليه السلام محمود الملائكة ، مسجود الكافة ، على رأسه تاج الوصلة ، وعلى وسطه نطاق القُرْبة ، وفى جيده (. . . .)[1] الزلفة ، لا أحد فوقه فى الرتبة ، ولا شخص مثله فى الرفعة ، يتوالى عليه النداء فى كل لحظة يا آدم يا آدم . فلم يُمْسِ حتى نُزِعَ عنه لباسهُ ، وسُلِبَ استئناسه ، والملائكة يدفعونه بعنف أن اخْرُجْ بغير مُكْثٍ :

وأمِنْتُهُ فأتاح لى من مَأمنى مكراً ، كذا من يأمن الأحبابا

ولمّا تاه آدم عليه السلام فى مِشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب ، وكان كما قيل :

لله دَرُّهُمُ من فتيةٍ بَكَرُوا مثلَ الملوكِ وراحوا كالمساكين

[فصل] نهاه عن قرب الشجرة بأمره ، وألقاه فيما نهاه عنه بقهره ، ولبَّس عليه ما أخفاه فيه من سِرِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ .

أزلهما أى حملهما على الزلة ، وفى التحقيق : ما صرَّفتْهُما إلا القدرة[2] ، وما كان تقلبهما إلا فى القضية ، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جهراً ، ولكن ما ازداد — فى حكم الحق سبحانه — شأنهما إلا رفعةً وقدراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌ ﴾ .

أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان . ولكن كان سبحانه مع آدم (وحرب وهو معهم عالم بالظفر[3]) .

[فصل] لم يكن للشيطان من الخطر ما يكون لعداوته إثبات ، فإن خصوصية الحق سبحانه عزيزة قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

[فصل] لو كان لإبليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكانٌ فى هداية نفسه ،

---

(١) مشتبهة ولكن يحتمل انها (نُضار) فهى قريبة من ذلك فى الرسم .

(٢) هذا رأى على جانب كبير من الأهمية .

(٣) هكذا وردت العبارة فى ص وقد أثبتناها كما هى دون تصرف حتى فى رسم الحروف .

وكيف يكون ذلك ؟ والتفرد بالإبداع لكل شيء من خصائص نعته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ .

مشهد الأشباح ومألفها أقطار الأرض ، ومعهد الأرواح ومرتعها رداء العرش ، ولفظ الرداء استعارة وتوسع فكيف يكون للهم بالحدثان تَعَلُّق ، ولصمود القصود إلى الحقائق على الأغيار وقوع .

قوله جل ذكره : ﴿فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ .

جرت على لسان آدم مع الحق — سبحانه — كلماتٌ ، وأسمع الحقُّ — سبحانه — آدمَ كلماتٍ ، وأنشدوا :

وإذا خِفْنا من الرقباء عينا تكلمت السرائر في القلوب

وأجمل الحقُّ سبحانه القولَ في ذلك إجمالاً لِيُبْقِيَ القصة مستورة ، أو ليكون للاحتمال والظنون مساغ ، ولما يحتمله الحال من التأويل مطرح[1] .

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلا ، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلا . وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له : أفراراً منا يا آدم ؟ كذلك قوله عليه السلام : ربنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا . وقوله : أمخرجي أنت من الجنة ؟ فقال : نعم ، فقال أتردني إليها ؟ فقال : نعم .

ويقال حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعه إياه من عزيز خطابه زاداً ، ليكون له تذكرة وعتاداً :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على على كبدي[2] من خشية أن تقطّعا

ومخاطبات الأحباب لا تحتمل الشرح ، ولا يحيط الأجانب بها علما ، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل ، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه

---

(١) مطرح أي موضع .

(٢) وردت على (كبد) . (والأصل في البيت) (تصدعا) بدلا من (تقطعا) .

ذلك يحتمل فى حال الأحباب عند المفارقة ، وأوقات الوداع أن يقال إذا خرجت من عندي فلا تنسَ عهدى ، وإنْ تَقَاصَر عنك يوماً خبرى فإياك أن تؤثر عليّ غيرى ، ومن المحتمل أيضاً أن يقال إن فاتنى وصولك فلا يتأخَّرَنَّ عنى رسولُك .

قوله جل ذكره : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تَبِع هُداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب ، فلما أساء آدم عليه السلام الأدب فى عين القربة قال الله تعالى : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ، بعد أن كان لكم فى محل القربة قرار ومتاع إلى حين ، يستمتعون يسيراً ولكن (فى) آخرهم يعودون إلى الفقر ، وأنشدوا :

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة[1] وإن أيسروا عادوا سراعا إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بَشَّره بأنه يردُّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال : « فإما يأتينكم منى هدىً فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر ، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلهم عذاب أليم مؤجَّل ، وفراق معجَّل .

قوله جل ذكره : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ .

حقيقة النعمة على لسان العلماء[2] لذة خالصة عن الشوائب ، وما يوجب مثلها فهى أيضاً عندهم نعمة ، وعند أهل الحقيقة النعمة ما أشهدك المُنْعِم أو ما ذكَّرك بالمنعم أو ما أوصلك إلى إلى المنعم أو مالم يحجبك عن المنعم .

---

(١) حسبة أى احتساباً — هكذا فى الهامش .

(٢) واضح أن مقصود القشيرى من (لسان العلماء) و (لسان التفسير) هو التفسير العادى ، أما (عند أهل الحقيقة) و (الإشارة منه) ونحو ذلك فهو التفسير الصوفى .

وتنقسم إلى نعمة أبشار وظواهر ، ونعمة أرواح وسرائر ، فالأولى وجوه الراحات والثانية صنوف المشاهدات والمكاشفات . فمن النعم الباطنة عرفان القلوب ومحاب الأرواح ومشاهدات السرائر[1] .

[فصل] ويقال أمَرَ بنى إسرائيل بذكر النِّعَم وأمَرَ أُمَّةَ محمد صلى الله عليه وسلم بذكر المُنعِم ، وفرق بين من يقال له اذكر نعمتى وبين من يقال له : فاذكرونى أذكركم .

قوله جل ذكره : ﴿وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإياى فارهبون﴾

عهدُه — سبحانه — حفظ المعرفة وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده حفظ محابه وعهدنا لطف ثوابه ، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب .

أوفوا بعهدى بحفظ السر أوفِ بعهدكم بجميل البر ، أوفوا بعهدى الذى قبلتم يوم الميثاق أوفِ بعهدكم الذى ضمنت لكم يوم التلاق ، أوفوا بعهدى فى ألا تؤثروا علىّ غيرى أوفِ بعهدكم فى ألا أمنع عنكم لطفى وخيرى ، أوفوا بعهدى برعاية ما أثبتُّ فيكم من الودائع أوفِ بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع[2] ، أوفوا بعهدى بحفظ أسرارى أوف بعهدكم بجميل مَبَارِّى ، أوفوا بعهدى باستدامة عرفانى أوفِ بعهدكم فى إدامة إحسانى ، أوفوا بعهدى فى القيام بخدمتى أوفِ بعهدكم فى المِنَّةِ عليكم بقبولها منكم ، أوفوا بعهدى فى القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوفِ بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة ، أوفوا بعهدى بالتبرى عن الحوْل والمُنَّة أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمِنَّة ، أوفوا بعهدى بالتفضيل والتوكل أوفِ بعهدكم بالكفاية والتفضل ، أوفوا بعهدى بصدق المحبة أوفِ بعهدكم بكمال القربة ، أوفوا بعهدى اكتفوا منى بى أوفِ بعهدكم أرضى بكم عنكم ، أوفوا بعهدى فى دار الغيبة على بساط الخدمة بشدّ نطاق الطاعة ، وبذل الوسع والاستطاعة أوفِ بعهدكم فى دار القربة على بساط الوصلة بإدامة الأُنْس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة ، أوفوا بعهدى فى المطالبات بترك

---

(١) نعرف من هذا ان الملكات الباطنة عند القشيرى هى فضلا عن النفس التى هى محل المحظورات والمعلولات ،والعقل الذى به تصحيح الإيمان فى البداية — القلب وهو مستودع المعرفة والروح وهى مستودع المحبة ثم السر وهو الذى يشاهد الحقائق ، وله فوق ذلك ملكة أخرى هى سر السر أو عين السر لا يطلع عليها سوى الحق .

(٢) اللوامع تسبق الطوالع فى الظهور ، والطوالع ابقى وقتاً وأقوم سلطاناً وأدوم مكثاً وأذهب للظلمة وانفى للتهمة (الرسالة ص ٤٣ ، ٤٤) .

الشهوات أوفِ بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات ، أوفوا بعهدى بأن تقولوا أبداً : ربى ربى أوفِ بعهدكم بأن أقول لكم عبدى عبدى . وإياى فارهبون ، أى أفردُونى بالخشية لانفرادى بالقدرة على الإيجاد فلا تصح الخشية ممن ليس له ذرة ولا مِنَّة .

قوله جل ذكره : ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم
ولا تكونوا أول كافرٍ به ولا تشتروا
بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون﴾ .

الإشارة أن يقرن (العبد) إيمانه من حيث البيان بإيمانه من حيث البرهان ، وجمهور المؤمنين لهم إيمان برهان بشرط الاستدلال ، وخواص المؤمنين لهم إيمان من حيث البيان بحق الإقبال ، وأقبل الحق سبحانه عليهم فآمنوا بالله ، وآخر أحوالهم الإيمان من حيث العيان ، وذلك لخواص الخواص .

ولا تكونوا أول كافرٍ به ، ولا تَسُنُّوا[1] الكفر سُنَّةً فإن وِزْرَ المبتدئ فيما يَسُنُّ أعظم من وزر المقتدى فيما يتابع .

« ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » لا تؤثروا على عظيمِ حقى خسيسَ حظِّكم . « وإياى فاتقون » كثيرٌ[2] من يتقى عقوبته وعزيز من يهاب اطلاعه ورؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تلبسوا[3] الحق بالباطل وتكتموا
الحق وأنتم تعلمون﴾ .

لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين ، والكون فى حالة واحدة فى محلين[4] ، (فالعبد) إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ ، وأمّا حصول الأمْرَيْن فمحالٌ من الظن .

« ولا تلبسوا الحق بالباطل » تدنيس ، « وتكتموا الحق » تلبيس ، « وأنتم تعلمون » أن حق الحق تقديس ، وأنشدوا :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله ، كيف يلتقيان ؟!
هى شامية إذا ما استهلت وسهيلٌ إذا استهل يمانى !

(1) وردت (ولا تنسوا) وهى خطأ فى النسخ .
(2) وردت (كثيراً) وهى خطأ حيث يجب الرفع على تقدير (من يتقى عقوبته كثير) .
(3) أخطأ الناسخ إذ كتبها . (ولا تلبس) والصحيح ولا تلبسوا (البقرة : ٤١) .
(4) وردت فى (محلى) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾

احفظوا آداب الحضرة ، فحفظ الآداب أتم في الخدمة من الخدمة ، والإشارة في إيتاء الزكاة إلى زكاة الهمم كما تؤدى زكاة النعم ، قال قائلهم :

كل شيء له زكاة تؤدى   وزكاة الجمال رحمة مثلى

فيفيض من زوائد همه ولطائف نظره على المتبعين والمريدين بما ينتعشون به و (...)[1]، « واركعوا مع الراكعين » : تقتدى بآثار السلف في الأحوال ، وتجتنب مِنَ الانفراد فإن السكون في غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكافة[2] .

قوله جل ذكره : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

أتحرضون الناس على البدار[3] وترضون بالتخلف ؟ ويقال أتدعون الخلق إلينا وتقعدون عنا ؟ أتسرحون الوفود وتقصرون في الورود[4] ؟ أتنافسون الخلق[5] وتنافرونهم بدقائق الأحوال وترضون بإفلاسكم عن ظواهرها ؟

ويقال أتبصرون من الحق مثقال الذر ومقياس الحب وتساهمون لأنفسكم أمثال الرمال والجبال ؟ قال قائلهم :

وتبصر في العين مني القذى   وفي عينك الجذع لا تبصر ؟ !

ويقال أتسقون بالنجب[6] ولا تشربون بالنوب ؟

---

(١) هنا لفظتان مشتبهتان وفيهما شطب .

(٢) الاشارة وإن كانت لصلاة الجماعة إلا أنها توضح أيضا حرص القشيري على الاهتمام بالاجماع كمصدر من مصادر الشريعة .

(٣) وردت بالياء وهي خطأ في النسخ .

(٤) من ورد الماء أي ذهب ليستقي .

(٥) وردت أتنافسون (الحق) وواضح أنها خطأ في النسخ .

(٦) نجب الأشياء ونجائبها لبابها وخالصها ، وربما كانت النخب (بالخاء) ج نخب وهو الشربة العظيمة الوسيط ص ٩١٥ .

« وأنتم تتلون الكتاب » ثم تعاندون بخفايا الدعاوى وتجحدون بما شام قلوبكم من فضيحات الخواطر وصريحات الزواجر.

« أفلا تعقلون » إن ذلك ذميم من الخصال وقبيح من الفعال.

قوله جل ذكره : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾.

الصبر فطم النفس عن المألوفات ، والصلاة التعرض لحصول المواصلات ، فالصبر يشير إلى هجران الغَيْر ، والصلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب ، وإن الاستعانة بهما لخصلة شديدة إلا على من تجلّى الحق لسِرِّه فإن فى الخبر المنقول : « إن الله تعالى إذا تجلَّى لشىء[1] خشع له » . وإذا تجلّى الحق ، خَفّ وسَهُلَ ما توقّى الخلْق ؛ لأن التوالى للطاعات يوجب التكليف بموجب مقاساة الكلفة ، والتجلّى بالمشاهدات — بحكم التحقيق — يوجب تمام الوصلة ودوام الزلفة.

ويقال استعينوا بى على الصبر معى ، واستعينوا بحفظى لكم على صلاتكم لى ، حتى لا تستغرقكم واردات الكشف والهيبة ، فلا تقدزون على إقامة الخدمة.

وإن تخفيف سطوات الوجود على القلب فى أوان الكشف حتى يقوى[2] العبدُ على القيام بأحكام الفرق لَمِنَّةٌ عظيمة من الحق[3].

وأقسام الصبر كلها محمودة الصبر فى الله ، والصبر لله ، والصبر بالله والصبر مع الله إلا صبراً واحداً وهو الصبر عن[4] الله :

والصبر يحسن فى المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم[5]

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾.

---

(١) وردت بدون اللام ، والأصح بها.

(٢) وردت حتى (يقول) وهى خطأ فى النسخ.

(٣) يشير القشيرى بذلك إلى الفرق الثانى ، ويعتبر أن من علامة قبول العبد عند ربه أن يساعده على الرجوع إلى هذا الفرق حتى يستطيع أداء ما عليه من فريضة

(٤) الأرجح أنها (على) بدليل ورودها فى البيت الشاهد ، كذا فى « الرسالة » فى سياق مماثل.

(٥) ورد البيت فى الرسالة هكذا (والصبر يجمل) و (فإنه لا يجمل) ص ٩٣.

الظن يُذكَر ، ويقال المراد به اليقين ، وهو الأظهر ها هنا .

ويذكر ويراد به الحسبان فَمَنْ ظنَّ ظن يقين فصاحب وصلة .

ومن ظنّ ظن تخمين فصاحب فرقة . وملاقو ربهم ، صيغة تصلح لماضى الزمان والحاضر وهم ملاقون ربهم فى المستقبل . ولكن القوم[1] لتحققهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا كأن الوعدَ لهم تَقَرَّرَ ، والغيب لهم حضور .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالَمين ﴾ .

أشهَدَ بنى إسرائيل فضل أنفسهم فقال : « وأنى فضلتكم على العالمين »

وأشهد المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فضل نفسه فقال : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا »[2] .

فشتّان بين مَنْ مشهودُه فضلُ نفسه ، وبين مَنْ مشهودُه فضل ربه ؛ فشهود العبد فضل نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب ، وشهود العبد فضل الحق — الذى هو جلاله فى وصفه وجماله فى استحقاق نعته — يقتضى الثناء وهو يوجب الإيجاب[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون ﴾

العوام خوّفهم بأفعاله فقال : « واتقوا يوماً » « واتقوا النار » .

والخواص خوّفهم بصفاته فقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » وقال : « وما تكون فى شأن . . . إلى قوله إلا كنا عليكم شهودا »[4].

وخاص الخاص خوّفهم بنفسه فقال : « ويحذركم الله نفسه »

---

(١) يقصد الصوفية .

(٢) سورة يونس آية ٥٨ .

(٣) الايجاب = الاستحقاق والقبول .

(٤) يونس آية ٦١ .

ويوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له ، وأَذِنَ فيه ، فهو الشفيع الأكبر — على التحقيق — وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف[1].
وفى معناه قيل :

الحمد لله شكرا　　فكلُّ خيرٍ لديه
صار الحبيب شفيعاً　　إلى شفيع إليه

والذين أصابتهم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، ومالهم من ناصرين ، فلا يُقْبَل منهم فداء ، ولو افتدوا بملء السموات وملء الأرضين .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

من صبر فى الله على بلاء أعدائه عوّضه الله صحبة أوليائه ، وأتاح[2] له جميل عطائه ؛ فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم ، وجعلهم ملوكا ، وآتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين . « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » : قيل نعمة عظيمة وقيل محنة شديدة . وفى الحقيقه ما كان من الله — فى الظاهر — محنةٌ فهو — فى الحقيقة لمن عرفه — نعمةٌ ومِنةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ .

تقاصرت بصائر بنى إسرائيل فأراهم المعجزات عيانا ، ونفذت بصائر هذه الأمة فكاشفهم بآياته سراً ، وبذلك جرت سُنَّتُه سبحانه ، وكل من كان أشحذَ بصيرةً كان الأمر عليه أغمض ،

---

(١) وردت (التوفيق) وهى خطأ فى النسخ ، والقشيرى — كغيره من الباحثين — يرى أنه لا ينبغى إضافة أسماء وصفات لما ورد فى الحديث المروىّ عن أبى هريرة والذى أبلغها تسعة وتسعين ، فلا يصح أن يسمى الله عاقلاً ولا ذكياً ونحو ذلك .

(٢) وردت (بالخاء) وهى خطأ فى النسخ .

والإشارات معه أوفر ، قال صلى الله عليه وسلم « : أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا »[1] .

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون — داخلهم ريبٌ ؛ فقالوا : إنه لم يغرق[2] حتى قذفهم البحر ، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مغرقون . وهذه الأمة لفظ تصديقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء[3] الناس : « كأنى بأهل الجنة يتزاورون وكأنى بأهل النار يتعاوون وكأنى أنظر عرش ربى بارزاً »[4] فشتَّان بين من يُعاين فيرتاب مع عيانه ، وبين مَنْ يسمع فكالعيان حالُه من قوة إيمانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجلَ من بعده وأنتم ظالمون ﴾ .

شتَّان بين أمة وأمة ؛ فأمّةُ موسى عليه السلام — غاب نبيُّهم عليه السلام أربعين يوماً فاتخذوا العِجلَ معبودَهم ، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً ، فقالوا : « هذا إلهُكم وإله موسى فَنَسِيَ »[5] وأمة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم مضى من وقت نبيِّهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر فى وصف معبودهم مايوجب تشبيها لما أبْقَوْا على حشاشتهم ولو كان فى ذلك ذهاب أرواحهم[6] .

---

(1) « إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه واختصر لى الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون » البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قتادة مرسلاً (المنتخب من كنز العمال ج٤ ص ٢٠٢) .

والتهوك = الاضطراب فى القول وأن يكون على غير استقامة .

(2) الفعل بالمفرد هنا لأنه عائد على لفظ آل أو على فرعون ، ثم تحدث بعد ذلك بالجمع حين أعاده على المعنى

(3) افتاء وفتيان جمع فتىّ وهو الشاب من إنسان أو حيوان الوسيط ص ٦١٠ .

(4) خرّجنا هذا الحديث المروى عن حارثة فى هامش سبق .

(5) سورة طه آية ٨٨ .

(6) يغمز القشيرى هنا بالمشبهة ، فيلحق من يقول بالتشبيه بعبدة العجل ، فكلاهما توقح ونسب للالوهية ما ينبغى أن تتنزه عنه . وأهل السنة يرفضون رفضاً قاطعاً كل ما يشين الذات الإلهية من تصورات مادية .

ويقال إن موسى — صلوات الله عليه — سلَّم أمته إلى أخيه فقال : اخلفنى فى قومى ، وحين رجع وجدهم وقعوا فى الفتنة ، ونبيُّنا — صلوات الله عليه — توكّل على الله فلم يُشِرْ على أحَدٍ فى أمر الأمة وكان يقول فى آخر حاله : الرفيق الأعلى . فانظر كيف تولىَّ الحق رعاية أمته فى حفظ التوحيد عليهم . لعمرى يُضَيِّعُون حدودَهم ولـكن لا ينقضون[1] توحيدَهم.

قوله جل ذكره : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾

سرعة العفو على عظيم الجُرْم تدل على حقارة قدر المعفو عنه ، يشهد لذلك قوله تعالى (مخاطباً أمهاتِ المسلمين) : « من يأتِ منكن بفاحشة مُبَيِّنَةٍ يُضاعف لها العذاب ضعفين » ، هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى : « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك » ، وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم) : « ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ .

فرقان هذه الأمة الذى اخْتُصُّوا به نورٌ فى قلوبهم ، به يُفَرِّقون بين الحق والباطل ، قال النبى صلى الله عليه وسلم لوابصة : « استفتِ قلبك »[2] .

وقال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[3] .

وقال الله تعالى : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وذلك الفرقان ميراث ما قدَّموه من الإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ .

أى ما أضررتم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم ، فأمَّا الحق سبحانه فعزيز الوصف ، لا يعود إلى عِزِّه من ظلم الظالمين شىء ، ومن وافق هواه واتَّبع مناه فَعَجِّلْه ما علَّق به همَّه ، وأفرد له قصده .

(١) وردت (ينقصون) بالصاد والأقوى أن تكون بالضاد لأن المقصود هو تمسك أمة محمد (ص) بعدم (نقض) التوحيد .

(٢) هكذا رواه أحمد فى مسنده والبخارى فى تاريخه والدارى فى سننه رحمه النووى فى رياض الصالحين بلفظ « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » .

(٣) الترمذى والطبرانى من حديث أبى أمامة والترمذى من حديث أبى سعد والطبرانى وابو نعيم عن أنس

قوله جل ذكره : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ .

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾

التوبة بقتل النفوس غير (. . .)[1] إلا أن بنى اسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً ، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم في أنفسهم سراً ، فأوّلُ قَدَمٍ في القصد إلى الله الخروجُ عن النفس .

[فصل] ولقد توهم الناس أن توبة بنى إسرائيل كانت أشق ، ولا كما توهموا ؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة ، وأمّا أهل الخصوص من هذه (الأمة)[2] ففى كل لحظة قتل ، ولهذا :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء

وقتل النفس فى الحقيقة التبرى عن حولِها وقوتها أو شهود شىء منها ، ورد دعواها إليها ، وتشويش تدبيرها عليها ، وتسليم الأمور إلى الحق — سبحانه — بجملتها ، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها ، وانمحاء آثار البشرية عنها ، فأمّا بقاء الرسوم والهياكل فلا خطرَ له ولاعبرةَ به .

قوله جل ذكره : ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التوَّاب الرحيم ﴾

كونه لكم عنكم أتمُّ من كونكم لأنفسكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ .

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاحٌ بِتَرْكِ الحرمة ، وذلك من أمارات البعد والشقوة .

---

(١) هنا كلمة مشتبهة .

(٢) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وإثبات نعت التولى بمكاشفات العزة مقرونا بملاطفات القربة من علامات الوصلة ، ودلالات السعادة .

فلاجَرَمَ لمــا أطلقوا لسان الجهل بتقوية ترك الحشمة أخذتهم الرجفة والصعقة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بعثنا كم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوفتهم سطوات العذاب إملاء لهم بمقتضى الحكم ، وإجراء للسنّةِ فى الصفح عن الجُرْم ، ومن قضايا الكرم إسبالُ الستر على هنَاتِ الخدَم .

قوله جل ذكره : ﴿ وظَلَّلْنا عليكم الغَمام وأنزلنا عليكم المَنَّ والسَّلْوى ، كُلُوا من طيبات ما رزقنا كم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلمون ﴾ .

لمّا طرحهم فى متاهات الغُربة لم يرضَ إلا بأن ظلَّلَهُم ، وبلبسة الكفايات جَلَّلَهُم ، وعن تكلف التكسُّب أغنام ، وبجميل صنعه فيا احتاجوا إليه تولأَّهم ؛ فلا شُعُورُهم كانت تَطُول ، ولا أظفارهم كانت تنبتُ ، ولا ثيابهم كانت تتسخ ، ولا شعاعُ الشمس عليهم كان ينبسط . وكذلك سُنّتُه لمن حال بينه وبين اختياره ، يكون ما يختاره سبحانه له خيراً مما يختاره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغَدًا ، وادخلوا الباب سُجَّداً ، وقولوا حِطَّةٌ نَغفِرْ لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين ﴾ .

( )[1] بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يؤمَرون ، حتى قالة أُوصُوا بحفظها تبدَّلوها ، وحالة من السجود أُمروا بأن يدخلوا عليها فحوّلوها ، وعَرّضُوا أنفُسَهم لسهام الغيب ، ثم لم يطيقوا الإصابة بقَرْعِها[2] ، وتعرضوا لمفاجآت العقوبة فلم يثبتوا عند صدمات وَقْعِها .

---

(١) كلمة مشتبهة فى ص .   (٢) وردت بدون الباء فى ص وقد أضفناها ليستقيم المعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ فبدَّلَ الذين ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رِجْزاً من السماء بما كانوا يَفسُقُون ﴾ .

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتيالهم ، أو يصدوا مِنْ دونهم أسبابَ البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم ، فزعوا من الندم لما عضّهم ناب[1] الألم ، وهيهات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحسبان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضْرِبْ بعصَاكَ الحَجَرَ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيْناً ، قد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مشربَهم ، كلوا واشربوا من رِزْقِ اللهِ ، ولا تَعْثوا فى الأرض مُفْسِدين ﴾ .

إن الذى قدر على إخراج الماء من الصخرة الصمّاء كان قادراً على إروائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه ، وإيصال محل الاستغاثة إليه ، وليكون على موسى عليه السلام — أيضاً فى نقل الحجر — مع نفسه شغل ، ولتكليفه أن يضرب بالعصا مقاساةُ نوعٍ من معالجةِ ما أمضى حكمه عند استسقائه لقومه[2] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جارياً على سُنَّة ، ملازماً لحدّه ، غيرَ مُزَاحِمٍ لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامةً يعرفون بها مشربَهم ، فهؤلاء لا يَرِدُون مشرب الآخرين ، والآخرون لا يَرِدُون مشرب الأولين .

وحين كفاهم ما طلبوا أمرَهُم بالشكر ، وحِفْظِ الأمرِ ، وتَرْكِ اختيار الوزر ، فقال : ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .

والمناهل مختلفة ، والمشارب متفاوتة ، وكلٌ يَرِدُ مَشْرَبه ؛ فمشربٌ عَذْبٌ فُرات ، ومشربٌ مِلْح أُجاج ، ومشربٌ صافٍ زلال ، ومشرب رنق أو شال[3] . وسائقُ كلٌّ قوم

---

(١) وردت (ناب) بالتاء وهى خطأ فى النسخ .

(٢) لاحظ هنا مذهب القشيرى فى التوكل ، وكيف أنه لا يتعارض مع السعى .

(٣) أوشال : جمع وَشَل = وهو الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره الوسيط ص ١٠٤٧ .

يقودهم ، ورائد كُلٍّ طائفة يسوقهم ؛ فالنفوس تَرِدُ مناهل المنى والشهوات ، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات ، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات ، والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات ، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك فى حقيقة الوجود والذات .

قوله جلّ ذكره : ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادعُ لنا ربّك يُخْرِج لنا مما تُنْبِتُ الأرض من بَقْلِها وقثائها وفُومِها وعدسِها وبَصَلِها . قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم ، وضُرِبت عليهم الذلّةُ والمسكنة وباءو بغضبٍ من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ .

لم يرضَوْا بحسن اختياره لهم ، ولم يصبروا على قيامه بتولى ما كان يَهُمُّهُم من كفاية مأكولهم وملبوسهم ، فنزلوا فى التحير إلى ما جرت[1] عليه عاداتهم من أكل الخسيس من الطعام ، والرضا بالدون من الحال ؛ فردَّهم إلى مقاساة الهوان ، ورنطهم بإدامة الخذلان ، حتى سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلَّة الاستحياء ، وتَرْكِ الارعواء ، فعاقبهم على قبيح فعالهم ، وردَّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم ، وحين لم تنجح فيهم[2] النصيحة ، أدركتهم النقمة والفضيحة . ويقال كان بنو إسرائيل متفرقى الهموم مُشَتَّتِي القصود ؛ لم يرضوا لأنفسهم بطعامٍ واحد ، ولم يكتفوا فى تدينهم بمعبود واحد ، حتى قالوا لموسى عليه السلام — لمَّا رأوا قوماً يعبدون الصنم[3] — يا موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم إله ،

---

(١) وردت فى س (مرت) وهى بالجيم أصوب . (٢) وردت (فهم) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (الفم) وهى خطأ فى النسخ .

وهكذا صفة أرباب التفرقة . والصبر مع الواحد شديد ، قال تعالى : « وإذا ذكرتَ ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » .

قوله جل ذكره : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بلله واليوم الآخر وعَمِل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾ .

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول ، فمن صدَّق الحق سبحانه فى آياته ، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته ، فتباينُ الشرع واختلاف وقوع الاسم غيرُ قادح فى استحقاق الرضوان، لذلك[1] قال: «إن الذين آمنوا والذين هادوا» ثم قال : « من آمن منهم » أى إذا اتفقوا فى للعارف فالكلُّ لهم حُسْنُ المآب ، وجزيلُ الثواب. والمؤمن مَنْ كان فى أمان الحق سبحانه ، ومَنْ كان فى أمانه ــ سبحانه وتعالى ــ فَبِالحرىُّ ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوةٍ واذكروا مافيه لعلكم تتقون ، ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضلُ الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾

أخذ سبحانه ميثاقَ جميع المُكَلَّفِين ، ولكنَّ قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرَّف إليهم فَوَحَّدُوه وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجحدوه ، ولا حُجَّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور ــ وهو الجبل ــ ولكن عَدِموا نورَ البصيرة ، فلا ينفعهم عيانُ البصر . قال الله تعالى « ثم توليتم من بعد ذلك » ، أى رجعتم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان ، ولولا حكمه بإمهاله ، وحِلْمُهُ بأفضاله لعَاجَلكُمْ بالعقوبة ، وأحلَّ عليكم عظيم المصيبةْ ولَحَسِرَتْ صفقتُكم بالكُلِّيَة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قِرَدةً خاسئين﴾ .

---

(١) وردت (كذلك)

مسخُ هذه الأمة حصل على القلوب ، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما أُلزموا به من الشرع — عجلت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النصُّ ، فهذه الأمة مِنْ نَقْضِ العهدِ ورفض الحدِّ عوقبت بمسخ القلوب، وتبديل الأحوال،قال تعالى: «ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة»[1] وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس ، وفى معناه أنشدوا:

يا سائلى : كيف كنتَ بَعْده ؟ لقيتُ ما ساءنى وسَرَّه
ما زلت أختـال فى وِصالىَ حتى أمِنت من الزمانِ مَكْرَه[2]
طال علىَّ الصدود حتى لم يُبْقِ مما شَهِدَت ذرَّه

قوله جل ذكره : ﴿ فجعلناها نَكالاً لِماَ بين يديها وما خلفها وموعِظةً للمتقين ﴾ .

هكذا مَنْ مُنِىَ بالهجران ، ووُسِمَ بالخذلان ، صارت أحوالُه عِبْرة ، وتجرَّع — مِنْ مُلاحظته لحاله — عليه الحسرة ، وصار المسكين — بعد عِزِّه لكلِّ خسيسٍ سُخْرَة. هكذا آثار سُخْطِ الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر :

وقد أحدق الصبيان بى وتجمعوا علىَّ وأشلوا بالكلاب ورائيا

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ .

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهمًا بأن يكون لهم (. . .)[3] تُفضِى بالإخلاد إلى الاعتدال[4] عن عهدة الإلزام فتضاعفت عليهم المشقة وحلَّ بهم[5] ما حَذِرُوه من الافتضاح .

[فصل] ولما قال إنها بقرة لا فارضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بين ذلك ، أى ليست بِفَتِيَّةٍ ولا مُسِنَّةٍ بل هى بين السِّنَّيْنِ . حصلت الإشارة أن الذى يصلح لهذه الطريقة مَنْ لا يستهويه

(١) سورة الأنعام آية ١١٠ .
(٢) ورد فى البيت (أحتال) و (وجال) و (أنيت) من الزمان وقد أصلحنا ليستقيم المعنى والوزن .
(٣) سقطت هنا لفظة من الناسخ وهو ينتقل من ورقة إلى أخرى .
(٤) الاعتدال هنا بمعنى العدول عن الشىء .
(٥) وردت (وحلهم) وهى غير ملائمة للمعنى والسياق .

نَزَقُ الشباب وسُكره ، ولم يُعَطِّله عجزُ المشيب وضعفُه ، بل هو صاحٍ استفاق عن سُكرِه ، وبقيت له — بعضُ[1] — نضارةٌ من عمره .

قوله جل ذكره : ﴿صفراء فاقعٌ لونُها تَسُرُّ الناظرين. قالوا ادعُ لنا ربَّك يُبَيِّن لنا ما هى إنَّ البقر تَشَابَهَ علينا وإنَّا إن شاء الله لَمُهتَدُون﴾

كما كان يأخذ لونها الأبصار فالإشارة منها أن من كان من أهل القصة[2] يستغرق شاهدُه القلوبَ لِمَا أُلبس من رداء الجبروت ، وأقيم به من شاهد الغيب[3] حتى أن من لاحظه تناسى أحوال البشرية ، واستولى عليه ذكر الحق ، كذا فى الخبر المنقول : أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله (. . . .)[4]

قوله جل ذكره : ﴿قال إنه يقول إنها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثير الأرضَ ولا تسقى الحرثَ مُسَلَّمَةٌ لاشيةَ فيها قالوا[5] الآن جِئْتَ بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ .

كما أن تلك البقرة لم يُذلِّلها العملُ ، ولم تُبْتَذَلْ فى المكاسب ، لا لونَ فيها يخالف معظمَ لونِها فالإشارة منه أن أهل الولاية[6] الذين لم يتبذلوا بالأغيار لتحصيل ماطلبوا من الأسباب ، ولم يركنوا بقلوبهم إلى الأشكال والأمثال ، ولم يتكلوا على الاختيار والاحتيال ، وليسوا نهباً لمطالبات المنى ، ولا صيداً فى مخلب الدنيا ، ولا حكمَ للشهوات عليهم ، ولا سلطان للبشرية تملّكهم ، ولم يسعوْا قط فى تحصيل مرادهم ، ولم يشقوا لدرك بُغيتهم ، وليس عليهم رقم الأغيار ، ولا سِمَةُ الأسباب — فَهُمْ قائمون بالله ، فانون عما سوى الله ، بل هم محو ، مُصَرِّفُهم اللهُ . والغالب — على قلوبهم — الله

وكما أن مَعبودَهم الله كذلك مقصودهم الله .

---

(١) ربما صحت على هذا ويكون المعنى ما زالت فيه بقية من نضارة عمره ، ويحتمل أن تكون فى الأصل (بعض) ويكون المعنى وبقيت له بعض نضارة من عمره .

(٢) يقصد أهل التصوف .

(٣) وردت (الغير) ولا معنى لها هنا لأن شهود الغيب هو الذى يحدث ذلك الأثر .

(٤) فى (ص) علامات تدل على أن الكلام مبتور ، ونرجح أن (ذاكر) بدل (ذكر) .

(٥) أخطأ الناسخ عند كتابة هذه اللفظة من الآية الكريمة حيث وردت (قال) الآية ٧٠ من سورة البقرة .

(٦) فى ص (ولاية) بدون تعريف والأصح بها .

وكما أن مقصودهم الله كذلك مشهودهم الله، وموجودهم الله، بل هم محو بالله و (....)[1] عنهم الله، وأنشد قائلهم.

إذا شئتِ أن أرضَى وترضَىْ وتملكى زمامِيَ — ماعشنا معاً — وعنانى
إذن فارمُقى الدنيا بعينى واسمعى بأذنى وانطق بلسانى

قوله جل ذكره: ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾.

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحِيَل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد المطالبات، ولو أنهم فعلوا ما أُمِروا به لما تضاعفت عليهم المشاق.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا قتلتم نَفْساً فادّارأتم فيها والله مُخْرِجٌ ما كنتم تكتمون ﴾.

الخائن خائف، وللخشية أن يظهر سرُّه يركن إلى التلبيس والتدليس، والإنكار والجحود ولا محالة ينكشف عوارُه، وتتضح أسرارُه، وتهتك عن شَيْنِ فعله أستارُه. قال الله تعالى: «والله مخرج ما كنتم تكتمون».

قوله جل ذكره: ﴿ فقلنا اضْرِبُوهُ ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياتِهِ لعلكم تعقلون﴾.

أراد الله سبحانه أن يحيى ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل سبب حياة مقتولهم قتل حيوان لهم، صارت الإشارة منه:

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه، فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حَيِىَ قلبُه بأنوار المشاهدات، وكذلك من أراد اللهُ حياةَ ذِكْرِهِ فى الأبدال[2] أمات فى الدنيا ذكره بالخمول[3].

قوله جل ذكره: ﴿ ثم قَسَتْ قلوبُكم منْ بعد ذلك، فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجَّرُ منه الأنهار، وإن منها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيخرُجُ منه الماء وإنَّ منها لَمَا يَهْبِطُ من خشية الله وما الله بغافلٍ عمَّا تعملون ﴾.

---

(١) مشتبهة فى ص. (٢) ربما كانت فى الأصل (الأبد)
(٣) أى منع عنه الاشتهار بين الخلق لأن المهم مرتبته لدى الحق.

بَيَّن أنهم — وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البينات — فحين لم تساعدهم العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية، لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة، ولم تبرز لهم من مكامن التقدير إلا شقوة (على شقوة)، وشبه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تنبت ولا تزكو، وكذلك قلوبهم لا تفهم[1]، ولا تغنى[2]. ثم بيَّن أنها أشد (. . . . . . .)[3] من الحجارة، فإنَّ من الحجارة لما يتفجرّ منه الأنهار، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله[4]، وأمَّا قلوبهم فخالية عن كل خير، وكيف لا وقد مُنِيَت بإعراض الحقِّ عنها، وخُصَّتْ بانتزاع الخيرات منها.

قوله جل ذكره: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحَرِّفُونَهُ من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾.

أنبأهم عن إيمانهم، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله ـ سبحانه ـ حرَّفوا وبدّلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة، ومن لم يَبْقَ على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان، والذى لم يصلح للحق لا يصلح لكم، ومن لم (يحتشم من الحق) فكيف يحتشم منكم؟.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قالوا أتُحَدِّثُونَهم بما فتح الله عليكم ليُحاجُّوكم به عند ربِّكم أفلا تَعْقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلنون﴾.

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق، وإخفاء الحال على المسلمين، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام على أسرارهم، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفئ بمزاولة الأغيار. وموافقةُ اللِّسانِ مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفرقة.

قوله جل ذكره: ﴿ومنهم أميُّون لا يعلمون الكتابَ إلا أمانىَّ وإن هم إلا يظنون. فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتَرُوا به ثمناً قليلا﴾.

---

(١) تكملة فى الهامش استدرك بها الناسخ أثبتناها فى موضعها.
(٢) أى لا تغنى عنهم من الله شيئاً، وربما كانت فى الأصل (ولا تعى) حتى تتلاءم مع (لا تفهم).
(٣) زيادة ميزها الناسخ ـ لا لزوم لها.
(٤) إشارة إلى قوله تعالى: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله»

أخبر أنهم متفاوتون فى نقائص كفرهم ، فقومٌ منهم أخَسُّ درجةً وأكثر جهلاً ركنوا إلى التقليد ، ولم يملكهم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنٍّ وتخمين ، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها ، دون معرفة معانيها . ومنهم مَنْ أكثرُ شأنه ما يتمناه فى نفسه ، ولا يساعده إمكان ، ولا لظنونه قط تحقيق . ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره :

« فويل لهم مما كَتَبَتْ أيديهم وويل لهم مما يَكْسِبُون » .

أى خَسِروا فى الحال والمآل ، والإشارة فى هذه الآية لمن عَدِمَ الإخلاص فى الصحبة فى طريق الحق ؛ يَنْضَمُّ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تَصْدُقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصَاحِب ، وله مع هذه الطريقة جانب ، كلما دَعَتْهُ هواتف الحظوظ تَسَارَعَ إلى الإجابة طوعاً ، وإذا قادته دواعى الحق — سبحانه — يتكلف شيئاً ، فَبِئْسَت الحالة حين لم يخلص ، وما أشد ندمه فيما ادَّخرَ عن الله ! ثم لا يُفْلِحُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لن تَمَسَّنا النار إلا أياماً معدودة ، قُلْ أتخذتم عند الله عهداً فلن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَه أم تقولون على الله مالا تعلمون ﴾ .

الإشارة فى هذه الآية لمن مرت على قلبه دعاواه العريضة ، وغلب عليه حسبانه ، لحكم لنفسه — لفرط غفلته — بأنه من أهل القصة[1] ، ويَخْلُدُ إلى هواجس مناه ، فيحكم على الغيب بأنه يُتَجَاوز عنه ؛ نَسِيَ قبائح ما أسلفه ، ويذكر مغاليط ما ظَنَّهُ ، فهو عَبْدُ نَفْسِهِ ، يغلب عليه حسن ظنه ، وفى الحقيقة تعتريه نتائج غفلته ومكره ، قال تعالى : « وَذَلِكُمْ ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سيئة وأحاطت به خَطِيئَتُهُ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

الذى أحاطت به خطيئته هو الكافر — على لسان العلم[2] .

---

(١) أى من أهل الطريق الصوفى .

(٢) أى على لسان التفسير العادى أى غير الاشارى

ولكنّ الإشارة منه إلى مَنْ سكن قلبُه على استغاثاته على وجه الدوام ، فإن أصحاب الحقائق كالحبُ[1] على المَقْلَى ـ فى أوقات صحوهم ، فَمَنْ سَكَنَ فَلِفَرْطِ عِزَّتِه ـ لا يَفْتُرُون[2] .

ومَن استند إلى طاعة يتوسلُ بها ويَظن أنّه يقرب بها ينبغى أن يتباعد عن السكون إليها ومَنْ تَحقَّقَ بالتوحيد عِلِمَ ألا وسيلة إليه إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات أولئك

أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾

فى الحال جنان الوصل . . . .

(. . . . .)

(. . . . .)

(. . . . .)[3].

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخْرِجون

فريقاً منكم من ديارِهم تظاهرون

عليهم بالإثم والعُدوان ﴾ .

. . . أضرابكم وقرنائكم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، الإشارة فيه أن نصرتكم لإخوانكم على ما فيه بلاؤهم نصرة عليهم بما فيه شقاؤهم ، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يأتوكم أسارى[4] تُفادوهم ،

وهو مُحرَّمٌ عليكم إخراجهم ،

أفتؤمنون ببعض الكتاب

وتكفرون ببعض ﴾

أى كما تراعون — بالفداء عنهم — حقوقهم ، فكذلك يُفْتَرَضُ عليكم كَفُّ أيديكم عنهم ، وتَرْكُ إزعاجهم عن أوطانهم ، فإذا قُمتم ببعض ما يجب عليكم فما الذى يقعدكم

(١) وردت (كالحب) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) من الفترة ، وقد أوضحنا رأى المصنف فى الفترة والوقفة فى هامش سبق .

(٣) حدث سقوط فيما بين (الوصل) و ... (أضرابكم) وبذلك لم يصلنا تفسير الآيات الكريمة من رقم ٨٢ إلى ٨٤ .

(٤) يستخرج القشيرى من لفظة أسارى إشارات معينة بعد قليل .

عن الباق ، حتى تقوموا به كما أُمِرْتُم ؟ أمَا علمتم أن مَنْ فَرّقَ بين ما أُمِرَ به فآمن ببعضٍ وكَفَرَ ببعضٍ فقد حبط — بما ضيّعه — أجرُ ما عَمِلَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزْىٌ في الحياة الدنيا ، ويومَ القيامةِ يُرَدُّون إلى أشَدِّ العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون ﴾ .

أى ظنوا أن ما فعلوه نَفَعَهم ، فانكشف لهم فى الآخرة أن جميع ما فعلوه — لمَّا مزجوه بالآفات وجرّدُوه عن الصدق والإخلاص — غيرُ مقبولٍ منهم .

والأُسَرَاء أصناف : فَمِنْ أسيرٍ غَرِقَ فى بحار الهوى فإنقاذُه بأن تدلَّه على الهُدَى . ومِنْ أسيرٍ بقى فى أيدى الوساوس فافتداؤه أن ترشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذَه من الشك والتخمين ، وتخرجه عن ظلمات التقليد فيما تقوده إلى اليقين . ومن أسيرٍ تجده فى أسر هواجسه استأسرته غاغة نفسه ، فَفَكُّ أسْرِه بأن تدلَّه على شهود المِنن ، بِتَبَرِّيه عن حسبانِ كلِّ حَوْلٍ بِخَلْقٍ وغَيْر . ومن أسيرٍ تجده فى ربيطة ذاته ففكُّ أسره إنشاده[1] إلى إقلاعه ، وإنجاده على ارتداعه . ومن أسيرٍ تجده فى أسر صفاته ففكُّ أسره أن تدله على الحق بما يحل عليه من وثائق الكون[2] ، ومن أسيرٍ تجده فى قبضة الحق فتخبره أنه ليس لأسرائهم فداء ، ولا لقتلاهم عَوْد ، ولا لربيطهم خلاص ، ولا عنهم بُدٌّ ، ولا إليهم سبيل ، ولا مِن دونهم حيلة ، ولا معَ سِواهم راحة ، ولا لحكمهم رَدٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولا هُمْ يُنصَرُون ﴾ .

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا فى الدنيا والآخرة كما قالوا :

---

(١) إنشاده إلى إقلاعه أى مطالبته والنصح له .

(٢) وردت (المكون) والأصوب الكون لأن المقصود يقتضى ذلك .

أناسٌ أعرضوا عنَّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
فإن كانوا[1] قد استغنوا فإنَّا عنهم أغنى

قوله جل ذكره: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ وقفَّينا مِنْ بَعده بالرُّسل، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القُدُسِ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفُسُكم استكبرتم ففريقاً كَذَّبْتُم وفريقاً تَقْتُلُون﴾.

الإشارة: أوصلنا لهم الخطاب، وأردفنا رسولاً بعد رسول، والجميع دَعَوْا إلى واحد. ولكنهم أصغَوْا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى، فما استلذته النفوس قبِلُوه، وما استثقلته[2] أهواؤهم جحدوه[3]، فإذا كان الهوى[4] صفتهم ثم عبدوه، صارت للمعبود[5] صفات العابد، فلا جَرَمَ الويل لهم ثم الويل!

قوله جل ذكره: ﴿وقالوا قلوبنا غُلْفٌ بل لَعَنَهُم الله بكفرهم فقليلاً ما يُؤمنون﴾.

لو كان منهم شيء بمجرد الدعوى لهان وجود المعاني، ولكن عند مطالبات التحقيق تَفتَرُّ أنيابُ المُتَكَلِّفين عن أسنانٍ شاحذة بل (. . . . . .)[6] وقيل:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى

---

(١) القطعة ناقصة في المتن ومصححة في الهامش على اليسار.

(٢) وردت (استقله) وهي خطأ في النسخ.

(٣) وردت (جهدوه) ثم تصحيح لها في الهامش (جهدوه) ولا يستبعد أنها: (جحدوه) على أساس نكرانهم للتوحيد.

(٤) وردت (الهوا) والصحيح (الهوى).

(٥) وردت (المبود) وهي خطأ في النسخ.

(٦) هنا كلمة مشابهة.

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عند الله
مُصَدِّقٌ لِمَا معهم وكانوا مِنْ قَبْلُ
يستفتحون على الذين كفروا فلمَّا
جَاءهُم ما عَرَفوا كفروا به فلعنة الله
على الكافرين ﴾ .

الإشارة فيه لمن عزم على الصفاء ، ووعد من نفسه تحقيق الوفاء ، ونشر أعلام النشاط عند البروز[1] إلى القتال ، تنادى بالنِّزال وصدق القتال — انهدم عند التفات[2] الصفوف ، وانجزل عن الجملة خشية هجوم المحذور ، قال تعالى : « فإذا عزموا الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا
بما أنزل اللهُ بَغياً أن يُنَزِّل الله
من فضله على من يشاء من عباده فباءو
بغضب على غَضَبٍ وللكافرين
عذاب مُهين ﴾ .

أنزلهم التحاسُد عن مقر العِزِّ[3] إلى حضيض الخِزْى ، وسامهم ذُلَّ الصِّغَر حين لم يَرْضُوا بمقتضى الحُكْم ، فأضافوا استيجاب مقتٍ آنفٍ إلى استحقاقِ مقتٍ سالف .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله
قالوا نؤمن بما أُنزِلَ علينا ،
ويكفرون بما وراءه وهو الحق
مُصَدِّقاً لِمَا معهم ، قُلْ فَلِمَ تقتلون
أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين» .

---

(١) وردت (البرود) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت هكذا فى (ص) ، وربما كانت فى الأصل (التقاء) الصفوف أو (التفاف) كذلك يحتمل (انهزم) بدلا من (انهدم) .
(٣) وردت (العِز) وهى خطأ فى النسخ .

الإشارة فيه : إذا قيل لهم حَقِّقُوا ما أظهرتم من حكم الوفاق بتحقيق الحال وإقامة البرهان سَمَحَتْ نفوسُهم ببعض ما التبس عندهم لما يوافق أهواءهم ، ثم يكفرون بما وراء حظوظهم ، (. . . .)[1] بُعداً عن زمرة الخواص ، غير معدودين فى جملة أرباب الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقـد جاءكم[2] موسى بالبينات ثم اتخذتم العِجْلَ مِنْ بَعْـدِهِ وأنتم ظالمون ﴾ .

أى دعاكم إلى التوحيد ، وإفراد المعبود عن كل معبود ومحدود ، ولـكنكم لم تجنحوا إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عِجْلٍ اتخذتموه ، وصنمٍ تمنيتموه . فرفع ذلك من بين أيديهم ، لـكن بقيت آثاره فى قلوبهم وقلوب أعقابهم ، ولذلك يقول أكثرُ اليهود بالتشبيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقـكم ورفعنا فوقـكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعَصَيْنَا وأُشْرِبوا فى قلوبهم العجلَ بكفرهم ، قل بِئْسما يأمركم به إيمانـكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

كَرَّرَ الإخبار عن غُلُوِّهم فى حُبِّ العجل ، ونُبُوِّهم عن قبول الحق ، و (... ... ...)[3] وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيئون من العمل ، فلا النصحُ نَجَعَ فيهم ، ولا العقوبةُ أوجبت إقلاعهم عن معاصيهم ، ولا باللّم فيهم احتفلوا[4] ، ولا بموجب الأمر عملوا .

---

(١) هنا لفظة مشتبهة .

(٢) أخطأ الناسخ حين كتبها (جاءهم) فصححناها طبقاً للآية ٩٢ .

(٣) هنا عبارة غامضة كتابة وبالتالى معنى .

(٤) وردت (اختلفوا ، والملائم للسياق (احتفلوا) أى أظهروا الاهتمام .

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ
عنَد الله خالِصةً مِنْ دون الناس
فَتَمَنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين *
ولن يتمنوْه أبداً بما قَدَّمَتْ أيديهم
والله عليم بالظالمين ﴾ .

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوافى ؛ فمن وَثِقَ بأن له الجنة قطعاً — فلا محالةَ — يشتاق إليها ، ولمَّا لم يتمنوا الموت[1] — وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوهُ أبداً — صار هذا التعريف معجزةً للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال .

وفى هذا بشارة[2] للمؤمنين الذين يشتاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم ، ولا يرزقهم الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة ، وقديماً قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء . قال الله تعالى : « ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » .

قوله جل ذكره: ﴿ ولَتَجِدَنَّهم أحرصَ الناسِ على حياة ،
ومِنَ الذين أشركوا يَوَدُّ أحَدُهم
لو يُعَمَّرُ ألفَ سنةٍ وماهو بِمُزَحْزِحِهِ
من العذابِ أن يُعَمَّرَ والله بصير
بما يعملون ﴾[3] .

حُبُّ الحياة فى الدنيا نتيجة الغفلة عن الله ، وأشد منه غفلة أحبُّهم للبقاء فى الدنيا . وحالُ المؤمن من هذا على الضدِّ . وأما أهل الغفلة وأصحاب التهتك فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم بما فقدوا فيها من طاعتهم ؛ فالعبد الآبِق لا يريد رجوعاً إلى سَيِّدِهِ . والانقلابُ إلى مَنْ هو خيرُهُ مَرجوٌّ خيرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّهُ غيرُ مأمون ، ثم إن امتداد العمر مع يقين

(١) فى النسخة (الجنة) ولكن الآية الكريمة والسياق يشيران إلى تمنى الموت ثم إن الضمير فيما بعد فى (لن يتمنوه أبداً) ضمير مذكر وليس ضمير مؤنث .
(٢) وردت (وفى هذا إشارة) والمعنى يتطلب (بشارة) مما يرجح هذه على تلك .
(٣) أسقط الناسخ من الآية من أول (وما هو) إلى (أن يعمر) فأثبتناه .

الموت (لا قيمة له) إذا فَاجأ الأمرُ وانقطع العُمْرُ . وكلُّ ما هو آتٍ فقريب ، وإذا انقضت المُدَّةُ فلا مردَّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . مَن كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتى بالخير ، وأنهم لا يحبونه ، ولو كان ميكائيل لكانوا آمنوا به ، فأكذبهم الحقُّ سبحانه فقال : من كان عدواً لجبريل لأنه لا يأتى بالخير فأى خير أعظم مما نزل به من القرآن ؟ !

ثم قال إن مَنْ عادى[1] جبريلَ وميكائيل فإن الله عدو له ؛ فإنَّ رسولَ الحبيبِ إلى الحبيبِ العزيزِ المَوْرِدِ — كريمُ المنزلة ، عظيم الشرف . وما ضرَّتْ جبريلَ — عليه السلام — عداوةُ الكفار ، والحق سبحانه وتعالى وليُّه ، ومَنْ عَادَى جبريلَ فالحقُّ عَدُوُّه ، وما أعزز[2] بهذا الشرف وما أجلَّه ! وما أكبر علوه !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُه ، وسبقت من الله بالشقاوة

(١) وردت (عبادى) وهى خطأ فى النسخ ، فعادى مناسبة لعدم محبتهم لجبريل كما سبق .

(٢) الصحيح ان يقال وأعزز بهذا الشرف أو : ما أعز هذا الشرف فليس فى التعجب ما أفعِلْ به فما حدث هو خطأ من الناسخ لأن القشيرى — كما نعلم من سيرته — حريص أشد الحرص على قواعد النحو .

قِسْمَتُه ، ولا عقلَ لِمنْ يجحدُ أنَّ النهارَ نهار ، وكذلك لا وَصْلَ لمن لم تساعده من الحق انوار واستبصار . أوَ كُلَّما عاهدوا عهداً سابقُ التقدير لهم كان يشوِّش عليهم ، وينقض عَهْدَهُم لا جوْرُ التدبيرُ منهم ، والله غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقٌ[1] لِمَا معهم نَبَذَ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ .

جحدوا رسل الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر ، وكذَّبوا رسلهم الذين أتوهم فى الظاهر ، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان ! ويا حرماناً قارَنَه خِذلان !

قوله جل ذكره : ﴿واتبعوا ما تَتْلوا الشياطين على مُلْكِ سليمان ، وما كَفَرَ سُليمانُ ، ولكنَّ الشياطين كفروا يُعلِّمون الناسَ السِّحْرَ وما أُنزل على المَلَكَيْن بِبَابلَ هاروتَ وماروتَ وما يُعلِّمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكْفُرْ فيتعلمون منهما ما يُفرِّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد عَلِموا لَمَنِ اشتراهُ مالَه فى الآخرة من خَلاق﴾ .

مَنْ فرَّقَتْه الأهواء وقع فى كل مطرح من مطارح الغفلة ، فيستقبله كل جنس من قضايا

---

(1) أخطأ الناسخ فكتبها (مصدقاً) والصحيح (مصدق) الآية ١٠١ .

الجهالة ، ثم إن مَنْ طالت به الغيبة صار للناس عِبْرة ، ولِمَنْ سلك طريقَه فتنة ، فمن اقتدى به في غيِّه انخرط في سِلْكه ، والتحق بجنسه ، هكذا صفة هاروت وماروت فيما استقبلهما ، صارا للخَلْق فتنة بل عبْرة ، فمَنْ أصغى إلى قيلهما ، ولم يعتبر بجهلهما تعلَّق به بلاؤهما ، وأصابه في الآخرة عناؤهما .

والإشارة من قصتهما إلى مَنْ مَآلَ في هذه الطريقة إلى تمويهٍ وتلبيس ، وإظهار دعوى بتدليس ، فهو يستهوي مَن اتَّبَعَه(1) ، ويلقيه في جهنم بباطله ، (. . . . .)(2)

ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتكت أستارُه ، وظهر لذوي البصائر عوارُه .

وإن هاروت وماروت لما اغترَّا بحاصل ما اعتاداه من المعصية بَسَطَا لسان الملامة في عُصاة بني آدم ، فلمَّا رُكِّبَ فيهما من نوازع الشهوات، ودواعي الفتن والآفات ، اقتحما في العصيان ، وظهر منهما ما انتشر ذِكْرُه على ألسنة القصاص ، وهما مُنَكَّسَان إلى يوم القيامة ولولا الرفق بهما وبشأنهما لَـمَا انتهى في القيامة عذابُهما ، ولكنَّ لطفَ الله مع الكافة كثيرٌ . ولمَّا قال الله تعالى: « ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم » عَلِمَ أهل التحصيل أن العلم بكل معلوم — وإن كان صفةَ مدحٍ — ففيه غيرُ مرغوبٍ فيه ، بل هو مستعاذٌ منه قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بك من علم لا ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ولبئس ما شَرَوْا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون﴾

لو علم المغبونُ ماذا أبقى وماذا أبلى لتقطعت أحشاؤه حسراتٍ ، ولكن سيعلم — يوم تُبلى السرائر — الذي فاته من الكرائم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمَثُوبَةٌ مِنْ عندِ الله خيرٌ لو كانوا يعلمون ﴾

ولو آثروا الإقبالَ على الله على اشتغالهم عن الله ، لحصَّلُوا ذُخْرَ الدارين ، ووصلوا إلى

---

(1) وردت (التبعة) وهي خطأ في النسخ .

(2) هنا عبارة غامضة كتابة ومعنى ، ويرجح أن الناسخ قد وقع في أخطاء نقلية .

عِزُّ الكَوْنَيْن ، ولكن كَبَسَتْهُمْ سطواتُ القهر ، فأثبتَتْهم فى مواطن الهجر .

قوله جل ذكره : ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا لا تقولوا راعِناً وقولوا انظُرْنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ .

قصودُ الأعداء فى جميع أحوالهم — من أعمالهم وأقوالهم — قصودٌ خبيثة ؛ فهم — على مناهجهم — يبنون فيما يأتون ويَذَرُون . فسبيلُ الأولياء التَّحرزُ عن مشابهتهم ، والأخذ فى طريق غير طريقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ما يودُّ الذين كفروا من أهلِ الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّلَ عليكم مِنْ خيرٍ مِن رَبِّكُم ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ .

كراهية الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصِلَةٌ مُستَدامةٌ ، ولكن الحسود لا يسود ، ولا يحصُل له مقصود وخصائص الرحمة للأولياء كافية — وإنْ زَعَمَ مِنَ الأعداء أفَّاكٌ أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف .

قوله جل ذكره : ﴿ما نَنسَخ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها أَلَمْ تَعْلم أن الله على كل شىء قدير﴾ .

النسخُ الإزالة أى ما ينقلك من حال إلى ما هى فوقها وأعلى منها ، فغُصنُ وَصْلِك أبداً ناضر ، ونجمُ عِزِّكَ أبداً ظاهر ، فلا ننسخُ من آثار العبادةِ شيئا إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية ، ولا نسخنا من أنوار العبوديّة أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودةِ[1] .

---

(١) وردت (من اقمار العبودية) وهى خطأ من الناسخ ، لأن السياق هنا يتطلب (العبودة) ==

فأبداً[1] سيرُك في الترقي ، وقدرك في الزيادة بحسن التولّي

وقيل مارقّاكَ عن محل العبودية إلا مَلَّكك بساحات الحرية ، وما رَفَعَ عنك شيئاً من صفات[2] البشرية إلا أقامك بشاهدٍ من شواهد الألوهية .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تعلم أن الله له مُلكُ السموات
والأرض وما لكم من دون الله
من وليٍّ ولا نصير ﴾ .

سُنَّتُه — سبحانه — أن يجذب أولياءه عن شهود مُلْكِهِ إلى رؤية مِلْكِهِ[3] ، ثم يأخذهم من مُطالعةِ مِلْكه إلى شهود حقِّه ، فيأخذهم من رؤية آياته إلى رؤية صفاته ، ومن رؤية صفاته إلى شهود ذاته .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تريدون أَنْ تسألوا رسولكم
كما سُئِل موسى من قبل . ومَن
يَتَبَدَّلِ الكفرَ بالإيمان فقد ضلَّ
سَواءَ السبيل ﴾ .

إنَّ بني إسرائيل آذَوْا موسى عليه السلام ، فنُهِيَ المسلمون عن فِعْل ما أسلفوه ، وأُمِروا

= فنحن نعرف من مذهب القشيرى أن العبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخاص الخاص .

العبادة لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابدات ، والعبودة صفة أهل المشاهدات ... وهكذا ــ ومن أسانيد كثيرة فى باب العبودية فى « الرسالة » ــ نلحظ أن الدرجة القصوى فى الأمر هى (العبودة) ، والترتيب هنا يمشى هكذا آثار العبادة ، انوار العبودية ، أقمار العبودة ، وهو ترتيب فى غاية الدقة ، يعطى كل درجة قدرها .

(1) وردت (فأبد) بدون تنوين .

(2) نلفت النظر هنا إلى أهمية كلمة صفات البشرية ، أى أن المقصود ــ حسب مذهب القشيرى ــ ليس سقوط البشرية فى حد ذاتها ، وإنما صفاتها المعلولة ، وينبغى أن يكون واضحاً تمام الوضوح أن التصوف الإسلامى الحق ــ والقشيرى من أفضل المعبرين عنه ــ لا يقول بأدنى تداخل بين البشرية والألوهية فالعبد عبد والرب رب .

(3) ضبطنا ملك وملك مستفيدين من كلام القشيرى فى كتابه « التحبير » ضمن اسم « الملك » .

بمراعاة أن حشمة الرسول صلى الله عليه وسلم بغاية ما يقسم فى الإمكان . فكانوا بحضرته كأنْ على رءوسهم الطير . قال تعالى : « تعزروه وتوقروه » وحسنُ الأدب — فى الظاهر — عنوانُ حسن الأدب مع الله فى الباطن .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كُفَّاراً حَسَداً من عِندِ أنفسهم مِنْ بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾

مَنْ لَحِقَهُ خسرانالفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألاّ يطلعَ لأحدٍ بالسلامة نجمٌ ، ومَنْ اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمسٌ .

وكذلك كانت صفات الكفار ، فأرغم اللهُ أنفَهُم ، وكبَّهم على[1] وجوههم .

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة فى البداية إذا رغبوا فى السلوك ، فمن لم يساعده التوفيق (فى الصحبة ، وعاشر أناساًمتر سِّمين بالظواهر)[2] فإنهم يمنعون هؤلاء من السلوك ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصح ، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل الغفلة ، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة ، أولئك أعداء الله حقّاً ، أدركهم مقت الوقت . وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق .

« فاعفوا واصفحوا . . . » فسبيل المريد أن يحفظ عن الأغيار سِرَّه ، ويستعمل مع كل أحد ضلة[3] ، ويبذل فى الطلب رفعة[4] ، فمن قريب يفتح الحق عليه طريقه .

---

(١) فى النسخة ص (وكبهم لوجوههم) وقد آثرنا عليها (على وجوههم) .

(٢) أصلحنا فى هذه العبارة قليلا لكى يتضح معناها طبقاً لوصايا القشيرى للمريدين فى « رسالته »

(٣) هكذا وردت فى (ص) وقد نقلناها كما جاءت ، وربما كانت فى الأصل (خلة) بمعنى الصفة اى أن يحافظ على سره مع ربه عن طريق اتصاله مع صحبته بصفات ملائمة . تضمن أن يكون سره محفوظاً

(٤) ربما كانت فى الأصل (ويبذل فى الطلب وسعه) .

قوله جل ذكره: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير ﴾.

الواجب على المريد إقامة المواصلات، وإدامة التوسل بفنون[1] القُربات، واثقاً بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدْرَكُ[2] ثمرته فى أواخر الحالات.

قوله جل ذكره: ﴿ وقالوا لن يَدْخُلَ[3] الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا بُرهانكم، إنْ كنتم صادقين ﴾.

كلٌّ حِزْبٍ يُمَهِّد الأملَ لنفسه، ويظنُّ النجاة لحاله، ويدعى الوسل[4] من سهمه. ولكنّ مجرد الحسبان دون تحقق البرهان لا يأتى بحاصل، ولا يحوز بطائل.

قوله جل ذكره: ﴿ بَلَى[5] مَنْ أَسْلَمَ وجهَهُ للهِ وهو مُحسِنٌ فله أجرُهُ عِندَ ربهِ ولا خَوْفٌ عليهم ولاهم يحزنون ﴾

أسلم وجهه أى أخلص لله قصده، وأفرد لله وجهه، وطهرّ عن الشوائب عقله. «وهو محسن». عالمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله، وهو محسن فى المآل كما أنه مسلم فى الحال.

ويقال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فتكون مستسلماً بظاهرك، مشاهداً بسرائرك، فى الظاهر جهد وسجود وفى الباطن كشف ووجود.

---

(١) جاءت هكذا فى ص (بفنون) ثم صححها الناسخ فى الهامش.
(٢) جاءت فى ص (تدركوا).
(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (يدخلوا) والصحيح (يدخل) الآية ١١١.
(٤) الوسل والوسيلة والواسلة = الوصلة والقربى من الله (الوسيط ص ١٠٤٤)
(٥) أسقط الناسخ (بلى) والصحيح وجودها الآية ١١٢.

ويقال « أسلم وجهه » بالتزام الطاعات ، « وهو محسن » قائمٌ بآداب الخدمة بحسن آداب الحضور ، فهؤلاء ليس عليهم خوف الهجر ، ولا يلحقهم خوْفُ المكر ، فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى
على شيء وقالت النصارى ليست
اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ،
كذلك قال الذين لا يعلمون مثل
قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما
كانوا فيه يختلفون ﴾ .

الإشارة فى هذه الآية على العكس من حكم الظاهر ، فالأعداء يتبرأ بعضهم من بعض اليوم ، والأولياء من وجه كذلك ، ولذا قالوا : لا زالت الصوفية بخيرٍ ما تنافروا ، ولا يَقْبَلُ بعضهم بعضاً لأنه لو قَبِل بعضُهم بعضاً بقى بعضُهم مع بعض .

لكنّ الأعداء كلهم على الباطل . عند تَبَرّى بعضهم من بعض أمّا الأولياء فكُلُّهم على الحق — وهذه ما ذكرنا من حكم العكس .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أظلمُ مِمَّن منع مَسَاجِدَ الله
أنْ يُذْكر فيها اسمُه وسعى فى خرابها
أولئك ما كان لهم أن يدخلوها
إلا خائفينَ . لَهُمْ فى الدنيا خِزْىٌ ولهم
فى الآخرةِ عذابٌ عظيم ﴾ .

الإشارة فيه أن الظالم مَنْ خَرَّبَ أوطان العبادة بالشهوات ، وأوطان العبادة نفوس العابدين . وخَرَّبَ أوطان المعرفة بالمُنى والعلاقات ، وأوطان المعرفة قلوب العارفين . وخَرَّب أوطان المحبة بالحظوظ والمُساكنات ، وهى أرواح الواجدين . وخرَّب أوطان

المشاهدات بالالتفات إلى القربات وهى أسرار الموحدين[1]

قوله جلَّ ذكره : ﴿ لهم فى الدنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

لأهل الإشارة خزى الدنيا بذل الحجاب، وعذاب الآخرة الامتناع بالدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمَّ وجهُ الله إن اللهَ وَاسِعٌ عليم ﴾ .

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها . وللقلوب شوارق وطوارق . وطوارقها هواجس النفوس تطرق فى ظلمات المنى والشهوات .

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس للعارف .

فما دامت الشوارق طالعة فَقِبْلَةُ القلوب ، واضحة ظاهرة ، فإذا استولت[2] الحقائق خَفِىَ سلطانُ الشوارق ، كالنجوم تستتر عند طلوع الشمس ، كذلك عند ظهور الحق يحصل اصطلام وقهر ، فلا شهود رسم ، ولا بقاء حِسٍّ وفَهْم ، ولا سلطان عقل وعلم ، ولا ضياء عرفان . فإن وجدان[3] هذه الجملة صفات لائقة ببقاء البشرية ، وإذا صار الموصوف محواً فأنَّى لهم ببقاء الصفة !

قال تعالى : « فَأَيْنَمَا تولوا فثمَّ وجه الله » مادام يبقى من الإحساس والتمييز بقية — ولو شظية — فالقِبْلة مقصودة ، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة . وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائلُ بكلِّ وِجْهةٍ ، ولا معرفةَ بالقِبْلة تَسَاوَتْ الجهاتُ فى جواز الصلاة إلى كل واحدٍ منها إذا لم يكن للنية ترجيح .

---

(1) نعرف من مذهب القشيرى أن الأسرار (للموحدين) ولذا نرجح أن الناسخ أخطأ حينما كتبها (الواجدين) وقد أثبتناها هنا على هذا الترجيح .

(2) وردت (سولت) وهى خطأ فى النسخ .

(3) وجدان ، ووجود مصدران لوجد ، غير أن القشيرى يؤثر استعمال لفظة (الوجود) بمعناها الاصطلاحى الدقيق فى موضعها الملائم (التواجد بداية والوجد واسطة والوجود نهاية) .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ .

مَكَرَ بهم لم يُفْنِهم — من الإفناء — فى الحال ، بل جعل موجب اغترارهم طول الإمهال ، فنطقوا بعظيم الفِرْية على الله ، واستنبطوا عجيب البِرْية فى وصف الله ، فوصفوه بالولد ! وأنَّى بالولد وهو أحدى الذات ؟! لاحدَّ لذاتِه ، ولا تجوز الشهوة فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ بل له ما فى السماوات والأرض كُلٌّ له قانتون ﴾ .

أى ليس فى الكون شىء من الآثار المفتقرة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادى عليه آثار الخِلْقَة ، وتفصح منه شواهد الفطرة ، وكل صامتٍ منها ناطق ، وعلى وحدانيته ـ سبحانه ـ دليلٌ وشاهد .

قوله جل ذكْره : ﴿ بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكون ﴾ .

البديع عند العلماء مُوجِد العين لا على مِثْل ، وعند أهل الإشارة الذى ليس له شىء مِثله . فهذا الاسم يشير إلى نفى المثل عن ذاته ، ونفى المثال عن أفعاله ، فهو الأحد الذى لا عدد يجمعه ، والصمد الذى لا أَمَدَ يقطعه ، والحق الذى لا وهم يصوِّره ، والموجود الذى لا فهم يقدره . وإذا قضى أمراً فلا يعارض[1] عليه مقدور ، ولا ينفكُّ من حكمه محظور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يُكلمنا[2] الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قَبْلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بيَّنَّا[3] الآيات لقوم يوقنون ﴾ .

---

(١) الصواب أن تكون (فلا يتماس) ، فهكذا يعبر القشيرى فى مثل هذا السياق .
(٢) وردت (لولا يكلمهم) وهى خطأ ، وقد صححناها طبقاً للآية ١١٧ .
(٣) وردت خطأ (بيّـن) والصحيح (بينا) الآية ١١٧ .

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين)[1]، لكن من عَدِم سمع الفهم تصامم[2] عن استماع الحق، فإنه — سبحانه — خاطب قوماً من أهل الكتاب، وأسمعهم خطابه[3]، فلم يطيقوا سماعه، وبعدما رأوا من عظيم الآيات حرّفوا وبدّلوا . وفى الآيات التى أظهرها ما يزيح العِلّة من الأغيار، ويشفى الغُلّة من الاخيار، ولكن ما تُغني الدلائل — وإنْ وَضُحَتْ — عمن حُقَّتْ لهم الشقاوة وسبقت ؟

قوله جل ذكره : ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ .

أفردناكَ بخصائص لم نُظْهِرْها على غيرك ، فالجمهور والكافة تحت لوائك ، والمقبول من وافَقَك ، والمردود من خالفَك ، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال ، ولاعنك لأحدٍ (. . .)[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع مِلَّتهم قُلْ إنَّ هُدَى الله هو الْهُدَى ولئن اتَّبَعْتَ أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لَكَ مِنَ الله مِن وَلِىٍّ ولا نصير﴾ .

لا تبالِ برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا ، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم، ودون ذلك لهم حظ القتال فأعلِنِ[5] التبرى منهم ، وأظهر الخلاف معهم ، وانصب العداوة

---

(١) العبارة التى فى (ص) مضطربة فى الخط والمعنى، وقد صححناها طبقاً لما نعرف من آراء القشيرى الكلامية : إن الله خالق العباد وأفعال العباد (فالله خالق كل شيء ، أما الانسان فليس له أن يوصف بذلك لأن كل من لحقه وصف التكوين لا يصح منه الايجاد) .

(٢) وردت (تصامع) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت أسمعهم (خاطبهم) والأرجح أنها فى الأصل أسمعهم (خطابه) .

(٤) مشتبهة .

(٥) وردت (ما علف) وهى خطأ فى النسخ ، وقد جعلناها (فأعلن) لتلائم (وأظهر) بعدها .

لم ، واعلم أن مـا كنتهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة ، فاحرص ألا يخطر ذلك ببالك[1] ، وادعُ — إلى البراءة عنهم وعن طريقتهم — أُمَّتَكَ ، وكُن بنا لَنَا ، مُتَبَرِّياً عن سوانا ، واثقاً بنصرتنا ، فإنَّكَ بناً وَلَنَاً .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقَّ تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

الذين فتحنا أبصارهم بشهود حقنا وَكَلْنَاً أسماع قلوبهمْ بسماع خطابنا ، وخصصناهم بإسبال نور العناية عليهم ، وأيدناهم بتحقيق التعريف فى أسرارهم ، يقومون بحق التلاوة ، ويتصفون بخصائص الإيمـان والمعرفة فهم أهل التخصيص ، ومَنْ سِواهم أصحابُ الرد .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنّى فضلتـكم على العالمين ﴾

جرت سُنته — سبحانه — فى الخطاب مع قوم موسى عليه السلام أن يناديهم بنداء العلامة فيقول : يا بنى إسرائيل اذكروا ، أى يا بنى يعقوب ، ومع هذه الأمة[2] أن يخاطبهم بنداء الكرامة فيقول : « يأيها الذين آمنوا »

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تَجزى نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ منها عَدْلٌ ، ولا تنفعها شفاعة ولاهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾

أمَّا الأعداء فلا يَقْبَلُ منهم شيئا ، وأما الأولياء فقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة » ، والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين فهذا حكم كل أمةٍ مع نبيِّها ، وأمَّا المؤمنون — فعلى التخصيص — تنفعهم شفاعة نبيِّهم صلى الله عليه وسلم .

---

(١) جاءت الجملة فى ص هـكذا (فاحرص عن أخطار ذلك ببالك) وصححنا لأنفسنا بشىء من التصرف يتيح فهم المعنى ، وربما كان أقرب إلى الأصل .

(٢) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وكلُّ أحدٍ يقول يومئذٍ نفسى نفسى ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى أمتى[1] .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهُنَّ﴾.

البلاء تحقيق الولاء ، فأصدقهم ولاء أشدُّهم بلاء .

ولقد ابتلى الحق — سبحانه — خليلَه عليه السلام بما فرض عليه وشرع له ، فقام بشرط وجوبها ، ووفَّى بحكم مقتضاها ، فأثنى عليه سبحانه بقوله : « وإبراهيم الذى وفَّى » — من التوفية — أى لم يُقَصِّر بوجهٍ ألبتة .

يقال حمَّله أعباء النبوة ، وطالبه بأحكام الخُلَّة ، وأشد بلاء له كان قيامه بشرائط الخلة ، والانفراد له بالتجافى عن كل واحد وكل شىء ، فقام بتصحيح ذلك مختليًا عن جميع ما سواه ، سِرًّا وعَلَنًا .[2]

كذلك لم يلاحظ جبريلَ عليه السلام حين تعرض له وهو يُقْذف فى لجَّة الهلاك ، فقال : هل من حاجة ؟ فقال : أمَّا إليكَ . . . . فلا .

ومن كمال بلائه تعرض جبريل عليه السلام فى تلك الحالة ، وأى بقية كانت بقيت له منه حتى يكون لمخلوق فيه مساغ كائنًا من كان ؟ !

---

(١) أخطأ الناسخ حين نقلها « كل عبد يقول . . والصواب » كل أحد ... وقد سمع القشيرى هذه العبارة من أستاذه الدقاق — كما يقول فى رسالته فى باب الفتوة .

(٢) هذا هو رأى القشيرى فى « الخُلَّة » ، ونرى لزاماً علينا أن ننبه إلى بعض الآراء الأخرى فيها . فالمعتزلة — الذين يبتعدون عن كل ما يحمل على التشبيه — يبذلون جهدهم فى الاستعانة باللغة للحصول على تأويلات للنص القرآنى تخدم هذه الغاية ، فلما لم يرضهم حَمْل لفظة الخليل على ظاهرها فى الآية « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (النساء : ١٢٥) استشهدوا ببيت من الشعر القديم لزهير وهو :

وإن أتاه خليــل يوم مسألة   يقول لا غائب مالى ولا حرم

(ديوان زهير نشر دار الكتب ص ١٥٣) وفيه خليل بمعنى محتاج ، وقد أورد القشيرى هذا الرأى ضمن تفسيره للآية ١٢٤ النساء ، أى أنه لا يعارض أن تحتمل اللفظة هذا المعنى .

ويفسر دكتور عبد الرحمن بدوى قول أبى طالب المكى (إن رابعة قد ارتفعت إلى وصف معنى الخلة) بما يلى : (على أن مقام الخلة هذا يمكن أن يفسر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير والشر ، ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا . أما — رابعة ورباح — فقد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلوذان بجوار الألوهية واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت » .

شهيدة العشق الالهى ص ٦٣ ، ٦٤

وفى هذا إشارة دقيقة إلى الفَرْقِ بين حال نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وحال إبراهيم عليه السلام، لأنه تعرض جبريل للخليل وعَرَضَ عليه نفسه:

فقال: أمَّا إليكَ .. فلاَ. ولم يُطِقْ جبريل صحبة النبى صلى الله عليه وسلم فنطق بلسان العجز وقال:

لو دنوتُ أنملة لاحترقتُ[1].

وشتّان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قوّته بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه، وبين حالة يعترف الحبيب — صلوات الله عليه — فيها بعجزه.

قوله جل ذكره: ﴿ إنى جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتى قال: لا ينال عهدى الظالمين . وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمْنا ﴾

الإمام مَنْ يُقْتَدى به، وقد حقّق له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالاقتداء به فقال: « ملة أبيكم إبراهيم » أى اتبعوا ملة إبراهيم يعنى التوحيد، وقال: « واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلّى ».

هذا هو تحقيق الإمامة. ورتبة الإمامة أن يَفهَم عن الحق ثم يُفهِمَ الخلْق؛ فيكون واسطة بين الحق والخلْق، يكون بظاهره مع الخلْق لا يفتر عن تبليغ الرسالة، وبباطنه مشاهداً للحق، لا يتغير له صفاء الحالة، ويقول للخلْق ما يقوله له الحق.

قوله جل ذكره: ﴿ ومن ذريتى ﴾

نطق بمقتضى الشفقة عليهم، فطلب لهم ما أُكرِم به. فأخبره أن ذلك ليس باستحقاق نَسَبٍ، أو باستيجاب سبب، وإنما هى أقسام مضت بها أحكام فقال له: « لا ينال عهدى

---

(١) يشير بهذا إلى ما حدث ليلة الاسراء والمعراج فى الملأ الأعلى (انظر كتاب المعراج) للقشيرى نشره دكتور على عبد القادر. ط. (الكتب الحديثة) سنة ١٩٦٤.

الظالمين » وليس هذا كنعيم الدنيا وسعة الأرزاق فيها ، فهي لا ادّخار لها عن أحد وإن كان كافراً ، ولذلك :

قال جلّ ذكره : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾
فقال الله تعالى : ﴿ ومن كفر فأمتّعهُ قليلا ﴾

يعنى ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار ، ولكن عهدى لاينالهُ إلا مَن اخترته مِنْ خواص عبادى .

أمّا الطعام والشراب فغير ممنوع من أحد .

أمّا الإسلام والمحاب فغير مبذول لكل أحد .

قوله جل ذكره : ﴿وإذجعلناالبيتمثابةً للناس وأمْنًا﴾

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت — يعنى الكعبة — مثابة للناس إليه يثوبون ، ومأمنا لهم إليه يرجعون ، وإياه من كل نحوٍ يقصدون .

هو بيت خلقتُه من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل ، فمن نظر إلى البيت بعين الخِلْقَة انفصل ، ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل[1] ، وكلُّ من التجأ إلى ذلك البيت أَمِنَ من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام ، والتوبة عن الآثام .

ويقال بُنِيَ البيتُ من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر للمغناطيس يجذب الحديد .

بيتٌ من وقع عليه ظِلُّه أناخ بعَقْوَةِ[2] الأمن .

---

(١) قارن رأى القشيرى الصوفى الحريص بآراء بعض الصوفية الذين أوتوا حظاً من الجرأة فى التعبير . عن هذا الموضوع ، من ذلك مثلا قول رابعة « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة أما الكعبة فماذا أفعل بها ... ولم تشأ أن تنظر إليها (تذكرة الأولياء . العطار ج ١ ص ٦١) .

وقول الحلاج : « إن شوقنا إلى الله يجب أن يمحو مثلياً فى نفوسنا صورة الكعبة ، كما نجد من آقامها « شخصيات قلقة فى الاسلام . د . بدوى ص ٦٨ .

(٢) العَقْوَة = الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولها (الوسيط ص ٦٢٤) .

بيتٌ مَنْ وقع عليه طَرْفُه بُشِّرَ بتحقيق الغفران .

بيتٌ مَنْ طاف حَوْلَه طافت اللطائف بقلبه ، فطَوْفَةٌ بطوفة ، وشَوْطة بشوطة وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

بيتٌ ماخَسِرَ مَنْ أنفق على الوصول[1] إليه مَالَه .

بيت ماربح مَنْ ضَنَّ عليه بشيء ، مَنْ زاره نَسِيَ مزارَه ، وهجر دياره .

بيت لا تُسْتَبْعَدُ إليه المسافة ، بيت لا تُتْرَكُ زيارته لحصول مخافة ، أو هجوم آفة ، بيت ليس له بهجة الفقراء آفة .

بيت من قعد عن زيارته فَلِعدَمِ فتُوَّتِه ، أو لقلة محبته .

بيتٌ من صَبِرَ عنه فقلبه أقسى من الحجارة . بيت من وقع عليه شعاعُ أنواره تَسَلَّى عن شموسه وأقماره .

بيت ليس العجب ممن بقى (عنه)[2] كيف يصبر ، إنما العجب ممن حضره كيف يرجع !

قوله جل ذكره : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى﴾ .

عَبْدٌ رفع لله سبحانه قَدَمًا فإلى القيامة جعل أثر قَدَمِهِ قِبْلَةً لجميع المسلمين إكرامًا لا مدى له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرَا بيتى للطائفين والعاكفين والرُّكَّعِ السجود . وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأُمَتِّعه

---

(١) وردت (الوصل) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) (عنه) تكملة جاءت فى هامش الصفحة ، وهى تكملة ضرورية .

قليلا ، ثم أضطره إلى عذاب النار
وبئس المصير ﴾ .

الأمر فى الظاهر بتطهير البيت ، والإشارة من الآية إلى تطهير القلب .

وتطهير البيت بِصَوْنه عن الأدناس والأوضار ، وتطهير القلب بحفظه عن ملاحظة الأجناس والأغيار .

وطوافُ الحجاج حول البيت معلومٌ بلسان الشرع ، وطوافُ المعانى معلومٌ لأهل الحق ؛ فقلوب العارفين للمعانى فيها طائفة ، وقلوب الموحِّدين الحقائق فيها عاكفة ، فهؤلاء أصحاب التلوين[1] وهؤلاء أرباب التمكين .

وقلوبُ القاصدين بملازمة الخضوع على باب الجود أبداً واقفة .

وقلوب الموحِّدين على بساط الوصل أبداً راكعة .

وقلوب الواجدين على بساط القرب أبداً ساجدة .

ويقال صواعد نوازع الطالبين بباب الكرم أبداً واقفة ، وسوامى قصود المريدين بمشهد الجود أبداً طائفة ، ووفود هِمَمِ العارفين بحضرة العِزِّ أبداً عاكفة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا
بلدا آمنا ﴾ .

السؤال إذا لم يكن مشوباً بحظِّ العبد كان مستجابا ، ولم يكن سؤال إبراهيم هذا لحظِّ نفسه ، وإنما كان لِحقِّ ربِّه عزَّ وجلَّ .

ولمَّا حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص أجيب فيهم

(١) وردت (التكوين) وهى خطأ من الناسخ ، والصحيح أنها (التلوين) .
والتلوين والتمكين لفظان اصطلاحيان : (التلوين صفة ارباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق ، فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقى من حالٍ إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف وهو أبداً فى الزيادة أما صاحب التمكين فوصل ثم اتصل ، وأمارة أنه اتصل أنه بالكلية عن كليته بطل . والتغير بما يرد على العبد إما لقوة الوارد أو لضعف صاحبه ، والسكون إما لقوته أو لضعف الوارد عليه) الرسالة ص ٤٤

وفى الذين لم يؤمنوا . ولمَّا قال فى حديث الإمامة : «ومن ذُرِّيتى » من غير إذن مُنِعَ وقيل له : «لا ينال عهدى الظالمين » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت
وإسماعيل ربَّنا تقبل منا إنك أنت
السميع العليم ﴾ .

نجحُ السؤال فى صدق الابتهال ، فلما فزعا إلى الخضوع فى الدعاء أتاهما المدد ، وتحقيق السؤال .

« إنك أنت السميع » لأقوالنا « العليم » بأحوالنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن
ذريتنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لك ، وأرِنا
مَنَاسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنتَ
التواب الرحيم ﴾ .

« مسلمين » : منقادين لحكمك حتى لا يتحرك منَّا عِرْق بغير رضاك ، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا فى القيام بحقوقك ، وشتان بين من يطلب وارثاً لماله ، وبين من يطلب نائبا بعده يقوم بطاعته فى أحواله .

« وأرنا مناسكنا » إذ لا سبيل إلى معرفة الموافقات إلا بطريق التوفيق والإعلام .

« وتب علينا » : بعد قيامنا بجميع ما أمَرْتَنَا حتى لا نلاحظ حركاتِنا وسكناتِنا ، ونرجع إليك عن شهود أفعالنا لئلا يكونَ خطرُ الشِّرْك الخفىِّ فى توهُّم شىءٍ منَّا بِنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا
عليهم آياتِك ويعلمهم الكتاب
والحِكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز
الحكيم ﴾ .

إن الواجبات لمّا كانت من قِبَلِ الرسل دون مجرد المعقول سأل ألا يتركهم سُدىً ، وألا يخليهم عن رسولٍ وشرع . وطلب فى ذلك للوقف أن يكون الرسول « منهم » ليكونوا أسكنَ إليه وأسهلَ عليهم ، ويصح أن يكون معناه أنه لما عرَّفَهُ — سبحانه — حالَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم سأل إنجاز ما وعده على الوجه الذى به (أمره[1]) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يرغب عن مِلَّةِ إبراهيم إلا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لِمن الصالحين ﴾ .

أخبر أنه آثر الخليل صلوات الله عليه على البرية ، لجعل الدينَ دينَه ، والتوحيدَ شِعارَه والمعرفةَ صِفته ؛ فمن رَغِبَ عن دينه أو حاد عن سُنَّتِهِ فالباطل مطرحه ، والكفر مهواه ؛ إذ ليست الأنوار بجملتها إلا مقتبسة من نوره .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال له ربُّه أَسْلِمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمين ﴾

الإسلام هو الإخلاص وهو الاستسلام ، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من منازعات الاختيار ومعارضات النفس ، قال : « أسلمت لرب العالمين » : قابلت الأمر بالسمع والطاعة ،واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة . ولم يدخر شيئاً من ماله وبدنه وولده ، وحين أُمِرَ بذبح الولد قصد الذبح ، وحين قال له خلِّه من الأسر (عمل)[2] ما أُمِرَ به ، فلم يكن له فى الحالين « اختيار » ولا تدبير .

ويقال إن قوله : « أسلمتُ » : ليس بدعوى من قِبَلِهِ لأن حقيقة الإسلام إنما هو التبرى من الحول والقوة ، فإذا قال : « أسلمت » فكأنه قال أَقِمْنى فيما كلفتنى ، وحَقِّق منى ما به أمرتنى . فهو أحال الأمر عليه ، لا لإظهار معنى أو ضمان شىء من قِبَلِ نفسه .

ويقال أمَرَه بأن يستأثر بمطالبات القدرة ؛ فإن من حلَّ فى الخلة محلَّه يحل به — لا محالة — ما حلَّ به .

---

(١) نرجح أنها فى الأصل (أخبره) حتى تتلاءم مع السياق وبذا يكون الناسخ مخطئاً فى نقلها .

(٢) فى ص (فَسَلِّمَ) ويمكن أن يحتملها المعنى ، ولكن ترجيح (عمل) أقوى فى الدلالة على الامتثال

ويُسأَلُ هاهنا سؤال فَيقال : كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه : « أسلمت » ولم يَقُلْ نبيُّنا صلى الله عليه وسلّم حينما قيل له إعْلَمْ « علمت » ؟.

والجواب عن ذلك من وجوه : منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أنا أعلمكم بالله[1] » ولكن لم يَرِد بعده شرع فكان يخبر عنه بأنه قال علمت.

ويقال: إن الله سبحانه أخبر عن الرسول عليه السلام بقوله : « آمن الرسول » لأن الإيمان هو العلم بالله سبحانه وتعالى، وقول الحق وإخباره عنه أتمُّ من إخباره - عليه السلام - عن نفسه.

والآخر أن إبراهيم لما أخبر بقوله : « أسلمت » اقترنت به البلوى، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — يتحرز عما هو صورة الدعوى فَحُفِظَ وكُفِيَ.

والآخر أن إبراهيم عليه السلام أُمِرَ بما يجرى مجرى الأفعال، فإن الاستسلامَ به إليه يشير. ونبينا صلى الله عليه وسلم أُمِرَ بالعلم، (ولطائف العلم أقسام)[2].

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَصَّى بها إبْرٰهيمُ بنيهِ ، ويعقوبُ :
يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدِّينَ
فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾.

أخبر أن إبراهيم عليه السلام وصَّى بنيه، وكذلك يعقوب عليه السلام قال لبنيه لا يصيبنكم الموت إلا وأنتم بوصف الإسلام. فشرائعهم — وإن اختلفت فى الأفعال — فالأصل واحد، ومشرب التوحيد لا ثانى — له فى التقسيم — وقوله تعالى : « إن الله اصطفى

---

(١) « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله ».
البخارى عن أنس « والله إنى لأخشاكم وأتقاكم له ».
والشيخان عن عائشة « والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية ».

(٢) هنا وضع الناسخ علامة تدل على أنه أخطأ فى النقل، ولهذا فإن العبارة التى وردت فى (ص) مضطربة وقد آثرنا أن نلتقط منها ما نُرجح أنه ملائم للمعنى. فالمقصود أن إبراهيم عليه السلام عبَّر بقوله « أسلمت » وهذا فعل إنسانى بينما لم يقل الرسول (ص) « علمت » لأن العلم ليس كسباً للعبد وإنما هو قسمة له أى أنه من عين الجود لا من قبيل المجهود، والله أعلم

لكم الدين » بشارة بما تقوى به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام ، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام .

قوله جل ذكره : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب
الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من
بعدى قالوا نعبد إلهك ﴾ .

جروا كلهم — صلوات الله عليهم — على منهاج واحد فى التوحيد والإسلام ، وتوارثوا ذلك خَلَفاً عن سَلَف ، فهم أهل بيت الزلفة ، ومستحقو القربة ، والمُطَهَّرون من قِبَل الله — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون ﴾ .

لم يقولوا إلهنا مراعاة لخصوصية قَدْره ، حيث سلموا له للمزية ، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه ، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيَّعٌ له[1] بقولهم « ونحن له مسلمون » .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك أمَّة قد خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ
ولكم مَّا كَسَبْتُمْ ولا تُسْأَلون
عما كانوا يعملون ﴾ .

أنزل الحقُّ — سبحانه — كُلاً بمحلِّه ، وأفرد لكل واحدٍ قَدْراً بموجِبِ حكمه ، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر ، ولا بما خَصَّ به كل طائفة إلى آخرين أثر ، وكلٌّ فى إقليمه ملِك ، ولكلٍ يدور بالسعادة فَلَك .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى
تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً
وما كان من المشركين ﴾ .

---

(١) وردت (طبع لهم) ونرجح أن الناسخ قد أخطأ فى النقل لأن « ونحن له مسلمون » معناه (ونحن طُيَّعٌ له) وطُيَّع جمع طائع مثل رُكَّع وسُجَّد من راكع وساجد .

معناه إذا تجاذبتك الفِرَق ، واختلفت عليك للطالبات بالموافقة ، فاحكم بتقابل دعاواهم ، وأَزِد من توجهك إلينا ، جارياً على منهاج الخليل عليه السلام فى اعتزال الجملة ، سواء كان أباه ، أو كان ممن لا يوافق مولاه ، ولذا قال « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » للحق بالحق .

قوله جل ذكره : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيُّون من ربِّهم ، لا نُفَرِّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

لمَّا آمن نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بجميع ما أُنْزِلَ من قَبْلِهِ أُكْرِمَ بجميع ما أَكْرَمَه من قبله ، فلمَّا أظهر موافقة الجميع أَمَرَ الكُلَّ بالكَوْنِ تحت لوائه فقال : « آدمُ ومَنْ دونه تحت لوائى يوم القيامة »(١) .

ولمَّا آمنت أُمَّتُه بجميع ما أنزل الله على رسله(٢) ، ولم يفرقوا بين أحدٍ فهم ضربوا فى التكريم بالسَّهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ .

إن سلكوا طريقتكم ، وأخذوا بسبيلكم ، أُكرِموا بما أُكْرِمتم ، ووصلوا إلى ما وصلتم ، وإنْ أَبَوْا إلا امتيازاً أَبَيْنا إلا هوانهم . فإنَّ نَظَرَنا لمن خدمك يا محمد بالوصلة ،

---

(١) « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى » .

من أحاديث الشفاعة رواه الترمذى (٧٩ / ٦ منتخب كنز العمال) .

(٢) وردت رسوله ، والأولى أن تكون رسله لأن السياق يقتضى ذلك .

وإعراضنا عن بآيائك وخالفك (. . .)[١] ، من خالفك فهو فى شق الأعداء ، ومن خدَمَك فهو فى شق[٢] الأولياء .

« فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » : كفاية الله متحققة لأن عناية الله بكم متعلقة ، فمن نابذكم قصمته أيادى النصرة ، ومن خالفكم قهرته قضايا القسمة ، وهو السميع لمناجاة أسراركم معنا على وصف الدوام ، العليم باستحقاقكم (منا)[٣] خصائص اللطف والإكرام .

قوله جل ذكره : ﴿ صِبْغَةَ الله ومَنْ أَحْسَنُ من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ .

معناه الزموا صبغةَ الله ، فهو نصب بإضمار فعل .

والإشارة أن العبرة بما وضع الحق لا بما جمع العبد ، فما يتكلفه الخلْقُ فإلى الزوال مآله ، وما أثبت الحقُّ عليه الفطرةَ فبإثباته العبرة .

والقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظواهرِ صبغة . صبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق ، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَتُحاجوننا فى الله وهو رَبُّنَا وربُّكُمْ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلِصون ﴾[٤] .

كيف تصحُّ محاجة الأجانب[٥] وهم تحت غطاء الغيبة ، وفى ظلال الحجبة . والأولياء فى ضياء الكشف وظهورِ الشهود ؟

---

(١) هنا كلمة (بالواجب) ونظن أنها فى الأصل (بالفرقة) أو ما فى معناها لتقابل (الوصلة) .
(٢) وردت (سلك) والمعنى يرفضها تماما مما يدل على أنها خطأ من الناسخ وربما كانت (سلك) .
(٣) وردت (من) وهى مقبولة ، ولكن الأجل أن تكون (منا) حتى تنسجم الموسيقى الداخلية — وهذه خصيصة فى أسلوب القشيرى — مع (معنا) فى الجملة السابقة عليها ، فضلا عن أن فيها إعادة كل فضل إلى الله .
(٤) أخطأ الناسخ وكتبها (مصلحون) وصحة الآية (١٣٨) (. . . مخلصون) .
(٥) وردت (الاجابة) وهى خطأ من الناسخ .

ومتى يستوى حال من هو بنعت الإفلاس بِغَيْبَتِهِ مع حال من هو فى حكم الاختصاص والإخلاص لانفراقه فى قُرْبَتِهِ ؟ هيهات لا سواء !

قوله جل ذكره : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قُلْ أأنتم أعلَمُ أم الله ، ومن أظلم ممن كَتَمَ شهادة عِنْدَه مِنَ الله وما الله بِغَافِلٍ عما تعملون ﴾ .

مَنْ نظر منْ نفسه إلى الخَلْقِ يتخيَّل كُلاً بِرَقْمِهِ ، ويحسب الجميع بنعت مثله ؛ فلمَّا كانوا بحكم الأجنبيةِ حَكَمَ الأنبياء — عليهم السلام — بمثل حالتهم ، فردَّ الحقُّ — سبحانه — عليهم ظنَّهم و (. . .)[1] فيهم رأيهم . وهل يكون المجذوب عن شاهده كالمحجوب فى شاهده ؟ وهل يتساوى المختطف[2] عن كُلِّه بالمردود إلى مثله ؟

ذلك ظن الذين كفروا فتعساً[3] لهم !

قوله جل ذكره : ﴿ تلك أمة قد خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ ولكم ما كسبتم ولا تُسْأَلون عما كانوا يعملون ﴾ .

حالت بينكم وبينهم حواجز من القِسمةِ ؛ فهم على الفُرقة والغفلة أسسوا بنيانهم ، وأنتم على الزلفة والوصلة ضربتم خيامكم . وعتيق فضلنا لا يشبه طريد قهرنا[4] ..

---

(١) مشتبهة فى (ص) .

(٢) وردت (المختلف) وهى خطأ من الناسخ ، فمن معرفتنا بأسلوب القشيرى نجزم أنها (المختطف) عن كله خذ مثلا قوله فى مستهل رسالته معبراً عن الفكرة ذاتها ... واختطفوا عنهم بالكلية) .

(٣) وردت (فتماساً) والصحيح (فتعسا) .

(٤) أخطأ أحد قراء النسخة (ص) حينما فَهِمَ (عتيق) هنا على معنى قديم والمقصود هنا — حسب السياق العام — أنها بمعنى حر ، فمعنى العبارة : إن من يتحرر فى أكناف فضل الله ليس كمن يطرد فى متاهات قهره .

قوله جل ذكره : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاَّهم
عن قِبْلتهم التى كانوا عليها ﴾ .

سقمت بصائر الكفار فلم يَلُحْ لهم وجهُ الصواب فى جميع أحوال المؤمنين ، فطالعوها بعين الاستقباح ، وانطلقت ألسنتهم بالاعتراض[1] فى كل ما كان ويكون منهم ، فلم يروا شيئاً جديداً إلا أتَوْا عليه باعتراض جديد .

فمن ذلك تغير أمر القِبلة حينما حُوِّلتْ إلى الكعبة قالوا إن كانت قبلتهم حقاً فما الذى ولاَّهم[2] عنها ؟ فقال جل ذكره :

﴿ قُل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾

يتعبَّد العباد إلى أى قطرٍ و (. . .) ونحوٍ شاءوا ، وكذلك أصحابُ الغيبة والحُجبة — عن شهود تصريف الحق لأوليائه — يطلبون وجوهاً من الأمر ، يحملون عليها أحوالهم ، ولو طالعوا الجميع من عين واحدة لتخلصوا عن ألم تَوَزُّع الفِكْر ، وشُغْل تَرَجُّم الخاطر ، ومطالبات تَقَسُّم الظنون ، ولكنَّ الله يهدى لنوره من شاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيداً ﴾ .

الوسط الخيار ، فجعل هذه الأمة خيار الأمم ، وجعل هذه الطائفة[3] خيار هذه الأمة فهم خيار الخيار . فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم فى القيامة فهذه الطائفة هم الأصول ، وعليهم المدار ، وهم القطب ، وبهم يحفظ الله جميع الأمة ، وكلُّ من قَبِلَتْهُ قلوبهم فهو المقبول ، ومن رَدَّتْهُ[4] قلوبهم فهو المردود . فالحكم الصادق لفراستهم ، والصحيح حكمهم ، والصائب نظرهم

---

(١) وردت (بالأعراض) وربما يقبلها المعنى ، ولكن النطق (بالاعتراض) أكثر ملاءمة ، خصوصا وقد جاءت (الاعتراض) بعد قليل .

(٢) وردت (وليهم) وهى خطأ فى الكتابة .

(٣) يقصد أهل الحقائق .

(٤) فى النسخة (روية) ومصححة فى الهامش (ردَّته) وهى الصحيحة .

عصم جميع الأمة (عن)[1] الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ فى النظر والحكم، والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مُسْتَنِدٌ إلى سُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكل ما لا يكون فيه اقتداء بالرسول[2] عليه السلام فهو عليه ردٌّ[3]، وصاحبه على لا شيء.

قوله جل ذكره: ﴿ وما جعلنا القِبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول مِمَّنْ ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هَدَى اللهُ، وما كان الله لِيُضيعَ إيمانَكم إن الله بالناسِ لَرَءوفٌ رحيم ﴾.

بيَّن أن الحكم فى تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل، وتحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق ليتميز الصادق من المارق[4]، ومَنْ نَظَر إلى الأمر بعين التفرقة لكَبُر عليه أمر التحويل، ومن نظر بعين الحقيقة ظهرت لبصيرته وجوه الصواب. ثم قال: « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أى من كان مع الله فى جميع الأحوال على قلب واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة، فسواء غيَّر أو قرَّر، وأثبت أو بدَّل، وحقَّق أو حوَّلَ فَهُمْ بِهِ لَهُ فى جميع الأحوال، قال قائلهم:

كيفما دارت الزجاجة دُرْنا ... يحسب الجاهلون أنَّا جُنِنَّا

فإنْ قابلوا شرقاً أو واجهوا غرباً، وإنْ استقبلوا حجراً أو قاربوا مدراً، فمقصودُ قلوبهم واحدٌ، وما كان للواحد فحُكْمُ الجميع فيه واحد.

قوله جل ذكره: ﴿ قد نرى تقلُّبَ وجهك فى السماء فلنولينك قِبْلةً ترضاها، فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾.

---

(١) وردت (على) والصحيح عصم (عن) وقد استعملت (عن) فى الجملة التالية فى المعنى نفسه.

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (بالوصل).

(٣) جاءت (فهو عليهم رد) والصواب أن تكون (فهو عليه رد).

(٤) وردت (المارن) وقد جعلناها (المارق) لملاءمتها للمعنى. ونرجح أنها كذلك فى الأصل.

حفظاً — صلوات الله عليه — الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنّاه من أمر القبلة بقلبه ، فلاحَظَ السماء لأنها طريق جبريل عليه السلام ، فأنزل الله عزّ وجل : « قد نرى تقلب وجهك في السماء » أي علمنا سؤلك عنّا لم تُفْصِحْ عنه بلسان الدعاء ، فلقد غيَّرنا القِبْلَةَ لأجلك ، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب .

كلُّ العبيد يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك : فلنولينك قِبْلَةً ترضاها » .

« فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام » : ولكن لا تُعَلِّقْ قلبَكَ بالأحجار والآثار ، وأفرد قلبك لي ، ولتكن القِبلةُ مقصودَ نَفْسِك ، والحقُّ مشهودَ قلبك ، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره ، ولكن أخلِصوا قلوبَكم لي وأفرِدوا شهودكم بي .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنَّ الذين أوتوا الكتاب ليَعْلَمُونَ أنه الحقُّ من ربهم وما الله بغافلٍ عما يعملون﴾ .

ولكنه عِلْمٌ لا يكون عليهم حجة ، ولا تكون لهم فيه راحة أو منه زيادة ، « وما الله بغافل عما يعملون » تهويلا على الأعداء ، وتأميلاً على الأولياء .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أتيْتَ الذين أوتوا الكتاب بكلِّ آية ما تَبِعُوا قبلَتك وما أنت بتابعٍ قِبْلَتَهُم وما بعضهم بتابعٍ قِبلَة بعض . ولئن اتبعتَ أهواءهم مِنْ بعد ما جاءك مِنَ العِلْمِ إنَّكَ إذاً لَمِنَ الظالمين ﴾ [1] .

سبق لكم من قديم الحكم (. . .)[2] انفرادٌ بطريق الحق ، ووقوع أعدائكم في شق

---

(١) وقع الناسخ في الخطأ حين وضع مكان (إنك إذاً لمن الظالمين) مالك من الله من ولي ولا نصير ، فأصلحناه .

(٢) هنا كلمة (القرب) ثم استبعدها الناسخ لزيادتها .

البُعْد ، فبينكما برزخٌ لا يبغيان ، فما هم بتابعي قبلتكم وإنْ أريتهم من الآثار ما هو أظهر من الشموس والأقمار ، ولا أنت — بتابعٍ قبلتهم وإن أتوا بكل احتيال ، حُكْماً من الله — سبحانه — بذلك في سابق الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءَهُمْ وإنَّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾.

حَمَلَتْهم مُسْتَكِنَّاتُ الحسد على مكابرة ما علموه بالاضطرار ، فكذلك المغلوب في ظلمات نفسه ، ألقى[1] جلباب الحياء فلم ينْجع فيه ملَام ، ولم يَرْدَعْه عن انهماكه كلام .

قوله جل ذكره : ﴿ الحقُّ مِن ربِّك فلا تكوننَّ مِن المُمْتَرِين ﴾ .

أي بعدما طلعت لك شموس اليقين فلا تَدْعَنْ[2] إلى مجوزات التخمين[3] . والخطاب له والمراد به الأمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلٍ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأتِ بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

الإشارة منه : أنَّ كل قوم اشتغلوا عنّا بشيء حَالَ بينهم وبيننا ، فكونوا أنتم أيها المؤمنون لنا وبنا ، وأنشد بعضهم :

إذا الأشغالُ ألْهَوْك عنك بشُغْلِهم   جعلتك أشغالي فأنْسَيْتَني شُغْلي

---

(1) وردت (تلقى) وهي خطأ من الناسخ .

(2) وردت (فلا ترعن) . والصواب أن تكون (فلا تدعَن) بالدال .

(3) يلمز القشيري هنا بما بين علوم أرباب الأحوال وبين العلوم العقلية ، لأننا نعرف من مذهبه أنه مع احترامه العقل في البداية إلا أنه محتمل للإصابة بالتجويز والتخمين وغيرهما من الآفات التي لا تجعله جديرا — وحده — بالوصول إلى المعارف العليا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ حيثُ خَرَجْتَ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ .

كما تستقبلون أينما كنتم القِبْلَةَ — قَرُبْتُم منها أم بَعُدْتُم — فكذلك أقبِلُوا علينا بقلوبكم كيفما كنتم ، حَظَيتم منا أو مُنِيتُم .

قوله جل ذكره : ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ .

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيلٌ ، ولا يقع لمخلوق عليك ظِلٌّ ، ولا تصل إليك بالسوء يَدٌ ، فحيثما كنتَ وأينما كنتَ وكيفما كنتَ كُنْ لَنَا وكُن مِنَّا ، فإنَّ من انقطع إلينا لا يتطرق إليه حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تخشوهم واخشونى ﴾ .

إذا كانوا محوا عن كونهم رسوماً تجرى عليهم أحكامنا — فأَنَّى بالخشية منهم ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ ولأُتِمَّ نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾ .

إتمام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف ، فإن من كفاه بمقتضى جوده دون من أغناه بحق وجوده ، وفى معناه أنشدوا :

نحن فى أكملِ السرورِ ولكنْ ليس إلا بكم يَتِمُّ السرور
عيبُ ما نحن فيه —يا أهلَ وُدِّى— أنكم غُيَّبٌ ونحن الحضُور

قوله جل ذكره : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو[1] عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ .

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (يتلون) .

إرسال الرسول مفاتحة لأبواب الوصول ، فكان فى سابق علمه — سبحانه — أن قلوب أوليائه متعطشة إلى لقائه . ولا سبيل لأحد إليه إلا بواسطة الرسل ، فأقوام ألزمهم — بإرسال الرسل إليهم — الكُلَف ، وآخرون أكرمهم — بإرسال الرسل إليهم — بفنون القُرَب والزُّلَف ، وشتّان بين قوم وقوم !

قوله جل ذكره : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ .

الذكر استغراق الذاكر فى شهود المذكور ، ثم استهلاكه فى وجود المذكور ، حتى لا يبقى منك أثر يذكر ، فيقال قد كان مرةً فلان .

« فاذكرونى أذكركم » أى كونوا مستهلكين فى وجودنا ، نذكركم بعد فنائكم عنكم ، قال الله تعالى : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » كانوا وقتاً ولكنهم بانوا دائما[1] :

انـاس حـديث حسن فكن حديثا حسنا لمن وعى[2]

وطريقة أهل العبارة[3] (فاذكرونى) بالموافقات (أذكركم) بالكرامات ، وطريقة أهل الإشارة (فاذكرونى) بتركِ كل حظ (أذكركم) بأن أقيمكم بحقى بعد فنائكم عنكم .

(فاذكرونى) مكتفين بى[4] عن عطائى وأفضالى (أذكركم) راضياً بكم دون أفعالكم .

(فاذكرونى) بذكرى لكم ما تذكرون ، ولولا سابقُ ذكرى لما كان لاحقُ ذكركم .

(فاذكرونى) بقطع العلائق (أذكركم) بنعوت الحقائق .

ويقال اذكرنى لكل مَنْ لقيتَه أذكرك لمن خاطبتَه ، فمن ذكرنى فى ملأٍ ذكرته فى ملأٍ خيرٍ منهم .

---

(١) يقول يحيى بن معاذ : العارف كائن بائن . ومرة قال : للعارف كان فبان (الرسالة ص ١٥٧) .

(٢) البيت منقول كما جاء فى ص ، لم نحاول أن نبدل فى كتابته وهو مضطرب وزنا ومعنى .

(٣) وردت (العبادة) والأصوب أن يكون احتمال ورودها فى الأصل (العبارة) لتعبّر عن درجة أدنى من درجة أهل (الإشارة) .

(٤) وردت (مكتفيا لى) والأقرب الى المعنى أن نجعلها فى صورة الجمع وأن يكون حرف الباء أولى من اللام حيث يقال اكتفيتُ بالله عن عطاء الله .

ويقال (واشكرونى) على عظيم المِنّةِ عليكم بأن قُلْتُ : (فاذكرونى أذكركم) .

ويقال الشكر من قبيل الذكر ، وقوله (ولا تكفرون) النهى عن الكفران أمرٌ بالشكر ، الشكر ذكر ، فكرر عليك الأمر بالذكر ، والثلاث أول حدٌّ الكثرة ، والأمر بالذكر الكثير أمر بالمحبة لأنَّ فى الخبر : « من أحب شيئاً أكثر ذكره » فهذا — فى الحقيقة — أمرٌ بالمحبة أى أَحْبِبْنِي أحبك ؛ « فاذكرونى أذكركم » أى أحبونى أحببكم .

ويقال : (فاذكرونى) بالتذلل (أذكركم) بالتفضُّل .

(فاذكرونى) بالانكسار (أذكركم) بالمبار .

(فاذكرونى) باللسان (أذكركم) بالجِنان .

(فاذكرونى) بقلوبكم (أذكركم) بتحقيق مطلوبكم .

(فاذكرونى) على البساب من حيث الخدمة (أذكركم) بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النعمة .

(فاذكرونى) بتصفية السِّر (أذكركم) بتوفية البِرّ .

(فاذكرونى) بالجهد والعناء (أذكركم) بالجود والعطاء .

(فاذكرونى) بوصف السلامة (أذكركم) يومَ القيامة يومَ لا تنفع الندامة .

(فاذكرونى) بالرهبة (أذكركم) بتحقيق الرغبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ .

استعينوا بالصبر على الصلاة أى بصبركم — عند جريان أحكام الحق عليكم — استحقاقكم صلاة ربكم عليكم ، ولذا فإنه تعالى بعد « وبَشّر الصابرين » يقول : « أولئك عليهم صلوات من ربهم » .

ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر ، وعلو القدر حيث نالوا مَعِيَّة الله قال تعالى : « إن الله مع الصابرين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقولوا لِمَن يُقتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياء، ولكن لا تشعرون ﴾.

فاتتهم الحياة فى الدنيا ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية فى العُقبى، فهم فى الحقيقة أحياء، يجدون من الله فنون الكرامات.

ويقال هم أحياء لأن الخَلَفَ عنهم اللهُ ومَنْ كان الخلفُ عنه الله لا يكون ميتاً، قال قائلهم فى مخلوق :

إن يكن عنّا مضى بسبيله فما مات من يبق له مثل خالد

ويقال هم أحياء بذكر الله لهم، والذى هو مذكور الحق بالجميل بذكره السرمدى ليس بميت.

ويقال إنَّ أشباحهم وإنْ كانت متفرقة، فإنَّ أرواحهم – بالحق سبحانه – متحققة. ولئن فَنِيَتْ بالله أشباحُهم فلقد بَقِيَتْ بالله أرواحُهم لأنَّ من كان فناؤه بالله كان بقاؤه بالله.

ويقال هم أحياء بشواهد التعظيم، عليهم رداء الهيبة وهُمْ فى ظلال الأُنس، يبسطهم جَمَالُه مرةً، ويستغرقهم جلاله أخرى[1].

قوله جل ذكره : ﴿ ولنَبْلُوَنَّكُم بشىءٍ من الخوفِ والجوعِ ونقصٍ من الأموالِ والأنفُسِ والثمراتِ وبَشِّرِ الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾.

ابتلاهم بالنعمة لِيُظْهِرَ شكرهم، وابتلاهم بالمحنة ليظهر صبرهم، فلما أدخل المعلوم من حالهم فى الوجود، ورسمهم بالرقم الذى قَسَمَهُ، وأثبتهم على الوصف الذى عليه، (ابتلاهم)

(١) شبيه بذلك ما يقوله القشيرى فى كتابه « التحبير فى التذكير » حينما شرح « الحى المميت » و « الجليل الجميل » : « من كاشفه بجلاله أفناه، ومن كاشفه بجماله أحياه، فكشف الجلال يوجب محواً وغيبة، وكشف الجمال يوجب صحواً وقربة ».

بالخوف وفيه تصفية لصدورهم ، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم ، وبنقص من الأموال تزكو به نفوسهم ، وبمصائب النفوس يعظم بها عند الله أجرهم ، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم .

« وبَشِّر الصابرين » يعنى الذين لا اعتراض لهم على تقديره فيما أمضاه .

ويقال طالبهم بالخوف (ابتعاداً) عن عقوبته ثم بمقاساة الجوع ابتغاء قربته وكرامته ، ونقصٍ من الأموال بتصدُّقِ الأموال والخروج عنها طلبًا للخير منه بحصول معرفته .

« والأنفس » تسليما لها إلى عبادته . « والثمرات » القول بترك ما يأملونه من الزوائد فى نعمته « وبشِّر الصابرين » على استحسان قضيته ، والانقياد لجريان قدرته .

ومطالبات الغيب إما أن تكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب ؛ فمن أوقف المال لله فله النجاة[1] ، ومن بذل لحكمه النَّفْسَ فله الدرجات ، ومن صبر عند مصائب الأقارب فله الخلف والقُرُبات ، ومن لم يدخر عنه الروح فله دوام المواصلات .

قوله جل ذكره : ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ ... الآية .

قابلوا الأمر بالصبر لا بل بالشكر لا بل بالفرح والفخر .

ومن طالع الأشياء مِلْكاً للحق رأى نفسه أجنبيا بينه وبين حكمه ؛ فمُنْشِىء الخَلْقِ أولى بالخلْق من الخلْق .

ويقال من شهد المصائب شهد نفسه لله وإلى الله ، ومن شاهد المُبْلِي عَلِمَ أن ما يكون من الله فهو عبد بالله ، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله ؛ الذى كان لله فصابرٌ واقفٌ ، والذى هو بالله فساقط الاختيار والحكم ، إنْ أثبته ثَبَتَ ، وإنْ محاه انمحى ، وإنْ حرَّكه تحرك ، وإن سَكَّنَهَ سَكَن ، فهو عن اختياراته فانٍ ، وفى القبضة مُصرَّفٌ .

قوله جل ذكره : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ .

---

(١) ربما كانت فى الأصل (الجنات) .

بصلواته[1] عليهم ابتداء وصلوا إلى صبرهم ووقوفهم عند مطالبات التقدير ، لابصبرهم ووقوفهم وصلوا إلى صلواته ، فلولا رحمته الأزلية لما حصلت طاعتهم بشرط العبودية ، فعنايته السابقة أوجبت لهم هداية خالصة[2].

قال تعالى : « وأولئك هم المهتدون » لما رحمهم فى البداية اهتدوا فى النهاية .

قوله جل ذكره : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ .

تلك المشاهد والرسوم ، وتلك الأطلال والرقوم ، تُعظَّم[3] وتُزار ، وتُشَدُّ إليها الرحال[4] لأنها أطلال الأحباب ، وهنالك تلوح الآثار :

أهوى الديار لمن قد كان ساكنها ... وليس فى الدارِ همٌّ ولا طَرَبُ[5]

وإن لتُرابِ طريقهم بل لغبار آثارهم — عند حاجة الأحباب — أقداراً عظيمة ، وكل غبرة تقع على (حافظات.طريقهم)[6] لأعزُّ من المِسْك الأذفر :

وما ذاك إلا أن مشت عليه أميمةٌ ... فى تربها وجرَّت به بُردا

قوله جل ذكره : ﴿فمن حَجَّ البيتَ أو اعتمر فلا جُناحَ عليه أن يطوفَ بهما ومَنْ تطوع خيراً فإنَّ اللهَ شاكرٌ عليم﴾ .

حَظِىَ الصفا والمروة بجوار البيت فَشُرِعَ السعى بينهما كما شرع للبيت الطواف ، فكما أن الطواف ركن فى النُّسك فالسعى أيضاً ركن ، والجارُ يُكْرَمُ لأجل الجار .

---

(١) وردت (بصلواتهم) وهى خطأ من الناسخ لأن السياق يؤدى إلى (صلاته) سبحانه عليهم فى سابق الأزل ، كذلك تشير الآية الكريمة إلى صلاته لا إلى صلواتهم .

(٢) لاحظ هنا معارضة القشيرى لفكرة وجوب إثابة المطيع على الله . فالله فى رأى القشيرى تنزه عن أن يجب عليه شىء ، لأن طاعة المطيع أولا فضل من الله ، وليست بفضل العبد .

(٣) وردت (تعظيم) وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت (الرجال) وهى خطا فى النسخ .

(٥) إما أن تكون (همٌّ) صحيحة ، أى لا حزن ولا فرح ، وإما أنها فى الأصل (حسٌّ) لتناسب الطرب ، وليتناسبا مع خلو الدار من أقل أثر للحياة .

(٦) هكذا وردت فى (ص) .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهُدى مِنْ بعدما بيَّناه لِلنَّاسِ فى الكتاب أولئك يلعنهم اللهُ ويلعنهم اللاعنون ﴾.

الإشارة فى هذه الآية لمن كاشفه الحقُّ سبحانه بعلم من آداب السلوك ثم ضَنَّ[1] بإظهاره للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد استوجب للمقت فى الوقت ، ويخشى عليه نزع البركة عن علمه متى قصَّر فيه لما أخَّر من تعليم للمستحق .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيَّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ .

تداركوا ما سلف من تقصيرهم بحسن الرُّجْعَى ، والقيام للمريدين على وجه النصيحة ، وبيَّنوا لهم — بجميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون — حسنَ قيامهم بمعاملاتهم . فإنَّ أظهرَ الحجَج لبيانِ أفعالك وأصدقَ الشهادةِ لتصحيحِ ما تدعو به الخلْق إلى الله — ألا يُخالِفَ بمعاملتك ما تشير إليه بمقالتك ، قال الله تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفَّار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولا هم يُنظرون ﴾

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعدما سلكوا طريق الإرادة (أنْ) يرجعوا إلى أحوال العادة ، ثم فى تلك الوحشة قُبضوا ، وعلى تلك الحالة من الدنيا خرجوا ، أولئك أصحاب الفُرقة ،

---

(١) وردت (ضمن) وهى خطأ من الناسخ وقد استندنا فى الوصول الى أنها (ضنَّ) من كلمة (بخل) التى سجلها الناسخ تحتها . والسياق يؤيدها .

فلا على أرواحهم إقبال ولا لمصيبتهم جيران، ولا لأحد عليهم ترحم، خسروا فى الدنيا والآخرة، يلعنهم البقُّ فى الهواء والنقعُ على الماء.

«خالدين» أى مقيمين أبداً فى هوانهم وصغرهم، لا تخفيف ولا إسعاف، ولا رفق ولا ألطاف.

قوله جل ذكره: ﴿ وإلٰهُكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾.

شَرَّفهم غايةَ التشريف بقوله وإلهكم. وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا: علامةُ من يَعُدُّه من خاصِّ الخواص أن يقول له: عبدى، وذلك أتمُّ من هذا بكثير لأن قوله: «وإلهكم»: وإضافة نَعْتِه أتمُّ من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لكَ بلا عِلَّة، وكونُك له عبد يُعوِّض كل نقصك وآفتك. ومتى قال لكم «وإلهكم»؟

حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حِينَ ولا أوانَ، ولا رسم ولا حدثان.

و «الواحد» من لا مِثْلَ له يدانيه، ولا شكل يلاقيه. لا قسيم يجانسه ولا ديم يؤانسه. لا شريكَ يعاضده ولا مُعين يساعده ولا منازعَ يعانده.

أحدىُّ الحق صمدىُّ العين ديمومىُّ البقاء أبدىُّ العز أزلىُّ الذات.

واحدٌ فى عز سنائه فَردٌ فى جلال بهائه، وِترٌ فى جبروت كبريائه، قديم فى سلطان عِزِّه، مجيد فى جمال ملكوته. وكل مَنْ أطنب فى وصفه أصبح منسوباً إلى العمى[1] (ق) لولا أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبدُ إذا تعرَّض لعرفانه عند أول ساطعٍ من باديات عِزِّه.

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّ فى خلقِ السمٰوات والأرضِ
واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ
التى تجرى فى البحرِ بما ينفعُ الناسَ،
وما أنزلَ اللهُ من السماء مِنْ ماءٍ

(١) وردت (الأعمى) فى ص ويمكن قبولها على أنها اسم جنس.

فأحيا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها
وَبثّ فيها مِنْ كُلِّ دابّةٍ وتصريفِ
الرياحِ ، والسحابِ المُسَخّرِ بين
السماء والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ .

تعرّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته ، وأمارات وجوده ، وسمات ربوبيته التى هى أقسام أفعاله . ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوحدانية بما أثبت فيها من براهينَ تلطُف عن العبارة ، ووجوهٍ من الدلالات تَدِقُّ عن الإشارة ، فما من عينٍ من العدم محصولة — من شخصٍ أو طلل ، أو رسمٍ أو أثر ، أو سماء أو فضاء[1] ، أو هواء أو ماءٍ ، أو شمسٍ أو قمر ، أو قَطْرٍ أو مطر ، أو رمل أو حجرٍ ، أو نجم أو شجرٍ — إلا وهو على الوحدانية دليل ، ولِمَنْ يقصد وجوده سبيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناس مَن يتخذ من دون الله
أنداداً يحبونهم كَحُبِّ الله ﴾

هؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهل المحبة ، فَشَغَلَهم بمحبة الأغيار حتى رضوا لأنفسهم أن يحبوا كل ما هَوَتْه أنفسهم ، فرضوا بمعمولٍ لهم أن يعبدوه ، ومنحوت — من دونه — أن يحبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى
الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوة
لله جميعاً وأنّ الله شديد العذاب ﴾ .

ليس المقصود من هذا ذكر محبة الأغيار للأصنام ، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على محبتهم ، ولا تحتاج إلى كثير محبة حتى تزيد على محبة الكفار للأصنام ، ولكن من أحبَّ حبيباً استكثر ذكره ، بل استحسن كل شيء منه .

ويقال وجه رجحان محبة المؤمنين لله على محبة الكفار لأصنامهم أن (هذه) محبة الجنس

---

(١) وردت (قضاء) فى ص .

للجنس ، وقد يميل الجنس إلى الجنس ، وتلك محبةُ منْ ليس بجنسٍ لهم فذلك أعزُّ وأحق .

ويقال إنهم أحبوا ما شاهدوه ، وليس بعجيب محبة ما هو لك مشهود ، وأمَّا المؤمنون فإنهم أحبوا من حَالَ بينهم وبين (شهوده) رداء الكبرياء على وجهه .

ويقال الذين آمنوا أشد حباً لله لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإنْ عَذَّبَهُم . والكافر تبرأ من الصنم والصنمُ من الكافر كما قال تعالى :«إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا . . . الآية » .

ويقال محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم فهي أتم ، قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » . ومحبتهم للأصنام من قضايا هوام .

ويقال محبة المؤمنين أتمُّ وأشدُّ لأنها على موافقة الأمر، ومحبة الكفار على موافقة الهوى والطبع ، ويقال إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم ، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن من التي كانوا يعبدونها قبل ذلك في حال فقرهم ؛ فكانوا يتخذون من الفضة — عند غِنامِ — أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد . . . وعلى هذا القياس ! وأمَّا المؤمنون فأشَدُّ حبَّاً لله لأنهم عبدوا إلهًا واحداً في السَّراء والضراء .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا مِنَ الذين اتَّبَعُوا ورأواالعذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ .

إذا بَدَتْ لهم أوائلُ العذاب اتضح أنهم لم يقفوا من الصدق على قَدَمٍ ، وأمّا المؤمنون فيسلبهم أرواحهم وأملاكهم وأزواجهم وأولادهم ، ويُسْكِنُ (أولئك)[1] في القبور سنين ثم يحتليهم في القيامة بطول الآجال[2] وسوء الأعمال ثم يلقيهم في النار .

---

(١) أضفنا (أولئك) ليتسع اللبس .

(٢) في ص (طول الأحوال) ونرجح أنها في الأصل (الآجال) لأن وصف الأحوال بالطول غير ملائم فضلا عن أننا نفترض أن القشيري لا يستعمل الأحوال الا لأرباب الأحوال . وطول الآجال في جهنم معناه تأبيد العذاب .

(أما المؤمنون)[1] فيأتى عليهم طول الأيام والأعمال فلا يزدادون إلا محبة (على محبة)[2] ولذلك قال : والذين آمنوا أشدُّ حبًا لله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كَرَّةً
فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك
يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم
وماهم بخارجين منَ النار ﴾ .

عند[3] ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناس كُلُوا مما فى الأرض
حلالاً طيبًا ولا تتبعوا خطوات
الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾.

الحرام — وإنْ استُلِذَّ فى الحال — فهو وبىء فى المآل ، والحلال — وإن استُكْرِه فى الحال — فهو مرىء فى المآل .

والحلال الصافى ما لم ينسَ مُكْتَسِبُهُ الحقَّ فى حال اكتسابه[4] .

ويقال الحلال ما حصله الجامع له والمكتسب على شهود الحق فى كل حال .

وكلُّ ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يأمركم بالسوءوالفحشاءوأن تقولوا
على الله مالا تعلمون ﴾ .

لاجترائه على الله يدعوك به إلى افترائك على الله .

---

(١) أضفناها ليستقيم السياق إذ يبدو أنها سقطت أثناء النسخ .
(٢) فى الهامش مستدركة وعليها علامة بموضعها .
(٣) وردت (عن) والأصح (عند) .
(٤) القشيرى هنا مستفيد من تعريف سهل بن عبد الله التُسْتَرى للحلال الصافى (الرسالة ص ٩٥) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا
بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَ لَوْ كان
آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾

لا ترفع أبصارهم عن أشكالهم وأصنافهم ، من أضرابهم وأسلافهم ، فَبَنَوْا على مناهجهم ، فلا جَرَمَ انخرطوا فى النار ، وانسلكوا فى سلكهم ، ولو عَلِمُوا أن أسلافهم لا عقل يردعهم ، ولا رشد يجمعهم لنابذوهم مناصبين ، وعاندوهم مخالفين ، ولكن سلبوا أنوار البصيرة ، وحُرِموا دلائل اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ ومثل الذين كفروا كَمَثَل الذى
يَنْعِقُ بما لا يسمع إلا دُعاءً ونداءً صُمٌّ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعقِلون ﴾ .

عدموا سمع الفهم والقبول ، فلم ينفعهم سمع الظاهر ، فنزلوا منزلة البهائم فى الخلوّ عن التحصيل ، وَمَنْ رضى أن يكون كالبهيمة لم يقع عليه كثير قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم واشكروا للهِ إنْ كنتم
إياه تَعْبُدُون ﴾ .

الحلال ما لا تَبِعَةَ عليه ، والطيب الذى ليس لمخلوقٍ فيه مِنَّة ، وإذا وجد العبد (طعاما) يجتمع فيه الوصفان فهو الحلال الطيب .

وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس فى غير رضاء الحق ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما حَرَّم عليكم المَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْم
الخنزيرِ وما أُهِلَّ به لغيرِ الله ،
فَمَن اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ
عليه إن الله غفورٌ رحيم ﴾ .

حرَّم على الظواهر هذه المعدودات وهى ما أُهل به لغير الله ، وحرَّم على السرائر صحبة غير الله بل شهود غير الله ، فمن اضطر — أى لم يجد إلى الاستهلاك فى حقائق الحق وصولاً — فلا يَسْلُكَنَّ غير سبيل الشرع سبيلاً ، فإما أن يكون محواً فى الله ، أو يكون قائماً بالله ، أو عاملاً لله ، والرابع همجٌ لا خَطَرَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

العلماء مُطَالَبُون بنشر دلائل العلم ، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السِّر فإنْ كَتَمَ هؤلاء براهين العلوم أُلجِموا بلجام من النار ، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عُوجِلوا ببعاد الأسرار ، وسَلْبِ ما أوتوا[1] من الأنوار . ولكلٍ حدٌّ ، وعلى كل أمرٍ قطيعة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهُدَى والعذابَ بالمغفرة فما أصبرهم على النار . ذلك بأنَّ الله نزَّل الكتاب بالحقِّ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شِقَاقٍ بعيد ﴾ .

إن الذين آثروا الغَيْرَ على الغيب ، والخلْقَ على الحقِّ ، والنَفْسَ على الأُنْسِ ، ما أقسى قلوبهم ، وما أوقح محبوبهم ومطلوبهم ، وما أخسَّ[2] قدرهم ، وما أفضح[3] لذوى الأبصار أمرهم ! ذلك بأن الله نَزَّل الكتاب بالحق ، وأمضى القضاء والحكم فيه بالصدق ، وأوصلهم إلى مَآلَهُ أهّلَهُمْ ، وأثْبَتَهُم على الوجه الذى عليه جَبَلَهُمْ .

(١) وردت (أتوا) والصواب (أوتوا) لتناسب المعنى .
(٢) وردت (أخص) والصواب أخس لتناسب المعنى .
(٣) وردت ما (أفصح) ونرجح أنها فى الأصل ما (افضح) .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ على حُبِّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيلِ والسائلين وفى الرِّقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة[1] والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدَقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

والإشارة أن الظواهرَ ليس لها كثيرُ اعتبارٍ إنما الخبر عن الله عزيز .

وكثرة الأوراد — وإن جلَّت — قرقة السجايا ، وإخلاص الطاعات — وإن عزَّ — قصفة العوام ، وَوَصْلُ الليل بالنهار فى وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر فى استحقاق الثواب ، ولكنَّ معرفة الحق عزيزة .

وما ذُكِرَ فى هذه الآية من فنون الإحسان ، ووجوه قضايا الإيمان ، وإيتاء المال ، وتصفية الأعمال ، وصلة الرحم ، والتمسك بفنون الذمم والعِصَم ، والوفاء بالعهود ، ومراعاة الحدود — عظيم الأثر ، كثير الخطر ، محبوب الحق شرعاً ، ومطلوبه أمراً لكِنَّ قيام الحق عنك بعد فنائك ، وامتحائك مِنْ شاهِدِك ، واستهلاكك فى وجود القِدَم ، وتعطل رسومك عن مساكنات إحساسك — أتمُّ وأعلى فى المعنى ؛ لأن التوحيد لا يُبقِى رسْماً ولا أثراً ، ولا يغادر غَيْراً ولا غَبَراً[2]

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

(٢) الغير = السوى أما (الغَبَر) فمعروف .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم القِصَاصُ فى القتلى الحُرُّ بالحرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِيَ له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ .

حق القِصاص مشروع ، والعفو خير ، فمن جنح إلى استيفاء حقه فَمُسَلَّمٌ له ، ومن نزل عن ابتغاء حقه فحسن ، فالأول صاحب عبادة بل عبودية ، والثانى صاحب فتوة بل حرية

والدم المراق يجرى فيه القِصاص على لسان أهل العلم ، وأمّا على لسان الإشارة لأهل القصة[1] فدماؤهم مطلولة وأرواحهم هدرة قال :

وإن فؤاداً رعته لكَ حامدٌ ... وإنّ دماً أجريته بكَ فاخرُ

وسفك دماء الأحباب (فوق)[2] بِساط[3] القرب خلوف أهل الوصال ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللونُ لونُ الدم والريحُ ريح المِسْك »

قوله جل ذكره : ﴿ ولكم فى القِصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ .

فى استيفاء القصاص حياة لأنه إذا عَلِمَ أنه إذا قَتَلَ قُتِلَ أَمْسَكَ عن القتل وفى ذلك حياة القاتل والمقتول .

ولكن ترك القصاص — على بيان الإشارة — فيه أعظم الحياة لأنه إذا تَلِفَ فيه (سبحانه)

---

(١) أهل القصة م أرباب الأحوال .

(٢) وردت (فى) والأصوب فوق .

(٣) وردت (سباط) وقد رجحنا (بساط) القرب لورودها فى مواضع أخرى هكذا .

فهو الخَلَفُ عنه ، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه ، وإذا كان الوارثَ عنهم اللهُ والخَلَفَ عنهم اللهُ فبقاءُ الخلفِ[1] أعزُّ مِنْ حياةِ مَنْ ورد عليه التلف .

قوله جل ذكره : ﴿كُتِبَ عليكم إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ إن تَرَكَ خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ .

مَنْ تَرَكَ مالاً فالوصية له في مالِهِ مُسْتَحبةٌ ، ومَنْ لم يترك شيئاً فأنَّى بالوصية ! ! في حالة الأغنياء يوصون في آخر أعمارهم بالثلث ، أمّا الأولياء فيخرجون في حياتهم عن الكُلِّ ، فلا تبقى منهم إلا همةٌ انفصلت عنهم ولم تتصل بشيء ؛ لأن الحق لا سبيل للهمة إليه ، والهمة لا تَعَلَّقَ لها بمخلوق ، فبقيت وحيدة منفصلة غير متصلة ، وأنشدوا :

أحبكمُ ما دمتُ حياً فإنْ أَمُتْ ... يحبكم عظمي في التراب رميم

هذه وصيتهم : وقال بعضهم :

(. . . . .)[2]

لا بل كما قال قائلهم :

وأتى الرسول فأخبر أنهم رحلوا قريباً

رجعوا إلى أوطانهم فجرى له دمعي صبيباً

قوله جل ذكره : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بعدما سمِعَهُ فإنما إثمهُ على الذين يُبَدِّلونه إن الله سميعٌ عليم﴾ .

من حرّف نُطقاً جرى بحقِّهِ لحقَهُ شؤمُ ذلك ووباله .

وعقوبته أن يُحرَم رائحة الصدق أن يشمه . فمن أعان الدينَ أعانه الله ، ومن أعان على الدين خذله الله .

---

(1) وردت (الخلق) والصواب (الخلف) .

(2) هنا شاهد شعري عجزنا تماماً عن قراءته أو إصلاحه ... وما أكثر خطأ الناسخ في نقل شواهد الشعر ! !

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ خاف مِن مُّوصٍ جَنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثمَ عليه إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

الإشارة فيه : أن من تَفَرَّسَ[1] فى بعض المريدين ضعفاً ، أو رأى فى بعض[2] أهل البداية رخاوةَ قصدٍ أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله — فرأى أن يرفق بذلك المريد بما يكون ترخيصاً له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطى مباح — فلا بأسَ به فإن حَمْلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثيرُ أجر . فالرِّفق بأهل البداية — إذا لم يكن لهم صارم عزم ، ولا صادق جهد — ركنٌ فى ابتغاء الصلاح عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السِّرِّ عن الملاحظات .

ويقال صوم العابدين شرطه — حتى يَكْمُلَ — صونُ اللسان عن الغيبة ، وصون الطَّرْفِ عن النظر بالريبة كما فى الخبر : (مَنْ صام فَلْيَصُمْ سمعه وبصره . . .) . . . الخبر[3] ، وأما صوم العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غيره .

وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » : الهاء فى قوله

(١) وردت بالصاد وهى خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (فى أهل بعض البداية) وواضح أنها خطأ من الناسخ .

(٣) (إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك : معناه من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه) .
رواه البخارى وأصحاب السنن عن أبى هريرة .

عليه السلام — لرؤيته — عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه ، فالعلماء يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال ، وأما الخواص فصومهم لله لأن شهودهم الله وفطرهم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله ، والذى[1] هم به محو — الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أياماً معدودات فمن كان منكم
مريضاً أو على سفر فعدةٌ من
أيام أُخَر ﴾ .

من شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب المثوبة ، والصوم بالله يوجب القربة . الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة . الصوم لله صفة كل عابد والصوم بالله نعت كل قاصد . الصوم لله قيام بالظواهر والصوم بالله قيام بالضمائر . الصوم لله إمساك بن حيث عبادات الشريعة والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة .

من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ومن شهد الحق أمسك فى جميع أوقاته عن شهود المخلوقات .

من صام بنفسه سُقِىَ شرابَ السلسبيل والزنجبيل ، ومن صام بقلبه سُقِىَ شراب المحاب بنعمة الإيجاب .

ومن صام بسِرِّهِ فهم الذين قال فيهم الله تعالى : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .
شراب يا له من شراب ! ! شراب لا يُدار على الكف لكنه يبدو له من اللطف .
شراب استئناس لا شراب كاس .

قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » أى من أفطر لهذه الأعذار فعليه صوم عدة أيام بعدد ما أفطر قضاء لذلك . الإشارة لمن سقمت إرادته عن الصحة فيرجع إلى غيره إما لرخصة تأويل أو لقلة قوة واحتمال ، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة

(١) وردت (والذين) وهو خطأ من الناسخ .

فليمْهَل حتى تقوى عزيمته وتشتد إرادته ، فعند ذلك يُسْتَدْرَك منه ما رُخِّص له بالأخذ بالتأويل ، وتلك سُنَّةُ الله سبحانه وتعالى فى التسهيل على أهل البداية ، ثم استيفاه ذلك منهم واجبٌ فى آخر الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية[1]
. . . . طعام
مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له
وأن تصوموا خير لكم إن كنتم
تعلمون ﴾ .

الإشارة منه أنَّ مَنْ فيه بقية من القوة للوقوف لمطالبات الحقيقة ويرجع إلى تسهيل الشريعة وينحط إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال وهو الخروج عما بقى له من معلوم مال أو مرسوم حال ويبقى مجرداً للواحد .

[فصل] ويقال إنه لما علم أن التكليف يقتضى المشقة خففه عليك ذلك بأن قلَّل أيام الصوم فى قلبك فقال : « أياماً معدودات » أى مدة هذا الصوم أيام قليلة فلا يهولنكم سماع ذكره ، وهذا كقوله تعالى : وجاهدوا فى الله حق جهاده . ثم قال : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج أى لا يلحقكم كثير مشقة فى القيام بحق جهاده .

قوله جل ذكره : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن
هدىً للناس وبيِّنات من الهدى
والفرقان فمن شهد منكم الشهر
فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على
سفرٍ فعدَّةٌ من أيامٍ أخر ﴾ .

رمضان يُرْمِضُ ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم ، وشتان بين من تحرق ذنوبَه رحمتُه وبين من تحرِق رسومَه حقيقتُه .

---

(١) وقع الناسخ فى سهو حين أعاد ثلاثة أسطر مما سبق له أن كتبه ، ووقعت هذه الأسطر المعادة بين كلمتى (فدية ، وطعام) فى الآية الكريمة .

شهر رمضان شهر مفاتحة الخطاب، شهر إنزال الكتاب، شهر حصول الثواب، شهر التقريب والإيجاب. شهر تخفيف الكلفة، شهر تحقيق الزلفة. شهر نزول الرحمة، شهر وفور النعمة. شهر النجاة، شهر المناجاة.

قوله جل ذكره: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العُسر ﴾.

أراد بك اليسر (وأنت تظن) أنه أراد بك العسر.

ومن أمارات أنه أراد بعبده اليسر أنه (أقامه)[1] بطلب اليسر؛ ولو لم يُرِدْ به اليسر لمَا جعله راغباً في اليسر، قال قائلهم:

لو لم تُرِدْ نَيْلَ ما أرجو وأطلبُه ... من فيضِ جودِك ما علمتنى الطلبا

حقَّق الرجاء وأكَّد الطمع وأوجب التحقيق حيث قال: «ولا يريد بكم العسر» لينفىَ عن حقيقة التخصيص مجوزاتِ الظنون.

قوله جل ذكره: ﴿ولتكملوا العِدَّة﴾.

على لسان العلم تكملوا مدة الصوم.

وعلى لسان الإشارة لتقرنوا بصفاء الحال (وفاء)[2] (المآل)[3]

ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون» في النَّفَسِ الأخير، وتخرجوا من مدة عمركم بسلامة إيمانكم. والتوفيق في أن تكمل صوم شهرك عظيم لكن تحقيق أنه يختم عمرك بالسعادة — أعظم.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب﴾

---

(١) جاءت (أقام) وقد جعلناها (أقامه) لزداد وضوح المعنى.

(٢) جاءت (ووفاء) ونظن أن الواو الأولى زائدة من الناسخ.

(٣) جاءت (لمال) وقد اعتاد الناسخ أن يكتب المال مثل المآل أى بدون علامة على المد، وآثرنا هنا أن نضعها، فالمقصود الإعداد ليوم الآخر بالطاعات والعبادات، وغاية التمام أن نجمع بين الحقيقة والشريعة. هذا فضلا عن أن الإشارة للصوفية، والصوفية قوم لا إهمال لهم.

سؤال كل أحد يدلُّ على حاله ؛ لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين[1] ولا عن دنيا ولا عن عقبى بل سألوا عنه فقال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى » . وليس هؤلاء من جملة من قال : « ويسألونك عن الجبال » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن اليتامى » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن المحيض » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الروح » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الخمر والميسر » ، « ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » .

هؤلاء قوم مخصوصون : « وإذا سألك[2] . . . . عبادى عنى » .

أى إذا سألك عبادى عنى فبماذا تجيبهم ؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد ، فأنت وإنْ كنتَ السفير بيننا وبين الخلق فهذا الجواب أنا أتولاه « فإنى قريب » (رَفَعَ الواسطة من الأغيار عن القربة فلم يَقُل قل لهم إنى قريب بل قال جل شأنه : فإنى قريب)[3] .

ثم بَيَّن أن تلك القربة ما هى : حيث تقدَّس الحقُّ سبحانه عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال : « أجيب دعوة الداع » وإن الحق سبحانه قريب — من الجملة والكافة — بالعلم والقدرة والسماع والرؤية ، وهو قريب من المؤمنين على وجه التبرية والنصرة وإجابة الدعوة ، وجلَّ وتقدَّس عن أن يكون قريباً من أحد بالذات والبقعة ؛ فإنه أحدىٌّ لا يتجه فى الأقطار ، وعزيز لا يتصف بالكُنْهِ والمقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ
فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم
يَرْشُدون ﴾ .

لم يَعِدْ إجابة من كان باستحقاق زهد أو فى زمان عبادة بل قال دعوة الداعى متى دعانى وكيفما دعانى وحيثما دعانى ثم قال : « فليستجيبوا لى » هذا تكليف ، وقوله : « أجيب دعوة

(١) تكررت كلمة (دنيا) مرتين فرجحنا أن تكون الأولى (دين) وتركنا الثانية (دنيا) لتتقابل مع (عقبى) .
(٢) وضع الناسخ علامة تشعر بوجود كلمات زائدة بين (سألك) ... (وعبادى) لحذفنا الزائدة .
(٣) ما بين القوسين تكملة من الهامش استدركها الناسخ فوضعناها فى موضعها .

الداع » تعريف وتخفيف، قدَّم التخفيف على التكليف، وكأنه قال : إذا دعوتني - عبدي - أجبتُك ، فأجِبْني أيضاً إذا دَعَوْتُك ، أنا لا أرضى بِرَدِّ دعائِك فلا تَرْضَ - عبدي - بردِّي من نفسك . إجابتي لك بالخير تحملك - عبدي - على دعائي ، ولا دعاؤك يحملني على إجابتك . « فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي » : وليثقوا في ، فإني أجيب من دعاني ، قال قائلهم :

يا عزُّ أُقْسِم بالذى أنا عبــده ولهُ الحجيج وما حوت عرفات[1]
لا أبتغى بدلاً سِواكِ خليلة فثِقِى بقولى والكِرامُ ثِقاتُ

ثم قال في آخر الآية : « لعلهم يرشدون » أي ليس القصد من تكليفك ودعائك إلا وصولك إلى إرشادك .

قوله جل ذكره : ﴿أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم هُنَّ لِباس لكم وأنتم لِباسٌ لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفُسَكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشِروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود مِنَ الفجر ثم أَتِمُّوا الصيام إلى الليل﴾ .

أخبر أنه — في الحقيقة — لا يعود إليه عائد من أوصاف الخلْق ، إنْ كُنتَ في العبادة التي هي حق الحق أو في أحكام العادة من صحبة جِنْسِك التي هي غاية النفس والحظ ، فَسِيَّان في حالك إذا أورد فيه الإذن .

---

(١) جاءت (عرفان) وهي خطأ في النسخ .

نزلت الآية فى زَلَّةٍ بَدَرَتْ من الفاروق[1] ، فَجَعَلَ ذلك سببَ رُخْصَةٍ لجيع[2] المسلمين إلى القيامة . وهكذا أحكام العناية .

ويقال علم أنه لا بُدَّ للعبد عن الحظوظ فقسم الليل والنهار فى هذا الشهر بين حقه وحظِّك ، فقال أما حق « فأتموا الصيام إلى الليل » ، وأما حظك « فكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُباشِروهن وأنتم عاكفون
فى المساجد تلك حدود الله
فلا تقربوها ، كذلك يُبَيِّنُ الله
آياته للناسِ لَعلَّهم يتقون ﴾ .

أخبر أن محل القدرة مقدَّس عن اجتلاب الحظوظ ، وقال إذا كنتم مشاغيل بنفوسكم كنتم محجوبين بِكُمْ فيكم ، وإذا كنتم قائمين بنا فلا تعودوا منَّا إليكم .

ويقال غيرة الحق سبحانه على الأوقات أن يُمزَجَ الجِدُّ بالهزلِ ، قالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله إنى أحبك وأحب قربك فقال عليه السلام : ذرينى يا ابنة أبى أبكر أتعبد ربى . وقال صلى الله عليه وسلم لى وقت لا يسعنى غير ربى[3]

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل
وتُدْلُوا بها إلى الحُكَّام لتأكلوا
فريقاً من أموال الناس بالإثم
وأنتم تعلمون ﴾ .

---

(١) أى عمر بن الخطاب . قال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال قام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال : يارسول الله إنى أردت أهلى البارحة على ما يريد الرجلُ أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تعتلّ فواقعتها فنزل فى عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ط الحلبى) .

(٢) وردت (جميع) .

(٣) الحديث صورة أخرى « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه شىء غير الله عز وجلّ » والمعنى صحيح ولكن سنده غير معروف .

إذا نحا كيم إلى المخلوقين فاعلموا أن الله مطلع عليكم ، وعلمه محيط بكم ، فراقبوا موضع الاستحياء من الحق سبحانه ، ولئن كان المخلوقون[1] عالمين بالظوهر فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ متولى السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج﴾ .

الأهلة — جمعُ هلال — مواقيت للناس ، لأشغالهم ومحاسباتهم .

وهى مواقيت لأهل القصة فى تفاوت أحوالهم ، فللزاهدين مواقيت أورادهم ، وأما أقوام مخصوصون فهى لهم مواقيت لحالاتهم ، قال قائلهم .

أعد الليالى ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قدما لا أعد اللياليا

وقال آخر :

ثمانٍ قد مضَيْنَ بِلا تلاقٍ وما فى الصبر فضل عن ثمانِ

وقال آخر :

شهورٌ ينقَضين وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرار[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنَّ البرَّ من اتقى وأتُوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

يعنى ليس البر مراعاة الأمور الظاهرة ، بل البر تصفية السرائر وتنقية الضمائر .

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتِلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

لتكن نفوسُكم عندكم ودائعَ الحق ، إنْ أمَرَ بإمساكها أمسِكُوها وصونوها ، وإنْ أمَرَ

---

(١) وردت (المخلوقين) وهى خطأ من الناسخ لأن اسم كان مرفوع بالواو .

(٢) سِرار الشهر وسَراره (بالكسر والفتح) آخر ليلة فيه (الوسيط ص ٤٢٨) .

بتسليمها إلى القتل فلا تدّخروها عن أمره ، وهذا معنى قوله : « ولا تَعْتَدُوا » وهو أن تقف حيثما أُوقِفْتَ ، وتفعل ما به أُمِرْتَ .

قوله جل ذكره : ﴿ واقتلوهم حيث ثَقِفْتُمُوهم ﴾

يعنى عليكم بنصب العداوة مع أعدائى — كما أن عليكم إثبات الولاية والموالاة مع أوليائى — فلا تُشْفِقوا[1] عليهم وإن كان بينكم واصد[2] الرحم ووشائج القرابة .

« وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » . أولاً أخرجوا حبّهم وموالاتهم من قلوبكم ، ثم (. . . .)[3] عن أوطان الإسلام ليكون الصغار جارياً عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والفتنةُ أشدُّ من القتل ﴾

والإشارة : أنَّ المحنة التى تَرِدُ على القلوب من طوارق الحجب أشد من المحنة التى تَرِدُ على النفوس مِنْ بذل الروح ، لأن فوات حياة القلب أشد من فوات حياة النَّفْس ، إذ النفوس حياتها بأوقاتها ، ولكن حياة القلب لا تكون إلا بالله .

ويقال الفتنة أشد من القتل : أن[4] تنأى عن الله أعظم من أن تنأى عن روحك وحياتك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام
حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم
كذلك جزاء الكافرين ﴾

الإشارة منه : لا تشوش وقتك[5] مع الله إذا كان بوصف الصفات بما تدخله على نفسك

---

(١) ووردت (فلا تشقوا) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .
(٢) الواصد والأصد = العهد . مثل الورث والإرث والوحد والأحد وربما كانت أواصر .
(٣) مشتبهة فى ص وربما كانت : ثم (أخرجوهم) .
(٤) وردت (تنقى) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .
(٥) قال الدقاق — شيخ القشيرى — فى تعريف الوقت : الوقت ما أنت فيه فإن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن .

ويعلّق القشيرى على رأى أستاذه قائلا : يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان . ويقولون الصوفى ابن وقته يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أَوْلى به فى الحال ، قائم بما هو مُطالَبٌ به فى الحين . وينبغى ألا يفرط العبد فيما يقتضيه حق الشرع .

وإنْ كانت نوافل من الطاعات ، فإن زاحمك مزاحم يشغلك عن الله فاقطع مادة ذلك عن نفسك بكل ما أمكنك لئلا تبقى لك علاقة تصدك[1] عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿فإنِ انتهَوْا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾

الإشارة منه : إذا انقطعت عنك غاغة خواطرك وأعداء نفسك ، مما يخرجك عنه ويزاحمك ، فَلُمْ حديثَ النفس ودَعْ مجاهداتها ؛ فَإنَّ مَنْ طولب بحفظ الأسرار لا يتفرغ إلى مجاهدات النفوس بفنون المخالفات[2] .

قوله جل ذكره : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون
الدِّينُ لله ، فإنِ انتهوْا فلا عُدْوَانَ
إلا على الظالمين﴾ .

الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس ؛ فإنَّ أعدى عدوِّك نَفْسُك التى بين جنبيك . أى استوفِ أحكام الرياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شىء ، وتُسلِم النَّفْسَ والقلبَ لله ، فلا يكون مُعارِض ولا مُنازِعٌ منك لا بالتوقى ولا بالتلقى ، لا بالتدبير ولا بالاختيار — بحالٍ من الأحوال ؛ تجرى عليك صروفه[3] كما يريد ، وتكون[4] محواً عن الاختيارات ، بخلاف ما يرد به الحكم ، فاذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير ، فأمّا من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام .

قوله جل ذكره : ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام
والحرمات قِصاصٌ . فمن اعتدى عليكم
فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم
واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾

---

(١) وردت (تصدق) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .
(٢) يريد القشيرى بهذه الفقرة أن تنزل على حكم المرحلة التى وصلت إليها ، فإذا اجتاز بك فضل الله مرحلة جهادك مع نفسك إلى ما فوقها فلا يشغلن وقتك إلا بما صرت عليه ، بمعنى أن تنزل على حكم الوقت.
(٣) وردت (حروفه) والصواب صروفه ، وقد جاء فى الرسالة هذا الشاهد :
تجرى عليك صروفه   وهموم سرك مطرقة   (الرسالة ص ٦٣)
(٤) وردت (يكون) وهى خطأ من الناسخ .

الإشارة فيه : إذا تقابل حقان كلاهما لله فَسَلِّم الوقت بحكم الوقت ، ودلْ مع إشارات الوقت ، وإياك أن ترجح أحدهما على الآخر بمالَكَ من حظ — وإنْ قَلَّ — فتُحَجَبَ عن شهود الحق ، وتَعْمَى بصيرةُ قلبك . وكلُّ ما كان إلى خلاف هواكَ أقرب ، وعن استجلابكَ وسكونكَ إليه أبعد — كان ذلك فى نفسه أصوبَ .

« واعلموا أن الله مع المتقين » : الذين اتقوا إيثار هواهم على ما فيه رضاه ، فإذا قاموا لله — فيما يأتون — لا لَهُم فإن الله تعالى بالنصرة معهم ، قال تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾

إنفاق الأغنياء من أموالهم ، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف ، وإنفاق العارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه ، وإنفاق المحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حُبِّه .

إنفاق الأغنياء من النِّعم وإنفاق الفقراء من الهِمَم .

إنفاق الأغنياء إخراج المال من الكيس ، وإنفاق الفقراء إخراج الروح عن أنفس النفيس ، وإنفاق الموحِّدين إخراج الخلْق من السِّر .

قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » الإشارة فيه إلى إمساك يدك عن البذل ؛ فمن أمسك يده وادَّخر شيئاً لنفسه فقد ألقى بيده إلى التهلكة . ويقال : إلى إيثار هواك على رضاه .

ويقال « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » أى الغفلة عنه بالاختيار .

ويقال توَهُّمُ أنك تعيش من دون لطفه وإقباله لَحْظَةً .

ويقال الرضا بما أنت فيه من الفترة والحجاب .

ويقال إمساك اللسان عن دوام الاستغاثة فى كل نَفَسٍ .

قوله تعالى : « وأَحْسِنوا إن الله يحب المحسنين » الإحسان أن ترفق مع كل أحد

إلا معك ، فإحسانك إلى نفسك فى صورة إساءتك إليها فى ظن الاعتماد ، وذلك لارتكابك كل شديدة ، ومقاساتك فيه كل عظيمة . والإحسان أيضاً ترك جميع حظوظك من غير بقية ، والإحسان أيضاً تفرغك الى قضاء حق كل أحد علّق عليك حديثه . والإحسان أن تعبده على غير غفلة . والإحسان أن تعبده وأنت بوصف المشاهدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله ﴾

إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التى تجب فيها (دون) التقصير فى بعض أحوالها .

وفى التفسير أن تحرم بهما من دويرة أهلك[1] .

وعلى لسان الإشارة الحج هو القَصْد ، فَقَصْدٌ إلى بيت الحق وقصد إلى الحق ، فالأول حج العوام والثانى حج الخواص .

وكما أن الذى يحج بنفسه يُحْرِمُ ويَقِفُ ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه ، فإحرامه بعقد صحيح على قصد صريح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ، ثم باشتماله بثوبى صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى ، وإطلاق خواطر المنى ، وما فى هذا المعنى . ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع ، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك .

وأفضل الحج الشَّجُّ والعجُّ ، الشَّجُّ صَبُّ الدَّم والعجُّ رفع الصوت بالتلبية ، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف[2] ، ورفع أصوات السِّر بدوام الاستغاثة ، وحسن الاستجابة ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عَرَفَات وموقف

---

(١) قال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن على أنه قال فى هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس .
(تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٣٠ ط الحلبى) .

(٢) الخلاف هنا معناها (المخالفة) أى مخالفة النفس وأهوائها .

القلوب الأسامى والصفات لعزّ الذات (عند)[1] للمواصلات . ثم طواف القلوب حول (مشاهدة)[2] العز ، والسعى بالأسرار بين صَفَّىْ كشف الجلال ولطف الجمال .

ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات ، والمنى والمعارضات . . بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فما استيسر من الهَدْيِ﴾

الحصر بأمرين بعدو أو مرض .

والإشارة فيه إن استولى عدو النفس فلم تجد بداً من الإناخة بعقوة الرُّخَص وتأويلات العلم فعند ذلك تتحلل بموجب العذر والاضطرار إذ لا مزاحمة مع الحُكْم . « والهَدْيِ » الذى يهدى به عند التحلل بالعذر ، والخروج عن المعلوم ، وتسليمه للفقراء ، وانتظار أن يزول الحصر فيستأنف الأمر . وإن مَرِضَت الواردات وسَقِمتْ القصود وآل الأمرُ إلى التكليف فليجتهد ألا ينصرف كما أنه فى الحج الظاهر يجتهد بألا ينصرف لكل مرض أو إن احتاج إلى اللبس والحلق وغير ذلك — بشرط الفدية .

ثم إن عجز ، اشترط أن محله حيث حسبه فكذلك يقوم ويقعد فى أوصاف القصد وأحكام الإرادة ، فإن رجع — والعياذ بالله — لم يُقابَلْ إلا بالردّ والصد ، وقيل :

فلا عن قِلىً كان التقرب بيننا ولكنه دهر يُشِتُّ ويجمع

وقال الآخر :

ولستُ — وإنْ أحببتُ مَنْ يَسْكُن الغضا بأولّ راجٍ حاجة لا ينالها

قوله جل ذكره : ﴿ولا تَحْلِقوا رُءوسكم حتى يبلغ الهَدْىُ مَحِلَّه فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نُسُك﴾ .

(١) وردت (عن) فى ص ، والأسامى والصفات مقصود بها أسماء الله الحسنى وصفاته .

(٢) نرجح أنها فى الأصل (مشاهد) جمع مشهد لتناظر (مشاهد) الحج .

يبذل ما أمكنه ، ويخرج عن جميع ما يملكه ، وعليه آثار الحسرة ، واستشعار أحزان الحجبة .

« فمن كان منكم مريضاً . . » الخ : الإشارة منه أن يبتهل ويجتهد بالطواف على الأولياء ، والخدمة للفقراء ، والتقرب بما أمكنه من وجود الاحتيال والدعاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا أَمِنتُم فَمَن تَمَتَّع بالعُمْرَة
إلى الحج فما استيسر من الهَدْى ،
فمن لم يجِدْ فصيام ثلاثة أيام فى الحج
وسبعةٍ إذا رَجَعْتُم ، تلك عَشَرَةٌ
كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى
المسجد الحرام . واتقوا الله واعلموا
أن الله شديد العقاب ﴾ .

فإذا تجلت أقمار القصود عن كسوف التعزز ، وانجلت غيابة الحجبة عن شموس الوصلة وأشرق نور الإقبال فى تضاعيف أيام الوقفة ، فليستأنِف للوصلة وقتاً ، وليفرش للقربة بساطاً ، وليجدد للقيام بحق السرور نشاطاً ، وليَقُلْ : حَىَّ على البهجة ! فقد مضت أيام المحنة .

وليُكمِل الحج والعمرة ، وَلْيَستَدِم القيام بأحكام الصحبة والخدمة .

« واعلموا أن الله شديد العقاب » بالحجاب لمن لم يرِه أهلَّة الوصلة والاقتراب .

قوله جل ذكره : ﴿ الحجُّ أَشْهُرٌ معلومات ﴾ .

كما أن الحج بالنفوس أشْهُرٌ معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها ، ولا يجوز فعل الحج فى جميع السَّنَةِ إلا فى وقت مخصوص ، من فاته ذلك الوقت فاته الحج — فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها ، وهى أيام الشباب ؛ فمن لم تكن له إرادة فى حال شبابه فليست له وصلة فى حال مشيبه ، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التى آخرها الجنة ، فأما الإرادة التى آخرها الوصلة . . فلا .

قوله جل ذكره : ﴿ فمَن فَرَضَ فيهن الحج فلا رَفَثَ
ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ فى الحج ﴾ .

كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يُعرِّج على شيء فى الطريق ، ولا يمزج إرادته بشيء . فمن نازَعه أو عارَضَهُ أو زاحمه — سَلَّمَ الكل للكل ، فلا لأجل الدنيا مع أحدٍ يخاصم ، ولا لشيء من حظوظ النَّفْس والجاه مع أحد يزاحم ، قال تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَما تفعلوا مِنْ خيرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ .

تكتفى بعِلْمِه وحُكْمِهِ عن شهود خَلْقِهِ وحُكْمِ خلقِه وعلم خلقِه .

قوله جل ذكره : ﴿ وتزودوا فإن خيرَ الزاد التقوى واتقونِ يا أولى الألباب ﴾ .

تقوى العامة مُجانبة الزلات ، وتقوى الخواص مجانبة الأغيار بالسرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جُنَاحٌ أن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن ربِّكم ﴾ .

الإشارة فيه أن ما تبتغى من فضل الله مما يُعينك على قضاء حقِّه ، ويكون فيه نصيب للمسلمين أو قوة للدين — فهو محمود . وما تطلبه لاستيفاء حظك أو لما فيه نصيب لنفسك — فهو معلول .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا أفَضْتُم من عرَفَاتٍ فاذكروا الله عِندَ المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لِمنَ الضالين ﴾ .

الإشارة فيه إذا وقفت حتى قمت بحق طلبه فاذكر فضله معك ؛ فلولا أنه أرادك لما أرَدْتَه ، ولولا أنه اختارك لما آثرتَ رضاه .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾

الإشارة فيه ألا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك فى الظاهر ، لا بلبسة ولا بخرقة ولا بصفة ،

بل تكون كواحد من الناس ، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً ، أو بك أو لك أو معك شيء فاستغفر اللهَ ، وجَدِّدْ إيمانك فإنه شِرْكٌ خَفِيٌّ خامَرَ قلبَك.

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كَذِكرِكم آباءكم أو أشدَّ ذِكْرا ﴾

« قضيتم مناسككم » إشارة إلى القيام بحق العبودية .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » إشارة إلى القيام بحق المحبة .

قضاء المناسك قيامٌ بالنفس .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » قيامٌ له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق العمر .

ويقال كما أنَّ الأغيار يفتخرون بآبائهم ، ويستبشرون بأسلافهم فَلْيَكُن افتخاركم بنا واستبشاركم بنا .

ويقال إن كان لآبائكم عليكم حقُّ التربية فحقُّنا عليكم أوجب ، وأفضالنا عليكم أتم .

ويقال إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب(١) ، فاستحقاقنا لنعوت الجلال فوق ما لآبائكم من حسن الحال .

ويقال إنك لا تملُّ ذكر أبيك ولا تنساه على غالب أحوالك ، فاسْتَدِمْ ذِكرنا ، ولا تعْتَرِضَنَّك ملالة أو سآمة(٢) أو نسيان .

ويقال إنْ طَعَنَ في نَسَبِكَ طاعِنٌ لم ترضَ فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبِدَعِ فَذُبَّ عنَّا .

ويقال الأبُ يُذكَرُ بالحرمة والحشمة فكذلك اذكرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القربة بحسن التربية .

وقال « كذكركم آباءكم » ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يُذكَر احتراماً والأم تُذكَر شفقةً عليها ، والله يَرْحَمُ ولا يُرْحَم .

---

(١) وردت (مثاقب) وهي خطأ في النسخ .
(٢) وردت (مسامة) وهي خطأ في النسخ .

« أو أشد ذكرا » لأن الحقّ أحقُّ ، ولأنك قد تستوحش كثيراً عن أبيك ، والحقُّ سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضى الواجب حتى إن كان ذرة .

وقوله « كذكركم آباءكم » الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ من يقول ربَّنا آتنا في الدنيا[1] وما له في الآخرة مِنْ خلاق ﴾ .

خطاب لو قاله مخلوقٌ لكَ كان شاكراً[2] ، ولو أنه شكامنك كما شكا إليك لساءت الحالة ، ولكن بفضله أَحلَّكَ محل أن يشكو إليك فقال : مِنَ الناس من لا يجنح قلبه إلينا ، ويرضى بدوننا عنًا ، فلا يبصر غير نفسه وحظه ، ولا يمكن إيمان له بربه وحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

إنما أراد بها حسنة تنتظم بوجودها جميع الحسنات ، والحسنةُ التى بها تحصل جميع الحسنات فى الدنيا — حفظُ الإيمان عليهم فى المآل ؛ فإنَّ مَنْ خرج من الدنيا مؤمنا لايخلد فى النار ، وبفوات هذا لا يحصل شيء . والحسنة التى تنتظم بها حسنات الآخرة — المغفرة ، فإذا غفر فبعدها ليس إلا كل خير .

ويقال الحسنة فى الدنيا العزوف عنها ، والحسنة فى الآخرة الصون عن مساكنتها . والوقاية من النار ونيران الفُرقه إذ اللام فى قوله « النار » لام جنس فتحصل الاستعاذة عن نيران الحرقة ونيران الفرقة جميعاً .

ويقال الحسنة فى الدنيا شهود بالأسرار وفى الآخرة رؤية بالأبصار .

ويقال حسنة الدنيا ألا يُغنيك عنك وحسنة الآخرة ألا يردك إليك .

---

(١) التبس على الناسخ نقل هذه الآية بالآية التى تليها فوضع هنا (حسنة) وهى زائدة .
(٢) نرجح أنها (شاكيا) فى الأصل .

ويقال حسنة الدنيا توفيق الخدمة وحسنة الآخرة تحقيق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ .

إن كان خيراً فخير وإن كان غيراً فغير . « والله سريع الحساب » للعوام فى الفرصة ، والخواص فى كل نَفَس .

ويقال ذكر فريقين : منهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، والثانى يقول فى الدنيا والعقبى ، وثالث لم يذكرهم وهم الراضون بقضائه ، المستسلمون لأمره ، الساكنون عن كل دعاء واقتضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا الله فى أيامٍ معدوداتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فى يومين فلا إثمَ عليه ، ومَن تأخَّر فلا إثمَ عليه لِمَنِ اتَّقَى ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه تُحشَرون ﴾ .

هذه صفة أواخر النسك ، وهو الرمى فى أيام مِنى لما قدموا بأركان الحج خَفَّفَ عنهم بأن خيَّرهم فى المقام والإفاضة والتعجيل فى التفريق .

والإشارة منه أنَّ مَنْ خدمت نفسُه ، وحَيِيَ قلبُه ، واستدام بحقائق الشهود (سِرُّه)(١) — فإنْ سَقَطَ عنه شىء من فروع الأوراد ففيما هو له مستديمٌ من آداب الحضور عِوَضٌ عن الذى يفوت .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما فى قلبه وهو ألَدُّ الخِصام ﴾ .

أخبر أن قوماً أعرض الحق سبحانه وتعالى عن قلوبهم فأعطاهم فى الظاهر بَسْطَةً فى اللسان ولكن ربط على قلوبهم أسباب الحرمان ، فَهُمْ فى غطاء جهلهم ، ليس وراءهم معنىً ، ولا على قولهم اعتمادٌ ، ولا على إيمانهم اتّكالٌ ، ولا بهم ثقةٌ بوجهٍ .

(١) نعلم من مذهب القشيرى أن حقائق الشهود متصلة بالسر ، وما دام قد ذكر النفس والقلب فقد وجدنا من الضرورى للتوضيح ذكر (سره) حيث نرجح أنها سقطت من الناسخ .

والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر ؛ لا لهم بهذا الحديث إيمان ، ولا بهذه الجملة استبصار ، فالواجبُ صونُ الأسرار عنهم فإنهم لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار[1] ، وإن أهل الوداعة[2] من العوام الذين فى قلوبهم تعظيم لهذه الطريقة ، ولهم إيمــان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثير ممن عدَّ نفسه من الخواص وهو بمعزل عن الإيمان بهذا الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تولىَّ سعى فى الأرض ليُفْسِدَ فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ والله لا يحب الفساد ﴾ .

الإشارة لِمَنْ سَعْيُه مقصورٌ على استجلاب حظوظه ، فهو لا يبالى بمــا يَنْحَلُّ من عُرى الدين، ويهى من أسباب الإسلام ، بعدما تَشْتد حبال دنياهم ، وتنتظم أسباب مناهم ، من حرامٍ جمعوه ، وحُطامٍ حَصَّلوه . فإذا خَلَوْا لوساوسهم وقصودهم الردية سَعَوْا بالفساد بأحكام أسباب الدنيا ، واستعمالهم مَنْ يستعينون بهم فى تمشية أمورهم مِنَ القوم الذين نزع الله البصيرة من قلوبهم .

« والله لايحب الفساد » : ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية فهو الفساد الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قِيل له اتقِ اللهَ أخذَتْهُ العِـزَّةُ بالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ .

هؤلاء أقوام استولى عليهم التكبُّر ، وزال عنهم خضوعُ الإنصاف ؛ فَشَمَخَتْ آنافُهم عن قبول الحق فإذا أمرته بمعروف قال : أمثلى يقال هذا ؟!

---

(١) هنا نلاحظ أن القشيرى يرى عدم البوح بأسرار الطريقة وأن الكتمان خير — وهذا موقف هام فى مسألة على جانب عظيم من الخطورة .

(٢) وردت (الاوداعة) ونرجح أنها الوداعة لأنها أقرب إلى السياق .

وأنا كذا وكذا ؛ ثم يكبر عليك (. . .)[1] فيقول: وأنت أولى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر فإن من حالك وقصتك كذا وكذا .

أو لو ساعده التوفيق وأدركته الرحمة ، وتقلَّد للمنة بمن هداه إلى رؤية خطئه ، ونبهه على سوء[2] وصفه ، لم يطوِ على نصيحة جنبيه وتبقى فى القلب — إلى سنين — آثارها .

قال تعالى « فحسبه جهنم » يعنى ما هو فيه فى الحال من الوحشة وظلمات النفْس وضيق الاختيار حتى لا يسعى فى شىء غير مراده ، فيقع فى كل لحظة غير مرة فى العقوبة والمحنة ، ثم إنه منقول من هذا العذاب إلى العذاب الأكبر ، قال الله تعالى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر» .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الناسِ من يشرى نفسه ابتغاء مرضاتِ الله والله رءوف بالعباد ﴾ .

أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة ، ونعتتهم سوابق القسمة ، فآثروا رضاء الحق على أنفسهم ، واستسلموا بالكلية لمولاهم ، والله رءوف بالعباد : ولرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال ، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

كلَّف المؤمنَ بأن يُسالِمَ كل أحدٍ إلا نَفْسَه فإنها لا تتحرك إلا بمخالفة سيده ؛ فإن مَنْ سَالَم نَفْسَه فَتَرَ عن مجاهداته ، وذلك سبب انقطاع كل قاصد ، وموجِبُ فترةِ كل مريد .

و « خطوات الشيطان » ما يوسوسه إليك من عجزك عن القيام باستيفاء أحكام المعاملة ، وتركِ نزعاتٍ لا عِبْرة بها ، ولا ينبغى أن يُلْتَفَتَ إليها ، بل كما قال الله تعالى «فإذا خِفْتِ عليه فألقيه فى اليَمِّ » ثم أبْصِرْ ما الذى فعل به حين ألقَتْه ، وكيف ردَّه إليها بعدما نجَّاه .

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (سواء) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾

الزلة الواحدة بعد كشف البرهان أقبح من كثير منها قبل ذلك ، ومن عرف فى الخيانة لا يعتمد عليه فى الأمانة . ومحنة الأكابر[1] إذا حلت كان فيها استئصالهم بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ﴾ .

استبطأ القوم قيام الساعة فأخبروا عن شدة الأمر إذا قامت الساعة بتفصيل ما ذكر .

وتلك أفعال فى معنى الأحوال ، يظهرها الله سبحانه بما يزيل عنهم الإشكال فى علو شأنه سبحانه وتعالى ، ونفاذ قدرته فيما يريد . « وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » أى انهتك ستر الغيب عن صريح التقدير السابق . ولقد استغنت قلوب الموحدين لما فيها من أنوار البصائر عن طلب التأويل لهذه الآية وأمثالها إذ الحق سبحانه منزه عن كل انتقال وزوال ، واختصاص بمكان أو زمان ، تقدس عن كل حركة وإتيان[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾

فائدة السؤال ليقرر عليهم بالسؤال الحجة ، لا ليقرر للرسول صلى الله عليه وسلم بسؤالهم ما أشكل عليهم من واضح المحبة .

« ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب » بزوال تلك النعمة . وعند ذلك يعرفون قدرها ، ثم يندبونها ولا يصلون إليها قط ، قال قائلهم :

ستهجرنى وتتركنى فتطلبنى فلا تجد

---

(١) محنة الأكابر المقصود بها هنا زلات الأكابر ، وعقوبتها أشد ، وقد استدل القشيرى على ذلك فى موضع سابق بأن من ترتكب فاحشة من أمهات المسلمين يضاعف لها العذاب ضعفين .
(٢) إشارة إلى ما فى الآية الكريمة (يأتيهم الله) .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ للذين كفروا الحياةُ الدنيا
ويسخرون من الذين آمنوا والذين
اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق
من يشاء بغير حساب ﴾ .

مكروا[1] فلم يشعروا ، وحملهم اشتداد الظلمة على بصائرهم على الوقيعة فى أوليائه سبحانه ، والسخرية منهم ، وحين تقشعت غواية الجهل عن قلوبهم (. . . . . .)[2] علموا مَن الخاسر منهم مِن الذى كان فى ضلال بعيد .

قوله جل ذكره ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله
النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل
معهم الكتاب بالحقِّ ليحكم بين
الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف
فيه إلا الذين أوتوه مِنْ بعدما جاءتهم
البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين
آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقِّ
بإذنه والله يهدى مَن يشاء إلى
صراط مستقيم ﴾ .

يعنى الغيبة عن الحق جمعتهم ، فلما أتتهم الرسل تباينوا على حسب مارُزقوا من أنوار البصيرة وحُرِموها . ويقال كانوا على ما سبق لهم من الاختيار القديم ، وبمجىء الرسل تهود قوم وتَنَصَّر قوم ، ثم فى العاقبة يُرَدُّ كل واحد إلى ما سبق له من التقدير ، وإن الناس اجتمعوا كلهم فى علمه سبحانه ثم تفرَّقوا فى حكمه ، فقوم هداهم وقوم أغواهم ، وقوم حجبهم وقوم

(١) ربما كانت فى الأصل (مُكِر بهم) فلم يشعروا ، فالآية تقول (زُيّن للذين ...) فهم لم يشعروا بأن تزيين الدنيا لهم مَكر من الله والله خير الماكرين .
(٢) زائدة .

جذبهم ، وقوم ربطهم بالخذلان وقوم بسطهم بالإحسان ، فلا من للمقبولين أمر مكتسب ، ولا لردّ للمردودين سبب ، بل هو حُكمٌ بُتٌّ وقضاء جُزم .

قوله جل ذكره : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة
ولمّا يأتكم مَثَلُ الذين خلَوْا من
قبلكم مسَّتْهُم البأساء والضَّرَّاء
وزُلْزِلوا حتى يقول الرسول والذين
آمنوا معه متى نصر الله ألا إنَّ نصرَ
الله قريب﴾ .

خلق الله الجنة وحفّها بالمصاعب ، وخلق النار وحفّها بالشهوات والرغائب ، فَمن احتشم ركوب الأهوال بقى عن إدراك الآمال . ثم إن الحق سبحانه ابتلى الأولين بفنونٍ من مقاساة الشدائد ، وكلٌّ من أُلحِقَ بهم من خلف الأولياء أدخلهم فى سِلْكِهم ، وأدرجهم فى غمارهم ، فمن ظنَّ غير ذلك فَسَرَابٌ ظَنَّه ماء ، وحكم لم يحصل على ما ظَنه تأويلا . ولقد مضت سُنَّةُ الله سبحانه مع الأولياء أنهم لا يُنيخُون بعقوة الظفر إلا بعد إشرافهم على عرصات اليأس ، فحين طال بهم التَرَقُّبُ صادَفَهم اللطفُ بغتةً وتحقق لهم المُبْتَغَى فجأة . قال تعالى « ألا إن نصر الله قريب » .

قوله جل ذكره : ﴿يسألونك ماذا ينفقون قُلْ ما أنفقتم
من خير فللوالدَيْن والأقربين
واليتامى والمساكين وابن السبيل ،
وما تفعلوا من خير فإن الله
به عليم﴾ .

علموا أن العبد غير منفردٍ بالفاعلية أن يفعل ، فإنَّ العبد ليس له فعل شىء إلا بإذن مولاه فتوقفوا فى الإنفاق على ما يشير إليه تفصيل الإذن ، لأنَّ العبوديّة الوقوفُ حيثما أوقفك الأمر .

ويقال لم ينفقوا على إشارات الهوى . وإنَّ ما طالعوه تفاصيلُ الأمر وإشارات الشرع والواو فى هذه الآية فى قوله : « والأقربين واليتامى » تشير إلى نوعٍ من الترتيب ؛ فالأَوْلى بمعروفك والداك ثم أقاربك ثم على الترتيب الذى قاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ
لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو
خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً
وهو شَرٌ لكم والله يعلم وأنتم
لاتعلمون ﴾ .

صعبت على النفوس مباشرة القتال ، فبيَّن أن راحات النفوس مؤجلة لأنها فى حكم التأديب ، وبالعكس من هذا راحات القلوب فإنها معجلة إذ هى فى وصف التقريب ، فالسادة فى مخالفة النفوس ؛ فمن وافقها حاد عن المحجة المثلى ، كما أن السعادة فى موافقة القلوب فمن خالفها زاغ عن السُّنَّة العليا .

وبشرى ضمان الحق باليُسْر أَوْلَى أن تُقْبَل من محذرات هواجس النفوس فى حلول العسر وحصول الضر .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه
قُلْ قِتال فيه كبيرٌ وَصَدٌ عن سبيل
الله ، وكُفرٌ به والمسجد الحرام ،
وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله ،
والفتنة أكبر من القتل ﴾ .

من المعاصى ما يكون أشد من غيره وأصعب فى المعنى ، فسوء الأدب على الباب لا يُوجِب ما يُوجِبه على البساط ؛ فإذا حصلت الزلة بالنَّفْس فأثرها بالعقوبة المؤجلة وهى الاحتراق ، وإذا زلّ[1] القلب فالعقوبة معجلة وهى بالفراق ، وأثر الغفلة على القلوب أعظم من ضرر الزلة

(١) وردت (زال) وهى قطعاً خطأ فى النسخ .

على النفوس ، فإن النفس عن الحظ تبقى ، والقلب عن الحق يبقى

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم
عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يَرْتَدِدْ
منكم عن دينه فَيَمُتْ وهو كافر
فأولئك حَبِطَتْ أعمالهم فى الدنيا
والآخرة وأولئك أصحاب النار هم
فيها خالدون ﴾ .

الإشارة من هذا أن أهل الغفلة إذا راودوك أرادوا صَرْفَكَ إلى ما هم عليه من الغفلة ، فلا يرضون إلا بأن تفسخ عقد إرادتك بما تعود إليه من سابق حالتك ، ومَنْ فسخ مع الله عهده مَسَخَ قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا
وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون
رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ .

إن الذين صدقوا فى قصدهم ، وأخلصوا فى عهدهم ، ولم يرتدوا فى الإرادة على أعقابهم ، أولئك الذين عاشوا فى رَوْحِ الرجاء إلى أن يصلوا إلى كمال البقاء ودار اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قُلْ فيهما
إثمٌ كبير ومنافع للناس وإثمهما
أكبر من نفعهما ﴾ .

الخمر ما خامر العقول ، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسُّكْر حرام بقوله صلى الله عليه وسلم : « حُرِّمت الخمر بعينها ، والسُّكْر من كل شراب » ، فمن سَكِرَ من شراب الغفلة استحق ما يستحق شارب الخمر من حيث الإشارات ، فكما أنَّ السكران ممنوع من الصلاة فصاحب السُّكْر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود ، فمَنْ لم يُصَدِّقْ فَلْيُجَرِّب .

ومعنى القهار موجود في أكثر معاملات أهل الغفلة إذا سلكوا طريق الحِيَل والخداع والكذب في المقال. وبذلُ الصدقِ والإنصافِ عزيزٌ.

قوله جل ذكره: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قُلِ العَفْوَ
كذلك يُبَيِّن اللهُ لكم الآياتِ
لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾

قيل العفوُ ما فضل عن حاجتك، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم عن قدر كفاياتهم، فأمَّا خواص الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يُؤثِر به غيرَه على نفسه وبه فاقة إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذي يؤثِر به غنياً.

قوله جل ذكره: ﴿ويسألونك عن اليتامى قُلْ إصلاح لهم
خير وإن تخالطوهم فإخوانُكم﴾

إصلاح حالهم بما يكون فيه تأديبهم أتمّ من إصلاح مالهم، ثم الصبر على الاحتمال عنهم مع بذل النصح، و(مفارقة المال مَنْ مِنْ أرشادهم خير من الترخص بأن يقول إنه لا يتوجه على فرضيهم)[1].

قوله جل ذكره: ﴿والله يعلم المُفْسِدَ مِنَ المصلح ولو شاء
الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾.

فيُعاملُ كلاًّ على سوا كن قلبه من القصُود لا على ظواهر كَسْبِه من جميع الفنون.

قوله جل ذكره: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤْمِنَّ
ولأَمَةٌ مؤمنة خيرٌ من مشركة
ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين
حتى يؤمنوا ولَعَبْدٌ مؤمنٌ خيرٌ مِّن
مُشركٍ ولو أعجبكم، أولئك يدعون

(١) فيما بين قوسين غموض وربما نتج عن خطأ في النقل.

إلى النـار والله يدعو إلى الجنـة
والمغفرة بإذنه ، ويُبَـيِّنُ آياته للناس
لعلهم يتذكَّرون ﴾ .

صلة حبل الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضا بأن تنتهى إلى أحد يسلك إلى الـكفر ، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة فى فعله فإشارة الحقيقة مانعة من حيث التبرئة عن اختياره ، هذا فى الـكتابيات اللاتى يجوز مواصلتهن ، فأما أهل الشِرْك فحرامٌ مواصلتهم قطعاً ، وأوجهُ مباينتهم فى هذا الباب حُكْمُ جَزْمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً
فاعْتَزِلُوا النسـاء فى المحيـض
ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ فإذا
تطهَّرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾

ليس كل ما يكون موجب الاستحياء والنفور ممـا هو باختيار العبد ، فقد يكون من النقائص ما ليس للعبد فيه كسب ، وهو ابتداء حكمُ الحق ، فمن ذلك ما كتب الله على بنات آدم من تلك الحالة ، ثم أُمِرْنَ باعتزال المُصَـلَّى فى أوان تلك الحالة ، فالمصلِّى مناجٍ ربَّه ، فنُحِّيْن عن محل المناجاة حكماً من الله لا جُرْماً لهن . وفى هذا إشارة فيقال : إنهن — وإنْ مُنِعْنَ عن الصلاة التى هى حضور بالبدن فلم يحجبن عن استدامة الذكر بالقلب واللسان ، وذلك تعرض بساط القرب ، قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه تعالى : « أنا جليس من ذكرنى » .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الله يحب التـوَّابين ويحب
المتطهرين ﴾ .

يقال يحب التوابين من الذنوب ، والمتطهرين من العيوب .

ويقال التوابين من الزلة ، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة .

ويقال التوَّابين من ارتـكاب المحظورات ، والمتطهرين من المساكنات والملاحظات .

ويقال التوَّابين بماء الاستغفار والمتطهرين بصوب ماء الخجل بنعت الانـكسار .

ويقال التوّابين من الزلة ، وللتطهرين من الغفلة .

ويقال التوّابين من شهود التوبة ، والمتطهرين من توهم أن شيئاً بالزلة بل الحكم ابتداء من الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ نساؤكم حَرْثٌ لكم فأتوا حرثكم
أنّى شئتم وقَدِّموا لأنفسكم واتقوا
الله واعلموا أنّكم ملاقوه وبَشِّر
المؤمنين ﴾ .

لمّا كانت النفوس بوصف الغيبة عن الحقيقة أباح لها السكون إلى أشكالها إذا كان على وصف الإذن ، فلمّا كانت القلوب فى محل الحضور حرم عليها المساكنة إلى جميع الأغيار والمخلوقات .

« وقدّموا لأنفسكم » من الأعمال الصالحة ما ينفعكم يوم إفلاسكم ، لذلك قال :

« واعلموا أنكم ملاقوهُ » فانظروا لأنفسكم بتقديم ما يسركم وجدانه عند ربكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تجعلوا الله عُرْضَةً لأيْمانكم
أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين
الناس والله سميع عليم ﴾

نزّهوا ذِكْرَ ربكم عن ابتذاله بأى حظ من الحظوظ .

ويقال لا تجعلوا ذكر الله شَرَكاً يُصْطَاد به حطام الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيْمانكم
ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم
والله غفور رحليم ﴾

ما جرى به اللسان على مقتضى السهو فليس له كثير خطرٍ فى الخير والشر ، ولكن ما انطوت عليه الضمائر ، واحتوت عليه السرائر ، من قصود صحيحة ، وعزائم قوية فذلك الذى يؤخذ به إن كان خيراً فجزاء جميل ، وإن كان شراً فعناء طويل .

قوله جل ذكره : ﴿ للذين يُؤْلُون من نسائهم تَرَبُّصُ أربعة أشهر ﴾

إذا كان حق صحبة الأشكال محفوظاً عليك — حتى لو أخْلَلْتَ به — وأخَذَكَ بحكمه : فحقُّ الحقِّ أحَقُّ بأن تجب مراعاته . « فإن فاءوا » أى رجعوا إلى إحياء ما أماتوا ، واستدراك ما ضيَّعوا « فإن الله غفور رحيم » فلما تقاصر لسان الزوجة — لكونها أسيراً فى يد الزوج — تَوَلّى الله — سبحانه — الأمرَ بمراعاة حقها فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾

إنْ ملَّ حق صحبتها ، وأكّد العزم على مفارقتها فإن الله مطلع على حاله وسره ، فإنْ بدا له بادٍ من ندم فلا يُلبِس بأركان الطلاق فإن الله سبحانه عليم أنه طلَّقها .

ولمّا كان الفراق شديداً عزَّى المرأة بأن قال إنه « سميع » أى سمعنا موحش تلك القالة ، فهذا تعزية لها من الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ .

أمَرَ المطلقات بالعِدَّة احتراماً لصحبة الأزواج ، يعنى إنْ انقطعت العلاقة بينكما فأقيموا على شرط الوفاء لما سَلَفَ من الصحبة ، ولا تقيموا غيره مقامه بهذه السرعة ؛ فاصبروا حتى يمضى مقدار من المدة . ألا ترى أن غير المدخول بها لم تؤمر بالعدة حيث لم تقم بينهما صحبة ؟

ثم قال جل ذكره : ﴿ ولا يَحِلُّ لَهُنَّ أن يكتُمن ما خلق اللهُ فى أرحامهن إن كُنَّ يُؤمِنَّ بالله واليوم الآخر ﴾ .

يعنى إن انقطع بينكما السبب فلا تقطعوا ما أثبت الله من النَّسَبِ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ وبُعولَتُهُنَّ أحَقُّ بِرَدِّهن ﴾ :

يعنى مَنْ سَبَقَ له الصحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع فى النـكاح من الثلمة

﴿ فى ذلك إنْ أرادوا إصلاحًا﴾ .

يعنى أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة عليها بأن يعزم على طلاقها بعدما أرجعها .

﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الذى عليهن بالمعروف﴾

يعنى إن كان له عليها حق مما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال .

﴿وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾ .

فى الفضيلة ، ولهن مزية فى الضعف وعجز البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ .

ندب إلى تفريق الطلاق لئلا تسارع إلى إتمام الفراق ، وقيل فى معناه :

إنْ تَبَيَّنْتُ أنَّ عَزْمَكِ قتلى فذرينى أضنى قليـــلا قليلا

ثم قال جلَّ ذكره : ﴿ فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾ .

إمَّا صحبةٌ جميلة أو فُرْقة جميلة . فأمَّا سوء العشرة وإذهاب لذة العيش بالأخلاق الذميمة فغير مَرْضِىٍ فى الطريقة ، ولا محمود فى الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحِلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ .

فإن فى الخبر « العائد فى هبته كالعائد فى قَيْئه » والرجوع فيما خرجتَ عنه خِسَّة .

ثم قال جل ذكره : ﴿إلاَّ أن يخافا ألاَّ يُقيما حُدودَ الله فإنْ خِفْتُم ألاَّ يُقيما حدودَ الله فلا جُناحَ عليهما فيما افتدت به﴾ .

يعنى إنْ أرادت المرأة أن تتخلص من زوجها فلا جناح عليها فيا تبذل من مال ، فإنَّ النفس تساوى لصاحبها كل شيء ، والرجل إذا فاتته صحبة المرأة فلو اعتاض عنها شيئاً فلا أقلَّ من ذلك ، حتى إذا فاتته راحة الحال يصل إلى يده شيء من المال .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها وَمَن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾

هذه آداب يُعَلِّمكما الله ويُبَيِّنها لكم ، فحافظوا على حدوده ، وداوموا على معرفة حقوقه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن طلَّقها فلا تحِلُّ له من بَعْدُ حتى تنكِحَ زوجاً غيره ﴾

الرجلُ يَشُقُّ عليه أن ينكحَ زوجتَه غيرُه فنعه عن اختيار الفراق بغاية الفراق بغُية المنع[1] لما بيَّن أنها لا تحل له إن فارقها إلا بأن تفعل[2] غاية ما يشق عليه وهو الزواج الثانى ليَحْذَرَ الطلاق ما أمكنه. ثم قال «فإنْ طَلَّقها» يعنى الزوج «فلا جُناحَ عليهما أن يتراجعا» يعنى تتزوج بالزوج الأول

والإشارة فيه أن استيلاء المحبة على القلب يُهَوِّن مُقاساةَ كلِّ شديدة ، فلو انطوى الزوجان بعد الفرقة على التحسُّر على مافاتهما من الوصلة ، وندما على ذلك غاية الندامة فلا جناح عليهما أن يتراجعا ، وللمرأة فى هذه الحالة كأنها (. . .)[3] من الزوج الأول بمكان الزوج الثانى والزوج كالآتى على نفسه فى احتمال ذلك .

ثم قال جل ذكره ﴿ إن ظنَّا أن يُقيما حدودَ الله ، وتلك حدودُ الله يُبيِّنُها لقوم يعلمون ﴾

يعنى لا يعودان بعد ذلك إلى الفراق ثانياً إذا علما حاجة أحدهما إلى صاحبه ، قال قائلهم :

ولقد حلفت لئن لقيتك مرةً ألا أعود إلى فراقك ثانية

---

(١) وردت (بغاية المنع) والأرجح أنها (بُغية المنع) فإن السياق يتطلب ذلك .

(٢) وردت (يفعل) والأصوب أن تعود على المرأة لأنها هى التى ستتزوج ثانية وهذا هو ما يشق على الزوج الأول .

(٣) هنا كلمة رسمها هكذا (الميشور) وربما كانت (المبتور) .

قوله جل ذكره: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن
فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن
بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا
ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه
ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا
نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من
الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا
الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾

تضمنت الآية الأمر بحسن العشرة، وترك المغايظة مع الزوجة، والحث على وجه اللجاج؛ فإمَّا تخلية سبيلٍ من غير جفاء أو قيامٌ بحق الصحبة على شرط الوفاء.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن
فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن
إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك
يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله
واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم
وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

تضمنت الآية نهي الأولياء[1] عن مضارتهن، وتركَ حمية الجاهلية، والانقيادَ لحكم الله في تزويج النساء إنْ أردن النكاح من دون استشعار الأنفة والحمية.

بل إذا رضيت بكفءٍ يخطبها فحرام عليكم ظلمها. والتذويبُ عن أوصاف البشرية بقهر النفس أشدُّ مجاهدةً وأصدقُ معاملةً لله.

قوله جل ذكره: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين
كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾

(١) الأولياء هنا من ولاية الرجل على المرأة وليست من الولاية في باب التصوف.

غايةُ الرحمة التى يُضْرب بها المَثَلُ رحمةُ الأمهات ، فأمَرَ الله سبحانه الأمهاتِ بإكمال الرحمة بإرضاع المولود حَوْلَيْن كاملين ، وقطعُ الرضاعة عنه قبل الحولين إشارةٌ إلى أن رحمة الله بالعبد أتمُّ من رحمة الأمهات .

ثم قال جل ذكره : ﴿وعلى المولود له رزْقُهن وكسوتهن بالمعروف﴾ .

يعنى الأب عليه رزقهن وكسوتهن — أى المرضعات — بالمعروف . لمَّا يَنُبْن عنك وَجَبَ حقُّهن عليك ، فإنَّ مَنْ لك كله فعليك كله .

ثم قال جل ذكره : ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا﴾

إدخارُ المستطاع بُخْلٌ ، والوقوفُ — عند العجز — عذر .

ثم قال جل ذكره : ﴿لا تُضَارَّ والدةٌ بولدها﴾ .

فى الإرضاع وما يجب عليه .

﴿ولا مولودٌ له بولَدِه وعلى الوارث مثل ذلك﴾ .

يعنى الوالد[1] بولده يعنى فيما يلزم من النفقة والشفقة . فكما يجب حق المولود على الوالدين يجب حق الوالدين على المولود .

ثم قوله جل ذكره : ﴿فإن أرادا فِصالا عن تَرَاضٍ منهما وتشاورٍ فلا جُناح عليهما وإنْ أَرَدْتُمْ أن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾

يعنى فطاماً قبل الحولين ، فلا جناح بعدما كان القصد الصلاح . اشتملت الآية على تمهيد طريق الصحبة ، وتعليم محاسن الأخلاق فى أحكام العسرة وإن من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن ذكر أنه لم يُقَبِّل أولاده : « إن الله لا ينزع الرحمة إلا من قلب شقى » .

---

(١) وردت (الولد) والسياق يقتضى أن تكون (الوالد) بعد أن تحدث عن (الوالدة) .

قوله جل ذكره : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً
يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر
وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح
عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف
والله بما تعملون خبير﴾

لمّا كان حق الميت أعظم لأن فراقه لم يكن بالاختيار كانت مدة الوفاء له أطول . وكانت عدة الوفاة فى ابتداء الإسلام سَنَةً ، ثم رُدت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام لتحقق براءة الرحم عن ماء الزوج ، ثم إذا انقضت العدة أبيح لها التزوج بزوجٍ آخر . والميت لا يستديم وفاءه إلى آخر العمر أحدٌ كما قيل :

وكما تَبلى وجوهٌ فى الثرى فكذا يَبْلَى عليهن الحَزَن

قوله جل ذكره : ﴿ولا جناح عليكم فيما عَرَّضتم به من
خِطبة النساء أو أكننتُم فى أنفسكم
علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن
لا تواعدوهن سِرًّا إلا أن تقولوا
قولاً معروفاً﴾

أبيح من ذلك ما كان فيه استجلاب للمودة ، وتأسيس لحال الوصلة . وحرّم منه ما فيه ارتكاب المحظورات من إلمام بذنب أو عِدةٍ بجُرْمٍ (١).

قوله جل ذكره : ﴿ولا تَعزموا عُقْدَةَ النكاحِ حتى
يبلغ الكتابُ أجَله ، واعلموا أن الله
يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا
أن الله غفور حليم﴾

(١) وردت بالحاء والصحيح أن تكون بالجيم .

أى تنقضى عدة الأول فإن حرْمة الماضى لا تضيع .

قوله جل ذكره : ﴿ لا جُناحَ عليكم إن طلقتم النساء ما لم تَمَسُّوهُنَّ أو تَفْرِضوا لهن فريضة ومَتِّعُوهنَّ على المُوسِعِ قَدَرُهُ ، وعلى المُقْتِرِ قَدَرُه متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾

إن ابتلاء تَمَّ بوصيلة[1] أشكالكم ثم بدالكم فلا جناح[2] عليكم فى اختيار الفرقة — إذا أردتم — فإن الذى لا يجوز اختيار فرقته — واحد ؛ فأمَّا صحبة الخَلْق بعضهم مع بعض فليس بواجب ، بل غاية وصفه أنه جائز .

ولمَّا وقع عليهن احكم فنصف المسمَّى يجب لهن ، فإن الفراق — كيفما كان — فهو شديد ، فجعل ما يستحق من العوض كالخَلَفِ لها عند تجرع كأس الفرقة .

فإن لم يكن مسمَّى فلا يخلو العقد من متعة ؛ فإن تجرع الفرقة — مجرداً عن الراحة — بلاء عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لَهُنَّ فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يَعْفُوَ الذى بيده عُقْدَةُ النكاح ، وَأَنْ تعفوا أقربُ للتقوى ﴾ .

ثم ذكر أن العفو أتم وأحسن ، إمَّا من جهة المرأة فى النصف المستحق لها ، أو من قِبَل الزوج فى النصف العائد إليه .

---

(١) وردت (بوصيلة) وربما كانت الباء زائدة وأنها (بوصلة) أشكالكم .

(٢) وردت (فلاح جرح) وهى خطأ من الناسخ ، وقد صححناها (فلا جناح) طبقاً للآية ، ويحتمل أيضاً أنها فى الأصل (فلا جُرْم) .

ثم قال جلّ ذكره : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾ .

يقال من أخذ بالفضل واقتصر على الفرض فمن قريب يخل[1] بالفرض .

ويقال نسيان الفضل يقرب صاحبه من البخل ، وإن من سُنَّة الكرام إذا خفيت عليهم مواضع الكرم أن يشحذوا بصائر الجود لتطالع لطائف الكرم فتتوفر دواعيهم فى اقتناء أسباب الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ حافظوا على الصّلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ .

المحافظة على الصلاة أن يدخلها بالهيبة ، ويخرج بالتعظيم ، ويستديم بدوام الشهود بنعت الأدب ، والصلاة الوسطى (أبهم ذكرها على البيت)[2] لتراعى الجميع اعتقاداً منك لكل واحدة أنها هى لئلا يقع منك تقصير فى شىء منها .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ خِفْتُمْ فَرِجالا أو رُكباناً فإذا أمِنتُم فاذكروا الله كما علّمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ .

أى لا تخلّوا بمناجاتى لأوقاتها على الوصف الذى أمكنكم فان ماتحسونه[3] من أعدائكم أنا سلّطتهم عليكم ، فاذا خلوتم بى بقلوبكم قصرت أيديهم عنكم ، وجعلت لكم الظفر عليهم ، ثم إذا زال عنكم الخوف وأمنتم فعودوا إلى استقراركم باستفراغ أوقاتكم فى الاعتكاف بحضرتى سراً وجهراً .

---

(١) يحتمل انها (يخل) و (يُخِيل) ، فإذا عرفنا أن الصوفية عموماً يتشددون فى التعبد ويتفوقون فيه على الكافة أمكن القول أن المعنى ممكن أن ينصرف إلى يخل بمعنى أن القشيرى يحذر من أن الاكتفاء بالفرض قد يؤدى إلى البخل به ، وهذا بدوره يؤدى إلى أن يخل بشأنه وقد وردت يخل ويخل فى السياق فيما بعد . والله أعلم .

(٢) وردت هكذا وقد نقلناها من النص دون تعديل وربما كانت (أبهم ذكرها عن البت) .

(٣) يحتمل أن تكون (تخشونه) من أعدائكم وكلاهما مقبول ، وإن كنا نؤثر (تخشونه) لتناسب « فإن خفتم » فى الآية .

قوله جل ذكره: ﴿ والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويَذَرُون
أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعا إلى
الحوْلِ غير إخراجٍ فإن خَرَجْنَ
فلا جُنَاح عليكم فيما فعَلْنَ فى أنفُسِهن
من معروفٍ واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ .

كانت عِدَّةُ الوفاة فى ابتداء الإسلام سَنَةً مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك حيث يقول قائلهم :

إلى الحول ثم اسم السلامِ عليكم ومَنْ لبَّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ثم نُسِخَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لابد من انتهاء مدة الحداد ولقد قال قائلهم :

قال : لو مِتَّ لم أعِشْ قلتُ : نافقتَ فأمْسَكَتْ
أى حىٍ رأيتَـــه ماتَ وَجْدًا بِمَيِّتِ ؟ ![1]

قوله جل ذكره: ﴿ وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقاً
على المتقين ﴾ .

الإشارة ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم
تعقلون ﴾ .

الدلائلَ ، فتأدبوا بما أشير عليكم ، وتفلحوا بما تعقلون من إشارات حكمى .

قوله جل ذكره: ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم
وهم ألوف حَذَرَ الموتِ فقال لهم الله
موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضلٍ على
الناس ولكن أكثر الناس
لا يشكرون ﴾ .

---

(١) فى الشعر أخطاء كثيرة وقع فيها الناسخ حاولنا إصلاحها بقدر الممكن ليكون مفهوماً .

لمّا استبعدوا قدرة الله فى الإعادة أراهم فى أنفسهم عيانا ، ثم لم ينفع إظهار ذلك لِمَنْ لم يشحذ بصيرته فى التوحيد . ومن قويت بصيرته لم يضره عدم تلك المشاهدات فإنهم تحققوا بما أُخْبِرُوا ، لِماَ آمنوا به بالغيب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ .

يعنى إنْ مَسَّكم أَلَمٌ فتصاعد[1] منكم أنين فاعلموا أن الله سميع لأنينكم ، عليم بأحوالكم ، بصير بأموركم . والآية توجِبُ تسهيل ما يقاسونه من الألم ، وقالوا :

إذا ما تمنى الناسُ روحا وراحةً   تمنيت أن أشكو إليك فتسمع

قوله جل ذكره : ﴿ مَن ذا الذى يُقْرِض الله قَرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة ﴾ .

سُمِّى القرض قرضاً لأنه يقطع[2] من ماله شيئاً ليعطيه للمقترض ، والمتصدِّق لما يقطع الصدقة من ماله سميت صدقته قرضاً ، فالقرض القطع ، ولكن هذه التسمية لحفظ قلوب الأحباب حيث خاطبك فى باب الصدقة باسم القرض ولفظه .

ويقال دلَّت الآية على عِظَمِ رتبة الغَنِيِّ حيث سأل منه القرض ، ولكن رتبة الفقير فى هذا أعظم لأنه سأل لأجْله القرضَ ، وقد يسأل القرض من[3] كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد . وفى الخبر « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند أبى شحمة اليهودى على شعيرٍ أخذه لقوت عياله[4] أبَصِيرٌ مِمَّن اقترض ولأجل مَن اقترض !

ويقال القرض الحسن ما لا تتطلع عليه لجزاء ولا تطلب بسببه العِوَض .

---

(1) وردت (فتصاعد) وواضح أنها خطأ فى النسخ .

(2) أخطأ الناسخ فجاءت (يقع) وقد اخترنا (يقطع) لتناسب القرض ... القطع كما سيذكر بعد .

(3) وردت (عن) والصحيح والملائم للسياق أن يقال (من) .

(4) الحديث بقية (... ولم يترك ديناراً ولا درهماً ، ولم يقسم له ميراث ولم يوجد له فى بيت أثاث) البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة (توفى ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين) ، وعن البيهقى بثلاثين صاعاً من الشعير ، والترمذى والنسائى والبيهقى عن ابن عباس بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله . وسنده حسن ، ولم يترك ولا درهما ، مسلم عن عائشة .

ويقال القرض الحسن ألا يعطى على الغفلة ، وإنما يعطى عن شهود .

ويقال القرض الحسن من العلماء[1] إذا كان عند ظهر الغنى ، ومن الأكابر إذا كان بشرط الإيثار يعطى ما لابد منه .

ويقال القرض الحسن من العلماء عن مائتين خمسة[2] ، وعلى لسان القوم بذل الكل ، وزيادة الروح على ما يبذل .

قوله جل ذكره ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ .

يقبض الصدقة من الأغنياء قبض قبوله ، ويبسط عليهم بسط خلفه .

ويقال يقبض الرزق أي يضيق ، يبسط الرزق أي يوسع ؛ يقبض على الفقراء ليمتحنهم بالصبر ، ويبسط على الأغنياء ليطالبهم بالشكر .

ويقال يقبض تسلية للفقراء ليطالبهم حتى لا يروا من الأغنياء ، ويبسط لئلا يتقلدوا المنة من الأغنياء .

ويقال قال للأغنياء : إذا أنا قبضت الرزق على الفقراء فلا تذروهم ، وإذا أنا بسطت عليكم فلا تروا ذلك لفضيلة لكم .

ويقال قبض القلوب بإعراضه وبسطها بإقباله .

ويقال القبض لما غلب القلوب من الخوف ، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء .

ويقال القبض لقهره والبسط لبره .

ويقال القبض لسره والبسط لكشفه .

ويقال القبض للمريدين والبسط للمرادين .

ويقال القبض للمتسابقين[3] والبسط للعارفين .

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به .

---

(١) يقصد القشيري بالعلماء . على لسان الشريعة ، وبالأكابر ـ على لسان الحقيقة .

(٢) يشير بذلك إلى مقدار زكاة المال وهي ربع العشر .

(٣) ربما كانت « للسابقين » إشارة إلى قوله تعالى : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » .

ويقال القبض حقه ، والبسط حظك .

ويقال القبض لمن تولّى عن الحق ، والبسط لمن تجلّى له الحق .

ويقال يقبض إذا أشهدَكَ فعلَكَ ، ويبسط إذا أشهدك فضله .

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ألم ترَ إلى الملإِ مِنْ بنى إسرائيل مِنْ
بعد موسى إذ قالوا لنبىٍ لهم ابعث
لنا مَلِكاً نقاتل فى سبيل الله
قال هل عَسَيْتُم إن كُتِبَ عليكم
القتال ألا تقاتلوا﴾ .

استقبلوا الأمر بالاختيار ، واقترحوا على نبيِّهم بسؤال الإذن لهم فى القتال، فلمّا أُجيبوا إلى ما ضمنوه من أنفسهم رُكنوا إلى التكاسل ، وعرَّجوا فى أوطان التجادل والتغافل. ويقال إنهم أظهروا التصلب والجد فى القتال ذَبّاً عن أموالهم ومنازلهم حيث :

﴿قالوا وما لنا ألا نُقاتلَ فى سبيل الله
وقد أُخرِجْناَ مِن ديارنا وأبنائنا
فلمّا كُتِبَ عليهم القتال تولوا
إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ .

فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يَخلُص — لحقّ الله — عزمُهم ، ولو أنهم قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله لأنه قد أمرنا ، وأوجب علينا ، فإنه سيدنا ومولانا ، ويجب علينا أمره — لعلّهم وُفقُّوا لإتمام ما قصدوه .

قوله جل ذكره : ﴿وقال لهم نبيُّهم إن الله قد بعث لكم
طالوتَ مَلِكاً قالوا أنّى يكون له
المُلْك علينا ونحنُ أحقُ بالملك منه ولم
يُؤتَ سَعَةً من المال قال إن الله اصطفاه

عليكم وزاده بسطة فى العِلْم والجسم
والله يؤتى مُلْـكَه من يشاء والله
واسع عليم ﴾

نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملـكاً لأنه[1] كان فقيراً لا مال له ، فبيّن لهم أن الفضيلة باختيار الحق ، وأنه وإن عَدِمَ المالَ فقد زاده الله علماً فَفَضَلَـكم بعلمه وجسمه ، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يُرِدْ عظيم البِنْيَة فإن فى المثل : « فلان اسم بلا جسم » أى ذكر بلا معنى .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالَ لهم نبيُّهم إنَّ آيةَ مُلْـكِه أن
يأتيَـكم التابوت فيه سكينة من ربكم
وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل
هارون تحمله الملائـكة إنَّ فى ذلك
لآية لـكم إن كنتم مؤمنين ﴾

إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمدَّه بتأييد من قِبَلِهِ ، فلما مَلَكَ طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيِّهم فى اختياره ، فردَّ عليهم التابوت الذى فيه السكينة ، فاتضحت لهم آية ملـكه ، وأن نبيهم عليه السلام صدَقَهم فيما أخبرهم .

ويقال إن الله تعالى جعل سكينة بنى إسرائيل فى التابوت الذى رُضُوا عن الألواح ، وعصا موسى عليه السلام ، وآثار صاحب نبوتهم . وجعل سكينة هذه الأمة[2] فى قلوبهم ، فقال : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين » ثم إن التابوت كان تتداوله أيدى الأعداء وغيرهم ؛ فَمَرَّةً كان يُدْفَن ومرة كان يُغلب عليه فيُحْمَل ، ومرة يُرَد ومرة ومرة . . . وأما قلوب المؤمنين فَحَلَّ بين أربابها وبينها ، ولم يستودعها ملـكا ولا نبياً ، ولا سماء ولا هواء ، ولا مكاناً ولا شخصاً ، وقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) وردت (كأنه) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

« قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » يعنى فى قبضة الحق سبحانه ، وتحت تقليبه وتصريفه ، والمراد منه « القدرة » ، وشتَّان بين أمة سكينتهم فيا للأعداء عليه تَسَلُّط وأمةٍ سكينتهم فيا ليس لمخلوق عليه سلطان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخَلْق بصحبة الخلْق وبالدنيا وبالنَّفْس ، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدِّ الاضطرار بمقدار القوام ، وما لا بد منه نجا وسَلِمَ[1] ، ومن جاوز حد الاضطرار وانبسط فى صحبته مع شىء من ذلك من الدنيا والنفس والخلْق بموجب الشهادة[2] والاختيار — فليس من الله فى شىء إنْ كان ارتكاب محظور ، وليس من هذه الطريقة فى شىء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدٌّ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾

كذلك الخواص فى كل وقت يقل عددهم ولكن يجل قدرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾

فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فَدَاخَلَهم شىء من رعب البشرية ، فربط الله على قلوبهم بما ذَكَّرَهم من نصرة الحق سبحانه لأوليائه إذا شاء .

---

(١) هذه درجة فى الاعتدال يلتزم بها مذهب القشيرى ، يوفق بها بين الشريعة والحقيقة فى النظر إلى الدنيا والنفس والناس فى عرف أرباب القلوب .

(٢) أى أن يشهد الدنيا والنفس والخلق فى شىء من الأشياء والواجب أن يشهد الله فى كل شىء ، غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (الشهوة) أى أنه ليس من الله فى شىء من ينظر إلى هذه الأمور بشهوة واختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من
فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن
الله والله مع الصابرين ﴾

لا بهم ولكن بإذن الله ، بمشيئته وعونه ونصرته ، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمّا برزوا لجالوتَ وجنودِه قالوا رَبّنَا
أَفرِغْ علينا صبراً ، وثَبِّتْ أقدامَنَا
وانصرنا على القومِ الكافرين ﴾

كان أهم أمورهم الصبر والوقوف للعدو ، ثم بعده النصرة عليهم ، فإن الصبر حق الحق ، والنصرة نصيبهم ، فقدّموا تحقيق حقه — سبحانه — وتوفيقه لهم ، ثم وجود حظّهم من النصرة ، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصرة عليهم — لا للانتقام منهم لأجْل ما فاتهم من نصيبهم — ولكن لكونهم كافرين ، أعداء الله .

فقاموا بكل وجهٍ لله بالله ؛ فلذلك نُصِرُوا وَوَجدوا الظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقَتَلَ داودُ
جالوتَ ، وآتاه اللهُ المُلْكَ والحكمة
وعلّمَهُ مما يشاء ﴾

هيّبَ الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة فى الجسم ولكن عند القتال جعل الظفر على يدى داود . وكان كما فى القصة رَبْعَ القامة غير عظيم الجثة ، مختصر الشخص ، ولم يكن معه من السلاح إلا مقلاع ، ولكن الظفر كان له لأن نصرة الله سبحانه كانت معه .

قوله جل ذكره : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾

فلم يبق منهم أثر ولا عين ، وقتل داودُ جالوتَ . وداود بالإضافة إلى جالوت فى الضخامة والجسامة كان بحيث لا تُتَوهَمَ غلبته إياه ولكن كما قال قائلهم .

استقبلنى وسيفه مسلول وقال لى واحدنا معذول[1]

قوله جل ذكره: ﴿ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَفَسَدَتِ الأرضُ ولكنَّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين﴾.

لو تظاهر الخلْق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بمُشاغلهم شرَّهم عن قوم.

قوله جل ذكره: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ وإنك لَمِنَ المرسلين﴾.

لم يكن فى علمك ولا فى وسع احتيالك الوقوف على هذه الغائبات من الكائنات التى سلفت، وإنما وَقَفْتَ عليها بتعريفٍ من قِبَلِ الله سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم مَن كَلَّمَ الله، ورَفَعَ بعضَهم درجاتٍ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات، وأيَّدناه برُوحِ القُدُسِ﴾

جمعتهم الرسالة ولكن تباينوا فى خصائص التفضيل، لكل واحدٍ منهم أنوار، ولأنوارهم مطارح، فمنهم من هو أعلى نورا، وأتم من الرفعة وفورا. فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم، بل حُكْمٌ بالحسنى أدركهم، وعاقبة بالجميل تداركتهم.

قوله جل ذكره: ﴿ولو شاء اللهُ ما اقتتل الذين مِنْ بعدهم مِنْ بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن الله يفعل ما يريد﴾.

(1) ربما كانت (مخذول).

ولـكنهم مُصَرَّفُون بالمشيئة الأزلية ، ومسلوبون من الاختيــار الذى عليه المدار وبه الاعتبار . والعبودية شدُّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم
من قبل أن يأتى يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلَّة
ولا شفاعة ، والـكافرون هم الظالمون ﴾

يعنى اغتنموا مساعدة الإمكان فى تقديم الإحسان قبل فتور الجَلَد وانقضاء الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

« الله » اسم تفرّد به الحق — سبحانه فلا سَمِيّ له فيه . قال الله تعالى : « هل تعلم له سمياً » أى هل تعرف أحداً غيره تسمّى « الله » ؟

من اعتبر فى هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمتعارض ، فهذا اسم يدل على استحقاق صفات الجلال لا على اشتقاق الألفاظ ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال .

قوله « لا إله إلا هو » : إخبار عن نفى النظير والشبيه ، بما استوجب من التقديس والتنزيه . ومن تحقق بهذه المقالة لا يرى ذَرَّةً من الإثبات بغيره أو من غيره ؛ فلا يرفع إلى غيره حاجته ، ولا يشهد من غيره ذرة ، فَيَصْدُقُ إليه انقطاعه ، ويديم لوجوده انفرادَه ، فلا يسمع إلا من الله وبالله ، ولا يشهد إلا بالله ، ولا يُقْبِلُ إلا على الله ، ولا يشتغل إلا بالله ، فهو محوٌ عما سِوى الله ، فَمَالَهُ شكوى ولا دعوى ، ولا يتحرك منه لغيره عِرْقٌ ، فاذا استوفى الحق عبداً لم يَبْقَ للحظوظ — ألبتة — مساغ .

ثم إن هذه المقالة تقتضى التحقق بهـا ، والفناء عن الموسومات بجملتها ، والتحقق بأنه لا سبيل لمخلوق إلى وجود الحق — سبحانه ، فلا وصل ولا فصل ولا قُرْبَ ولا بُعْد ، فإن ذلكَ أجمعَ آفاتٌ لا تليق بالقِدَم .

وقوله « الحى القيوم » : المتولى لأمور عباده ، القائم بكل حركة ، و (المحوى)[1] ، لـكل عين وأثر .

(١) وردت هكذا ويحتمل أن تـكون فى الأصل إما (المحى) لتتلاءم مع (الحى) أو أن تـكون (المجرى) أى القائم أو (القيوم) على ملـكه .

« لا تأخذه سنة ولا نوم » لأنه أحدى لا ترهقه غفلة ، وصمد لا تمسه علة ، وعزيز لا تقاربه قلة ، وجبار لا تميزه عزلة ، وفَرْدٌ لا تضمه جثة ، ووتر لا تحده جهة ، وقديم لا تلْحَقُه آفة ، وعظيم لا تدركه مسافة .

تَقَدَّس مِن جمالِه جلالُه ، وجلالُه جمالُه ، وسناؤه بهاؤه ، وبهاؤه سناؤه ، وأزله أبده ، وأبده سرمده ، وسرمده قِدَمُه ، وقدمه وجوده

قوله جل ذكره : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾

مِلْكاً وإبداعا ، وخَلْقاً ، اختراعا .

﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾

من ذا الذى يتنفس بنَفَس (. .) [1] إلا بإجرائه ، أو يتوسل إليه من دون إذنه وإبدائه . ومن ظنَّ أنه يتوسل إليه باستحقاقٍ أو عمل ، أو تذلل أو أمل ، أو قربة أو نسب ، أو علة أو سبب — فالظنُّ وطنه والجهل مألفه والغلط غايته والبعد قُصاراه .

قوله جل ذكره : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ .

لأنه لا يخرج عن علمه معلوم ، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم .

﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

يعنى من معلوماته ، أى تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه .

فأى طمع لها فى الإحاطة بذاته وحقه ؟ وأنَّى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه فى عزِّه أَمَدٌ ، ولا يدركه حَدٌّ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَسِعَ كرسيُّه السموات والأرض ﴾ .

خطاب لهم على قدر فهمهم . وإلا فأى خَطَرٍ للأكوان عند صفاته ؟

جلَّ قَدْرُه عن التعزز بعرش أو كرسى ، والتجمل بجنٍ أو إنسى .

---

(١) مشتبهة فى (ص) ويحتمل أن تكون مشطوبة لزيادتها فهناك شبه علامة على ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾

كيف تُتْعِبُ المخلوقاتُ مَنْ خَلْقُ الذرة والكونِ بجملته — له سواء؛ فلا من القليل له تَيَسَّر، ولا من الكثير عليه تَعَسَّر.

قوله جل ذكره : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾

فإن الحجج لائحة ، والبراهين ظاهرة واضحة .

﴿ قد تبيَّن الرشدُ من الغى ﴾

وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضيائه ، والحقوق الأزلية معلومة ، والحدود الأولية معلولة فهذا بنعت القدم وهذا بوصف العَدَم .

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾

وطاغوتُ كلٍّ واحدٍ ما يشغله عن ربه

﴿ ويؤمن بالله ﴾

والإيمان حياة القلب بالله

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾

الاستمساك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهى ، وهو سلوك طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

﴿ لا انفصامَ لها والله سميع عليم ﴾

فمن تحقق بها سراً ، وتعلّق بها جهراً فاز فى الدارين وسَعِد فى الكونين .

قوله جل ذكره : ﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾

الولى بمعنى المتولى لأمورهم ، والمتفرد بإصلاح شئونهم ، ويصح أن يكون الولى على وزن فعيل فى معنى المفعول فالمؤمنون يقولونَ[1] طاعته . وكلاهما حق : فالأول جمع والثانى فرق ،

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (يقولون) بالقاف ونرجح أنها (يتولون) بالتاء .

وكلُّ جمعٍ لا يكون مقيداً بفرقٍ وكلُّ فرقٍ لا يكون مؤيداً بجمع فذلك خطأ وصاحبه مبطل[1] والآية تَحْتَمِلُ عليهما جميعاً .

﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾

يعنى بحكمه الأزلى صانهم عن الظلمات التى هى الضلال والبدع ، لأنهم[2] ما كانوا فى الظلمات قط فى سابق علمه .

﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾

ما استهواهم من دواعى الكفر

﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات
أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

باستيلاء الشُّبَهِ على قلوبهم ، فيجحدون الربوبية ، أولئك الذين بقوا عن الحق بقاء أبدياً .

ويقال يخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره .

ويقال يخرجهم من ظلمات ظنونهم أنهم يتوسلون أو يَصِلُون إليه بشىء من سكناتهم وحركاتهم .

ويقال يخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظلَّ أنفسهم ويدخلهم في ظل عنايته .

ويقال يخلصهم عن حسبان النجاة بهم .

ويقال يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم والاستناد إلى أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تَرَ إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربِّه
أن آتاه الله المُلْكَ إذ قال إبراهيم
ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى
وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى

(١) يقصد القشيرى من ذلك أن الفرق ضرورى وهام ، إذ يعنى للعبد خلاله أن يؤدى ما عليه من فرائض ، وهذا ركن أساسى فى مذهب القشيرى وغيره من الشيوخ الثقاة .

(٢) سقطت (ما) والمعنى يتطلبها .

بالشمس من المشرق فأتِ بها من
المغرب فبُهتَ الذى كفر والله لا يهدى
القوم الظالمين ﴾

عَجَّل الحق سبحانه لأعدائه عقوبة الفرقة قبل أن يعاقبهم بالحرقة ، وهذه العقوبة أشد أثراً فى التحقيق — لو كانت لهم عين البصيرة . وإن الحق سبحانه أخبر أن إبراهيم عليه السلام انتقل مع العدو اللعين من الحجة الصحيحة إلى أخرى ، أوْضَحَ منها — لا لِخَلَلٍ فى الحجة — ولكنْ لقصورٍ فى فهم الكافر ، ومحالٌ مَنْ سُدَّتْ بصائره عن التحقيق تضييعُ الوقت بلا فائدة تُجدِى ، لا بمقدار ما يكون من الحاجة لأمرٍ لا بُدَّ منه .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كالذى مرَّ على قريةٍ وهى خاوية
على عُروشِها قال : أنَّى يحيى هذه
اللهُ بعد موتها ؟ فأماته الله مائة
عام ثم بعثه قال : كم لبِثتَ ؟ قال :
لَبِثْتُ يوماً أو بعض يوم قال : بل
لَبِثْتَ مائة عام فانظر إلى طعامك
وشرابك لم يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حمارك
ولنجعلك آية للناس ، وانظُرْ إلى
العِظَامِ كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها
لحماً ، فلمّا تبيَّن له قال : أعْلَمُ أنَّ
الله على كل شىء قدير ﴾

لم يكن ذلك سؤال جحدٍ ، ولا قضية جهل ، ولا دلالة شكٍ فى القدرة ، فإن هذا الخبر عن عُزَيْرٍ النبى عليه السلام ، والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الشَّكُّ والجهل ، ولكنه كان سؤال تعجُّب ، وأراد بهذه المقالة زيادة اليقين ، فأراه الله ذلك فى نفسه ، بأن أماته

ثم أحياه ثم بعث حماره وهو ينظر إليه ، فازداد يقينا على يقين . وسؤالُ اليقين من الله ، والحيلةُ في ردّ الخواطر للشكلة ، دَيْدَنُ للتعرفين ، ولذلك (. . . . . .)[1] الله سبحانه عُزيرا في هذه المقالة حتى قدَّر عليه ما طلب من زيادة اليقين فيه . ثم قال « واعلم أن الله على كل شيء قدير » من الإحياء والإماتة أي ازددت معرفة بذلك ، وأراني من عظيم الآيات ما ازداد به يقيناً ، فإنّ طعامه وشرابه لم يتغيرا في طول تلك المدة ، وحماره مات بلا عظام . والطعام والشراب بالتغيير أَوْلى .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال إبراهيم رَبِّ أرِنى كيف تحيي الموتى قال : أوَلمْ تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليَطْمَئِنَّ قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جُزْءاً ثم ادعهُنَّ يأتينَك سَعْيًا ، واعلمْ أن الله عزيز حكيم ﴾ .

قيل كان في طلب في زيادة اليقين ، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان له حاصلاً من عين اليقين[2] .

وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه : « أو لم تؤمن قال بلى » كنت أومن ولكني اشتقتُ إلى قولك لي أوَلم تؤمن ، فإن بقولك لي « أو لم تؤمن » تطمينا لقلبي . والمحبُّ أبداً يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه . .

---

(١) مشتبهة .

(٢) من أقوال القشيري التي تتناثر في كتبه نجد أنه ينظر للمعرفة على أنها ثلاث درجات .

١ — عقلية ونورها البرهان أو علم اليقين .

٢ — قلبية ونورها البيان أو عين اليقين :

٣ — كشفية ونورها العرفان أو حق اليقين ،

ويقول : (علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين ، ولكن كل الأنوار تتبدد أمام شمس حق اليقين) .

اللطائف — التحبير في التذكير ص ٧٠ — الرسالة ص ٤٣ ؛ ٤٤ والواقع أن القشيري التزم بهذا الترتيب التزاما دقيقاً ولم يتخل عنه في كل ما كتب .

وقيل إنه طلب رؤية الحق سبحانه ولكن بالرمز والإشارة فَمُنِعَ منها بالإشارة بقوله « واعلمْ أن الله عزيز حكيم » . وإن موسى — عليه السلام — لما سأل الرؤية جهراً وقال : « ربْ أرنى أنظر إليك » فَرُدَّ بالجهر صريحاً وقيل له « لن ترانى » .

وقيل إنما طلب حياة قلبه فأُشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور ، وفى الطيور الأربعة طاووس ، والإشارة إلى ذبحه تعنى زينة الدنيا ، وزهرتها ، والغراب لحرصه ، والديك لمشيته ، والبط لطلبه لرزقه .

ولما قال إبراهيم عليه السلام : أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قيل له : وأرنى كيف تذبح الحى ؟ يعنى إسماعيل ، مطالبة بمطالبة . فلمَّا وَفَّى بما طولب به وفَّى الحق سبحانه بحكم ما طلب .

وقيل كان تحت ميعاد من الحق — سبحانه — أن يتخذه خليلاً ، وأمارة ذلك إحياء الموتى على يده ، فجرى ما جرى .

ووصل بين[1] قصة الخليل صلى الله عليه وسلم فيما أراه وأظهره على يده من إحياء للموتى وبين عزَيْر إذ أراه فى نفسه ، لأن الخليل يَرْجُحُ على عزير فى السؤال وفى الحال ، فإن إبراهيم — عليه السلام — لم يَرُدَّ عليه فى شىء ولكنه تَلَطَّفَ فى السؤال ، وعزَيْر كلمه كلام من يُشْبِه قولُه قولَ المسْتَبْعِد ، فأراد الحق أن يظهر له أقوى معجزة وأتمَّ دلالة حيث أظهر إحياء الموتى على يده حين التبس على نمرود ما قال إبراهيم — عليه السلام — ربى الذى يحيى ويميت ، فقال « أنا أحيى وأميت » أراد إبراهيم أن يُرِيَهُ الله سبحانه إحياء الموتى ليعلم أنه ليس هو الذى ادَّعى .

وفى هاتين الآيتين رخصة لمن طلب زيادةَ اليقين من الله سبحانه وتعالى فى حال النظر[2] .

ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام ، فقيل له : « أو لم تؤمن » يعنى أما تذكر حال طلبك إيانا حين كنت تقول لكل شىء رأيته « هذا ربى » فلم تَدْرِ كيف بَلَّغْنَاكَ إلى هذه الغاية ، فكذلك يوصلك إلى ما سَمَتْ إليه هِمَّتُك .

---

(1) جيل من القشيرى أن يوضح التماسك والالتئام فى السياق القرآنى بين قصة وقصة .
(2) خصوصاً فى مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان .

والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعنى النفس ؛ فمَنْ لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يَحْىَ قلبُه بالله .

وفيه إشارة أيضاً وهو أنه قال قَطِّعْ بيدك هذه الطيور ، وفَرِّقْ أجزاءها ، ثم ادْعُهُنّ يأتينك سعياً ، فما كان مذبوحاً بيد صاحب الخلة ، مقطعاً مُفَرَّقاً بيده — فإذا ناداه استجاب له كل جزء مُفَرَّق . . كذلك الذى فرّقه الحق وشتّته فإذا ناداه استجاب :

ولو أنَّ فوق تُرْبَةٌ وَدَعَوْتَنِي لأَجَبْتُ صَوْتَكَ ، وَالعِظَامُ رُفَاتُ

قوله جل ذكره : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثَلِ حبةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سنابل فى كلِّ سُنبلة مائة حبة والله يضاعف لِمَن يشاء والله واسعٌ عليم ﴾ .

فالخلَفُ لهم الجنة ، والذين ينفقون أرواحهم فى سبيل الله فالخَلَفُ عنهم الحقُّ سبحانه ، وشتان بين خلف من أنفق ماله فوجد مثوبته ، ومَنْ أنفق حاله فوجد قربته ؛ فإنفاق المال فى سبيله بالصدقة ، وإنفاق الأحوال فى سبيله بملازمة الصدق ، وبنفى كل حظ ونصيب ، فترضى لجريان حكمه عليك من غير تعبيس القلب ، قال قائلهم :

أُريد وصاله ويريد هجرى فأتركُ ما أريد لما يريد

والإنفاق على ضربين : إنفاق العابدين وإنفاق الواجدين . أمَّا العابدون فاذا أنفقوا حَبَّةً ضاعَفَ لهم سبعين إلى ما ليس فيه حساب ، وأما الواجدون فكما قيل :

فلا حَسَنٌ نأتى به يقبلونه ولا إن أسأنا كان عندهم محو

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثُمَّ لا يُتْبِعون ما أنفقوا منّاً ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

المنُّ شهود ما تفعله ، والأذى تذكيرك — لمن أحسنت إليه — إحسانَك .

ويقال ينفقون ما ينفقون ثم لا يشهدون ألبتة أفعالهم ولا أعمالهم .

ويقال كيف يمنون بشيء تستصغرونه وتستحقرونه .

ويقال لا يمنون بفعلهم بل يشهدون المنة لله بتوفيق ذلك عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً والله غني حليم ﴾

يعني قولٌ — للفقير المجرد — يرد به من تعرض له بإظهار العذر خير وأتم من صدقة المعجَبِ بفعله ، وما يتبع من إلزام المنة فيه .

ويقال إقرار منك مع الله بعجزك وجُرْمك ، وغفران الله لك على تلك القالة — خيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ بالمنّ مشوبة ، وبالأذى مصحوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تُبْطِلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رِئاء الناسِ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كمثلِ صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

إنما يُحْمَلُ جميلُ المنة من الحق سبحانه ، فأمّا من الخلْق فليس لأحد على غيره مِنّةَ ، فإنَّ تحمل المنن من المخلوقين أعظم محنة ، وشهود المنة من الله أعظم نعمة ، قال قائلهم :

ليس إجلالُكَ الكبار بِذُلٍّ إنما الذُّلُّ أَنْ تُجِلَّ الصغَارا

ويقال أفقرُ الخلْق مَنْ ظنَّ نفسَه موسِراً فتبيّن له إفلاسه ، كذلك أقل الخلْق قدراً من ظن أنه على شيء فيبدو له من الله ما لم يكن يحتسبه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَثَلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم
كمثل جَنَّةٍ بربوة أصابها وابل
فآتت أُكُلَهَا ضِعفين فإن لَّم يُصبْها
وابلٌ فَطَلٌّ والله بما تعملون بصير *
أَيَوَدُّ أحدُكم أن تكون له جَنَّةٌ
من نخيل وأعناب تجرى من تحتها
الأنهار له فيها من كل الثمرات
وأصابه الكِبَرُ وله ذرية ضُعَفَاء
فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت ،
كذلك يُبَيِّن الله لكم الآيات
لعلكم تتفكرون ﴾ .

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق : لمن أنفق فى سبيل الله ، ولمن أنفق ماله فى الباطل ؛ فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف ، وهؤلاء لا يحصل لهم فى الحال إلا الردّ ، وفى المآل[1] إلا التلف . وهؤلاء ظلَّ سعيهم مشكوراً ، وهؤلاء يدعون ثبورا ويَصْلَوْنَ سعيراً هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم ، وهؤلاء حَبِطَتْ أعمالهم وخسرت أحوالهم وختم بالسوء آمالهم ويضاعف عليهم وَبَالهم .

ويقال مَثَلُ هؤلاء كالذى أنبت زرعا فزكا أصله ونما[2] فصله ، وعلا فَرْعُهُ وكثر نَفْعُهُ . ومَثَلُ هؤلاء كالذى خسرت صفقته وسرقت بضاعته وضاعت — على كبره[3] —

---

(١) وردت (المال) والصحيح أنها (المآل) على عادة القشيرى فى المقابلة بين ما يحدث فى الدنيا وفى الآخرة ، بين الحال والمآل .

(٢) وردت (نماء) والصحيح أنها فعل (نما) لينسجم التركيب الداخلى للأسلوب .

(٣) إشارة إلى ماق الآية : (وأصابه الكبر) .

حيلته وتواترت من كل وجه وفى كل وقت محنته .... هل يستويان مثلاً ؟ وهل يتقاربان شَبَهًا ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومِمَّا أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تَيَمَّمُوا الخبيث منه تنفقون ولَسْتُم بآخذيه إلا أن تُغْمِضُوا فيه واعلموا أنَّ الله غنيٌّ حميد ﴾

لينظرْ كلٌّ واحدٍ ما الذى ينفقه لأجل نفسه ، وما الذى يخرجه بأمر ربه . والذى يخرج عليك من ديوانك : فما كان لحظِّك فنفاذٌ فى ملكك ، وما كان لربك فخصائص مالك الذى لله (فاللُّقْمَةُ لُقْمَتُه)[1] ، والذى لأجلك فأكثرها قيمة وأكلها نعمة .

ثم أبصر كيف يستر عليك بل كيف يقبله منك بل أبصر كيف يعوضك عليه ، بل أبصر كيف يقبله منك ، بل أبصر كيف يمدحك بل أبصر كيف ينسبه إليك ؛ الكلُّ منه فضلاً لكنه ينسبه إليك فعلاً[2] ، ثم يُوفِّى عليك عطاءه ويسمى العطاء جزاء ، يوصلك بتوفيقه بِرًّا ، ثم يملأ العالَمَ منك شكراً .

قوله جل ذكره : ﴿ الشيطان يَعِدُكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يَعِدُكم مغفرة منه وفضلاً والله واسعٌ عليم ﴾

يَعِدُ الشيطانُ الفقرَ لفقره ، والله يَعِدُ المغفرة لكرمه .

---

(١) وردت هكذا (فلقمته لقمته) ويحتمل ان تكون كما أثبتنا ، أو أن تكون فالقيمة لقيمته بدليل مابعدها .

(٢) تأمل كيف يرى القشيرى قيمة العمل الإنسانى : إنه على الحقيقة فضل من الله ولكن من الناحية النسبية فعل للانسان ... وهذه مسألة هامة تتفرع عنها قضايا كلامية كثيرة يختلف فيها عن المعتزلة .

الشيطانُ يعدكم الفقر فيشير عليكم بإحراز المعلوم ، ويقال يشير عليكم — بطاعته — بالحرص ، ولا فقرَ فوقه .

يعدكم الفقر بالإحالة على تدبيركم واختياركم .

يعدكم الفقر بنسيان ما تَعَوَّدْتُموه من فضله — سبحانه[1] .

ويقال يعدكم الفقر بأنه لا يزيد شكايتَك .

ويقال يعدكم الفقر بتعليق قلبك بما لا تحتاج إليه .

ويقال بالتلبيس عليك رؤية كفايته .

« ويأمركم بالفحشاء » أي الرغبة في الدنيا ، ويقال بالأسباب التي تقوى الحرص ، ويقال بكثرة الأمل ونسيان القناعة ، ويقال بمتابعة الشهوات ، ويقال بإيثار الحظوظ ، ويقال بالنظر إلى غيره ، ويقال بإخطار شيء سواه ببالك .

ويقال بالانحطاط إلى أوطان الرُّخص والتأويلات بعد وضوح الحق .

ويقال بالرجوع إلى ما تركته لله

« والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً » : الفضل الموعود — في العاجل — القناعة ، وفي الآجل الثواب والجنان والرؤية والرضوان و (....)[2] والغفران .

ويقال في العاجل الظفر بالنفس ، ويقال فتح باب العرفان ، ونشر بساط القرب ، والتلقي لمكاشفات الأنس .

قوله جل ذكره : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء وَمَن يُؤْتَ

الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً

وما يَذَّكَّرُ إلا أولوا الألباب ﴾

---

(1) أضفنا (سبحانه) ليمتنع اللبس وهي غير موجودة في (ص) .

(2) هنا لفظة مشتبهة أقرب ما تكون إلى (العفو) ولكننا آثرنا عدم إثباتها في النص لعدم التأكد .

الحكمة : يحكم عليكم خاطرُ الحقّ لا داعى النفس ، ونحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان .

ويقال الحكمة صواب الأمور .

ويقال هى ألا تحكم عليك رعوناتُ البشرية .

(ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره)[1] .

ويقال الحكمة موافقة أمر الله تعالى ، والسَّفَهُ مخالفة أمره .

ويقال الحكمة شهود الحق والسَّفَهُ شهود الغير

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنفقتم من نفقةٍ أو نَذَرْتُم مِن نَذْر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصارٍ ﴾

قوم تَوَعَّدَهم بعقوبته ، وآخرون توعدهم بمثوبته .. وآخرون توعدهم بعلمه ، فهؤلاء العوام[2] وهؤلاء الخواص . قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » فلا شىء يوجب سقوط العبد من عين الله كمخالفته لعهوده معه بقلبه ، فليحذر المريد من إزلال[3] نفسه فى ذلك غايةَ الحذر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تُبْدُوا الصدقات فَنِعِمَّا هى ، وإن تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لكم ، ويُكَفِّرُ عنكم من سيئاتِكم ، والله بما تعملون خبير ﴾

(١) ربما وقع الناسخ فى خطأ حين وضع هذه الجملة فى هذا المكان ، والأقرب أن تكون بعد كلمة (زواجر الشيطان) فنحن نعرف من مذهب القشيرى أنه يرى أن الشيطان لا يملك أن يغرى الخلق (لأنه لو كان قادراً على ذلك لكان يمسك على الهداية نفسه ، ومن عجز أن يحافظ على نفسه كان فى إغراء غيره أشد عجزاً) قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

(٢) العوام هنا تنصرف إلى الموعودين بالمثوبة والمتوعدين بالعقوبة .

(٣) (إزلال) بالزاى معناها الايقاع فى الزلة والتسبب فى ارتكابها ، أوضحناها حتى لا تلتبس (بإذلال) ومع ذلك فيمكن قبول (إذلال) بالذال إذا فهمنا أن سقوط العبد من عين الله هو (ذلة) لنفسه .

إنْ أظهرْتَ محبتكَ معنا وأعلنتَ فلقد جوَّدْتَ وأحسنْتَ ، وإنْ حفظتَ سِرَّنا عن دخول الوسائط بيننا صُنْتَ شروط الوداد ، وشيَّدتَ من بناء الوصلة العماد .

قوله جل ذكره : ﴿لَيْسَ عليك هداهم ولكنَّ اللهَ يهدى مَن يشاء ، وما تنفقوا مِنْ خَيْرٍ فلأنفسكم ، وما تُنفِقُونَ إلا ابتغاء وجهِ الله ، وما تُنفقُوا مِنْ خيرٍ يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظْلَمُون﴾

لكَ المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والرتب الشريفة ، والمنازل العلية ، والسنن المرضية . وأنت سيد الأولين والآخرين ، ولا يدانيك أحدٌ — فضلاً عن أن يساميك ، ولكن ليس عليك هداهم فالهداية من خصائص حقنا ، وليس للأغيار منه شظية . يا محمد : أنت تدعوهم ولكن نحن نهديهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿للفقراء الذين أُحصِرُوا فى سبيلِ الله لا يستطيعون ضَرْباً فى الأرض ، يحسَبهم الجاهلُ أغنياء مِنَ التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون النَّاسَ إلحافاً ، وما تُنْفِقوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ الله به عليم﴾

أخذ عليهم سلطانُ الحقيقة كل طريقٍ ، فلا لهم فى الشرق مذهب ، ولا لهم فى الغرب مضرب . كيفما نظروا رأوا سرادقات التوحيد محدقة بهم :

كأنَّ فجاجَ الأرض ضاقَتْ برَحْبِها عليهم فما تزداد طولاً ولا عرضاً

(١) من هذه الفقرة يتضح موقف التصوف الإسلامى الحق فى نظرته إلى الرسول صلوات الله عليه وليس فى الأمر — كما ترى — جموحٌ أو شطط (قارن ذلك بنظرة ابن عربى وتلاميذه) .

ولا يسلم لهم نفس مع الخلْق ، وأنَّى بذلك ولا خَلْق !! وإذا لم يكن فإثبات ما ليس شِركٌ (سقها)[1] في التوحيد .

والفقير الصادق واقف مع الله بالله ، لا إشراف للأجانب عليه ، ولا سبيل لمخلوق إليه تنظره عين الأغيار في لبسة سوى ما هو به ؛ قال تعالى : «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ، فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من أحوالهم . تعرفهم يا محمد — أنت — بسيماهم فليست تلك السيماء مما يلوح للبصر ولكنها سيماء تدركها البصيرة . لا إشراف عليهم إلا بنور الأحدية .

ويقال « تعرفهم بسيماهم » : استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم ، وصياح أسرارهم إلى العرش (نشاطاً عنه) عند ذبول ظاهرهم عن الانتعاش[2] .

ويقال تكسر الظاهر عند تكسر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون الناس إلحافاً ، فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال — لما يشير إليه دليل الخطاب — فذلك صيانة لهم ولستر قصتهم ، لئلا يلاحظهم الخلق بعين السؤال ، وليس على سرهم ذرة من الإثبات للأغيار[3] .

ويقال : « أُحصِرُوا في سبيل الله » : وقفوا على حكم الله ، وأَحْصَرُوا نفوسَهم على طاعته وقلوبَهم على معرفته ، وأرواحَهم على محبته ، وأسرارَهم على رؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار
سِرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم
ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾

مادام لهم مال لا يفترون ساعة عن إنفاقه ليلاً ونهاراً ، فإذا نفد المال لا يفترون عن شهوده لحظةً ليلاً ونهاراً .

---

(١) مشتبهة وقد آثرنا أن ننقلها كما هي وربما كانت (سقها) أي علة في التوحيد .

(٢) العبارة فيها شيء من غموض نتيجة اشتباه مابين القوسين ولكن المراد — والله أعلم — أنه بينما تبدو ظواهرهم ذابلة بحكم التواضع والانكسار فإن أسرارهم جادة في التسبيح من حول العرش .

(٣) هنا يبدو القشيري متأثراً بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون
إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان
مِنَ المسِّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع
مثل الربا ، وأحلَّ الله البيعَ وحرَّم
الربا ، فمَن جاءه موعظة من ربه
فانتهى فله ما سلف ، وأمْرُهُ إلى الله
ومَنْ عاد فأولئك أصحاب النـار
هم فيها خالدون ﴾

مَنْ أعرض عن الأمر ، ورخَّص لنفسه بما يسوِّله له خاطره من التأويل فلا استقلال لهم في الحال ولا انتعاش في المآل ؛ خسروا في عاجلهم ولم يربحوا في آجلهم .

ومَن انتبه بزواجر الوعظ ، وكَبَحَ لجامَ الهوى ، ولم يُطْلِق عنان الإصرار فَلَهُ الإمهال في الحال ، فإنْ عاد إلى مذموم تلك الأحوال فَلْيَنْتَظِروا أوشكَ الاستئصالِ وفجاءة النَّـكال.

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا ويُرْبِى الصدقاتِ
والله لا يحبُّ كُلَّ كَفَّار أثيم ﴾ .

ما كان بإذن منه ــ سبحانه ــ من التصرفات فمقرون بالخيرات ، ومصحوب بالبركات .
وما كان بمتابعة الهوى يُسَلَّط عليه المَحْقَ ، وكانت عاقبة أمره الخسران

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات
وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم
يحزنون ﴾ .

إن الذين كانوا لنا يكفيهم ما يجدوّن مِنَّا ، لا نضيع أجر من أحسن عملاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا
ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾

الاكتفاء بموعود الربِّ خيرٌ للمسلم من تعليق قلبه بمقصود نفسه .

ومقصودُك من تسويلات النفس ، وموعودك مما ضمنه الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن لم تفعلوا فَأْذنُوا بحربٍ من الله ورسوله،وإن تُبْتُم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون ﴾

إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار ، ولا قَدْرٌ ولا أخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كان ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى ميسرة وَأن تَصَدَّقُوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

إذا تقرر عند القاضى إفلاس المحبوس فلا تحل له استدامة حَبْسه ، وإن ظهرت لذى الحق حجة المفلس فذلك مرتهن بحق خصمه ، ولكنه فى إمهال وإنظار . والرب لا يحكم بهذا علينا ؛ فمع علمه بإعسارنا وعجزنا ، وصدق افتقارنا إليه وانقطاعنا له — يرحمنا .

قوله « إلى ميسرة » : ليس للفقير المفلس وجه يحصل له منه شىء إلا من حيث ما جعل الله سبحانه من سهم الغارمين ، فأمَّا من جهة الغلات فالغلة تدخل من رقاب الأموال والعقد .. وأنَّى للمفلس به ؟ !

وأمَّا الربح فى التجارة من تقليب رأس المال والتصرُّف فيه .. فأنَّى للمفلس به ؟ !

ما بقى للمفلس إلا قول من قال من الفقهاء(. . . . .)[1] وإن كان ضعيفاً ، فذلك لمن بقيت له منة الحراك أما المفلس عن قوته — كما هو مفلس عن ماله — ما بقى له وجه إلا ما يسبب له مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظلَمُون ﴾ .

---

(١) هنا عبارة مطموسة .

الرجوع على ضربين : بالأبشار والنفوس غداً عند التوفى ، وبالأسرار والقلوب فى كل نَفَس محاسبة ؛ نقدُ ووعد ، فَنَقْدُ مطالبته أحقُّ مما سيكون فى القيامة من وعده .

وقال للعوام : « واتقوا يوماً » وقال للخواص : « وإياى فاتقون »

قوله جل ذكره : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بِدَيْنٍ إلى أَجلٍ مُسمىً فاكتبوه وليكتب بينكم كاتِبٌ بالعدل ولا يَأبَ كاتبٌ أن يكتب كما عَلَّمه الله فليكتب وليُمْلِلِ الذى عليه الحقُّ وليَتَّقِ الله ربَّه ولا يَبْخَسْ منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يُمل هو فليُمْلِل وليُّه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممَّن ترضون من الشهداء أنْ تَضِلَّ إحداهما فتذكرَ إحداهما الأخرى ولا يَأبَ الشهداء إذا ما دُعُوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلاَّ أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جُناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يُضَارَّ كاتبٌ ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فُسُوقٌ بكم ، واتقوا الله ويُعلِّمُكُم

الله ، والله بكل شيء عليم * وإن كنتم على سفَرٍ ولم تجدوا كاتباً فرِهَانٌ مقبوضة فإنْ أمِنَ بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤْتُمِنَ أمانَتَه وَلْيَتَّقِ اللهَ ربَّه ولا تكتموا الشهادة وَمَن يكتمها فإنه آثِمٌ قلبُه والله بما تعملون عليم » .

أمَرَ الله سبحانه الخلْقَ بالقيام بالصدق ، وعَلَّمَهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم ، والأخذ بالاحتياط والاستشهاد لئلا يُجْرِيَ — بعضُهم على بعض — حيفاً ، وذلك من مقتضى رحمته سبحانه عليهم ، وموجب رِفقِهِ بهم كيلا يتخاصموا . فأمر بتحصين الحقوق بالكتابة والإشهاد ، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة .

ومن شرع اليومَ ما يقطع الخصومة بينهم فبالحرى أن يجرى ما يرفع فى الآخرة آثار الخصومة[1] بينهم ، وفى الخبر المنقول : تواهبوا فيما بينكم فقد وهبت منكم مالى عليكم ، فإن الكريم إذا قدر غفر .

وفيما شرع من الدَّيْن[2] رِفْقٌ بأرباب الحاجات ، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على الاحتيال ويضيق به الصدر عن الاحتمال ، ويمنعه حفظ التجمل عن الكدية والسؤال ، فأذِنَ له فى الاستدانة لِيَجْبُرَ أمرَه فى الحال ، وينتظرَ فضل اللهِ فى المآل ، وقد وعد على الإدانة الثوابَ الكثير ، وذلك من لطفه تعالى .

قوله جل ذكره : « لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تُبْدُوا ما فى أنفسكم أو تُخفوه يُحاسِبْكم به اللهُ فيغفرُ لِمَن يَشاء

---

(١) وردت (المكومة) ونظن أنها خطأ فى النسخ وأن الأصل (الخصومة) .
(٢) ضبطناها هكذا وذلك هو الملائم للسياق .

ويعذب من يشاء والله على كلّ شيء
قدير ﴾ .

من المعانى والدعاوى ، ويقال من القصود والرغائب ، وفنون الحوائج والمطالب .

ويقال ما « تبديه » : العبادة ، « وما تخفيه » الإرادة .

ويقال ما « تخفيه » : الخطرات و « ماتبديه » : « العبارات » .

ويقال ما « تخفيه » : السكنات والحركات[1]

ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة ، فلا تغفل[2] خطرة ولا تهمل وقتك نَفَساً[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ آمن الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه من ربّه
والمؤمنون كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكته
وكتبِهِ ورُسُله لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ
من رُسُلِهِ وقالوا سَمِعْنا وأَطَعْنا
غُفْرَانك ربَّنا وإليك المصير ﴾ .

هذه شهادة الحق — سبحانه — لنبيِّه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — بالإيمان ، وذلك أتمُّ له من إخباره عن نفسه بشهادته .

ويقـال آمن الخلق كلُّهم من حيث البرهان وآمن الرسول — عليه السلام — من حيث العيان .

ويقال آمن الخلق بالوسائط وآمن محمد — صلى الله عليه وسلم — بغير واسطة .

---

(١) ربما كانت فى الأصل « تخفيه » السكنات « وتبديه » الحركات وسقطت تبديه من الناسخ .
(٢) وردت (تعقل وربما صحت على أساس أن تعقل (بمعنى تحبس) أو بمعنى استخدام العقل ، وهو فى هذه الحالة آفة تعترض الفناء الكامل .
(٣) ضبطناها هكذا لأن الانتباه إلى (التنفس) أمارة عدم اكتمال الفناء .

ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القَدْر فقال « آمن الرسول » ، ولم يقل آمنتَ ، كما تقولُ لعظيم الشأن من الناس : قال الشيخ ، وأنت تريد قلتَ .

ويقال آمن الرسول والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولكن شتان بين إيمان وإيمان ، الكلُّ آمنوا استدلالا ، وأنت يا محمد آمنتَ وصالا .

قوله جل ذكره ﴿ لا يكلِّف الله نفساً إلا وُسْعَها ﴾

لكمال رحمته بهم وقفهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير ، كل ذلك رفق منه وفضل .

﴿ لها ما كَسَبَتْ ﴾

من الخيرات .

﴿ وعليها ما اكْتَسَبَتْ ﴾

ما تكسبه من التوبة التي تُنَجِّي من كسب[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنا ولا تَحمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربَّنا ولا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾

كان إذا وقعت حاجة كلَّموه بلسان الواسطة . قالوا « ياموسى ادْعُ لنا ربك » وهذه الأمة قال لهم : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » .

وكانت الأمم (السالفة)[2] إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدة لقبول التوبة ، وفي هذه الأمة قال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » .

وكانت الأمم السالفة منهم من قال اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وهذه الأمة اختصت بإشراق أنوار توحيدهم ، وخصائصُهم أكثر من أن يأتي عليه الشرح .

---

(١) قد يبدو للوهلة الأولى ان القشيري في استخراج إشارته من (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) يتجه إتجاهاً مخالفا للتفسير التقليدي ، ولكن الواقع ان إشارة القشيري مرتبطة بمذهبه في أن الله خالق كل شيء حتى أفعال العباد ، فهو خالق التوبة وحين يتقبلها تعود (على) العبد ، انظر مثلا تفسيره (ويتوب عليكم) من سورة النساء .. من هذا الكتاب) .

(٢) (السالفة) موجودة في الهوامش فأثبتناها في موضعها من المتن .

قوله جل ذكره : ﴿ واعفُ عنَّا ﴾

فى الحال

﴿واغفر لنـا ﴾

فى المـآل

﴿ وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الـكافرين ﴾

فى جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك ، فأنت مولانا فاجعل النصرة لنـا على ما يشغلنا عنك .

ولما قالوا « ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » خَسَفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين ، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم ، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة .

والحمد الله رب العالمين .

السورة التي يذكر فيها آل عمران

« بسْم الله الرحمن الرحيم »

اختلف أهل التحقيق فى اسم « الله » هل هو مشتق من معنًى أم لا ؟ فـكثير منهم قالوا إنه ليس بمشتق من معنى ، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص[1] ، يجرى فى وضعه مجرى أسماء الأعلام فى صفة غيره ، فاذا قرع بهذا اللفظ أسماع أهل المعرفة لم تذهب فُهومُهم ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه . وحقُّ هذه القالة أن تـكون مقرونة بشهود القلب فاذا قال بلسانه « الله » أو سمع بآذانه شهد بقلبه « الله » .

وكما لا تدل هذه الـكلمة على معنى سوى « الله » لا يـكون مشهودُ قائلها إلا « الله » فيقول بلسانه « الله » ، ويعلم بفؤاده « الله » ، ويعرف بقلبه « الله » ، ويحب بروحه « الله » ،

(١) وردت (الاقتصاص) .

ويشهد بسره « الله » ، ويتملق[1] بظاهره بين يدى الله ، ويتحقق بسرّه الله ، ويخلو بأحواله لله وفى الله، فلا يكون فيه نصيب لغيرالله ، وإذا أشرف على أن يصير محواً فى الله لله بالله تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله[2] الرحمن الرحيم استبقاء لمهجتهم أن تتلف ، وإرادةً فى قلوبهم أن تنقى ؛ فالتلطفُ سُنَّة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ الم * الله ﴾

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك ، فأنت فى أسر الغفلة لا تهتدى إلى صلاحك ورشدك ، وهو مجرٍ مايجيرك ، وكافٍ بما ينصرك ، فبغير سؤالك — بل بغير علمك بحالك — يكفيك من حيث لا تشعر ، ويعطيك من غير أن تطلب .

والإشارة من اللام إلى لطفه بك فى خفىّ السِّر حتى أنه لا يظهر عليك محل للنة فيا يثبتك فيه . والإشارة من الميم لموافقة جريان التقدير بمتعلقات الطِّلْبَةِ من الأولياء ، فلا يتحرك فى العالم شىء ، ولا تظهر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أن قائلاً لو قال فى قوله : « كل يوم هو فى شأن » إن ذلك الشأن تحقيق مراد الأولياء — لم يكن ذلك ببعيد .

ويقال تفرَّق عن القلوب — باستماع هذه الحروف المقطعة التى هى خلاف عادة الناس فى التخاطب — كلُّ معلومٍ ومرسوم ، ومعتاد وموهوم ، من ضرورة أو حِسٍّ أو اجتهاد ، حتى إذا خلت القلوب عن الموهومات والمعلومات ، وصفى الأسرار عن المعتادات والمعهودات يَرِدُ هذا الاسم وهو قوله : « الله » على قلبٍ مقدَّسٍ من كل غَيْرٍ ، وسِرٍّ مصفىً عن كل كيف ؛ فقال « الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

فهو الذى لا يلهو فيشتغل عنك ، ولا يسهو فتبقى عنه ، فهو على عموم أحوالك رقيبُ سِرِّك ؛ إنْ خلوتَ فهو رقيبك، وإن توسطتَ الخَلْقَ فهو رقيبك[3]، وفى الجلة — كيفما دارت بك الأحوال — فهو حبيبك .

---

(١) إستخدم القشيرى هذا الفعل فى موضع مماثل عند قوله (تذكير ماسلف من الإنعام مفتح لباب التملق فى اقتضاء امثاله فى المستقبل) وفى موضع آخر (فيحمله صدق الإرادة على التملق والتضرع ص ٢٤٨ من هذا الجزء .

(٢) وردت (بقو) .

(٣) وردت فهو (قريبك) والمعنى يحتملها ولكن الانسجام فى الأسلوب يتطلب (رقيبك) مكررة

قوله جل ذكره : ﴿ نَزَّلَ عليكَ الكتابَ بالحقِّ ﴾ .

وما كنتَ يا محمد تدرى ما الكتاب ، ولا قصة الأحباب ، ولكنا صادفك اختيار أزلىٌّ فألقاك فى أمرٍ عجيبٍ شأنُه ، جَلِىٌّ برهانُه ، عزيزٍ محلُّه ومكانُه .

﴿ مُصَدِّقاً لِما بين يديه ﴾ .

أى محققاً لموعوده لك فى الكتاب على ألسنة الرسل عليهم السلام .

﴿ وأنزل التوراة والإنجيل * من قبلُ هدًى للناسِ وأنزل الفُرقان ﴾ .

أى إنا وإن أنزلنا قبلك كُتُباً على المرسلين فما أخلَيْناً كتاباً من ذِكْرِكَ ، قال قائلهم :

وعندى لأحبابنا الغائبين صحائفُ ذِكْرُك عنوانُها

وكما أتممنا بك أنوار الأنبياء زيَّنا بذكرك جميع ما أنزلنا من الأذكار .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ﴾ .

وهو ذُلُّ الحجاب ، ولكنهم لا يشعرون .

« والله عزيز » على أوليائه « ذو انتقام » من أعدائه ، عزيز يطلبه كل أحد ، ولكن لا يجده — كثيراً — أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله لا يخفى عليه شىء فى الأرضِ ولا فى السماء ﴾ .

لا يتنفس عبدٌ نَفَساً إلا والله سبحانه وتعالى مُحْصِيه[1] ، ولا تحصل فى السماء والأرض ذرة لا وهو سبحانه مُحْدِثُهُ ومُبْدِيه ، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليه .

هذا على العموم ، فأمَّا على الخصوص : فلا رَفَعَ أحدٌ إليه حاجةً إلا وهو قاضيها ، ولا رجع أحدٌ إليه فى نازلة إلا وهو كافيها .

---

(١) وردت (محيصة) وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُصَوِّرُكم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ .

هذا فيما لا يزال من حيث الخِلقة ، وهو الذى قدّر أحوالكم فى الأزل كيف شاء ، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمة .

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾

فلا يُعَقِّبُ حكمَه بالنقض ، أو يُعَارَضُ تقديره بالإهمال والرفض .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أُمُّ الكتاب وأُخَرُ مُتَشابِهات فأمَّا الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيَتَّبِعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العِلْمِ يقولون آمنا به ، كلٌّ مِّنْ عِندِ ربِّنا ، وَمَا يذَّكَّرُ إلا أُولُواْ الألباب ﴾

جَنَّسَ عليهم الخطاب ؛ فمِن ظاهرٍ واضح تنزيله ، ومن غامض مشكل تأويله . القِسْمُ الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقِسْمُ الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب عليها ، فسبيلُ العلماءِ الرسوخُ فى طلب معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه الوقوف فمُتَقَابَلٌ بالقبول ، وما امتنع من التأثر فيه بمطول الفكر سلَّموه إلى عالم الغيب .

وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب ، فما سنح لفهومهم من لائح التعريفات بَنَوْا (عليه)[1] إشارات الكشف .

---

(١) فى ص (بنوا على) والأصوب (بنوا عليه) حتى تتماسك العبارة لأن الإشارة تلبنى على التعريف .

إنْ (طولبوا)[1] باستدامة الستر وطىّ السّر تخارسوا عن النطق ، وإنْ أُمِروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ، ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأمّا الذين أُيِّدوا بأنوار البصائر فستضيئون بشعاع شموس الفهم ، وأمّا الذين ألبسوا غطاء الريب ، وحرموا لطائف التحقيق ، فتتقسم بهم الأحوال وتَتَرجّمُ بهم الظنون ، ويطيحون فى أودية الرَّيْبِ والتلبيس ، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل ، ونفوراً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾

ومَنْ وجد علمه من الله فيكون إيمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز بل عن صريحات الظهور ، وصافيات اليقين . وأمّا أصحاب العقول الصاحية ففى صحبة التذكر ، لظهور البراهين و (. . . .)[2] أحكام التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ربّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هَدَيْتَنا وَهَبْ لنا من لدُنك رحمة إنَّكَ أنت الوَهَّاب ﴾

ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً ، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب[3] .

ويقال حين صدقوا فى حسن الاستغاثة أُمِدُّوا بأنوار الكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنا إنَّكَ جَامِعُ الناس ليوم لا ريب فيه إنَّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد ﴾

اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب ، وغداً جمع الكافة لحل الثواب والعقاب ،

---

(١) فى ص (طالبوا) والأوفق أن تُبنى للمجهول مثل (أمِروا) التى بعدها ، لأن فاعليتهم حينئذ مفقودة .
(٢) مشتبهة .
(٣) وربما يقصد القشيرى من هذه العبارة أنهم أبداً طامعون فى الهداية محتاجون - لا لأعمالهم - بل لفضل الله ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون بأنهم ما زالوا بعيدين عن التمام ، وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها « ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً » .

اليوم جمع الأسرار لـكشف الجلال والجمال ، وغداً جمع الأبشار لشهود الأحوال ، ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا لن تُغنِىَ عنهم
أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً
وأولئك هم وقود النار ﴾

فلا فداء ينفعهم ، ولا غناء يدفعهم ، ولا مال يُقبَلُ منهم ، ولا حجاب يُرفَع عنهم،ولا مقال يستمع فيهم ، بهم يُسَعَّرُ الجحيم ، ولهم الطرد الأليم ، والبعد والحميم .

قوله جل ذكره : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من
قبلهم كَذَّبوا بآيتنا فأخذهم الله
بذنوبهم والله شديد العقاب ﴾

أصرُّوا فى العتوّ على سَنَنِهم ، وأَدَمْنَا لهم فى الانتقام سَنَنَنَا ، فلا عن الإصرار أقلعوا ، ولا فى المَبَارِّ طَمِعُوا ، ولعمرى إنهم هم الذين نَدِموا وتحسَّرُوا على ما قدَّموا — ولـكنْ حينما وجدوا البابَ مسدوداً ، والندمَ عليهم مردودا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ للذين كفروا سَتُغْلَبُون
وتُحْشَرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾

أخبرهم أنهم يفوتهم حديث الحق فى الآجل[1] ، ولا تـكون لهم لذةُ عيشٍ فى العاجل ، والذى يلقونه فى الآخرة من شدة العقوبة بالحُرْقة فوق ما يصيبهم فى الدنيا من الغيبة عن الله والفرقة[2] ، ولـكن سَقِمتْ البصائر فلم يحسوا بأليم العقاب .

---

(١) يشير القشيرى هنا إلى الآية الكريمة « لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم » .

(٢) أما الخواص فيرون رؤية الله منتهى آمالهم ، وصدّه عنهم أشد عليهم من عذاب السعير ، يقول البسطامى : « لله خواصٌ من عباده لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته ساعة لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار »

قوله جل ذكره : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة
تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة
يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد
بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة
لأولى الأبصار ﴾

إذا أراد اللهُ إمضاء أمرٍ قلَّل الكثير فى أعين قوم ، وكثَّر القليل فى أعين قوم ، وإذا لبَّس على بصيرة قوم لم ينفعهم نفاذ أبصارهم ، وإذا فتح أسرار آخرين فلا يضرهم انسداد بصائرهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشهواتِ مِن النساء
والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب
والفضة والخيل المسومة والأنعام
والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله
عنده حُسْنُ المآب ﴾

يذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو فى معناها ، وفى الجملة ما يحجبك عن الشهود فهو من جملتها . وأصعب العوائق فى هذه الطريق الشهوة الخفية . وأداء الطاعاتِ على وجه الاستحلاء معدودٌ عندهم فى جملة الشهوة الخفية . ومن المقاطع المشكلة السكون إلى ما يلقاك به من فنون تقريبك ، وكأنه فى حال ما يناجيك يناغيك ، فإنه بكل لطيفة يصفك (فيطريك)[2] وتحتها خُدَعٌ خافية . ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله (لا)[3] بإثباته فى لطيف أحواله وما يخصه به من أفضاله وإقباله .

---

(١) من هنا نفهم أن ترتيب ملكات الاطلاع عند القشيرى هو على هذا النحو : البصر ثم البصيرة ثم السر
(٢) مستدركة فى الهامش فأثبتناها فى موضعها .
(٣) نظن أن (لا) زائدة لأن السعادة التى تدرك العبد لا تتم إلا (بإثباته فى . .) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَأُنبئكم بخير من ذلكم للذين
اتقوا عند ربهم جناتٌ تجرى من
تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ
مُطَهَّرة ورضوانٌ من الله والله
بصير بالعباد ﴾

بيَّن فضيلة أهل التقوى على أرباب الدنيا ، فقال : هؤلاء لهم متابعة المنى وموافقة الهوى وأولئك لهم الدرجات العُلى ، والله بصير بالعباد ؛ أنزل كل قوم مَنْزِلَه ، وأوصله إلى ما لَهُ أَهْلُه .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمَنَّا فاغفر لنا
ذنوبنا وقِنا عذاب النار ﴾

أى ينقطعون إلينا بالكلية ، ويتضرعون بين أيدينا بذكر المحن والرزية ، أولئك ينالون منا القربة والخصوصية ، والدرجات العليَّة ، والقِسَم المرضيَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين
والمُنْفِقِين والمستغفرين بالأسحار ﴾

الصبرُ حبسُ النَّفْس ، وذلك على ثلاث مراتب :

صبر على ما أُمِرَ به العبد ، وصبر عما نُهِىَ عنه وصبر هو الوقوف تحت جريان حكمه على ما يريد ؛ إمَّا فى فوات محبوبك أو هجوم ما لا تستطيعه[1] .

فإذا ترقيتَ عن هذه الصفة ــ بألا تصيبك مشقةٌ أو تنال راحةً ــ فذلك رضاً لا صبر[2] .

ويقال الصابرين على أمر الله ، والصادقين ، فيما عاهدوا الله .

و « القانتين » ، بنفوسهم بالاستقامة فى محبة الله .

---

(١) فوات المحبوب صدُّه عنك وهجره لك ، والهجوم الذى لا تستطيعه هو الذى (يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك ، ومنهم من تصرفه الهوَاجم ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة ، أولئك سادات الوقت) الرسالة ص ٤٤ .

(٢) لاحظ الفرق بين الرضا والصبر .

و « المستغفرين » عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم فى الله[1]

ويقال : « الصابرين » بقلوبهم و « الصادقين » بأرواحهم و « القانتين » بنفوسهم ، و « المستغفرين » بألسنتهم .

ويقال « الصابرين » على صدق القصود و « الصادقين » فى العهود و « القانتين » بحفظ الحدود و « المستغفرين » عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد .

ويقال « الصابرين » الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحتشموا من التعب ، وهجروا كل راحة وطلب . وصبروا على البلوى ، ورفضوا الشكوى،حتى وصلوا إلى المولى ، ولم يقطعهم[2] شىء من الدنيا والعقبى .

و « الصادقين » الذين صدقوا فى الطلب فقصدوا ، ثم صدقوا حتى وردوا ، ثم صدقوا حتى شهدوا ، ثم صدقوا حتى وجدوا ، ثم صدقوا حتى فقدوا . . فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود[3] .

و « القانتين » الذين لازموا الباب ، وداوموا على تجرّع الاكتئاب ، وتركوا المحاب ، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب .

و « المُنْفِقِين » الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال)[4] ، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال ، ثم جادوا بترك كل حظ لهم فى العاجل الآجل ، استهلاكا عند القرب والوصال بما لقوا من الاصطلام والاستئصال[5] .

و « المستغفرين » عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الاسحار يعنى ظهور الإسفار ، وهو فجر القلوب لا فجرٌ يظهر فى الأقطار .

---

(١) قارن ذلك بما يحكيه المناوى فى (طبقاته) وابن الجوزى فى (صفة الصفوة) عن رابعة أنها كانت تردد : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه) .

(٢) قواطع الدنيا معروفة أما قواطع العقبى فهى تعليق العمل المبذول بالاجر ، إما الطمع فى المثوبة أو الخوف من العقوبة .

(٣) هذا تلخيص دقيق للمعراج الروحى ينبغى أن نتمهل عنده لحسن فهمه واستيعابه .

(٤) مستدركة فيما بين السطور فأثبتناها فى موضعها .

(٥) الاستئصال هو الذى عبر عنه القشيرى فى رسالته بقوله : (كأس تصطلمهم منهم وتفنيهم وتختطفهم ولا تبقيهم ،كأس لا تبقى ولا تذر ، تمحوهم بالكلية ، ولاتبقى شظية من آثار البشرية) الرسالة ص ٤٣

قوله جل ذكره : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لا إله إلا هو ﴾

أى عَلِمَ اللهُ وأخبر اللهُ وحَكَمَ اللهُ بأنه لا إله إلا هو ، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق ، وأوَّلُ مَنْ شهد بأنه اللهُ — اللهُ ، فشهد فى آزاله بقوله وكلامه وخطابه الأزلى ، وأخبر عن وجوده الأحدى ، وكونه الصمدى ، وعونه القيومى ، وذاته الديمومى ، وجلاله السرمدى ، وجماله الأبدى . فقال : « شهد الله » ثم فى آباده ، « شهد الله » أى بَيَّنَ اللهُ بما نَصَبَ من البراهين ، وأثبت من دلائل اليقين ، وأوضح من الآيات ، وأبدى من البينات . فكلُّ جزء من جميع ما خلق وفطر ، ومن كتم العدم أظهر ، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل ، من أعيان مستقلة ، وآثار فى (ثانى)[1] وجودها مضمحلة ، وذوات للملاقاة قابلة ، وصفات فى المَحَالِّ متعاقبة — فهو لوجوده مُفْصِح ، ولربوبيته موضِّح ، وعلى قِدَمِه شاهد ، وللمقول مُخْبِر بأنه واحد ، عزيز ماجد ، شهد سبحانه بجلال قَدْره ، وكمال عزه ، حين لا جحد ولا جهود[2] ولا عرفان لمخلوق ولا عقل ، ولا وفاق ، ولا كفر ، ولا حدثان ، ولا غير ، ولا إلحاد ، ولا شِرْك ، ولا فهم ولا فكر ، ولا سماء ولا فضاء ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا وصول للمزدوجات[3] ، ولا فصول باختلاف الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ والملائكةُ ﴾

لم يؤيِّد شهادته بوحدانيته بشهادة الملائكة بل أسعدهم وأيَّدَهُم ، حين وفَّقَهم بشهادته وسدَّدهم ، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وأولوا العلم ﴾

وهم أولياء بنى آدم إذ علموا جلال قدرته ، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم ، فشهدوا عن شهود وتبيين ، لا عن ظن وتخمين ، إن لم يدركوه — اليوم —

---

(1) ربما كانت فى الأصل فى (شانِ) وجودها ... بتخفيف الهمز .

(2) ربما كانت فى الأصل (جحود) ، ويحتمل أنها (جهود) فيكون المقصود الجهود الإنسانية الكسبية .

(3) ربما قصد منها كل شىء وضده ، وربما كانت (المدرجات) .

ضرورة وحيًّا ، لم يعتقدوه ظنًّا وحَدْسًا ؛ تعرَّف إليهم فعرفوه ، وأشهدهم فلذلك شهدوا ، ولو لم يقُلْ لهم إنه مَنْ هو لمَا عرفوا مَنْ هو .

ولكنَّ العلماء يشهدون بصحو عقولهم ، والمُوَحِّدُون يشهدون بعد خمودهم ؛ فهم كما قيل :

مُسْتَهْلَكُون بقهر الحق قد هَمَدُوا　　　واستُنْطِقُوا بعد افتنائهمُ بتوحيد

فالمُجْرِي عليهم ما يبدو منهم — سواهم ، والقائمُ عنهم بما هم عليه وبه — غيرُهم ، ولقد كانوا لكنهم بانوا ، قال قائلهم :

كتابي إليكم بعد موتي بليلة　　　ولم أدرِ أني بعد موتيَ أكتب

وأولو العلم على مراتب : فَمِنْ عالِمٍ نَعْتُه وفاق ورهبانية ، ومن عالم وصفه فناء وربّانية ، وعالم يعرف أحكام حلاله وحرامه ، وعالم يعلم أخباره وسننه وآثاره ، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله ، ومحكمه وتنزيله ، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوى حججه وتوحيده بحديث يخرجه (. . . .)[1] ، وعالم لاطفه حتى أحضره ثم كاشفه فقهره ، فالاسم باقٍ ، والعين محو ، والحكم طارق والعبد محق ، قال قائلهم .

بنو حقٍّ غدوا بالحق صِرفاً　　　فنعت الخلق فيهم مستورُ

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم ، وعند عِلْمِهم بأنفسهم ، فأما أعمالهم[2] أعيانهم فمخلوقة ، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمسبوقة ، وذات الحق لا توصف بقبول حدثان ، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات ، تقدَّس الحق عن كل ضدٍّ وندٍّ ، ووصل وفصل ، وجمع وفرق ، وعين وخلق ، وملك وفلك ، ورسم وأثر ، وعبد وبشر ، وشمس وقمر ، وشخص وغَبَر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الدينَ عند الله الإسلام ﴾ .

---

(١) مشتبهة .

(٢) نرجح أنه فى الأصل (وأعيانهم) وأن الواو سقطت من الناسخ أى أنهم وما يصنعون — من خلق الله ، وذلك الأصل من الأصول الكلامية عند القشيرى .

الدِّينُ الذى يرتضيه ، والذى حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه ، وبالفضل يُلقِّيه — هو الإسلام .

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام ، وما سواه فمردود ، وطريق النجاة على صاحبه مسدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب
إلا مِن بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ،
ومَن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع
الحساب ﴾ .

جاءهم العلم الذى عليهم حجة ، لا للمعرفة التى لها بيان وحجة ، فأصروا على الجحود ، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود

قوله جل ذكره : ﴿ فإن حاجوك فَقُلْ أسْلَمْتُ وجهى
لله ومَن اتَّبَعَنِ ، وقُل للذين أوتواْ
الكتاب والأميين أأسْلَمْتُمْ ، فإنْ
أسلموا فقد اهتدواْ ، وإن تولَّوْا
فإنّما عليك البلاغ ، والله بصير
بالعباد ﴾ .

طَالِعْهُم بعين التصريف كيلا يفترق بك الحال فى شهود اختلافهم وتباين أطوارهم ؛ فإنَّ مَنْ طالَعَ الكائناتِ بعين القدرة علم أن المُثْبِتَ للكلّ — على ما اختص به كل واحد من الكل — واحدٌ .

فَادْعُهم جهراً بجهر ، واشهد تصريفنا إياهم سِرًّا بسر ، واشغل لسانك بنصحهم ، وفرِّغ قلبك عن حديثهم ، وأفرد سِرَّك عن شهودهم ، فليس الذى كلفناك من أمورهم إلا البلاغ ، والمُجرِى للأمور والمبدى — نحن .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون
النبيِّين بغير حق ، ويقتلون الذين

يأمرون بالقسط مِنَ الناس فَبَشِّرْهم
بعذابٍ أليم ﴾ .

إن الذين ربطناهم بالخذلان ووسمناهم بوصف الحرمان — أخبِرْهم بأن إعراضنا عنهم مؤبد ، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنان إلى دار الهوان ، من الخذلان والحرمان إلى العقوبة والنيران .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين حَبِطت أعمالُهم
في الدنيا والآخرة وما لهم من
ناصرين ﴾

أولئك الذين ليس لهم — اليومَ — توفيق بأعمالهم ، ولا غداً تحقيق لآمالهم ، وما ذلك إلا لأنهم فقدوا في الدارين نصرتنا ، ولم يشهدوا عِزَّنا وقدرتنا .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من
الكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله
ليحكم بينهم ثم يتولَّى فريق منهم
وهم مُعْرِضون ﴾

امتحناك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون ، فاصبر على ما أُمِرْتَ فيهم ، واعلم سوء أحوالهم ، فإنهم أهل التولِّي عن الإجابة ، لأنهم فقدوا منا حسن التجلي بسابق الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لَن تَمَسَّنَا النار
إلا أياما معدودات ، وغرَّهم في دينهم
ما كانوا يفترون ﴾

عاقبناهم في الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب ، وسوف يعلمون تضاعف البلاء عليهم ، ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون .

ظن المخطئون حكما . . .

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب
فيه ووفيت كل نفسٍ ما كسبت
وهم لا يُظلَمون ﴾

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة أسرارهم، وانقطاع دواعيهم، وانخلاع قلوبهم من مكامنها، وتراقيها إلى تراقيهم، ثم ما يلقونه من الحساب والعتاب، والعذاب والعقاب، وعدم الإكرام والإيجاب، وما فى هذا الباب.

وقيامةُ الكفار يومَ الحشر، وقيامة الأحباب فى الوقت، ولِشَرْحِ هذا تفسير طويل (١)

قوله جل ذكره: ﴿ قُلِ اللهم مالكَ المُلْكِ ﴾

«اللهم» معناها يا الله والميم فى آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا. فهذا تعليم الحق كيفية الثناء على الحق، أى صِفْنى بما أستحقُّه من جلال القَدْر فَقُلْ: يا مالكَ المُلْكِ لا شريكَ لكَ ولا مُعِينَ، ولا ظهير ولا قرين، ولا مُقاسِمَ لكَ فى الذات، ولا مُساهِمَ فى المُلْك، ولا مُعارِضَ فى الإبداع.

﴿ تُؤْتِى المُلْكَ مَن تشاء وتنزع
الملك ممن تشاء ﴾

حتى نعلم أن الملك لك، والمَلِكُ من المخلوقين مَنْ تَذَلَّلَ له، ومنزوعُ المُلْكِ ممن تكبَّر عليه؛ فَتَجمُّلُ الخلْقِ فى تذللهم للحق، وعِزُّهم فى محوهم فيه، وبقاؤهم فى فنائهم به

﴿ وتُعِزُّ من تشاء ﴾

بعز ذاتك.

﴿ وتُذِلُّ من تشاء ﴾

بخذلانك

وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحدك، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك. وتعزُّ

---

(١) من كلام القشيرى فى هذا الخصوص فى موضع آخر من هذا الكتاب:
(والقيامة عند هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق، وليس لها كاشف غيره سبحانه)

من تشاء بيُمْن إقبالك ، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك . وتعزُّ من تشاء بأن تؤنسه بك ، وتذل من تشاء بأن توحشه عنك . وتعز من تشاء بأن تشغله بك ، وتذل من تشاء بأن تشغله عنك . وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه ، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه . وتعز من تشاء بطوالع أُنسه وتذل من تشاء بطوارق[1] نفسه . وتعز من تشاء ببسطه بك ، وتذل من تشاء بقبضه عنك .

وتؤتى المُلْكَ من تشاء بشد نطاق خدمتك ، وتنزع الملك ممن تشاء بنفيه عن بساط عبادتك[2] . تؤتى الملك من تشاء بإفراد سِرِّه لك وتنزع الملك ممن تشاء بأن تربط قلبه بمخلوق ، وتعز من تشاء بإقامته بالإرادة ، وتذل من تشاء بردِّه إلى ما عليه أهل العادة .

﴿ بيدك الخير ﴾

ولم يذكر الشر حفظاً لآداب الخطاب ، وتفاؤلا بذكر الجميل ، وتطيراً من ذكر السوء .

﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾

من الحجب والجذب ، (والنصرة)[3] والخذلان ، والأخذ والرد ، والفرق والجمع ، والقبض والبسط .

قوله جل ذكره : ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار
فى الليل وتخرج الحى من الميت
وتخرج الميت من الحى ، وترزق من
تشاء بغير حساب ﴾

---

(١) الطوارق فى اللغة ما يطرق بالليل ، وروى عن النبى (ص) أنه كان يدعو : «وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير» .

وعن بعض المشايخ : يطرق سمعى علم من علوم أهل الحقائق فلا أدعه أن يدخل قلبي إلا بعد أن أعرضه على الكتاب والسُّنة . (اللمع للطوسى ص ٤٢٢) .

(٢) وردت (عبادك) والأصوب أن يقال (عبادتك) لأن العبودية لا تنتفى عن مخلوق ، أما العبادة فهى حالة مخصوصة يعان عليها العبد أو لا يعان ، فالعبد إما فى العبادة أو فى العادة :

(٣) أضفنا هذه الكلمة من عندنا حتى يتم الانسجام الداخلى للأسلوب ويكون المعنى أوضح ، ونحن فى هذه الإضافة ـ كدأبنا دائماً ـ متمثلين النهج الذى يسلكه القشيرى فى مثل هذا المواضع .

تولج الليل فى النهار حتى يَغْلِبَ سلطانُ ضياء التوحيد فلا يَبْقَى من آثار النفس وظلماتها شىء ، وتولج النهار فى الليل حتى كأن شموسَ القلوب كُسِفَت ، أو كأن الليل دام ، وكأن الصبح فُقِد .

وتخرج الحى من الميت حتى كأن الفترة لم تكن ، وعهد الوصال رجع فَتِيًّا ، وَعُودُ القلوبِ صار غضاً طريًّا .

وتخرج الميت من الحى حتى كأن شجرة البرم أورقت شوكا وأزهرت شوكا ، وكأن اليائس لم يجد خيراً ، ولم يشم ريحاً ، وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة .

﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾

حتى لا (كسر)[1] ولا جُهْدَ ولا عَرَقَ جبينٍ ؛ ولا تَعَبَ يمينٍ . لَيْلُهُ روْح وراحة ، ونهارُه طرب وبهجة ، وساعاته كرامات ، ولحظاته قُرُبات ، وأجناس أفعاله على التفصيل لا يحصرها لسان ، ولا يأتى على استقصاء كنهها عبارة ولا بيان .

وفيما لوَّحنا من ذلك تنبيه على طريق كيفية الإفصاح عنه .

ويقال لما قال : « وتنزع الملك ممن تشاء انكسر خُمَارُ كلِّ ظانٍّ أنه مَلِكٌ لأنه شاهد ملكه يعرض للزوال فَعَلِمَ أن التذلل إليه فى استبقاء ملكه أَوْلَى به من الإعجاب والإدلال .

ويقال المَلِكُ فى الحقيقة — مَنْ لا يشغله شىء بالالتفات إليه عن شهود من هو المَالِكُ على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾

من حقائق الإيمان الموالاةُ فى الله والمعاداة فى الله .

وأَوْلى مَنْ تسومه الهجرانَ والإعراضَ عن الكفار — نَفْسُك ؛ فإنها مجبولةٌ على

---

(١) نرجح أنها (كدّ) بدون واو ، ومع ذلك فالمعنى يتقبل كليهما .

المجوسية حيث تقول : لى ومنى وبى[1] ، وقال الله تعالى . « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار[2] » .

وإن الإيمان فى هـذه الطريقة عزيز ، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام — وإن كانوا قد بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً — فليسوا بأهل لموالاتك ، والشكل بالشكل أليق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يفعل ذلك فليس من الله
فى شىء إلا أن تتقوا منهم تُقَاةً
ويحذركم الله نَفْسَه ، وإلى الله المصير ﴾

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم — ألبتة .

« ويحذركم الله نفسَه » : هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة ، فأمَّا الذين نزلت رُتْبَتُهم عن هذا فقال لهم : « واتقوا النار التى . . . » وقال : « واتقوا يوماً ترجعون . . » إلى غير ذلك من الآيات .

ويقال : « يحذركم الله نفسه » أن يكون عندكم أنكم وصلتم ؛ فإن خفايا المكر تعترى الأكابر ، قال قائلهم :

وأَمِنْتُهُ فأتاح لى من مأمنى مكراً ، كذا مَنْ يأمن الأحبابا

ويقال « يحذركم الله نفسه » لأن يجرى فى وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق ، أو يطأ بساطَ العزِّ قَدَمُ همة بشر ، جلَّتْ الأحدية وعزَّت !

وإنَّ من ظن أنه أقربهم إليه ففى الحقيقة أنه أبعدهم عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إن تخفوا مافى صدوركم أوتبدوه
يعلمه الله ويعلم ما فى السموات

---

(١) وإلى هذا يشيرون حين يقولون (التوحيد إسقاط الياءات) الرسالة ص ١٤٩ . لأن التوحيد الحق لا يقتضى شعورك بما سوى المُوحَّد ، ولكن النفس مجبولة على الدعوى . وهذا شرك خفى .

(٢) سورة التوبة آية ١٢٣ .

وما فى الأرض والله على كل شىء قدير ﴾

لا يَعْزُبُ معلوم عن علمه ، فلا تحتشم من نازلة بك تسوءك ، فمن قريب سيأتيك الغوث والإجابة ، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة ، ويُعَجِّلُ المَدَدَ والكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خيرٍ مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لو أَنَّ بينها وبينه أَمَداً بعيداً ﴾ .

وَدَّ أهل الطاعات أَنْ لو استكثروا منها ، ووَدَّ أهل المخالفات أَنْ لو كبحوا لجامهم عن الركض فى ميادينهم ، قال قائلهم :

ولو انى أُعْطِيتُ من دهرى المُنَى ... وما كلُّ مَنْ يُعْطَى المنى بِمُسَدَّدِ
لَقُلْتُ لأيامٍ مَضَيْن : ألا ارجعى ... وقلتُ لأيام أتيْن ألا ابعدى

قوله جل ذكره : ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ .

الإشارة من قوله : « ويحذركم الله نفسه » للعارفين ، ومن قوله « والله رءوف بالعباد » للمستأنفين ، فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة ، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة .

ويقال لمَّا قال : « ويحذركم الله نفسه » اقتضى أسماع هذا الخطاب تحويلهم(١) فقال مقروناً به « والله رءوف بالعباد » لتحقيق تأميلهم ، وكذلك سُنَّته يطمعهم(٢) فى عين ما يروعهم .

ويقال أفناهم بقوله « ويحذركم الله نفسه » ثم أحياهم وأبقاهم بقوله « والله رءوف بالعباد »

---

(١) ربما يقصد القشيرى تحويلهم من الخوف إلى الرجاء ، فبعد أن خوفهم نفسه أطمعهم فى رأفته .

(٢) وردت (يطعمهم) وواضح أنها خطأ فى النسخ فأصلحناه بما يلائم السياق .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيم﴾

« تحبون الله » فرق، و« يحببكم الله » جمع.

« تحبون الله » مشوب بالعلة، و« يحببكم الله » بِلا عِلّة، بل هو حقيقة الوصلة.

ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضى منه تلك الحالة إيثاره — سبحانه — على كل شىء وعلى كل أحد.

وشرطُ المحبةِ ألا يكون فيها حظٌّ بحال، فَمَنْ لم يَفْنَ عن حظوظه بالكليَّة فليس له من المحبة شظيَّة.

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانَه إليه ولطفَه به، وهى إرادةُ فضلٍ مخصوص، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه، فعلى هذا تكون من صفات فعله.

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك فى محبوبك، قال قائلهم.

وما الحب حتى تنزف العين بالبكا — وتخرس حتى لا تجيبَ المناديا

وهذا فرق[1] بين الحبيب والخليل؛ قال الخليل: « فمن تبعنى فإنه منى ».

وقال الحبيبُ: « فاتبعونى يحببكم الله ».

فإن كان مُتَّبِعُ الخليل « منه » إفضالاً فإن متابِعَ الحبيبِ محبوبُ الحقِّ سبحانه، وكفى بذلك قربة وحالا.

ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحدٍ نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم.

ويقال فى هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة، أو التجرد

---

(١) وردت (فراق) وهى خطأ من الناسخ، إذ المراد التفرقة بين موقف المصطفى (ص) وإبراهيم عليه السلام.

عن آفة لأنه قال يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، بيّن أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحبُّ اللهَ ويحبُّه اللهُ .

ويقال قال أولاً : « يحببكم الله » ثم قال : « ويغفر لكم ذنوبكم » والواو تقتضى الترتيب ليُعْلَمَ أنَّ المحبةَ سابقةٌ على الغفران ، أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه ، فالمحبة توجِب الغفران لأن العفو يوجب المحبة .

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حَبَبُ الأسنان[1] وهو صفاؤها .

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب فى السر .

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب .

والحبُّ حرفان حاء وباء ، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البَدَن ، فالمحِبُّ لا يَدَّخِر عن محبوبه لا قلبَه ولا بَدَنَه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أطيعوا الله والرسول فَإن تَوَلَّوْا فإنَّ الله لا يحب الكافرين ﴾ .

أمرهم بالطاعة ثم قال : « فإن تولوا » أى قَصَّرُوا فى الطاعة بأن خالفوا ، ثم قال : « فإن الله لا يحب الكافرين » لم يَقُل العاصين بل قال الكافرين ، ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين وإن كانوا عُصاةً[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عِمران على العالَمين * ذرية بعضها مِنْ بعض والله سميع عليم ﴾

اتفق آدم وذريته فى الطينة ، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذى هو من قِبَلِه ، لا بالنَّسَب ولا بالسبب .

---

(١) وردت (الإنسان) وهى خطأ من الناسخ (أنظر الرسالة ص ١٥٨) .

(٢) فالمؤمن العاصى منزلة بين المنزلتين : الإيمان والكفر — فى نظر القشيرى المتكلم .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ قالت امرأة عمران ربِّ إنِّى
نذرتُ لك مافى بطنى محرراً فتقبلْ
منى إنك أنت السميع العليم *
فلمَّا وَضَعَتْهاَ قالت رَبِّ إنى وَضَعْتُها
أُنثَى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس
الذكر كالأنثى ، وإنِّى سَمَّيْتُها مريم
وإنِّى أُعيذُها بِكَ وذُرِّيتَها من
الشيطان الرجيم ﴾ .

المُحَرَّرُ الذى ليس فى رِقِّ شىء من المخلوقات ، حرَّرَه الحق سبحانه فى سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال . فلمَّا نذرت أمُّ مريم ذلك ، ووضعتها أنثى خَجِلت ، فلمَّا رأتها قالت « ربِّ إنى وضعتها أنثى » وهى لا تصلح أن تكون محرراً فقال تعالى : « والله أعلم بما وضعت » ولعمرى ليس الذكر كالأنثى فى الظاهر ، ولكن إذا تَقَبَّلَها الحقُّ — سبحانه وتعالى — طلع عنها كل أعجوبة .

ولما قالت « إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً » قالت « فَتَقَبَّلْ منى » فاستجاب ، وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها ، ونجا بحديثها عَالَمٌ وهَلَكَ بسببها عَالَمٌ ، ووقعت الفتنة لأجلهما فى عَالَم .

قالت : « وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » استجارت بالله من أن يكون للشيطان فى حديثها شىء بما هو الأسهل ، لتمام ماهم به من أحكام القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهاَ بِقَبُول حَسَنٍ وأَنْبَتَها
نَبَاتاً حَسَناً وكَفَّلَهاَ زَكَرِيا ﴾

حيث بَلَّغَها فوق ما تَمَنَّتْ أمها ، ويقال تقبَّلها بقبول حسن حتى أفردها لطاعته ، وتولاَّهَا بما تَوَلَّى به أولياءه ، حتى أفضى جميع مَنْ فى عصرها العَجَبَ من حُسْن توليه أمرها ، وإن كانت بنتاً .

ويقال القبولُ الحسَنُ حُسْنُ تربيته لها مع علمه — سبحانه — بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال ، فلم يُبالِ بقُبْح مقال الأعداء .

أجد الملامة فى هواكِ لذيذةً ... حُبّاً لذكرك فليلمنى اللُّوَّمُ

وكما قيل :

ليقـــل من شاء ما شـاء فإنى ... لا أبـالى

ويقال القبول الحسن أنْ ربّاها على نعت العصمة حتى كانت تقول : « إنى أعوذ بالرحمن منك إنْ كنت تقيّا » .

« وأنبتها نباتاً حسناً » حتى استقامت على الطاعة ، وآثرت رضاه — سبحانه — فى جميع الأوقات ، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام ، وهذا هو النبات الحسن ، وكفلها زكريا . ومن القبول الحسن والنبات الحسن أنْ جعل كافلَها والقيِّمَ بأمرها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام ، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : إنْ رأيتَ لى طالباً فكُنْ له خادماً .

قوله جل ذكره : ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وَجَدَ عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنَّى لكِ هذا ؟ قالت : هو مِنْ عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾

مِنْ أمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا فى المحراب ، ومن كان مسكنه وموضعه الذى يتعبَّدُ فيه وهنالك يوجد المحراب — فذلك عَبْدٌ عزيز .

ويقال مِنَ القبول الحسن أنه لم يطرح أمرَها كُلَّه وشغْلَها على زكريا عليه السلام ؛ فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدها بطعام وَجَدَ عندها رزقاً ليعْلَمَ العاملون أن الله — سبحانه — لا يُلْقِى شغْلَ أوليائه على غير[1] ، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو فى رفق الولى لا إنه

(١) وردت على (عين) وهى خطأ فى النسخ .

تكون عليه مشقة لأجل الأولياء . وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء .

ثم كان زكريا عليه السلام يقول : أنَّى لك هذا ؟ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة ، وكان يخاف أن غيره يغلبه وينتهز فرصة تعهدها ويسبقه بكفاية شُغْلها ، فكان يسأل ويقول : أنَّى لك هذا ؟ ومن أتاكِ به ؟

وكانت مريم تقول : هو من عند الله لا من عند مخلوق ، فيكون لزكريا فيه راحتان : إحداهما شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى ، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدها ، ولم يسبق به . قوله « كلما دخل عليها زكريا المحراب » فلفظة كلَّما للتكرار[1] وفي هذا إشارة : وهو أن زكريا عليه السلام لم يَذَرْ تَعَهُّدَها — وإن وجد عندها رزقا — بل كل يوم وكل وقتٍ كان يتفقد حالها لأن كراماتِ الأولياء ليست مما يجب أن يدوم ذلك قطعاً ؛ فيجوز أن يُظهِرَ الله ذلك عليهم دائماً ، ويجوز ألا يظهر ، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد حالها ، ثم كان يُجَدِّدُ السؤال عنها بقوله : « يا مريم أنَّى لكِ هذا ؟ » لجواز أن يكون الذى هو اليوم لا على الوجه الذى كان بالأمس ، فإنه لا واجب على الله سبحانه[2]

وقوله : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » إيضاح عن عين التوحيد ، وأن رزقه للعباد ، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته ، دون أن يكون مُعَلَّلاً بطاعاتهم ووسيلة عباداتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هُنالِك دعا زكريا ربَّه قال ربِّ هَبْ
لى مِن لدنك ذُرِّيَّة طيبـة إنك
سميـع الدعاء ﴾

أى لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين ، ورجاء على رجاء ؛ فسأل الوَلَدَ على كبر سِنِّه ، وإجابتُه إلى ذلك كانت نقضاً للعادة .

---

(١) أى لتكرار زيارة زكريا لها مرة بعد مرة .

(٢) هنا إشارة دقيقة تتصل بمذهب القشيرى — الذى يخالف المعتزلة — أنه لا وجوب على الله فى إثابة المطيع ، لأن طاعة المطيع ليست زَيْناً لله ، ومعصيته ليست شيناً لله ، وإنما المعول عليه فضل الله وهذا لا علة له ، ولا وجوب على الله فيه .

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الولَدَ ليكونَ عوناً له على الطاعة ، ووارثا من نَسْلِهِ فى النبوة ، ليكون قائما بحقِّ الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ فإن السؤال إذا كان لحقِّ الحقِّ — لا لحظِّ النَّفْسِ — لا يكون له الرد[1].

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء عندها فى الصيف ، فسأل الولد فى حال الكِبَر ليكون آية ومعجزة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكةُ وهو قائمٌ يُصَلِّى فى المحراب ﴾ .

لما سأل السؤال ، ولازم الباب أَتَتْهُ الإجابةُ .

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة .

ويقال حكم الله — سبحانه — أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَانِقٌ لخدمته ، فأمَّا مَنْ أعرض عن الطاعة ألقاه فى ذُلِّ الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقا بكلمةٍ من الله وسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِيًّا مِنَ الصالحين ﴾ .

قيل سمَّاه يحيى لحياة قلبه بالله ، ولسان التفسير أنه حيى به عقر أمه .

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه .

قوله : مصدقا بكلمة من الله : أن تصديقه بكلمة « الله » فيا تعبده به أو هو مكوَّن بكلمة الله .

وقوله « وسيداً » : السيِّد من ليس فى رق مخلوق ، تحرَّر عن أسر هواه وعن كل مخلوق ، ويقال السيد من تحقق بعلويته سبحانه ، ويقال السيد من فاق أهل عصره ، وكذلك كان يحيى عليه السلام .

---

(١) الرد هنا معناها الرفض .

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقاما ، ولا شاهَدَ لنفسه قَدْراً . ولما أخلص فى تواضعه لله بكل وجهٍ رقّاه على الجملة ، وجعله سيدا للجميع .

وقوله « وحصورا » أى مُتَّقيا من الشهوات ، مكفيا أحكام البشرية مع كونه من جملة البشر . ويقال متوقيا عن المطالبات ، مانعا نفسه عن ذلك تعززا وتقربا ، وقيل منعته استئصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فَضْلُ لحظٍ .

« و نبيًّا من الصالحين » أى مستحقا لبلوغ رتبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ أنَّى يكون لى غلام
وقد بلغنى الكِبَرُ وامرأتى عاقرٌ
قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ .

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال : أنَّى يكون لى غلام ؟

ويحتمل أنه قال : بأى استحقاقٍ منى تكون لى هذه الإجابة لولا فضلك ؟

ويحتمل أنه قال أنَّى يكون هذا : أعَلَى وجهِ التبنى أم على وجه التناسل ؟

ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التى طعنت فى السن أو من جهة التَّسرِّى بمملوكة ؟ أَمْ مِنْ هذه ؟

فقيل له : لا بَلْ مِنْ هذه ، فإنكما قاسيتما وحشة الانفراد معا ، فكذلك تكون بشارة الولد لكما جميعا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ اجعل لى آية قال آيتك
ألا تُكَلِّم الناس ثلاثة أيَّام إلا رَمْزًا ﴾

طلب الآية ليعلم الوقت الذى هو وقت الإجابة على التعيين لا لِشك له فى أصل الإجابة .

وجعل آية ولايته[1] فى إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح ، أى لا تمتنع عن خطابى فإنى لا أمنع أوليائى من مناجاتى .

---

(١) وردت (دلالته) وقد تكون مقبولة فى المعنى أيضاً .

قوله جل ذكره: ﴿ واذكر ربَّكَ كثيرا ﴾.

بقلبك ولسانك فى جميع أوقاتك.

﴿ وسَبِّح بالعشِىِّ والإبكار ﴾.

فى الصلاة الدائبة.

قوله جل ذكره: ﴿ وإذْ قالت الملائكة يا مريم إنَّ اللهَ اصطفاكِ وطَهَّرَكِ واصطفاك على نساء العالمين ﴾.

يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريمَ من قِبَلِهم رفعا بشأنها، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها: إن الله اصطفاك بتفضيلك، وإفرادكِ من أشكالك وأندادك، وطَهَّرَكِ من الفحشاء والمعاصى بجميل العصمة، وعن مباشرة الخلق[1]، واصطفاك على نساء العالمين فى وقتك.

وفائدة تكرار[2] ذكر الاصطفاء: الأول اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثانى اصطفاكِ بأنْ حَمَلْتِ بعيسى عليه السلام من غير أب، ولم تشبهك امرأة — ولن تشبهك — إلى يوم القيامة، ولذلك قال «على نساء العالمين».

قوله جل ذكره: ﴿ يا مريم اقنتى لربِّكِ واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾.

لازمى بساط العبادة، وداومى على الطاعة، ولا تُقَصِّرى فى استدامة الخدمة، فكما أفردك الحقُّ بمقامك، كونى فى عبادته أوحد زمانك.

قوله جل ذكره: ﴿ ذلك من أنباء الغيبِ نوحيه إليكَ

(١) ربما يقصد القشيرى من ذلك أنه أبعدها عن أن يباشرها الزوج شأن نساء العالمين.

(٢) لاحظ كيف يلتمس القشيرى معنى متجدداً لكلمة تتكرر بلفظها - لأنه لا يرى أن فى القرآن تكراراً إلا لداع متجدد.

وما كنتَ لديهم إذ يُلقُون
أقلامَهم أيُّهم يَكفُلُ مريمَ وما كنتَ
لديهم إذ يختصمون ﴾

أى هذه القصص نحن عرفنا كها و (خا) طبناك بمعانيها ، وإنْ قصصْنا نحن عليك هذا — فعزيزٌ خطابُنا ، وأعزُّ وأتم مِنْ أنْ لو كنتَ مشاهداً لها .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله
يُبَشِّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح
عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا
والآخرة ومِنَ المقربين . وَيُكلِّمُ
النـاسَ فى المهـدِ وكهـلاً ومِنَ
الصالحين ﴾

لم يُبَشِّرها بنصيب لها فى الدنيا ولا فى الآخرة من حيث الحظوظ ، ولـكن بَشَّرها بما أثبت فى ذلك من عظيم الآية ، وكونه نبياً لله مؤيَّداً بالمعجزة .

ويقال عرَّفها أن مَنْ وقع فى تقليب القدرة ، وانتهى عند حكمه يُلْقَى من عجائب القدرة ما لا عهد به لأحد . ولقد عاشت مريم مدةً بجميل الصيت ، والاشتهار بالعفة ، فشوَّش عليها ظاهر تلك الحالِ بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام ، ولـكن — فى التحقيق — ليس كما ظَنَّهُ الأغبياء[1] الذين سكرت أبصارهم من شهود جريان التقدير .

وقيل إنه (. . . . .)[2] عَرَّفها ذلك بالتدريج والتفصيل ، فأخبرها أن ذلك الولدَ يعيش حتى يُـكلِّمَ الناس صبيًا وكهلا ، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه .

وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء .

ويقال ربط على قلبها بما عرَّفها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة ساحتها يُنْطِقُ اللهُ عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالتها .

---

(١) وردت (الأغنياء) والمعنى والسياق يرفضانها .
(٢) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت ربِّ أنَّى يكون لى وَلَد
ولم يمسسنى بَشَرٌ ، قال كذلك الله
يخلُقُ ما يشاء ﴾

كما شاهدتِ ظهور أشياء ناقضة للعادة فى رزقنا فكذلك ننقض العادة فى خلق ولدٍ من غير مسيس بشر .

قوله جل ذكره : ﴿ إذا قضى أمراً ﴾

أى أراد إمضاء حُكمٍ .

﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾

فلا يتعسر عليه إبداء ولا إنشاء .

ولما بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله عيسى عليه السلام وهو ابن يومٍ حتى قال :

﴿ أنى قد جئتكم بآيةٍ من ربكم ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ ويُعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة
والإنجيل * ورسولاً إلى بنى
إسرائيل أنّى قد جئتكم بآيةٍ من
ربّكم أنّى أخْلُقُ لكم مِنَ الطين
كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون
طيراً بإذن الله وأُبْرِىء الأكمه
والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله
وأُنبئكم بما تأكلون وما تدخرون
فى بيوتكم إنَّ في ذلك لآيةً لكم
إن كنتم مؤمنين ﴾

وتلك آياته الظاهرة ، ودلالاته القاهرة الباهرة من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار عمّا عملوه مُسِرِّين به ، إلى غير ذلك من معجزاته . وأخبر أنه

مصدِّق لما تقدمه من الشرائع ، ومختص بشريعةٍ تنسخ بعض ما تقدمه ، وأقوم على البعض — على ما نطق به تفصيل القرآن .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أحَسَّ عيسى منهم الكفر .... ﴾ الآية .

حين بلّغهم الرسالة واختلفوا — فمنهم من صدّقه ومنهم من كذّبه وهم الأكثرون — عَلِمَ أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعداء ، فقطع عنهم قلبه ، وصدق إلى الله قصده ، وقال لقومه : مَنْ أنصارى إلى الله ليساعدونى على التجرد لحقِّه والخلوص فى قصده ؟ فقال مَن انبسطت عليهم آثار العناية ، واستخلصوا بآثار التخصيص : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد علينا بالصدق ، وليس يشكل عليك[1] شىء مما نحن فيه .

﴿ربَّنا آمنا بما أنزلت واتَّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

وأما الباقون فجدُّوا فى الشقاق ، وبالغوا فى العداوة ، ودسُّوا له المكائد ، ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكرهم ، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام وقتلوه ، وذلك جهل منهم ، ولَبْسٌ عليهم . فاللهُ — سبحانه — رفع عيسى عليه السلام نبيَّه ووليَّه ، وحَقَّ الطردُ واللعنُ على أعدائه ، وهذا مَكْرُهُ بهم :

﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنِّى متوفيك ﴾

الإشارة[2] فيه إنى متوفيك عنك ، وقابضك منك ، ورافعك من نعوت البشرية ، ومطهرك من إرادتك بالكلية ، حتى تكون مُصَرَّفاً بنا لنا ، ولا يكون عليك من

---

(١) نرجح أنها فى الأصل : « يشكل (علينا) شىء مما نحن فيه » ، لأن هذا الترجيح يقوى المعنى ، إذ يفصح عن مدى صحة إيمانهم ، أما إذا كانت (عليك) فيكون المعنى أن أنصاره طمأنوه عن أنفسهم ، وطلبوا إليه ألا يستشكل (عليه) أمر من أمورهم ، بدليل ما أفصحوا عنه فى الآية التالية .

(٢) تخدم هذه الإشارة فى إبراز وتدعيم واحدة من أخطر قضايا الفكر الدينى .

اختيارك شيء ، ويكون إسبال التولى عليك قائماً عليك . وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى ، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة — جلّت .

ويقال طَهَّرَ قلبه عن مطالعة الأغيار ، ومشاهدة الأمثال والآثار ، فى جميع الأحوال والأطوار .

﴿وجَاعِلُ الذين اتَّبعُوكَ فوق الذين
كفروا إلى يوم القيامة﴾

بالنصرة والقهر والحجة .

ومتبعوه مَنْ لم يُبَدِّل دِينه ومَنْ هو على عقيدته فى التوحيد — وهم المؤمنون ، فَهُمْ على الحقّ ، إلى يوم القيامة لهم النصرة ، ثم إن الله سبحانه يحكم — يوم القيامة — بينه وبين أعدائه . فأمّا الكفار ففى الجحيم وأمّا المؤمنون ففى النعيم .

قوله جل ذكره : ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات
والذكر الحكيم﴾

ذلك نتلُوه عليك يا محمد ، نعرفك معانيه بما نوحى إليك ، لا بتكلفك ما تصل إلى عِلْمِه ، أو بتَعلُّمِك من الأمثال ، أو استنباطك ما تنزع من الاستدلال .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ مَثَلَ عيسى عند اللهِ كَمَثَلِ
آدم . . .﴾ الآية

خَصَّهما(1) بتطهير الروح عن التناسخ فى الأصلاب وأفرد آدم بصفَةِ البدء ، وعيسى عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز ، وهما وإنْ كانا كبيرى الشأن فنَقْصُ الحدثان والمخلوقية لازِمٌ لهما :

﴿ثم قال له كُن فيكون﴾

قوله جل ذكره : ﴿الحق مِنْ ربِّك . . .﴾ الآية

---

(1) وردت (خصها) والصحيح خصهما لعودة الفعل على آدم وعيسى عليهما السلام .

الحق من ربك يا محمد ، فلا تَشُكَّنَّ فى أنه — سبحانه — لا يماثله فى الإيجاد أَحَدٌ ، ولا على إثبات بينه لمخلوق قدرة . والموجودات التى (.. ...)[1] وجودها عن كتم العَدَم — من الله مبدؤها وإليه عَوْدُها .

قوله جل ذكره ﴿ فمن حاجّك فيه .... ﴾ الآية

يعنى بعدما ظَهَرْتَ على صدق ما يُقال لك ، وتَحَقَّقْتَ بقلبك معرفة ما خاطبناك ، فلا تحتشم من حملهم على المباهلة ، وثِقْ بأن لك القهر والنصرة ، وأنَّا تولّيناك ، وفى كنف قُرْبنا آويناك ، ولو أنهم رغبوا فى هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيراناً مؤججة ، ولكن أخَّر الله — سبحانه — ذلك عنهم لعلمه بِمَنْ فى أصلابهم من المؤمنين[2] .

والإشارة فى هذه الآية لِمَنْ نزلت حالته عن أحوال الصديقين ، فإنه إذا ظهرت أنوارهم انخنست آثار هؤلاء فلا إقرار ، ولا عنهم آثار .

قوله جل ذكره : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾

لا يتسلط على شواهد التوحيد غبار شبهة ، ولا يدرك سر حكمه وهم[3] مخلوق ، ولا يدانيه معلوم يحصره الوجود ، أو موهوم يصوره التقدير[4] .

﴿ فإن تولوا فإن الله عليم بالمُفْسِدِين ﴾

فإن تولوا — يا محمد — فإنه لا ثَبَاتَ عند شعاع أنوارك لشبهة مُبْطِل .

« فإن الله عليم بالمفسدين » إمَّا يجتاحهم[5] ، أو يحلم[6] حتى إذا استمكنتْ ظنونُهم يأخذهم بغتةً وهم لا يُنْصَرون .

---

(١) مشتبهة .

(٢) هذا تعليل ممتع لإمهال المخالفين .

(٣) وردت (وهو) وهى خطأ من الناسخ ، ونظن أن الأصل (وهم) وهى مناسبة للسياق .

(٤) للقشيرى عبارة فى نفس الموضوع وردت فى مستهل رسالته : « وكل ما تصوره الأوهام فالله بخلاف ذلك » .

(٥) وردت (يحتاجهم) وهى خطأ من الناسخ .

(٦) وردت (ويحكم) والملائم للمعنى (أو يحلم) من الحلم ، ويكون المعنى على هذا الأساس أنه إما أن يعجل بانتقامه فيجتاحهم أو يمهلهم بحلمه ثم يبغتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم .... ﴾ الآية

هى كلة التوحيد وإفراد الحق سبحانه فى إنشاء الأشياء بالشهود .

وقوله : « ألا نعبد إلا الله » : لا تطالع بسِرِّك مخلوقاً . وكما لا يكون غيره معبودَك فينبغى ألا يكون غيرُه مقصودَك ولا مشهودَك ، وهذا هو اتقاء الشرك ، وأنت أول الأغيار الذين يجب ألا تشهدهم .

« ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً » ويظهر صدقُ هذا بترك المدح والذم لهم .

ونفى الشكوى والشك عنهم ، وتنظيف السر عن حسبان ذرة من المحو والإثبات منهم قال صلى الله عليه وسلم « أصدق كلة قالها العربُ قولُ لبيد » .

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيمٍ لا محالة زائل[1]

فإنَّ الذى على قلوبهم من المشاق أشد . وأمّا أهل البداية فالأمر مُضيَّقٌ عليهم فى الوظائف والأوراد ، فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب ، لفراغهم بقلوبهم من المعانى[2] ، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً فى قوله جل ذكره :

﴿ يا أهلَ الكتاب لِمَ تُحاجُّون فى إبراهيم ﴾ ... الآية .

ضرب على خليله — صلوات الله — نقاب الضنَّة وحجاب الغيرة ، فقطع سببه عن جميعهم بعدادِّعاء الكل فيه ، وحَكَمَ بتعارض شُبُهاتهم ، وكيف يكون إبراهيم — عليه السلام — على دين مَنْ أتى بعده ؟! إن هذا تناقضٌ من الظن .

ثم قال :

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

(٢) المقصود من (المعانى) هنا كل ما تميل إليه النفس ، والنفس على المطولات .

به عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحاجون فيما لَيْسَ لكم به
علم ، وَاللهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تعلمون ﴾

يعنى ما كان فى كتابكم له بيان ، ويصح أن يكون لكم عليه برهان ، فَخَصَّمْهُمْ فى ذلك إمّا بحق وإما بباطل ، فالذى ليس لكم ألبتة عليه دليل ولا لكم إلى معرفته سبيل فكيف تصديتم للحكم فيه ، وادّعاء الإحاطة به ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً
ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾

الحنيف المستقيم على الحق ، والأحنف هو المستقيم فى حلقة الرِّجل ، ويسمى مائل القَدَم بذلك على التفاؤل(1) . وإبراهيم عليه السلام كان حنيفاً لا مائلاً عن الحق، ولا زائغاً عن الشرع ، ولا مُعَرِّجاً على شىءٍ فيه نصيب للنفس ، فقد سَلَّمَ مَالَه ونَفْسَه ووَلَدَه ، وما كان له به جملةً — إلى حكم الله وانتظار أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ أَوْلَى الناس بإبراهيم لَلَّذِينَ
اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا ،
والله ولىُّ المؤمنين ﴾

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر ، بقى أهل الحقِّ فى كل عصر وكل حين ووقت على الحجة المثلى ، فكانوا حزباً واحداً ، فبعضهم أَوْلَى ببعض . وإبراهيم صاحب الحق ، ومن دان بدينه — كمثل رسولنا صلى الله عليه وسلم وأمته — على الدين الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى .

« والله ولىُّ للمؤمنين » لأنهم تولَّوْا دينه ، ووافقوا توحيده ، وولاية الله إنما تكون بالعَوْن والنصرة والتخصيص والقربة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَدَّت طائفة مِنْ أهل الكتابِ
لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم ﴾

من حلَّت به فتنة ، وأصابته محنة ، واستهوته غواية — رَضِى لجميع الناس ما حلَّ به ،

(1) فكلمة حنيف من الأضداد = مستقيم ومائل .

فأهل الكتاب يريدون بالمؤمنين أن يزيغوا عن الحق ، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره ، وأن يعودَ إليهم وبالُ فعلهم .

قوله جل ذكره : ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون
بآياتِ اللهِ وأنتم تَشْهَدُون﴾

قَبْلَ[1] بعثه — صلى الله عليه وسلم — على صحة نبوته[2] ، فما الذى يحملكم على غيكم حتى جحدتم ما علمتم ؟

قوله جل ذكره : ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تَلْبِسُونَ الحقَّ
بالباطل وتَكْتُمُونَ الحقَّ وأنتم
تَعلمون﴾

تكتمون الحق فى شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أنه النبى الصادق ، وهل هذا إلا حكم الخذلان وقضية الحرمان ، ثم أخبر أنَّ منهم من ينافق فى حالته ، فيريد أن يدفع عنه أذى المسلمين ، ولا يخالف إخوانه من الكافرين ، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام والمسلمين جهراً ، والخلوص فى عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سِرّاً .

قوله جل ذكره : ﴿وقالت طائفة مِنْ أهل الكتاب
آمنوا بالذى أُنزِلَ على الذين آمنوا
وَجْهَ النهار واكفروا آخِرَه لعلهم
يرجعون﴾

فبين الله سبحانه أن نفاقهم كُشِف للمسلمين ، وأن ذلك لا ينفعُهم أمَّا فى الدنيا فلإطْلاع الله نبيَّه عليه السلام والمؤمنين — عليه ، وأمَّا فى الآخرة فَلِفَقْدِ إخلاصهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تؤمنوا إلا لِمَن تبع دينكم﴾ الآية .

---

(١) فى ص (قيل) وهى خطأ فى النسخ ، ويكون المعنى أنتم — يا أهل الكتاب — تشهدون قبل بعثه على صحة نبوته ...

(٢) فى ص (نبوية) وهى خطأ فى النسخ .

يحتمل أن يكون هذا ابتداء أمر من الله سبحانه للمسلمين ، والإشارة فيه ألا تعاشروا الأضداد ، ولا تفشوا أسراركم للأجانب .

﴿ قُلْ إن الفضل بيدِ الله ﴾

فهو الذى يختص من يشاء بأنوار التعريف ، ويختص من يشاء بالخذلان والحرمان .

قوله جل ذكره : ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾

يختص من يشاء بفنون إنعامه ، فالرحمة على هذا سبب لتخصيص النعمة لمن أراده . ولابُدَّ من إضمار فيحتمل أن يختص بالرحمة من يشاء فلا تجرى الرحمة مجرى السبب فالرحمة على هذا التأويل تكون بمعنى النبوة وتكون بمعنى الولاية .

وبمعنى العصمة وجميع أقسام الخيرات التى يختصُّ — بشىء منها — عبداً من عباده ، فيدخل تحت قوله : يختص برحمته ، أى بنعمته .

فقومٌ اختصهم بنعمة الأخلاق وقوم اختصهم بنعمة الأرزاق ، وقوم اختصهم بنعمة العبادة وآخرين بنعمة الإرادة ، وآخرين بتوفيق الظواهر وآخرين بعطاء الأبشار ، وآخرين بلقاء الأسرار ، قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

ويقال لمَّا سمعوا قوله : « يختص برحمته من يشاء » ، علموا أن الوسائل ليست بهادية[1] ، وإنما الأمر بالابتداء والمشيئة .

ويقال يختص برحمته من يشاء بالفهم عنه فيما يكاشفه به من الأسرار ويلقيه إليه من فنون التعريفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ أهل الكتاب مَنْ إن تَأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّه إليك . ومنهم مَن إنْ تأمنه بدينار لا يُؤَدِّهِ إليك ﴾ ..الآية

(١) وصدق الرسول الكريم حين قال : « إنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا . إلا أن يتغمدنى الله برحمته » رواه الشيخان عن عائشة

أخبر أنهم — مع ضلالتهم وكفرهم — متفاوتون فى أخلاقهم ، فكُلُّهم خَوَنَةٌ فى أمانة الدِّين ، ولكنّ منهم من يرجع إلى سداد للعاملة ، ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك فى إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب ، إذ الكفار مُطَالَبُون بتفصيل الشرائع ، فإذا كانوا فى كفرهم أقلَّ ذنباً كانوا بالإضافة إلى الآخرين أقلَّ عذاباً ، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبَّدة .

ثم بيَّن أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا :

﴿ قالوا ليس علينا فى الأمِّيين سبيلٌ ﴾

فلا تجرى عليهم هذه الحالة ، أو تنفعهم هذه القالة ، بل الحكم لله تعالى .

قوله جلَّ ذكره :﴿ إنَّ الذين يشترون بعهد الله وأيْمَانِهم ثَمَنًا قليلا أولئك لا خَلَاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ .

الذين آثروا هواهم على عُقباهم ، وقدَّموا مناهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم فى الآخرة ، فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا فى الدارين .

بقوا عن الحق ، وما استمتعوا بحظٍّ ، جَمَعَ عليهم فنون المِحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم : لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ثم مع هذا يُخَلِّدُهم فى العقوبة الأبدية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ منهم لَفَرِيقًا يَلْوُون ألْسِنَتَهُم بالكتابِ لِتَحْسَبُوه مِنَ الكتاب ، وما هو مِنَ الكتاب ، ويقولون هو مِنْ عِند الله وما هو مِنْ عند الله ، ويقولون على اللهِ الكَذب وهم يعلمون ﴾ .

الإشارة من هذه الآية إلى المبطلين فى الدعاوى فى هذه الطريقة .

يزيِّنون العبارات ، ويطلقون ألسنتهم بما لا خَبَرَ فى قلوبهم منه ، ولا لهم بذلك تحقيق ، تلبيساً على الأغبياء والعوام وأهل البداية ؛ يوهمون أن لهم تحقيق ما يقولونه بألسنتهم . قال تعالى فى صفة هؤلاء « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » ، كذلك أرباب التلبيس والتدليس ، يُرَوِّجون قالَتهم على المستضعفين ، فأمَّا أهل الحقائق فأسرارهم عندهم مكشوفة .

قال الله تعالى « ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون » ، أى يعلمون أنهم كاذبون ، كذلك أهل الباطل والتلبيس فى هذه الطريقة يتكلمون عن قلوب خَرِبَة ، وأسرار محجوبة ، نعوذ بالله من استحقاق المقت !

قوله جل ذكره : ﴿ما كان لِبَشَرٍ أن يؤتيه الله الكتاب
والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس
كونوا عباداً لى مِن دون الله ،
ولكن كونوا ربَّانيين بما كنتم
تُعَلِّمون الكتاب وبما كنتم
تَدْرُسُون﴾ .

أى ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلْق إلى نفسه ، أو يقول بإثبات نفسه وحظِّه ، لأن اختياره — سبحانه — إياهم للنبوة يتضمن عصمتهم عمَّا لا يجوز ، فتجويز ذلك فى وصفهم مُنَافٍ لحالهم ، وإنما دعاء الرسل والأولياء — للخلْق — إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو معنى قوله تعالى : « ولكن كونوا ربانيين » أى إنما أشار بهم على الخلْق بأن يكونوا ربانيين ، والربَّانى منسوبٌ إلى الرب كما يقال فلان دقيانى ولحيانى ... وبابه .

وهم العلماء بالله الحلماء فى الله القائمون بفنائهم عن غير الله ، المستهلكة حظوظهم ، المستغرقون فى حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم ، ينطقون بالله ويسمعون بالله ، وينظرون بالله ، فهم بالله مَحْوٌ عمَّا سوى الله .

ويقال الربانى من ارتفع عنه ظلّ نفسه ، وعاش فى كنف ظلّه — سبحانه .

ويقال الربّانى الذى لا يُثْبِتُ غير ربهِ مُوَحّدًا ، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره أو منْ غيره .

ويقال الربّانى من هو مُحقٌ فى وجوده — سبحانه — ومحو عن شهوده ، فالقائم عنه غَيْرُه ، والمُجْرِى لِماَ عليه سواه .

ويقال الربّانى الذى لا تُؤَثِّرُ فيه تصاريف الأقدار على اختلافها .

ويقال الربّانى الذى لا تُغَيِّره محنة ولا تَضُرُّه نِعْمَة — فهو على حالة واحدة فى اختلاف الطوارق .

ويقال الربّانى الذى لا يتأثر بورود واردٍ عليه ، فَمَن استنطقته رقة قلبٍ ، أو اسْتَمَالَه هجومُ أمر ، أو تفاوتت عنده أخطار حادث — فليس بربانى .

ويقال إنَّ الربّانى هو الذى لا يبالى بشىء من الحوادث بقلبه وسِرِّه ، ومن كان لا يقصر فى شىء من الشرع بفعله .

« بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » مِنْ توالى إحسانى إليكم ، وتضاعف نعمتى لديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكُفْرِ بعد إذ أنتم مُسْلِمون ﴾ .

أى لا تنسبون إليهم ذرة من الإثبات فى الخير والشر .

ويقال يعرفكم حدَّ البشرية وحقَّ الربوبية .

ويقال يأمركم بتوقيرهم من حيث الأمر والشريعة ، وتحقير قدر الخلق — بالإضافة[1] إلى الربوبية . « أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » أيأمركم بإثبات الخلق بعد شهود الحق ؟

(١) وتحقير قدر الخلق (بالإضافة إلى الربوبية) معناها (بالنسبة إلى) جلال الربوبية وعظمتها .

ويقال « أيأمركم بعطالة الأشكال ،ونسبة الحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاحت فى أسراركم أنوار التوحيد ، وطلعت فى قلوبكم شموس التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أخذالله ميثاق النبيين ... ﴾ الآية

أخذ الله ميثاق محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء عليهم السلام ، كما أخذ ميثاقهم فى الإقرار بربوبيته — سبحانه ، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام ، فقد قَرَنَ اسمه باسم نفسه ، وأثبت قَدْرَه كما أثبت قدر نفسه ، فهو أوحدالكافة فى الرتبة ، ثم سَهَّلَ سبيلَ الكافة فى معرفة جلاله بما أظهر عليه من المعجزات .

﴿ فمن تولَّى بعد ذلك فأولئك
هم الفاسقون ﴾ .

الإشارة فيه : فَمَنْ حاد عن سُنَّتِه ، أو زاغ عن اتباع طريقته بعد ظهور دليله ، ووضوح معجزته فأولئك هم الذين خَبُثَتْ درجتهم ، ووجب المقت عليهم لجحدهم ، وسقوطهم عن تعلُّق العناية بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أفغير دين الله يبغون ،ا، أسلم مَن
فى السموات والأرض طَوْعاً
وكَرْهاً ... ﴾

مَنْ لاحظه علىغيرالحقيقة ، أو طالع سواه فىتوهم الأهلية[1] كرآءِ السراب ظنَّهُ ماء فلَّماأتاه وجده هباء . ومغاليط الحسبانات مُقَطِّعَةٌ مُشْكِلَةٌ فَمَنْ حَلَّ بها نَزَلَ بوادٍ قَفْرٍ .

« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها » لإجراء حكم الإلهية على وجه القهر عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ آمنا بالله وما أُنْزِل علينا ،

---

(١) الأهلية معناها الاستحقاق ، استحقاق كل تقديس ، ولا نستبعد أنها فى الأصل الألوهية لأن السياق يسير متحدثا عن البشر الذين يقولون للناس كونوا عباداً لنا ، وعن الملائكة والنبيين ووجوب عدم اتخاذهم أربابا .

وما أُنْزِل على إبراهيم وإسماعيل
وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى
موسى وعيسى والنبيون من ربِّهم
لا نُفَرِّق بين أحدٍ منهم ونحن
له مُسْلِمون ﴾

آمنا بالله لا بنفوسنا أو حَوْلنا أو قوتنا .

وآمنا بما أنزل علينا بالله ، وأنَّا لا نُفَرِّق بين أحد منهم — بالله سبحانه — لا بحولنا واختيارنا ، وجهدنا[1] واكتسابنا ، ولولا أنه عرَّفنا أنه مَنْ هو ما عرفنا وإلا فتى علِمْنا ذلك ؟ ![2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمن يبتغِ غير الإسلام ديناً فَلَن يُقْبلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

مَنْ سَلَكَ غير الخمود تحت جريان حكمه سبيلاً زَلَّتَ قَدَمُهُ فى وهدة[3] من المغاليط لا مدى لقعرها .

ويقال من توسَّل إليه بشىء دون الاعتصام به فخُسْرانه أكثر من رِبْحِهِ .

ويقال من لم يَفْنَ عن شهود الكل لم يصل إلى مَنْ به الكل .

ويقال مَنْ لم يَعِشْ تحت راية المصطفى صلى الله عليه وسلم المُعظَّم فى قَدْره ،المُمَلَّى فى وصفه، لم يُقْبَلْ منه شىء ولا ذرة .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد

---

(١) وردت (وجحدنا) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) قارن ذلك بعبارة ذى النون المصرى : عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى . (الرسالة ص ١٥٦) .
(٣) أخطأ الناسخ حين كتبها (وحدة) بالحاء .

إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقٌّ

.......، الآية ﴾

مَنْ أبعده عن استحقاق الوصلة فى سابق حكمه فمتى يقربه من بساط الخدمة بفعله فى وقته ؟

ويقال : الذى أقصاه[1] حكم (الأول)[2] متى أدناه صدق العمل ؟ والله غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك جزاؤهم أنَّ عليهم لعنةَ الله

والملائكةِ والناس أجمعين ﴾

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه فى ابتداء أمرهم ، ابتداؤهم ردُّ القسمة ، ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة ، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمذلة .

﴿خالدين فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ

ولا هُمْ يُنْظَرُون ﴾

خالدين فى تلك المذلة لا يفتر عنهم العذاب لحظة ، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة .

﴿ إلا الذين تابوا مِنْ بعد ذلك

وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم ﴾

أولئك هم الذين تداركتهم الرحمة ، ولم يكونوا فى شق السبق من تلك الجملة ، وإن كانوا فى توهم الخلق من تلك الزمرة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم

ثم ازدادوا كُفراً لن تُقْبَلَ توْبتُهم

وأولئك هم الضالون ﴾

الإشارة منه : أن الذين رجعوا إلى أحوال أهل العادة بعد سلوكهم طريق الإرادة ،

---

(١) وردت (أقضاه) ونحن نرجح أن تكون (أقصاه) بالصاد حتى تتلاءم مع (أدناه) التى جاءت بعدها — فذلك أقرب إلى طبيعة أسلوب القشيرى فى هذا السياق .

(٢) هكذا كتبها الناسخ ، ونحن نميل إلى أنها فى الأصل (الأزل) .

فالقشيرى يعتقد أن الأقسام سبقت فى الأزل وأن قيمة الإنسان مرتهنة بذلك .

وآثروا الدنيا ومطاوعة الهوى على طلب الحق سبحانه وتعالى، ثم أنكروا على أهل الطريقة، وازدادوا فى وحشة ظلماتهم — لن تُقبلَ توبتهم، «وأولئك هم الضالون» عن طريق الحق فإنه لا يقبل الأمانة بعد ظهور الخيانة. وعقوبتهم أنهم على ممر الأيام لا يزدادون إلا نفرة قلب عن الطريقة، ولا يتحسرون على مافاتهم من صفاء الحالة. ولو أنهم رجعوا عن إصرارهم لما لقُبِلت توبتهم، ولكن الحق سبحانه أجرى سنته مع أصحاب الفترة فى هذه الطريقة إذا رجعوا إلى أصول العادة ألا يتأهّبوا على ما مضى من أوقاتهم.

قال تعالى: «ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة» وإن المرتدّ عن الإسلام لأشدُّ عداوة للمسلمين من الكافر الأصلى، فكذلك الراجع عن هذه الطريقة لأشد إنكاراً لها وأكثر إعراضاً عن أهلها من الأجنبيّ عنها.

قوله جل ذكره: ﴿إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفّار فلَن يُقبلَ مِنْ أحدِهم مِلْءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين﴾.

الإشارة منه: لِمَنْ ملت بعد فترته — وإن كانت له بداية حسنة — فلا يحشر فى الآخرة مع أهل هذه القصة، ولو تشفع له ألف عارف، بل من كال للسكر به أنه يلقى شبهه فى الآخرة على غيره حتى يتوهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو — فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغى أن يشفع له.

قوله جل ذكره: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون وماتنفقوا من شىء فإن الله به عليم﴾

لمّا كان وجود البرّ مطلوبا ذكر فيه «مِنْ» التى للتبعيض فقال: «مما تحبون»، فمَنْ أراد البر فلينفق مما يحبه أى البعض، وَمَنْ أراد البارّ فلينفقْ جميع ما يحبه. ومن أنفق محبوبه من الدنيا وَجَدَ مطلوبه من الحق تعالى، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربه.

ويقال إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البارّ وأنت تؤثر عليه حظوظك. «وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم» منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء

والعِوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحزن، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه، قال قائلهم:

ويهتز للمعروف فى طلب العلى لتُذكَرَ يوماً — عند سلمى — شمائلُه

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ الطعام كان حِلاًّ لبنى إسرائيل إلا ماحرَّم إسرائيل على نَفْسِهِ مِن قبل أن تُنَزَّل التوراة، قُلْ فَأْتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فَمَنِ افترى على الله الكَذِبَ مِن بعدِ ذلك فأولئك هم الظالمون﴾

الأصل فى الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم، فما لا يوجد فيه حدٌّ فتلك من الحق — سبحانه — توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع؛ فإنَّ الله — سبحانه — وسَّع أحكام التكليف على أهل النهاية[1]، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ماهم به من أحكام القلوب، فإن الذى على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر مضيَّقٌ عليهم فى الوظائف والأوراد؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعانى، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً فى قوله: «فمن افترى على الله الكذب» إلى أحوال أهل الدعاوى والمغاليط؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله — سبحانه — هواجسها، والله برئٌ عنها. وعزيزٌ عبدٌ يفرِّق بين الخواطر والهواجس.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ صدق الله فاتَّبِعوا مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾

مِلَّةُ إبراهيم الخروج إلى الله بالكلية، والتسليم لِحُكْمِهِ من غير أن تبقى بقية؛ فإثبات ذرة فى الحسبان من الحدثان شِرْكٌ — فى التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ للذى

(١) أهل النهاية هم العوام، وأهل البداية هم الخواص.

بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وهدىً للعالَمِينَ ● فيه آياتٌ بيِّناتٌ مَقَامُ إبراهيم ومن دخله كان آمِناً ، ولله على الناسِ حِجُّ البيتِ مَن استطاع إليه سبيلا ، ومَن كفر فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين ﴾

البيت حَجَرَةٌ والعبد مَدَرَةٌ ، فَرَبَطَ المدرة بالحجرة ، فالمدر مع الحجر . وتعزّز وتَقَدَّس من لم يزل .

ويقال البيت مطاف النفوس ، والحق سبحانه مقصود القلوب !

البيت أطلال وآثار وإنما هي رسوم وأحجار ولكن :

تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ويقال البيت حجر ، ولكن ليس كل حجر كالذي يجالسه من الحجر .

حَجَرٌ ولكن لقلوب الأحباب مزعج بل لأكباد الفقراء منفج(١) ، لا بل لقلوب قوم مُثْلِجٌ مبهج ، ولقلوب الآخرين منفج مزعج .

وهم على أصناف : بيت هو مقصد الأحباب ومزارهم ، وعنده يسمع أخبارهم ويشهد آثارهم .

بيت من طالعه بعين التفرقة عاد بسرٍ خراب ، ومن لاحظه بعين الإضافة حظى بكل تقريب وإيجاب ، كما قيل :

إن الديار — وإن صَمَتَتْ — فإنَّ لها عهداً بأحبابنا إذ عندها نزلوا

بيت من زاره بنفسه وجد ألطافه ، ومن شهده بقلبه نال كشوفاته .

---

(١) نفج الأرنبَ أثاره والنافجة الريح الشديدة ، فيكون معنى منفج شديد الإثارة .

ويقال قال سبحانه : « وطهِّر بيتى » وأضافه إلى نفسه ، وقال هاهنا : « إن أول بيت وضع للناس » وفى هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع[1] .

وسميت (بكة) لازدحام الناس ، فالكلُّ يتناجزون على البدار إليه ، ويزدحمون فى الطواف حواليْهِ ، ويبذلون المهج فى الطريق ليصلوا إليه .

والبيت لم يخاطِب أحداً منذ بُنِيَ بِمُنْيَةٍ ، ولم يستقبل أحداً بحظوة ، ولاراسل أحداً بسطر فى رسالة ، فإذا كان البيت الذى خلقه من حجر — هذا وصفه فى التعزز[2] فما ظنُّك بِمَن البيتُ له . قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى » .

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات ؟ !

ويقال لا تُعلِّقْ قلبك بأول بيتٍ وضع لكَ ولكن أفْرِدْ سِرَّك لأول حبيبٍ آثرك .

ويقال شتان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له .

ويقال ازدحام الفقراء بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بِقَدَمِهم ، فالأغنياء يزورون البيت ، ويطوفون بِقَدَمِهم ، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهم .

ويقال الكعبة بيت الحق سبحانه فى الحجر ، والقلب بيت الحق سبحانه فى السِّر ، قال قائلهم :

لستُ من جملة المحبين إنْ لم أجعل القلبَ بيته والمقاما
وطوافى إجالة السِّر فيه وهو ركنى إذا أردت استلاما

فاللطائف تطوف بقلوب العارفين ، والحقائق تعتكف فى قلوب الموحِّدين ، والكعبة مقصود العبد بالحج ، والقلب مقصود الحق بإفراده إياه بالتوحيد والوجد .

---

(١) وربما كان فى الأصل (... ... الإشارة إلى عين الجمع ، « وأول بيت وضع للناس » إشارة إلى الفرق) فى الأول نسب البيت إلى نفسه ، وفى الثانى أشار إلى وضعه للناس .
وسقطت هذه العبارة الأخيرة من الناسخ .

(٢) وردت (التعذر) والسياق يتطلب (التعزز) .

قوله جل ذكره : ﴿ مباركاً وهدىً للعالمين ﴾

بركاته اتصال الألطاف والكشوفات ، فَمَنْ قصده بهمته ، ونزل عليه بقصده هداه إلى طريق رُشْدِه .

قوله جل ذكره : ﴿ فيه آيات بيِّنات ﴾

ولكن لا تُدْرَكُ تلك الآيات بأبصار الرءوس ولكن ببصائر القلوب ، ومقام إبراهيم — فى الظاهر — ما تأثر بقدَمِه ، وفى الإشارة : ما وقف الخليل عليه السلام بهمه .

ويقال إن شرف مقام إبراهيم لأنه أثَرُ الخليل ، ولأثر الخليل خطر عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن دَخَلَه كان آمِنا ﴾

يقال مَنْ دَخَلَ مقام إبراهيم كان آمناً ، ومقام إبراهيم التسليم ، ومن كان مسلماً أموره إلى الله لم يبق له اختيار ، وكان آمناً ؛ فالأمن ضده الخوف ، والخوف إنما يكون على ألا يحصل مرادك على ما تريد ، فإذا لم تكن للعبد إرادة واختيار فأىُّ مساغٍ للخوف فى وصفه ؟

ويقال إن الكناية[1] بقوله (دخله) راجعة إلى البيت ، فمن دخل بيته — على الحقيقة — كان آمناً ، وذلك بأن يكون دخوله على وصف الأدب ، ولا محالة أدب دخول البيت تسليم الأمور إلى رب البيت ، فإنَّ من لم يكن صاحب تسليم فهو معارضٌ للتقدير . وبدخول البيت إنما الأدب فيه أن يكون دخولاً على التسليمَ دون المعارضة والنزاع فيؤول إلى المعنى المتقدم .

وإن جعلتَ الإشارة من البيت إلى القلب فمن دخل قلبَهُ سلطان الحقيقة أَمِنَ مِنْ نوازعِ البشرية وهواجسِ غاغة النفس، فإنَّ من التجأ إلى ظل المَلِكِ لم يخطِ إليه محذورا .

ويقال لا يكون دخول البيت — على الحقيقة — إلا بخروجك عنك ، فإذا خرجت عنكَ صحَّ دخولُك فى البيت ، وإذا خرجتَ عنكَ أمِنْتَ .

ويقال دخول بيته لا يصحُّ مع تعريجك فى أوطانك ومعاهدك ، فإن الشخص الواحد

(١) يقصد بها ضمير الغائب فى (دخله) .

لا يكون فى حالة واحدة فى مكانين ؛ فمن دخل بيت ربِّهِ فبالحرىّ أن يخرج عن معاهد[1] نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾

شرط الغنىّ ألا يَدَّخِر عن البيت شيئاً مِنْ مالِهِ ، وشرط الفقير ألا يدخر عن الوصول إلى بيته نَفَساً من روحه .

ويقال الاستطاعة فنون ؛ فستطيع بنفسه ومَالِهِ وهو الصحيح السليم ، ومستطيع بغيره وهو الزَّمِنُ للمعصوب ، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطاياانا .

ويقال حج البيتِ فَرْضٌ على أصحاب الأموال ، وربُّ البيتِ فَرْضٌ على الفقراء فرض حتم ؛ فقد يَنْسَدُّ الطريق إلى البيت ولكن لا ينسدُّ الطريق إلى رب البيت ، ولا يُمْنَعُ الفقير عن ربِّ البيت .

ويقال الحج هو القصد إلى مَنْ تُعَظِّمه : فقاصدٌ بنفسه إلى زيارة البيت ، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت ، فشتان بين حج وحج ، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فَرضِهم ، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند[2] شهود ربهم ، فأمَّا القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعهودات من محرمات الإحرام ، وأمَّا القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن كَفَرَ فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين ﴾

ضرب رقم الكفر على من ترك حج البيت ، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء فى كدِّ التأويل ، ثم قال : « فإن الله غنى عن العالمين » وهذا زيادة تهديد تدل على زيادة تخصيص .

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج ، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن

---

(١) أى مألوفات نفسه .

(٢) وردت (عن) والصحيح (عند) .

يفسخ كلَّ عقدٍ يصدُّه عن هذا الطريق، وينقض كل عزم يرده عن هذا التحقيق، وإذا اطَّهَّرَ تَطَهَّرَ عن كل دَنَسٍ من آثار الأغيار بماء الخجل ثم بماء الحياء ثم بماء الوفاء ثم بماء الصفاء، فإذا تجرَّد عن ثيابه تجرد عن كل ملبوسٍ له من الأخلاق الذميمة، وإذا لبَّى بلسانه وجب ألا تبقى شَعْرَةٌ مِنْ بَدَنِهِ إلا وقد استجابت لله. فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسِرِّه حيث وقفه الحق بلا اختيار مقام، ولا تعرض لتخصيص، فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه، وعرف له تعالى حقَّه على نفسه، ويتعرَّف إلى الله تعالى بِتَبَرِّيه عن مُنَّتِه[1] وحَوْلِه، والحقُّ سبحانه يتعرَّف إليه بِمِنَّته وطَوْله، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه، ولا يصحُّ ذكرُه لربِّه مع ذكره لنفسه، فإذا بلغ مِنىً نفى عن قلبه كل طَلَبٍ ومُنَى، وكلَّ شهوةٍ وهوى.

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة فى الدنيا والعقبى.

وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية، وتقرَّب به إلى الحق سبحانه، فإذا دخل الحَرَمَ عَزَمَ على التباعد عن كل مُحرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة.

وإذا وقع طَرْفُهُ على البيت شهد بقلبه ربَّ البيت، فإذا طاف بالبيت أخذ سِرُّه بالجولان فى الملكوت

فإذا سعى بين الصفا والمروة صفَّى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة إنسانية.

فإذا حَلَقَ قطع كلَّ علاقة بقيت له.

وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربِّه استأنف إحراماً جديداً بقلبه، فكما خرج من بيت نفسه إلى بيت ربه يخرج من بيت ربه إلى ربه تعالى.

فمن أكمل نسكه فإنما عمل لنفسه، ومن تكاسل فإنَّ الله غنى عن العالمين وقال صلى الله عليه وسلم: « الحاج أشعث أغبر »، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس بأشعث ولا أغبر.

---

(١) ضبطناها هكذا لأن القشيرى يميز بين (المِنَّة) للحق و (المُنَّة) للعبد.

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون
بآيات اللهِ واللهُ شهيدٌ على ما تعملون ﴾

الخطاب بهذه الآية لتأكيد الحجة عليهم ، ومن حيث الحقيقة والقهر يَسُدُّ الحجة عليهم ، فهم مدعوون — شرعاً وأمراً ، مطرودون — حُكْماً وقهراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ
عن سبيل اللهِ مَنْ آمَنَ تبغُونَها
عِوَجاً وأنتم شهداء، وما اللهُ بغافلٍ
عمَّا تعملون ﴾

كيف يصد غيره مَنْ هو مصدودٌ فى نَفْسِه ؟ إنَّ فى هذا لَسِرًّا للربوبية .

قوله جل ذكره ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً
مِنَ الذين أوتوا الكتاب يردوكم
بعد إيمانكم كافرين ﴾

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها ، بل هى متعدية إلى كل من يحومّ حول أهلها ، فَمَنْ أطاع عدوَّ الله إلى شؤم صحبة (الأعداء)[1] ألقاه فى وهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم
آياتُ اللهِ وفيكم رَسُولُه ، ومَن
يعتصِم باللهِ فقَدْ هُدِى إلى صراط
مستقيم ﴾

لا ينبغى لمن أشرقت فى قلبه شموسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظِلَّه ، فإنه إذا أقبل النهارُ من ها هنا أدبر الليلُ من ها هنا .

وقوله : « ومن يعتصم . . . » الآية إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله ، فأمَّا

(١) مكتوبة (إلا) وسقطت بقية الكلمة فأكملناها (الأعداء) وربما (الأجانب) أو ما فى معناها طبقا لما نعرفه عن اتجاه القشيرى فى مواضع مماثلة .

مَنْ لم يَهْدِه الله فتى يعتصم بالله ؟ فالهدايةُ منه فى البداية توجِبُ اعتصامك فى النهاية ، لا الاعتصام منك يوجب الهداية .

وحقيقةُ الاعتصام صدق اللُّجوء إليه ، ودوامُ الفرار إليه ، واستصحاب الاستغاثة إليه . ومَنْ كشف عن سِرِّه غطاء التفرقة تحقق بأنه لا لغير الله ذرة أو منه سينة ، فهذا الإنسان يعتصم به ممن يُعْتَصَمُ به ؛ قال سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وعلى آله : « أعوذ بك منك » .

ومَنْ اعتصم بنفسه دون أن يكون محواً عن حوله وقوته فى اعتصامه — فالشِرْكُ وطنُه وليس يشعر .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تقاته ﴾ .

حقُّ التقوى أن يكون على وفق الأمر لا يزيد من قِبَلِ نَفْسِه ولا ينقص .

هذا هو المعتمد من الأقاويل فيه ، وأمره على وجهين : على وجه الحَتْم وعلى وجه النَّدْب وكذلك القول فى النهى على قسمين : تحريم وتنزيه ، فيدخل فى جملة هذا أن يكون حق تقاته أولاً اجتناب الزلة ثم اجتناب الغفلة ثم التوقى عن كل خلة ثم التنقى من كل عِلَّة ، فإذا تَقَيتَ عن شهود تقواك بعد اتصافك بتقواك فقد اتَّقَيْتَ حقَّ تقواك .

وحق التقوى رفض العصيان ونفى النسيان ، وصون العهود ، وحفظ الحدود ، وشهود الإلهية ، والانسلاخ عن أحكام البشرية ، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْمٍ وظلم ، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشىء من طاعتك دون صرف كرمه ، والتحقق بأنه لا يَقْبل أحداً بعلَّة ولا يَرُدُّ أحداً بعلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون ﴾ .

لا تُصَادِفَنَّكم الوفاة إلا وأنتم بشرط الوفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم
أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا
حفرةٍ من النار فأنقذكم منها ،
كذلك يُبَيِّن الله لكم آياته
لعلكم تهتدون ﴾ .

الاعتصامُ بحبله — سبحانه — التمسك بآثار الواسطة — العزيز صلوات الله عليه — وذلك بالتحقق والتعلُّق بالكتاب والسُّنَّة .

ويصح أن يقال : الخواص يُقال لهم « اعتصموا بحبل الله » ، وخاص الخاص قيل لهم « واعتصموا بالله » ، ولِمَنْ رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله ، أو فكرته واستدلاله ، أو معارفه وأشكاله ، والتجأ إلى ظل تدبيره ، واستضاء بنور عقله وتفكيره[1] — فمرفوع عنه ظل العناية ، وموكول إلى سوء حاله .

وقوله : « ولا تفرقوا » : التفرقة أشد العقوبات وهى قرينة الشرك .

وقوله : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء » . وكانوا أعداء حين كانوا قائمين بحظوظهم ، مُعَرَّجين على ضيق البشرية ، متزاحمين بمقتضى شُحِّ النفوس .

« فألَّفَ بَيْنَ قلوبكم » : بالخلاص من أسْرِ المكونات ، ودَفَعَ الأخطار عن أسرارهم ، فصار مقصودُهم جميعاً واحداً ، فلو ألُوفٌ ألِفَ شخص فى طلبٍ واحدٍ — فهم فى الحقيقة واحد .

« فأصبحتم بنعمته إخوانا » نعمته التى هى عصمته إياكم ، إخواناً مُتَّفِقِى القصدَ والهمة ، متفانين عن حظوظ النَّفْس وخفايا البخل والشحِّ .

« وكنتم على شفا حفرة من النار » : بكونكم تحت أسْرِ مُنَاكم ، وربط حظوظكم وهواكم .

(١) واضح أن القشيرى يرى أن الالتجاء إلى العقل والفكر كوسيلة للوصول يعد قاطعا من القواطع ، لأن للعقل آفات — ذكرها القشيرى فى مواضع مختلفة — تجعله غير جدير بأن يعتمد عليه العبد فى معرفة الحقائق العليا ، إن مهمة العقل عند هذا الباحث لا تتجاوز منطقة البداية — عند تصحيح الإيمان .

« فأنقذكم منها » : بنور الرضاء ، والخمود عند جريان القضاء ، وتلك حقاً هى المكانة العظمى والدرجة الكبرى ، ويدخل فى هذه الجملة تركُ السكون إلى ما مِنْكَ من المناقب والتُّقى ، و لعقل والحجا ، والتحصيل والنُّهى ، والفرار إلى الله — عزّ وجلّ — عن كل غَيْر وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْتَكُن منكم أمةٌ يدعون إلى
الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ
عن المنكر وأولئك هم المُفْلِحون ﴾

هذه إشارة إلى أقوامٍ قاموا بالله لله ، لا تأخذهم لومة لائم ، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة ، وقفوا جملتهم على دلالات أمره ، وقَصَرُوا أنفاسَهم واستغرقوا أعمارَهم على تحصيل رضاه ، عملوا لله ، ونصحوا الدين لله ، ودَعَوْا خلْقَ الله إلى الله ، فَرَبِحَتْ تجارتُهم ، وما خَسِرتْ صفقتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالذين تَفَرَّقوا
واختلفوا مِنْ بعد ما جاءَهمُ البيناتُ
وأولئك لَهُمْ عذابٌ عظيم ﴾

هؤلاء أقوام أظهر عليهم فى الابتداء رقومَ الطلب ، ثم وسمهم[1] فى الانتهاء بِكَيِّ الفُرقة ، فباتوا فى شق الأحباب ، وأصبحوا فى زمرة الأجانب[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ
وجوهٌ فأمّا الذين اسودَّتْ
وجوهُهُم أكفرتم بعد إيمانكم
فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون
• وأمّا الذين ابيضَّتْ وجوهُهُم
ففى رحمة الله هُمْ فيها خالدون ﴾

---

(١) الرقم نعت يجرى فى الابتداء والوسم نعت يجرى فى الأبد بما جرى فى الأزل .
(٢) تأمل الدقة فى استعمال (باتوا) وكيف تعبر عن البداية ، ثم (أصبحوا) لتعبر عن النهاية .

أرباب الدّعاوى تسودُّ وجوههم ، وأصحاب المعانى تبيض وجوههم ، وأهل الكشوفات غداً تبيضُّ بالإشراق وجوهُهُم ، وأصحاب الحجاب تسودُّ بالحجبة وجوهُهُم ، فتعلوها غَبَرة ، وترهقها قَتَرة .

ويقال من ابيض — اليومَ — قلبُه ابيضَّ — غداً — وجهُه ، ومَنْ كان بالضد فحاله العكس .

ويقال مَنْ أعرض عن الخَلْق — عند سوانحه — ابيضَّ وجهه بروْح التفويض ، ومَنْ علّق بالأغيار قلبَه عند الحوائج اسودّ محيّاه بغبار الطمع ؛ فأمّا الذين ابيضت وجوههم ففى أُنْسٍ وروْح ، وأمّا الذين اسودّت وجوههم ففى محن ونَوْح .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق
وما اللهُ يريد ظُلماً للعالَمين *
ولله ما فى السموات وما فى الأرض
وإلى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾

نُديمُ مخاطبتنا معك على دوام الأوقات فى كل قليل وكثير ، عمارة لسبيل الوداد : ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ وأنّى يجوز الظلم فى وصفه تقديراً ووجوداً — والخلْق كلُّهم خَلْقُه — والحكمُ عليهم حُكْمُه ؟

ولله ما فى السموات وما فى الأرض مِلْكاً ، وإلى الله تُرْجَعُ الأمور حُكماً .

قوله جل ذكره : ﴿ كنتم خيرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ
تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن
المنكر وتؤمنون بالله ﴾

لمّا كان المصطفى صلوات الله عليه أشرفَ الأنبياء كانت أُمّتُه — عليه السلام — خيرَ الأمم . ولمّا كانوا خيرَ الأمم كانوا أشرفَ الأمم ، ولمّا كانوا أشرف الأمم كانوا أشْوَقَ الأممِ ، فلمّا كانوا أشوق الأمم كانت أعمارُهم أقْصَرَ الأعمار ، وخَلْقهم آخِرَ الخلائق لئلا يطولَ مُكْثُهم تحت الأرض . وما حصلت خيريّتهم بكثرة صلواتهم

وعباداتهم ، ولكن بزيادة إقبالهم ، وتخصيصه إياهم . ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولكن لما خرج الإذنُ بالدخول تقدَّم المتأخرون .

وكم .باسطين إلى وَصْلِنا أكُفَّهمُ لم ينالوا نصيباً

قوله جل ذكره : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾

المعروف خدمه الحق ، والمنكر صحبة النفس .

المعروف إيثار حقَّ الحق ، والمنكر اختيار حظ النفس .

المعروف ما يُزْلِفُك إليه ، والمنكر ما يحجبك عنه .

وشرط الآمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف ، وحقُّ النَّاهى عن المنكر أن يكون منصرفاً عن المنكر .

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾

لو دَخَلَ الكافةُ تحت أمرنا لوصلوا إلى حقيقة العزِّ فى الدنيا والعقبى ، ولكن بَعُدُوا عن القبول فى سابق الاختيار فصار أكثرهم موسوماً بالشِّرْك .

قوله جل ذكره : ﴿ لن يَضُرُّوكم إلا أذىً وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصَرون ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله فرارهم ، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم ، وإن استطالوا على الأولياء بموجب حسبانهم انعكس الحال عليهم بالصغار والهوان .

قال جل ذكره : ﴿ ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ أينما ثُقِفُوا

﴿ إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس وباءوا بغضبٍ من الله * وضربت عليهم المسكنةُ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾

علَمُ الهجران لا ينكتم ، وسِمَةُ البُعْد لا تخفى ، ودليل القطيعة لا يستتر ؛ فهم فى صغار الطرد ، وذُلّ الرد ، يعتبر بهم أولو الأبصار ، ويفترْ بهم أضرابُهم من الكفار الفُجّار .

قوله جل ذكره : ﴿ ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾

كما غايَرَ بين النور والظلام مغايرة تضاد فكذلك أثبت منافاة بين أحوال الأولياء وأحوال الأعداء ، ومتى يستوى الضياء والظلمة ، واليقين والتُّهمة ، والوصلة والفرقة ، والبعاد والألفة ، والمعتكف على البساط والمنصرف عن الباب ، والمتصف بالولاء والمنحرف عن الوفاء ؟ هيهات يلتقيان ! فكيف يتفقان أو يستويان ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين ﴾

لن يخيبَ عن بابه قاصد ، ولم يخسرْ عليه (تاجر)[1] ، ولم يستوحشْ معه مصاحب ، ولم يَذِلّ له طالب .

---

(١) هكذا فى ص ، وربما استوحاها القشيرى من الآية (اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) فيكون المعنى — والله أعلم — من آثر الله على كل شىء فقد ربحت تجارته وما خسر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا لَن تُغنِيَ عنهم
أموالُهم ولا أولادُهم من اللهِ شيئاً ،
وأولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون ﴾

لا فى الحال لهم بدل ولا فى المآل عنهم خلف . فى عاجلهم خَسِروا ، وفى آجلهم فى قطعٍ وهجرٍ ، وبلاءٍ وخُسْرٍ ، وعذابٍ ونُكْرٍ :

تبدَّلتْ وتبدلنا واحسرةً لمن ابتغى عِوَضاً لسلمى فلم يَجِدَ

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا
كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ
حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم فأهْلَكَتْهُ
وما ظَلَمَهم اللهُ ولكنْ أنفسهم
يظلمون ﴾

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حسراتٍ متتابعة ، وما حصلوا من حسباناتهم إلا على محن مترادفة ، وذلك جزاء من أعرض وتولّى

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة
من دونكم لا يألونكم خبالاً ،
ودُّوا ما عَنِتُّم ، قد بَدَت البغضاء
من أفواههم ، وما تُخْفِى صدورُهم
أكبرُ ، قَدْ بيَّنَّا لكم الآياتِ إن
كنتم تعقلون ﴾

الركون إلى الضد — بعد تبين الشاق — إعانة على الحال بما لا يبلغه كيد العدو ، فأشار الحقُّ — سبحانه — على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض ، وإظهار البراءة عن كل غير ، ودوام الخلوص للحق — سبحانه — بالقلب والسر . وأخبر أن مضادات القوم للرسول

صلى الله عليه وسلم أصلية غير طارئة عليهم ، وكيف لا ؟ وهو صلوات الله عليه محلُّ الإقبال وهم محل الإعراض . ومتى يجتمع الليلُ والنهار ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كلِّه ، وإذا لقُوكُم قالوا : آمنا ، وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظ ﴾

أنتم بقضية كرمكم تصفو — عن الكدورات — قلوبُكم ؛ فتغلبكم الشفقة عليهم ، وهم — لتوهُّم وخُلْفهم — يكيدون لكم ما استطاعوا ، ولفرط وحشتهم لا تترشح منهم إلا قطرات غيظهم . فَفَرِّغْ — يا محمد — قلبك منهم .

﴿ قل موتوا بغيظكم إنَّ الله عليم بذات الصدور ﴾

دَعْهُمْ يتفردوا بمقاساة ما داخلهم من الغيظ ، واستريحوا بقلوبكم عمَّا يَحِلُّ بهم ، فإنَّ الله أَوْلى بعباده ، يوصل إلى مَنْ يشاء ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وإن تُصِبْكُمْ سيئةٌ يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يَضُرُّكم كيدُهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى المنصرفين عن طريق الإرادة ، الراجعين إلى أحوال أهل العادة ، لا يعجبهم[1] أن يكون لمريد نفاذ ، وإذا رأوا فترةً لقاصد استراحوا إلى ذلك . وإنَّ الله — بفضله ومنّته — يُتِمُّ نورَه على أهل عنايته ، ويَذَرُ الظالمين الزائغين[2] عن سبيله في عقوبة بعادهم ، لا يبالى بما يستقبلهم .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لا يعجبكم) والسياق والمعنى يرفضانها .
(٢) وردت (الذائقين) بالقاف وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ غَدَوْتَ مِنْ أهْلِكَ تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعِدَ للقتــالِ ، والله سميعٌ عليم ﴾

أقامَهَ — صلى الله عليه وسلم — بتبوئه الأماكن للقتال ، فانتُدِب لذلك بأمره ثم أظهر فى ذلك الباب مكنونات سِرِّه ، فالمدار على قضائه وقَدَرِه ، والاعتبار بإجرائه واختياره .

قوله جلّت قدرته : ﴿ إذْ هَمَّت طائفتان منكم أن تَفْشَلا والله وليُّهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

يُبْرِزُ الجميعَ فى صدار الاختيار ؛ كأنَّ الأمر إليهم فى نفيهم وإثباتهم ، وفعلهم وتركهم ، وفى الحقيقة لا يتقلبون إلا بتصريف القبضة ، وتقليب القدرة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد نَصَرَكم اللهُ ببَدْرٍ وأنتم أذِلَّةٌ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ .

تذكير ماسَلَفَ من الإنْعَام فتحٌ لباب التملق فى اقتضاء أمثاله فى المُسْتأنَف[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تقولُ للمؤمنين ألَن يَكْفِيَكُمْ أن يُمِدَّكُمْ رَبُّكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكةِ مُنزَلِينَ * بَلَى ، إن تصبروا وتتقوا وَيأتوكم من فورِهم هذا يُمْدِدْكم ربُّكم بخمسة آلافٍ مِنَ الملائكة مُسَوِّمين ﴾

كان تسكينُ الحقِّ سبحانه لقلبِ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بلا واسطة من الله

---

(١) خلاصة معنى هذه العبارة التى قدتبدوغامضة — أن التعبير القرآنى فى ظاهره نسبة الأفعال للانسان — وهذا من وجهة نظر الصوفى تعبير بالفرق ، والحقيقة أن كل شىء مرجعه إلى الله حيث يكون التعبير عنه بالجمع ، وقد تقدم معنى الجمع والفرق فى هامش آخر .

(٢) المستأنف = المستقبل .

— سبحانه ، والربط على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم — فلولا بقية بقيت عليهم ملودّهم فى حديث النصرة إلى إنزال المَلَك ، وأنَّى بحديث المَلَك — والأمرُ كله بيدِ المَلِك ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا جعله اللهُ إلا بُشرى لكم ، ولتطمئنَّ قلوبُكم به ، وما النصرُ إلا مِنْ عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

أجرى الله — سبحانه — سُنَّتَه مع أوليائه أنه إذا ضعفت نيّاتُهم ، أو تناقصت[1] إرادتهم أو أشرفت[2] قلوبهم على بعض فترة — أراهم من الألطاف ، وفنون الكرامات ما يُقَوِّى به أسبابَ عِرفانهم ، وتتأكد به حقائق يقينهم .

فعلى هذه السُّنَّة أنزل هذا الخطاب . ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال: « وما النصر إلا من عند الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الذين كفروا أَوْ يَكْبِتَهُم فينقلبوا خائبين ﴾ .

إنَّ اللهَ لا يُشْمِتُ بأوليائه عدواً ؛ فالمؤمن وإن أصابته نكبة، فعدوُّه لا محالة يَكْبِهُ[3] الله فى الفتنة والعقوبة .

قوله جل ذكره :﴿ ليس لكَ مِنَ الأمرِ شىء ، أو يتوبَ عليهم ، أو يُعذِّبَهم ، فإنهم ظالمون
وَلِلهِ ما فى السموات وما فى الأرض ،
يغفرُ لِمَن يشاء ويُعذِّب من يشاء
والله غفور رحيم ﴾ .

---

(١) وردت (تناقضت) ولا يمنع أن تكون بالصاد حتى ينسجم النقص مع الضعف .

(٢) وردت بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

(٣) هكذا فى (ص) وهى صحيحة ولكننا لا نستبعد أن تكون فى الأصل (يكبته) حيث جاء هذا الفعل فى الآية الكريمة التى نحن بصددها .

الإله من له الأمر والنهي ، فلمّا لم يكن له في الإلهية نظير لم يكن له — (صلى الله عليه وسلم)[1] — من الأمر والنهي شيء .

ويقال جرّده — بما عرّفه وخاطبه — عن كلِّ غيرٍ ونصيب ودعوى ، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شيء ، فإذا لم يَجُزْ أن يكون لسيِّد الأولين والآخرين شيء من الأمر فَمَنْ نزلت رتبتُه عن منزلته فمتى يكون له شيء من الأمر ؟

ويقال استأثر (بِسَتْرِ عباده في حكمه[2]) فقال أنا الذي أتوب على من أشاء من عبادي وأعذِّب من أشاء ، والعواقب عليك مستورة ، وإنك — يا محمد — لا تدري سري فيهم .

ويقال أقامه في وقتٍ مقاماً فقال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه ، وقال له في وقتٍ آخر : « ليس لك من الأمر شيء » ثم زاد في البيان فقال : « ولله ما في السموات وما في الأرض » . فإذا كان المُلْك ملكه ، والأمر أمره ، والحكم حكمه — فَمَنْ شاء عذَّبه ، ومن شاء قرَّبه ، ومن شاء هداه ، ومن شاء أغواه .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا
أضعافاً مُضاعَفَةً واتقوا الله لعلَّكم
تُفْلِحون * واتقوا النارَ التي أُعِدَّت
للكافرين ﴾ .

حرَّم الربا على العِباد ومنه إقراض الواحد باثنين تستردها ، وسأل منك القرض الواحد بسبعمائة إلى ما لا نهاية له ، والإشارة فيه أن الكرم لا يليق بالخَلْق وإنما هو صفة الحق سبحانه .

« واتقوا النار التي أُعِدَّتْ للكافرين » : دليل الخطاب أنَّ المؤمن لا يُعذَّبُ بها ، وإنْ عُذِّب بها مُدَّةً فلا يُخَلَّدُ فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلَّكم تُرْحَمون ﴾

---

(١) أضفناها لتوضيح المعنى .

(٢) ربما كانت في الأصل هكذا (بسر حكمه في عباده) لأنه بعد قليل يقول (لا تدري سري فيهم) أي أن المستأثر به هو السر ، وكذلك كلمة (ستر عباده) مرفوضة فالأولى أنه يستر الحكم ، أو العواقب كما جاء بعد قليل .

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تشريفاً لِقَدْرِه ، وتخفيفاً على الأمة حيث ردّهم إلى صحبة شخص من أنفسهم ، فإنّ الجنسَ إلى الجنسِ أسكنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وسارِعوا إلى مَغفِرةٍ من ربِّكم
وجَنّةٍ عَرْضُها السمٰوٰتُ والأرضُ
أُعِدَّت للمتقين * الذين ينفقون
في السَّراءِ والضَّراءِ والكاظمين
الغيظ والعافين عن الناسِ والله
يحب المحسنين ﴾

معناه سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم المغفرة ، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » وإنما توجب المغفرة التوبةُ لأن العاصي هو الذي يحتاج إلى الغفران .

والناس في المسارعة على أقسام : فالعابدون يسارعون بقَدَمِهم في الطاعات ، والعارفون يسارعون بهممهم في القربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرُّع الحسرات . فَمَنْ سارع بقَدَمِه وجد مثوبته ، ومن سارع بهمه وجد قربته ، ومن سارع بندمه وجد رحمته .

ولمّا ذكر الجنة وصفها بسعة العرض ، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول في مقابلة العَرْض ، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض ، فقومٌ قالوا : المغفرة من صفات الذات وهي بمعنى الرحمة وعلى هذا فمغفرته حُكْمُه بالتجاوز عن العبد وهو كلامه ، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض .

ومن قال : مغفرته من صفات فِعْلِه قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية ، إشارةً إلى استغراقه جميع الذنوب .

قوله جل ذكره . ﴿ الذين ينفقون في السَّراء والضَّراء ﴾

لا يدَّخِرون عن الله شيئاً ، ويؤثِرونه على جميع الأشياء ، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد ، وأموالهم في إفشاء الخيرات وابتغاء القربات بوجوه الصدقات ،

وقلوبهم فى الطلب ثم دوام المراعاة ، وأرواحهم على صفاء المحبَّات والوفاء على عموم الحالات ، وينفقون أسرارهم على المشاهدات فى جميع الأوقات[1] ، ينتظرون إشارات المطالبات ، متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات[2]

قوله : « والكاظمين الغيظ » : يتجاوزون عن الْخلْق للاحظاتهم إياهم بعين النسبة ، وأقوام يحْلُمون على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جُرْمهم فيشهدونهم بعين التسلط ، وآخرون يكظمون الغيظ تحققاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهون عليهم التحمل ، وآخرون فنوا عن أحكام البشرية فوجدوا صافىَ الدرجات فى الذُّلِّ لأن نفوسهم ساقطة فانية ، وآخرون لم يشهدوا ذرة من الأغيار فى الإنشاء والإجراء ، فعلموا أنَّ المنشىْ الله ، فزالت خصوماتهم ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمَّا أفردوه بالإبداع انقادوا لحكمه ، فلم يروا معه وجهاً غير التسليم لحكمه ، فأكرمهم الحق سبحانه بِبَرْدِ الرضاء ، فقاموا له بشرط الموافقة .

قوله « والعافين عن الناس » فرضاً[3] رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس ، قال قائلهم :

رُبَّ رامٍ لى بأحجار الأذى لم أجدْ بُدّاً من العطف عليه

« والله يحب المحسنين » والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. هذا فى معاملة الحق ، وأما فى معاملة الخلق فالإحسان أن تدَعَ جميع حقِّك بالكلية كم كان على من كان ، وتقبل (. . . .)[4] منه ولا تقلده فى ذلك مِنّة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا
أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا
لذنوبهم ، ومَن يغفر الذنوب إلا الله ،

---

(١) سقطت الواو فأثبتناها .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (المطالبات) أيضاً ، ونظراً لأن المطالعة مرتبطة بالكشف والكشف مرحلة متأخرة . فقد تركنا الأولى (المطالبات) وصوبنا الثانية (المطالعات) .

(٣) وردت (قرضاً) والصواب بالفاء هكذا يرشدنا السياق ، والشاهد الشعرى بعده .

(٤) مشتبهة .

ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون *
أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم
وجنات تجرى من تحتها الأنهار
خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « قُلْ لِلظَّلَمَةِ حتى لا يذكرونى فإنى أوجبتُ أن أَذْكُرَ مَنْ ذكرنى ، وذِكْرِى للظَّلَمَةِ باللعنة » . وقال لظَلَمَةِ هذه الأمة :

« أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » ثم قال فى آخر الآية : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

ويقال فاحشةُ كلِّ أحد على حسب حاله ومقامه ، وكذلك ظلمهم . وإن خطور المخالفات ببال الأكابر كفِعْلها من الأغيار ، قال قائلهم :

أنت عينى وليس من حق عينى غضُّ أجفانها على الأقذاء[1]

فليس الجُرْم على البساط كالذَّنب على الباب .

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم ، أو ظلموا أنفسهم بملاحظة أحوالهم ، فاستغفروا لذنوبهم بالتبرى عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به ، فخلصهم من ظلمات نفوسهم . وإن رؤيةَ الأحوال والأفعال لَظُلُمَاتٌ عند ظهور الحقائق ، ومَنْ طَهَّره الله بنور العناية صانه عن التورط فى المغاليط البشرية[2] .

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » يردُّهم إلى شهود الربوبية ، وما سبق لهم من الحسنى فى سابق القسمة .

« وجنات تجرى من تحتها الأنهار » مؤجلاً من الفراديس ، ومُعَجَّلاً فى روْح المباحات وتمام الأُنْس .

قوله جل ذكره : ﴿ قد خَلَتْ مِن قبلِكم سُنَنٌ فسيروا

---

(١) البيت لابن الرومى يعاتب صديقه أبا القاسم التوزى الشطرنجى .

(٢) القشيرى فى هذه الفقرة متأثر بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين يعلنون حرباً لا هوادة فيها على كل دعوى للنفس حتى ليحاولون ستر حياتهم الباطنية بفعل ما يوجب ملامة الناس ، وكل ذلك فى سبيل كسر النفس وعدم استشعار العبد لأى فضل منه :

فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين* هذا بيان للناس وهدىً
وموعظة للمتقين ﴾

يعنى اعتبروا بمن سلف ، وانظروا كيف فعلنا بمن وَالَى وكيف انتقمنا ممن عَادَى ، وقوله تعالى « هذا بيان للناس » : بيان لقومٍ من حيث أدلة العقول ، ولآخرين من حيث مكاشفات القلوب ، ولآخرين من حيث تجلى الحق فى الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَوْن
إنْ كنتم مؤمنين ﴾

يعنى إذا قلتم بالله (ووصلتم[1]) بالله فلا ينبغى أن تخافوا من غير الله ، ولا تَهِنوا ولا تضعفوا فإن النصرة من عند الله ، والغالب الله ، وما سوى الله فليس منهم ذرة ولا منهم سينة .

قوله : « إن كنتم مؤمنين » أى ينبغى للمؤمن ألا تظله مهابةٌ من غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القومَ
قَرْحٌ مِثْلُه ، وتلك الأيام نداولها بين
الناسِ وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا
ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب
الظالمين ﴾

إنْ نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم ، ومُنوا بمثل ما به مُنيتم ، فمن صبر منهم ظفر ، ومَنْ ضجر مِنْ حَمْلِ ما لقى خَسِر ، والأيام نُوَبٌ والحالات دُوَلٌ ، ولا يخفى على الحق شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وليمحِّصَ الله الذين آمنوا ويمحقَ
الكافرين ﴾ .

---

(١) لا نستبعد أنها (وَصُلْتُمْ) من صال يصول ، ويدعم ذلك حرف الجر بعده ، وكذلك السياق .

اختبارات الغيب سبك[1] للعبد فباختلاف الأطوار يخلصه من الشائب فيصير كالذهب الخالص لا خَبَثَ فيه ، كذلك يصفو عن الملل فيتخلص لله .

« ويمحق الكافرين » فى أودية التفرقة . (وأما الزبد فيذهب جفاء)[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أن تدخلوا الجنةَ ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾

من ظنَّ أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه فى مهواة الهلاك ، وإنَّ من عرف قَدْر مطلوبه سَهُلَ عليه بَذْلُ مجهوده : (.....) وهو بلذاته على من يظن بخلع العذار)[3] وقال قائلهم :

إذا شام الفتى برق المعالى فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرُّقاد

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كنتم تَمَنَّوْنَ الموتَ مِن قبلِ أن تَلْقَوْهُ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾

طوارق التمنى بعد الصبر على احتمال المشاق ولكن :

إذا انسكبت دموعٌ فى خُدُودٍ تبيَّن من بكى[4] ممن تباكى

قوله جل ذكره : ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مات أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم وَمَن ينقلِب

---

(١) وردت (شبك) ونرجح أنها (سبك) فالسياق يدعم ذلك .
(٢) نرجح أن هذه الآية موضوعة هنا خطأ وأن مكانها عقب (لا خبث فيه) ليتماسك المعنى .
(٣) هكذا فى (ص) والصحيح أنه :

وما جاد دهر بلذاته على من يضنّ بخلع العذار

وهو لأبى نواس فى ملاحاة له مع مسلم بن الوليد .
(٤) جاءت فى الشطر (تبين من بق) وهى خطأ فى النسخ .

على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئا
وسيجزى اللهُ الشاكرين ﴾

إن الرسل موقوفون حيثما وُقِفُوا ، ومخبرون عمّا عُرِّفوا بمقدار ما عَرَفُوا ؛ فإذا أُيِّدُوا بأنوار البصائر أُطلعوا على مكنونات السرائر بلطائف التلويح بمقدار ما أُعطُوا من الإشراق بوظائف البلوغ .

« أفإنْ مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم » لما تُوُفِّى المصطفى — صلى الله عليه وسلم — سقمت البصائر إلا بصيرة الصديق رضى الله عنه فأمَدَّه اللهُ بقوة السكينة ، وأفرغ عليه قوة التولى فقال . « من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات » فصار الكُلُّ مقهورين تحت سلطان قالته لِمّا انبسط عليهم من نور حالته ، كالشمس بطلوعها تندرج فى شعاعها أنوارُ الكواكب فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم .

وإنما قال : « أفإن مات أو قتل » لأنه صلى الله عليه وسلم مات . وقيل أيضاً لأنه قال : « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لِنفسٍ أن تموتَ
إلا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً وَمَن يُرِدْ
ثواب الدنيا نؤتِهِ منها وَمَن يُرِد
ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى[2]
الشاكرين ﴾ .

الأنفاس محصورة ؛ لا زيادة فيها ، ولا نقصان منها .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » : للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة .

« ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » : وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجنان ثم الرضوان .

---

(١) وفى البخارى بلفظ « ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم » قال المقريزى : « وهذا قاله فى مرض موته » .
(٢) أخطأ الناسخ إذ أضاف (وسيجزى الله) وقد التبس عليها ختام الآية السابقة .

« وسيجزي الله الشاكرين » : وجزاء الشكر الشكرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكأين من نبيٍ قاتَل معه رِبِّيُّون كثيرٌ فما وَهَنُوا لِمَا أصابهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانوا واللهُ يحبُّ الصابرين ﴾ .

إنَّ الذين درجوا على الوفاء ، وقاموا بحق الصفاء ، ولم يرجعوا عن الطريق ، وطالبوا نفوسهم بالتحقيق ، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق — وجدوا محبةَ الحقِّ سبحانه ميراثَ صبرِهم ، وكان الخَلَفَ عنهم الحقُّ عند نهاية أمرهم ، فما[1] زاغوا عن شرط الجهد ، ولا زاغوا في حفظ العهد ، وسلَّموا تسليما ، وخرجوا عن الدنيا وكان كلٌّ منهم للعهد مقيماً مستديماً ، وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيماً .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان قولَهُمْ إلاَّ أن قالوا ربَّنا اغْفِرْ لنا ذنوبَنا وإسْرَافَنا في أمرنا ، وثَبِّتْ أقدامنا وانصُرْنا على القومِ الكافرين ﴾ .

تحققوا بحقائق المعنى فَخَرِسُوا[2] عن إظهار الدعوى ، ثم نطقوا بلسان الاستغفار ، ووقفوا في موقف الاستحياء ، كما قيل :

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافها فكأنَّما حسناتُه آثامُ

قوله جل ذكره : ﴿ فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا ﴾

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الأُنس في الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح بلقائه ، ثم استقلال السرِّ بوجوده .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ نقلها (فما زاغوا) وهذا يخالف المعنى المراد ، والصحيح (فما)
(٢) وردت بالحاء والصواب أن تكون بالخاء ، فالمعنى يتطلب ذلك ويقوى به .

﴿ وحُسْنَ ثوابِ الآخرة ، واللهُ يحبُّ
المحسنين ﴾ .

يعنى دخولهم الجنة وهم محررون عنها ، غير داخلين فى أسْرِها .

ويقال ثوابُ الدنيا والآخرة الغيبةُ عن الدارين برؤية خالقهما[1] .

ولمّا قال « ثواب الدنيا » قال فى الآخرة « وحسن ثواب الآخرة » فوجب أن يكون لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصَّه بوصف الحُسْن ، وتلك المزية دوامها وتمامها وثمارها ، وأنها لا يشوبها ما ينافيها ، ويوقع آفةً فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تُطيعوا الذين
كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا
خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير
الناصرين ﴾ .

يعنى إنْ طاوعتم الأضداد جرّوكم إلى أحوالهم[2] ، فألقوكم فى ظلماتهم ، بل الله مولاكم : ناصركم ومعينكم وسيدكم ومصلح أموركم ، « وهو خير الناصرين » : لأنه يعينكم على أنفسكم ليكفيَكم شرَّها ، ومَنْ سواه يزيد فى بلائكم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم .

« وهو خير الناصرين » لأن مَنْ سواه يمن عليك بنصرته إياك ، وهو يجازيك على استنصارك به .

ويقال كل من استنصرتَ به احتجتَ إلى أنْ تُعْطِيَه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك ، فإذا استنصرتَه — سبحانه — يعطيكَ كلَّ لطيفة ، ولا يرضى بألا ينصرك .

قوله جل ذكره : ﴿ سَنُلْقِى فى قلوبِ الذين كفروا

---

(١) الغيبة فى المصطلح الصوفى من مقوماتها ألا يحس العبد بوارد من تذكر ثواب أو تفكر فى عقاب ، وعلى حسب الغيبة عن الخلق يكون (حضور) العبد بالحق .

(٢) وردت (أحوالكم)وهنا خطأ فى النسخ .

الرعبَ بما أشركوا بالله ما لم يُنَزِّلْ
به سلطانا ومأواهم النار وبئس
مثوى الظالمين ﴾

إنّ الله سبحانه خصّ نبيّنا — صلى الله عليه وسلم — بإلقاء الرعب منه فى قلوب أعدائه ، قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بالرعب » . فكذلك أجرى هذه السُّنَّة مع أوليائه ؛ يطرح الهيبة منهم فى القلوب ، فلا يكاد يكون محق إلا ومنه — على المبطلين وأصحاب الدعوى والتمويه — هيبةٌ فى القلوب وقهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ إذْ
تَحُسُّونَهُم بإذنِهِ حتى إذا فَشِلْتُمُ
وتنازعتُم فى الأمرِ وعَصَيْتُم مِنْ بعدِ
ما أراكُم ما تُحِبُّون ﴾

(إنه سبحانه يجازيك على استنصارك به ، ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك ، فاذا استنصرته — سبحانه — يعطيك كل لطيفة ، ولا يرضى بألا ينصرك) . (١)

الإشارة من هذه الآية إلى أن الحق سبحانه أقام أولياءه بحق حقه ، وأقعدهم عن تحصيل حظوظهم ، وقام سبحانه بكفايتهم بكل وجه ، فمن لازم طريق الاستقامة ، ولم يزغ عن حده ولم يزُغْ فى عهده ، فإنه سبحانه يصدق وعده له بجميل الكفاية ودوامها ، ومن ضلّ عن الاستقامة — ولو خطوة — عثر فى مشيته ، واضطربت عليه — بمقدار جُرْمه — حاله وكفايته ، فمن زَادَ زِيدَ له ، ومن نَقَصَ نُقِصَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ منكم مَّن يريد الدنيا ومنكم مَّن

---

(١) ما بين القوسين سبق وروده عند تفسير « وهو خير الناصرين » فى ختام الآية قبل السابقة ؛ ولا ندرى هل أعادها القشيرى هنا لتفسير « ولقد صدقكم الله وعده » أم أن الناسخ قد وقع فى التكرار سهواً أثناء الكتابة ؟

يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم
ليبتليكم ولقد عفا عنكم ، والله
ذو فضل على المؤمنين ﴾

قيمة كل أحدٍ إرادته ؛ فمَنْ كانت همتُه الدنيا فقيمتُه خسيسة حقيرة كالدنيا ، ومن كانت همتُه الآخرة فشريفٌ خطره ، ومن كانت همهُ ربانية فهو سيد وقته .

ويقال مَنْ صفا عن إرادته وصل إليه ، ومن وصل إليه أقبل — بلطفه — عليه ، وأنزله بمحل الخصوصية لديه .

قوله : « ثم صرفكم عنهم » : الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغلهم بغيره عنه ، وآخرون صرفهم عن كل غير فأفردهم له ؛ فالزاهدون صرفهم عن الدنيا ، والعابدون صرفهم عن اتباع الهوى ، والمريدون صرفهم عن المنى ، والموحِّدون صرفهم عما هو غيرٌ وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ تُصعِدون ولا تلوُون على أحَدٍ
والرسولُ يدعوكم فى أخراكم فأثابكم
غمًا بغمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم
ولا ما أصابكم والله خبيرٌ بما تعملون
* ثُمَّ أنزل عليكم مِنْ بَعْدِ الغَمِّ
أَمَنةً نعاساً يغشى طائفةً منكم ،
وطائفةٌ قد أهمَّتْهُم أنفُسُهم يظنون
بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية يقولون
هل لنا مِنَ الأمرِ من شىء ، قُلْ إنَّ
الأمرَ كلَّه لله ؛ يخفون فى أنفُسِهِم
مالا يُبْدُون لكَ يقولون لو كان لنا
من الأمرِ شىء ما قُتِلنا هاهنا ، قُل

لو كنتم في بيوتكم لبَرَزَ الذين
كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم
وليبتلِيَ اللهُ ما في صدوركم ،
وليُمَحِّصَ ما في قلوبكم ، والله عليم
بذات الصدور ﴾ .

قوله : « إذ تصعدون » الإشارة من هذه الآية لأقوام تقع لهم فترة ، ودواعي الحق سبحانه — من أنفسهم ، ومن جميع الأقطار حتى كأنَّ الأحجارَ من الشوارع والَّلبِنَ من الجدران — تناديه : لا تفعلْ يا عبدَ الله ! وهو مُصِرٌّ في ليِّه ، مقيمٌ على غيِّه ، جاحد لِمَا يعلم أنه هو الأحقُّ والأَوْلى من حاله ، فإذا قضى وطرَه واستوفى بهمته ، فلا محالة يمسك من إرسال عنانه ، ويقف عن ركضه في ميدانه ، فلا يحصل إلا على أنفاسٍ متصاعدة ، وحسراتٍ متواترة ، فأورثه الحقُّ — سبحانه — وحشةً على وحشة . حتى إذا طال في التحسُّر مقامه تداركه الحق — سبحانه — بجميل لطفه ، وأقبل عليه بحسن عطفه ، وأنقذه من ضيق أسره ، ونقله إلى سعة عفوه وفضله ، وكثيرٌ مِنْ هؤلاء يصلون إلى محل الأكابر ثم يقفون بالله لله (. . . . . .)[1] ويقومون بالله لله بلا انتظار تقريب ولا ملاحظة ترحيب .

قال تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنة نعاساً يغشى طائفةً منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » : فأهل التحقيق والتوحيد يصلون بعد فتراتهم[2] إلى القول بتَرْكِ أنفسهم ، وغَسلِ أيديهم منهم ، ورفْعِ قلوبهم عنهم فيعيشون بالله لله ، بلا ملاحظة طمع وطلبة ، بل على عقيدة اليأس عن كل شيء . عليه أكَّدُوا العهد ، وبدَّلُوا اللحظ[3] ، وتركوا كل نصيب وحظ ، وهذه صفة مَنْ أنْزل عليه الأمَنةَ .

فأمَّا الطائفة التي أهمتهم أنفسهم — فبقوا في وحشة نفوسهم ، ومِنْ عاجل عقوبتهم سوء

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (فطراتهم) بالطاء والأصوب أن تكون بالتاء لأن الفترة وقت مقاساة ومعاناة فهي تتلاءم مع (ويجرع حسراتهم) .

(٣) الحظ هنا معناها الملاحظة ، ملاحظة النفس أو ملاحظة العوض .

عقيدتهم فى الطريقة بعد إيمانهم بها ؛ قال تعالى : « ونقلّبُ أفئدتهم وأبصارهم كالم يؤمنوا به أول مرة » .

والإشارة فى قوله تعالى : « هل لنا من الأمر من شيء » لهؤلاء أنهم يتحيّرون فى أمرهم فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة ، ولا إعراض بالكلية ، يحيلون فترتهم على سوء اختيارهم ، ويضيفون صفوة ـ لو كانت لقلوبهم ـ إلى اجتهادهم ، وينسَوْن ربَّهم فى الحالين ، فلا يبصرون تقدير الحق سبحانه . قال تعالى :

« قُلْ إنَّ الأمر كلَّه لله » : فَمَنْ عَرَفَ أن المنشىء الله انسلخ عن اختياره وأحواله كانسلاخ الشَّعْرِ عن العجين ، وسَلَّمَ أموره إلى الله بالكلية . وأمارة مَنْ تحقق بذلك أن يستريح من كدِّ تدبيره ، ويعيش فى سعة شهود تقديره .

وقوله : « يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك » : لم يُخْلِصُوا فى عقائدهم ، وأضمروا خلاف ما أظهروا ، وأعلنوا غير ما ستروا ، وأحالوا الكائنات على أسبابٍ توهموها .

قال تعالى : «قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم » :
أخبر أن التقدير لا يزُاحَم[1] ، والقَدَر لا يُكَابَر ، وأن الكائناتِ محتومة ، وأن الله غالب على أمره .

وقوله : « وليبتلى الله ما فى صدوركم » : فأمّا أهل الحقائق فإنه تعالى ينتزع من قلوبهم كل آفةٍ وحجبة ، ويستخلص أسرارهم بالإقبال والزلفة ، فتصبح قلوبهم خالصةً من الشوائب ، صافيةً عن العلائق ، منفردةً للحق ، مجرَّدَةً عن الخلق ، مُحَرَّرة عن الحظ والنَّفْس ، ظاهرةً عليها آثارُ الإقبال ، غالباً عليها حُسْنُ التوَلِّى ، باديةً فيها أنوارُ التجلى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين تَوَلَّوْا منكم يوم التقى
الجَمْعَانِ إنَّما استزلهم الشيطانُ
ببعض ما كَسَبُوا ولقد عفا الله
عنهم إنَّ الله غفور حليم ﴾

(١) وردت بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

الإشارة من هذه الآية إلى أحوال من سَقِمَتْ إرادتُهم ، وضَعُفَتْ نيّاتُهم ، وقادهم الهوى ، وملكتْهُم الفترة .

فأبلَهم نصحُ الناصحين ، ودعوة المنى ، ووساوس الشياطين فركنوا إلى الغيبة ، وآثروا الهوى على التُّقَى فبقوا عنه ، ولم يتهنَّوا بما آثروه عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا
فى الأرض أو كانوا غُزًّى ، لو كانوا
عندنا ما ماتوا وما قُتِلوا ليجعلَ الله
ذلك حسرة فى قلوبهم والله يُحيي
ويُميت ، والله بما تعملون بصير ﴾

مَنْ تعوَّد أن يتلهف على ماضيه وسالفه ، أو يتدبر فى مستقبله وآنفه ، فأقلُّ عقوبة له ضيق قلبه فى تفرقة الهموم ، وامتحاه نعت الحياة[1] عن قلبه لغفلته وقالته ليت كذا ولعلَّ كذا ، وثمرةُ الفكرة فى ليت ولعلَّ — الوحشةُ والحسرةُ وضيق القلبِ والتفرقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ولَئِن قُتِلْتُمْ فى سبيل الله أو مُتُّم
لَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله ورحمةٌ خيرٌ
مما يجمعون * ولَئِن مُتُّم أو قُتِلْتُم
لإلى اللهِ تُحْشَرُون ﴾

بذل الروح فى الله خير من الحياة بغير الله ، والرجوع إلى الله خير لمن عرف الله من البقاء مع غير الله ، وما يؤثره العبدُ على الله فغير مبارك ، إنْ شئتَ : والدنيا ، وإنْ شئتَ : والعقبى .

قوله « ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » : إذا كان للصبر إلى الله طاب المسيرُ

(١) حياة القلب عمارته بالله وقد وردت فى مطلع الإشارة التالية ، ولا يستبعد أنها (الحياء) فهى مقبولة أيضاً .

إلى الله : وإنَّ سَفْرةً إليه بعدها تَحُطُّ رحالَنا لَمُقَاسَاتُها أحلى من العسل !

قوله جل ذكره . ﴿ فَبِما رحمةٍ مِنَ الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ فَظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

جرَّده عن أوصاف البشرية ، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية ، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولى ، لا من آثار الوفاق والتبرى ، ولولا أنه استخلصه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة ؟ !

ويقال إن من خصائص رحمته — سبحانه — عليه أنْ قوَّاه حتى صَحِبَهُم ، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم ، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم — مع سلطان ما كان مستغرقا له وبجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه ، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطاق صحبتهم ؟ !

ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما كان قريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ؟

ويقال لولا أنه صلى الله عليه وسلَّم شاهدهم محواً فيما كان يَجْرِى عليهم من أحكام التصريف ، وتحقَّق أن منشئها الله — لما أطاق صحبتهم .

قوله تعالى : « ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك » : لو سقَيْتَهم صِرْفَ شراب التوحيدِ غيرَ ممزوجٍ بما فيه لهم حظٌّ لتفرقوا عنك ، هائمين على وجوههم ، غير مطيقين للوقوف لحظةً ، « فاعفُ عنهم » فيما يكون تقصيراً منهم فى حقك وتوقيرك ، وما عثرت عليه مِنْ تفريطهم فى خدمتنا وطاعتنا — فانتصِبْ لهم شفيعا إلينا .

ويقال « فاعفُ عنهم » فاعف — أنت — عنهم فإن حكمك حكمُنا ، فأنت لا تعفو إلا وقد عفَوْنا . ثم ردَّه عن هذه الصفة بما أثبته فى مقام العبودية ، ونقله إلى وصف التفرقة

فقال : ثم قِفْ في محل التذلل مبتهلا إلينا في استغفارهم . وكذا سُنَّتُه — سبحانه — مع أنبيائه عليهم السلام وأوليائه ، يردُّهم مِنْ جمعٍ إلى فرقٍ ومن فَرْقٍ إلى جمع ، فقوله : « فاعف عنهم » جمع ، وقوله : « واستغفر لهم » فرق .

ويقال « فاعف عنهم » وتجاوز عنهم في حقوقك ، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفِرْ لهم إكمالا للكرم ، ولهذا كان يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

ويقال ما يُقصِّرون في حقك تعلَّق به حقَّان : حقك وحقي ، فاذا عفوتَ أنت فلا يكفي هذا القَدْرُ بل إنْ لَمْ أتجاوز عنهم في حقي كانوا مستوجبين للعقوبة ، فمن أرضى خصمَهُ لا يَنْجَبِر حالُه ما لم يغفر اللهُ له فيما ترك من أمره .

وقوله « واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » أي أَثْبِتْ لهم محلاً ، فإنَّ المعفوَ عنه في صدار الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكرامة ، فإذا شاورتَهم أزَلْت عنهم انكسارهم ، وطيَّبْتَ لهم قلوبهم .

ويقال تجَنَّسوا في أحوالهم : فَمِنْ مُقَصِّرٍ في حقه أُمِرَ بالعفو عنه ، ومن مرتكب لذنوبه أُمِرَ بالاستغفار له ، ومن مطيعٍ غير مقصرٍ أُمِرَ بمشاورته .

ثم قال : « فإذا عزمت فتوكل على الله » أي لا[1] تتكل على رأي مخلوق وكِلْ الأمور إليّ ، فإنا لا نخليك عن تصريف القبضة بحالٍ .

وحقيقة التوكل شهود التقدير ، واستراحة القلوب عن كد التدبير .

« إن الله يحب المتوكلين » يذيقهم بَرْدَ الكفاية ليزول عنهم كل لغبٍ[2] وَنَصَبٍ ، وإنه يعامل كلاً بما يستوجبه ؛ فقومٌ يغنيهم — عند توكلهم — بعطائه ، وآخرون يكفيهم — عند توكلهم — بلقائه ، وقوم يرضيهم في عموم أحوالهم حتى يكتفون بهقائه ، ويقفون معه به له — على تلوينات[3] قَدَرِه وقضائه .

---

(١) سقطت (لا) من الناسخ .

(٢) وردت (لقب) بالقاف والصواب أن تكون (لغب) بالغين ، وربما كانت في الأصل (تعب)

(٣) اللفظة رديئة الخط ، ويحتمل أنها (تقلبات) ، وتلوين الأحوال مصحوب — حسب الاصطلاح الصوفي — بتقلب الأحوال ، ولهذا فالمعنى يتقبل كلا اللفظين .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إن ينصرْكم اللهُ فلا غالبَ لكم ، وإن يخذُلكم فمن ذا الذى ينصُرُكم مِنْ بَعْدِه وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

المؤمنون نصرته لهم بالتوفيق للأشباح ثم بالتحقيق للأرواح .

ويقال ينصركم الله بتأييد الظواهر وتسديد[1] السرائر .

ويقال للنصرة إنما تكون على العدو ، وأعدى عدوك نَفْسُكَ التى بين جنبيك . والنصرة على النَّفْس بأن تهزم دواعى مُنَنِها بعواصم رحمته حتى تَنْفَضَّ جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات فتبقى الولاية لله خالصةً من شبهات الدواعى التى هى أوصاف البشرية ، وشهوات النفوس وأمانيها ، التى هى آثار الحجبة وموانع القربة .

« إن يخذلكم » الخذلان التخلية مع المعاصى ، فَمَنْ نَصَرَه قبض على يديه عن تعاطى المكروه ، ومن خَذَلَه ألقى حَبْله على غاربه ، وَوَكَلَه إلى سوء اختياره ، فيفترق عليه الحال فى أودية الشهوات ، فمرة يُشَرِّق غير محتشِم ، وتارة يُغَرِّب غير مُحترِم ، ألا ومن سبَّبَه الحق فلا آخذ بيده ، ومن أسلمه[2] فلا مجيرَ له .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : فى وجدان الأمان عند صدق الابتهال ، وإسبال ثوب[3] العفو على هناة الجُرْم عند خلوص الالتجاء ، بالتبرى من المُنَّة والحول .

ويقال لما كان حديث النصرة قال : « فلا غالب لكم » ، ولما كان حديث الخذلان لم يقل « فلا ناصر لكم » بل قال بالتلويح والرمز : « فمن ذا الذى ينصركم من بعده » : وفى هذا لطيفةٌ فى مراعاة دقائق أحكام الخطاب .

---

(١) من السداد .

(٢) أى أسلمه إلى نفسه :

(٣) وردت (ثواب) ، والملائم للاسبال : (ثوب) ولذلك آثرناها .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لنبي أن يَغُلَّ ومَن يَغْلُلْ يأتِ بما غلَّ يوم القيامة ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمُون ﴾

نَزّه[1] أحوال الأنبياء عن الدَّنَس بالخيانات ، فمن حَمَّلْنَاه من الرسالة إلى عبادنا يوصلها إلى مستحقيها واجباً ، ولا يعتنى بشأنِ حميمٍ له مِنْ دون أمرنا ، ولا يمنع نصيب أحدٍ أمرناه بإيصاله إليه ، بحقدٍ ينطوى عليه . ألا ترى كيف قال : « اذهب فواره » لأبى طالب لمَّا قال له أمير المؤمنين علىٌّ رضى الله عنه : مات عمُّك[2] الضال . وكيف قَبِلَ الوحشىَّ قاتِلَ حمزة لمَّا أسلم ؟

ويقال ما كان لنبي من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يضع أسرارنا فى غير أهلها ، بل يُنْزِلون كل أحدٍ عند ما يستوجبه ، وفى الأثر « أُمِرْنا أن نُنْزِلَ الناسَ منازلَهم »

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ومأواه جهنَّمُ وبِئْسَ المصير * هُمْ دَرَجاتٌ عِندَ اللهِ ، والله بَصير بما يعملون ﴾

لا يستوى مَنْ رضى عنه فى آزاله ومَنْ سخط عليه فخذله فى أحواله ، وجعله متسكلاً على أعماله ، ناسياً لشهود أفضاله ، واتباع الرضوان بمفارقة ما زُجِر عنه ، ومعانقة ما أُمِرَ به ، فمَنْ تجرَّد عن المزجور ، وتجلَّد فى اعتناق المأمور فقد اتبع الرضوان ، واستوجب الجنان .

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (نزح) بالحاء :

(٢) « إذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » هكذا اخرجه ابن سعد وابن عساكر عن على رضى الله عنه :

وفى السيرة الحلبية : إن هذا الحديث أخرجه أيضاً أبو داود والنسائى وابن الجارود وابن خزيمة عن على قال : لما مات أبو طالب أخبرت النبى (ص) بموته فبكى وقال :

« اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » .

وانظر أيضاً « أسنى المطالب فى نجاة أبى طالب » لزينى دحلان ط طهران سنة ١٣٨٢ (ص ٤٤) .

« هم درجات عند الله » : أى هم أصحاب درجات فى حكم الله ، فَمِنْ سعيدٍ مُقَرَّب ، ومِنْ شَقِيٍّ مُبْعَد .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذ بَعَثَ فيهم رسولاً مِنْ أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين ﴾

أجزل لديهم العارفة ، وأحسن إليهم النعم حيث أرسل إليهم مثل المصطفى سيد الورى صلوات الله عليه وعلى آله ، وعرَّفهم دينهم ، وأوضح لهم براهينهم ، وكان لهم بكل وجه فلا نِعَمَهُ شكروا ، ولا حقَّه وَقَروا ، ولا بما أرشدهم استبصروا ، ولا عن ضلالتهم أقصروا .. هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا . وأمَّا المؤمنون فتقلدوا المِنَّة فى الاختيار ، وقابلوا الأمر بالسمع والطاعة عن كنه الاقتدار ، فَسَعِدُوا فى الدنيا والعُقْبى ، واستوجبوا من الله الكرامة والزُّلفى .

قوله جل ذكره : ﴿ أوَ لمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مِثْلَيها قُلْتُمْ أنَّى هذا قل هو من عند أنفسكم ، إنَّ الله على كل شىء قدير ﴾

عادة الخَلْق نسيان ما منهم من الخطأ والعصيان ، والرجوع إلى الله بالتهمة فيما يتصل بهم من المحن والخسران ، وفنون المكاره والافتتان ، وإنَّ مَنْ تعاطى (. . .)[1] الإجرام فحقيق بألا ينسى حلول الانتقام .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن

---

(١) مشتبهة .

الله وليعلمَ المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالَوْا قاتِلوا في سبيل الله أو ادْفَعُوا قالوا : لو نعلم قتالاً لاتَّبَعْنَاكم ، هُمْ للكفر يومئذٍ أقربُ منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، واللهُ أعلمُ بما يكتمون ﴾

هوّن على المؤمنين وأصحاب البصائر ما لقوا من عظيم الفتنة يوم أُحُد ، بأن قال إن ذلك أجمعَ كان بإذن الله ، وإنَّ بلاءً يصيب بإذن الله لمِنَ العسلِ أحلى ، ومِنْ كل نعيم أشهى .

ثم أخبر أن الذين لم يكن لهم في الصحبة خلوص كيف تعللوا وكيف تكاسلوا :

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً ملَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » فلا جَرَم (سقَوْا العسَل ودَسُّوا له فيه الحنظل)(١) ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتِلوا قُلْ فادرءوا عن أنفسِكم الموت إن كنتم صادقين ﴾

الذين ركنوا إلى ما سوَّلت لهم نفوسهم من إيثار الهوى ، ثم اعترضوا على من يصرف أحكام القضاء وقالوا لو تحرَّزُوا عن البروز للقتال لم يسقطوا عن درجة السلامة .. لَمذمُومةٌ تلك الظنون ، وَلَذَاهِبَةٌ عن شهود التحقيق تلك القلوب .

---

(١) هكذا يمكن أن تقرأ هذه العبارة لو بنى الفعلان فيها للمعلوم ، أما لو بنيا للمجهول فإن الجزء الثاني منها يكون (ودس لهم فيه الحنظل) . فالفاعل في الحالة الأولى يكون ضميرا يعود على المنافقين ، ونائب الفاعل في الحالة الثانية يكون المولى عز وجل وما جاء في النسخة (ص) يرجح الثانية ، وإن كنا نميل للأولى .

قُلْ لهم — يا محمد — استديموا لأنفسكم الحياة ، وادفعوا عنها هجوم الوفاة !

ومتى تقدرون على ذلك ؟ ! هيهات هيهات !

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله
أمواتًا بلْ أحياء عند ربهم يُرْزَقون
فَرِحين بما آتاهم الله من فضله
ويستبشرون بالذين لم يَلْحقوا بهم
من خَلْفِهم ألاَّ خوفٌ عليهم
ولاَهُمْ يَحْزَنون ﴾

الحياة بذكر الحق بعد ما تتلف النفوس فى رضاء الحق أتَمُّ من البقاء بنعمة الخلْق مع الحجبة عن الحق .

ويقال إن الذى وارثُه الحى الذى لم يزل فليس بميت — وإن قُتِل :

وإن كانت الأبدان للموت أُنْشِئَتْ فقتلُ امرئٍ فى الله — لاشكَّ — أفضلُ

قوله : « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » : مَنْ علم أن أحباءه ينتظرونه وهم فى الرَّفَه والنعمة لا يهنأ بعيش دون التأهب والإلمام بهم والنزول عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يستبشِرون بنعمة من اللهِ وفضل
وأنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المؤمنين ﴾

عِلَّةُ استبشارهم وموجبه فضلٌ من الله ونعمة منه ، أى لولا فضله ونعمته بهم وإلا متى استبشروا ؟ فليس استبشارهم بالنعمة إنما استبشارهم بأنهم عبادُه وأنه مولاهم[1] ، ولولا فضله ونعمته عليهم لما كانت لهم هذه الحالة .

---

(1) يقول الدقاق — شيخ القشيرى وصهره — ليس أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، وقد وصف بها الرسول (ص) فى أشرف أوقاته فى الدنيا ، قال تعالى « فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى (الرسالة ص ١٠٠)

قوله جل ذكره : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول مِنْ
بعدما أصابَهُم القَرْحُ للذين أحسنوا
منهم واتقوا أجرٌ عظيم ﴾

للاستجابة مزية وفضيلة على الإجابة من حيث الإشارة لا من مقتضى العربية[1] وهو أنه يستجيب طوعاً لا كرها ، فهم استجابوا لله من غير انطواء على تحمل مشقة بل بإشارة القلب ومحبة الفؤاد واختيار الروح واستحلاء[2] تحمُّل الحُكْم . فالاستجابة للحق بوجوده ، والاستجابة للرسول — عليه السلام — بالتخلُّق بما شرع من حدوده .

استجابة الحق بالتحقق بالصفاء فى حق الربوبية ، واستجابة الرسول عليه السلام بالوفاء فى إقامة العبودية .

« من بعد ما أصابهم القرح » : فى ابتداء معاملاتهم قبل ظهور أنوار التجلى على قلوبهم ، وابتسام الحقائق فى أسرارهم .

« للذين أحسنوا منهم » : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه . . . — وهو للشاهدة والتقوى — . . . فإن لم تكن تَراه فإنه يراك[3] — وهو المراقبة فى حال المجاهدة .

« أجر عظيم » لأهل البداية مؤجَّلاً ، ولأهل النهاية مُعجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناس
قد جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُم فزادهم إيماناً
وقالوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ ﴾

لم يلتَبِسْ على ظواهرهم شىء مِنْ أحوال الدنيا إلا انفتحت لهم — فى أسرارهم — طوالع من المكشوفات ، فازدادوا يقيناً على يقين .

---

(١) أى على مقتضى صيغ الاشتقاق فى اللغة .

(٢) فى ص (استجلاء) والصواب أن تكون بالحاء .

(٣) « أعبد الله كأنك تراه . . . » رواه الطبرانى عن أبى الدرداء ، وحسّن السيوطى سنده ، وضعفه المنذرى . قال الحافظ العراقى : رجاله ثقات وفيه انقطاع « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واحسب نفسك فى الموتى ، واتق دعوة المظلوم » وفى الحلية عن زيد بن أرقم .

ومن أمارات اليقين استقلالُ القلوب بالله عند انقطاع المُنَى مِن الخَلْق فى توهم الإنجاد والإعانة .

قوله جل ذكره : ﴿ فانقلبوا بنعمةٍ مِنَ الله وفضلٍ
لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رِضوانالله
والله ذو فضلٍ عظيم ﴾

كذا سُنَّة الحق — سبحانه— مع مَنْ صَدَق فى التجائه إليه أن يمهد مقيله فى ظل كفايته ؛ فلا البلاء يمسه ، ولا العناء يصيبه ، ولا النَّصَبُ[1] يُظِلُّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما ذلكم[2] الشيطان يخوّف
أولياءه فلا تخافوهم ، وخافونِ إن
كنتم مؤمنين ﴾

الإشارة فى تسليط دواعى الشيطان على قلوب الأولياء صدق فرارهم إلى الله ؛ كالصبيّ الذى يخوَّف بشيء يفزع الصبيان ، فإذا خافَ لم يهتدِ إلى غير أمه ، فإذا أتى إليها آوَتْه إلى نفسها ، وضمَّتْه إلى نَحْرِها ، وألصقَتْ بخَدّه خدَّها .

كذلك العبد إذا صدق فى ابتهاله إلى الله ، ورجوعه إليه عن مخالفته ، آواه إلى كنف قربته ، وتداركه بحسن لطفه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يحزُنك الذين يُسارِعون فى
الكفرِ إنَّهم لن يضروا الله شيئاً ،
يريد الله ألا يجعلَ لهم حظًّا فى
الآخرة ، ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ .

زاد فى قوة قلبه بما جدَّدَ له من تأكيد العهد ، بأنه لا يُشْمِتُ به عدوًّا ، ولا يُوَصِّلُ إليه من قِبَلِهم سوءاً .

---

(١) فى ص (النصيب) والصواب (النصب) فالمعنى يتطلب ذلك .
(٢) هنا أضاف الناسخ — سهواً — لفظة (الله) فحذفناها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين اشتروا الكفر بالإيمان
لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب
أليم ﴾ .

إنْ أضَرُّوا فما أضروا إلا بأنفسهم ، وإنْ أصَرُّوا فما أصَرُّوا إلا على خسرانهم :

فما نحن عذَّبْنَا بِبُعْدِ ديارهم ولا نحن ساقتنا إليهم نوازعُ

قوله جل ذكره ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أنَّ ما نُملى
لهم خيرٌ لأنفسهم إنَّما نُملِى لهم ليزدادوا
إثماً ولهم عذاب مُهِين ﴾ .

من تمام المكر بهم ، وللمبالغة فى عقوبتهم أنَّا نمدُّهم وهم لا يشعرون ، نستدرجهم من حيث لا يعلمون ؛ نُملى لهم فيظنون ذلك إنعاماً ، ولا يحسبونه انتقاماً ، فإذا برزت لهم كوامنُ التقدير عند مغاراتها علموا أنهم لفى خسران ، وقد اتَّضح لكلِّ ذى بصيرة أن ما يكون سببَ العصيان وموجبَ النسيان غيرُ معدودٍ من جملة الإنعام .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان اللهُ ليذَرَ المؤمنين على
ما أنتم عليه حتى يَمِيزَ الخبيثَ مِنَ
الطيِّبِ ، وما كان الله لِيُطْلِعَكُمْ
على الغيْبِ ، ولكنَّ الله يجتبى مِن
رُسُلِهِ مَن يشاء ، فآمِنُوا باللهِ
وَرُسُلِه ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلَكُمْ
أجرٌ عظيم ﴾ .

جمعهم اليومَ من حيث الأشخاص والمبانى ، ولكنه فرَّقهم فى الحقائق والمعانى ؛ فمِنْ طيِّبةٍ سجيتُه ، ومن خبيثةٍ طينَتُه . وهم وإن كانوا مشائب[1] ففى بصيرة الخواص هم ممتازون[2] .

(١) مشائب = أخلاط .

(٢) ممتازون هنا مرتبطة بالفعل (يميز) الذى فى الآية الكريمة أى إنهم معلومون عندنا ، نميز طيبهم مهما كانوا أخلاطاً .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب » : فإنَّ أسرار الغيب لا تظهر للمتلوثين بأدناس البشرية ، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلَّ وقلَّ ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسراره :

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم
الله من فَضْله هو خيراً لهم بل هو
شرٌّ لهم ، سَيُطَوَّقون ما بَخِلُوا به
يوم القيامة ، ولله ميراث السمواتِ
والأرضِ ، والله بما تعملون خبير ﴾

مَنْ آثر شيئاً على الله لم يبارِك له فيه ؛ فلا يدوم له — فى الدنيا — بذلك استمتاع ، ولا للعقوبة عليه — فى الآخرة — عنه دفاع .

والبخل — على لسان العلماء — منع الواجب ، وعلى مقتضى الإشارة إبقاء شىء ولو ذرةً من المال أو نَفَساً من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد سَمِعَ الله قولَ الذين قالوا إنَّ
الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب
ما قالوا وقَتْلَهمُ الأنبياء بغير حقٍّ ،
ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك
بما قدَّمت أيديكم وأنَّ الله ليس
بظلاَّمٍ للعبيد ﴾

هذا الخطاب لو كان بين المخلوقين لكان شكوى . والشكوى إلى الأولياء من الأعداء سنَّةُ الأحباب .

ويقال علم أن فى المؤمنين مَنْ يغتاب الناس ، وذلك قبيح من قائلهم ، فأظهر قُبْحاً فوق ذلك ليتصاغر قبح قول المؤمنين بالإضافة إلى قبح قول الكفار ، فكأنه قال : لئن قبحت قالتهم فى الاغتياب فأقبحُ من قولهم قولُ الكفار حيث قالوا فى وصفنا ما لا يليق بنعمتنا .

وفيه أيضاً إشارة إلى الدعاء إلى الخلق ، والتجاوز عن الخصم ، فإن الله — سبحانه — لم يسلبهم ما أولاهم مع قبيح ما ارتكبوه من التقصير فى حقوقه .

قوله : « سنكتب ما قالوا » : هذه الكلمة من موجبات الخجلة لأهل التقصير بأدقّ إشارة ؛ يعنى أنهم وإنْ نَسُوا أحوالهم وأقوالهم فإنا ننشر لهم ما كتبنا عليهم قال قائلهم :

صحائفُ عِندِى للعتاب طويتها ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطولُ
سأصبر حتى يجمع الله بيننا فإنْ نلتقِ يوماً فسوف أقول

قوله : « ذلك بما قدّمت أيديكم وأن الله ليس بظلّام للعبيد » هذا لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر مما عمله به ؛ فكأنه — سبحانه — يقول : « عبدى : هذا الذى تلقاه — اليوم — من العقوبة لأن الذنب لك ، ولولم تفعله لما عذّبتُك » .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين قالوا إنَّ الله عَهِدَ إلينا ألا نؤمن لرسولٍ حتّى يأتَينا بقرْبانٍ تأكله النارُ قلْ قد جاءكم رُسُلٌ مِن قَبلى بالبيِّنات وبالذى قُلْتُمْ ، فَلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾

تقوّلوا على الله — سبحانه — فيما تعللوا به من تَرْكِ الإيمان ، فقالوا : لقد أُمِرْنا ألا نصدّق أحداً إلا لو أتانا بقربان يتقرب به إلى السماء ، وتنزل نار من السماء ، فتأخذ القربان عياناً ببصر ، فقال تعالى : قلْ لهم إن من تقدّمنى من الأنبياء عليهم السلام أتَوْكم بما اقترحتم على من القربان ، ثم لم تؤمنوا ، فلو أجبتكم إليه لن تؤمنوا بى أيضاً ؛ فإن مَنْ أقصته السوابق — فلو خاطبَتْه الشمسُ بلسان فصيح ، أو سجدت له الجبالُ فرآها بلحظٍ صحيح — لم يَلِجْ العرفان فى قلبه ، وما ازداد إلا شكاً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن كذَّبوك فقد كُذِّب رُسُلٌ مِّن قَبلِكَ جاءوا بالبينـاتِ والزُّبُرِ والكتاب المنير ﴾ .

أى عادة الكفار تكذيب الرسل : وعلى هذا النحو درج سَلَفُهم ، وبهديهم اقتدى خَلَفُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموتِ وإنَّما تُوَفَّوْنَ
أُجورَكم يومَ القيامة فَمَن زُحْزِحَ
عن النارِ وأُدْخِلَ الجنَّةَ فقد فاز ،
وما الحياةُ الدنيا إلاّ متاعُ الغُرور ﴾

أى كأسُ الموت توضع على كفِّ كلِّ حيٍّ فمن تحلَّاها طيِّبَةً نفسُه أوْرَثَتْهُ سُكْرَ الوَجْد ، ومن تجرَّعهَا على وجه التعبس ، وقع فى وهْدَةِ الرَّدِّ ، وَوُسِمَ بِكَىِّ الصَّدِّ ، ثم يوم القيامة : فمن أُجير من النار وصل إلى الراحة الكبرى ، ومن صُلِّىَ بالسعير وقع فى المحنة الكبرى .

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » : لأن ما هو آتٍ فقريبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فى أموالِكم وأنفسِكم
ولتسمَعُنَّ مِنَ الذين أوتوا الكتاب
مِن قبلكم ومِنَ الذين أشركوا أذَىً
كثيراً وإن تَصْبِروا وتتقوا فإنَّ ذلك
مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ .

كفاهم أكثر أسباب الضر بما أخبرهم عن حلولها بهم قبل الهجوم ، وعرَّفهم أن خير الأمْرَيْن لهم إيثار الصبر واختيار السكون تحت مجارى الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ أخَذَ اللهُ ميثاقَ الذين أوتوا
الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناسِ
ولا تَكْتُمُونَهُ فنبذوه وراء ظهورهم
واشتروا بِهِ ثمناً قليلاً فَبِئْسَ
ما يَشْتَرُون ﴾

أخبر أنهم أبرموا عهودهم أن لا يزولوا[1] عن وفائه ، ولكنهم نقضوا أسباب الذمام بما صاروا إليه من الكفران ، ثم تبيَّن أنَّ ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبارَكْ لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿لا تَحْسَبَنَّ الذين يفرحون بما أتَوا
ويحبون أن يُحْمَدُوا بما لَمْ يفعلوا ،
فلا تحْسَبَنَّهُم بمفازَةٍ منَ العذابِ ولهم
عذابٌ أليم﴾

إن مَنْ باشر رؤيةَ الخلْق قلبُه ، ولاحَظهم بِسِرِّه فلا تظنَّنَّ أنَّ عقوبتَهم مؤخرةٌ إلى يوم القيامة ، بل ليسوا من العذاب — فى الحال — بمفازة ، وأىُّ عذابٍ أشدُّ من الردِّ إلى الخلْق والحجاب عن الحق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ واللهُ
على كلِّ شىءٍ قديرٌ﴾

الإشارة من هذه الآية هاهنا إلى غناه — سبحانه — عمَّا فى الكون ، وكيف يحتاج إليهم ؟ ! ولكنهم لا يجدون عنه خَلَفاً ، ولا عليه بَدَلاً .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ فى خلقِ السمواتِ والأرضِ
واختلافِ الليلِ والنَّهار لآياتٍ لأولى
الألباب * الذين يذكرون الله قياماً
وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ .

الآيات التى تعرِّف الحق سبحانه وتعالى بها إلى العوام هى التى فى الأقطار من العبرِ والآثار ، والآيات التى تعرِّف بها إلى الخواص فالتى فى أنفسهم . قال سبحانه : « سنريهم

(١) وردت (ان لا يزالوا) ونرجح انها فى الأصل (ان لا يزولوا) لأن هذه مناسبة للمراد من الآية ، ومن سياق المعنى ، ولو كان حرف الجر (على) بعدها لقبلنا (لا يزالوا) .

آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم »، فالآيات الظاهرة توجب علم اليقين، والآيات الباطنة توجب عين اليقين .

والإشارة من اختلاف الليل والنهار إلى اختلاف ليالى العباد، فليالى أهل الوصلة قصيرة، وليالى أهل الفراق طويلة، فهذا يقول :

شهور ينقضين وما شعرنا   بأنصافٍ لهن ولا سِرار

ويقول :

صباحك سكر والمساء خمار   فنمت وأيام السرور قصار

والثانى يقول :

ليالى اقر الظاعنين (. . . .)   شكوْتَ وليلُ العاشقين طويلُ

وثالث ليس له خبر عن طول الليل ولا عن قِصَرِه فهو لِما غَلَبَ عليه يقول :

لستُ أدرى أطال لَيْلِيَ أمْ لا ؟   كيف يدرى بذاك من يَتَقَلَّى ؟!
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْلِي   ورعَيْتُ النجوم كنتُ مُخِلاَّ

قوله تعالى : « لأولى الألباب » : أولو الألباب هم الذين صحَتْ عقولهم عن سُكْر الغفلة . وأمارة مَنْ كان كذلك أن يكون نظرُه بالحق، فإذا نظر من الحقِّ إلى الحقِّ استقام نظره، وإذا نظر من الخَلْق إلى الحق انتكست نعمته، وانقلبت أفكاره مُوَرِّثةً للشبهة .

قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً . . . » الآية :

استغرق الذكرُ جميعَ أوقاتهم ، فإن قاموا فبذكره ، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكةٌ فى حقائق الذكر ، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره ، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها [1] .

ويذكرون الله قياماً على بساط الخدمة ثم يقعدون على بساط القربة .

ومَنْ لم يَسْلَمْ فى بداية قيامه عن التقصير لم يسلم له قعودٌ فى نهايته بوصف الحضور .

---

(1) القشيرى هنا مستفيد من رأى استاذه الإمام ابن فورك فى « قياماً وقعوداً » فى الآية الكريمة (الرسالة ص ١١١) .

والذكر طريق الحق — سبحانه — فما سلك المريدون طريقاً أصحَّ وأوضح من طريق الذكر ، وإن لم يكن فيه سوى قوله : « أنا جليس من ذكرنى » لكان ذلك كافياً .

والذاكرون على أقسام ، وذلك لتباين أحوالهم : فذكر يوجب قبض الذاكر لما يذكره من نَقْصٍ سَلَفَ له ، أو قُبْحٍ حصل منه ، فيمنعه خجله عن ذكره ، فذلك ذكر قبض .

وذكر يوجب بسط الذاكر لما يجد من التلذذ الذكر ثم من تقريب الحقِّ إيَّاه بجميل إقباله عليه .

وذاكر هو محو فى شهود مذكوره ، فالذكر يجرى على لسانه عادةً ، وقلبه مُصْطَلَمٌ فيما بدا له .

وذاكر هو محل الإجلال يأنف من ذكره ويستقذر وصفه[1] ، فكأنه لتصاغره عنه لا يريد أن يكون له فى الدنيا والآخرة (ثناء)[2] ولا بقاء ، ولا كون ولا بهاء ، قال قائلهم :

ما إن ذكرتك إلا همّ يلعننى قلبى وروحى وسرى عند ذكراكا
حتى كأنَّ رقيباً منك يهتف بى إياك ويحك والتذكار إياكا

والذكر عنوان الولاية ، وبيان الوصلة ، وتحقيق الإرادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة صفاء النهاية ، فليس وراء الذكر شىء ، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ، ومُنْشَأَةٌ عن الذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾

التفكر نعمة كل طالب ، وثمرته الوصال بشرط العلم ، فإذا سلم الذكر عن الشوائب

---

(١) هذا النوع من الذكر يلتقى بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين لا ينظرون لأى عمل إلا من حيث رؤية التقصير فيه .

(٢) ربما كانت (فناء) وإن كان المعنى يتقبل كليهما .

ورد صاحبه على مناهل التحقيق ، وإذا حصل الشهود والحضور محا صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر ، فالذكر سرمد[1] .

ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكرة زهداً فيها .

وفكر العابدين فى جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبةً فيه .

وفكر العارفين فى الآلاء والنعم فيزدادون محبةً للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سبحانك فقنا عذابَ النّار ﴾

التسبيح يشير إلى سبح الأسرار فى بحار التعظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنّا إنّك مَن تُدخِل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾

مَنْ ابتليتَه فى الآجل بالحرقة فقد أخزيتَه ، ومن ابتليتَه بالفرقة فى العاجل فقد أشقيتَه ، ومن أوليْتَه بيُمْنِ الوصلة فقد آويته وأدنيته .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنّا إنّنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أنْ آمنوا بربكم فآمنّا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفِّر عنّا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار ﴾

يعنى أجبْنا الداعى ولكن أنت الهادى ، فلا تَكِلْنا إلينا ، ولا ترفع ظلّ عنايتك عنّا .

والإيمان الدخول فى مُوجِبات الأمان ، وإنما يؤمن بالحق من أمّنَه الحق ، فأمانُ الحق للعبد — الذى هو إجارته — يوجِب إيمانَ العبدِ بالحق الذى هو تصديقه ومعرفته .

---

(١) [سأل أبو عبد الرحمن السلمى الشيخ الدقاق . آلذكر أتم أم الفكر ؟
فقال الدقاق : ما الذى يقع لك منه ؟
فأجاب السلمى : عندى الذكر أتم من الفكر لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر وما وصف به الحق سبحانه اتم مما اختص به الخلق فاستحسنه الدقاق] الرسالة ص ١١١ .
وقد ذكرنا هذه الرواية هنا : اولا لنوضح الفرق بين الذكر والفكر وثانياً لنبرر قول القشيرى : (الذكر سرمد) أى مستدام .

« وتوفَّنا مع الأبرار » : وهم المختصون بحقائق التوحيد ، القائمون لله بشرائط التفريد ، الواقفون مع الله بخصائص التجريد .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنا وآتِنا ما وعدتنا على رسلك
ولا تُخزنا يوم القيامة إنَّك
لا تُخلف الميعاد ﴾

حَقِّق لنا ما وعدتنا على ألسنة الوسائط[1] من إكمال النُّعمى (. . . . .)[2] وغفران كل ماسبق منا من متابعات الهوى .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنِّى لا أُضِيعُ
عَمَلَ عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى
بعضكم من بعضٍ فالذين هاجروا
وأُخرجوا مِن ديارهم وأوذوا
فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلوا لأكفرن
عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات
تجرى من تحتها الأنهار ثواباً
من عند الله والله عنده حسن
الثواب ﴾

كيف لا يستجيب لهم وهو الذى لَقَّنَهُم الدعاء ، وهو الذى ضمن لهم الإجابة ، ووَعْدُه جميل الثواب على الدعاء زائدٌ على ما يدعون لِأجْلِ الحوائج .

« فالذين هاجروا » : يعنى الديار والمزار ، وجميع المخالفين والموافقين من الأغيار .

« وأُخرجوا من ديارهم » : إلى مفارقة معاهدهم من مألوفاتهم .

« وأوذوا فى سبيلى » : عُيِّروا بالفقر والملام ، وفتنوا بفنون المحن والآلام .

---

(١) يقصد الرسل عليهم السلام .

(٢) مشتبهة .

«وقاتلوا وقُتِـلوا» : ذاقوا من اختلاف الأطوار الحلو والمر .

«لأُكفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم» : يعنى لنعطينَّهم فوق آمالهم وأكثر ، مما استوجبوه بأعمالهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد. متاعٌ قليل ثم مأواهم جهنّم وبئس المهاد﴾

لا تداخلنك تهمة بأنَّ لهم عندنا قدراً وقيمة إنما هى أيام قلائل وأنفاس معدودة ، ثم بعدها حسرات مترادفة ، وأحزان متضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿لـكن الذين اتقوا ربَّهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله ، وما عند الله خيرٌ للأبرار﴾

الذين وسمناهم بذُلِّ الفرقة بئست حالتهم ، والذين رفعوا قدَماً لأجلنا فنعمت الحالة والزلفة ، وصلوا إلى الثواب المقيم ، وبقوا فى الوصلة والنعيم ، وما عند الله مما ادَّخرنا لهم خيرٌ مما أمَّلوه باختيارهم .

قوله جل ذكره : ﴿وإنَّ من أهل الـكتاب لَمن يؤمن بالله وما أُنزِلَ إليكم وما أُنزِلَ إليهم خاشعين لله لا يشترون بآياتِ الله ثمناً قليلاً ، أولئك لهم أجرُهم عنـد ربهم ، إنَّ اللهَ سريعُ الحساب﴾

يريد منْ ساعَدَتْهم القسمةُ بالحسنى فهم مع أولياء الله نعمةً كما كانوا معهم قسمةً .

قوله جل ذكره : ﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا

وَرَابِطوا ، واتقوا اللهَ لَعَلَّكم تُفْلِحون ﴾

الصبر فيا تفرد به العبد ، والمصابرة مع العدو .

والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص .

ويقال أول الصبر التصبر ، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاصطبار وهو نهاية[1] .

ويقال اصبروا على الطاعات وعن المخالفات ، وصابروا فى ترك الهوى والشهوات ، وقطع المنى والعلاقات ، ورابطوا بالاستقامة فى الصحبة فى عموم الأوقات والحالات .

ويقال اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم ، ورابطوا بأسراركم .

ويقال أصبروا على ملاحظة الثواب ، وصابروا على ابتغاء القربة ، ورابطوا فى محل الدنوّ والزلفة — على شهود الجمال والعزّة .

والصبر مُرٌّ مَذاقُه إذا كان العبد يتحسّاه على الغيبة ، وهو لذيذٌ طعمُه إذا شربه على الشهود والرؤية .

« واتقوا الله لعلكم تفلحون » : الفَلَاحُ الظَّفَرُ بالبُغْية ، وهِمَّتُهم اليوم الظفر بنفوسهم ، فعند ذلك يتم خلاصهم ، وإذا ظفروا بنفوسهم ذبحوها بسيوف المجاهدة ، وصلبوها على عيدان المكابدة ، وبعد فنائهم عنها يحصل بقاؤهم بالله .

(١) يمكن أن يجد القارىء لى صنيع القشيرى حول مادة (ص ب ر) انه ـ وهذا شأنه دائماً ـ يحاول أن يؤسس المصطلح الصوفى على دعائم لغوية تعتمد على الفروق الدقيقة بين صيغ الاشتقاق المختلفة من المادة الواحدة ، فصيغة المفاعلة فيها المشاركة ، وصيغة التفعل فيها تكلف يلائم البداية . . . وهكذا .

السورة التي يذكر فيها النساء

بسم الله الرحمن الرحيم.

اختلفوا فى الاسم عن ماذا اشتُقّ ؛ فمنهم من قال إنه مشتق من السموّ وهو العلوّ . ومنهم من قال إنه مشتق من السِّمَة وهى الـكَيَّة .

وكلاهما فى الإشارة : فَمَنْ قال إنه مشتق من السمو فهو اسمُ مَنْ ذَكَرَه سَمَتْ رتبتُه ، ومَن عَرَفَه سَمَتْ حالتُه ، ومن صَحِبَه سَمَتْ هِمَّتُه ؛ فسمو الرتبة يوجب وفور المثوبات والمبَارّ ، وسمو الحالة يوجب ظهور الأنوار فى الأسرار ، وسمو الهمة يوجب التحرز عن رِقِّ الأغيار .

ومن قال أصله من السِّمَة فهو اسمُ مَنْ قصدَه وُسِمَ بِسِمَةِ العبادة[1] ، ومن صحبه وسِمَ بسمة الإرادة ، ومن أحبَّه وسم بسمة الخواص ، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص . فسِمَةُ العبادة توجب هيبة النار أن ترمى صاحبها بشررها ، وسمة الإرادة توجب حشمة الجنان أن تطمع فى استرقاق صاحبها ـ مع شرف خطرها ، وسمة الخواص توجب سقوط العُجْبِ من استحقاق القربة للماء والطينة على الجملة[2] ، وسمة الاختصاص توجب امتحاء الحكم عند استيلاء سلطان الحقيقة .

ويقال اسمُ مَنْ واصله مما عنده (عن) الأوهام قَدْرُه (سبحانه)[3] . ومن فاصله وُسِمَ بِكَيِّ الفُرقة قلبُه .

---

(١) هنا حدث اضطراب من الناسخ فاخطأ فى النقل وقد رتبنا الـكلام فى النصف الأول من الفقرة حسب الترتيب الوارد فى النصف الثانى منها والذى يبدأ « فسمة العبادة توجب .... الخ » .
ذلك الترتيب الذى يتمشى مع المذهب العام للقشيرى فى كل مصنفاته .

(٢) يقصد تشريف الانسان على جملة المخلوقات ، فالانسان وحده ـ دون سائر الكائنات ـ هو الذى خوطب بتبادل الذكر والمحبة مع الحق جل شأنه .

(٣) وضعنا (عن) و (سبحانه) ليتنتم اللبس ، وهما غير موجودين فى النص (يقول القشيرى فى رسالته : ما يصوره وهمك فالله بخلاف ذلك) .

وعلى هذه الجملة يدل اسمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ اتقوا ربّكم الذى خلقكم
من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها
وبثّ منهما رجالاً كثيراً ، ونساء ،
واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام
إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

الناس اسم جنس ، والاشتقاق فيه غير قوى . وقيل سمى الإنس إنساً لظهوره[1] فعلى هذه الإشارة : يامَنْ ظهرتم عن كتم العَدَم بحكم تكليفى ، ثم خصصتُ مَنْ شئتُ منكم بتشريفى، وحرمتُ من شئت منكم هدايتى وتعريفى ؛ ونقلتكم إلى ماشئتُ بل أوصلتكم إلى ماشئت بحكم تصريفى .

ويقال لم أُظْهِرْ منَ العَدَمِ أمثالكم ، ولم أُظْهِرْ على أحدٍ ماأظْهَرْتُ عليكم من أحوالكم .

ويقال سمّيتَ إنساناً لنسيانك ، فإن نسيتنى فلا شئ أخسّ[2] منك، وإنْ نسيت ذكرى فلا أحد أحطّ[3] منك

ويقال من نَسِىَ الحق فلا غاية لمحنته ، ومن نسى الخَلْقَ فلا نهاية لعلوّ حالته

ويقال يقول للمذْنبين : يامَنْ أنسيتَ عهدى ، ورفضتَ ودى ، وتجاوزت حدّى حانَ لك أن ترجع إلى بابى ، لتستحقّ لطفى وإيجابى . ويقول للعارفين ، يامَنْ نسيت فينا حظّكَ ، وصُنْتَ عن غيرنا لحظَكَ ، وقفتك — لقد عظُم علينا حقُّك ، وَوَجَبَ لدينا نصرك[4] ، وجلّ عندنا قَدْرُك . .

(١) حتى يقابل (الجن) لاختفائه . وربما كان قصد القشيرى إلى ذلك .

(٢) وردت (أخص) بالصاد ، وربما نقبلها على أساس أن الله يعاتب عبده : إن نسيتنى فأنت رغم ذلك (أخص الكائنات بحبى) .

(٣) وردت (أحض) بالضاد وربما كانت أحصن .

(٤) وجب واستوجب والإيجاب عند القشيرى ترد بمعنى الاستحقاق ، وعلينا أن نتأمل الدقة فى استعمال (لدينا) ولم يقل (علينا) فلا وجوب على الله — بخلاف المعتزلة .

ويقال يامن أَنِست[1] بنسيم قربى ، واستروحتَ إلى شهود وجهى ، واعتززت بجلال قدرى — فأنت أجلُّ عبادى عندى .

قوله : «اتقوا ربكم» : التقوى جماع الطاعات ، وأوله ترك الشِّرْكِ وآخره اتقاء كل غير ، وأولُ الأغيار لك نفسُكَ ، ومَنْ اتَّقَى نفسه وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال ، و (وقف) لله . . لا لشهود حظٍّ فى الدنيا والعقبى .

قوله : « الذى خلقكم من نفس واحدة » : وهو آدم عليه السلام ، وإذا كنا مخلوقين منه وهو مخلوق باليد فنحن أيضا كذلك ، لمَّا ظهرت مزية آدم عليه السلام به على جميع المخلوقين والمخلوقات فكذلك وصفُنا ، قال تعالى : « أولئك هم خير البريَّة » .

ولفظ «النفس» للعموم والعموم يوجب الاستغراق .

قوله : « وخلق منها زوجها » : حكَمَ الحقُّ — سبحانه — بمساكنة الخلْق مع الخلْق لبقاء النسل ، ولردِّ المِثْل إلى المِثْل فربَطَ الشكلَ بالشكلِ .

قوله . « وبثَّ منهما رجالا كثيراً ونساء » : تعرَّف إلى العقلاء على كمال القدرة بما ألاح من براهين الربوبية ودلالات الحكمة ، حيث خلق جميع هذا الخلْق من نسلِ شخصٍ واحدٍ ، على اختلاف هيئتهم ، وتفاوت صورهم ، وتباين أخلاقهم ، وإن اثنين منهم لا يتشابهان ، فلكلٍ وجه فى الصورة والخلْق ، والهمة والحالة ، فسبحان من لاحدَّ لمقدوراته ولا غاية لمعلوماته .

ثم قال : « واتقوا الله » تكرير الأمر بالتقوى يدلُّ على تأكيد حكمه .

وقوله : « تساءلون به والأرحام » : أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، فَمَنْ قَطَعَ الرحمَ قُطِع ، ومَنْ وَصَلَها وصل .

« إنَّ الله كان عليكم رقيباً » : مطلعا شهيداً ، يعُد عليك أنفاسَك ، ويرى حواسَّك ، وهو متَوَلٍّ خطراتِك ، ومنشىء حركاتِك وسكناتِك . ومَنْ عَلِمَ أنه رقيب عليه فبالحرى أن يستحيىَ منه .

---

(١) لاحظ كيف يربط القشيرى بين الناس (والأُنْس) بعد أن ربطها (بالإيناس) فدار الكلام كله على لفظة (الناس) التى وردت فى الآية الكريمة .

قوله جل ذكره: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا
الخبيث بالطيّب ولا تأكلوا أموالهم
إلى أموالكم إنّه كان حُوبًا كبيرًا﴾

مَنْ أُقيم بمحلِّ الرعاية فجاء على رعيّتِه فَخَصْمُهُ ربُّه ؛ فإنه — سبحانه — ينتقم لعباده مالا ينتقم لنفسه . فوَلِيُّ اليتيم إنْ أنْصَفَ وأَحْسَنَ لحقَّه على الله، وإنْ أساء وتعدَّى فخَصْمُهُ اللهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وإن خفتم ألا تُقسِطوا فى اليتامى
فانكحوا ما طاب لكم مِّنَ النساء
مثنىٰ وثُلاثَ ورُباع ، فإنْ خِفْتُمْ
ألاَّ تعدِلوا فواحدة أو ما ملكت
أيْمانكم ذلك أدنىٰ ألاَّ تعُولُوا *
وآتُوا النّساء صدُقاتِهنَّ نِحْلةً﴾

أباح الله للرجال الأحرار التزوج بأربع فى حالة واحدة ، وأوجب العدل بينهن ، فيجب على العبد أن يراعىَ الواجبَ فإنْ عَلِمَ أنه يقوم بحق هذا الواجب آثر هذا المُباح ، وإنْ عَلِم أنه يقصِّر فى الواجب فلا يتعرَّض لهذا المباح ، فإنَّ الواجبَ مسئولٌ عنه .

قوله جل ذكره: ﴿فإن طِبْنَ لكم عن شىء منه نَفْسًا
فكلوه هنيئًا مريئًا﴾

دلَّ هذا على أن طعامَ الفتيان[1] والأسخياء مرىء لأنهم لا يُطعِمون إلا عن طيب نَفْسٍ ، وطعام البخلاء ردىء[2] لأنهم يرون أنفسهم، وإنما يُطعِمون عن تكلُّفٍ لا عن طيب نَفْس . قال صلى الله عليه وسلم : « طعامُ السخىِّ دواء وطعام البخيل داء » .

(١) الفتيان جمع فتى . والفتوة أصل من أصول الصوفية عماده الإيثار والبذل والصفح والعفو ، والأنفة عما فى الكونين إلى غير ذلك من محاسن السلوك التى ينبغى للنفس أن ترتاضها ، وأن تتحلى بها حتى يتهيأ العبد لما هو أجل وأعظم ؛ وأن يكون إيثاره لله وبذله لله وروحه لله ، لأن من يؤمن بالتزام ذلك بالنسبة للمخلوق لا يضن بأضعافه بالنسبة إلى الحق .

(٢) مشتبهة ولكنها أقرب ما تكون إلى (ردىء) وقد وضعناها مع التحفظ ، والمعنى يتقبلها .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل
الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها
واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾

السفيه من يمنعك عن الحقّ ، ويشغلك عن الربّ .

والسفيه من العيال والأولاد من تؤثر حظوظهم على حقوق الله تعالى .

قوله : « التى جعل الله لكم قياماً » : حفظ التجمل فى الحال أجدى عليكم من التعرض للتبذل والسؤال ، والكدية والاحتيال . وإنما يكون البذل خيراً من الإمساك عند تحرُّر القلب والثقة بالصبر . فأمّا على نية الكدية وأن تجعل نفسك وعيالك كلاً على الناس فحِفظُك ما جعله الله كفايةً لنفسك أولى ، ثم الجود بفاضل كفايتك .

قوله : « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً » : إذا كان ذات يدك يتسع لكفاية يومهم ويَفْضُل[1] فلا تدخره عمّا تدعو إليه حاجتهم معلومك خشيةَ فقرٍ فى الغد ، فإن ضاقت يدُك عن الإنفاق فلا يَتَّسِعَنَّ[2] لسانك بالقبيح من المقال .

ويقال إذا دَعَتْكَ نَفْسُك إلى الإنفاق فى الباطل فأنت أسفه السفهاء فلا تُطِعْ نَفْسَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا
النكاح فإن آنستم منهم رُشداً
فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها
إسرافاً وبِداراً أن يكبروا ، ومن
كان غنياً فليَسْتَعْفِفْ وَمَن كان
فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم
إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى
بالله حسيباً ﴾

---

(١) يفضل وفاضل هنا بمعنى يزيد وزيادة .

(٢) لاحظ المقابلة الجميلة فى تعبير القشيرى بين (ضاقت يدك) و (ويتسع لسانك)

إيناس الرشد العفة والديانة ، والسخاء والصيانة ، وصحبة الشيوخ ، والحرص على مشاهدة الخير ، وأداء العبادات على قضية الأمر .

ويقال الرشيد من اهتدى إلى ربه ، وعندما تسنح له (حاجة) من حوائجه لا يتّكل على حَوْله وقُوَّتِه ، وتدبيره واختياره .

قوله جل ذكره : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كَثُرَ نصيباً مفروضاً ﴾

حكم الميراث لا يختلف بالفضل والمنقبة ، ولا يتفاوت بالعيب والنقص والذنب ؛ فلومات رجلٌ وخلف ابنين تساويا فى الاستحقاق وإنْ كان أحدهما براً تقياً والآخر فاجراً عَصِيّاً ، فلا للتقى زيادة لتقواه ، ولا للفاجر بخس لفجوره ، والمعنى فيه أن الميراث ابتداء عطيّةٍ من قِبَل الله ، فيتساوى فيه البر والفاجر . كذلك حكم الإيمان ابتداء عطية للمسلمين : قال الله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ، ثم قال : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم . . . » الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولو القرْبىٰ واليتامىٰ والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾

يريد إذا حضر قسمة الميراث ذوو السهمان[1] والمستحقون ، وحضَرَ من لا نصيب لهم فى الميراث من المساكين فلا تحرموهم من ذلك . فإن كان المستحقُ مُوَلًّى عليه ، فَعِدوهم وعداً جميلاً وقولوا : « إذا بلغ الصبى قلنا له حتى يعطيك شيئاً » ، وهذا معنى قوله : « وقولوا لهم قولاً معروفا ». وفى هذا إشارة لطيفة للمذنبين إذا حضروا لعرصته غداً ، والحق سبحانه يغفر للمطيعين ويعطيهم ثواب أعمالهم ، فمن كان منكم من فقراء المسلمين لا يحرمهم الغفران

(١) السهمان ج سهم .

إن شاء الله بعدما كانوا من أهل الإيمان ، وكذلك يوم القسمة لم تكن حاضراً ، ولا لكَ استحقاق سابق فبفضله ما أهَّلكَ لمعرفته مع علمه بما يحصل منك فى مستأنف أحوالك من زلتك.

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضِعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ﴾

بَيَّنَ فى هذه الآية أن الذى ينبغى للمسلم أن يدخره لعياله[1] التقوى والصلاح لا المال ، لأنه لم يقل فليجمعوا المال وليكثروا لهم العقار وليخلفوا الأثاث بل قال : « فليتقوا الله » فانه يتولى الصالحين

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً إنَّما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾

إنما تولىَّ الحق سبحانه خصمية اليتيم ، لأنه لا أحدَ لليتيم غيرُه ، وكلُّ من وَكَلَ أمره إليه فتَبرأ من حوله وقوته فالحق سبحانه ينتقم له بما لا ينتقم لنفسه[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حَظِّ الأُنثيين فإن كُنَّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحدٍ منهما السُّدُسُ مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ فلأُمِّهِ الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصيةٍ يُوصِى بها أو دَيْنٍ ﴾

---

(١) وردت (العبارة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هذه إشارة موجهة إلى الأولياء ، فهم لا سند لهم من جاه أو سلطان أو مخلوق فإذا تعرضوا للأذى تولى الله عنهم خصومة المؤذى .

الوصية هاهنا بمعنى الأمر ، فانه سبحانه جعل الميراث بين الورثة مستحقاً بوجهين :

١ — بالفرض ٢ — التعصيب ، والتعصيب أقوى من الفرض لأن العَصَبَةَ قد يستغرق جميع المال أما أكثر الفروض فلا يزيد على الثلثين ، ثم إن القسمة تبدأ بأصحاب الفروض وهم أضعف استحقاقاً ، ثم العَصَبة وهم أقوى استحقاقاً . قال صلى الله عليه وسلم :

« ما أبقَتْ الفرائض فلأَوْلَى عَصَبَةٍ ذَكَر »[1] كذلك أبداً سنته ، كما فى قوله تعالى :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » أعطاهم الكتاب بلفظ الميراث ثم قدّم الظالم على السابق ، وهو أضعف استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم لأنه مُنْكَسِر القلب ولا يحتمل وقته طول المدافعة .

وقوله « للذكر مثل حظ الانثيين » . لوكان الأمر بالقياس لكانت الأنثى بالتفضيل أوْلَى لضعفها ، ولعجزها عن الحراك ، ولكنَّ حُكْمَهُ — سبحانه — غيرُ معلَّل[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيُّهم
أقربُ لكم نفعاً فريضةً منَ الله إنَّ
الله كان عَليماً حكيماً ﴾

الأبناء ينفعونكم بالخدمة ، والآباء بالرحمة ، الآباء فى حال ضعفك فى بداية عمرك ، والأبناء فى حال ضعفك فى نهاية عمرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم
يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم
الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بعد وَصِيَّةٍ
يوصين بها أو دَيْنٍ ، ولهن الربع

(١) صحيح البخارى ﺣ ٨ ص ٢٦٩ « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر »

(٢) تحتاج هذه العبارة إلى بعض توضيح . وربما كان أفضل تحديد لها ما يذكره ذو النون المصرى : « علة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه » ثم ما يوضحه أبو نصر السراج فى اللمع حيث يقول : « معنى هذا القول — والله أعلم — أن وجود النقصان فى كل شىء مصنوع كائن ، لأنه لم يكن فكان ، وليس فى صنع الصانع لمصنوعاته علة ، وقال بعضهم :

يا شفائى من السقام وإن كنتَ علَّتى (اللمع ص ٤٤٠)

مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دَيْن وإن كان رجل يورَثُ كلالةً أو امرأةٌ وله أخٌ أو أخت فلكل واحد منهما السدسُ فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصيةٍ يوصَىٰ بها أو دَيْنٍ غيرَ مُضارٍّ ، وصيةً من الله والله عليم حليم ﴾

الإشارة في ثبوت الميراث للأقربين من الورثة بالنَّسب، والسبب أنَّ الميت إذا مات تحمَّل القريبُ أحزانَه فعوَّضَ اللهُ الوارثَ على ما يقاسيه ويخامر قلبه من التوجُّع مالَ الموروث . . وكذا سُنَّتُه — سبحانه — التعويضُ على مقاساة الأذى — جوداً منه لا وجوباً عليه[1] — كما توهَّم قوم . وكلُّ مَنْ كان أقربَ نسباً أو أقوى سبباً من الميت كان أكثر استحقاقاً لميراثه ، وفي معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية (. . . .

. . .) عقب النوى * موت الفتى ظل مغرما[2]

قوله جل ذكره : ﴿ تلك حدودُ الله ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَه يُدْخِلْه جنَّاتٍ تجرى من

---

(١) يلح القشيري دائماً في نفي كل وجوب على الله ، كما لاحظنا ذلك في مواضع شتى بحيث لا يعني الإثابة من وجوب المثوبة للمطيع — عليه ، ووجوب العقوبة للعاصي — عليه .

(٢) توجد في البيت كلمات فارسية (انكه شاد شود در عطاء ادن) = أصبح حينئذ مسروراً بالعطاء . ومعنى البيت غير واضح .

تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك
الفوزُ العظيمُ ﴾ .

حدوده : أوامره ونواهيه ، وما تعبّد به عباده .

وأصل العبودية حفظ الحدود ، وصون العهود ، ومَنْ حَفظَ حَدّه لم يُصِبْه مكروه ولا آفة ، وأصلُ كلّ بلاء مجاوزة الحدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه ويتعدَّ
حدودَه يدخله ناراً خالداً فيها وله
عذاب مُهِينٌ ﴾

وإنما هما عقوبتان : معجلة ومؤجلة ، ويقترن بهما جميعاً الذُّلُّ ، فلو اجتهد الخلائق على إذلال العاصي بمثل الذل الذى يلحقهم بارتكاب المعصية لم يقدموا[1] عليها : لذلك قال قائلهم : من بات[2] مُلِما[3] بذنب أصبح وعليه مذلته ، فقلت ومن أصبح مُبِرّاً بِبِرٍ ظلّ وعليه مهابته

قوله جل ذكره : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة مِن نسائكم
فاستشهدوا عليهن أربعة منكم
فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت
حتى يتوفاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ
لَهُنَّ سبيلا ﴾ .

إنما اعتبر فى ثبوت الفاحشة — التى هى الزنا — زيادة الشهود إسبالاً لِستر الكَرَم

(١) وردت (لم يقدروا) وللائم للمعنى أن تكون (لم يقدموا) مما يرجح أن الناسخ قد أخطأ .
(٢) وردت (من مات) والسياق يقتضى (بات) ، (وأصبح) ، وظلّ . .
(٣) وردت (مسلما) وهى خطأ من الناسخ .

على أجرام العِباد ، فإنّ إقامة الشهود — على الوجه الذى فى الشرع لإثبات تلك الحالة — كالمُتَعَذِّر[1] .

وفى قوله — صلى الله عليه وسلم — لمّا عِز لمّا قال له : يارسول الله - صلوات الله عليك - إنِّى زنيتُ فَطَهِّرْنى . فقال : لعلكَ قَبَّلْتَ .. ثم قال فى بعض المرات : « استنكهوه »[2] .

ففى هذا أقوى دليل لما ذكرت من إسباله الستر على الأعمال القبيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ واللذان يَأْتيانِها منكم فآذوهما
فإن تابا وأصلحا فَأَعْرِضوا عنهما
إنّ الله كان توّاباً رحيماً ﴾

الأمر بفنون العقوبات لهم على فعل ذلك أبلغ[3] شىء فى الردع والمنع منه بالرفع ، لعلّ العبد يحذر ذلك فلا يستحق التعذيب الأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّما التوبة على الله للذين يعملون
السوء بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب
فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله
عليماً حكيماً ﴾ .[4]

لا استغفار مع الإصرار[5] ؛ فإن التوبة مع غير إقلاعٍ سِمَةُ الكذّابين .

وقوله : « السوء بجهالة » : يعنى عَمِلَ عَمَلَ الجُهّال .

---

(١) يدل هذا الرأى — فى نظرنا — أولا على فهم صائب لما وراء الحدود الشرعية من مرام بعيدة ، ويدل ثانياً على سعة صدر الصوفية فى الصفح عن أرباب الخطايا ، وستر معايب الخلائق ، ولقد أحسن الحسن البصرى حين قال : النصيحة على الملأ فضيحة .

(٢) وفى صحيح البخارى جـ٨ ص ٢٩٨ عن ابن عباس : لما أتى ماعز بن مالك النبى (ص) قال له لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت... الخ قال نعم فعند ذلك أمر برجمه (ومعنى استنكهوه : أى ابحثوا فى فمه عن نكهة الخمر فربما يكون ثملا) .

(٣) وردت (بلغ) وهى خطأ فى النسخ

(٤) أخطأ الناسخ فى كتابة الآية فجاءت (من قريبة) ، (السوء بجهالة) .

(٥) أخطأ الناسخ فكتبها (الاسرار) بالسين والمعنى يرفضها .

وذنب كل أحدٍ يليق بحاله ، فالخواص ذنوبهم حسبانهم أنهم بطاعاتهم يستوجبون محلاً وكرامة ، وهذا وَهَنٌ فى المكانة ؛ إذلا وسيلة إليه إلا به .

قوله « ثم يتوبون من قريب » : على لسان أهل العلم : قبل الموت ، وعلى لسان المعاملة : قبل أن تتعود النفس ذلك فيصير لها عادة ، قال قائلهم :

قلتُ للنَّفْسِ إنْ أردتِ رجوعاً ... فارجعى قبل أنْ يُسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئاتِ حتّى إذا حَضرَ أَحَدَهمُ الموتُ قال إنّى تُبْتُ الآنَ ولا الذين يموتون وهم كُفَّار أولئك أعْتَدْنا لَهُم عذاباً أليماً ﴾

يعنى إذا كُشِفَ الغطاء وصارت المعارف ضروريه[1] أُغْلِقَ بابُ التوبة ؛ فإن مِنْ شرط التكليف أن يكون الإيمان غيبياً . ثم إن فى هذه الطريقة إذا عُرِفَ بالخيانة لا يشم بعده حقيقة الصدق . قال داوود — عليه السلام — فى آخر بكائه لما قال الله تعالى لِمَ تبكى ياداوود ، وقد غفرت لك وأرضيت خصمك[2] وقبلت توبتك ؟

فقال : إلهى ، الوقتُ الذى كان بى رُدَّه إلىَّ

فقال : هيهات ياداوود ، ذاك وُدٌّ قد مضى !!

وفى معناه أنشدوا :

فَخلِّ سبيلَ العين بعدك للبكا ... فليس لأيام الصفاء رجوعُ

قوله جل ذكره : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا يَحِلُّ لكم

---

(١) المعرفة الضرورية — عند القشيرى — هى التى تنال فى الانتهاء أما فى الابتداء فهى معرفة كسبية والأولى تشبه الشمس والثانية تشبه السراج ، فإذا طلعت الشمس انبسط شعاعها على السراج (الرسالة ص ١٤٩) •

(٢) وردت (حضك) ولكن الإرضاء حسبما نعلم من قصة داود كان لخصمه ، لذلك رجحنا أن تكون (خصمك) فإرضاء الخصم ملائم لقبول التوبة والغفران

أن تَرِثوا النِّساءَ كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهُنَّ
لتذهبوا ببعض ما آتيتموهُنَّ إلاَّ
أن يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ،
وعاشِروهن بالمعروف فإن كَرِهتموهن
فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل اللهُ
فيه خيراً كثيراً ﴾

التلبيسُ على المستضعفين ، والتدليسُ على أهل السلامة والوداعة من المسلمين — غيرُ محمودينَ عند الله . فمن تعاطَ ذلك انتقم الله منه ، ولم يبارك له فيما يختزل من أموال الناس بالباطل والاحتيال . ومن استصغر خصمه في الله فأهون ما يعاقبه الله به أنْ يَحرِمَهُ الوصولَ إلى ما يأمل من محبوبه .

وقوله : « وعاشروهن بالمعروف » : أى بتعاليم الدين والتأدب بأخلاق المسلمين وحُسْنِ الصحبة على كراهة النفس ، وأن تحتمل أذاهن ولا تحملهن كلف خدمتك ، وتتعامى عن مواضع خجلتهن .

قوله : « فإن كَرِهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً . . . » كل ما كان على نفسك أشقَّ كانت عاقبتُه أهْنأَ وأَمْرأَ .

واعلم أن الحقَّ سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على غَيْبِه ، فأكثر ما يعافه الإنسان قد تكون الخيرة فيه أتم . وقد حكم الله — سبحانه — بأن مخالفة النفس توصل صاحبها إلى أعلى المنازل ، وبعكس ذلك موافقتها ، كما أن مخالفة القلوب توجب عمى البصيرة ، وبعكس ذلك موافقتها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن أردتم استبدال زوجٍ مكانَ
زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً ،
فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه
بهتانا وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه

وقدْ أفضىٰ بعضُكم إلى بعضٍ
وأخَذْنَ منكم ميثاقاً غليظاً ﴾

يطلبهم حسنَ العهد ونعتَ الكرم فى العِشْرة ، فيقول لا تجمعْ الفرقةَ واستردادَ المال عليها ، فإن ذلك تَرْكُ الكرم ؛ فإنْ خوَّلْتَ واحدة مالاً كثيراً ثم جفوتَها بالفراق فما آتيتَها يسيرٌ فى جنب ما أذقْتَها من الفراق .

قوله : « وكيف تأخذونه . . . . » : يعنى أن للصحبة السالفة حرمة أكيدة ، فقفوا عند مراعاة الذمام ، وأوفوا بموجب الميثاق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤكم
مِّنَ النساء إلا ما قد سَلَفَ ، إنه
كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً .

تشير الآية إلى حفظ الذمام ، والوقوف على حد الاحترام ، فإن السَّجيَّةَ تتداخلها الأَنَفَةُ من أن ينكح فِراشَه غيرُه ، فنهى الأبناء عن تخطى حقوق الآباء فى استفراش منكوحة الأب .

قوله جل ذكره : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم وبناتكم
وأخواتكم وعمَّاتكم وخالاتكم ،
وبناتُ الأخِ وبنات الأخت ،
وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم
من الرضاعة ، وأمهات نسائكم
وربائبكم اللاتى فى حُجوركم من
نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن
لم تكونوا دخلتم بهن فلا جُناح
عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين
من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين

الأختين إلا ما قد سَلَفَ إن الله
كان غفوراً رحيماً ﴾

تكلُّفُ انتزاع المعانى التى لأجلها حصل هذا التحريم محالٌ من الأمر ؛ لأن الشرعَ غيرُ مُعَلَّلٍ[1] ، بل الحق تعالى حرَّم ما شاء على من شاء ، وكذلك الإباحة ، ولا عِلَّةَ للشرائع بحال ، ولو كانت المحرَّمَاتُ من هؤلاء محلَّلاتٍ [محرمات][2] لكان ذلك سائغاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والمحْصَنَاتُ مِنَ النساء إلا ما مَلَكَتْ
أيْمانُكم كتابَ الله عليكم ، وأُحِلَّ
لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا
بأموالِكم مُحْصِنِين غيرَ مُسَافِحِين
فما استمتعتم به منهن فآتُوهُنَّ
أجورَهُنَّ فريضةً ولا جُنَاحَ عليكم
فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ،
إن الله كان عليما حكيما ﴾ .

إذا حافظت الحدود ، وراعيت العهود ، وحصل التراضى بين النساء بحكم الشرع فلا يكون فيه للخلق خصيمة ، ولا من الحق سبحانه منه تبِعة ؛ فذلك مباحٌ طلقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن لم يستطِعْ منكم طَوْلاً أن
يَنكِحَ المحْصَنَاتِ المؤمنات فمن
مَّا مَلَكَتْ أيمانكم من فتياتكم
المؤمنات ، واللهُ أعلمُ بإيمانكم
بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن
أهلهن ، وآتوهن أجورهُنَّ بالمعروف
مُحْصَنَاتٍ غيرَ مسافحاتٍ ولا متخذاتِ

---

(1) نظن أن هذه النظرة التى يأخذ بها القشيرى أمور التشريع قابلة للمناقشة .

(2) هذه كلمة زائدة ولم ينبه الناسخ إلى زيادتها ، وربما كانت فى الأصل : « والمحللات محرمات » وحدث سقوط

أخـدان فإذا أُحْصِنَّ فإن أتَيْنَ
بفاحشــةٍ فعليهن نصف ما على
المحصَنات من العذاب ذلك لِمَنْ خَشِىَ
العنَتَ منكم وأن تصبروا خير لـكم
والله غفور رحيم ﴾ .

الرخص جعلت للمستضعفين ، فأما الأقوياء فأمرهم الجدّ ، والأخذ بالاحتياط والتضييق ؛ إذ لا شغل لهم سوى القيام بحق الحق ، فإن كان أمر الظاهر يشغلهم عن مراعاة القلوب فالأخذ فى الأمور الظاهرة بالسهولة والأخف أولى من الاستقصاء فيا يمنع من مراعاة السر ، لأنه ترك بعض الأمور لما هو الأتم والأجلّ ، فمن نزلت درجته عن الأخذ بالأوثق والأحوط فيباح له الانحدار إلى وصف الترخص(١) .

ثم قال فى آخر الآية : « وأن تصبروا خير لـكم » : يعنى على مقاساة ما فيه الشدة ، وفى هذا نوع استمالة للعبيد حيث لم يقل اصبروا بل قال : « وأن تصبروا خير لـكم » .

قوله جل ذكره : ﴿ يريد الله ليبيِّنَ لـكم ويهديكم سُنَنَ
الذين مِن قبلِـكم ويتوبَ علیـكم
والله عليم حكيم ﴾

لما عرَّف النبى — صلى الله عليه وسلم — وأمَّته أخبارَ مَنْ مضى من الأمم ، وما عملوا ، وما عاملهم به انتظروا ما الذى يفعل بهم ؛ فإن فيهم أيضاً من ارتـكب مالا يجوز ، فقالوا : ليت شِعْرنا بأىٍّ نوع يعاملنا ... أبا لخسف أو بالمسخ أو بالعذاب أو بماذا ؟

فقال تعالى : « ويهديكم سنن الذين من قبلـكم » نعرِّفـكم ماالذى عملنا بهم .

---

(١) القاعدة « أن الله يحب أن تؤتى رُخَصُه كما تؤتى عزائمه » ولـكن القشيرى يرى بالنسبة لأرباب الأحوال أن (الرخصة فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال ، وهؤلاء الطائفة (الصوفية) ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل إذا انحطّ الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى ، ونقض عهده فيما بينه وبينه سبحانه) الرسالة ص ١٩٩ .

« ويتوب عليكم » أمّا أنتم فأتوب عليكم ، أمّا من تقدّم فلقد دمّرتُ عليهم .

ويقال « يريد الله ليبيّن لكم » : أى يكاشفكم بأسراره فيظهر لكم ماخفى على غيركم .

ويقال يريد الله ليبيّن لكم انفرادَه — سبحانه — بالإيجاد والإبداع ، وأنه ليس لأحد شيء .

« ويهديكم سنن الذين من قبلكم » طريقة الأنبياء والأولياء وهو التفويض والرضاء ، والاستسلام للحكم والقضاء .

وقيل « ويتوب عليكم » أى يتقبّلُ توبتكم بعدماخلَقَ توبتكم ، ثم يُثيبُكُم على ما خلق لكم من توبتكم [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما * يريد اللهُ أن يخفّفَ عنكم وخُلِق الإنسان ضعيفاً ﴾.

عزل بهذا الحديث حديث الأولين والآخرين .

ومن أراد اللهُ توبتَه فلا يُشمِتُ به عدوًّا ، ولا يناله فى الدارين سوء .

« ويريد الذين يتّبعون الشهواتِ . . » : إرادتهم منكوسة ، وهى عند إرادة الحق — سبحانه — ضائعة مردودة .

« ويريد الله أن يُخفّف عنكم » : يعنى ثقل الأوزار بمواترة الأوراد إلى قلوبكم ، ويقال يريد الله أن يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يلج لقلوبكم من أنوار المشاهدات .

ويقال يريد الله أن يخفف عنكم أتعاب الخدمة بحلاوة الطاعات .

ويقال يخفف عنكم كلف الأمانة بحملها عنكم .

---

(١) واضح من هذا الكلام أن الفضل كله لله ، هو الذى يخلق توبة العبد وهو الذى يثيبه على توبته ، وقد ربطنا بين هذا وبين ما ذكره القشيرى عند (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) التى جاء ذكرها فيما سبق (من هذا الكتاب ص ٢١٦)

ويقال يخفف عنكم أتعاب الطلب بروْح الوصول .

« وخلق الإنسان ضعيفاً » : وصف بهذا فقرهم وضُرّهم ، و (. . .)[1] بها عذرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً * وَمَن يفعلْ ذلك عدواناً وظلماً فسوف نُصليه ناراً ، وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .

كل نفقة كانت لغير الله فهي أكل مالٍ بالباطل .

ويقال القبض إذا كان على غفلةٍ ، والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة[2] ، فكل ذلك باطل ، « ولا تقتلوا أنفسكم » : يعني بارتكاب الذنوب ، ويقال تعريضها لمساخطه سبحانه . ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها .

ويقال باستحسانكم شيئاً منها بإيثارها دون رضاء الحق .

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فإنّا لا نُخليه من عقوبة شديدة ، وهو أن نَكِلَها إلى صاحبها ، ونلقي حبْلَها على غاربها .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تَجْتَنِبُوا كبائر ما تُنْهَوْن عنه نُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم ونُدْخِلْكُم مُدخلا كريماً ﴾ .

الكبائر — على لسان العلم — ها هنا الشِّرْكُ بالله ، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشِّرْكُ

---

(١) مشتبهة .

(٢) والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة ، أي لو كان ما تبذله وأنت تشهد نفسك دون أن تشهد الحق ، فهو عمل ضائع ، لأنك حينئذ ستحسب قدْراً لنفسك .

الخفيّ . ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق ، واستحلاء قبولهم ، والتودد إليهم ، والإغماض على حق الله بسببهم[1] .

ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة[2] الحد فهو بعيد عن التكفير .

ويقال أكبر الكبائر إثباتُك نَفْسَكَ فإذا شاهدت نَفْيَها[3] تَخَلَّصْتَ[4] من أسْر المحن . « وندخلكم » فى أموركم « مدخلا كريماً » إدخالاً حسناً لا ترون منكم دخولكم ولا خروجكم وإنما ترون المُصَرِّفَ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَتَمَنَّوْا ما فضَّلَ اللهُ به بعضكم على بعضٍ ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبْن ، واسألوا الله من فضلِه ، إنَّ اللهَ كان بكلِّ شىء عليماً ﴾ .

لسان المعاملة أن الأمر بالتعنى لا بالتمنى ، ولسان التوحيد أن الأمر بالحُكْم والقضاء لا بالإرادة والمنى . ويقال اسلكوا سبيل من تقدَّمكم فى قيامكم بحق الله ، ولا تتعرضوا لنَيْل ما خُصُّوا به من فضل الله . قوموا بحقٍّ مولاكم ولا تقوموا بمتابعة هواكم واختيار مناكم .

ويقال لا تتمنوا[5] مقام السادة دون أن تسلكوا سُبُلَهم ، وتلازموا سيرهم ، وتعملوا عملهم .. فإن ذلك جَوْرٌ من الظن .

ويقال كن طالب حقوقه لا طالب نصيبك على أى وجه شئت : دنيا وآخرة (وإلاَّ)[6] أشركتَ فى توحيدك من حيث لم تشعر .

---

(١) ربما يشترك كثير من الباحثين فى هذا الرأى مع القشيرى ولكنه عند أهل الملامة عنصر أساسى وخطير فى تعاليمهم ، حيث يزيد إلى درجة استجلاب سخط الناس ولومهم للعبد .

(٢) وردت (بالراء) وهى خطأ فى النسخ ، ويكون المعنى إن الله يغفر مجاوزة الحد على شرط سلامة العهد وعدم الشرك .

(٣) وردت (فقبها) وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت بالتاء المربوطة لا المفتوحة وهى خطأ فى النسخ .

(٥) وردت بالهاء لا بالميم والصحيح أنها بالميم ويتأيد ذلك بقوله بعد قليل (لا تتمنَّ مقامات الرجال) .

(٦) إضافة منا ليستقيم المعنى ، إذ واضح أنها سقطت من الناسخ .

ويقال لا تتمنَّ مقامات الرجال فإنَّ لكل مقام أهلاً عند الله ، وهم معدودون ، فما لم يمت واحد منهم لا يورَّث مكانه غيرُه ، قال تعالى : « جعلكم خلائف » والخليفة من يخلف من تقدَّمه ، فإذا تمنَّيْتَ مقام وليٍّ من الأولياء فكأنَّكَ استعجلتَ وفاته ، على الجملة تمنيت أو على التفصيل ، وذلك غير مُسَلَّمٍ .

ويقال خمودُك تحت جريان حكمه — على ما سبق به اختياره — أحظَى لكَ من تعرضك لوجود مناك ، إذ قد يكون حتفك فى مُنيتك .

ويقال مَنْ لم يؤدِّب ظاهرهُ بفنون المعاملات ، ولم يهذِّب باطنه بوجوه[1] المنازلات فلا ينبغى أن يتصدَّى لنَيْل المواصلات ، وهيهات هيهات متى يكون ذلك !

« واسألوا الله من فضله » : الفرق[2] بين التمنى وبين السؤال من فضله من وجوه : يكون التمنى للشىء مع غفلتك عن ربك ، فتتمنى بقلبك وجود ذلك الشىء من غير توقعه من الله ، فإذا سألتَ الله فلا محالةَ تذكره ، والآخر أن السائل لا يرى استحقاق نفسه فيحمِلُه صِدْقُ الإرادة على التملُّق والتضرع ، والمتمنى يخلو عن هذه الجملة .

والآخر أن الله نهى عن تمنى ما فضل الله به غيرك إذ معناه أن يسلب صاحبَك ما أعطاه ويعطيك إياه ، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك .

ويقال لا تتمنَّ العطاء وسَلْ الله أن يعطيك من فضله الرضا بفَقْدِ العطاء وذلك أتمُّ من العطاء ، فإنَّ التحرُّرَ من رقِّ الأشياء أتمُّ مِنْ تملُّكِها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ
الوالدان والأقربون والذين عَقَدَتْ
أيمانُكم فآتوهم نصيبَهم إنَّ اللهَ
كان على كُلِّ شىء شهيداً ﴾ .

جعل المعاقدة فى ابتداء الإسلام نظيرةَ النَّسَبِ فى ثبوت الميراث بها فَنَسَخَ حكم الميراث

---

(١) وردت (بوجوده) والصواب أن الدال زائدة ليتلاءم المعنى مع (فنون) كذلك فإن (بوجوده المنازلات) غير مستقيمة .

(٢) لاحظ كيف تثرى بحوث القشيرى التى من هذا القبيل علوم اللغة والبلاغة .

وبقى حكم الاحترام ، فإذا كانت المعاقدة بين الناس بهذه المثابة فما ظنُّك بالمعاهدة مع الله ؟.
قال الله تعالى : « رجالٌ صدَقُوا ما عاهدوا الله عليه » وأنشدوا :

إنَّ الأُلى ماتوا على دين الهوى   وجدوا المنيَّةَ منهلاً معسولاً

قوله جل ذكره : ﴿ الرجال قوّامُون على النِّساء بما فَضَّلَ الله بعضهم على بعضٍ ، وبما أنفقوا مِنْ أمْوَالِهِم ، فالصَّالحات قانِتاتٌ حافِظاتٌ للغَيْبِ بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعِظُوهُنَّ واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إنَّ الله كان عَليًا كبيراً ﴾ .

خصَّ[1] الرجال بالقوة فزيد بالحَمْل عليهم ؛ فالحَمْل على حسب القوة . والعبرة بالقلوب والهمم لا بالنفوس والجثث .

قوله : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهنّ » : أى ارتقوا فى تهذيبهن بالتعريج والرفق ، وإنْ صَلُحَ الأمر بالوعظ فلا تستعمل العصا بالضرب ، فالآية تتضمن آداب العِشْرة .

ثم قال : « فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » : يعنى إن وَقَفْتْ فى الحال عن سوء العشرة (. . . . .)[2] ورجعتْ إلى الطاعة فلا تَنْتَقِمْ منها عمَّا سَلَفَ ، ولا تمتنع من قبول عذرها والتأبِّى عليها .

يقال : « فلا تبغوا عليهن سبيلاً » بمجاوزتك عن مقدار ما تستوجب[3] من قمتك .

---

(1) جاءت (حضّ) أى أخطأ الناسخ فنقل نقطة الخاء إلى الضاد .
(2) هنا ثلاث كلمات زائدة وضع الناسخ علامة مميزة للتنبيه على ضرورة حذفها لتكرارها بدون داع .
(3) أى تستحق المرأة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ خِفْتُم شِقاقَ بيْنِهما فابعثوا
حَكَماً مِنْ أهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أهْلِها
إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ،
إنَّ اللهَ كان عليماً خبيراً ﴾ .

يقال لكَ عليها الطاعة بالبدن ، فأمَّا المحبة والميل إليك بالقلب فذلك إلى الله ، فلا تكلفْها مالا يرزقك الله منها ؛ فإن القلوب بقدرة الله ، يُحبِّبُ إليها من يشاء ، ويُبَغِّضُ إليها من يشاء .

ويقال « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » أي لا تنسَ وفاءها في الماضي بنادر[1] جفاءٍ يبدو في الحال فربما يعود الأمر إلى الجميل .

قوله جل ذكره : ﴿ واعبدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئاً
وبالوالدين إحساناً وبِذِي القُربى
واليتامَى والمساكينِ والجارِ
ذي القربى والجارِ الجُنُبِ والصَّاحبِ
بالجَنْبِ وابنِ السبيل وما ملَكَتْ
أيمانكم . إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن
كان مُختالاً فخوراً ＊ الذين يبخلون
ويأمُرُون النَّاسَ بالبُخْلِ ويكتُمون
ما آتاهم اللهُ من فَضْلِهِ وأعتَدْنا
للكافرين عذاباً مُهيناً ﴾

قوله « واعبدوا الله » : العبودية معانقة الأمر ومفارقة الزجر[2] .

« ولا تشركوا » الشِّركُ جَلِيُّه اعتقادُ معبودٍ سواه ، وخَفِيُّه : ملاحظةُ موجودٍ سواه ،

---

(١) لا نستبعد أنها ربما كانت في الأصل (ببادر) والمعنى يتقبل (نادر) و (بادر) فكلاهما يدل على قدر من الجفاء لا يستحق الاهتمام ويستوجب العفو .

(٢) أي طاعة ما أمرك به وترك ما نهاك عنه .

والتوحيد أن تعرف أنَّ الحادثاتِ كلَّها حاصلةٌ بالله ، قائمةٌ به ؛ فهو مجريها ومنشيها ومبقيها ، وليس لأحدٍ ذرة ولا شظية ولا سينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع .

ودقائق الرياء وخفايا للصانمات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلْق ، واستحلاء مدحهم والذبول تحت ردّهم وذمِّهم — كلُّ ذلك من الشِّرْكِ الخَفِى .

قوله : « وبالوالدين » الإحسان إلى الوالدين على وجه التدريج إلى صحبة فإنك أُمِرْتَ أولاً بحقوقهما لأنهما من جِنْسِك ومنهما تربيتك ، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق بمعرفتك . وإذا صَلُحْتَ للصحبة والعِشْرة مع ذوى القربى والفقراء وللمساكين واليتامى ومن فى طبقتهم — رُقِّيتَ عن ذلك إلى استيجاب محبته — سبحانه .

قوله : « والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب . . . الآية » من جيرانك (. . . .)[1] فلا تؤذهما بعصيانك ، وراعِ حقهما بما تُولِى عليهما من إحسانك .

فإذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجارُ نفسك — وهو قلبك — أَوْلى بألا تضيِّعه ولا تغفُلَ عنه ، ولا تُمكِّنَ حلول الخواطر الرديئة به .

وإذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك — وهو روحك — أَوْلى أن تحامىَ على حقِّها ، ولا تُمكِّن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها . وجار روحك — وهو سِرُّك — أَوْلى أن تَرعى حقَّه ، فلا تُمكِّنَه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات .

قوله : « وهو معكم أينما كنتم » الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوى التحقيق .

قوله : « الذين يبخلون . . . الآية » : البخل على لسان العلم منع الواجب ، وعلى بيان الإشارة ترك الإيثار فى زمان الاضطرار . وأمرُ الناسِ بالبخل معناه مَنْعُهم عن مطالبات الحقائق فى معرِض الشفقة عليهم بموجب الشرع ، وبيان هذا أن يقع بلسانك الانسلاخ عن العلائق وحذف فضولات الحالة فَمَن نصحه بأن يقول : « ربما لا تَقْوَى على هذا ، ولأن تكون مع معلومك الحلال أولى بأن تصير مكدياً ، وربما تخرج إلى سؤال الناس وأن تكون كَلًّا على

(١) مشتبهة .

المسلمين — ويُرْوى له فى هذا الباب الأخبار والآثار أمثالَ هذا . . . . » فلولا بُخْلُه[1] المستكن فى قلبه لأعانه بهمته فيما يسنح لقلبه[2] بَدَلَ أن يمنع عنه ما(يجب ان) يقول فى معرض النصح . ومن كانت هذه صفته أدركه عاجل المقت حيث أطفأ شرر إرادة ذلك المُسْتَضْعَفِ بما هو عند نفسه أنه نصيحة وشفقة فى الشرع .

وقوله : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » : إن كان الله أغناهم عن طلب الفضيلة بما خوّلهم وآتاهم كتموا ذلك طمعاً فى الزيادة على غير وجه الإذن .

ويقال يكتمون ما آتاهم الله من فضله إذا سألهم مريدٌ شيئاً عندهم فيه نجاته ، وضنوا عليه بإرشاده .

ويقال بخل الأغنياء بمنع النعمة ، وبخْلُ الفقراء بمنع الهمة .

قوله جل ذكره : ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس
ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخِرِ
ومَن يكُنِ الشيطانُ له قريناً فساَء
قرينا﴾

أدخل هؤلاء أيضاً تحت قوله : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » فعقوبتهم فى العاجل أنهم ليسوا من جملة مُحِبِّيه ، وكفى بذلك محنة .

والمختال الذى ينظر إلى نفسه والمرائى الذى ينظر إلى أبناء جنسه ، وكلاهما مُسَوَّمان بالشرك الخفىّ والله لا يحب المشركين . والفخور من الإبل كالمصراة من الغنم وهو الذى سُدّت أخلافه ليجتمع فيها الدَّرُّ[3] فيتوهم المشترى أن جميع ذلك معتاد لها وليس كذلك ، فكذلك الذى يرى من نفسه حالاً ورتبة وهو فى ذلك مدعٍ وهو الفخور ، والله لا يحبه ، وكذلك المرائى الذى ينفق ماله رئاء الناس .

---

(١) حاول بعضهم أن يصححها فى الهامش فظن أن صوابها (نجله) والصحيح أنها (بخله) .

(٢) يستعمل القشيرى الفعل (يسنح) للدلالة على ما يرد القلب من خواطر قد تصبح هواجس فتشده نحو العلائق والخلائق ، وقد تكون إلهاماً من قبل الحق سبحانه فتهديه السبيل .

(٣) الدّر = اللبن الغزير .

قوله جل ذكره : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم
الآخِر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان
الله بهم عليماً ﴾

ليس فى إيمانهم بالله عليهم مشقة ، بل لو آمنوا لوصلوا إلى عِزّ الدنيا والآخرة ، ولا يحملهم على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله لا يَظْلِمُ مثقال ذرة وإن تَكُ
حسنة يضاعفها ويُؤْتِ مِن لَّدُنه
أجراً عظيماً ﴾

لا ينقص من ثوابهم شيئاً بل يبتدئهم — من غير استحقاقهم — بفضله ، ويضاعف أجورَهم على أعمالهم ، فأمَّا الظلم فمحالٌ تقديره فى وصفه لأن الخلقَ خلْقُه ، والمُلْكَ ملْكه . والظالم من يتعدى حداً رُسِمَ له — وهو فى وصفه مُحال لعزّه فى جلال قدره .

قوله جل ذكره : ﴿ فكيف إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ
بشهيدٍ وجِئْنا بك على هؤلاء شهيداً •
يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وعَصَوا
الرسولَ لو تُسَوَّى بِهِمُ الأرضُ
ولا يكتمون الله حديثاً ﴾

إذا كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — الشهيد على أمته ، وهو الشفيع لهم ، فإنما يشهد بما يُبْقِى للشفاعة موضعا .

قوله تعالى : « يومئذ يود الذين كفروا . . . . » الآية : يحصلون على ندم ثم لا ينفعهم، ويعضون على أناملهم ثم لا يسكن عنهم جزعهم ، فيتقنعون بخمار الذُّل ، وينقلبون إلى أوطان المحن[1] والضر .

---

(١) وردت (المحسن) والسين زيادة من الناسخ والصواب (المحن) .

قوله جل ذكره: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكَارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جُنُباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا ، وإن كنتم مرضى أو على سَفَرٍ أو جاء أحَدٌ منكم مِنَ الغائط أوْ لامستُم النِّساء فلَمْ تجدوا ماء فتَيَمَّمُوا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إنَّ الله كان عفُواً غفوراً ﴾

النَّهيُ عن موجب السكر من الشراب لا من الصلاة ، أى لا تصادفنكم الصلاة وأنتم بصفة السُّكر ، أى امتنعوا عن شُرْبِ ما يُسْكِر فإنكم إن شربتم سكرتم ، ثم إذا صادفتكم الصلاة على تلك الحالة لا تُقْبَل منكم صلاتكم .

والسُّكْر ذهاب العقل والاستشعار ، ولا تَصِحُّ معه المناجاة مع الحق .

المُصَلِّى يناجى ربَّه ، فكلُّ ما أوجب للقلب الذهول عن الله فهو ملحق بهذا من حيث الإشارة ، ولأجل هذه الجملة حَصَلَ ، والسُّكْرُ على أقسام :

فسُكْرٌ من الخمر وسُكْرٌ من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا .

وأصعب السكر سكرك من نفسك فهو الذى يلقيك فى الفرقة عنه ، فإنَّ مَنْ سَكِرَ من الخمر فقصاراه الحرقة — إن لم يُغْفَر له . ومن سكر من نفسه فحاله الفرقة — فى الوقت — عن الحقيقة .

فأمَّا السُّكْرُ الذى يشير إليه القوم[1] فصاحبه محفوظٌ عليه وقته حتى يصلى والأمر مخفف عليه : (فإذا خرج عن الصلاة هجم عليه غالبُه فاختطفه عنه ومن لم يكن محفوظا)[2] عليه أحكام الشرع (فمشوبٌ بحظٍّ)[3] .

---

(١) أى السكر عند الصوفية .

(٢) هذا الذى بين قوسين مستدرك فى هامش الصفحة وضمناه فى موضعه من النص .

(٣) (فشوب بحظ) وضمنا هاتين اللفظتين هنا مستفيدين من أقوال القشيرى فى مواضع مناظرة =

وقوله تعالى: « ولا جُنُباً إلا عابرى سبيل . . . الآية »: أذن للمضطر أن يترخّص فى عبور المسجد وهو على وصف الجنابة، فإذا عرج زائداً على قدر الضرورة فمُعَاتَبٌ غيرُ معذور، وكذلك فيما يحصل من معاذير الوقت فى القيام بشرائط الوقت فمرفوعةٌ عن صاحبه المطالبة به.

ثم إنه — سبحانه — بفضله جعل التيمم بدلاً من الطهارة بالماء عند عَوَزِ الماء كذلك النزولُ إلى ساحات الفَرْقِ عن ارتقاء ذرة[1] الجمع — بِقَدْرِ ما يحصل من الضعف — بَدَلٌ لأهل الحقائق.

ثم إن التيمم — الذى هو بَدَلُ الماء — أعمُّ وجوداً من الماء، وأقلُّ استعمالاً من الأصل، فإن كل من كان أقرب كانت المطالبات عليه أصعب.

ثم فى الظاهر أمَرَنا باستعمال التراب وفى الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول[2].

وردَّ التيمم إلى التقليل، وراعى فيه صيانةً لرأسك عن التُّراب ولقَدَمك؛ فإنَّ العزَّ بالمؤمن — ومولاه باستحقاق الجلال — أَوْلى من الذل لِمَا هو مفلس فيه من الحال، ولئن كان إفلاسه عن أعماله يوجب له التذلُّل فعرفانُه بجلال سيِّده يوجب كل تَعزُّزٍ وتَجمُّل.

قوله جل ذكره ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل * والله أعلمُ بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيرا * مِنَ الذين هادوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سَمِعْنا وعَصَيْنا واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ وراعنا ليّاً بألسنتهم

= فى مصنفاته الأخرى، وذلك نظراً لانبهام الكلمتين هنا لرداءة خط الناسخ (انظر حديث القشيرى عن السكر فى الرسالة ص ٤١).

(١) نرجح أنها فى الأصل (ذروة الجمع) وأن الواو قد سقطت من الناسخ.

(٢) لأن فيه تذكيراً للانسان بأصله.

وطَعْناً فى الدِّين ، ولو أنَّهم قالوا
سَمِعْنا وأطَعْنا واسْمَعْ وانظُرْنا
لَكان خيراً لهم وأقْوَمَ ولكِن
لَعَنَهُم اللهُ بكُفرِهم فلا يؤمنونَ
إلا قليلاً ﴾

ومكروا مكراً ولم يشعروا وجهة مكرهم أن أُعطُوا الكتابَ ثم حُرِمُوا بركاتِ الفهم حتى حرَّفوا وأصَرُّوا .

قوله : « من الذين هادوا . . . » الآية : تركوا حشمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ورفضوا حرمته ، فعوقبوا بالشك فى أمره ، ولذلك لم يترك أحد حشمته (محتشم)[1] إلا حيل بينه وبين نيل بركات صحبته وزوائد خدمته . ولو أنهم عاجلوا فى نفى ما دَاخَلَهم من الحسد وقابلوا حاله بالتبجيل والإعظام لوجدوا بركات متابعته ، فأُسْعِدوا به فى الدارين ، وكيف لم يكونوا كذلك وقد أقصتهم السوابق فأقعدتهم القسمة عن بساط الخدمة ؟ وإنَّ مَنْ قعدت به الأقدار لم ينهض به الاحتيال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين أوتوا الكتابَ آمِنوا
بما نَزَّلنا مُصَدِّقاً لِمَا معكم مِن قبل
أن نَطْمِسَ وجوهاً فَنَرُدَّها على
أدبارها أو نلعنهم كما لَعَنَّا أصحابَ
السَّبْتِ وكان أمرُ الله مفعولاً ﴾

صرف القلوب عن الإرادة إلى أحوال أهل العادة حتى كانت دواعيه بتوفر فى رفض الدنيا فعاد لا يصبر عن جمعها[2] ومنعها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر

(١) نرجح أن هذه الكلمة زائدة من الناسخ ، أو ربما كان الأصل (حشمةَ مُحْتَشَمٍ) .
(٢) وردت (جميعها) وهى خطأ فى النسخ .

ما دون ذلك لِمَن يشاء ، وَمَن
يشرِكْ بالله فقد افترى إثما عظيماً ﴾

العوام طولبوا بترك الشِّرْكِ الجلى ، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفى ، فمن توسَّل إليه بعمله ويظنه منه ، أو توَّهم أن أحكامه — سبحانه — معلولة بحركاته وسكناته ، أو راعى خَلْقاً أو لاحظ نَفْساً فوطنه الشرك عند أهل الحقائق[1] .

والله لا يغفر أن يُشرَكَ به وكذلك من توَّهم أن مخالفته حصلت من غير تقديره فهو ملتحق بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يُزَكُّون أَنْفُسَهم
بل اللهُ يُزَكِّي من يشاء ولا يُظلمون
فتيلا * انظرْ كيف يَفْتَرون على
الله الكَذِبَ ، وكَفَى به إثماً
مُبيناً ﴾

مَنْ ركن إلى تزكية الناس له ، واستحلى قبول الخواص له — فضلا عن العوام — فهو من زَكَّى نفسه ، ورؤية النَّفس أعظم حجاب ، ومن توَّهم أنه بتَكَلُّفِه يزكِّى نفسه : بأوراده أو اجتهاده ، بحركاته أو سكناته — فهو فى غطاء جهله .

قوله : « انظر كيف يفترون . . . . » الآية : الإشارة إلى من أطلق لسان الدعوى من غير تحقيق ، والمُفْتَرِى — فى قالته فى هذا الأمر — لا ينطق بشىء إلا أَجْمَتْه الآذان وانزجرت له القلوب ، فإذا سكت عاد إلى قلب خراب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً
من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ
والطَّاغوت ، ويقولون للذين كفروا
هؤلاء أهدى من الذين آمنوا

---

(١) يقول زكريا الأنصارى شارح الرسالة : « من كانت أعماله لله تعالى وشاهدها طاعة له تعالى فهو فى التفرقة ومن شاهدها جارية عليه فضلا من الله فقد شاهدها بالله فهو فى الجمع (هامش ٣٩) .

سبيلا * أولئك الذين لعنهم اللهُ ،
ومَن يلعن اللهُ فلن تجدَ له
نصيراً ﴾

طاغوتُ كلِّ أحدٍ نفْسُه وهواه وجِبْتُه و (. . . . .)[1] مقصوده من الأغيار ، فمن لاحظ شخصاً أو طالع سبباً أو عرَّجَ على عِلَّةٍ أو أطاع هوىً ، فذلك جبته وطاغوته . وأصحاب الجبت والطاغوت يستوجبون اللعن ؛ وهو الطرد عن بساط العبودية ، والحجاب عن شهود الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لهم نصيب من المُلْكِ فإذاً
لا يُؤْتونَ النـاسَ نقيراً * أَمْ
يَحْسُدون النـاسَ على ما آتاهم الله
من فضلِهِ فقد آتينا آل إبراهيمَ
الكتابَ والحكمةَ وآتيناهم مُلْكاً
عظيماً * فمنهم مَنْ آمن به ومنهم
مَّن صَدَّ عنه وكفى بجهنَّمَ سعيراً ﴾

مَنْ جُبِلَ على الشُّحِّ لا يزداد بسعة يده إلا تأسفاً على راحةٍ ينالها الخلْق، كأنَّ مَنْ شَرِبَ قطرةَ ماءٍ قد تحسَّى بل رَشَفَ من ماء حياته !

قوله : « أم يحسدون الناس . . . . » : بل ينكرون تخصيص الحق سبحانه لأوليائه بما يشاء حسداً من عند أنفسهم فلا يقابلونهم بالإجلال ، وسُنَّةُ الله سبحانه مع أوليائه مضت بالتعزيز والتوقير لهم . ودأْبُ الكافرين جرى بالارتياب فى القدرة ؛ فمنهم من آمن بهم ، ومنهم من ردَّ ذلك وجحد ، وكفى بعقوبة الله منتقماً عنهم .

قوله : « وآتيناهُمْ ملكا عظيماً » : المُلْك العظيم معرفة المَلِك ، ويقال هو المُلْكُ على النَّفس .

---

(١) مشتبهة .

ويقال الإشراف على أسرار المملكة حتى لا يخفى عليه شيء .

ويقال الاطلاع على أسرار الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نُصْليهم ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جلودُهم بَدَّلْناهم جلوداً غيرَها ليذوقوا العذاب * إنَّ اللهَ كان عزيزاً حكيماً ﴾

الإشارة منه إلى الجاحدين لآيات الأولياء ، يُقيمهم بوصف الصغار ويبقيهم فى وحشة الإنكار[1] ، كلما لاح لقلوبهم شيء من هذه القصة[2] جَرَّهم إنكارُهم إلى ترك الإيمان بها والإزراء بأهلها على وجه الاستبعاد ، فهم مؤبدة عقوبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات سندخلهم جنَّاتٍ تجرى مِن تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواجٌ مُطَهرة ونُدْخِلُهم ظلاً ظليلاً ﴾

هم اليوم فى ظل الرعاية ، وغداً فى ظل الحماية والكفاية ، بل هم فى الدنيا والعقبى فى ظل العناية .

والناس فى هذه الدنيا متفاوتون : فمنهم من هو فى ظل رحمته ، ومنهم من هو فى ظل رعايته ، ومنهم من هو فى ظل كرامته ، ومنهم من هو فى ظل عنايته ، ومنهم من هو فى ظل قربته .

---

(١) وردت (الأفكار) بالفاء والصواب — حسب المعنى والسياق — وكما جاء بعد قليل فى (وجرم إنكارهم) أن تكون (الإنكار) .

(٢) يقصد من (القصة) : التصوف وأهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا
الأماناتِ إلى أهلِها ، وإذا حكمْتُم
بين الناسِ أن تحكُمُوا بالعدلِ *
إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكم به إنَّ اللهَ
كان سميعاً بصيراً ﴾

ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال[1] الخلْق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم .

ويقال لله — سبحانه وتعالى — أماناتٌ وَضَعَها عِنْدكَ ، فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله — سبحانه — سالمةً مِنْ خيانتِكَ فيها ؛ فالخيانة فى أمانة القلب ادعاؤك فيها ، والخيانة فى أمانة السِّرِّ ملاحظتك إياها .

والحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةُ القريب والبعيد فى العطاء والبذل، وألا تحملَكَ مخامرةُ حقدٍ على انتقامٍ لنفسٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ
وأطيعوا الرسولَ وأُولِي الأمْرِ منكم
فإن تَنَازَعْتُم فى شىءٍ فَرُدُّوه إلى
الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون باللهِ
واليومِ الآخِرِ ذلك خيرٌ وأحْسَنُ
تأويلا ﴾ .

قَرَنَ طاعته بطاعة الرسول — صلى الله عليه وسلم — تفخيماً لشأنه ورفعاً لِقَدْرِه .

وأمَّا أولو الأمر — فعلى لسان العلم — السلطان ، وعلى بيان المعرفة العارفُ ذو الأمر على المستأنف ، والشيخُ أولو الأمر على المريد ، وإمامُ كل طائفة ذو الأمر عليهم .

---

(١) وردت (أحوال) والصواب أنها (أموال) لأن الأحوال لا تكون ودائع للناس عندك بل أموالهم

ويقال الولى أولى بالمريد (من المريد)[1] للمريد.

قوله: «فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله» على لسان العلم — إلى الكتاب والسنّة، وعلى بيان التوحيد فوِّض ذلك ووَكِّلْ علمَهُ إلى الله سبحانه، وإذا اختلف الخاطران فى قلب المؤمن فإن كان له اجتهاد العلماء تأمل ما يسنح لخاطره بإشارة فهمه، ومن كان صاحب قلب وَكَلَ ذلك إلى الحق — سبحانه — وراعى ما خوطب به فى سرائره، وأُلقِيَ — بلا واسطة[2] — فى قلبه.

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنهم آمنوا بِما أُنزِلَ إِلَيْكَ وما أُنزِلَ من قبلِكَ يريدون أن يَتَحاَكَمُوا إلى الطَّاغوتِ وقد أُمِرُوا أن يكفروا به ويريدُ الشيطانُ أن يُضِلَّهُمْ ضلالاً بعيداً ﴾.

أظهروا الإخلاص، ونافقوا فى السِّر، ففضحهم — سبحانه — على لسان جبريل عليه السلام بقوله: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به» أى برفضه. فمن حاد عن طريقه ورجع إلى غير أستاذه استوجب الحرمان والذم.

قوله جل ذكره: ﴿ وإذا قِيلَ لهم تَعَالَوْا إلى ما أنزل اللهُ وإلى الرسولِ رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ عنك صدوداً ﴾.

كل شىء سوى كلمة الحق فهو خفيف على المنافقين، فأمَّا التوحيد فلا يسمع كلمته إلا مخلص، وأهل الفترة فى الله وأصحاب النفرة لا يسمعون ما هو الحق؛ لأن خلافَ الهوى يَشُقُّ على غير الصديقين. وكما أن ناظرَ الخلْق[3] لا يقوى على مقابلة الشمس فكذلك

(١) هذا استدراك موجود فى هامش الصفحة أثبتناه فى موضعه من النص.
(٢) تأمل جيداً (بلا واسطة) فهذا وصف هام للمعرفة عند الصوفية، يميزها ويكشف جوهرها.
(٣) أى العين.

المنافقون لم يطيقوا الثبات له — صلى الله عليه وسلم — فلذلك كان صدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ .

تضرعُ غير المخلص عند هجوم الضر[1] لا أصل له ، فلا ينبغى أن يكون به اعتبار لأن بقاءه إلى زوال المحنة ، والمصيبة العظمى ترك المبالاة (بما يحصل من التقصير)[2] .

ويقال من المصيبة أن يمحقك وقتك فيما لا يجدى عليك[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرضْ عنهم وعظْهُمْ وقُل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ .

أبْسُطْ لهم لسانَ الوعظِ بمقتضى الشفقة عليهم ، ولكن انقبِضْ بقلبك عن المبالاة بهم والسكون إليهم ، واعلم[4] أن من لا نكون نحن له لايغنى عنه أنْ تعينه[5] شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا مِن رسولٍ إلا ليُطَاعَ بإذنِ اللهِ ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ .

ما أمَرْنا الرسلَ إلاّ بدعوة الخلْقِ إلينا .

---

(١) وردت (الضرورة) والصواب (الضر) فالمعنى يقتضى ذلك ويؤيد أن الخطأ فى النسخ .

(٢) ما بين قوسين تكملة وجدناها ضرورية لتوضيح المعنى فاستفدنا مما جاء فى موقف مشابه فى الرسالة ص ٣٤ حيث يقول (وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين) .

(٣) من أقوالهم فى الوقت : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك ، والوقت سيف فكما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب .

(٤) وردت (ما علم) وهى خطأ فى النسخ ، وربما كانت (فاعلم) فى الأصل واشتبهت على الناسخ .

(٥) (أن تعينه) المصدر المؤول من ان والفعل (أى عونك له) يقع فاعلا للفعل (يغنى) .

وقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » . لو جاءوك ذريعتهم لوصلوا إلينا ، ويقال لو لازموا التذلل والافتقار وركبوا مطية الاستغفار لأناخوا بعقوة المبار .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكموك
فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا فى
أنفسهم حرجاً مما قضيت ،
ويُسَلِّمُوا تسليماً ﴾ .

سَدَّ الطريق — إلى نفسه — على الكافة إلا بعد الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فَمَنْ لم يمش تحت رايته فليس له من الله نفس .

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك .

قوله : « ثم لا يجدوا . . . » : فلابُدَّ لك من (. . .)[1] تلك المهالك بوجه ضاحك ، كما قال بعضهم :

وحبيب إن لم يكن منصفاً كنتُ منصفا ... أتحسَّى له الأَمَرَّ وأسقيه ماصفا
إن يقل لى إنشقَّ اخترتُ رضاً لا تَكلُّفاَ

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنَّا كتبنا عليهم أنِ اقتلوا أنفُسَكُم
أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه
إلا قليلٌ منهم ، ولو أنَّهم فعلوا
مايُوعَظُون به لكان خيراً لهم وأشدَّ
تثبيتاً * وإذاً لآتيناهم مِّن لَّدُنَّا أجراً
عظيماً * ولهديناهم صِراطاً مستقيما ﴾

أخبر عن سُقْم إخلاصهم وقوة إفلاسهم ، ثم أخبر الله بعلمه بتقصيرهم .

خلاهم عن كثير من الامتحانات ثم قال ولو أنهم جنحوا إلى الخدمة،وشدُّوا نطاق الطاعة

---

(١) هنا كلمة ناقصة ربما كانت (مواجهة) أو (مقابلة) تلك المهالك بوجه ضاحك .

لكان ذلك خيراً لهم من إصرارهم على كفرهم واستكبارهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لآتيناهم من عندنا ثواباً عظيماً ، ولأرشدناهم صراطاً مستقيماً ولأوليناهم عطاء مقيماً .

والأمر — على بيان الإشارة — يرجع إلى مخالفة الهوى وذبح النفوس بمنعها عن المألوفات ، والخروج من ديار (تقبُّل النَّفس)[1] ، ومفارقة أوطان (إرادة)[2] الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأولئك
مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصِدّيقين والشُّهداء والصَّالحين
وحَسُنَ أولئك رفيقاً * ذلك الفضلُ
من الله وكفى بالله عليماً ﴾

جعل طاعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — مفتاحَ الوصول إلى مقامات النبيين والصديقين والشهداء على الوجه الذي يصحُّ للأُمة وكفى له عليه السلام بذلك شرفاً .

ثم قال : « ذلك الفضل من الله » : جرَّد عليهم محلَّهم عن كل علة واستحقاق وسبب ؛ فإن مالاح لهم وأصابهم صرفُ فضله وابتداء كرمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حِذْرَكُم
فانفِرُوا ثُبَاتٍ أو انفِرُوا جميعاً *
وإنَّ منكم لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فإنْ أصابتكم
مصيبةٌ قال قد أنعم الله عليَّ إذْ لم أكن
مَّعهم شهيداً * وَلَئِنْ أصابكم فضلُ
مِّنَ اللهِ ليقولَنَّ كأن لَمْ تكن
بينكم وبينه مودة ياليتني كُنْتُ معهم
فأفوزَ فوزاً عظيماً ﴾ .

(١) وضع الناسخ (تقبل النفس) في مكان خاطىء يبهم المعنى إذ وضعها قبل (على بيان الإشارة) والصواب أن تكون في مكانها الذي اخترناه حتى يستقيم السياق .

(٢) وردت (اراد) بدون همز للألف وبدون تاء مربوطة فاخترنا (إرادة) لملاءمتها للسياق .

الفرار إلى الله من صفات القاصدين ، والفرار مع الله من صفات الواصلين ؛ فلا يجد القرار مع الله إلا من صدق فى الفرار إلى الله . والفرارُ من كل غَيْرٍ شأنُ كل مُوَحِّد .

قوله تعالى : « وإنَّ منكم لمن ليبطئن . . . » الآية : أى لم تستقر عقائدهم على وصفٍ واحد ، فكانوا مرتبطين بالحظوظ ؛ فإذا رأوا مكروهاً يظلُّ المسلمين شكروا وقالوا : الحمد الله الذى حفظنا من متابعتهم فكان يصيبنا ما أصابهم ، وإنْ كانت لكم نعمة وخير سكنوا إليكم ، وتمنوا أنْ لو كانوا معكم ، خسروا فى الدنيا والآخرة : فهُمْ لا كافرٌ قبيحٌ ولا مؤمنٌ مخلِصٌ .

قوله : « كأن لم تكن بينكم وبينه مودة » : يعنى طرحوا حشمة الحياة فلم يراعوا حرمتكم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فى سبيل الله الذين يَشْرُون الحياة الدنيا بالآخرة ، وَمَن يُقَاتِلْ فى سبيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾ .

مَنْ لم يَقْتُلْ نَفْسَهَ فى نَفْسِه لا يصحُّ جهادُه بنفسِه ؛ فأولا (إخراج خطر الروح)[1] من القلب ثم تسليم النفس للقتل .

وقوله « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » يعنى بقاؤنا بعده خيرٌ له من حياته بنفسه لنفسه ، قال قائلهم :

ألست لى عِوَضاً منى ؟ كفى شَرَفاً   فما وراءك لى قصدٌ ومطلوب

قوله جل ذكره : ﴿ وما لكم لا تقاتِلون فى سبيل اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرجال والنّساء والوِلدانِ الذين يقولون رَبَّنَا أَخْرِجنا مِنْ هذه القرية الظَّالِمِ أَهْلُها واجعل لنا مِن لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾

(١) هكذا فى النسخة (ص) وربما كان المقصود أنك لا تستطيع أن تبذل نفسك إلا إذا قويت على قهرها والتهوين من خطرها .

أى شىء يمنعكم عن القتال فى سبيل الله ؟ وما الذى لا يُرَغِّبُكُمْ فى بذل المهجة[1] لله ؟ وماذا عليكم لو بذلتم أرواحكم فى الله ولله ؟ أتخافون أن تخسرُوا على الله ؟ أم لا تعلمون أنكم تُحشَرُون إلى الله ؟ فلم لا تكتفون ببقائه بعد فنائكم فى الله؟

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله
والذين كفروا يقاتلون فى سبيل
الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان
إنَّ كَيْدَ الشيطانِ كان ضعيفاً ﴾

المخلصون لله لا يؤثِرُون شيئاً على الله ، ولا يضنون بشىء عن الله ، فهم أبداً على نفوسهم لأجل الله ، والذين كفروا على العكس من أحوال المؤمنين . ثم قوّاهم وشجّعهم بقوله : « فقاتلوا أولياء الشيطان » أى لا تُضمِرُوا لهم مخافة ، فإنى متوليكم وكافيكم على أعدائكم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين قيل لهم كُفُّوا
أيْدِيَكم وأَقيموا الصلاةَ وآتُوا
الزكاةَ فلمَّا كُتِبَ عليهم القتالُ
إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ الناسَ
كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ خَشْيَةً وقالوا
رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ علينا القِتالَ
لولا أخَّرْتَنَا إلى أجلٍ قريبٍ ﴾

أخْرِجُوا أيديَكُمْ عن أمورِكم ، وَكِلُوها إلى معبودكم .

ويقال اقصروها عن أخذ الحرام والتصرف فيه .

ويقال امْتَنِعُوا عن الشهوات .

ويقال « كفُّوا أيديكم » إلا عن رَفْعِها إلى الله فى السؤال بوصف الابتهال .

---

(1) وردت (المحبة) بالحاء وهذا خطأ فى النسخ وصوابها (المهجة) لملاءمتها للسياق .

فلمَّا كتب عليهم القتال استثقلوا أمرَه ، واستعجلوا لطفَه . والعبودية فى تَرْكِ الاستثقال ، ونفى الاستعجال ، والتباعد عن التبرم والاستثقال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لِمَنِ اتقىَ ولا تُظلَمُون فتيلاً ﴾

مَكنَّكَ من الدنيا ثم قال : «قل متاع الدنيا قليل» ، فلم يَعُدَّها شيئاً لك ثم لو تَصدَّقْتَ منها بِشقِّ تمرةٍ لَتَخلَّصْتَ من النار ، وحظيت بالجنة ، وهذا غاية الكرم .

واستقلالُ الكثير من نفسك — لأجل حبيبك — أقوى أمارات مَحبتك .

ويقال لمـا زَهَّدَهم فى الدنيا قلَّلَها فى أعينهم ليهون (عليها[1]) تركها .

ويقال قل متاعُ الدنيا بجملتها قليلٌ ، والذى هو نصيبك منها أقلُّ من القليل ، فمتى يناقشك لأجلها (بالتخلل)[2] ، لو سَلِمَ عهدك من التبديل ؟

وإذا كانت قيمة الدنيا قليلة فأخَسُّ من الخسيس مَنْ رَضِىَ بالخسيس بدلاً عن النفيس .

وقد اخْتَلَعَ المؤمن من الكون بالتدريج . فقال أولاً : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير » (فأحفظهم)[3] عن الدنيا بالعقبى ، ثم سلبهم عن الكونين بقوله : «والله خيرٌ وأبقى» .

قوله جل ذكره : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدةٍ ، وإن تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يقولوا هذه مِنْ عندِ اللهِ وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ يقولوا هذه مِنْ عندِكَ قُلْ كلٌّ مِنْ عندِ الله فمَا لِهؤلاءِ القومِ لا يكادون يَفْقَهُون حديثاً ﴾

---

(١) الضمير فى (عليها) يعود على أعينهم ، وربما كانت فى الأصل (عليهم) فيعود الضمير على الزهاد .
(٢) نرجح أنها فى الأصل (التحليل) إشارة إلى قوله (ص) حلالها حساب وحرامها عقاب .
(٣) نرجح أنها فى الأصل (فاختطفهم) عن الدنيا بالعقبى ثم سلبهم . . . فهذا أقرب إلى مراحل تدرج الفناء الصوفى .

للموت فرح للمؤمن ، فالخبرُ عن قُرْبه بِشارةٌ له ، لأنه سببٌ يوصله إلى الحق ، ومن أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه .

ويقال إذا كان للموت لا بد منه فالاستسلام لحكمه طوعاً خيرٌ من أن يحمل كرهاً .

ثم أخبر أنهم — لضَعْفِ بصائرهم ومرض عقائدهم — إذا أصابتهم حَسَنَةٌ فَرِحُوا بها ، وأظهروا الشكر ، وإنْ أصابتهم سيئة لم يهتدوا إلى الله فجرى فيهم العِرْقُ المجوسي[1] فأضافوه[2] إلى المخلوق ، فَرَدَّ عليهم وقال : قل لهم يا محمد كلٌّ من عندالله خلقاً وإبداءاً ، وانشاءواختراعاً وتقديراً وتيسيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ
وما أصابك من سيئةٍ فَمِن نَفْسِك
وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله
شهيدا ﴾

ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خَلْقاً[3]

قوله جل ذكره : ﴿ مَّن يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ
ومَن تَوَلَّى فما أرسلناك عليهم
حفيظاً ﴾

هذه الآية تشير إلى الجَمْع لحال الرسول — صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه طاعته طاعتنا ، فمن تقرَّبَ منه تقرَّبَ منا ، ومقبولُه مقبولُنا ، ومردودُه مردودنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون طاعةٌ فإذا برزوا مِن

---

(١) لعل القشيري يقصد بذلك إلى أنهم بنسبتهم شيئاً لغير الله يشركون ، ويتأولون عن التوحيد .
(٢) أخطأ الناسخ فنقلها (مأذاقوه) فصو بناها بما يلائم السياق .
(٣) هذا تلخيص دقيق لرأي القشيري فيما يصيب العباد .

عندِكَ بَيَّتَ طائفةٌ منهم غيرَ الذى
تقولُ ، واللهُ يكتب ما يُبَيِّتون ،
فَأعرِضْ عنهم ، وتوَكَّلْ على اللهِ ،
وكفى باللهِ وكيلًا ﴾

يعنى إذا حضروك[1] استسلموا فى مشاهدتك ، فإذا خرجوا انقطع عنهم نور إقبالك ، فعادوا إلى ظلمات ، كما قالوا :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسة

قوله جل ذكره : ﴿ أفَلا يَتَدَبَّرون القُرآن ولو كان مِنْ
عِندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافًا
كثيرًا * وإذا جاءهم أمْرٌ مِنَ الأمنِ
أو الخوفِ أذاعوا به ولو ردُّوه
إلى الرسولِ وإلى أولى الأمرِ منهم
لَعلِمَهُ الذين يستنبطونه منهم ،
ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمتُه
لاتَّبَعْتُم الشيطانَ إلا قليلًا ﴾

تدبرُ إشارة المعانى بغوص الأفكار ، واستخراجُ جواهر المعانى بدقائق الاستنباط .

قوله : « وإذا جاءهم أمر . . . » : لمَّا كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه أسرارهم فأظهروا السرَّ بعضُهم لبعض . فأمَّا المؤمنون فعالِمُ أسرارِهم مولاهم ، وما يسنح لهم خَاطَبُوه فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السِّر لمخلوق ؛ فسامِعُ نجواهم اللهُ ، وعالِم خطابهم الله .

قوله تعالى : « ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم . . . . » أى لو بَثُّوا[2]

---

(١) أخطأ الناسخ فنقلها (حقروك) فصوبناها بما يلائم السياق .
(٢) كتبها الناسخ (ثبوا) فصوبناها بما يلائم السياق : (بثوا أسرارهم) .

أسرارهم عند من هو (. . . .)[1] ومَنْ هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكالَ ، وأمدوهم بنور الهداية والإرشاد[2] .

« ولولا فضل الله » مع أوليائه لهاموا فى كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم فى الوقت .

قوله جل ذكره : ﴿ فقَاتِلْ فى سبيل اللهِ ، لا تُكَلَّفُ
إلاَّ نفسَكَ وحَرِّضِ المؤمنين ،
عسى اللهُ أن يَكُفَّ بأسَ الذين
كفروا واللهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ
تنكيلاً ﴾

اِسْتَقِمْ معنا بتسليم الكُلِّ منكَ إلى أمرنا ؛ فإنَّك — كما لا يقارنُكَ أحَدٌ فى رتبتك لعلوِّك على الكل — فنحن لا نكلِّف غيرَك بمثل ما تكلفت ، ولا نُحَمِّلُ غيرَك ما تحملتَ لانفرادك عن أشكالك فى القدوة[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شفاعةً حسنةً يكن لَّهُ
نصيبٌ منها ، ومن يشفعْ شفاعةً
سيئةً يكن له كِفْلٌ منها ، وكان
اللهُ على كل شىء مُقِيتاً ﴾

الشفيع يخلِّص للمشفوع له حالَه . ويستوجب الشفيعُ — من الله سبحانه على شفاعته — عظيمَ الرتبة ، ومَنْ سعى فى أمرنا بالفساد تحمَّلَ الوِزْرَ واحتقب الاثم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حُيِّيتُم بتحيةٍ فحيوا بأحسَنَ

---

(١) مشتبهة ، وما بعدها قد يكنى عنها .

(٢) فى هذا الخصوص يحث القشيرى فى إحدى وصاياه على ألا يقتفى المريد بذات نفسه إلا لأرباب الطريقة من الشيوخ ؛ إذ يقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب غير هذه الطريقة . فحجج أهلها — فى مسائلهم — أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب ، والذى للناس غيب فهو لهم ظهور فهم من أهل الوصال ، والناس أهل استدلال الرسالة ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) لا نستبعد أيضاً أنها فى الأصل (القدرة) لتلائم التكليف والتحمل ؛ والمعنى يتقبل (القدوة) و (القدرة) .

منها أو ردُّوها إنَّ اللهَ كان على كلِّ
شيء حسيباً ﴾

تعليم لهم حُسْنَ العِشْرة وآداب الصحبة . وإن من حمَّلكَ فضلاً صار ذلك — فى ذمتك — له قرضاً ، فإمَّا زِدْتَ على فِعله وإلاَّ فلا تنقص عن مثله .

قوله جل ذكره : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم
القيامة لا ريب فيه وَمَنْ أصْدَقُ
مِنَ اللهِ حديثاً ﴾

هذا الخطاب يتضمن نفياً وإثباتا ؛ فالنفى يعود إلى الأغيار ويستحيل لغيره ما نفاه ، والإثبات له بالإلهية ويستحيل له النفى فيما أثبته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَا لَكُمْ فى المنافقين فِئَتَيْن واللهُ
أرْكَسَهُم بِمـا كَسَبُوا أتُرِيدون
أن تَهْدُوا مَنْ أضَلَّ اللهُ ، وَمَن
يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ له سَبِيلاً ﴾

(. . . .)[1] العهد فيهم أنهم أعدائى ، لا ينالون مِنِّى فى الدنيا والعقبى رضائى ، وإنكم لا تُنْقِذون بهمكم من أقته بقسمتى[2] فإن المدار على القَسْم دون (. . . .)[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ودُّوا لو تـكفرون كما كفروا
فتـكونون سوَاء فلا تتخذوا منهم
أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله
فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث
وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليًّا
ولا نصيراً ۞ إلا الذين يَصِلون

(١) مشتبهة .
(٢) أى ما قسمته له فى سابق الآزال لا قدرة لمخلوق على تغييره .
(٣) سقطت كلمة من الناسخ وربما كانت (الاحتيال) وربما كانت (الهمم) فكلاهما يفيد أنه لا منجاة لإنسان بعمله وحده بل المدار على القسمة .

إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاق
أو جاءوكم حَصِرتْ صُدُورُهم أن
يقاتلوكم أو يقاتلوا قومَهم ولو شاء
اللهُ لَسَلَّطَهُم عليكم فَلَقَاتَلُوكم فإن
اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقَوْا إليكم
السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم
سبيلاً ﴾

الإشارة إلى أرباب التخليط والأحوال السقيمة يتمنون أن يكون الصديقون منهم ، وهيهات أن يكون لمنامٍ تحقيق ! وما دام المخالفون لكم غير موافقين فبائنوهم وخالفوهم ولا تطابقوهم بحال ، ولا تعاشروهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيراً ؛ وموافقٌ لك في قصدك خيرٌ لك من مخالفٍ على الكره تعاشره .

قوله : « إلا الذين يصلون إلى قوم . . . . » الإشارة من هذه الآية أن عند الاعذار أذِن في معاشرة في الظاهر[1] رفقاً بالمستضعفين .

« فإن اعتزلوكم . . » الإشارة منه أنه إذا عاشركم من ليس من أهل القصة معرجين في أوطان نصيبهم فلا تدعوهم إلى طريقتكم وسلِّموا لهم أحوالهم . فإن أمكنكم أن تلاحظوهم بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتكم[2] وإلا فسلِّموا لهم أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ستجدون آخَرِين يريدون أن
يأمَنُوكم ويأمَنُوا قومَهم كلَّما رُدُّوا
إلى الفِتْنةِ أُرْكِسُوا فيها فإن لم
يَعْتَزِلوكم ويُلْقُوا إليكم السَّلَمَ ويكفوا
أيْدِيَهم فَخُذُوهم واقتلوهم حيثُ

(١) أى أن الصحبة والمعاشرة ينبغى ألا يصل أمرها إلى حد المساكنة ، لأن صحبة الحق أولى من كل غير . . . وهذا مبدأ نادى به القشيرى وطبقه على نفسه إبان محنته الأليمة .
(٢) وردت (همتهم) وهى خطأ من الناسخ لأن المعنى يتطلب (همتكم)

ثَقِفْتُمُوهم وأولئِكُم جعَلْنا لكم
عليهم سُلطاناً مُبيناً ﴾

إن من رام الجمع بين الضدين خاب سَعيُه ، ولم يرتفع عزمُه ، فكما لا يكون شخص واحد منافقاً ومسلماً لا يكون شخص واحد مريداً للحق ومقيما على أحكام أهل العادة . فإن الإرادة والعادة ضدان[1] ، والواجب مباينة الأضداد ، ومجانبة الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لمؤمنٍ أن يَقْتُلَ مُؤمِناً
إلا خطأً ومن قَتَلَ مؤمِناً خطأً
فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ودِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
إلى أهله إلاَّ أن يصَّدَّقوا فإن كان
من قومٍ عَدُوٍّ لكم وهو مؤمن
فتحرير رقبة مؤمِنة وإن كان من
قومٍ بينكم وبينهم ميثاق فدِيَةٌ
مسلَّمَةٌ إلى أهله وتحرير رقبةٍ مؤمنة
فمن لم يجدْ فصيامُ شهرين متتابعين
توبةً منَ اللهِ وكان اللهُ عليما حكيما ﴾.

خفف أمْرَ الخطأ على فاعله حتى تَحَمَّلَ موجب قتل الخطأ على العاقلة ؛ فالخواص عاقلة المستضعفين من الأمة ، وأهل المعرفة عاقلة المريدين ، والشيوخ عاقلة الفقراء ؛ فسبيلُهم أن يحْمِلوا أثقال المستضعفين فيما ينوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يَقتُل مؤمناً مُتعمِّداً فجزاؤه
جهنَّمُ خالداً فيها وغَضِبَ اللهُ عليه
ولَعَنَه وأعَدَّ له عذاباً عظيما ﴾.

كما يُحرَّم قتلُ غيرك عليك يحرَّمُ قتلُ نفسك عليك ، ومن اتَّبعَ هواه سعى فى دَمِ نفسه ، ومن لم ينصح مريداً بحسنِ وعظِه ولم يُعِنْه بهمته فقد سعى فى دمِه ، وهو مأخوذ بحاله

(١) الناس — عند القشيرى — إما أهل العادة أو أهل الإرادة .

وخليق[1] بأن تكون له عقوبة الأذية بألا يتمتع بما ضنّ به على المريدين من أحواله : ولقد قال — سبحانه — : ياداود إذا رأيت لى طالباً فكن له (خادماً)[2]

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا[3] إذا ضَرَبْتُمْ فى سبيل الله فَتَبَيَّنُوا ولا تقولوا لِمَنْ أَلْقَى إليكم السَّلَامَ لستَ مؤمِناً تبتغون عَرَضَ الحياةِ الدنيا فَعِندَ اللهِ مغانمُ كثيرة ، كذلك كنتم مِّن قبل فَمَنَّ اللهُ عليكم فَتَبَيَّنُوا إنَّ اللهَ كان بِمَا تعملون خبيراً ﴾ .

عَاشِرُوا الناسَ على ما يُظْهِرُونَ من أحوالهم ، ولا تَتَفَرَّسوا فيهم بالبطلان ؛ فإنَّ مُتَوَلِّىَ الأسرار اللهُ[4] . هذا إذا كان غرضٌ فاسدٌ يحملكم عليه من أحكام النَّفْس ، فأمَّا من كان نظرُه بالله ولم يَنْسَتِرْ عليه شىء فَلْيَحْفَظْ سِرَّ اللهِ فيما كُوشِفَ به ، ولا يظهر لصاحبه ما أراد الله فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لايستوى القاعِدون مِنَ المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسِهِمْ على القاعدين درجة ، وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ، وَفَضَّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ۝ درجاتٍ

---

(١) وردت (وحقيقة بأن) وصوابها وحقيق بان ولكننا آثرنا (وخليق بأن) حتى يمنع اللبس .

(٢) مشتبهة هنا ولكنها واضحة فى موضع سبق (انظر تفسير آية وأنبتها نباتاً حسناً ص ٢٣٧

(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فأثبتناها .

(٤) تدل هذه النظرة على سماحة الصوفية واتساع صدورهم ، فالأصل عندهم أن كل الناس طيبون ، ويجب أن نحسن الظن بهم جميعاً ، ونتقبل ظواهرهم تاركين أسرارهم للمولى سبحانه .

منه ومَغْفِرَةً ورحمةً وكان اللهُ
غفوراً رحيماً ﴾ .

الحقُّ سبحانه جمع جميع أوليائه فى أفضاله لـكنه غَايَرَ بينهم فى الدرجات ، فَمِنْ غنيٍّ ومن عبدٍ هو أغنى منه[1] ، ومِنْ كبيرٍ ومن هو أكبر منه ، هذه الـكواكب دُرِّية ولـكن القمرَ فوقها ، وإذا طلعت الشمسُ بهرت الجميع بنورها !

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين توفَّاهم الملائـكةُ ظالمى
أنفسِهِمْ قالوا فيم كنتم قالوا كُنَّا
مُسْتَضْعفِينَ فى الأرضِ قالوا ألم
تَـكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتُهاجِروا
فيها فأولئك مأواهم جَهَنَّمُ وَسَآءتْ
مصيراً ﴾ .

الإشارة منه إلى من أدركه الأجلُ وهو فى أَسْرِ نَفْسِهِ وفى رِقِّ شهواته — ليس له عذر حيث لم يهاجر إلى ظِلِّ قُربته ليتخلَّصَ مِنْ هوى نفسِه[2] إذ لا حجابَ بينك وبين هذا الحديث إلا هواك .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا المُسْتَضْعَفِين مِنَ الرجال والنِّساء
والولدانِ لا يَستطيعون حيلةً ولا يهتدون
سبيلاً * فأولئك عَسَى اللهُ أن يعفوَ
عنهم وكان الله عَفُوًّا غفوراً ﴾

الإشارة منه إلى الذين مَلَـكَتْهُمُ المعانى فأفنتهم عنهم ، فَبَقُوا مُصَرَّفِين له ، لا لهم حَوْلٌ ولا قوة ، يبدو عليهم ما يُجْرِيه — سبحانه — عليهم ، فهم بعد عود نفوسهم بحق الحقِّ محوٌ عنهم ، فلا يهتدون إلى غيره سبيلاً ، ولا يتنفَّسُون لغيره نَفَساً .

---

(١) واضح أن القشيرى يقصد الغنى فى الأحوال لا الغنى فى الأموال فليس لهذه كبير قيمة .
(٢) وردت هـكذا (هو انفسه) فصوبناها .

ويقال على موجب ظاهر الآية إن الذين أقعدتهم الأعذار عن الاختيار فعسى أن يتفضَّل الحقُّ — سبحانه — عليهم بالعفو .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِى الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

مَنْ هَاجَرَ فى الله عما سوى الله ، وصحح قَصْدَه إلى الله وَجَدَ فسحة فى عفوة الكَرَم ، ومقيلاً فى ذرى القبول ، وحياة وَسَعَةً فى كنف القرب .

وللمهاجر — فى الحقيقة — من هجر نَفْسَه وهواه ، ولا يصحُّ ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته ، ومَنْ قَصَدَه ثم أدركه الأجلُ قبل وصوله فلا ينزل إلا بساحات وصله ، ولا يكون محطُّ روحه إلا أوطان قربه .

قوله جل ذكره : ﴿وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جُنَاحٌ أن تَقْصُرُوا مِنَ الصلاةِ إنْ خِفْتم أن يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا إنَّ الكافرين كانوا لكم عدوًّا مُبِينًا﴾

القَصْرُ فى الصلاة سُنَّةٌ فى السفر ، وكان فى ابتداء الشرع عند الخوف[1] ، فأقرَّ ذلك مع زوال الخوف رفقاً بالعباد ، فلما دخل الفرضَ القَصرُ لأجل السفر عوضوا بإباحة النَّفْل فى السفر على الراحلة أينما توجهت به دابته من غير استقبال، فكذلك الماشى ؛ ليُعْلَمَ أنَّ الإذنَ

---

(١) لأن فى مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام ، أو فى سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله . . . ويرى ابن عمر أن هناك فرقاً بين صلاة السفر وصلاة الخوف ، وهو يحتج على قصر الصلاة فى السفر ويراه فى صلاة الخوف .

(تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٥٤٦) لابن كثير .

فى المناجاة مستديمٌ فى كل وقت ؛ فإنْ أردْتَ الدخول فمتى شئت ، وإن أردت التباعد مترخصاً فلك ما شئت ، وهذا غاية الكرم ، وحفظ منَّة الوفاء ، وتحقق معنى الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا كنتَ فيهم فأقمت لهم الصلاةَ فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهم معك وَليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فَلْيَكُونُوا من ورائكم ولتأتِ طائفةٌ أخرى لم يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا معك وليأخذوا حِذْرَهم وأسلحتهم ، ودَّ الذين كفروا لو تَغْفُلُون عَنْ أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم مَيْلَةً واحدةً ، ولا جُناحَ عليكم إن كان بكم أذًى من مَطَرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حِذْرَكم إنَّ اللهَ أعدَّ للكافرين عذاباً مُهينا ﴾

تدل هذه الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد ما دام فيه نَفَسٌ من الاختيار لا فى الخوف ولا فى الأمْن ، ولا عند غلبات أحكام الشرع إذا كنت بوصف التفرقة ، ولا عند استيلاء سلطان الحقيقة إذا كنتَ بعين الجمع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فإذا قضيتُمُ الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبكم فإذا اطمأنَنْتُمْ فأقيموا الصلاة إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾

الوظائف الظاهرة مُوَقته[1] ، وحضور القلب بالذكر مسرمد غير منقطع ؛ أمَّا بالرسوم

---

(١) أى حسب ميقات .

فوقتاً دون وقت ، وأمَّا بالقلوب فإياكم والغيبة عن الحقيقة لحظة كيفما اختلفت بكم الأحوال .. الذكرُ كيفما كنتم وكما كنتم ، وأما الصلاةُ فإذا اطمأننتم .

قوله جل ذكره : « ولا تهنُوا في ابتغاء القومِ إن تكونوا تألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » :

قوموا بالله وليكن[1] استنادكم في جهادكم إلى الله .

« إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون » : القومُ شاركوكم في إحساس الألم ، ولكن خالفوكم في شهود القلب ، وأنتم تشهدون مالا يشهدون ، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون ، فلا ينبغي أن تتأخروا عنهم في الجد والجهد .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ لتحكمَ بين الناسِ بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا * واستغفر[2] الله إن الله كان غفوراً رحيمًا » .

لم يأمرك[3] بالحكم بينهم على عمّى ولكن بما أراك الله[4] أي كاشفك به من أنوار البصيرة حتى وقفت عليه بتعريفنا إياك وتسديدنا لك ، وكذلك من يحكم بالحق من أمتك .

قوله : « ولا تكن للخائنين خصيماً » : أي لا تناضِل عن أرباب الحظوظ ولكن مع

---

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (ولا يكن) .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها واستغفروا .

(٣) وردت (لم يأمركم) والصواب (لم يأمرك) لأن الخطاب كله موجه إلى الرسول (ص) .

(٤) يحتج من ذهب من علماء الأصول بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم كان له أن يحكم بالاجتهاد ، وفيما رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد عن رجلين من الأنصار اختصما إلى الرسول (ص) في مواريث بينهما قد درست وليس عندهما بينة . . يلتهي الحديث على النحو التالي .

« إني إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل عليّ فيه » .

أبناء الحقوق ، ومن جنح إلى الهوى خان فيما أودع نفسه من التقوى ، ومَنْ رَكَنَ إلى أنواع نوزاع المنى خان فيما طولب به من الحياء لاطلاع المولى[1] .

« واستغفر الله » لأمتك ، فإنا قد كفيناك حديثك بقولنا : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تجادِلْ عن الذين يختانون أنفسَهم
إن الله لا يحبُّ مَن كان خوّاناً
أثيماً * يَسْتَخْفُون مِنَ النـاسِ
ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ
يُبَيِّتُونَ مالا يَرْضَى مِن القولِ وكان
الله بما يعملون محيطاً﴾ .

هم المؤثرون حظوظهم على حقوقه ، والراضون بالتعريج فى أوطان هواهم دون النقلة إلى منازل الرضا ، إن الله لا يحب أهل الخيانة فيذلهم — لا جَرَم — ولا يكرمهم .

قوله : « يستخفون من الناس » الغالب على قلوبهم رؤية الخَلْق ولا يشعرون أنَّ الحق مُطَّلِعٌ على قلوبهم أولئك الذين وَسَمَ الله قلوبهم بوسم الفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة
الدنيا فَمَن يجادلُ اللهَ عنهم يوم
القيامة أم مَّن يكون عليهم وكيلًا﴾ .

أىْ ندفع عنهم — بحرمتك — لأنك فيهم، فكيف حالهم يوم القيامة إذ زالت عنهم بركاتكم أيها المؤمنون ؟!

---

(٣) (يقال إن سبب نزول هذه الآية أن رجلا شكا أن طعمة بن أبيرق سرق درعه ، فلما رأى السارق ذلك ألقى الدرع فى بيت رجل برىء ، وقال لنفر من عشيرته إنى غيبت الدرع فى بيت فلان ، فانطلقوا إلى النبى (ص) ليلا فقالوا : يا نبىّ الله إن صاحبنا برىء . وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رءوس الناس وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . فقام رسول الله (ص) فبراه وعذره على رءوس الناس ، فأنزل الله هذه الآية) وقد حرصنا على إثبات سبب نزولها لأن ما بعدها من الآى مرتبط بهذه الواقعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يعملْ سوءاً أو يظلِمْ نَفْسَهَ ثم يستغفر الله يَجدِ اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ .

« ثم » : حرفٌ يدل على التراخي ؛ أي يزجون[1] عمرهم في البطالات والمخالفات ثم في آخر أعمارهم يستغفرون الله .

وقوله « يجد الله » : الوجود غاية الحديث[2] ، والعاصي لا يطلب غير الغفران ، ولـكن الله — سبحانه يوصله إلى النهاية بفضله — إذا شاء ، فسُنَّتُهُ تحقيق ما فوق المأمول لمن رجاه.

قوله جل ذكره . ﴿ ومَن يَكْسِبْ إثماً فإنَّما يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾ .

الحقُّ غنيٌّ عن طاعة المطيعين ، وزلة[3] العاصين ، فمن أطاع فحظَّه حَصَّلَ ، ومن عصى فحظه أخذ .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن يكْسِبْ خطيئة أو إثماً ثم يَرْمِ به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مُبيناً ﴾ .

من نسب إلى برىء ما هو صفته من المخازى عكس الله عليه الحال ، وألبس ذلك البرىء ثواب محاسن راميه ، وسحب ذيل العفو على مساويه ، وقَلَبَ الحال على المتعدِّى بما يفضحه بين أشكاله ، فى عامة أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فَضْلُ اللهِ عليكَ ورحمتُه

---

(١) وردت (يرجون) بالراء والصواب بالزاى

(٢) (التواجد بداية والوجود نهاية والوجد واسطة ، وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : التواجد يوجب استيعاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر) الرسالة ص ٣٧.

(٣) وردت (ذلة) بالذال والصواب أن تكون بالزاى لأن المناسب للسياق لفظ ضد الطاعة .

لَهَمَّتْ طائفة منهم أن يُضِلُّوك
وما يُضِلُّون إلا أنفُسَهُمْ وما يضرونك
من شيء وأنزل الله عليك الكتاب
والحكمة وعلَّمكَ ما لم تكن تعلم
وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

الفضلُ إحسانٌ غيرُ مستحق[1] ، والإشارة ههنا — من الفضل — إلى عصمته إياه ، فالحقُّ — سبحانه — عَصَمَه تخصيصاً له بتلك العصمة ، وكما عصمه عن تَرْك حقه — سبحانه — عَصَمَه بأنْ كَفَّ عنه كَيْدَ خلقِه فقال : « ولولا فضل الله عليك ورحمته .. » الآية .

كلاَّ ، لن يكونَ لأحدٍ سبيلُ إلى إضلالك فأنت في قبضة العزة ، وما يُضِلُّون إلا أنفسهم ، وما يضرونك بشيء ، إذ المحفوظ منا محروس عن كل غير ، وإنَّ الله سبحانه قد اختصك بإنزال الكتاب ، واستخلصك بوجوه الاختصاص والإيجاب، وعلَّمك ما لم تكن تعلم ، ولم يمن عليك بشيء بمثل ما مَنَّ به على من خصَّه به من العلم . ويحتمل أنه أراد به علمه — صلى الله عليه — بالله بجلاله ، وعلمه بعبودية نَفْسه ، ومقدار حاله في استحقاق عِزِّه وجماله .

ويقال علَّمك ما لم تكن تعلم من آداب الخدمة إذ لم تكن ملتبساً عليك معرفة الحقيقة .

ويقال أغناك عن تعليم الأغيار حتى لا يكون لأحدٍ نور إلا مُقْتَبَساً مِنْ نورِك ، ومَنْ لم يمش تحت رايتك لا يصل إلى جميع بِرِّنا ، ولا يحظى بقربنا وَوَصْلنا .

« وكان فضل الله عليك عظيماً » : في الآباد ، أنَّكَ كنت — لنا بشرف العز وكرم الربوبية في الآزال — معلوماً . ويقال وعلَّمك ما لم تكن تعلم من عُلُوِّ رُتْبَتِكَ على الكافة .

ويقال « علَّمك ما لم تكن تعلم » أنَّ أحَداً لا يُقَدِّرُ قَدْرَنا إلا بمقدار مُوافقتِه لأمْرِنا

قوله جل ذكره : ﴿ لَا خَيْرَ في كثيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُم

(١) لأن الفضل معناه الزيادة ، فربما يرى القشيري إلى أنه غير مستحق بسبب ذلك ، لأنه يفوق المستحق

إلا مَنْ أمَرَ بصَدَقَةٍ أو معروفٍ
أو إصلاحٍ بين الناس ومَن يفعلْ
ذلك ابتغاء مَرضاتِ اللهِ فسوف
نُؤتيه أجراً عظيماً ﴾

أفضل الأعمال ما كانت بركاته تتعدى صاحبَهُ إلى غيره ، ففضيلة الصَدَقَةِ يتعدى نفعها إلى من تصل إليه ، والفُتُوَّةُ أن يكون سعيك لغيرك ، ففي الخبر : «شَرُّ الناسِ مَنْ أَكَلَ وَحدَه» وكلُّ أصناف الإحسان ينطبق عليها لفظ الصدقة .

قال صلى الله عليه وسلم فى قَصْرِ الصلاة فى السفر : «هذه صدقة تصدَّقها الله عليكم فاقبلوا صَدَقَتَهُ»[1]

والصدقة على أقسام : صدقتك على نفسك ، وصدقتك على غيرك ؛ فأمَّا صدقتك (على نفسك فحَمْلُها على أداء حقوقه تعالى ، ومَنْعُها عن مخالفة أمره ، وقَصرُ يدها عن أذية الخَلْق ، وصَوْنُ خواطرها وعقائدها عن السوء . وأمَّا صدقتك)[2] على الغير فصَدَقةٌ بالمال وصدقة بالقلب وصدقة بالبدن .

فصدقة بالمال بإنفاق النعمة ، وصدقة بالبدن بالقيام بالخدمة ، وصدقة بالقلب بحسن النية وتوكيد الهمة .

والصدقة على الفقراء ظاهرة لا إشكالَ فيها ، أمَّا الصدقةُ على الأغنياء فتكون بأن تجود عليهم بهم ، فتقطع رجاءك عنهم فلا تطمع فيهم .

وأمَّا المعروف : فكلُّ حَسَنٍ فى الشرع فهو معروف ، ومن ذلك إنجاد المسلمين وإسعادهم فيما لهم فيه قربة إلى الله ، وزلفى عنده ، وإعلاء النواصى بالطاعة .

---

(1) هكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث ابن جريج عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمار . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وقال على بن المدينى هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر بن الخطاب ، ولا يحفظ الا من هذا الوجه ورجاله معروفون .

(2) ما بين القوسين استدراك فى الهامش وضعناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

ومن تصدّق بنفسه على طاعة ربه ، وتصدّق بقلبه على الرضا بحكمه ، ولم يخرج بالانتقام لنفسه ، وحثَّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه ، وأصلح بين الناس بصدقه فى حاله — فإنَّ لسانَ فعله أبلغ فى الوعظ من لسان نطقه ، فهو الصِّدّيق فى وقته . ومن لم يؤدِّبْ نَفْسَه لم يتأدبْ به غيرُه ، وكذلك من لم يهذِّبْ حالَه لم يتهذَّبْ به غيره .

« ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله » غيرَ سائلٍ به مالاً أوحائز لنفسه به حالاً فمن قريب يبلغ رتبة الإمامة فى طريق الله ، وهذا هو الأجر الموعود فى هذه الآية [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرسولَ من بعد ما تَبَيَّنَ له الهُدَى ويتَّبِعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولَّى ونُصلِه جَهَنَّمَ وساءت مصيراً ﴾

خواطر الحق سفراؤه تعالى إلى العبد ، فمن خالَفَ إشاراتِ ما طولب به من طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب ، ومنها أنْ يَعْمَى عن إبصار رشده . وكما أن مخالفَ الإجماع عن الدين خارجٌ فمخالِفُ ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق — ساقط .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله لا يَغفِر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لِمَن يشاء ومَن يُشْرِكْ بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً * إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطانا مريداً * لَعَنَهُ اللهُ وقال لأتخذنَّ مِن عبادك نصيباً مَفروضاً * ولَأُضِلَّنَّهُم ولأُمَنِّيَنَّهم ولَآمُرَنَّهم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام ولآمُرَنَّهم فليُغَيِّرُنَّ خلْقَ اللهِ ،

---

(1) نلاحظ فى هذه الفقرة أن القشيرى يوجه — بطريق غير مباشر — لومه إلى بعض الوعاظ المحترفين الذين ظهروا فى عصره وقبل عصره .

ومَن يتَّخذ الشيطانَ وَلياً مِّن دون
الله فقَدْ خسِرَ خُسراناً مبيناً ﴾

قولهُ «إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به » : إثبات الغير فى توهم ذرة من الإبداع عين الشِرْك ، فلا العفو فيه مساغ . وما دون الشرك فالعفو فيه مساغ ، ومن توسَّل إليه سبحانه بما توهَّم من نفسه فقد أشرك من حيث لم يعلم . كلاَّ ، بل هو الله الواحد .

قوله : « إنْ يدعون من دونه إلا إناثاً » : أوقعوا على الجمادات تسمياتٍ[1] ، وانخرطوا فى سلك التوهم ، وركنوا إلى مغاليط الحسبان ، فضَلُّوا عن الحقيقة .

« وإن يدعون إلا شيطانا مَرِيداً لعَنَهُ الله » ، أى ما يدعون إلا إبليس الذى أبعده الحقُّ عن رحمته ، وأسحقه[2] ببُعده ، وما إبليس إلا مُقَلَّبٌ فى القبضة على ما يريده المنشِئ ، ولو كان به ذرة من الإثبات لكان به شريكا فى الإلهية . كلاَّ ، إنما يُجرى الحقُّ — سبحانه — على الخلْق أحوالاً ، ويخلق[3] عقيب وساوسه للخلق ضلالا ، فهو الهادى والمُضِل ، وهو — سبحانه — المُصَرِّفُ للكل ، فيخلق (. . . .)[4] فى قلوبهم عُقَيْبَ وساوسه إليهم طول الآمال ، ويُحَسِّن فى أعينهم قبيح الأعمال ، ثم لا يجعل لأمانيِّهم تحقيقاً ، ولا يعقب لما أمَّلوه تصديقاً ، فهو تعالى مُوجِد تلك الآثار جملةً ، ويضيفها إلى الشيطان مرةً ، وإلى الكافر مرة ، وهذا معنى قوله : « ولأضلنهم ولأمنينهم » . . . الآية ومعنى قوله تعالى « يعدهم ويمنيهم »

قوله جل ذكره : ﴿ يَعِدُهم ويُمَنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطان
إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنَّمُ
ولا يجدون عنها محيصاً ﴾

---

(١) واضح من كلام القشيرى أنه يفهم الإناث على أنها الأوثان ، وهكذا عن عائشة . وروى عن بعض الصحابة أنها الملائكة إشارة إلى قوله تعالى فى موضع آخر (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) . وعن الحسن : الإناث كل شىء ميت ليس فيه روح .

(٢) فى النسخة س (استحقه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) يؤكد القشيرى نسبة خلق كل شىء لله ، وتجريد الشيطان من كل سلطان .

(٤) مشتبهة .

الذين قسم لهم الضلالة فى الحال حكم عليهم بالعقوبة فى المآل[1] ، ولولا أنه أظهر ما أظهر بقدرته وإلا متى كانت شظية من الضلالة والهداية لأربابها ؟! والوقوفُ على صدق التوحيد عزيزٌ ، وأربابُ التوحيد قليلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات
سندخلهم جناتٍ تجرى من تحتها
الأنهارُ خالدين فيها أبداً وَعْدَ اللهِ
حقاً وَمَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾

الذين أسعدناهم حكماً وقولا ، أنجدناهم حين أوجدناهم كرما وطَوْلا ، ثم إنَّا نُحقِّق لهم الموعودَ من الثواب ، بما نُكرِمُهم به من حسن المآب .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس بِأمانيِّكم ولا أمانىِّ أهلِ
الكتابِ مَن يعملْ سوءًا يُجْزَ بهِ
ولا يَجِدْ لهُ من دونِ اللهِ وليّاً
ولا نصيرا * ومَن يعملْ مِنَ
الصالحاتِ مِن ذَكَرٍ أو أنثى وهو
مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنَّةَ
ولا يُظْلَمون نَقيراً ﴾

مَنْ زَرَعَ الحنظل لم يجتنِ الورد والعبهر[2] ، ومن شرب السُّمَّ الزُّعاف لم يجد طعم العسل ، كذلك مَنْ ضيَّعَ حقَّ الخدمةِ لم يستمكِنْ على بساط القربة ، ومَنْ وُسِمَ بالشِّقوة لم يُرْزَقْ الصفوة ، وَمَنْ نَفَتْهُ القضية[3] فلا ناصرَ له من البَرِيَّةِ .

قوله : « ومن يعمل من الصالحات . . . . » الآية . مَنْ تَعَنَّى فى خدمتنا لم يبق عن نَيْلِ

---

(١) وردت (المال) وصوابها (المآل) .

(٢) العبهر = الياسمين وقيل النرجس (لسان العرب جـ ٢٠ ص ٥٣٦) ط بيروت .

(٣) القضية مقصود بها القضاء ، قضاء الله .

نعمتنا ، بل من أغنيناه[1] فى طلبنا أكرمناه بوجودنا ، بل من جرّعناه كأسَ اشتياقنا أنلناه أُنْسَ لقائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أحسنُ ديناً مِمَّنْ أسلم وجهه
لله وهو محسِنُ واتَّبَعَ مِلَّةَ ابرهيم
حنيفاً واتَّخذَ اللهُ ابرهيمَ خليلاً *
ولله ما فى السموات وما فى الأرضِ
وكان الله بكل شىء محيطا ﴾

لا أحدَ أحسنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله ، يعنى أفرد قصده إلى الله ، وأخلص عقده لله عما سوى الله ، ثم استسلم فى عموم أحواله لله بالله ، ولم يدَّخِرْ شيئاً عن الله ؛ لا من ماله ولا من جَسَدِه ، ولا من روحه ولا من جَلَدِه ، ولا من أهله ولا من وَلَدِه ، وكذلك كان حال ابرهيم عليه السلام .

وقوله « وهو محسن » : الإحسان — بشهادة الشرع — أن تعبد الله كأنك تراه ، ولا بد للعبد من بقية[2] من عين الفرق حتى يصحّ قيامه بحقوقه — سبحانه — لأنه إذا حصل (مستوفى)[3] بالحقيقة لم يصح إسلامه ولا إحسانه ، وهذا اتُّباع ابرهيم عليه السلام الحنيف الذى لم يبق منه شىء على وصف الدوام .

وقوله « واتخذ الله ابراهيم خليلاً » : جرَّد الحديث عن كل سعى وكدٍ وطلبٍ وجهدٍ حيث قال : « واتخذ الله ابراهيم خليلاً » فعُلِمَ أنّ الخلّة لُبسةٌ يُلْبِسها الحقُّ لا صفةٌ يكتسبها العبد .

---

(١) ربما كانت (عنيناه) بالعين أى من احتمل العناء فى سبيلنا تلاشى (جرعناه كأس) أما (أغنيناه) بالغين فيكون معناها أوجدنا فيه الغناء عما سوانا .

(٢) أى لابد أن يرد إلى الفرق الثانى حتى يستطيع أن يقوم بالفرائض الواجبة عليه فى أوقاتها .

(٣) هكذا جاءت فى النسخة ص وربما كانت فى الأصل (مساس) بالحقيقة ، فنحن نعرف عن مذهب القشيرى فى هذا الخصوص أن العبد ينبغى أن يحافظ على الشريعة مهما كانت الظروف ، وأى مساس بالشريعة بدعوى الاصطلام أو الفناء ـ فردود ، وهو آية نقص فى صدق صاحبه .

ويقال الخليل المحتاج[1] بالكلية إلى الحق فى كل نَفَسٍ ليس له شىء منه بل هو بالله لله فى جميع أنفاسه وأحواله ، اشتقاقاً من الخُلّة (التى هى الخصَاصَة وهى الحاجة)[2] .

ويقال إنه من الخلة التى هى المحبة ، والخلة أن تباشِر المحبةُ جميعَ أجزائه ، وتتخلل سِرَّه حتى لا يكون فيه مساغ للغير .

فلمَّا صَفَّاه الله — سبحانه — (عليه السلام) عنه ، وأخلاه منه نَصَبَه للقيام بحقه بعد امتحائه[3] عن كل شىء ليس الله سبحانه.

ثم قال : « وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً . . . . »[4] : لا يلبى الحاج إلا لله ، وهذه إشارة إلى جمع الجمع[5] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَستفتونك فى النِّسَاءِ قلِ اللهُ يُفتيكم فيهنّ وما يُتلَى عليكم فى الكتاب فى يتامى النِّساء اللَّاتى لا تؤتونَهنّ ما كُتِبَ لَهُنّ وترغبون أن تنكحوهن والمستضعَفِين مِن الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقِسْط وما تفعلوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ الله كان به عليماً ﴾

نهاهم عن الطمع الذى يحملهم على الحيف والظلم على المستضعفين من النِّسْوان واليتامى ، وَبَيَّنَ أنَّ المنتقِمَ به لهم اللهُ ، فَمَنْ راقب اللهَ فيهم لم يخسرْ على الله بل يجد جميل الجزاء ، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليمَ البلاء .

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى محاولة فريق من المعتزلة صرف الخلة عن كل ما يتطرق إليها من دلالة حسية ، والتماسهم ذلك فى الشعر القديم وقد نبهنا إلى ذلك فى هامش سبق .

(٢) هذه العبارة مكررة خطأ من الناسخ .

(٣) وردت (بعد امتحانه) بالنون وقد صوبناها إلى (امتحائه) أى بعد وصوله إلى المحو .

(٤) آية ٢٧ سورة الحج

(٥) وردت (جميع الجمع) والصواب (جمع الجمع)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يُصْلِحا بينهما صُلحاً ، والصُّلحُ خَيْرٌ ، وأُحْضِرَت الأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وإن تُحْسِنُوا وتتقوا فإنَّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً ﴾

صحبة الخلْق بعضهم مع بعض إنْ تجردت عن حديث الحق فإنها تتعرض للوحشة والملامة ، وممازجة النفرة والسآمة . فمَنْ أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلْقُ عن مراعاة حقه ، وخرج الكافة عليه باستصغار أمره واستحقار قَدْرِه . ومَنْ رجع إلى الله بقلبه ، استوى له — في الجملة والتفصيل — أمرُه ، واتسع[1] لاحتمال ما يستقبل من سوء خُلُقِ الخَلْق صدرُه فهو يسحب[2] ذيلَ العفو على هَنَاتِ جميعهم ، ويُؤْثِرُ الصلح بتركِ نصيبه وتسليم نصيبهم قال الله تعالى : « والصلح خير » .

واتضاعك في نفسك عن منافرة مَنْ يخاصمك أجدى عليك ، وأحرى لك مِنْ تطاولكَ على خصمك باغياً الانتقام ، وشهودِ مَالَكَ في مزية المقام . وأكثر المنافقين في أَسْرِ هذه المحنة .

قوله تعالى : « وأحضرت الأنفس الشح . . . » : وشُحُّ النفْس قيام العبد بحظه .

فلا محالة مَنْ حُجِبَ عن شهود الحق رُدَّ إلى شهود النفْس .

قوله تعالى : « وإن تحسنوا » : يعني يكن ذلك خيراً لكم . والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .

« وتتقوا » : يعني عن رؤيتكم مقامَ أنفسكم ، وشهود قَدْرِكم ، يعني وأنْ تروا ربَّكم ، وتفنوا برؤيته عن رؤية قدْرِكم .

---

(١) وردت (واتسع) وهي خطأ في النسخ

(٢) وردت (ويستحب) وهي خطأ النسخ .

« إن الله كان بما تعملون خبيراً » : يعنى إذا فنيتم عنكم وعن عملكم ، فكفى بالله عليماً بعد فنائكم ، وكفى به موجداً عقب امتحائكم[1].

قوله جل ذكره : ﴿ ولَن[2] تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كُلَّ الميل فتذروها كالمعَلَّقَةِ وإن تُصْلِحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما ﴾

يعنى أنكم إذا (. . . .)[3] فى أموركم انعكس الحال عليكم ، وانعكس صلاح ذات بينكم فساداً لكم ، فإذا قمتم بالله فى أموركم استوى العيشُ لكم ، وصفا عن الكدر وقتكم.

ويقال مَنْ حَكَمَ الله بنقصان عقله فى حاله[4] فلا تقدرون أن تجبروا نقصانهم بكفايتكم.

قوله تعالى « فلا تميلوا كل الميل » : يعنى لا تزيغوا عن نهج الأمر. قِفوا حيثما وُقِفْتم، وأنفذوا فيما أُمِرْتُم.

وقوله : « فتذروها كالمعلقة » يعنى أنكم إذا منعتموهن عن صحبة أغياركم ثم قطعتم عنهن ما هو حظوظهن منكم أضررتم بهن من الوجهين ؛ لا منكم نصيب ، ولا إلى غيركم سبيل ، وإن هذا الحيف عظيم. والإشارة[5] من هذا أنه إذا انسد عليك طريق حظوظك فتَحَ — سبحانه — عليك شهود حقه ، ووجود لطفه ؛ فإنَّ من كان فى الله تلَفُه فالحق — سبحانه — خَلَفُه ، وإنْ تُصْلِحوا ما بينكم وبين الخَلْق ، وتتقوا فيما بينكم وبين الحق فإن الله غفور لعيوبكم ، رحيم بالعفو عن ذنوبكم.

---

(١) وردت (امتحانكم) وهى خطأ فى النسخ فالامتحاء يرادف الفناء.

(٢) وردت (وان) وهى خطأ في النسخ.

(٣) مشتبهة ، وترجيح أنها كلمة تساوى فى المعنى (قمتم بأنفسكم) لتقابل ما جاء بعد (فإذا قمتم بالله).

(٤) يشير القشيرى بذلك الى النساء.

(٥) أسلوب القشيرى في هذه الإشارة فى حاجة منا الى وعى وتيقظ ، فالحظوظ للعبد ، والحقوق للحق ، والشهود للحق والوجود يكون للطف. والمغفرة — بمعنى التغطية — تكون للعيب ، والعفو — الإزالة — يكون للذنب ؛ والعيب قديق مغطى ولكن الذنب يزول.

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلاً مِن سَعَتِه وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ .

الصحبة التى لابُدَّ منها صحبةُ القلب مع دوام افتقار إلى الله ، إذ الحقُّ لابُدَّ منه . فأمَّا الأغيار فلا حاجة لبعضهم إلى بعض إلا من حيث الظاهر ، وذلك فى ظنون أصحاب التفرقة ، فأمَّا أهل التحقيق فلا تجرية لهم أن حاجةَ الخلْق بجملتها إلى الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله مافى السموات وما فى الأرضِ ولقد وصَّينا الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلكم وإياكم أنِ اتقوا الله ، وإن تكفروا فإنَّ لِلهِ مافى السموات وما فى الأرضِ وكان الله غنياً حميداً ﴾ .

كلَّفَ الكافة بالرجوع إليه ، ومجانبة مَنْ سِواه ، والوقوف على أمره ، ولكن فريقاً وُفِّق وفريقًا خُذِل . ثم عَرَّفَ أهلَ التحقيق أنه غَنِىٌّ عن طاعة كلِّ ولىٍّ ، وبرىء عن[1] زلة[2] كل غوىٍّ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولِلهِ مَافى السمواتِ وما فى الأرض وكَفَى باللهِ وَكيلًا ﴾ .

قَطَعَ الأسرار عن التَّعلُّق بالأغيار بأن عرَّفهم انفراده بمُلْكِ مافى السموات والأرض ، ثم أطمعهم فى حسن تولِّيه ، وقيامه بما يحتاجون إليه بجميل اللطف وحسن الكفاية بقوله : « وكفى بالله وكيلا » يصلح بملك حالك ولا يختزل مالك .

قوله جل ذكره : ﴿ إن يَشَأْ يُذهِبْكُم أيُّها الناسُ ويأتِ بآخَرِين وكان اللهُ على ذلك قديراً ﴾ .

---

(١) قبل (عن) واو زائدة حذفناها

(٢) وردت (ذلة) بالذال والصواب أن تكون هنا بالزاى .

من استغنى عنه فى آزاله فلا حاجة له إليه فى آباده . ويقال لا يحتاج إلى أحدٍ والعبد لا يستغنى عنه فى نَفَسٍ .

ويقال لا نهاية للمقدورات فإنْ لم يكن عمرو فزَيْدٌ ، وإنْ لم يكن عبدٌ فعبيد ، والذى لا بَدَلَ عنه ولا خَلَفَ فهو الواحد الأحد .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كان يريد ثوابَ الدنيا فَعِندَ اللهِ ثوابُ الدنيا والآخرةِ وكانَ اللهُ سميعًا بصيراً ﴾ .

لمَّا علَّقوا قلوبهم بالعاجل من الدنيا ذكَّرهم حديث الآخرة ، فقال « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » تعريفًا لهم أنَّ فوق هممهم من هذه الخسيسة[1] ماهو أعلى منها من نعيم الآخرة ، فلمَّا سَمَتْ إلى الآخرة قصودُهم قطعهم عن كل مرسوم[2] ومخلوق بقوله : « والله خير وأبقى »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقِسْطِ شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تُعرِضوا فإنَّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

---

(١) يقصد الدنيا بهذا الوصف

(٢) الرسم – كما يقول أبو نصر السراج فى لمعه – هو ما وسم به ظاهر الخلق برسم العلم ورسم الخلق فيمتحى بإظهار سلطان الحق عليه .

سئل الجنيد عن رجل غاب اسمه وذهب وصفه وامتحى رسمه فقال : نعم عند مشاهدته قيام الحق له بنفسه لنفسه فى ملكه ، فيكون ذلك معنى قوله امتحى رسومه يعنى علمه وفعله المضاف إليه بنظره إلى قيام الله له فى قيامه (اللمع ص ٤٢٧) .

(٣) آية ٧٣ سورة طه

القسط العدل ، والقيام بالله العدل بإيفاء حقوقه من نفسك ، واستيفاء حقوقه مِنْ كلِّ مَنْ هو لكَ عليه أمر ، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إمّا أمر بمعروف أو زجر عن مكروه أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق .

ومَنْ بقى لله عليه حق لم يباشر خلاصة التحقيق سره لله .

وأصل الدِّين[1] إيثار حق الحق على حق الخلق ، فمن آثر على الله — سبحانه أحداً إمّا والداً أو أمّاً أو وَلَدًا أو قريباً أو نسيباً ، أو ادَّخر عنه نصيبًا فهو بمعزل عن القيام بالقسط .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمَنُوا آمنوا بالله ورسوله
والكتابِ الذى نَزَّل على رسوله
والكتابِ الذى أنزل من قبل ،
ومن يكفر باللهِ وملائكتِه وكُتُبِه
ورُسُلِهِ واليومِ الآخِرِ فقد ضلَّ ضلالاً
بعيداً ﴾ .

يأيها الذين آمَنوا من حيث البرهان آمِنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان .

ويقال يأيها الذين آمَنوا تصديقاً آمِنوا تحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم .

ويقال يأيها الذين آمنوا فى الحال آمِنوا باستدامة الإيمان إلى المآل[2]

ويقال يأيها الذين آمَنوا آمِنوا وراء كل وصل وفصل[3] ووجد وفقد .

---

(١) بهذا نستطيع أن نجد صلة رحم بين لفظى (الدَّين) و (الدِّين) إذ يكون لكل منهما ارتباط — على نحو ما — بالحق وصاحب الحق .

(٢) وردت (المال) وهى خطأ فى النسخ ، فالمقصود بالحال : الدنيا ، والمآل : العقبى

(٣) الوصل معناه لحوق الغائب . وقال يحيى بن معاذ : « من لم يغمَّ عينيه عن النظر إلى ما تحت العرش لم يصل الى ما فوق العرش » . يعنى لم يلحق ما فاته من مراقبة الذى خلق العرش . وقال الشبلى : من زعم أنه واصل فليس له حاصل .

والفصل فوت الشىء المرجو من المحبوب .

قال بعضهم فرح الاتصال ممزوج بترح الانفصال (اللمع ص ٤٢٢)

ويقال يأيها الذين آمنوا باستهلال أدلة العقول آمنوا إذا أبختم بعقوة الوصول ، واستمكنت منكم حيرة البديهة(١) وغلبات الذهول(٢) ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذى كان غالباً عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات(٣) فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد ، ووصل وفصل .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمَنُوا ثم كَفَرُوا ثم ازدادوا كفراً لم يكنِ اللهُ ليغفر لهم ولا ليَهْدِيَهم سبيلا * بَشِّر المنافقين بأنَّ لهم عَذاباً أليما﴾ .

الذين تبدَّلَتْ بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم ، أولئك الذين قصمتهم(٤) سطوة العزة حكماً ، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً — فالحقُّ سبحانه لا يهديهم لقصد ، ولا يدلهم على رشد ، فبَشِّرهم بالفُرْقة الأبدية ، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العِزَّةَ فإنَّ العِزَّةَ لله جميعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عليكم فى الكتابِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آيَت الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديثٍ غيرِه، إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ ،

---

(١) الحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم تحجبهم عن التأمل والفكرة ، وقال الواسطى : حيرة البديهة أجل من سكون التولى عن الحيرة (اللمع ص ٤٢١) .

(٢) الغلبات عند قوة الرغبة والانفلات من دواعى الهوى والنفوس ، عند قوة رغبة الطالب اذا لاح له أعلام المزيد فى حال طلبه المطلوب ، فلو ظن أن مطلوبه وراء بحر تسبحه أو فى تيه سلكه بالهجوم عند غلبات الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه (اللمع ص ٤١٧) .

(٣) هذا تنبيه هام وخطير يدحض به المضلين والأدعياء ، أولئك الذين شن عليهم القشيرى هجومه العنيف فى مستهل « رسالته » والذين أساءوا إلى التصوف وأهله .

(٤) القصم : الكسر . حكى عن الرقاق أنه قال : لو أن المعاصى كانت شيئاً اخترته لتفنى ما أحزنى ذلك لأن ذلك يشبهنى ، وإنما قصم ظهرى حين سبق لى منه ذلك . (اللمع ص ٤٣٤) .

إنَّ اللهَ جامِعُ المنافقين والكافرين
في جهنّمَ جميعاً ﴾ .

من اعتصم بمخلوقٍ فقد التجأ إلى غير مُجير ، واستند إلى غير كهف ، وسقط في مهواة من الغلط بعيد قعرها ، شديد مكرها . أيبتغون العزَّ عند الذى أصابه ذل التكوين ؟! متى يكون له عزٌّ على التحقيق ؟ ومَنْ لا عزَّ له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدّى إلى غيره ؟

ويقال لاندرى أى حالتهم أقبح : طلب العز وهم فى ذل القهر وأسر القبضة أم حسبان ذلك وتوهمه من غير الله ؟

ويقال مَنْ طَلَبَ الشيء من غير وجهه فالإخفاق[1] غاية جهده ، ومن رام الغنى[2] فى مواطن الفاقة فالإملاق قصارى كدّه .

ويقال لو هُدُوا بوجدان العِزّ لما صُرِفَتْ قُصُودُهم إلى من ليس بيده شىء من الأمر .

قوله : « فإن العزّةَ لله جميعًا » العزُّ على قسمين : عزٌّ قديمٌ فهو لله وصفاً ، وعزٌّ حادثٌ يختص به سبحانه من يشاء فهو له — تعالى — مِلْكاً ومنه لطفاً[3] .

قوله « وقد نَزَّل عليكم فى الكتاب ..... » الآية : لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن ظلماتِ أنفسِهم تتعدى إلى قلوبكم عند استنشاقكم ما يَرِدُون من أنفاسهم ، فمن كان بوصفٍ ما متحققًا شاركه حاضروه فيه ؛ فجليسُ مَنْ هو فى أُنسٍ مستأنِسٌ[4] ، وجليسُ من هو فى ظلمةٍ مستوحِش .

ويقال هجرانُ أعداءِ الحقِّ فرضٌ ، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين ، والركون إلى أصحاب الغفلة قَرْعُ بابِ الفرقة

(١) وردت (الأحقاف) وهى خطأ فى النسخ إذ المقصود الخيبة والإخفاق .
(٢) أخطأ الناسخ فكتبها بالألف هكذا : (الغنا) .
(٣) يتساءل القشيرى فى كتابه « التحبير فى التذكير » تحت اسم « العزيز » : فإن قيل كيف الجمع بين قوله تعالى : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » وقوله تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ثم يجيب : لا تنافى بينهما فان العز الذى للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى ملكا وخلقا ، وعزه — سبحانه وتعالى — له وصفاً ، فاذا العز كله لله تعالى .
(٤) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مستأنف) ولا معنى لها هنا والصواب (مستأنس) لتقابل (مستوحش)

قوله : « إنكم إذن مثلهم » : أوضحُ برهانٍ على سريرة (. . . .)[1] صحبة من يقارنه[2] وعِشْرة مَنْ يخادنه ؛ فالشكل مقيد بشكله ، والفرعُ منتشِرٌ عن أصله .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يتربصون بكم : فإن كان لكم فتحٌ مِنَ اللهِ قالوا ألم نكُن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألَمْ نستحوذ عليكم ونَمْنَعْكُم مِنَ المؤمنين ، فاللهُ يحكُمُ بينكُم يومَ القيامةِ ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾

لمَّا عَدِموا الإخلاص فى الحقيقة ، وما ذقوا فيما استشعروا من العقيدة ، امتازوا[3] عن المسلمين فى الحُكْمِ ، وباينوا الكافرين فى الاسم ، وواجبٌ على أهل الحقِّ التحرُّزُ عنهم والتحفُّظ منهم ، ثم ضمن لهم — سبحانه — جميلَ الكفاية بقوله : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً »[4] وهذا على العموم ؛ فإن وبال كيدهم إليهم مصروف ، وجزاء مَكْرِهم عليهم موقوف ، والحقُّ — من قِبَلِ الحقِّ سبحانه — منصورٌ أهلُه ، والباطلُ — بنصر الحقِّ سبحانه — مُجتثٌّ أصلُه .

قوله جل ذكره : ﴿ إن المنافقين يخادِعون اللهَ وهو خَادِعُهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءون النَّاسَ

---

(١) مشتبهة ولا بد أنها كلة بمعى (المرء) أو (الشخص) . . . ونحوها

(٢) يقارنه هنا معناها أن يكون له قرين .

(٣) امتازوا هنا معناها افترقوا بعلامات مخصوصة

(٤) قال على رضى الله عنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا يوم القيامة حين يحكم الله بينهم ، فلا يكون للكافرين سبيل إلى حجة . ويرى غيره أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا فى الدنيا فلن يستطيعوا عليهم نصراً بالكلية ، ولكن قد يحصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس ولكن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة . (ابن كثير ص ٥٦٧)

ولا يذكرون الله إلا قليلاً *
مُذَبْذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاء
ولا إلى هؤلاء وَمَن يُضلِلِ اللهُ فَلَن
تَجِدَ له سبيلاً ﴾

خداع المنافقين : إظهار الوفاق فى الطريقة واستشعار الشِرْك فى العقيدة .

وخداع الحق إياهم : ماتوهموه من الخلاص ، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص ، فإذا كُشِفَ الغطاء أيقنوا أن الذى ظنُّوه شراباً كان سرابا ، قال تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »[1] .

وقوله : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا . . . . » الآية : علامة النفاق وجود النشاط عنْد شهود الخلْق ، وفتور العزم عند فوات رؤية الخلْق .

وقوله : « مذبذبين بين ذلك . . . » الآية : أخَسُّ الخلْقِ من يَدَعُ[2] صدار العبودية ، ولم يجد سبيلاً إلى حقيقة الحرية[3] ، فلا له من العز شظية ، ولا فى الغفلة عيشة هنية .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا
الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،
أتريدون أن تجعلوا لله عليكم
سلطاناً مُبيناً ﴾

---

(١) آية : ٤٧ سورة الزمر .

(٢) وردت (تدع) والصواب (يدع) لأن الكلام ليس خطابا ، ومعناها ترك .

(٣) حقيقة الحرية إشارة الى نهاية التحقق بالعبودية لله تعالى ، وهو ألا يملكك شىء من المكونات وغيرها ، فتكون حراً اذا كنت لله عبداً ، كما قال بشر الحافى لسرى السقطى وحمها الله فيما حكى عنه أنه قال : إن الله تعالى خلقك حراً فكن كما خلقك ، لا ترائِ أهلك فى الحضر ، ولا رفقتك فى السفر ، اعمل لله ، ودع الناس عنك .

وقال الجنيد : آخر مقام العارف الحرية .

وقال بعضهم : لا يكون العبد عبداً حقاً ويكون لما سوى الله مسترقا (اللمع ص ٤٥٠) .

كرَّر[1] عليهم الوعظ، وأكّد بمباينة الأعداء عليهم الأمر، إبلاغاً في الإنذار، وتغليظاً في الزجر، وإلزاماً للحجة (. . . .)[2] موضع العذر.

قوله: «أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا»: توَعَّدَهم على موالاتهم للكفار بما لم يتوعَّد على غيره من المخالفات، لما فيه من إيثار الغير على المعبود؛ وإيثارُ الغير على المحبوب من أعظم الكبائر في أحكام الوداد. فإذا شَغَلَ من قلبه محلاً — كان للمؤمنين — بالأغيار استوجب ذلك العقوبة فكيف إذا شغل محلاً من قلبه — هو للحق — بالغير؟!

والعقوبة التي توَعَّدَهم بها أنْ يَكِلَهم وما اختاروه من موالاة الكفار، وبئس البدل!

كذلك مَنْ بقي (عن)[3] الحق تركه مع الخَلْق؛ فيتضاعف عليه البلاء للبقاء عن الحق والبقاء مع الخلْق، وكلاهما شديدٌ مِنَ العقوبة.

قوله جل ذكره: «إنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النارِ ولَن تَجِدَ لهم نصيراً».

دلَّتْ الآية على أنَّ المنافق ليس بمُسْتأمنٍ لأنَّ الإيمان مايوجب الأمان، فالمؤمن يتخلَّص بإيمانه من النار، فما يكون سبب وقوعه في الدرك الأسفل من النار لايكون إيماناً، ويقال هذا تحقيق قوله: «والله خير الماكرين» أي مَكْرُه فوق كل مَكْرٍ. لمَّا أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر[4] بكفره.

ويقال نقلهم[5] في آجلهم[6] إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم، لِمَا في الخبر: «من كان

---

(1) نعرف من مذهب القشيري أنه لا يميل إلى القول بالتكرار في القرآن الكريم، ولعل أبسط نتائج هذا المذهب أنه لا يرى في البسملة التي تأتي في مستهل كل سورة بلفظها — أي شيء من التكرار، بل هي عنده متجددة بما يتلاءم والسورة، لأجل هذا تستوقفنا هنا كلمة: «كرر» ونتدبر الأسباب القوية التي أوجبت إليها التكرار.

(2) مشتبهة.

(3) وردت (من) ولكن المعنى يرفضها قطعاً ويؤيد (عن) خصوصاً وقد جاءت (عن) في العبارة التالية التي هي بمثابة نتيجة لجزء الأول من الكلام.

(4) وردت (جاهد) بالدال والصواب ان تكون (جاهر) بالراء فالمعنى يقتضي ذلك.

(5) وردت هكذا (ثقلهم) بنقطة محذوفة فوق الحرف الأول ثم ثلاث نقط فوق القاف وربما أراد الناسخ أن يحذف النقطة الثالثة فأخطأ وحذف النقطة التي فوق النون.

(6) وردت (أجلهم) والصواب (آجلهم).

بحالةٍ لقي الله بها » فالمنافق — اليومَ — في الدرك الأسفل من الحجر[1] فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار . والدرك الأسفل من الحجر — اليوم — لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية وهذا هو البلاء الأكبر .

ويقال استوجبوا الدرك الأسفل من النار لأنهم صحبوا اليوم اسم الله الأعظم لا على طريقة الحرمة . ويقال استوجبوا ذلك لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بألسنتهم ، وسوء الأدبِ يوجِبُ الطردَ .

قوله جل ذكره ﴿إلاَّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا
بالله وأخلصوا دينَهم لله فأولئك
معَ المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ
المؤمنين أجْرًا عظيماً﴾ .

لم يشترط كل هذه الشرائط في رجوع أحدٍ عن جُرْمِهِ ما اشترط في رجوع المنافقين عن نفاقهم لصعوبة حالهم في كفرهم . وبعد تحصيلهم هذه الشروط قال لهم : «فأولئك مع المؤمنين» ولم يقل من المؤمنين ، وفي هذا إشارة أيضاً إلى نقصان رتبتهم وإنْ تداركوا بإخلاصهم ما سبق من آفتهم ، وفي معناه أنشدوا :

والعُذر مبسوطٌ ولكنما شتان بين العذر والشكر

ويقال إن حرف (مع) للمصاحبة ، فإذا كانوا مع المؤمنين استوجبوا ما يستوجب جماعة المؤمنين ، فالتوبة هنا أي رجعوا عن نفاقهم ، وأصلحوا — بصدقهم في إيمانهم ، واعتصموا بالله بالتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وشاهدوا المِنَّة لله عليهم حيث هداهم ، وعن نفاقهم نجَّاهم .

قوله : «وأخلصوا دينهم لله» : ونجاتهم بفضل ربهم لا بإيمانهم في الحال ، ورجوعهم عن نفاقهم فيما مضى عليهم من الأحوال .

ويقال أخلصوا دينهم لله وهو دوام الاستعانة بالله في أن يثبتهم على الإيمان ، ويعصمهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من النفاق .

---

(١) نرجح أنها (الحجر) بالحاء ويتأيد ذلك بقوله فيما بعد (ليس لهم من الله شظية) .

ويقال تابوا عن النفاق، وأصلحوا بالإخلاص في الاعتقاد، واعتصموا بالله باستدعاء التوفيق وأخلصوا دينهم لله في أن نجاتهم بفضل الله ولطفه لا بإتيانهم بهذه الأشياء — في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان اللهُ شاكرًا عليماً﴾.

هذه الآية من الآيات التي توجب حُسْنَ الرجاء وقوة الأمل، لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبات شيئين اثنين: الشكر والإيمان، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان؛ فإن الشكر قالة، والإيمان حالة، ولقد هوّن السبيل على العبد حين[1] رضي منه بقالته وحالته. والشكر لا يصح إلا من المؤمنين فأمّا الكافر فلا يصح منه الشكر؛ لأن الشكر طاعة والطاعة لا تصح من غير المؤمن.

وقوله: «وآمنتم» يعني في المآل؛ فكأنه بيّن أن النجاة إنما تكون لمن كانت عاقبته على الإيمان، فمعنى الآية لا يعذبكم الله عذاب التخليد[2] إن شكرتم في الحال وآمنتم في المآل.

ويقال إن شكرتم وآمنتم صدقتم بأن نجاتكم بالله لا بشكركم وبإيمانكم.

ويقال الشكر شهود النعمة من الله والإيمان رؤية الله في النعمة، فكأنه قال: إن شاهدتم النعمة من الله فلا يقطعنّكم شهودها عن شهود المُنْعِم

وقوله: «وكان الله شاكراً عليماً» أي والله شاكر عليم، ومعنى كونه شاكراً أنه مادِحٌ للعبد ومُثْنٍ عليه فيما يفعله لأن حقيقةَ الشكر وحَدَّه الثناء على المُحْسِن بذكر إحسانه؛ فالعبد يشكر الله أي يثني عليه بذكر إحسانه إليه الذي هو نعمته عليه، والربُّ يشكر للعبد أن يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو طاعته له، فإن الله يثني عليه بما يفعله من الطاعة مع علمه بأن له ذنوباً كثيرة.

ويقال يشكره — وإنْ عَلِمَ أنه سيرجع في المستأنف إلى قبيح أعماله.

---

(١) وردت (من) ونرجح أنها في الأصل (حين)

(٢) وردت (التخليل) ونرجح أنها (التخليد) فهو وصف عذاب جهنم.

ويقال يشكره لأنه يعلم ضعفه، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصى وقَصْدُه مخالفةُ ربِّه ولكنه يُذْنِبُ لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبة .

ويقال يشكره لأن العبد يعلم فى حالة ذنوبه أن له ربًا يغفر له .

قوله جل ذكره : ﴿لا يحبُّ اللهُ الجهرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ وكان اللهُ سميعاً عليماً﴾

قول المظلوم فى ظالمه — على وجه الإذن له — ليس بسوء فى الحقيقة ، لكنه يصح وقوع لفظة السوء عليه كقوله تعالى : « وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها »[1] والجزاء ليس بسيئة .

ويقال مَنْ عَلِمَ أن مولاه يسمع استحيا من النطق بكثيرٍ مما تدعو نفسه إليه .

ويقال الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تُحدِّثُ فى نفسك من مساءة الخلْق ؛ فإن الخواص يحاسبون على ما يتحدثون فى أنفسهم[2] بما (يعد)[3] لا يُطالَب به كثيرٌ من العوام فيما يَسمعُ منهم الناس .

قوله : « إلاَّ مَنْ ظُلِمَ » : قيل ولا من ظُلِمَ . وقيل معناه ولكن مَنْ ظُلِمَ فله أنْ يذكرَ ظالمَه بالسوء[4] .

ويقال من لم يُؤْثِرْ مدحَ الحقِّ على القَدْحِ فى الخَلْقِ فهو المغبون فى الحال .

ويقال من طَالَعَ الخلْقَ بعين الإضافة إلى الحق بأنهم عبيد الله لم يبسط فيهم لسان اللوم ؛

---

(١) الآية ٤٠ سورة الشورى .

(٢) من ذلك ما يحكيه القشيرى فى كتابه « التحبير فى التذكير » عن الشبلى حيث يقول : « قال بعضهم كنت مع الشبلى — رحمه الله — ففتح له بمنديل حسن فمر بكلب ميت فقال لى : كفن هذا الكلب بهذا المنديل . وعدت إليه فقال لى فعلت ما أمرتك به؟ فقلت : لا . فلم يقل لى شيئاً فقلت له : ماسبب ذلك الذى أمرتنى به؟ فقال : عندما مررت به استقذرته واستقبحته ، فنوديت فى سرى : ألسنا نحن خلقناه ؟ فأمرتك بذلك كفارة لما خطر لى » .

(٣) وربما كانت هذه اللفظة (يعد) زائدة ، أو سقطت (لا) قبلها فيكون معنى (لا يعد) لا يحسب ولا يعتبر

(٤) عن ابن عباس : إن الله لا يحب أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له .
وعن الحسن البصرى يكفى أن يقول المظلوم « اللهم أعنى عليه واستخرج حقى منه » وفى رواية عنه أنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه .

يقول الرجل لصاحبه : « أنا أحتَمِل من (. . . .)[1] خدمتك حرمة لك مالا أحتمله من ولدى » ، فإذا كان مثل هذا معهوداً بين الخلْق فالعبد بمراعاة هذا الأدب — بينه وبين مولاه — أوْلى .

ويقال لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من العوام ، ولا يحب ذلك بخطوره[2] من الخواص .

ويقال الجهر بالسوء من القول من العوام أن يقول فى صفة الله ما لم يَرِدْ به الإذن والتوفيق .

والجهر بالسوء من القول فى صفة الخلْق أن تقول ما ورد الشرع بالمنع منه ، وتقول فى صفة الحق ما لا يتصف به فإنك تكون فيه كاذباً ، وفى صفة الخلْق عن الخواص ما اتصفوا به من النقصان — وإن كنت فيه صادقاً .

قوله « وكان الله سميعاً عليماً » : سميعاً لأقوالكم ، عليماً بعيوبكم ، يعنى لا تقولوا للأغيار ما تعلمون أنكم بمثابتهم .

ويقال سميعاً لأقوالكم عليماً ببراءةِ ساحةِ مَنْ تقَوّلْتُم عليه ، فيكون فيه تهديد للقائل — لبرىء الساحةِ — بما يتقوّلُ عليه .

ويقال سميعاً : أيها الظالم ، عليماً : أيها المظلوم ؛ تهديدٌ لهؤلاء وتبشيرٌ لهؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ تُبْدُوا خيراً أو تُخْفُوه ، أو تَعْفُوا عن سوءٍ فإنَّ اللهَ كان عَفُوّاً قديراً ﴾

« إن تبدوا خيراً » تخلقاً بآداب الشريعة ، وتخفوه تحققاً بأحكام الحقيقة .

« أو تعفوا عن سوء » أخذاً من الله ما ندبكم إليه من محاسن الخُلُق .

« فإن الله كان عَفُوّاً » لعيوبكم « قديراً » على تحصيل محبوبكم وتحقيق مطلوبكم .

ويقال إن تبدوا خيراً لتكونوا للناس قدوة فيما تُسِنُّون وما تعينون غيركم على ما يهْدُون به من سلوك سُنَّتِكم ، وإنْ تخفوه اكتفاء بعلمه ، وصيانة لنفوسكم عن آفات التصنُّع ، وثقة

---

(١) مشتبهة .

(٢) أى (بأن يخطر عليهم خاطر) فعقوبة العوام على النطق والقول وعقوبة الخواص على (الخاطر)

بأن[1] من تعملون[2] له يرى ذلك ويعلمه منكم، وإن تعفوا عن سوء أى تتركوا ما تدعوكم إليه نفوسكم[3] فالله يجازيكم بعفوه على ما تفعلون، وهو قادر على أن يبتليكم بما ابتلى به الظالم، فيكون تحذيراً لهم من أن يغفلوا عن شهود المنة، وتنبيهاً على أن يستعينوا أن يُسلَبوا العصمة، وأنْ يُخذَلُوا حتى يقعوا فى الفتنة والمحنة.

ويقال إنْ تبدوا خيراً فتحسنوا إلى الناس، أو تخفوه بأن تدعوا لهم فى السر، أو تعفوا عن سوء إنْ ظُلِمْتُم.

ويقال من أحسن إليك فأبْدِ معه خيراً جهراً، ومن كفاك شرَّه فأخلِصْ بالولاء والدعاء له سِرّاً، ومن أساء إليك فاعفُ عنه كرماً وفضلاً؛ تجِدْ من الله عفوَه عنك عما ارتكبتَ، فإن ذنوبَك أكثرُ، وهو قادرٌ على أنْ يُعطِيَك من الفضل والإنعام مالا تصل إليه بالانتصاف من خصمك، وما تجده بالانتقام[4].

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّ الذين يكفرون بآيات الله ورسله ويريدون أن يفرِّقوا بين الله ورُسُلِهِ ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلًا * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهِيناً ﴾.

أخبر عنهم أنهم أضافوا إلى قبيح كفرهم ما عُدَّ من ذميم فعلهم، ثم بيَّنَ أنه

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (باب)

(٢) مستدركة فى الهامش (تعملون) لأنها فى المتن (تعلمون) والصواب ما جاء فى الهامش

(٣) إشارة القشيرى هنا فى حاجة منا إلى تدبر، فهو يبدأ أولا بالنفس، ثم ينتقل إلى الناس، ذلك لأنه حسب ما نعرف عنه يعتبر صراعك مع نفسك هو الميدان الأول الذى ينبغى أن تحارب فيه أهواءك وأطماعك ودعواك؛ فهى أعدى أعدائك، ثم تأتى من بعد ذلك علاقاتك خارج نفسك أى مع الناس

(٤) واضح من هنا مقدار ما يتمتع به الصوفية من رحابة الصدر ولين الجانب وسماحة الطبع.

ضاعف[1] من عذابهم ما كان جزاء جرمهم، لِيَتَعَلَّمَ أنه لأهل الفساد بالمرصاد.

قوله جل ذكره: ﴿والذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ ولم يُفَرِّقوا بين أحَدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾

لما آمنوا بجميع الرسل، وصَدَّقوا في جميع ما أُمِروا به استوجبوا القبول وحسن الجزاء. وتقاصر الإيمان عن بعض الأعيان كتقاصره عن بعض الأزمان، فكما أنه لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (....)[2] إلى آخر ماله — كذلك لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (من)[3] أُمِرَ بالإيمان به؛ إذ جعل ذلك شرط تحقيقه وكماله. فالإشارة في هذا أن من لم يخرج عن عهدة الإلزام بالكلية فليس له من حقيقة الوصل شظية، قال صلى الله عليه وسلم: «الحجُّ عرفة»[4] فمن قطع المسافة — وإن كان من فج عميق — ثم بقي عن عرفات بأدنى بقية لم يُدْرِك الحج.

وقال صلى الله عليه وسلم: «المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم»[5]

قوله جل ذكره: ﴿يسألك أهلُ الكتابِ أن تُنَزِّلَ عليهم كتاباً مِنَ السماء فقد سألوا موسى أكبر مِن ذلك فقالوا أرِنا

---

(1) وردت (أضعف) وهي خطأ من الناسخ، ولابد أن تكون (ضاعف) العذاب لأن جزاء الكافرين عذاب مهين وهو الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي.

(2) مشتبهة.

(3) نرجح أنها في الأصل (ما) أمر بالإيمان به منعاً للبس، ويمكن أن تقبل (من) على أنها مرتبطة بالرسل.

(4) «الحج عرفه من جاء قبل طلوع الفجر من ليلة فقد أدرك الحج أيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه (الامام أحمد في مسنده وأبو عدي في الكامل والحاكم في مستدركه والبيهقي في السنن) ٢/٣٥٨ منتخب كنز العمال.

(٥) «المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته شيء».

مفتاح كنوز السنة (مادة العتق) للدكتور ا. فنسنك ط لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية، ومراجعه سنن أبي داود كتاب ٢٨ باب ١ وسنن ابن ماجه كتاب ١٩ باب ٣ وموطأ مالك كتاب ٣٩ ومسند أحمد حـ ٢ ص ١٧٨، ١٨٤.

اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهم الصَّاعِقَةُ
بِظُلْمِهم ثم اتخذُوا العِجْلَ من بعد
ما جاءتهم البَيِّنَاتُ فعفَوْنا عن ذلك
وآتينا موسى سلطانا مبيناً ﴾

اشتملت الآية على جنسين من قبيح ما فعلوه: أحدهما سؤالهم الرؤية والثانى عبادة العجل بعد ما ظهرت لهم الآيات الباهرة.

فأمَّا سؤالهم الرؤية فَذُمُّوا عليه لأنهم اقترحوا عليه ذلك بعد ما قطع عذرهم بإقامة المعجزات، ثم طلبوا الرؤية لا على وجه التعليم، أو على موجب التصديق به، أو على ما تحملهم عليه شدة الاشتياق، وكل ذلك سوء أدب.

الإشارة فيه أيضاً أنَّ مَنْ يكتفى بأن يكون العجلُ معبودَه — متى — يسلم له أن يكون الحقُّ مشهودَه ؟

ويقال القومُ لم يباشِرْ العرفانُ أسرارَهم فلذلك عكفوا بعقولهم[1] على ما يليق بهم من محدودٍ جوَّزوا أنْ يكون معبودَهم.

قوله جل ذكره: ﴿ وآتينا موسى سلطانا مبيناً ﴾

حجةً ظاهرةً، بل تفرداً صانَه من التمثيل والتعطيل.

والسلطان المبين التحصيل والتنزيه المانع من التعطيل والتشبيه.

ويقال السلطان المبين القوة بسماع الخطاب من غير واسطة.

---

(١) هذا كلام له أهمية قصوى فى تحديد مدى تقدير القشيرى لقيمة العقل.

فنحن نعرف من مذهبه فى المعرفة أن العقل يعول عليه فقط فى البداية، يقول فى رسالته ص ١٩٧ (تجب البداءة بتصحيح اعتقاد بين العبد وبين الله تعالى صاف عن الظنون والشبه خال من الضلال والبدع صادر عن البراهين والحجج) ولكن العقل بعدئذ غير جدير بمواصلة الصعود إلى ما هو أعلى من ذلك لأنه يصاب بآفات (التجويز والتحير والتوهم والتحدد) ويناط بغير العقل من الملكات الأخرى وهى القلب والروح والسر وعين السر أو سر السر أن تواصل القصود نحو الذرى العليا. فما أشبه الذين يريدون تطبيق الوسائل العقلية على الربوبية بمن عبدوا العجل! وعكفوا بعقولهم على المحدود!

ويقال السلطان المبين لهذه الأمة غداً ، وهو بقاؤهم فى حال لقائهم — قال صلى الله عليه وسلم : « لا تضامون فى رؤيته »[1] — فى خبر الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَفَعْنا فَوْقَهم الطُّورَ بميثاقِهم وقلنا لهم ادخُلُوا البابَ سُجَّداً وقلنا لهم لا تَعْدُوا فى السَّبْتِ وأَخَذْنا منهم مِيثاقاً غليظاً ﴾

ما زادهم فى الظاهر آيةً إلا زادوا فى قلوبهم جحداً ونُكْراً ، فلم تنفعهم زيادة نصيب الإعلام ، لمَّا لم تنفتح لشهودها بصائرُ قلوبهم ، قال تعالى : « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبِما نَقْضِهم ميثاقَهم وكُفْرِهِم بآياتِ اللهِ وقَتْلِهِمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍ وقَوْلِهِم قلوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكُفرِهِم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾

معناه لارتكابهم هذه المناهى ، ولا تصافهم بهذه المخازى ، أحللناهم منازل الهوان ، وأنزلنا بهم من العقوبة فنون الألوان .

ويقال لِحَقَهُمْ شؤم المخالفات حالة بعد حالة ، لأن من عقوبات المعاصى الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهى ؛ فَبِنَقْضِهم الميثاق ، ثم لم يتوبوا ، جرَّهم إلى كفرهم بالآيات ، ثم لشؤم كفرهم خذِلُوا حتى قتلوا أنبياءهم — عليهم السلام — بغير حقٍ ، ثم لشؤم ذلك تجاسروا حتى ادَّعوا شدةَ التفهُّم ، وقالوا : قلوبنا أوعية العلوم ، فَرَدَّ الله عليهم وقال : « بل طبع الله عليها بكفرهم » فَحجَبَهُمْ عن محلِّ العرفان ، فعمهوا فى ضلالتهم .

(١) « ... إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر »
البخارى كتاب ٩ باب ١٥ و ٢٦ وكتاب ٦٥ سورة ٤ مفتاح كنوز السنة ص ٥٧
(٢) آية ١٠١ سورة يونس

قوله جل ذكره : ﴿ وبكفرِهم وقولِهم على مريم بهتانا عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صلبُوه ولـكن شُبِّهَ لهم وإنّ الذين اختلفوا فيـه لفى شَكٍّ منه ما لَهُم به مِنْ عِلْمٍ إلا اتّبَاعَ الظَّنِّ وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ﴾

مجاوزةُ الحدِّ ضلالٌ ، كما أن النقصانَ والتقاصرَ عن الحقِّ ضلالٌ ، فقومٌ[1] تَقَوَّلُوا على مريم ورموها بالزنا ، وآخرون جاوزوا الحدَّ فى تعظيمها فقالوا : ابنُها ابنُ الله ، وكلا الطائفتين وقعوا فى الضلال .

ويقال مريم — رضى الله عنها — كانت وليّةَ الله ، فَشَقِيَ بها فرقتان : أهل الإفراط وأهل التفريط . وكذلك كان أولياؤه — سبحانه — فَمُنْكِرُهُم يَشْقَى بِتَرْكِ احترامهم ، والذين يعتقدون فيهم مالا يستوجبونه يَشْقَوْن بالزيادة فى إعظامهم ، وعلى هذه الجملة دَرَجَ الأكثرون من الأكابر .

قوله تعالى : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه . . يقيناً بل رفعه الله » .

قوله تعالى : « وما صلبوه ولـكن شُبِّهَ لهم . . . . عزيزاً حكيما » قيل أوقع الله شَبَهَهُ[2] على الساعى به فقُتِلَ وصُلِبَ مكانَه ، وقد قيل : مَنْ حفر بئراً لأخيه وقع فيها[3]

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (فقوموا) .

(٢) وردت (شبهة) بالتاء المربوطة والصواب (شبه)

(٣) اختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه ، وكانوا اثنى عشر رجلا (ذكر أسماءهم) ومنهم ليودس زكريا يوطا . ويقول ابن اسحق (نقلا عن رواية نصرانية) أن ليودس مقابل ثلاثين درهما هو الذى دل الأعداء على عيسى بأن قبّله ساعة دخولهم فأخذوه فصلبوه . انتهت الرواية .

تعليق : هذه الرواية التى اعتمد عليها ابن اسحق تتفق مع ما جاء فى الأناجيل الأربعة وليودس هذا هو يهوذا الاسخريوطى .

وقيل إن عيسى عليه السلام قال : مَنْ رَضِيَ بأن يُلقَى عليه شَبَهِى فيُقتلَ دونى فله الجنة ، فرضى به بعضُ أصحابه[1] ، فيقال لمَّا صبر على مقاساة التلف لم يعدِم من الله الخلف[2] ، قال الله تعالى : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »[3] .

ويقال لمَّا صَحَّتْ صحبةُ الرجل مع عيسى — عليه السلام — بِنَفْسِهِ صَحِبَهُ بروحه ، فلمَّا رُفِعَ عيسى — عليه السلام — إلى محل الزلفة ، رفع روح هذا الذى فداه بنفسه إلى محل القربة[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن من أهلِ الكتاب إلا ليُؤْمِنَنَّ به قبل موتِهِ ، ويومَ القيامةِ يكون عليهم شهيدا ﴾

لما حكم بأن لا أمَانَ لهم فى وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان فى تلك الحالة ، فَعُلِمَ أنَّ العِبْرَةَ بأمان الحقِّ لا بإيمان العبد .

قال جل ذكره : ﴿ فبظلْمٍ مِنَ الذين هادوا حَرَّمْنَا عليهم طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لهم وبِصَدِّهِم عن سبيل الله كثيراً * وأخْذِهِم الرِّبَا وقد نُهُوا عنه وأكْلِهِم أموالَ الناسِ بالباطل ،وأعْتَدْنَا للكافرين منهم عذاباً أليما ﴾

---

(١) عن ابن اسحق عن رجل كان نصرانياً وأسلم أنه ذكر له أن عيسى حين جاءه من الله إنى رافعك قال يا معشر الحواريين : أيكم يحب أن يكون رفيق فى الجنة حتى يشبه للقوم فى صورتى فيقتلوه فى مكانى فقال أحدهم واسمه سرجس : أنا يا روح الله . قال : فاجلس فى مجلسى لجلس فيه ، ورفع عيسى (عم) فدخلوا على سرجس وصلبوه .

وفى رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس اتفاق كبير مع ذلك دون ذكر اسم (سرجس) .

(٢) أخطأ الناسخ إذ نقلها (الخلق) بالقاف .

(٣) آية ٣٠ سورة الكهف .

(٤) فى تعبير القشيرى ذكاء ، فى حالة عيسى قال (رفع) دون أن يحدد كيفية الرفع ،أبا الجسد أم بالروح أم بهما معاً ، وفى حالة الثانى قال (رفع روحه) ، ونفهم — من حيث المصطلح — أن الزلفة أقوى من القربة.

يقال ارتكاب المحظورات يوجب تحريم المُبَاحَات .

فَمَنْ ركب محظوراً بظاهره حُرِمَ[1] ما كان يجده من الأحوال المباحة ، والألطاف الحاصلة في سرائره .

قوله جل ذكره : ﴿ لكن الراسخون في العِلْمِ منهم
والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إليكَ
وما أُنْزِلَ مِن قَبلِكَ ، والمقيمين
الصلاة ، والمؤتون الزكاةَ ، والمؤمنون
بالله واليوم الآخِرِ أولئك سنؤتيهم
أجراً عظيماً ﴾

الراسخ في العلم هو ألا يكون في الدليل مُقَلِّداً ، كما لا يكون في الحكم مقلداً ، بل يضع النظر موضعه إلى أن ينتهي إلى حد لا يكون للشكِّ في عقله مساغ .

ويقال الراسخ في العلم من يرتقي عن حد تأمل البرهان[2] ويصل إلى حقائق البيان .

ويقال الراسخ في العلم أن يكون بعلمه عاملاً حتى يفيدعه علمَ ما خفي على غيره ، ففي الخبر : « من عمل بما علمه ورَّثه الله علم ما لم يعلم »[3] .

وخَصَّ « المقيمين الصلاة » في الإعراب فَنَصَبَ اللفظ بإضمار أعني على المدح لِمَا للصلاة من التخصيص من بين العبادات لأنها تالية الإيمان في أكثر المواضع في القرآن ، ولأن الله

---

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (جرم) بالجيم والصواب أن تكون بالحاء لارتباطها بتحريم المباحات فيما سبق .

(٢) أي ينبغي ألا يكتف الانسان على العقل وحده بل عليه أن يرتقي عن هذا الحد .

(راجع الهامش الذي يتناول هذه القضية من هذا الكتاب)

(٣) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس بن مالك .

ويرى أبو نصر السراج أن هذا العلم الموروث هو علم الاشارة ، ليكشف الله سبحانه لقلوب أصفيائه المعاني المذخورة ، واللطائف والأسرار المخزونة وغرائب العلوم وطرائف الحكم في معاني القرآن ... اللمع ص ١٤٧ (كتاب المستنبطات) .

— سبحانه — أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (بها)[1] ليلةَ المعراج بغير واسطة جبريل عليه السلام . . . وغير هذا من الوجوه .

قوله تعالى « أجراً عظيماً » : الأجر العظيم هو الذى يزيد على قدر الاستحقاق بالعمل .

قال جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾

إفراد النبى صلى الله عليه وسلم من الأنبياء بالإيمان لإفرادهم بالتخصيص والفضيلة ؛ فأفرد نوحاً على ما استحقه من المقام وأفرد رسولنا عليه السلام على ما استحقه هو ، فاشتركا فى الإفراد لكنهما تباينا فى الفضيلة على حسب المقام ، فتفرَّد واحد من بين أشكاله بغير فضائل ، وتفرَّد آخر من بين أضرابه[2] بألف فضيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾

سُنَّةُ الله فى أوليائه سترُ قومٍ ، وشَهْرُ قومٍ ، وبذلك جرَتْ سُنَّتُهُ أيضاً فى الأنبياء — عليهم السلام — أظهر أسماء قومٍ وأجمل تفصيل آخرين . والإيمان واجب بجميع الأنبياء جملة وتفصيلاً ، كما أن الاحترام واجب لجميع الأولياء جملة وتفصيلا ، وكذلك أحوال العباد ستر عليهم بعضاً وأظهر لهم بعضها ، فما أظهرها لهم — طالبهم بالإخلاص فيها ، وما سترها

---

(١) إضافة وضعناها ليتماسك المعنى .

(٢) وردت (أخرابه) بالخاء وهى خطأ فى النسخ والصواب (أضرابه) أى (أشكاله) التى سبقت ، والفقرة كلها غير واضحة ، وقد أثبتناها كما هى .

عليهم — فلأنه غار[1] على قلوبهم من ملاحظة أحوالهم تأهيلاً لهم للاختصاص بحقائق أفردهم بمعانيها .

« وكلَّم الله موسى تكليما » : إخبار عن تخصيصه إياه باستماع كلامه بلا واسطة .

قوله جل ذكره : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِين ومنذَرِين ﴾

وقَفَ الخلْقَ عند مقاديرهم ، وبيَّن أنه أرسل إليهم الرسل فتفردوا عليهم إلى اجتباء ثوابهم ، واجتناب ما فيه استحقاق عذابهم ، وأنه ليس للخلْق سبيل إلى راحة يطلبونها ولا إلى آفة يجتنبونها إما فى الحال أو فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ لِئَلا يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسُلِ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾

أنَّى يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حُجَّة ؟ ! ولكنَّ الله خاطبهم على حسب عقولهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لكنِ اللهُ يَشْهَدُ بما أنْزَلَ إليكَ أنْزَلَه بعلمِهِ والملائكةُ يَشْهَدُون وكفَى باللهِ شَهيداً ﴾

سلاَّه الله عن تكذيب الخلق إياه بما ذكره من علم الله بصدقه ، ولذلك قال : « وكفى بالله شهيداً » .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيلِ اللهِ قد ضَلُّوا ضَلالاً بعيداً * إنَّ الذين كفروا وظَلَمُوا لم يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لهم ولا ليهديَهم طريقاً * إلا طريقَ جهنَّمَ خالدين فيها أبَداً ، وكان ذلك على اللهِ يسيرا ﴾

---

(1) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتى العبدُ المؤمنُ ما حرّم الله تعالى عليه ، الرسالة ص ١٢٦ وقال القشيرى : إذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له من طاعة عبده . (الرسالة نفس الصفحة) .

جعل صدَّهم المؤمنين (من)[1] اتباع الحقِّ نظيرَ كفرهم بالله ، والله تعالى عظّم حقوق أوليائه كتعظيم حقِّ نفسه ، ثم قال : « إن الذين كفروا وظلموا » جعل ظُلْمَهُم سبيلَ كفرهم ، فَعلَّقَ استحقاق العقوبة المؤبّدة عليها جميعاً . والظلم — وإنْ لم يكن كالكفر فى استحقاق وعيد الأبد — فَلِشُؤْمِ الظلم لا يبعد أن يخذلَه اللهُ حتى يُوَافِيَ ربَّه على الكفر .

قوله جل ذكره ﴿ يَأيها الناسُ قد جاءكُمُ الرسولُ بالحقِّ مِن ربِّكم فآمِنُوا خيرًا لكُم وإن تكفُرُوا فإنَّ للهِ مافى السمٰوات والأرضِ وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾

«ياأهل الكتاب» : أخبر أنه سبحانه غنى عنهم ، فإنْ آمنوا فحظوظ أنفسهم اكتسبوها وإن كفروا[2] فَبَلاَيَاهُم لأنفسهم اجتلبوها. والحقُّ — تعالى — مُنَزَّه الوصف عن (الجهل)[3] لوفاق أحدٍ ، والنقص لخلاف أحد .

قوله : « وإن تكفروا فإن لله مافى السمٰواتِ والأرضِ » يعنى إن خرجوا عن استعمال العبودية — فعلاً ، لم يخرجوا عن حقيقة كونهم عبيده — خلقاً ، قال تعالى : « إن كل من فى السمٰوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً »[4]

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تغلُوا فى دينِكم ولا تقُولُوا على اللهِ إلا الحقَّ إنَّما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رَسُولُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ مِنهُ

---

(١) ربما كانت (عن) فهكذا فى الآية الكريمة .

(٢) فى النسخة (وإن لم تكفروا) ولكنها مصححة باستدراك فى الهامش (وإن كفروا) وهو الأصوب .

(٣) نظن أن الناسخ قد أخطأ فى نقل هذه الكلمة فإن من عادة القشيرى فى مثل هذا السياق أن يذكر أن طاعة المطيع ليست زيناً للحق ، ومعصية العاصى ليست شيناً له ، لأجل هذا نرجح أن العبارة هنا تستقيم لو كانت (والحق تعالى منزه الوصف عن الكمال لوفاق أحد وعن النقص لخلاف أحد) .

(٤) آية ٩٣ سورة مريم .

فآمِنوا باللهِ ورُسلِهِ ، ولا تقولوا ثلاثة
انتَهُوا خيراً لكم إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ
سبحانه أن يكونَ له ولدٌ ، له مافى
السموات وما فى الأرضِ وكفى بالله
وكيلا ﴾ .

غُلُوُّهم فى دينهم جَريُهم على مقتضى حسبانهم ؛ حيث وصفوا — بمشابهة الخَلْق — معبودَهم ، ثم مناقضتهم ؛ حيث قالوا الواحد ثلاثة والثلاثة واحد[1] ، والتمادى فى الباطل لا يزيد غير الباطل .

قوله جل ذكره : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ المسيحُ أن يكون
عَبْدًا لله ولا الملائكةُ المُقَرَّبون
وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عبادتِهِ وَيَسْتَكبِرْ
فَسَيَحْشُرُهم إليه جميعاً • فأمَّا الذين
آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيوفيهم
أُجُورَهم ويزيدُهم مِّن فَضلِهِ ﴾

كيف يستنكف عن عبوديته وبالعبودية شَرَفُهُ ، وكيف يستكبر عن التذلُّلِ وفى استكباره تَلَفُه ، ولهذا الشأن نطق المسيح أول مانطق بقوله : إنى عبد الله ، وتجمُّل العبيد فى التذلل للسَّادة ، هذا معلوم لا تدخله ريبة[2] .

وقوله : « ولا الملائكة المقربون » لا يدل على أنهم أفضل من المسيح ، لأنه إنما خاطبهم على حسب عقائدهم ، والقوم اعتقدوا تفضيل الملائكة على بنى آدم .

---

(١) الثلاثة إما أن يكون مقصوداً منها : الله والمسيح ومريم ، وإما — كما ورد فى الأناجيل — الأب والابن والروح القدس ، وسواء انصرفت إلى هؤلاء أم إلى أولئك فانه شرك محض تولى القرآن الكريم تفنيده فى مواضع شتى .

(٢) وردت (رتبة) ولا نحسب أن لها معنى هنا ، ونرجح أنها فى الأصل (ريبة) أى هذا معلوم لا شك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون اللهِ وليّاً ولا نصيراً ﴾

العذاب الأليم ألا يصلوا إليه[1] أبداً بعدما عرفوا جلاله ، فإذا صارت معارفُهم ضرورية[2] فإنهم يعرفون أنهم عنه بقوا[3] ، فَحَسَراتهم حينئذ على ماقاتهم أشدُّ عقوبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَأيها الناسُ قدجاءكم برهانٌ مّن ربِّكم ﴾

البرهان ما لاح فى سرائرهم من شواهد الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾

وهو خطابه الذى فى تأملهم معانيه حصولُ استبصارِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمَّا الذين آمنوا باللهِ[4] واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ﴾

« سيدخلهم فى رحمته » : والسين للاستقبال أى يحفظ عليهم إيمانهم فى المآل[5] عند التوفى ، كما أكرمهم بالعرفان والإيمان فى الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَهْدِيهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾

---

(١) أى يقطع بينهم وبين رؤيته سبحانه ، وفى هذا يقول ذو النون (خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب كقطرة الماء تقذف فى أعظم المحيطات .

ويقول بعضهم : إلهى إذا شئت أن تعذبنى فألقِ بى إلى النار ولا تعذبنى بذل الحجاب .

(٢) قلنا من قبل فى هامش سابق ـ نقلا عن مذهب القشيرى : إن المعرفة فى البداية كسبية وفى الانتهاء ضرورية ، ومعنى الكلام هنا أنهم يحرمون من أعظم الأشياء متعة بعد ما لاحت لهم بعض المعارف . . وذلك غاية فى التعذيب .

(٣) (عنه بقوا) البقاء عن الله سبحانه أشد أنواع العذاب .

(٤) سقطت (بالله) من الناسخ فأثبتناها فى موضعها .

(٥) وردت (المال) ويلزم وضع المد على الألف لتكون (المآل) وقد تكرر هنا فى مواضع كثيرة فيما سبق .

هذه الهداية هى إكرامهم بأن عرفوا أن هذه الهداية من الله لهم فضل لا لأنهم استوجبوها بطلبهم وجهدهم ، ولا بتعبهم وكدّهم [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة
إن امرؤٌ هَلَكَ ليس له ولدٌ وله أُختٌ
فلها نِصْفُ ما تَرَكَ وهو يَرِثُها
إن لم يَكُن لها وَلَدٌ فإن كانتا اثْنَتَيْنِ
فَلَهُما الثُّلُثان مما ترك ، وإن كانوا
إخوةً رِجالاً ونِساءً فللذَّكر مثلُ
حظِّ الأُنثيين ، يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن
تَضِلوا واللهُ بكل شىءٍ عليم ﴾

قطع الخصومة بينهم فى قسمة [2] الميراث فيما أظهر لهم من النصِّ على الحكم ، فإن المال محبَّبٌ إلى الإنسان ، وجُبِلَت النفوس على الشحِّ ؛ فلولم ينص على مقادير الاستحقاق (لقابلة الاشباه) [3] فى الاجتهاد ، فكان يؤدى ذلك إلى التجاذب والتواثب ؛ فَحَسَمَ تلك الجملة بما نصَّ على المقادير فى الميراث قطعاً للخصام . ولتوريثه النسوان — وإن لم يوجد منهن الذبُّ عن العشيرة — دلالة على النظر لضعفهن . وفى تفضيل الذكور عليهن لِما عليهم مِنْ حَمْلِ [4] المؤن وكذا السعى فى تحصيل المال ، والقيام عليهن .

---

(١) يهدف القشيرى دائماً إلى أن يعود بكل شىء إلى فضل الله ، وأن يشعر العبد دائماً بأن عمله ليس وحده كافياً للنجاة ، فاذا طالع العبد نفسه فى شىء ما فى ذلك وبال عليه .

(٢) وردت (بالصاد) والصواب أن تكون بالسين ، وربما كانت (قضية) فى الأصل .

(٣) هكذا فى النسخة (ص) ونرجح أنها فى الأصل (لقابله الاشتباه) فى الاجتهاد اى ان النص على المواريث ازال كل اشتباه ينجم عن الاجتهاد .

(٤) وردت (يحمل) ونرجح أنها فى الأصل : (حمل) فقبلها جار .

(حاشية) لم يتعرض القشيرى لمعنى (الكلالة) ولقد كنا نود لو أوضح الرأى فيها ، خصوصاً وأن موضوعها مبهم ، وتسمى هذه الآية الأخيرة من سورة النساء بآية الصيف ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا مالك يعنى ابن مغول يقول سمعت الفضل بن عمرو عن إبرهيم عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلالة فقال : « يكفيك آية الصيف » فقال لأن أكون سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها أحب إلى من ان يكون لى حمر النعم . =

السورة التى تذكر فيها المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَماعُ اسم الله يُوجِبُ الهيبة ، (والهيبةِ)[1] تتضمن الفناء والغيبة ، وسماع الرحمن الرحيم يوجب الحضور والأوبة ، والحضور يتضمن البقاء والقربة .

فمن أسمعه « بسم الله » أدهشه فى كشف جلاله ، ومن أسمعه « الرحمن الرحيم » عَيَّشَه بِلُطْفِ أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾

« يا » حرف نداء ، و « أى » اسم منادى ، « ها » تنبيه ، و « الذين آمنوا » صلة للنادى . ناداهم قبل أن بداهم ، وسمَّاهم قبل أن براهم ، وأَحَلَّهم فى آزاله لِمَا أوصلهم إليه فى آباده .

شرَّفهم بقوله : « يأيها الذين آمنوا » ، وكلَّفهم بقوله « أوفوا »، ولمَّا عَلِمَ أن التكليف يوجب المشقة قدَّم التشريف بالثناء على التكليف الموجِب للعَناَء .

ويقال الإيمانُ صنفان : أحدهما يشير إلى عين الجود ، والثانى إلى بذل المجهود . فَبَذْلُ المجهودِ خِدْمَتُك ، وعين الجود قِسْمَتُهُ ؛ فبخدمتك عناء الأشباح ، وبقسمته ضياء الأرواح .

وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب .

ويقال « يأيها الذين آمنوا » : يا مَنْ دخلوا فى إيمانى ، ماوصلتم إلى أمانى إلا بسابق إحسانى .

ويقال يا مَنْ فتحتُ بصيرتَهم لشهود حق حتى لا يكونوا كمن أعرضتُ عنهم مِنْ خَلْقِى .

= وذكر الإمام أحمد بإسناد آخر أكثر صحة مما سبق .

ومن الأقوال التى ذكرت عن الكلالة انها مأخوذة من الإكليل الذى يحيط بالراس من جوانبه ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ، ومن الناس من يقول الكلالة من لا ولد له كما دلت عليه الآية (إن امرؤ هلك ليس له ولد) .

(١) أضفناها لأن السياق يستدعيها ، إذ نرجح أنها سقطت فى النسخ .

قوله جلّ ذكره: ﴿أوفوا بالعقود﴾

كلُّ مُكلَّفٍ مُطَالَبٌ بالوفاء بعقده، والعقد ما ألزمك بسابق إيجابه، ثم وَفَّقَكَ — بعدما أظهرك عند خطابه — بجوابه[1]، فانبرم العقد بحصول الخطاب، والقبول بالجواب.

ويدخل في ذلك — بل يلتحق به — ما عَقَدَ القلبُ معه سِرًّا بِسِرٍّ؛ من خلوص له أضمره، أو شيء تبيَّنه، أو معنًى كوشف به أو طولب به فتَقَبله.

ويقال الوفاء بالعهد بصفاء القصد، ولا يكون ذلك إلا بالتبرِّي من المُنَّة، والتحقق بتولى الحق — سبحانه — بلطائف المِنَّة[2].

قوله جل ذكره: ﴿أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام إلا ما يُتْلَى عليكم غَيْرَ مُحِلِّى الصيد وأنتم حُرُم﴾

تحليل بعض الحيوانات وإباحتها من غير جُرْمٍ سَبَقَ منها، وتحريم بعضها والمنع من ذبحها من غير طاعة حصلت منها — دليلٌ على ألاَّ عِلَّةَ لصنعه.

وحرَّم الصيد على المُحْرِم خصوصاً لأن المُحْرِمَ متجرِّدٌ عن نصيب نفسه بقصده إليه، فالأليق بصفاته كَفُّ الأذى عن كل حيوان.

قوله جل ذكره: ﴿إنَّ الله يحكم ما يريد﴾

لا حَجْرَ عليه في أفعاله، فيخصُّ من يشاء بالنُّعمى، ويفرد من يشاء بالبلوى؛ فهو يُمْضِي الأمور في آباده على حسب ما أراد وأخبر وقضى في آزاله.

قوله جل ذكره: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تُحِلوا شعائرَ الله﴾

الشعائر معالم الدِّين، وتعظيم ذلك وإجلاله خلاصة الدين، ولا يكون ذلك إلا بالاستسلام عند هجوم التقدير، والتزام الأمر بجميل الاعتناق، وإخلال الشعائر (يكون) بالإخلال بالأوامر.

قوله جل ذكره: ﴿ولا الشهرَ الحرامَ ولا الهَدْىَ ولا القلائد﴾

---

(1) يشير القشيرى إلى قوله تعالى يوم الذر: « ألست بربكم؟ قالوا بلى ».

(2) يفرِّق القشيرى بين المُنَّة للعبد والمِنَّة للحق.

تعظيم المكان الذى عظّمه الله ، وإكرامُ الزمان الذى أكرمه الله . وتشريف الإعلام على ما أمر به الله — هو المطلوب من العبيد أمراً ، والمحبوب منه حالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا آمِّين البيتَ الحرامَ يبتغون فضلاً من ربِّهم ورضوانا ﴾

وبالحريِّ لمن يقصد البيت ألا يخالف ربَّ البيت .

والابتغاء للفضل والرضوان بتوقِّى موجباتِ السخط ، ومجانبة العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حَلَلْتُم فاصطادوا ولا يَجْرِمَنَّكم شنآنُ قومٍ أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تَعْتَدُوا ﴾

وإذا خرجتم عن أمر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم ، فأمَّا ما دمتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم ، وإنكم لنا .

قوله « ولا يجرمنكم شنآن قوم .... » أى لا يحملكم بغضُ قومٍ لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام على ألا تجاوزوا حدَّ الإذن فى الانتقام ، أى كونوا قائمين بنا ، متجردين عن كل نصيبٍ وحظٍّ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ .

البرُّ فِعلُ ما أُمِرتَ به ، والتقوى تَرْكُ ما زُجِرتَ عنه .

ويقال البرُّ إيثار حقه — سبحانه ، والتقوى تركُ حظِّك .

ويقال البرُّ موافقة الشرع ، والتقوى مخالفةُ النَّفْس .

ويقال للمعاونة على البرِّ بحُسْنِ النصيحة وجميل الإشارة للمؤمنين ، وللمعاونة على التقوى بالقبض على أيدى الخطائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ ، وبليغ الزجر ، وتمام المنع على ما يقتضيه شرط العلم .

والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدِّين ، فيكون قولُك الذى تفعله ويقتدى بك (فيه) سُنَّةً تظهرها و(عليك) نبوُّ وِزْرِها . وكذلك المعاونة

على البر والتقوى أي الاتصاف بجميل الخصال على الوجه الذي يُقتدَى بك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا الله إنَّ الله شديد العقاب ﴾ .

العقوبة ما تعقب الجُرْم بما يسوء صاحبه . وأشد العقوبة حجاب المُعَاقِبِ عن شهود المُعَاقب ؛ فإنْ تجرُّعَ كاساتِ البلاء بشهود المُبْلِي أحلى من العسل والشهد .

قوله جل ذكره : ﴿ حُرِّمت عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير ﴾ .

وأكل الميتة أن تتناولمن عِرْض أخيك على وجه الغيبة[1] ، وليس ذلك مما فيه رخصةٌ بحالٍ لا بالاضطرارِ ولا بالاختيارِ ، وغير هذا من المَيْتَةِ مباحٌ في حالِ الضرورة .

ويقال كما أنَّ في الحيوان ما يكون المزكى منه مباحاً والميتة منه حراماً فكذلك من ذبح نفسه بسكاكين المجاهدات وطَهَّرَ نفسه — مُبَاحٌ قربه ، حلال صحبته . ومَنْ ماتت نفسه في ظلمة غفلته حتى لا إحساسَ له بالأمور الدينية فخبيثةٌ نفسه ، محظورٌ قُرْبُه ، حرام معاشرته ، غيرُ مباركةٍ صحبتُه .

وإنَّ السلف سموا الدنيا خنزيرةً ، ورأوا أنَّ مايُلْهِي قربُه ، ويُنْسِي للمعبودَ ركونُه ، ويحمل على العصيان جنوحُه — فهو مُحرَّمٌ على القلوب ؛ ففي طريقة القوم حبُّ الدنيا حرامٌ على القلوب ، وإن كان إمساكُ بعضها حلالاً على الأبدان والنفوس .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ﴾ .

كما أنَّ المذبوح على غير اسمه ليس بطيِّبٍ فَمَنْ بَذَلَ رُوحَه فيه وَجَدَ رَوْحه منه ، ومن نهارشته كلاب الدنيا ، وقلته مخالب الأطماع ، وأسَرَتْه مطالبُ الأغراض والأعراض — فحرامٌ ماله على أهل الحقائق في مذهب التعزز ، فللشريعةِ الظرف والتقدير .

وأمَّا المنخنقة فالإشارة منه إلى الذي ارتبك في حِبال المنى والرغائب ، وأخذه خناقُ

(١) يشير القشيري بذلك إلى قوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ... » .

الطمع ، وخنقته سلاسل (الحِرْص)[1] فحرامٌ على السالكين سلوك خطّتهم ، ومحظور على المريدين متابعة مذهبهم .

وأمّا الموقوذة فالإشارة منها إلى نفوس جُبِلَت على طلب الخسائس حتى استملكتها كلها فهى التى ذهبت بلا عوض حصل منها ، وأمثال ذلك حرامٌ على أهل هذه القصة .

والإشارة من المتردية إلى من هلك فى أودية التفرقة ، وعمى عن استبصار رشد الحقيقة ؛ فهو يهيم فى مفاوز الظنون ، ويَتهك فى متاهات المنى .

والإشارة من النطيحة إلى من صَارَعَ الأمثال ، وقارع الأشكال ، وناطح كلاب الدنيا فحطموه بكلب حرصهم ، وهزموه بزيادة تكلبهم ، وكذلك الإشارة من :

قوله جلّ ذكره : ﴿وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتُمْ﴾.

وأكيلة السبع ماولغت فيه كلاب الدنيا ، فإن الدنيا جيفة ، وأكَلَةُ الجيفِ الكلابُ ويستثنى منه المزكى وهو ما تقرر من متاع الدنيا لله ؛ لأن زادَ المؤمنِ من الدنيا : ما كان لله فهو محمود ، وما كان للنَّفْس فهو مذموم .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا ذُبِحَ على النُّصُب وأن تستقسموا بالأزلام﴾ .

فهو ما أُرْصِدَ لغير الله ، ومقصودُ كلِّ حريصٍ — بموجب شرعه — معبودُه من حيث هواه قال الله تعالى . « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه » يعنى اتّخذ هواه إلهه .

« وأن تستقسموا بالأزلام » ، الإشارة منه إلى كل معاملة ومُصَاحبةٍ بُنِيَتْ على استجلاب الحظوظ الدنيوية — لا على وجه الإذن — إذ القهار ذلك معناه . وقَلَّتْ المعاملات المجرَّدَة عن هذه الصفة فيا نحن فيه من الوقت .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلِكم فِسْقٌ ﴾

أى إيثار هذه الأشياء انسلاخ عن الدِّين .

---

(١) وردت (الحرس) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اليوم يَئِس الذين كفروا من دينكم فلا تخشَوْهم واخشَوْنِ ﴾

أى بعدما أزَحْتُ عن قلوبكم آثارَ الحسبان ، وتحققتم بأن المتفرد بالإبداع نحن ، فلا تلاحظوا سواى ، ولا يُظَلِّلَنَّ قلوبكم إشفاقٌ من غيرى .

ويقال إذا كانت البصائرُ متحققة بأن النَّفعَ والضر ، والخير والشر لا تحصل شظية منها إلا بقدرة الحق — سبحانه ، فمن المحال أن تنطوى — من مخلوق — على رَغَبٍ أو رَهَبٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ اليومَ أكملت لكم دينكم ﴾

إكمالُه الدين — وقد أضافه إلى نفسه — صَوْنُه العقيدة عن النقصان ؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أمَّلها بأنوار تأييده وتسديده ، حتى وضعوا النظر مَوْضعَه من غير تقصير ، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور .

ويقال إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبُولِ فى المآلِ ، كما أن ابتداء الدِّين توفيقُ الحصول فى الحال ؛ فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول ، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول .

ويقال إكمال الدين أنه لم يبق شىء يعلمه الحق — سبحانه — من أوصافه وقد علَّمك .

ويقال إكمال الدين أن ما تقاصر عنه عقلك من تعيين صفاته — على التفصيل — أكرمك بأن عرَّفك ذلك من جهة الإخبار .

وإنما أراد بذكر « اليوم » وقتَ نزول الآية . وتقييد الوقت فى الخطاب بقوله « اليوم » لا يعود إلى عين إكمال الدِّين ، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت .

والدِّينُ موهوبٌ ومطلوبٌ ؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله ، والموهوبُ ما سبق منه حصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ﴾

النعمة — على الحقيقة — ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه ، والنعمة المذكورة

ها هنا نعمة الدِّين ، وإتمامها وفاء المآل ، واقتران الغفران وحصوله . فإكمال الدين تحقيق المعرفة ، وإتمام النعمة تحصيل المغفرة . وهـذا خطاب لجماعة المسلمين ، ولا شك فى مغفرة جميع المؤمنين ، وإنما الشك يعترى فى الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾

وذلك لما قَسَمَ للخَلْق أديانَهم ، فخصّ قوماً باليهودية ، وقوماً بالنصرانية ، إلى غير ذلك من النِّحَلِ والمِلَلِ ، وأفرد المسلمين بالتوحيد والغفران .

وقدَّمَ قومٌ الإكمالَ على الإتمام ، فقالوا : الإتمام يقبل الزيادة ، فلذلك وَصفَ به النعمة لقبول النِّعم للزيادة ، ولا رتبةَ بعد الكمال فلذلك وصف به الدين .

ويقال لا فرق بين الدِّين والنعمة المذكورة ها هنا ، وإنما ذُكِرَ بلفظين على جهة التأكيد ، ثم أضافه إلى نفسه فقال : « نعمتى » وإلى العبد فقال : « دينكم » . فوَجْهُ إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب ، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخَلْق . فالدين من الله عطاء ، ومن العبد عناء[1] ، وحقيقة الإسلام الإخلاص والانقياد والخضوع لجريان الحكم بلا نزاعٍ فى السِّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنِ اضطُرَّ فى مخمصةٍ غيرَ متجانفٍ لإثمٍ فإنَّ الله غفورٌ رحيم ﴾

الإشارة من هذه الآية أنه لو وقع لسالكٍ فترة ، أو لمريدٍ فى السلوك وقفة ، ثم تنبَّه لعظيم واقعه فبادر إلى جميل الرُّجعَةِ باستشعار التحسّر على ما جرى تدارَكَتْه الرحمةُ ، ونظر الله — سبحانه — إليه بقبول الرجعة .

والإشارة من قوله « غير متجانفٍ لإثم » أى غير معرِّج على الفترة ، ولا مستديمٍ لعُقدةِ الإصرار ، ويحتمل أن يكون معناه من نزل عن مطالبات الحقائق إلى رُخَصِ العلم لضعفِ وَجدِه فى الحال فربما تجرى معه مُساهلةٌ إذا لم يفسخ عَقْدَ الإرادة .

(١) هذه العبارة تساوى فى المعنى ماسبق ذكره أن « الدين موهوب ومطلوب » والمقصود بالعناء أن الدين معاناة وممارسة من جانب العبد .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم قُلْ أُحِلَّ لكم الطيباتُ وما علَّمتم من الجوارح مكلبين تُعَلِّمُونَهُنَّ مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسمَ اللهِ عليه ، واتقوا الله إن اللهَ سريعُ الحساب ﴾

لمـّا علموا أن الحَسَنَ من أفعالهم ما ورد به الأمر وحصل فيه الإذن تعرَّفوا ذلك من تفصيل الشرع ، فقال : « يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم » ثم قال :

« قل أحل لكم الطيبات » وهو الحلال الذى تحصل من تناوله طيبةُ القلوب فإنَّ أكْلَ الحرامِ يُوجِبُ قسوة القلبِ ، والوحشةُ مقرونةٌ بقسوةِ القلبِ ، وضياء القلوب وطِيبُ الأوقات متصلٌ بصَوْن الخُلُق عن تناول الحرام والشبهات .

وقوله : « وما علمتم من الجوارح مكلبين » : ولمـّا كان الكلب المُعَلَّمَ تركَ حظَّه ، وأمسك ما اصطاده على صاحبه حلت فريسته ، وجاز اقتناؤه ، واستغرق فى ذلك حكم خساسته فكذلك مَنْ كانت أعماله وأحواله لله — سبحانه — مخلصة ، ولا يشوبها حظٌّ تَجِلُّ رتبتُه وتعلو حالته .

ويقال حُسْنُ الأدب يُلحِقُ الأخِسَّةَ برتبة الأكابر ، وسوء الأدب يَرُدُّ الأعِزَّةَ إلى حالة الأصاغر .

ثم قال : « واذكروا اسم الله عليه » : بيَّن أنَّ الأكلَ — على الغفلة — غير مَرْضِىٌّ عنه (فى القيمة)[1]

« واتقوا الله إن لله سريع الحساب » بحيث لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريعُ الحسابِ — اليومَ — مع الأحباب والأولياء ، فهم لا يُسَامَحون فى (الخطوة)[2] ولا فى اللحظة ، معجَّلٌ حسابُهم ، مُضاعَفٌ — فى الوقتِ — ثوابُهم وعقابُهم .

---

(١) وضعت (فى القيمة خطأ) بعد سريع الحساب وقد أثبتناها فى موضعها الصحيح .

(٢) ربما كانت فى الأصل (الخَطْرة) بالراء فالأكابر يحاسبون على أدق خاطر يخطر على قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكم الطيباتُ وطعامُ
الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم
وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصناتُ مِنَ
الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ من الذين
أوتوا الكتاب من قبلكم إذا
آتيتموهن أجورَهن مُحْصِنِين غير
مسافحين ولا متخذى أخدان ،
ومَن يكفر بالإيمان فقد حَبِطَ عَمَلُه
وهو فى الآخرةِ من الخاسرين ﴾

ليس الطَّيِّبُ ما تستطيبه النفوس، ولكن الطيب مايوجد فيه رضاء الحق — سبحانه — فتوجد عند ذلك راحةُ القلوب .

« وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم » : القَدْرُ الذى بيننا وبينهم من الوفاق فى إثبات الربوبية لم يَعْرَ من أثرٍ فى القربة فقال الله تعالى : « ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى »[1]

وكذلك الأمر فى المحصنات من نسائهم. وأُحِل الطعامُ والذبيحةُ بيننا وبينهم من الوجهين فيحلُّ لنا أكل ذبائحهم، ويجوز لنا أن نطعمهم من ذبائحنا، ولكن التزوج بنسائهم يجوز لنا، ولا يجوز تزوجهم بنسائنا لأن الإسلام يعلو ولا يُعْلَى .

ثم قال « محصنين غير مسافحين » يعنى إنهم وإن كانوا كفاراً فلا تجب صحبتهن بغير نكاح تعظيا[2] لأمرِ السِّفاح ، وتنبيهاً على وجوب مراعاة الأمر من الحق . وكذلك « ولا متخذى أخدان » لأنه إذا لم يجز تعلق قلبك بالمؤمنين على وجه المخادنة فمتى يَسْلَم ذلك مع الكفار الذين هم الأعداء ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة

---

(١) آية ٨٢ سورة المائدة .
(٢) تعظيا هنا معناها تهويلا واستبشاعاً .

فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق
وامسحوا برءوسكم وأرجلكم
إلى الكعبين ﴾

كما أنَّ فى الشريعة لا تصحُّ الصلاةُ بغيرِ الطهور فلا تصحُّ — فى الحقيقة — بغير طهور .

وكما أن للظاهر طهارةً فللسرائر أيضاً طهارة ، وطهارةُ الأبدان بماء السماء أى المطر ، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل ، ثم بماء الحياء والوجل .

وكما يجب غسلُ الوجهِ عند القيام إلى الصلاة يجب — فى بيان الإشارة — صيانةُ الوجه عن التبذُّل للأشكال عن طلب خسائس الأعراض .

وكما يجب غسلُ اليدين فى اليدين فى الطهارة يجب قصرها عن الحرام والشبهة .

وكما يجب مسحُ الرأس يجب صونه عن التواضع والخفض لكل أحد .

وكما يجب غسل الرِجْلين فى الطهارة يجب صونهما فى الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لا يجوز

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كنتم جُنُباً فاطهروا وإن كنتم
مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ
منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم
تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً
فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾

كما يقتضى غسل جميع البدن فى الطهارة كذلك فى الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء ؛ وذلك عندما تقع للمريد فَتْرةٌ فيقوم بتجديد عقدٍ ، وتأكيد عهد ، والتزام عزامة ، وتسليم وقتٍ ، واستدامة ندامة ، واستشعار خجل .

وكما أنه إذا لم يجد المتطهرُ الماء فَفَرْضُهُ التيَمّمُ فكذلك إذا لم يجد المريد مَنْ يفيض عليه صَوْبَ همته ، ويغسله ببركات إشارته ، ويعينه بما يئوب به من زيادة حالته — اشتغل بما تيسَّر له من اقتفاء آثارهم ، والاستراحة إلى ما يجد من سالف سِيَرِهم ، وما ورد من حكاياتهم

وكما أن قرص التيم على الشطر والنقصان فكذلك المطالبات على إصفاء هذه الحالة تكون أخف لأنه وقت الفترة وزمان الضعف .

قوله جل ذكره : ﴿ مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾

وتلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقى المريد عن أحكام الإرادة فليَحُطّ رِجْله بساحات العبادة ، فإذا عَدِمَ اللطائف فى سرائره فَلْيَسْتَدِمْ الوظائف على ظاهره ، وإذا لم يتحقّقْ بأحكام الحقيقة فليتخلق بآداب الشريعة ، وإن لم يتحرج عن تَرْكه الفضيلة فلا يدنسْ تصرفه بالحرام والشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكن يريد ليطهركم ﴾

أى يطهر ظواهركم عن الزلة بعصمته ، ويطهر قلوبكم عن الغفلة برحمته .

ويقال يطهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال ، ويطهر ظواهركم عن الوقوع فى شِباك الأشغال .

ويقال يطهر عقائدكم عن أن تتوهموا تدنُّسَ المقادير بالأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾

إتمام النعمة على قوم بنجاة نفوسهم ، وعلى آخرين بنجاتهم عن نفوسهم ، وشتَّان بين قوم وقوم !.

ويقال إتمام النعمة فى وفاء العاقبة ؛ فإذا خرج من الدنيا على وصف العرفان والإيمان فقد تَمّتْ سعادته ، وصفَتْ نعمته .

ويقال إتمام النعمة فى شهود المنعِم ؛ فإنَّ وجودَ النعمة لكل أحد ولكنَّ إتمامَها فى شهود المنعِم .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ﴾

الإشارة منه إلى التعريف السابق الذى لولاه ما علمْتَ أنه من هو .

ويقال أمرهم بتذكُّر ما سبق لهم من القِسَمِ وهم فى كَتْمِ العَدَم ، فلا للأغيار عنهم خبر ،

ولا لهم عين ولا أثر ، ولا وقع عليهم بصيرة ، وقد (سماهم)[1] بالإيمان ، وحكم لهم بالغفران قبل حصول العصيان ، ثم لما أظهرهم وأحياهم عرَّفهم التوحيد قبل أن كلَّفهم الحدود ، وعرض عليهم بعد ذلك الأمانة وحذَّرهم الخيانة ، فقابلوا قوله بالتصديق ، ووعَدُوا من أنفسهم الوفاء بشرط التحقيق ، فأمدَّهم بحسن التوفيق، وثبَّتهم على الطريق ،ثم شكرهم حيث أخبر عنهم بقوله جل ذكره : « إذ قلتم سمعنا وأطعنا » .

ثم قال : « واتقوا الله » : يعنى فى نقض ما أبرمتم من العقود ، والرجوع عمَّا قدمتم من العهود ، « إنَّ الله عليم بذات الصدور » لا يخفى عليه من خطرات قلوبكم ونيات صدوركم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين لله شهداء بالقسط ﴾

لا يعُوَقنَّكم حصولُ نصيبٍ لكم فى شىء عن الوفاء لنا ، والقيام بما يتوجَّب عليكم من حقنا .

ويقال من لم يقسط عند مواعد رغائبه ، ولم يمحُ عنه نواجم شهواته ومطالبه لم يقم لله بحق ولم يفِ لواجباته بشرط .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾

أى لا تحملكم ضغائن صدوركم على الحلول بجنبات الحيف فإنَّ مرتعَ الظلم وبىء ، ومواضع الزيغ مهلكة .

ثم صرَّح بالأمر بالعدل فقال : « اعدلوا » ولا تكون حقيقة العدل إلا (بالعدول)[2] عن كل حظٍ ونصيب .

---

(١) نرجح أنها فى الأصل (وسمهم) فالوسم فى الاصطلاح تتعلق بالأزل وهذا يتفق مع السياق .
(٢) وردت (بالعدوان) والصواب أن تكون (بالعدول) كما هو واضح .

والعدلُ أقربُ إلى التقوى ، والجوْرُ أقربُ من الرَّدَى ، ويُوقِعُ عن قريبٍ فى عظيم البلوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾

والمغفرة لا تكون إلا للذنب ، فوصفهم بالأعمال الصالحات ، ثم وعدهم المغفرة لِيُعْلَمَ أن العبد تكون له أعمال صالحة وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى غفرانها ، بخلاف ما توَهَّمَ مَنْ قال إن المعاصى تُحْبِطُ الطاعات .

ويقال بيَّن أن العبد وإن كانت له أعمال صالحة فإنه يحتاج إلى عفْوِه وغفرانه ، ولولا ذلك لَهَلَكَ ، خلافاً لمن قال إنه لايجوز أن يعَذِّبَ البرىء ويجب أن يثيب المحسنين[1] .

ويقال لو كان ثوابُ المحسنين واجباً ، وعقوبةُ البرىء غيرَ حسنة لكان التجاوزُ عنه واجباً عليه ، ولم يكن حينئذ فضل يمن به عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

لهم عقوبتان : معجلة وهى الفراق ، ومؤجلة وهى الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ همَّ قومٌ أن يَبْسُطُوا إليكم أيديَهم فكفَّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

يذكِّرهم ماسلف لهم من نِعَم الدفع[2] وهو ماقصر عنهم أيدى الأعداء ، وذلك من أمارات

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى أقوال المعتزلة بوجوب إثابة المطيع ومعاقبة العاصى — على الله . فلا وجوب — فى نظره — على الله ، وإنما كل شىء منه فضل ، ولا قيمة لعمل العبد بجانب هذا الفضل .

(٢) يميز القشيرى بين نعمتين : نعمة دفع ونعمة نفع .

العناية . ولقد بالغ فى الإحسان إليك مَنْ كان يُظْهر لك الغيبَ من غير التماسٍ أو سَبْق شفاعةٍ فيك ، أو رجاء نفعٍ من المستأنف[1] منك ، أو حصول ربحٍ فى الحال عليك ،أو وجود حق فى المستأنف لك .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » يعنى كما أحسنت إليكم فى السالف من غير استحقاق فانتظروا جميل إحسانى فى (الغابر)[2] من غير (استيجاب)[3] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ولقد أخذ اللهُ ميثاقَ بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عَشَرَ نقيباً وقال الله إنى معكم ﴾ .

يذكرهم حُسْنَ أفضاله معهم ، وقبح (فعلهم)[4] فى مقابلة إحسانه بنقضهم عهدهم .

وعرف المؤمنين — تحذيراً لهم — ألا ينزلوا منزلتهم فيستوجبوا مثل ما استوجبوه من عقوبتهم .

قوله جل ذكر : ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزّرتموهم ﴾ .

أى لئن قمتم بحقى لأوصلن إليكم حظوظكم ، ولئن أجللتم أمرى فى العاجل لأُجِلَّن قَدْرَكم فى الآجل .

وإقامة الصلاة أن تشهد مَنْ تعبده ، ولذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعْبدِ اللهَ كأنَّكَ تراه » .

ويقال إقامة الصلاة شرطها أنْ تُقْبِلَ على مَنْ تناجيه بأن تستقبل القُطْرَ الذى الكعبة فيه .

وأمَّا إيتاء الزكاة فحقُّه أن تكسب المال من وجهه ، وتصرفه فى حقه ، ولا تمنع الحق

---

(١) أى ما يمكن أن تقدمه من طاعات فى المستقبل ، فالله غنى عنه .

(٢) نرجح أنها (للحاضر) حتى ينسجم السياق فإن (الغابر) و (السالف) بمعنى (الماضى) .

(٣) يعنى استحقاق .

(٤) وردت (فعلهم) بميم زائدة من الناسخ .

الواجب فيه عن أهله ، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته ، ولا تُحْوِج الفقير إلى طلبه فإنَّ الواجبَ عليكَ أن توصل ذلك إلى مستحقه .

وتعزير[1] الرسل الإيمان بهم على وجه الإجلال ، واعتناق أمرهم بتمام الجد والاستقلال ، وإيثارهم عليك فى جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، والفقراء يبذلون مهجتهم وأرواحهم فى طلب الله ، (فأولئك)[2] عن مائتى درهم يُخْرِجُون خَمْسَة ، وهؤلاء لايدخرون عن أمره نَفَساً ولا ذرَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ لأُكفِرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

التكفير هو الستر والتغطية ، وإنه يستر الذنوب حتى عن (العاصى)[3] فيمحو من ديوانه ، وينْسِي الحَفَظَةَ سوالف عصيانه . وينفى عن قلبه تذكر ما أسلفه ، ولا يوقفه فى العرصة على ماقدَّم من ذنبه ، ثم بعد ذلك يدخله الجنة بفضله كما قال : « ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » ، كما قيل :

ولما رضوا بالعفو عن ذى زلة   حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَن كَفَرَ بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾

فَمَنْ جحَدَ هذه الأيادى بعد اتضاحها فقد عَدَلَ عن نَهْجِ أهل الوفاء ، وحاد عن سَنَنِ أصحاب الولاء .

قوله جل ذكره ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم ﴾

جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة فى العصيان .

---

(1) وردت (وتعزم) والصحيح (وتعزير) والعزر فى اللغة الرد ومعناها هنا رددتم عنهم أعداءهم ونصرتموهم .

(2) وردت (فهؤلاء) وقد جعلناها أولئك إشارة إلى البعيد ليتميز كل فريق .

(3) وردت (المعاصى) بالميم والصواب بدونها فهكذا يتطلب السياق .

قوله جل ذكره: ﴿وجعلنا قلوبَهم قاسيةً يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضِعِه﴾

وتحريفُهم الكلم عن مواضعه نوعُ عصيان منهم، وإنما حرَّفوا لقساوة قلوبهم. وقسوة القلب عقوبة لهم مِنْ قِبَل الله تعالى على ما نقضوه من العهود، ونقض العهد أعظمُ وِزْرٍ يلم به العبد، والعقوبة عليه أشد عقوبة يُعَاقَبُ بها العبد، وقسوة القلب عدم التوجع مما يُمتَحَنَ به من الصدِّ، وعن قريبٍ يُمتَحَن بمحنة الرد بعد الصدّ[1]، وذلك غاية الفراق، ونهاية البعد.

ويقال قسوة القلب أولها فَقْدُ الصفوة ثم استيلاء الشهوة ثم جريان الهفوة ثم استحكام القسوة، فإن لم يتفق إقلاع عن هذه الجملة فهو تمام الشقوة.

ومن تحريف الكلم — على بيان الإشارة — حَمْلُ الكلم على وجوهٍ من التأويل مما تسوِّل لصاحبه نَفْسُه، ولا تشهد له دلائلُ العلم ولا أصولُه[2].

قوله جل ذكره: ﴿ونَسُوا حظًّا مما ذُكِّرُوا به﴾

أوَّلُ آفاتِهم نسيانُهم، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسوا، فالنسيان أول العصيان، والنسيانُ حاصلٌ من الخذلان.

قوله جل ذكره: ﴿ولا تزال تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم﴾

الخيانة أمرها شديد وهي من الكبار أبعد، وعليهم أشد وأصعب. ومن تعوَّد اتباع الشهوات، وأُشْرِبَ في قلبه حُبَّ الخيانة فلا يزال يعيش بذلك الخُلُق إلى آخر عمره، اللهم إلا أن يجودَ الحقُّ — سبحانه — عليه بجميلِ اللطف.

قوله جل ذكره: ﴿فاعفُ عنهم واصفحْ إن اللهَ يحب المحسنين﴾

قد يكون موجب العفو حقارة قدر المعفو عنه إذ ليس كل أحدٍ أهلاً للعتاب. والصفح

---

(١) من هذا نفهم أن (الرّد) عند القشيري أقرب وأشد وقعاً من (الصد).

(٢) هذا أصل من أصول التأويل المقبول في نظر القشيري، وهو في الوقت نفسه يوضح صفة في التفسير الإشاري.

على العفو مزية وهى أن فى العفو رفع الجناح ، وفى الصفح إخراج ذكر الإثارة من القلب ، فمن تجاوز عن الجانى ، ولم يلاحظه — بعد التجاوز — بعين الاستحقار والازدراء فهو صاحب الصفح .

والإحسان تعميمٌ — للجمهور — بإسداء الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقَهم فَنَسُوا حظًّا مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئُهم اللهُ بما كانوا يصنعون ﴾

الإشارة فى هذه الآية أن النصارى أثبت لهم الاسم بدعواهم فقال : « قالوا إنا نصارى » وسمّوا نصارى لتناصرهم ، وبدعواهم حرّفوا وبدّلوا ، وأما المسلمون فقال . « هو سمّاكم المسلمين »[1] .

كما قال : « ورضيت لكم الإسلام دينا »[2] فلا جَرَمَ ألا يسموا بالتناصر . ولمَّا سمَّاهم الحقُّ بالإسلام ورَضِيَ لهم به صانهم عن التبديل فَعُصِمُوا .

ولما استمكن منهم النسيان أبدلوا بالعداوة فيما بينهم ، وفساد ذات البين ؛ فأرباب الغفلة لا ألفة بينهم . وأهل الوفاء لا مباينة لبعضهم من بعض ، قال صلى الله عليه وسلّم : « المؤمنون كنفس واحدة »[3] ، وقال تعالى فى صفة أهل الجنة : « إخواناً على سرر متقابلين »[4] .

---

(١) آية ٧٨ سورة الحج ،

(٢) آية ٢ سورة المائدة .

(٣) فى رواية الإمام مسلم عن النعمان بن بشير .
المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه اشتكى كله ، وإن اشتكى عينه اشتكى كله . . . » صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٧١ .

(٤) آية ٤٤ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولنا
يبيِّن لكم كثيراً مما كنتم تُخْفُون
من الكتابِ ويعفو عن كثير ﴾

وصف الرسول — صلى الله عليه وسلم — بإظهار بعض ما أخفوه، وذلك علامة على صدقه ؛ إذ لولا صدقه لما عرَّفَ ذلك . ووصفه بالعفو عن كثير من أفعالهم ، وذلك من أمارات خُلُقِه ؛ إذ لولا خُلُقُه لَمَا فعل ذلك ؛ فإظهار ما أبداه دليل عِلْمه ، والعفو عما أخفى برهان حِلْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جاءكُم مِّنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ
مبين * يَهْدِى به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضوانَه سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهم من
الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم
إلى صراطٍ مستقيم ﴾

أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغنى عند فقد البصيرة ، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحى عن سِرِّه شواهد الأغيار ، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثلى .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هوَ
المسيحُ ابنُ مريم قُلْ فمَن يملِكُ مِن
الله شيئاً إنْ أراد أن يُهلكَ المسيحَ
ابنَ مريم وأمَّه ومَن فى الأرضِ جميعاً ،
ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ
وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله
على كل شىء قدير ﴾

مَنْ اشتملت عليه أرحامُ الطوامث متى يفارقه نَقْصُ الخِلْقة ؟
ومَنْ لاحت عليه شواهدُ التغيُّر أنَّى يليق به نعت الربوبية ؟

ولو قَطَعَ البقاء عن جميع ما أوجد فأى نقص يعود إلى الصمد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء
الله وأحباؤه قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم
بل أنتم بشرٌ ممن خَلَقَ يغفر لِمَن
يشاء ويعذِّب من يشاء ، ولله مُلكُ
السموات والأرض وما بينهما وإليه
المصير ﴾

البنوة[1] تقتضى المجانسة ، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ ، والمحبةُ بين المتجانسين تقتضى الاحتظاظ والمؤانسة ، والحق سبحانه عن ذلك مُقدَّس .

فردَّ الله — سبحانه — عليهم فقال تعالى : « بل أنتم بشر ممن خلق » .

والمخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم ؛ فالقديم لا بعضَ له لأن الأحدية حقه ، فإذا لم يكن له عدد لم يجز أن يكون له ولد . وإذا لم يجز له ولد لم تجز — على الوجه الذى اعتقدوه — بينهم وبينه محبة .

ويقال فى الآية بشارة لأهل المحبة بالأمان من العذاب والعقوبة به لأنه قال : « قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم » .

ويقال بيَّن فى هذه الآية أن قصارى الخلق إمَّا عذاب وإمَّا غفران ولا سبيل إلى شىء وراء ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولُنا
يبين لكم على فَتْرَةٍ من الرسلِ أن
تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير ،
فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ ، والله على كل
شىء قديرٌ ﴾

(١) وردت (النبوة) وهى خطأ فى النسخ لأن الإشارة عائدة إلى ما جاء فى الآية : « نحن أبناء الله »

يقال فى : كل زمان تقع فَتْرَة فى سبيل الله ثم تتجدد الحال ، ويتمّ الطريق بإبداء السالكين من كَتم العدَم ، ولقد كان زمانُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — أكثرَ الأزمنة بركةً ، فأحيا بظهوره ما اندرس من السبيلَ ، وأضاء بنوره ما انطمس من الدليل ، وبذلك مَنَّ عليهم ، وذكَّرهم عظيمَ نعمته فيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قومِ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾

كان الأمرَ لبنى اسرائيل — على لسان نَبيِّهم — بأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، وكان الأمر لهذه الأمة[1] — بخطاب الله لا على لسان مخلوق — بأن يذكروه فقال : « فاذكرونى أذكركم »[2] وشتان بين من أمره بذكره — سبحانه — وبين من أمره بذكر نعمته ! ثم جعل جزاءهم ثوابَه الذى هو فضله ، وجعل جزاء هذه الأمة خطابه الذى هو قوله تعالى : « فاذكرونى أذكركم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾

المَلِكُ مِنَ المخلوقين مَنْ عَبَدَ المَلِكَ الحقيق .

ويقال المَلِكُ مَنْ مَلَكَ هواه ، والعبد من هو فى رِقِّ شهواته .

ويقال « جعلكم ملوكا » : لم يحرجكم إلى أمثالكم ، ولم يحجبكم عن نفسه بأشغالكم ، وسَهَّلَ إليه سبيلَكم فى عموم أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتاكم مالم يؤتِ أحداً من العالمين ﴾

لئن آتى بنى إسرائيل بمقتضى جوده فقد أغنى عن الإيتاء هذه الأمة فاستقلوا بوجوده ، والاستقلال بوجوده أتمّ من الاستغناء بمقتضى جوده .

---

(١) يقصد أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدسةَ التى كَتَبَ اللهُ لكم ﴾

من الفرق بين هذه الأمة وبين بنى إسرائيل أنه أباح لهم دخولَ الأرض المقدسة على الخصوص فقال : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » ثم إنهم لم يدخلوها إلا بعد مدة ، وبعد جهد وشدة ، وقال فى شأن هذه الأمة « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[1] فأولئك كتب لهم دخول الأرض كتابةَ تكليف ثم قصروا ، وهذه الأمة كتب لهم جميع الأرض على جهة التشريف ، ثم وصلوا إلى ما كتب لهم وما قصروا .

وقال : « ادخلوا الأرض المقدسة . . . . . » وقال لهذه الأمة : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »[2] فهؤلاء ذلَّل لهم وسهَّل عليهم ، وأولئك صعَّب عليهم الوصول إلى ما أمرهم فيما أنزل الله عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾

الارتداد على قسمين : عن الشريعة وإقامة العبودية وذلك يوجب عقوبة النفوس بالقتل ، وعن الإرادة وذلك يوجب الشِّقْوَة — التى هى الفراق — على القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياموسى إنَّ فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلَها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون ﴾

لاحظوا الأغيار بعين الحسبان فتوهموا أن شيئاً من الحدثان ، وداخلتهم هواجمُ الرعبِ فأصروا على ترك الأمر . ومَنْ طالع الأغيار بأنوار البصائر شاهدهم فى أَسْرِ التقدير قوالبَ متعريةً عن إمكان الإيجاد ، ولم يقع على قلبه ظلُّ التَّوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعَمَ

(١) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .
(٢) آية ١٥ سورة الملك .

الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾

أنعم الله (عليهما)[1] بأنوار العرفان فلم يحتشما من المخلوقين ، وعلما أن من رجع إليه بنعت الاستكفاء تداركته عواجلُ الكفاية ثم قال :

(وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)

أى من شأن المؤمنين أن يتوكلوا ، وينبغى للمؤمن أن يتوكل .

ويحتمل أن يقال التوكل من شرط الإيمان . وظاهر التوكل الذى لعوام المؤمنين العلم بأن قضاءه لا رادَّ له ، وحقائق التوكل ولطائفه التى لخواص المؤمنين شهود الحادثات بالله ومِنْ الله ولله ، فإنَّ مَنْ فَقَدَ ذلك انتفى عنه اسم الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ﴾

مَنْ أقصتْه سوابقُ التقدير لم يزدْه تواترُ (العظة)[2] إلا نفوراً وجحوداً .

قوله جل ذكره . ﴿ فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾

تركوا آداب الخطابِ فصرَّحوا ببيان الجحد ولم يحتشموا من مجاهرة الرد .

قوله جل ذكره ﴿ قال ربِّ إنى لا أملِكُ إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾

لما ادَّعى أنَّه يملك نَفْسَه عرف عجزه عن مِلْكِه لنفسه حيث أخذ رأس أخيه يجرُّه إليه .

ويقال . لا أملك إلا نفسى أى لا أدخرها عن البذل فى أمرك . لا أملك إلا أخى فإنه لا يؤثر نفسه عن الذى أكلفه مِنْ قِبَلِكَ .

---

(١) (عليهما) زيادة أضفناها ليتضح المعنى .

(٢) وردت (العظمة) والمعنى يرفضها ويتطلب (العظة) التى وردت فى الآيات السابقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإنها مُحرَّمة عليهم أربعين سنة
يتيهون فى الأرضِ ، فلا تأسَ على
القوم ِ الفاسقين ﴾ .

مجاهرة الرد تعجّل العقوبة ؛ فإن من ما كَرَ الحقيقة أبدت الحقيقة له من مكامن التقدير ما يُلْجِئُه إلى التطوّح فى أوطان الذُّلّ .

ويقال حيَّرهم فى مفاوزهم حتى عموا عن القَصْد ؛ فصاروا يبيتون حيث يصبحون ، بعد طول التعب وإدامة السير ، وكذلك من حيَّره اللهُ فى مفاوز القلب يتقلب ليلًا ونهاراً فى مطارح الظنون ثم لا يحصل إلا على مناهل الحيرة ، فيحطون بحيث يرحلون عنها ، فلا وجهَ للرأى الصائب يلوح لهم ، ولا خلاص من بعده للتجويز يساعدهم ، والذى التجأ إلى شهود الصمدية استراح عن ثقلة فكره ، ووقع فى روْح الاستبصار بعد أتعاب التوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نبأ ابنَىْ آدمَ بالحق إذ
قرَّبا قرباناً فَتُقُبِّلَ من أحدهما ولم
يُتَقَبَّلْ من الآخرِ قال لأقتلنَّكَ ﴾.

كانت الدنيا بحذافيرها فى أيديهما فحسد أحَدُهما صاحبَه ، فلم يصبر حتى أسرع فى شىء بإتلافه ، وحين لم يُقْبَلْ قربانُه اشتد حسدُه على صاحبه ، ورأى ذلك منه فهدَّدَه بالقتل .
فأجابه بنطق التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنما يتقبل اللهُ من المتقين ﴾ .

يعنى إنما يُتَقَبَّلُ القربانُ مِمَّنْ(1) طالَع فى القربان مساعدةَ القدرة ، والَّق توهُّم كونه باستحقاقه واستيجابه .

قوله جل ذكره : ﴿ لئن بسطتَ إلىَّ يدَكَ لتقتلنى ما أنا
بباسطٍ يدى إليك لأقتلكَ إنى
أخاف اللهَ ربَّ العالمين ﴾ .

(١) وردت (من) وهى خطأ فى النسخ .

لئن بدأتني بالإثارة[1] لم أقابلك كأوصاف أهل الجهل بل أ كِلُ أمرى إلى من بيده مقاليد الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿ إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك
فتكونَ من أصحاب النار وذلك
جزاء الظالمين ﴾ .

تحقّق بأنّ العقوبة لاحِقةٌ به على ما يسلفه من الذّنب فَرَضِىَ بانتقامِ اللهِ دون انتقامه لنفسه .

وقوله : « أن تبوء بإثمى وإثمك » الذى تستوجبه بسبب قتلك إياى ، فأضافه إلى نفسه ، وإذا رأى المظلوم ما يحلّ بالظالم من أليم البلاء يهون عليه ما يقاسيه ويطيب قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ فطوَّعتْ له نفسُه قتلَ أخيه فقتله
فأصبح من الخاسرين ﴾ .

لا تستولى هواجس النفوس على صاحبها إلا بعد استتار مواعظ الحق ، فإذا توالت العزائمُ الرديئةُ ، واستحكمت القصودُ الفاسدةُ من العبد صارت دواعى الحق خفيةً مغمورةً . والنّفسُ لا تدعو إلا (إلى)[2] اتباع الشهوات ومتابعة المعصية[3] ، وهى مجبولةٌ على الأخلاق المجوسية . فمن تابع الشهوات لا يلبث أن ينزل بساحات الندم ثم لا ينفعه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ فبعث اللهُ غراباً يبحث فى الأرضِ
لِيُرِيَهَ كيف يوارى سوأةَ أخيه قال
يا ويلتا أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا
الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح
من النادمين ﴾ .

---

(1) وردت (الإشارة) والملائم أن تكون (الإثارة) .
(2) سقطت (إلى) من الناسخ والمعنى يستلزمها .
(3) وردت (العصيه) ولا معنى لها هنا وإنما الملائم (المعصية) .

إرادة الحق — سبحانه — وصولُ الخلقِ إلى لطف الاحتياط فى أسباب التعيش ، فإذا أشكل عليهم وجهٌ من لطائف الحيلة سبَّب الله شيئاً يُعَرِّفهم ذلك به .

قوله جل ذكره ﴿ مِنْ أجلِ ذلك كتبنا على بنى إسرائيل
أنه من قتل نَفْساً بغير نفسٍ أو فسادٍ
فى الأرض فكأنَّما قتل الناسَ جميعا
ومن أحياها فكأنَّما أحيا الناس
جميعاً ولقد جاءتهم رسُلُنا بالبينات
ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك فى
الأرضِ لمُسرِفون ﴾ .

هذا قريب مما قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« من سنَّ حسنة فله أجْرُها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة[1] » .

قوله جل ذكره : « إنما جزاء الذين يحاربون اللهَ ورسولَهَ
ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقَتَّلُوا
أو يُصَلَّبُوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم
من خلافٍ أو يُنفَوْا من الأرضِ
ذلك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ولهم
فى الآخرة عذابٌ عظيمٌ ﴾

السعى فى الفساد على ضربين : بالظاهر وعقوبته معلومة فى مسائل الفقه بلسان العلم ، وفى الباطن وعقوبته واردة على الأسرار ، وذلك بقطع ما كان متصلاً من واردات الحق ، وكسوف شمس العرفان ، والستر بعد الكشف ، والحجاب بعد البسط . والحجاب استشمار

(١) فى رواية مسلم عن جرير بن عبد الله : (. . من سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً) حـ ٤ ص ٢٠٥٩ ط ع الحلبى .

الوحشة بعد الأُنس ، وتبديل توالى التوفيق بصنوف الخذلان ، والنفى على بساط العبادة[1] . والإخراج إلى متابعة النفوس ، وذلك — والله — خِزْىٌ عظيم وعذابٌ أليم .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا الذين تابوا مِنْ قَبْلِ أن تَقْدِروا عليهم فاعلموا أنَّ الله غفور رحيم ﴾

من أقلع عن معاصيه ، وارتدع عن ارتكاب مساويه ، قبل أن يهتك عنه ستر السداد لا تقام عليه — في الظاهر — حدودُ الشريعة لاشتباهها على الإمام ، ولا يؤاخذه الحق سبحانه بقضايا إجرامه أخذاً بظاهرِ ما يثبت من حاله مآلَه فى استيجاب السداد ، فإذا بدا للإمام[2] جُرْمُهُ أُقيم عليه الحدُّ وإنْ تقنَّع بنقاب التقوى .

وكذلك إذا سقط العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معاودة تقريب الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون ﴾

ابتغاء الوسيلة التبرى عن الحول والقوة ، والتحقق بشهود الطول والمِنَّة .

ويقال ابتغاء الوسيلة هو التقريب إليه بما سبق لك من إحسانه .

ويقال الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة .

ويقال الوسيلة اختياره لك بالجميل .

ويقال الوسيلة خلوص (العَقْد)[3] عن الشك .

ويقال ابتغاء الوسيلة استدامة الصدق فى الولاء إلى آخر العمر .

ويقال ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء ، وتجريد الأحوال عن الأعجاب ، وتخليص النَّفَسِ عن الحظوظ .

---

(١) أى الاخراج من نطاق الارادة إلى نطاق العبادة .

(٢) وردت (للايمان) وهى خطأ فى النسخ إذ الامام هو الذى يقيم الحد .

(٣) وردت (العقد) وربما كانت (العقل) فهو الذى يصاب بآفة الشك ، وكلاهما مقبول فى المعنى

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّ الذين كفروا لو أنلهم ما فى الأرض
جميعاً ومثلَه معه ليفتدُوا به من عذاب
يوم القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم
عذابٌ أليم ﴾

اليوم — يقبل من الأحباب مثقال ذرة، وغداً — لا يقبل من الأعداء ملء الأرض ذهباً، كذا يكون الأمر.

ويقال إفراط العدو فى التقرب موجبٌ للمقت، وتسَتر الولى[1] فى التودد إحكامٌ لأسباب الحب

قوله جل ذكره: ﴿ يريدون أن يخرجوا مِنَ النار وماهم
بخارجين منها ولهم عذابٌ مقيمٌ ﴾

كما أن الأعداء لا محيص لهم من النار كذلك المُبْعَدُون عن التوفيق كلما أرادوا إقلاعاً عن التهتك أدركهم — من فجأة الخذلان — ما يركسهم فى وهدة العناء.

قوله جل ذكره: ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما
جزاء بما كسبا، نكالاً من الله،
والله عزيز حكيم ﴾

لو أنَّ ولياً من الأولياء سرق نصاباً من حِرز، ووجد فيه استحقاق القطع، أقيم عليه الحدُّ كما يقام على المتهتك، ولا يَسْقُطُ الحدُّ لصلاحه. والإشارة فيه أن أَمْرَ الملك مُقَابَلٌ بالتعظيم، بل كل من كان أعلى رتبةً فَخَطَرُه أتمُّ وأخفى، والمطالبةُ عليه أشدُّ[2]. فلا يَسْتَخِفَنَّ أحدُ الإلمام بزلة «وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم».

قوله جل ذكره: ﴿ فَمَن تاب من بعد ظُلْمه وأصلح

(١) وردت (المولى والصواب أن تكون (الولى) ضد (العدو) حسبما نعرف من أسلوب القشيرى
(٢) لأن أصحاب الرتبة الكبيرة بهم اقتداء، فعليهم وزرهم ووزر من تبعهم.

فإنّ اللهَ يتوبُ عليه إن اللهَ
غفورٌ رحيم ﴾

من استوفى أحكام التوبة فتدارك ما ضيّعه، وندم على ما صنعه، وأصلح من أمره ما أفسده — أقبل الله عليه بفضله فغَفَره[1]، وعاد إليه باللطف فجَبَرَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿ ألم تعلم أنّ اللهَ له مُلكُ السموات
والأرض يُعذّب من يشاء ويغفر
لمن يشاء والله على كل شيء قدير ﴾

بيّنَ أنه لا يعذّب مَنْ يعذّبُ بِعلّة، ولا يرحم من يرحم بعلة، وإنما يتصرف فى عبده بحق ملكه، وأنّ الحكمَ حكمه، والأمرَ أمرُه.

قوله جل ذكره: ﴿ يأيها الرسولُ لا يحزنك الذين
يسارعون فى الكفرِ مِنَ الذين قالوا
آمنا بأفواههم ولم تؤمِن قلوبُهم ومن
الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعُونَ
لقومٍ آخرين لم يأتوك يحرّفون الكَلِمَ
من بعد مواضعه يقولون إنْ أوتيتم
هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا،
ومَن يُرِدْ اللهُ فتنتَه فلن تملكَ له
من اللهِ شيئاً ﴾

مَنْ أقصاه الحقُّ عن محلّ التقريب، وأرخى له عنان الإمهال وَكَلَه إلى مكره، ولبَّسَ عليه حاله وسِرَّه، فهو ينهمك فى أودية حسبانه، وإنما يسعى فى أمر نفسه فيعمل بما يعود إليه وباله، فأمرَ نبيّه — صلى الله عليه وسلّم — بترك المبالاة بأمثالهم، وقلة الاهتمام بأحوالهم، وعرّفه أنهم بمعزلٍ عن رحمته؛ وإنّ مَنْ ردّته القسمة الأزلية لا تنفعه الأعلال

(١) غفره أى غطاه وستر خطاياه.

فى الاستقبال ، فقال : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » يعنى إنْ أَهَّلَه الله للحرمان ، وقيّده بشباك الخذلان فشفاعة الأخيار فيه غير مقبولة ، ولطائف القبول إليه غير موصولة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين لم يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّرَ قلوبَهم ﴾

أولئك الذين لم تعجن طينتُهم بماء السعادة فَجُبِلُوا على نجاسة الشِرْك فإن عدم الطهارة الأصلية لا ينتقىٌّ بفنون المعاملات .

ويقال : « من يُرِدْ الله فتنته » : مَنْ أُرسل عليه غاغة الهوى ، وسلَّط عليه نوازع المنى ، وأذلّه(. . .)[1] القضاء ، فليس يلقى عليه غير الشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فى الدنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم ﴾

وَرَدُوا من الهوان إلى الهوان ، ووُعِدُوا بالفراق ، وَرُدُّوا إلى الاحتراق ، فلا تدرى أى حاليهم أقرب من استيجاب الذل ؟ بدايتهم فى الرد أم نهايتهم فى الشِرْك والجحد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ سماعون للكذب أكّالون للسُّحْت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرِضْ عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضرُّوك شيئاً وإنْ حكمتَ فاحكُم بينهم بالقسط إنَّ اللهَ يحبُّ المقسطين ﴾

يعنى إنهم طرحوا حشمة الدِّين ، وقنعوا بالحظوظ الخسيسة وا كتفوا (بالأعواض)[2] (النذرة)[3] ، فإذا تحاكموا إليك فأحِلْهم من حِلْمك على مايستحق أمثالهم من (الازال)[4] ،

(١) مشتبهة .

(٢) الأعواض جمع عوض وربما كانت في الأصل (الأعراض) جمع عَرَض ، وكلاهما مقبول .

(٣) (النذرة) أى القليلة الهينة ولا نستبعد أنها (المنلة) أى الخسيسة وعند ذلك تكون الكلمة التالية رقم (٤) الأنذال جمع نذل ، وليس بمستبعد أن تكون الانزال أى الاحلال فيكون السياق (فأحلهم من حلمك على ما يستحق أمثالهم من الاحلال = الانزال . من قولهم حللت بالمكان أى نزلت به). وربما كان المقصود بالأزال ما سبق لهم من القسمة .

وأنت مُخيرٌ فيما تريد ؛ فسواء أقبلت عليهم فحكمت أو أعرضت فرددت فالاختيار لك .

قوله : « إن الله يحب المقسطين » : الإقساط الوقوف على حدِّ الأمر من غير (حَنَفٍ)[1] إلى الحظ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف يُحكِّمونك وعندهم التوراةُ فيها حُكم اللهِ ثم يتولَّوْن من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾

يعني أنهم قارفوا الجحد ، وأصرُّوا على الغي ، وتعودوا الإعراض عن الإيمان ، فمتى تؤثِّر فيهم دعوتُكَ ، وقد سُدَّتْ مسامعُهم عن القبول ، وطُبِعَ على قلوبهم سابقُ الحكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونُورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبارُ بما استُحْفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ .

يخبر أنه استحفظ بني إسرائيل التوراة فحرَّفوها ، فلما وَكلَ إليهم حفظها ضيَّعوها .

وأمَّا هذه الأمة فخصَّهم بالقرآن ، وتولَّى — سبحانه — حفظه عليهم فقال : « إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون »[2] فلا جَرَمَ لو غيَّرَ واحدٌ حركةً أو سكوناً من القرآن لنادى الصبيان بتخطيئه .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تخشَوا الناسَ واخشونِ ﴾ .

إنَّ الخلْقَ تجرى عليهم أحكامُ القدرة وأقسام التصريف ؛ فالخشية منهم فرعٌ من المحال، فإنُّ من ليس له شظية من الإيجاد فأنَّى تصحُّ منه الخشية ؟!

---

(١) حنف — ميل وليس بمستبعد أن تكون في الأصل (حيف) إلى الحظ وكلاهما مقبول .
(٢) آية ٩ سورة الحجر

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

لاتأخذوا على جحد[1] أوليائى والركونِ إلى مافيه رضاء أعدائى عِوضاً يسيراً فتبقوا بذلك عنّى ، ولا يُبَارَكُ لكم فيما تأخذون من العوض .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله . . . » فمن اتخذ بغيره حكما ، ولم يجد — تحت جريان حكمه — رضى واستسلاماً[2] ففى شِرْكٍ خامَرَ قلبَهُ ، وكفرٍ قارَنَ سِرَّه . وهيهات أن يكون على سَوَاء !

قوله جل ذكره : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أنَّ النَّفسَ بالنَّفس والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأذنَ بالأذنِ والسِّنَّ بالسن والجروحَ قِصاصٌ ، فمن تَصدَّقَ به فهو كفَّارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هم الظالمون ﴾ .

بيَّن أن اعتبار العدالة كان حتما فى شرعهم ، ولمَّا جنحوا إلى التضييع استوجبوا الملام .
«فمن تصدّق به فهو كفارة له» ، يعنى فمن آثر ترك مالهُ باعتناق العفو لم يخسر علينا باستيجاب الشكر ، ومن أبى إلا تمادياً فى إجابة دواعى الهوى فهم الذين وضعوا الشىء فى غير موضعه؛ أى استبدلوا بلزوم الحقائق متابعةَ الحظوظ ، وبإيثار الفتوة موافقةَ البشرية[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة

---

(1) وردت (جهد) بالهاء والملائم أن تكون (جحد) فهكذا تشير الآية الكريمة ، وكذلك السياق، إن رضاء الأعداء يقابله جحد الأولياء .
(2) وردت (واستلاماً) والصواب (استسلاماً) أى أى انقياداً وطاعة .
(3) لأن من عناصر الفتوة — عند الصوفيه — البذل والإيثار والتضحية

وآتيناه الإنجيل فيه هُدًى ونورٌ
ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة
وهدًى وموعظةً للمتقين ﴾ .

يعنى أتبعناهم بعيسى ابن مريم ، وخصصناه بالإنجيل ، وفى الإنجيل تصديق لما تقدّمه ، وتحقيق لِما أوجب الله وألزمه ، فلا الدِّينَ قضوا حقه ، ولا الإنجيلَ عرفوا فرضه ، ولا الرسولَ حفظوا أمره ، ففسقوا وضلوا ، وظلموا وزلُّوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أهلُ الانجيل بما أنزل الله
فيه ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك
هم الفاسقون ﴾ .

قال الله تعالى فى هذه السورة[1] : « ومن لم يحكم بماَ أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وقال فى موضع آخر « ... فأولئك هم الظالمون » وقال فى هذه الآية « ...فأولئك هم الفاسقون» أمّا فى الأول فقال : « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا . . . فأولئك هم الكافرون » لأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو جاحد والجاحد كافر .

وفى الثانى قال : « وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس . . . . . فأولئك هم الظالمون » لأن مَنْ جاوز حدّ القصاص واعتبار المماثلة ، وتعدى على خصمه فهو ظالم لأنه ظَلَمَ بعضهم على بعض .

وأمّا ها هنا فقال : « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله . . . . فأولئك هم الفاسقون » أراد به معصيةً دون الكفر والجحد[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ
مُصَدّقا لما بين يديه من الكتاب
ومُهَيْمِناً عليه ﴾

---

(١) وردت فى هذه (الآية) والصواب أن تكون (السورة) لأن القشيرى ألقى نظرة شاملة على آية واحدة ذات نهايات شتى فى السورة كلها .

(٢) وهذه هى المنزلة بين الكفر والإيمان — كما يسميها بعض علماء الكلام .

قدّم تعريفه — صلى الله عليه وسلم — قصص الأولين على تكليفه باتباع ما أنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدّمه فيستوجب ما استوجبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل اللهُ ، ولا تتبِعْ أهواءهم عما جاءك من الحقّ لكلٍ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ، ولو شاء اللهُ لجعلكم أمّةً واحدةً ، ولكن لِيَبْلُوَكم فيما آتاكم ﴾

لا تتملكك مودةُ قريبٍ أو حميمٍ ، واعتنِقْ ملازمةَ أمرِ الله — تبارك وتعالى — بترك كل نصيبٍ لك .

ثم قال : « لكل جعلنا شرعة ومنهاجاً » يعني طريقة وسُنَّة ؛ أي أفردنا كلَّ واحدٍ منكم — معاشِرَ الأنبياءِ — بطريقة ، (وأمّا[1]) أنت فلا يدانيك في طريقتك أحد ، وأنت المقدَّمُ على الكافة ، والمُفضَّلُ على الجملة ، ولو شاء الله لَسَوَّى مراتبَكم ، ولكن غايَرَ بينكم ابتلاء ، وفَضَّلَ بعضكم على بعض امتحاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستبقوا الخيراتِ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾

مسارعة كل أحدٍ على ما يليق بوقته ؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد ، والعارفون همّتهم من حيث المواجد[2] .

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا ، واستباق العابدين بقَطْعِ الهوى ، واستباق العارفين بنفي المُنَى ، واستباق الموحدين بترك الورى ، ونسيان الدنيا والعُقبى .

---

(١) وردت (ولما) وهي خطأ في النسخ

(٢) وقع الناسخ في تكرار عبارة (والعارفون ..) فحذفناها

قوله جل ذكره : ﴿ وأنِ احكُم بينهم بما أنزل
الله ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم
أن يفتنوك عن بعضِ ما أنزل
الله إليك ﴾

قُمْ بالله فيما تحكم بينهم ، وأقِمْ حقوقه فيما تؤخر وتقدم ، ولا تلاحظ الأغيار فيما (تؤثِر)[1] أو تذر ، فإن الكلَّ محوٌ في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أنَّما يريد الله
أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإنَّ
كثيراً من الناسِ لفاسقون ﴾

يعنى (عِظْهم)[2] بلسان العلم فإنْ أبَوْا قبولاً فشاهِدْهم بعين الحكم . ويقال : أشْدُدْ عليهم باعتناق لوازم التكليف ، فإن أعرضوا فعاينهم بعين التصريف ؛ فانَّ الحقَّ — سبحانه — بشرط التكليف يلزمهم ؛ وبحكم التصريف يؤخرهم ويقدمهم ، فالتكليف فيما أوجب ، والتصريف فيما أوجد ، والعبرة بالإيجاد والإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أفحُكْمَ الجاهلية يَبغُون ، ومَنْ
أحسنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لقومٍ
يوقنون ﴾

أيعودون فى ظلمة الحجاب ووحشة الالتباس بعد ما سطع فَجْرُ العرفان ، وطلعت شموسُ التحقيق ، وانهتكت أستارُ الريب ؟

ويقال أيطلبون منك أن تحيدَ عن المحبة المثلى ، وقد اتضحت لك البراهين وتجلّى اليقين ؟

ويقال أيطمعون فى استتار الحقائق فى السرائر وقد تجلت شموس اليقين ؟

---

(١) وردت (تؤشر) بالشين وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (عظمهم) بزيادة ميم وهى خطأ فى النسخ .

ويقال أتحسبون أن (. . . .)[1] ظلمة الشك لها سلطان ، وقد متّع نهارُ الحقائق[2] . . . كلاّ ، فإن ذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود
والنصارى أولياء بعضُهم أولياء بعضٍ
ومَن يتولَّهم منكم فإنه منهم إنَّ الله
لا يهدى القومَ الظالمين ﴾

لا تجنحوا إلى الموالاة مع أعدائه — سبحانه — إيثاراً للسكون إلى الحظ ، أو احتشاماً من القيام للحق ، أو ركونا إلى قرابة نَسَبٍ ، أو استحقاقا لمودة حميم ، أو تهيباً من استيحاش صديق . بل صمموا عقودكم على التبرِّى منهم بكل وجه فهم بعضهم أولياء بعض ، والضدية بينكم وبينهم قائمة إلى الدين[3] . « ومن يتولَّهم منكم » التحق بهم ، وانخرط فى سِلكهم ، وعُدَّ فى جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فترَى الذين فى قلوبهم مرض
يسارعون فيهم يقولون نخشى أن
تصيبَنا دائرةٌ فعسى اللهُ أن يأتىَ
بالفتح أو أمرٍ من عِنده فيصبحوا
على ما أسَرُّوا فى أنفسهم نادمين *
ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين
أقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم إنهم لَمَعَكُمْ
حَبِطتْ أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾

---

(١) مشتبهة

(٢) متوع النهار اصطلاح صوفى تحدث القشيرى عنه فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ضمن اللوائح واللوامع والطوالع .

(٣) قائمة إلى الدين اى راجعة إلى اختلاف دينهم عنكم ، وربما سقطت من الناسخ كلمة يوم قبل (الدين) فيكون المعنى : إن المداوة بينكم وبينهم قائمة دائمة إلى يوم الدين .

يعنى إن الذين سقمت ضمائرهم ، وضعفت فى التحقيق بصائرهم تسبق إلى قلوبهم مداراة[1] الأعداء خوفاً من معاداتهم ، وطمعاً فى المأمول من محبتهم ، ولو استيقنوا أنهم فى أسر العجز وذل الإعراض ونفى الطرد لأمّلوا الموعود من كفاية الحق ، والمعهود من جميل رعايته ، ولكنهم حُجِبُوا عن محل التوحيد ، فتفرّقوا فى أودية الحسبان والظنون ، وعن قريبٍ يأتيكم الفَرَجُ — أيها المؤمنون ، وتُرْزَقُون الفتحَ بحسن الإقبال ، والظفر بالمسئول لسابق الاختيار ، فيشعرون الندم ، ويقاسون الألم ، وأنتم (تعلون)[2] رءوسكم بعد الإطراق ، وتصفو لكم مَشَارِبُ الإكرام ، وتضىء بزواهر القرب مَشَارِقُ القلوب . حينئذٍ يقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم يعاينون بأبصارهم ما تحققوه بالغيب فى أسرارهم ، ويَصِلُون من موعودهم إلى مايوفى ويربو على مقصودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا مَن يَرْتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقومٍ يحبهم ويحبونه ﴾ .

جعل صفة من لا يرتدُّ عن الدين أن اللهَ يحبه ويحبُّ الله ، وفى ذلك بشارة عظيمة للمؤمنين لأنه يجب أن يُعْلَمَ أن من كان غير مرتد فإنَّ الله يحبه . وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محباً ، فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه . وفى الآية دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد .

ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه : إمَّا أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه ، والمدح والثناء عليه .

أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله .

وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبته إرادته لإكرامه ، والفرق بين المحبة والرحمة على هذا القول أن المحبة إرادة إنعامٍ مخصوصٍ ، والرحمة إرادة كل نعمة فتكون المحبةُ أخصَّ من الرحمة ،

---

(١) وردت (هرارة) ، وبالرجوع إلى كتب التفسير ساعدتنا على اختيار (مداراة) (انظر تفسير وجدى) .

(٢) وردت (تعلمون) واللائق أن تكون (تعلون) رءوسكم بعد الإطراق .

واللفظان يعودان إلى معنىً واحد فإن إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر مراداته ، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلق .

وأمّا محبة العبد لله — سبحانه — فهى حالة لطيفة يجدها فى قلبه ، وتحمله تلك الحالة على إيثارِ[1] موافقة أمره ، وتَرْكِ حظوظ نفسه ، وإيثارِ حقوقه — سبحانه — بكل وجه .

وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد فى الوقت الذى يعبِّر عنه ؛ فيقال المحبة ارتياح القلب لوجود المحبوب ، ويقال المحبة ذهاب المُحِبِّ بالكلية فى ذكر المحبوب ، ويقال المحبة خلوص المحب لمحبوبه بكل وجه ، والمحبة بلاء كل كريم ، والمحبة نتيجة الهمة فمن كانت همته أعلى فمحبته أصفى بل أوفى بل أعلى

ويقال المحبة سُكْرٌ لا صحوَ فيه ودَهَشٌ فى لقاء المحبوب يوجب التعطُّلَ عن التمييز ، ويقال المحبة بلاء لا يُرْجَى شفاؤه، وسقام لا يعرف دواؤه .ويقال المحبة غريمٌ يلازمك لايبرح، ورقيبٌ من المحبوب يستوفى له منك دقائقَ الحقوق فى دوام الأحوال ، ويقال المحبة قضية توجب المحبة ، فمحبة الحق أوجبت محبة العبد[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يحبهم ويحبونه أذِلةٍ على المؤمنين
أعِزَّةٍ على الكافرين يجاهدون
فى سبيل اللهِ ولا يخافون لومةَ لائمٍ
ذلك فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يشاء والله
واسعٌ عليم ﴾

لولا أنه يحبهم لما أحبوه ، ولولا أنه أخبر عن المحبة فأنَّى تكون للطينة ذِكْرُ المحبة ؟ ثم بيَّن الله تعالى صفة المحبين فقال « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » . يبذلون المُهَجَ فى المحبوب من غير كراهة ، ويبذلون الأرواح فى الذَّبِّ عن المحبوب من غير ادخار شظية من الميسور .

---

(١) وردت خطأ (إيسار) بالسين

(٢) كلام القشيرى فى المحبة هنا لا يكاد يختلف كثيراً عن كلامه عنها فى (الرسالة)

ثم قال تعالى فى صفتهم : « يجاهدون فى سبيل الله » أى يجاهدون بنفوسهم من حيث استدامة الطاعة ، ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات ، ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات ، ويجاهدون بأسرارهم بالإستقامة على الشهود فى دوام الأوقات .

ثم قال : « لا يخافون لومة لائم » أى لا يلاحظون نُصْحَ حميم ، ولا يركنون إلى استقلال حكم ، ولا يجنحون إلى حظ ونصيب ، ولا يزيغون عن سَنَنِ الوفاء بحالٍ .

ثم بيَّن — سبحانه — أن جميع ذلك إليه لا منهم فقال : « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم » متفضلٌ عليم بِمَنْ يَخُصّ بذلك من عبيده .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما وليُّكم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاةَ ويؤتون الزكاةَ وهم راكعون ﴾

الولى أى الناصر ، ولا موالاة بين المؤمنين وبين أعداء الحق — سبحانه — فأعداء الحقّ هم أعداء الدِّين .

و « إنما » حرفٌ يقتضى أن ما عداه بخلافه ، وأعدى عدوِّك نَفْسُكَ — كما فى الخبر — ومَنْ عادى نَفْسَه لم يخرج بالمخاصمة عنها مع الخلْق وبالمعارضة فيها مع الحق[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإنَّ حِزْبَ الله هم الغالبون ﴾

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصم لِلحقّ على أنفسهم لا خصم لأنفسهم على مولاهم ، والغلبة بالحُجَّةِ والبرهان دون اليد .

ويقال من قام لله بصدق انخنس دونه كلُّ مُبْطِل . ويقال إذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل أهل الباطل .

---

(١) أى إن من خاصم نفسه لم تقم بينه وبين الناس ولا بينه وبين الحق خصومة من أجل نفسه فقد انتفت حظوظها بالكلية وأسلمها لربه بلا معارضة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزُواً ولعِباً مِنَ الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلِكم والكفار أولياء واتقوا اللهَ إن كنتم مؤمنين ﴾

نبّههم على وجوب التحيز عنهم والتميز منهم ، فإن المخالف فى العقيدة لا يكون موافقاً فى الحقيقة .

ويقال أمَرَهم بأن يلاحظوهم بعين الاستصغار كما لاحظوا دين المسلمين بعين الاستحقار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزُوا ولعباً ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون ﴾

الأذانُ دعاء إلى محلِّ النجوى ، فَمَنْ تحقّقَ بعلوِّ المحلِّ فسماعُ الأذانِ يوجب له روْحَ القلب واسترواح الروح ، ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال لاحَظَ ذلك بعين اللعب وأدركه بسمع الاستهزاء ، وذلك حكمُ الله : غايَرَ بين عباده على ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قلْ يا أهل الكتابِ هل تَنقِمون مِنَّا إلاَّ أنْ آمنَّا بالله وما أُنزلَ إلينا وما أُنزِل مِن قَبْلُ وأَنَّ أكثَرَكُم فاسقون ﴾

ما لنا عندكم عيبٌ إلا أننا تحققنا أننا محو فى الله ، (وأنَّ الكائنات حاصلة بالله ولا نتقى أثراً سوى لله فى الله)[1] ، وهذا — واللهِ — عيبٌ زائلٌ ، ونقصٌ ليس له — فى التحقيق — حاصل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل أنبئكم بِشَرٍّ مِّن ذلك مثوبة

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

عند الله مَن لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عليه
وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ وعَبَدَ
الطاغوت أُولئِكَ شَرٌ مكاناً وأَضَلُّ
عَن سواء السبيل ﴾

يعنى أخسُّ من المذكورين قَدْرَاً ، وأقل منهم خطراً من سقط عن عين الله فأذلَّه، وأبعده عن نعت التخصيص فأضلَّه ، ومنعه عن وصف التقريب وأبعده ، وحجبه عن شهود الحقيقة وطرده .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا
بالكفرِ وهم قد خرجوا به واللهُ
أعلمُ بما كانوا يَكْتُمُون ﴾

أظهروا الصدق ، وفى التحقيق نافقوا ، وافتضحوا من حيث أوهموا ولبَّسُوا ؛ فلا حالُهم بقيت مستورة ، ولا أسرارهم كانت عند الله مكبوتة [1] ، وهذا نعتُ كل مبطل . وعند أرباب الحقائق أحوالهم ظاهرة فى أنوار فراستهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وترىٰ كثيراً منهم يسارِعون
فى الإثم والعُدوانِ وأكلِهم السُّحتَ لبئس
ما كانوا يعملون ﴾

تَملكتْهُم الأطماعُ فاستهوتهم فى متاهات العناء ، وذلك نعت كل (طالم) [2] فى غير مطمع ؛ ذُلٌّ حاضر ، وصَغَارٌ مستولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبارُ عن
قولهم الإثمَ وأكلِهم السُّحْتَ لبئس
ما كانوا يصنعون ﴾

---

(١) وردت (مكتوبة) والصواب أن تكون مكبوتة لتلائم مستورة التى سبقت .
(٢) ربما كانت (طامع) فى غير مطمع وربما كانت (ضالع)

الربّانيُّ من كان لله وبالله ؛ لم تبق منه بقية لغير الله .

ويقال الربّانيُّ الذى ارتقى عن الحدود .

والربانيُّ مَنْ توقَّى الآفات ثم ترقَّى إلى الساحات ، ثم تلقَّى ما كوشِفَ به من زوائد القربات ، فخلا عن نفسه ، وصفا عن وصفه ، وقام لِرَبِّه وبربِّه .

وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين ، فهم خلفاء ينهون الخلْقَ بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم ، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله مايُومِئُون إليه ، وتحقق ما علقوا هممهم به .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهود يَدُ اللهِ مَغْلولةٌ غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان يُنفِقُ كيف يشاء ولَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ماأُنزِل إليكَ من ربِّكَ طغياناً وكفراً ، وألقينا بينهم الْعَدَاوَةَ والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فَسَاداً ، والله لا يحب المفسدين ﴾ .

صغُر سوء قالة الموحِّدين — فى اغتياب بعضهم لبعض بعد ما كانوا بالتوحيد قائلين وبالشهادة ناطقين — بالإضافة إلى ما قاله الكفار من سوء القول فى الله ؛ يعنى أنهم وإن أساءوا قولاً فلقد كان أسوأ قولاً منهم مَنْ نَسَبَنَا إلى ما نحن عنه مُنَزَّهٌ ، وأطلق فى وصفنا ما نحن عنه مُقدَّسٌ .

ثم إن الحق — سبحانه قال : « غُلَّتَ أيديهم ولعنوا بما قالوا » فلا ريح الصدق يشمون ، ولا نَفَساً من الحقِّ يجدون .

ثم أثنى على نفسه فقال : « بل يداه مبسوطتان »[1] أى بل قدرته بالغة ومشيئته نافذة ، ونعمته سابغة وإرادته ماضية .

ويقال « بل يداه مبسوطتان » أى يرفع ويضع ، وينفع ويدفع ، ولا يخلو أحدٌ عن نِعَمِ النفع وإن خلا عن نعم الدفع .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أن أهل الـكتاب آمنوا واتقوا لـكَفَّرْنا عنهم سيئاتِهم وَلَأَدْخَلْنَاهم جناتِ النعيم ﴾

إنما وعدهم الغفرانَ بشرط التقوى . ودليل الخطاب يقتضى أنه لا يغفر لمن لم يتق منهم .

وقال لظالمى هذه الأمة: « ثم أورثنا الـكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه »[2] ثم قال فى آخر الآية : « جنات عدن يدخلونها » أى أهل التقوى لأنه هو أهل المغفرة ، فإنْ تركتَ التقوى فهو أهلٌ لأن يغفر

ويقال لو أنهم راعوا أمرنا أصلحنا لهم أمرهم ، ولـكنهم وَقَفُوا فوُقِفُوا .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ ولو أنَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا مِن فوقهم ومِن تحت أرْجُلِهم ﴾

أى لو سلـكوا سبيلَ الطاعة لوسَّعنا عليهم أسباب المعيشة وسهَّلنا لهم الحال حتى إن ضربوا يميناً ما لقوا غيرَ اليُمْن ، وإنْ ذهبوا يَسْرةً ما وجدوا إلا اليُسْر .

قوله جل ذكره : ﴿ منهم أُمةٌ مُقتَصِدة ، وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون ﴾

المقتصد الواقف على حدِّ الأمر ، لا يُقَصِّر فينْقُص ، ولا يجاوزُ فيزيد .

---

(١) لاحظ كيف يؤول القشيرى (اليد) ليبعد عنها كل دلالة حسية ويجعلها من الأوصاف الالهية .
(٢) آية ٣٢ سورة فاطر

ويقال المقتصدُ الذى تساوى فى همَّته الفقدُ والوجودُ فى الحادثات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الرسول بلِّغ ما أُنزِل إليك من ربِّكَ وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالته ﴾

لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك مُلاحَظَةً لِغَيْرٍ ، إذ لا غير — فى التحقيق — إلا رسوم موضعة ، وأحكام القدرة عليها جارية .

ويقال بَيِّنْ للكافة أنك سيِّدُ ولد آدم ، وأنَّ آدم دون لوائك .

ويقال بلِّغْ ما أُنزِلَ إليك أنِّى أغفر للعصاة ولا أبالى ، وأردُّ مِنَ المطيعين مَنْ شِئْتُ ولا أُبالى .[1]

قوله جل ذكره : ﴿ والله يعصمك من النَّاسِ إنَّ اللهَ لا يهدى القومَ الكافرين ﴾

يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أذاهم ، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوٌّ ، أو يصون سِرَّك عنهم حتى لا يقع عليه احتشامٌ منهم .

ويقال يعصمك من الناس حتى لا تغرق فى بحر التوهم ؛ بل تشاهدهم كما هُمْ ؛ وجوداً بين طرفى العَدَم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ لَسْتُمْ على شىء حتى تقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِل إليكم من ربكم وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأسَ على القومِ الكافرين ﴾

---

(١) يتضح من هذه الإشارة شيئان : أولهما مدى إتساع صدور الصوفية للسماع ونظرتهم المتفائلة إلى سعة الرحمة الإلهية مما يطمئن العصاة ويحمس على التوبة ، وثانيهما مدى مخالفة القشيرى للمعتزلة فى مسألة وجوب المثوبة أو العقوبة على الله سبحانه ، فلا وجوب ـ عنده ـ على الله بخلافهم .

أى ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم ، ولا قَدْرُكم فى الدنيا والعُقبى ، ولا مقدارُكم ولا منزلـكم فى حال من حالاتـكم إلا بمراعاة الأمر والنهى ، والمحافظة على أحكام الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا
والصابئون والنصارى مَنْ آمَنَ بالله
واليوم الآخِر وعَمِل صالحاً فلا خوفٌ
عليهم ولا هم يحزنون ﴾

بَيَّنَ أنهم — وإنْ تجنَّستْ أحوالهم — فبعدما تجمعهم أصولُ التوحيد فلهم الأمان من الوعيد ، والفوزُ بالمزيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل
وأرسلنا إليهم رُسُلاً كلما جاءهم
رسولٌ بما لا تَهْوَى أنفسُهم فريقا
كَـذَّبُوا وفريقا يَقْتُلُون * وحَسِبُوا
ألا تـكونَ فتنةٌ فعموا وصموا ثم تابَ
اللهُ عليهم ثم عَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ
منهم والله بصيرٌ بما يعملون ﴾

داروا مع الهوى فوقعوا فى البلاء . ومِنْ أمارات الشقاء الإصرارُ على متابعة الهوى ، وحسبوا ألا تـكون فتنة ، فعموا وصموا . واغتروا بطول الإمهال فأصروا على قبيح الأعمال ، فلما أخَذَتْهم فجاءةُ الانتقام لم ينفعهم الندم ، وبَرَّحَ بهم الألم .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ
ابنُ مريم وقال المسيحُ يا بنى إسرائيل
اعبدوا اللهَ ربى وربكم إنَّه مَن يُشرِكْ
بالله فقد حرَّم الله عليه الجنَّةَ ومأواه
النارُ وما للظالمين مِنْ أنصار ﴾

سقمت بصائرهم والتبست عليهم أمارات الحدوث ، فخلطوا فى عقائدهم استحقاق أوصاف القِدَم بنعوت الحدوث !

قوله جلّ ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ اللهَ ثالثُ
ثلاثةٍ وما منْ إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ ،
وإن لم ينتهوا عما يقولون ليَمَسَّنَّ
الذين كفروا منهم عذابٌ أليم *
أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه
واللهُ غفورٌ رحيم ﴾

بلغ الخذلانُ بهم حداً أنْ كابروا الضرورة فحكموا للواحد بأنه ثلاثة ، ولا يخفى فسادُ هذا على مجنونٍ . . فكيف على عاقل ؟ !

قوله : « أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » لم يُغلِقْ بابَ التوبة عليهم — مع قبيح أقوالهم ، وفساد عقائدهم — تضعيفاً[1] لآمال المؤمنين بخصائص رحمته .

قوله جل ذكره : ﴿ ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ
قد خلَتْ من قبله الرُّسُلُ وأُمُّه
صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعامَ انظرْ
كيف نبيِّن لهم الآياتِ ثم انظُرْ أنَّى
يُؤْفَكون ﴾ .

مَنْ اشتملت عليه الأرحامُ ، وتناوبته الآثار المتعاقبة أنَّى يليق بوصف الإلهية ؟
ثم مَنْ مَسَّتْه الحاجةُ حتى اتصف بالأكل وأصابته الضرورةُ إلى أن يَخْلُصَ من بقايا الطعام فأنَّى يليق به استيجابُ العبادة والتسميةُ بالإلهية ؟

انظر — يا محمد — كيف نزيد فى إيضاح الحجة وكيف تلبَّس عليهم سلوكُ المحجة ؟

---

(١) تضعيفاً أى جعلها مضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أتعبدون مِن دون الله ما لا يملكُ
لكم ضَرًّا ولا نفعًا والله هو السميع
العليم ﴾ .

تعليقُ القلوب — بدون الرب — فى استدفاع الشر واستجلاب الخير محيق للوقت فيما لا يُجدِى ، وإذهابٌ للعمر فيما لا يُغنى ؛ إذ المتفردُ بالإيجاد برئ عن الأنداد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى
دِينكُم غيرَ الحق ولا تَتَّبِعُوا أهواء
قومٍ قد ضلوا من قبل وأَضلوا كثيراً
وضَلُّوا عن سَواء السبيل ﴾

التعمقُ فى الباطل قطعٌ لآمال الرجوع ؛ فكلما كان بُعْدُ المسافةِ مِنَ الحقِّ أتمَّ كان اليأسُ من الرجعةِ أوجبَ ، ومُتَّبِـعُ الضلالة شرٌّ مِنْ مبتدِعها ؛ لأن المبتدعَ يبنى والمُتَّبع يُتِمُّ البناء ، ومنْ به كمالُ الشرِّ شرٌّ ممن منه ابتداء الشر .

قوله جل ذكره : ﴿ لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل
على لسان داودَ وعيسى ابنِ مريم
ذلك بِما عَصَوا وكانوا يَعْتَدُون ﴾ .

أمَرَ الأنبياء — عليهم السلام — حتى ذكروا الكفار بالسوء ، وأمّا الأولياء فخصَّهم بذكر نفسه فقال : « هو الذى يصلى عليكم »[1] ؛ فلعنةُ الكفار بلسان الأنبياء ، وذِكْرُ للؤمنين بالجميل بلسان الحقِّ — سبحانه ، ولو كان ذلك ذِكْرًا بالسوء لكان فيه استحقاقُ فضيلةٍ ، فكيف وهو ذكرٌ بالجميل ! ؟ ولقد قال قائلهم :

لئن ساءنى أنْ تَلْقَنِى بمساءةٍ فقد سرَّنى أنى خَطَرْتُ ببالِكا

قوله جل ذكره : ﴿ كانوا لا يَتَنَاهَوْن عن مُنكَرٍ

---

(١) آية ٤٣ سورة الأحزاب .

تفعلوه[1] لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

الرضاء بمخالفة أمر الحبيب موافقةٌ للمخالف ، ولا أَنَفَةَ بعد تميز الخلاف . والسكوتُ عن جفاء تُعامَلُ به كَرَمٌ ، والإغضاء عما يُقال فى محبوبك دناءةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴾ .

شرُّ خِصال اللئام مطابقةُ مَنْ يضاد الصديق ، فإذا كان سخط الله فى موالاة أعدائه ، فرحمته — سبحانه فى معاداة أعدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبىِّ وما أُنزلَ إليه ما اتخذوهم أولياء ولـكنَّ كثيراً منهم فاسقون ﴾ .

صرَّحَ بأنَّ موافقَ مَنْ ناوءك[2] آثَرَ التباعدَ عنك ؛ إذ لو كانت بينكما شُهْرَةٌ غيرُ مُنْقَطِعةٍ لأخلصت[3] فى موالاته ، وأخلصَ فى مصافاتك .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنَّ منهم قسيسينَ ورُهباناً وأنهم لايستكبرون ﴾ .

بيَّنَ أنَّ صفة العداوة وإن كانت تجمعهم فمعاداةُ بعضهم تزيد على بعض ، وبقدر

---

(١) سقطت (فعلوه) من الناسخ فاثبتناها .

(٢) وردت (ناولك) وربما كانت فى الأصل (ناواك) والتبست على الناسخ فظنها لاماً .

(٣) أخطأ الناسخ فكتبها (لأخصلت) .

ما للنصارى من الترهُّب أثر فيهم (بالمقاربة)[1] من أهل الحق ؛ فإنهم وإن لم ينتفعوا بهم من حيث الخلاص فقد ذكرهم الله سبحانه — بمقاربة أهل الاختصاص.

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسولِ
ترى أعينَهم تفيضُ من الدمعِ
مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا
فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

هذه صفة من نظر إليه الحق نظر القبول ، فإذا قرعَتْ سمْعَهم دعوةُ الحقّ انبسطت البصيرة فى قلوبهم ، فسكنوا إلى المسموع لما وجدوا من التحقيق.

قوله جل ذكره : ﴿ وما لنا لا نؤمنُ بالله وما جاءنا
من الحقّ ونطمعُ أن يُدْخِلنا ربُّنا
مع القومِ الصالحين ﴾

وأى عذر لنا فى التعريج فى أوطان الارتياب ، وقد تجلّت لقلوبنا الحجج ؟ ثم ما نؤمله من حُسْنِ العاقبة . متى بدونه يمكن أن نطلبه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فأثابهم الله بما قالوا جنّاتٍ تجرى
من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك
جزاء المحسنين ﴾

لمّا صَدَقَتْ آمالهم قابلها بالتحقيق ، سُنَّةً منه — سبحانه — ألا يخيب راجيه ، ولا يرد مؤمليه[2] ، وإنما علّق الثواب على قولِ القلب الذى هو شهادةٌ عن شهوده ، فأمّا النظر المنفردُ عن البصيرةِ فلا ثوابَ عليه ولا إيجاب[3] .

---

(١) وردت (بالمقرنة) والصواب أن تكون (المقاربة) فقد وردت كذلك فيما بعد إشارة إلى ماق الآية (أقربهم مودة . . .) . وربما قبلها (مقارنة) على أساس مقارنة النصارى باليهود .
(٢) وردت (مؤمليه) وهى خطأ فى النسخ
(٣) لاحظ هنا قمة الإيمان النظرى بالقياس إلى الإيمان القلبى . مغزى ذلك فى السماع الدينى .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا
أولئك أصحابُ الجحيم ﴾

(هذا) أثر الإعراض عن الأعداء فى مقابلة أثر الإقبال على الأولياء معجَّلاً ومؤجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا
طيباتِ ما أَحَلَّ الله لكم ولا تعتدوا
إن الله لا يحب المعتدين ﴾

من أمارات السعادة الوقوفُ على حد الأمر ؛ إنْ أباحَ الحقُّ شيئاً قَبِلَه ، وقابله بالخشوع ، وإنْ حَظَرَ شيئاً وقف ولم يتعرض للجحود .

ومما أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب فى أوطان الخلوة ، وتحريم ذلك : إنْ استَبدَلَ تلك الحالة بالخلطة دون العزلة ، والعِشْرَةِ دون الخلوة ، وذلك هو العدوان العظيم والخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ وكُلوا مما رزقكم اللهُ حلالاً
طيِّباً ، واتقوا اللهَ الذى أنتم به
مؤمنون ﴾

الحلال الصافى بأن يأكلَ العبدُ ما يأكلُ على شهوده — سبحانه — فإنْ نَزَلَتْ الحالةُ عن هذا فَعَلَى ذِكْرِه — سبحانه — فإنَّ الأكلَ على الغفلة حرامٌ فى شريعة الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يؤاخذكم اللهُ باللَّغوِ فى أيمانِكم
ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدتُم الأَيمانَ
فكفَّارتُه إطعامُ عشرةِ مساكين
من أوسَطِ ما تُطعِمُون أهليكم
أو كِسوَتُهُم أو تحريرُ رقبةٍ ، فمن
لم يجِدْ فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ ، ذلك
كفَّارةُ أيمانكم إذا حَلَفتُم واحفظوا

أَيمانكم ، كذلك يُبَيِّن الله لكم
آياتِهِ لعلكم تَشْكُرون ﴾

الإشارة منه إلى وقتٍ يغلب على قلبك التعطشُ إلى شىء من إقباله أو وصاله ، فَتُقْسِمُ عليه بجماله أو جلاله أن يرزقك شظيةً من إقباله ، فكذلك فى شريعة الرضا نوعٌ من اليمين ، فيعفو عنك رحمةً عليك لضعف حالك . والأولى الذوبان والخمود بحسن الرضا تحت ما يُجْرِى عليكَ من أحكامه فى الردِّ والصد ، وأن تؤثِرَ استقامتك فى أداء حقوقه على إكرامك بحسن تقريبه وإقباله ، كما قال قائلهم :

أُريدُ وِصالَه ويريد هجرى ۞ فأتركُ ما أريد لما يريد

ومِنَ اللغوِ فى اليمين — عندهم — ما يجرى على لسانهم فى حال غلبات الوَجْد من تجريد العهد وتأكيد العقد ، فيقول :

وحقِّك ما نظرتُ إلى سواكا ، ولا قُلْت بغيرك . . ولا حُلْتُ عن عهدك ، وأمثال هذا . . .

وكلُّه فى حكم التوحيد لغو ، وعن شهود عهد الأحدية سهوٌ . . . ومَنْ أنتَ فى الرِّفعةِ حتى تَعْدِمَ نَفْسَكَ ؟ وأين فى الدار ديَّار حتى تقول بتركه أو تتحقق بوصله أو هجره ؟ كلا . . . بل هو الله الواحد القهار[1] .

وكما أن الكفَّارة الشرعيةَ إمَّا عِتْقٌ أو إطعامٌ وإما كسوةٌ فإن لم تستطع فصيام ثلاثة أيام : فكفَّارتهم — على موجب الإشارة — إمّا بذل الروح بحكم الوَجْدِ ، أو بذل القلب بصحة القصد ، أو بذل النفس بدوام الجهد ، فإن عجزتَ فإمساكٌ وصيامٌ عن المناهى والزواجر .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنو إنما الخمرُ والميسرُ

(١) وشبيه بذلك قول الشبلى حين سئل عن التوحيد (من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد ، ومن أشار إليه فهو ثنوى ، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن ، ومن نطق فيه فهو غافل . . . وكل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم ، محدث مصنوع مثلكم » الرسالة ص ١٤٩ .

والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عمل
الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تُفْلِحون﴾

الخمر ما خامر العقول ، والخمر حرام .

والإشارة فيه أنه يزيد نَفَاذَ العقل بما يوجب عليه من الالتباس .

ومَنْ شَرِبَ من خمر الغفلة فَسُكْرُه أصعب ، فشرابُ الغفلةِ يوجب البعد عن الحقيقة .

وكما أن من سَكِرَ من خمر الدنيا ممنوعٌ عن الصلاةِ فمن سَكِرَ من خمر الغفلة فهو محجوبٌ عن المواصلاتِ .

وكما أنَّ مَنْ شَرِبَ من خمر الدنيا وجب عليه الحدُّ فكذلك من شرِبَ شرابَ الغفلة فعليه الحدُّ إذ يُضْرَبُ بسياط الخوف .

وكما أنَّ السكرانَ لا يُقامُ عليه الحدُّ مالم يُفِقْ فالغافل لاينجح فيه الوعظُ ما لم ينته .

وكما أن مفتاحَ الكبائر شربُ الخمر (فالغفلة)[1] أصلُ كلِّ زَلَّة ، وسببُ كلِّ ذِلَّة وبدء كل بُعْد وحجبة عن الله تعالى .

ويقال لم يحرم عليه الشرابَ فى الدنيا إلا وأباح له شرابَ القلوب ؛ فشراب الكبائر محظور (وشراب الاستئناس مبذول ، وعلى حسب المواجد حظى القوم بالشراب)[2] ، وحيثما كان الشرابُ كان السكْر ، وفى معناه أنشدوا :

فما ملَّ ساقيها وما ملَّ شارب   عقار لحاظ كأسه يسكر اللبَّا

فصحوك من لفظى هو الوصل كله   وسكرك من لحظى يبيح لك الشربا

وحُرِّم الميسرُ فى الشرع ، وفى شريعة الحب القوم مقهورون ؛ فمن حيث الإشارة أبدانهم مطروحة فى شوارع التقدير ، يطؤها كل عابر سبيل من الصادرين من عين المقادير ، وأرواحهم مستباحة بحكم القهر ، عليها خرجت القُرْعةُ من (. . .)[3] الحكم ، قال تعالى « فساهم فكان من المدحضين »[4] .

---

(١) اضفنا (الغفلة) وليست موجودة فى النص ليتضح المعنى .

(٢) ما بين القوسين مثبت فى الهامش نقلناه إلى موضعه حسب العلامات .

(٣) مشتبهة .   (٤) آية ١٤١ سورة الصافات .

قوله جل ذكره: ﴿ إنما يريد الشيطانُ أن يوقِع بينكم
العداوةَ والبغضاء فى الخمر والميسر
ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة
فهل أنتم مُنْتَهُون ﴾ .

طال بُعْدُهم عن الحقيقة فقاسوا الهوان فى مطارح الغربة ، وصاروا سخرة للشيطان ، فبقوا الصلاة التى هى محل النجوى وكمال الراحة ، وفَسَدَتْ ذاتُ بَيْنِهم بما تولد من الشحناء والبغضاء .

قوله جل ذكره: ﴿ وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ
واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على
رسولنا البلاغ المبين ﴾ .

كلما كان العبد أعرفَ بربه كان أخوفَ من ربه ، وإنما ينتفى الحذر عن العبد عند تحقيق الموعد بقوله : « أولئك لهم الأمن »[1] وذلك عند دخول الجنة . وحقيقةُ الحذر نهوضُ القلب بدوام الاستغاثة مع مجارى الأنفاس .

قوله جل ذكره: ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا
الصالحات جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا إذا
ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم
اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله
يُحِبُّ المحسنين ﴾

من حافظ على الأمر والنهى فليس للقمة يتناولها من الخطر ما يُضَايَق فيها ، وإنما المقصودُ من العبد التأدبُ بصحبة طريقه سبحانه ، فإذا اتَّقى الشِركَ تعرّف ، ثم اتقى الحرامَ فما تصرّف ، ثم اتقى الشحَّ فآثر وما أسرف .

(١) آية ٨٢ سورة الأنعام .

وقوله « ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا . . . » يعنى اتقوا للنعم[1] وأحسنوا للخلق — وهذا للعموم . ثم اتقوا شهود الخلق؛ فأحسنُ الشهودِ الحقُّ ، والإحسانُ أنْ تعبد الله كأنك تراه— وهذا للخواص.

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (آمالا)[2] والمحسنين أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿يَٰأيها الذين آمنوا لَيَبْلُوَنَّكم اللهُ بشىءٍ من الصيد تناله أيديكم ورماحُكم ليعلمَ اللهُ مَن يخافُه بالغيب فَمَنِ اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم * يَٰأيها الذين آمنوا لا تَقْتُلُوا الصيدَ وأنتم حُرُمٌ ومَن قَتَلَه منكم متعمداً فجزاءٌ مِثلُ ما قَتَلَ من النَّعَمِ يحكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ منكم هدْياً بالغ الكعبة أو كفَّارةٌ طعامُ مساكين أَوْ عَدْلُ ذلك صياماً لِيذُوقَ وبالَ أمره عفا اللهُ عمَّا سَلَفَ ومَنْ عاد فينتقمُ اللهُ منه والله عزيزٌ ذو انتقام﴾ .

أباح الصيد لمن كان حَلالاً[3] ، وحرَّم الصيد على المُحْرِم الذى قَصْدُه زيارة البيت . والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغى أن يكون الصيد منه فى الأمان ، لا يتأذى منه حيوان بحال ، لذا قالوا : البَرُّ مَنْ لا يؤذى الذر ولا يُضْمِر الشر .

ويقال الإشارة فى هذا أنْ مَنْ قصدَنا فعليه نَبْذُ الأطماع جملةً ، ولا ينبغى أن تكون له مطالبة بحالٍ من الأحوال .

---

(١) أى منعم الإحسان .

(٢) نرجح أنها فى الأصل (أموالا) .

(٣) الحلال = الخارج من الإحرام (المنجد : مادة حل) .

وكما أنَّ الصيدَ على المُحْرِم حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار - على الواجد — حرامٌ ما دام مُحْرِماً بقلبه .

ويقال العارفُ صيدُ الحق ، ولا يكون للصيد صيد .

وإذا قَتَلَ المُحرِمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة ، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ ، أو طمع أو رغب في شيء أو اختار لَزِمَتْهُ الكفَّارة ، ولكن لا يُكْتَفَى منه بجزاء المثل ، ولا بأضعاف أمثال ما تصرَّف فيه أو طمع ، ولكن كفَّارته تجرده — على الحقيقة — عن كل غير ، قليلٍ أو كثير ، صغير أو كبير .

قوله جل ذكره : ﴿ أُحِلَّ لكم صيدُ البحرِ وطعامُهُ متاعاً لكم وللسيارةِ وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دُمْتُم حُرُماً واتقوا اللهَ الذي إليه تُحشَرون ﴾

حُكْمُ البحرِ خِلافُ حُكْمِ البر . وإذا غرق العبدُ في بحار الحقائق سَقَطَ حكمه ، فصيد البحر مباح له لأنه إذا غرق صار محواً ، فما إليه ليس به ولا منه إذ هو محوٌ ، واللهُ غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ جعل اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناسِ والشهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقلائدَ ذلك لِتَعْلَمُوا أنَّ اللهَ يعلم ما في السموات وما في الأرضِ وأنَّ اللهَ بكل شيء عليم ﴾

حَكَمَ اللهُ سبحانه — بأن يكون بيتُه — اليومَ ملجأً يلوذ به كل مُؤمِّل ، ويستقيم ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة ، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذي أَرَب .

والبيتُ حَجَرٌ والعبد مَدَرٌ ، والحق سبحانه ربط المدر بالحجر ليُعْلَمَ أنه الذي لم يَزَلْ لا سبيل إليه للحدثان والغير .

قوله جل ذكره: ﴿اعلموا أنَّ الله شَدِيدُ العقابِ وأنَّ
اللهَ غفورٌ رحيم﴾

شديد العقاب للأعداء، غفور رحيم للأولياء.

ويقال شديد العقاب للخواص بتعجيل الحجاب إنْ زاغوا عن الشهود لحظةً، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة.

قوله جل ذكره: ﴿ما على الرسولِ إلا البلاغُ والله يعلم
ما تُبْدُونَ وما تكْتُمون * قل
لا يستوى الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبك
كثرةُ الخبيثِ فاتقوا الله يا أُولى
الألبابِ لعلكم تفلحون﴾

للتفرُّدُ بالإلهية اللهُ. والرسولُ — وإنْ جلَّ قَدْرُه — فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره)[1].

قوله: «قل لا يستوى الخبيث والطيب»: الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى فى حالة اكتسابه، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق.

ويقال الخبيث ما لم يُخْرَجْ منه حقُّ الله تعالى، والطيب ما أُخْرِجَ منه حقه — سبحانه. ويقال الخبيث ما ادخرتَه لنفسك، والطيب ما قدَّمتَه لأمره.

قوله جل ذكره: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء
إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا
عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم
عفا اللهُ عنها والله غفورٌ حليمٌ﴾

---

(١) لا نستبعد أيضاً أنها ربما كانت فى الأصل (بتيسيره)، وكلاهما مقبول فى السياق.

إذا أسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلم أُخْفِيَ عنكم، فيتنغّص (بالتجـ ...)[1] — عليكم — عَيْشُكم.

ويقال لا تتعرضوا للوقوف على محل الأكابر — حيث لا تستوجبون ذلك — فيسوءكم تقاصرُ رتبتكم.

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من (التفال)[2] ولا تطلبوا أسرار البارى، واركنوا إلى روْح المنى فى استدفاع ما (ظلكم)[3] ولا تبحثوا عن سر ذلك، وراعوا الأمر مجلاً.

قوله جل ذكره: ﴿قد سألها قومٌ مِّن قبلكم ثم أصبحوا
بها كافرين﴾

يعنى توهَّم قومٌ أنهم محررون عن التأثر فيما يصادفهم من مجاوة التقدير، وذلك منهم ظَنٌّ، كما يقول بعضهم:

تبيَّن يومَ البيْن أنَّ اعتزامَهُ على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

قوله جل ذكره: ﴿ما جعل اللهُ من بَحِيرةٍ ولا سائبةٍ
ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكن الذين
كفروا يفترون على الله الكذب
وأكثرهم لا يعقلون﴾

هذه أحكامٌ ابتدعوها، فردَّهم الحقُّ — سبحانه — عن الابتداع، وأمَرَهم بحسن الاتِّباع، وأخبر أنَّ ما صدر من عاداتهم لا يُعَدُّ من جملة عباداتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللهُ

---

(١) بقية الكلمة مشتبهة ولكنها أقرب ما تكون إلى (التجسس) وهى مقبولة هكذا فى السياق؛ أى لا تحاولوا التجسس ومحاولة معرفة الأسرار ينغص عليكم عيشكم.

(٢) هكذا فى النسخ ونرجح أنها فى الأصل (التأويل) وإن كانت بعيدة فى الرسم.

(٣) أى ما هشيكم من سُحُب الإعراض.

وإلى الرسول قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا
عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم
لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾

إذا هتفت بهم دواعى الحقِّ بالجنوح إلى وصف الصدق صَدَّهم عن الإجابة ما مرنوا عليه من سهولة (التقليد)[1] ، وإن أسلافهم الذين وافقوهم لم يكونوا إلاَّ فى ضلال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم
لا يضرُّكم مَّن ضلَّ إذا اهتديتم
إلى الله مرجعكم جميعاً فيُنَبِّئُكم بما
كنتم تعملون ﴾

يكفى للفقير أن يمشىَ وقد جُبِرَ بعضُ (كَسْرِه)[2] ، فأمَّا إذا ادَّعى التقدم أو الطمع فى إيجادِ منْ سواه فحال من (الحدث)[3] والظن .

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه ، ومن اشتغل بنفسه لم يتفرَّغ إلى غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا شهادةُ بَيْنِكم إذا
حضرَ أحدَكم الموتُ حين الوصية
اثنان ذَوَا عدلٍ منكم أو آخران من
غيركم إنْ أنتم ضربتم فى الأرض
فأصابتكم مصيبةُ الموتِ تحبسونهما
من بعد الصلاة فيُقسِمانِ بالله إن ارتبتم
لا نشترى به ثمناً ولو كان ذا قُربى
ولا نكتُمُ شهادةَ الله إنَّا إذاً لَمِنَ

---

(١) وردت (التقليل) والصواب (تقليد) آبائهم وأسلافهم كما فى الآية .
(٢) وردت (كثره) بالثاء والصواب : جبر (كسره) بالسين .
(٣) ربما كانت فى الأصل (الحدس) لتتمشى مع الظن .

الآثمين * فإنْ عُثِرَ على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مَقامهما من الذين استحق عليهم الأَوْليَان فيقسمان بالله لَشَهادَتُنا أحقُّ من شهادتهما وما اعْتَدَيْنَا إنا إذاً لمِنَ الظالمين * ذلك أدنى أن يأتُوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُرَدَّ أيمانٌ بعد أيمانهم واتقوا اللهَ واسمعوا ، والله لا يهدى القومَ الفاسقين ﴾

حكم هذه الآية كان ثابتاً فى الشرع و نُسخ ، وفى بيان التفسير تفصيلُه .

والنسخُ هو الإزالة ، وذلك جائزٌ فى العبادات .

ومعنى النسخ يوجد فى سلوك المريدين ؛ فهم فى الابتداء فَرْضُهم القيام بالظواهر من حيث المجاهدات ؛ فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شىء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر ، فهو كالنسخ من حيث الصورة .

قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها »[1] . واتصافهم بمراعاة القلوب أتمُّ بتأديبهم بأحكام المعاملات[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يوم يجمع اللهُ الرسلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُم قالوا لا عِلمَ لنا إنَّك أنتَ علاَّمُ الغيوب ﴾

يكاشفهم نعت الجلال فتخنس فهومُهم وعلومُهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق

(١) آية ١٠٦ سورة البقرة . (٢) أى أن مراعاة الحقيقة تتم مراعاة الشريعة .

ويقولون : « لا علم لنا » ، وهكذا تكون الحالة غداً : مَنْ قال لشيء، أو مَالَ لشيء مما يكون نعتاً بمخلوق فعند ظهور وابل التعزُّز تتلاشى الجملة ، فالملائكة يقولون : « ما عبدناك حق عبادتك » والأنبياء يقولون : « لا عِلْمَ لنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيَّدتُك بروحِ القُدُسِ تكلِّمُ الناسَ فى المهد وكهلاً وإذ علَّمتُكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتُبْرِئُ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففتَ بنى إسرائيل عنك إذ جئتَهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾

التذكيرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصةَ الحب والهيمان فى المذكور[1] ، وكلُّ وقتٍ للأحباب يمضى يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم : إما عليهم وإمَّا عنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشْهَدْ بأنَّنا مسلمون ﴾

---

(١) أعلى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور وفيها ينتقل العبد من مرتبة ذكر النعم إلى ذكر المنعم. فكأن القشيرى يقصد بإشارته إلى ان تذكير عيسى وامه بالنعم التى وردت فى الآية تحث لهما على الارتقاء من مرحلة النظر إلى النعم إلى مرحلة النظر إلى صاحبها سبحانه وتعالى ، وحبه والهيمان فيه .

وإنما خصَّهم بالوحى إليهم إلهاماً وإكراماً لانبساط ضياء عيسى عليهم[1] ، وفى الأثر : « همُ القومُ لا يَشْقَى بهم جليسُ » .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم
هل يستطيع ربُّك أن يُنَزِّلَ علينا
مائدةً من السماء قال اتقوا الله إن
كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكلَ
منها وتطمئنَّ قلوبُنا ونعلم أن
قد صَدَقْتَنَا ونكونَ عليها من
الشاهدين ﴾

طلبوا المائدةَ لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة ، فعُذِرُوا وأجيبوا إليها ، إذ كان مرادُهم حصولَ اليقين وزيادةَ البصيرة .

ويقال كلٌّ يطلب سُؤْلَه على حسب ضرورته وحالته ، فمنهم من كان سكونه فى مائدة من الطعام يجدها ، ومنهم من يكون سكونه فى (فائدة)[2] من الموارد يَرِدُها ، وعزيز منهم من يجد الفناء[3] عن برهان يتأمله ، أو بيان دليل يطلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزِلْ
علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً
لأولنا وآخِرنا ، وآيةً منك وارزقنا
وأنت خير الرازقين ﴾

شَتَّان بين أمة طلب لهم نبيُّهم سكوناً بإنزال المائدة عليهم ، وبين أمة بدأهم ـ سبحانه ـ

---

(١) وهذا يطابق فكرة القشيرى فى الولاية وكيف انها ملحقة بالمعجزة ، فما يظهر على الولى من كرامة هو بركة النبى الذى الولى من امته وعصره .

(٢) وربما كانت (مائدة) ليتم التقابل بين المائدتين الحسية والمعنوية .

(٣) وربما كانت (الغناء) اى يجد الاستغناء عن كل برهان ودليل ، وتصح (الفناء) بالفاء على معنى أن فناءه فى الله لا يحوجه إلى برهان أو دليل . .

بإنزال السكينة عليهم ، من غير سؤال أحد ، قال الله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »[1]

وقال فى صفتهم « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا »[2]

وفَرْقٌ بين مَنْ زيادةُ إيمانه بآياته التى تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُبَاحُ لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الله إنى مُنَزِّلُهَا عليكم فمَن يكفرْ بعدُ منكم فإنى أُعذِّبُهُ عذاباً لا أُعذبهُ أحداً مِنَ العالمين ﴾

أجابه إلى سؤاله لهم ، ولكن توعدهم[3] بأليم العقاب لو خالفوا بعده لِيَعْلَمَ السالكون أنَّ المراد إذا حصل ، وأنْ الكرامة إذا تحققت — فالخطر أشدُّ والحالُ من الآفة أقربُ ، وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى ، ومحن الأكابر إذا حلَّت جلَّت .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال اللهُ يا عيسى ابن مريم أأنت قُلْتَ للناسِ اتخذونى وأمى إلهين مِن دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علاَّمُ الغيوب ﴾

المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث ، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشريف .

---

(١) آية ٤ سورة الفتح .
(٢) آية ٢ سورة الأنفال .
(٣) وردت (يوعدم) .

ثم إن عيسى — عليه السلام — حفظ أدب الخطاب فلم يُزَكِّ نَفْسَه ، بل بدأ بالثناء على الحق — سبحانه — فقال : تنزيهاً لك ! إننى أُنزهك عما لا يليق بوصفك .

ثم قال : « ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » أى إنى إن كنت مخصوصاً مِنْ قِبَلِكَ بالرسالة — وشرط النبوة العصمة — فكيف يجوز أن أفعل مالا يجوز لى ؟ .

ثم إنى « إن كنتُ قلتُه فقد علمته » . كان واثقاً بأن الحقَّ — سبحانه — عليم بنزاهته من تلك المقالة .

« تعلم ما فى نفسى » : أى علمك محيطٌ بكل معلوم .

« ولا أعلم ما فى نفسك » أى لا أَطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعَرِّفُنِي بإعلامك . « إنك أنت علاَّم الغيوب » الذى لا يخرج معلوم عن علمك ، ولا مقدور عن حكمك .

قوله جل ذكره : ﴿ ما قُلْتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن
اعبدوا اللهَ ربى وربَّكم وكنتُ عليهم
شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتنى
كُنتَ أنت الرقيبَ عليهم وأنت
على كل شىء شهيد ﴾

ما دعوتُهم إلا لعبادتك ، وما أمرتهم إلا بتوحيدك وتقديسك ، وما دمت حياً فيهم كنت (. . . .)[1] على هذه الجملة ، فلما فارقتُهم كان تصرفهم فى قبضتك على مقتضى مشيئتك ، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وَضْقْ وفاقهم وخلافهم ، وتعمّتى اقتصادهم[2] وإسرافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تعذِّبهم فإنهم عبادك وإن تغفرلهم
فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾

---

(١) مشتبهة .

(٢) الاقتصاد هنا معناها الاعتدال .

بيّن أن حكم المولى فى عبيده نافذ بحكم إطلاق ملكه ، فقال إن تعذبهم يحسن منك تعذيبهم وكان ذلك لأنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم أى المُعِزِ لهم بمغفرتك لهم .

ويقال أنت العزيز الحكيم الذى لا يضرك كُفْرُهم .

ويقال « العزيز » القادر على الانتقام منهم فالعفو (عند)[1] القدرة سِمَةُ الكرم ، وعند العجز أمارةُ الذُّلّ .

ويقال إن تغفر لهم فإنك أعزُّ من أن (تتجمل)[2] بطاعة مطيعٍ أو تنتقص[3] بزلّةِ عاصٍ . وقوله « الحكيم » ردٌّ على من قال : غفران الشِّركِ ليس بصحيح فى الحكمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ اللهُ هذا يومُ ينفع الصادقين صدقُهم لهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ﴾

مَنْ تعجّل ميراثَ صدقه فى دنياه من قبولٍ حصل له من الناس ، أو رياسةٍ عقدت له ، أو نفعٍ وصل إليه من جاهٍ[4] أو مالٍ . فلا شىء له فى آجله من صواب صدقه ، لأن الحقّ — سبحانه — نصّ بأنّ يومَ القيامة ينفع فيه الصادقين صدقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ رَّضِىَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾

ورضاه الحق — سبحانه — إثباتُ مَحَلٍّ لهم ، وثناؤه عليهم ومدحهُ لهم ، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله . ورضاؤهم عن الحقِ — سبحانه — فى الآخرة وصولهم إلى مناهم ؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى .

---

(١) وردت (عن) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (تتحمل) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (تنتقض) بالضاد وهى خطأ فى النسخ .
(٤) وردت (جاره) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ لله مُلْكُ السموات والأرض وما فيهن ﴾

تمدَّحَ الحقُّ — سبحانه — بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات ، الصالحة لإيجاد المصنوعات ، ولم يتجمل بإضافة غيرٍ إلى نفسه من اسمٍ أو أثرٍ ، أو عينٍ أو طلل .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾

من الإبعاد والإسعاد ، والصد والرد ، والدفع والنفع ، والقمع والمنع .

السورة التي تذكر فيها الأنعام

« بسم الله الرحمن الرحيم »

باسمه استنارت القلوب واستقلَّت، وباسمه زالت الكروب واضمحلت ، وبرحمته عرفت الأرواح وارتاحت ، وبا (. . .)(١) انْخَنَسَتْ العقولُ فطاحت .

ويقال باسم الله نال كلُّ مُؤمِّلٍ مأموله ، وبرحمة الله وَجَدَ كل واجد وصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمد لله الذى خلقَ السمواتِ والأرضَ وَجَعَلَ الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون ﴾

بدأ الله — سبحانه — بالثناء على نفسه ، فحمد نفسه بثنائه الأزلىّ وأخبر عن سنائه الصمدى ، وعلائه الأحدى فقال : « الحمد لله » .

وقوله عز وجل : « الذى خلق السموات والأرض » : « فالذى » إشارة و « خلق السموات والأرض » عبارة. استقلت الأسرارُ بسماع « الذى » لتحققها بوجوده ، ودوامها لشهوده ، واحتاجت القلوب عند سماع « الذى » إلى سماع الصلة لأن « الذى » من الأسماء الموصولة بكونِ القلوب تحت ستر الغيب فقال : « خلق السموات والأرض »

---

(١) مشتبهة .

قوله جل ذكره ﴿ وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلُون ﴾

خَلَقَ ظلمةَ الليل وضياء النهار ، ووحشةَ الكفر والشِرْك ، ونور العرفان والاستبصار .

ويقال جَعَلَ الظلماتِ نصيبَ قومٍ لا لجُرْمٍ سَلَفَ ، والنورَ نصيبَ قومٍ لا لاستحقاقٍ سبق ، ولكنه حُكْمٌ به جرى قضاؤه .

ويقال جعل ظلماتِ العصيان محنةَ قومٍ ، ونور العرفان نزهةَ قوم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى خلقكم من طينٍ ثم قضى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمّىً عنده ثم أنتم تمْتَرون ﴾

أثبت الأصل من الطين وأودعها عجائب (السير)[1] ، وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق ، فالعِبْرةُ بالوَصْلِ لا بالأصل ؛ فالوَصْلُ قُرْبَةٌ والأصل تُرْبَةٌ ، الأصل من حيث النُّطفة والقطرة ، والوصل من حيث القربة والنُّصرة .

قوله « ثم قضى أجلًا وأجل مُسَمّىً عنده » : جعل للامتحان أجلًا ، ثم جعل للامتنان أجلا ، فَأَجَلُ الامتحان فى الدنيا ، وأَجَلُ الامتنان فى العُقبى .

ويقال ضَرَبَ للطلب أجلًا وهو وقت المهلة ، ثم عقبه بأجل بعده وهو وقت الوصلة ؛ فالمهلة لها مدًى ومنتهى ، والوصلة بلا مدًى ولا منتهى ؛ فوقتُ الوجودِ له ابتداء وهو حين تطلع شموس التوحيد ثم يتسرمد[2] فلا غروب لها بعد الطلوع .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سِرَّكم وجهركم ويعلم ما تكسِبُون ﴾ .

---

(١) إما ان تكون (السير) جمع سيرة او تكون (السير) مصدر سار يسير ، ولا نستبعد انها فى الأصل (السر) فالسر — كما يقول صاحب اللمع — هو خفاء بين العدم والوجود (اللمع ص٤٣٠)

(٢) وفى ذلك يقول الشبلى :

تسرمد وقتى فيك وهو مسرمد وافنيتنى عنى فصرت مجرداً

(اللمع ص ٤٤٢)

وهو الذى هو معبودُ مَنْ فى السماء ، مقصود مَنْ فى الأرض ، وهو الموجود قبل كل سماء وفضاء ، وظلام وضياء ، وشمس وقمر ، وعين وأثر ، وغير وغَبَر .

قوله جل ذكره : ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربِّهم إلا كانوا عنها مُعْرِضين﴾ .

أى لا يزيدهم كشفاً ولطفاً إلا قابلوهُ جحداً وكفراً ، ولا يُوليهم إقبالاً إلا قابلوه بإعراض ، ولا يلقاهم بَسْطًا إلاَّ (. . . .)[1] بانقباض .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَد كذَّبوا بالحق لمَّا جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ .

إنهم أصَرُّوا على الخلافِ مستكبرين ، وعن قريب يقاسون وبالَ أمرهم ، ويذوقون غِبَّ جُحْدِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَمْ يَرَوْا كم أهلكنا من قَبْلِهم مِن قرن مَكَّنَّاهم فى الأرضِ ما لم نُمَكِّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مِدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا مِنْ بعدهم قَرْناً آخَرين﴾ .

يعنى مَنْ تَقَدَّمَهُم كانوا أشدَّ تمكناً فى إمهالنا ، وأكثر نصيبًا — فى الظاهر — من أقوالنا ؛ سهَّلنا لهم أسبابَ المعاش ، ووسَّعنا عليهم أبواب الانتعاش ، فحين وَطَّنُوا على كواذب المنى قلوبَهم ، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبَهم فتحنا عليهم من مكامن التقدير ، وأبرزنا لهم من غوامض الأمور ما فزعوا عليه من النَّدَم ، وذاقوا دونه طعم الألم . ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، وأورثناهم مساكنهم ، وأسكناهم أماكنهم ، فلمَّا انخرطوا — في الغيّ — عن

---

(١) مشتبهة .

سلكهم ، ألحقناهم فى الإهلاك بهم ، سُنَّةً منا فى الانتقام قضيناها على أعدائنا ، وعادةً فى الإكرام أجريناها لأوليائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس . فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾ .

يُخْبِرُ عن كمالِ قدرته فى إبداء مايريده بعد ما قَضَى لهم الضلالَ ، فلو أشهدهم كُلَّ دليل ، وأوْضَحَ لهم كل سبيل ما ازدادوا إلا تمادياً فى الضلال والنفرة ، وانهماكاً فى الجهل والغىّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا أُنزِل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا مَلَكاً لقُضِىَ الأمر ثم لا يُنظَرُون ﴾ .

بيَّنَ أنَّ العِبْرةَ بالقسمة دون الاعتبار بالحجة ، وما يغنى السراج عند مَنْ فَقَدَ البصر ؟ كذلك ما تغنى الحجَجُ عند مَنْ عدم عناية الأزل ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلًا وللبَسْنا عليهم ما يَلبِسُون ﴾ .

مَنْ لم يُقَدِّسْ سِرَّه لَبَّسَ عليه أمْرَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد اسْتُهْزِىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِك فحاقَ بالذين سَخِرُوا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

أى سَبَقَكَ — يا محمد — مَنْ كُذِّب به كما كُذِّبْتَ ، فحقَّ لهم نصرنا ، فانتقمنا ممن ناوءهم ، فعاد إليهم وبالُ كيدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ سيروا فى الأرضِ ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين ﴾ .

قُلْ دوخوا فى الأرضِ ، وسيحوا فى سيركم فيها من الطول والعَرْضِ ، ثم انظروا هل أفْلَتَ من حكمنا أحدٌ ، وهل وجد من دونَ أمرنا مُلْتَحَداً[1] ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِمَن ما فى السمٰوات والأرض
قُلْ لله كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمةَ
ليَجْمَعَنَّكُمْ إلى يوم القيامة لا ريبَ
فيـه الذين خَسِروا أنفُسَهم فهم
لا يؤمنون ﴾

سَلْهُم هل فى الدار ديار ؟ وهل للكوْنِ — فى التحقيق — عند الحق مقدار ؟ فإنْ بقوا عن جوابٍ يَشْفِى ، فَقُلْ : الله فى الربوبية يكفى .

قوله : « كتب على نفسه الرحمة » : أخبرَ وحَكَمَ وأرادَ على حسب ما عَلِمَ ، فمَنْ تَعلَّقَ بنجاته عِلْمُهُ سَبَقَ بدرجاته حُكْمُهُ ، ومَنْ عَلِمَ فى آزاله أنه يَشْقَى فبقدر شقائه فى البلاء يبقى .

قوله جل ذكره . ﴿ وله ما سَكَنَ فى الليل والنهار
وهو السميع العليم ﴾

الحادثاتُ لله مِلْكاً ، وبالله ظهوراً ، ومِنْ الله بدءاً ، وإلى الله رجوعاً . وهو « السميع » لأنين المشتاقين ، « العليم » بحنين الواجدين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أغيرَ الله أتَّخِذُ وليًا فاطرِ
السمٰوات والأرض ﴾

أبَعْدَ ما أكرمنى بجميل ولايته أتولى غيره ؟ وبعد ما وَقَعَ علىَّ ضيا عنايته أنظرُ فى الدارين إلى أحد ؟ إنَّ هذا محالٌ فى الظنِّ والتقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم ﴾
له نعتُ الكَرَمِ فلذلك يُطْعِمُ ، وله حقُّ القِدَمِ فلذلك لا يُطْعَمُ

(١) الملتحد = الملجأ لأن اللاجىء يلحأ إليه (المنجد) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي
عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

أى إنِّى بعجزى متحقق ، ومن عذابِ ربى مُشْفِق ، وبمتابعة أمره مُتَخَلِّقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ
وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾

من أدركه سابقُ عنايته صَرَفَ عنه لاحِقَ عقوبته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ
إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

إنَّه مَنْ ينجيك من البلاء ، ومن يُلقيك فى العناء . وإذ للمتفرِّد بالإبلاغ واحد فالأغيارُ كلُّهم أضاله ، وإن الإيجاد لا يَصْلُحُ من الأفعال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

عَلَتْ رُتبةُ الأحدية صفةَ البشرية ، فهذا لم يزل وهذا لم يكن لحصل[1] . ومتى يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ
شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا
الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ
لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى
قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ
وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

(١) وبتعبير آخر هذا واجب الوجود وهذا ممكن الوجود — كما يقول أهل الفلسفة .

غلَبَتْ شهادة الحقِّ — سبحانه — كلَّ شهادة ، فهم إذا أقبلوا يشهدون فلا تحيط بحقائق الشيء علومُهم ، والحقُّ — سبحانه — هو الذى لا يَخْفِيَ عليه شيء ، ثم أخبره — صلى الله عليه وسلم أنه مبعوثٌ إلى الكافة ومَنْ سيوجد إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسَهم فهم لا يؤمنون ﴾

أحاط علمُهم بصدقِ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فى نُبوَّتِهِ ، ولكن أدركتهم الشقاوة الأزلية فعقدت ألسنتهم عن الإقرار به ؛ فجحدوه جهراً ، وعلموا صِدْقَهُ سِرّاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذبًا أو كذَّب بآياته إنه لا يُفلح الظالمون ﴾

شؤم الخذلان بلغ بالنكاية فيهم ما جرَّهم إلى الإصرار على الكذب على الله تعالى ، ثم لم يستحيوا من اطلاعه ، ولم يخشوا من عذابه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾

يجمعهم ليوم الحشر والنشر ، لكنه يفرقهم فى الحكم والأمر ، فالبعث يجمعهم ولكن الحكم يفرقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربِّنا ما كُنَّا مشركين ﴾ (١)

هذا الذى أخبر عنهم غايةُ التمرد ؛ حيث جحدوا ما كَذبُوا فيه وأقسموا عليه ، ولو كان لهم بالله عِلمٌ لتحققوا بأنه يعلم سِرَّهم ونجواهم ، ولا يخفى عليه شيء من أُولاَهم وعُقباهم ، لكن الجهل الغالب عليهم استنطقهم بما فيه فضائحهم .

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (مشرقين) بالقاف .

قوله جل ذكره : ﴿ انظرُ كيف كَذَبُوا على أنفسهم
وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

هذه كلمة تعجب ؛ يعنى إنَّ قصتهم منها ماهو محلُّ التعجب لأمثالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا
على قلوبهم أكِنَّةً أن يفقهوه وفى
آذانهم وقراً ﴾ .

بيَّنَ أن السمعَ — فى الحقيقة — سمعُ القبول ، وذلك عن عين اليقين يصدر ، فأما سَمْعُ الظاهر فلا عِبْرَةَ به .

ويقال مَنْ ابتلاه الحقُّ بقلبٍ مطبق ، ووضع فوق بصيرته غطاء التلبيس لم يزدْه ذلك إلا نفرة على نفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يَرَوْا كلَّ آية لا يؤمنوا بها
حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول
الذين كفروا إنْ هذا إلا أساطير
الأولين ﴾ .

يعنى مَنْ أقصَته القسمة الأزلية لم تنعشه الحيلة الأبدية(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم ينهَوْنَ عنه وينأوْنَ وإن يُهلكون
إلا أنفسَهم (و)(٢) ما يشعرون ﴾ .

فى هذه الآية إشارة صعبة (لمن)(٣) يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتى بذلك سراً .

ويقال خالَفَتْ أحوالُهم قضايا أقوالهم ، وجرى إجرامُهم مجرى مَنْ ألقوا حِبالَهم على غاربهم ، وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعلُه .

---

(١) تساوى هذه العبارة فى المعنى ما يأتى بعد قليل (وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعله) .
(٢) سقطت الواو من الناسخ فأثبتناها .
(٣) وردت (لم) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره: ﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا
ياليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآيات ربِّنا
ونكون من المؤمنين ﴾ .

يعنى حين ينجز للعبد ماوعده له من القربة يشغل من شاء بنوعٍ من العلة حتى لايطلع أحد على محل الأسرار .

قوله جل ذكره: ﴿ بَلْ بدا لهم ما كانوا يُخْفُون مِن قبل
ولو رُدُّوا لعادوا لِمَا نُهُوا عنه وإنهم
لكاذبون * وقالوا إنْ هى إلاحياتنا
الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

غداً يوم تنهتك الأستار ، وتظهر الأسرار — فكم من مُجَلَّل بثوب تقواه ، ويَحْكم له معارفُه بأنه زاهدٌ فى دنياه ، راغبٌ فى عقباه ، محبٌ لمولاه ، مُفارِقٌ لهواه ، فَيُكْشَفُ الأمر عن خلاف مافهموه ، ويفتضح عندهم بغير ماظنوه .

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه ! ظنَّ الكلُّ أنه خليع العذار هيِّن الأعلال ، مشوش الأسرار ، فظهر لذوى البصائر جوهره ، وبدت عن خفايا الستر حقيقته(١) .

ثم قال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف كان يكون ؛ فقال لو رُدَّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم ، وكذلك لو رُدَّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى أحسن أعمالهم :

قوله جل ذكره : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربِّهم قال
أليس هذا بالحقِّ ؟ قالوا : بلى وربِّنا

---

(١) لاحظ كيف ان القشيرى متأثر إلى حد كبير بتعاليم الملامتية ، فأهل الملامة يقومون بأعمال تستوجب ملامة الناس ستراً لأسرارهم وصونا لأحوالهم قصداً إلى محاربة دعوى النفس ، والا كتفاء بعلم الحق بأحوالهم وحقائقهم .

قال : فذوقوا العذابَ بما كنتم
تَكفُرُونَ ﴾ .

ياحسرةً عليهم من موقف الخجل ، ومحل مقاساة الوَجَل ، وتذكر تقصير العمل !
فهم واقفون على أقدام الحسرة ، يقرعون أسنان الندم حين لاندم ينفعهم ، ولا شكوى تُسْمَعُ منهم ، ولا رحمة تنزل عليهم .
وحين يقول لهم : أليس هذا بالحق ؟ يُقِرُّون كارهين ، ويصرخون بالتبرى عن كل غَيْر
قوله جل ذكره : ﴿ قد خسِرَ الذين كذبوا بلقاء الله حتى
إذا جاءتهم الساعةُ بغتةً قالوا ياحسرتنا
على مافرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم
على ظهورهم ألا سَاء ما يَزِرُون *
وما الحياة الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ وللدارُ
الآخِرةُ خيرٌ للذين يتقون أفلاتعقلون *
قد نعلم إنه لَيَحْزُنُكَ الذى يقولون
فإنهم لايُكَذِّبونك ولكنَّ الظالمين
بآيات الله يجحدون ﴾

خسران وأى خسران ! لم يخسروا مالاً ، ولا مقاماً ولا حالاً ، ولكن كما قيل :

لعمرى لئن أنزفتُ دمعى فإنه ... لفرقةِ مَنْ أفنيتُ فى ذكره عمرى

للمصيبة لهم والحسرة على غيرهم ، ومَنْ لم يَعرِفْ جلالَ قدره متى تأسَّف على ما يفوته من حديثه وأمره ؟!

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » : ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو من الدنيا ، وما كان من الدنيا فإنه — لا محالة — يُلهيك عن مولاك ، وما يشغلك عن الحق ركونُه لغيرُ مباركٍ قُرْبُهُ .

قوله : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكنَّ الظالمنَ بآيات اللهِ يَجْحدون » : هذه تعزية للرسول — صلى الله عليه وسلم

وتسلية . أى قد نعلم ماقالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسَببنا ولأجْلِنا . ولقد كُنْتَ عظيمَ الجاه فيهم قبل أن أوقعنا عليكَ هذا الرقم ، وكانوا يسمونك محمداً الأمين ، فإنْ أصابَكَ ما يصيبك فَلِأَجْلِ حديثنا ، وغيرُ ضائع لك هذا عندنا ، وحالُكَ فينا كما قيل :

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنع قصةٍ وكانوا لنا سِلْما فصاروا لنا حَربا

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كُذِّبت رُسُلٌ مِّن قبلك فصَبَرُوا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نَصْرُنا ولا مُبَدِّلَ لكلمات الله ولقد جاءك من نَبأِىْ المرْسَلِين ﴾

يعنى إنَّ مَنْ سَلَكَ سبيلَنا صبر على ما أصابه من حديثنا ، فلا تَحيرَتْ فينا صفقتُه ، ولا خَفِيَتْ علينا حالتُه ، وما قَابَلَ حُكْمَنَا مَنْ عَرَفَنَا إلا بالمُهج ، وما حلوا مالقوا فينا إلا على الحدق :

إنَّ الألى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنيةَ منهلا معسولا

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كانَ كَبُرَ عليكَ إعراضُهُم فإنِ استطعتَ أن تبتغى نَفَقاً فى الأرضِ أو سُلَّماً فى السماء فتأتيهم بآيةٍ ، ولو شاء اللهُ لجَمَعهم على الهُدَى فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾

لفرط شفقته — صلى الله عليه وسلم — استقصى فى التماس الرحمة من الله لهم ، وحمل على قلبه العزيز بسبب ما عَلِمَ من سوء أحوالهم ما أثَّر فيه من فنون الأحزان . فعرَّفه أنهم مُبْعَدُون عن التقريب ، منكوبون بسالف القسمة .

ولو أراد الحقُّ — سبحانه — تَخفُّفَ عنهم ، ولو شاء أن يهديَهم لكان لهم مقيل فى الصدور ، ومثوى على النشاط ، ولكن مَنْ كبَسَتْهُ العِزَّةُ لم تُنْعِشْه الحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى
يبعثهم الله ثم إليه يُرْجعُون ﴾

مَنْ فقد الاستماع فى سرائره عَدِمَ توفيقَ الاتِّباعِ بظاهره ، والاختيارُ السابقُ فى معلومه — سبحانه — غالبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ مِّن ربِّه
قُلْ إنَّ اللهَ قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ آيةً
ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذيح العذر ، ولم يعلموا أن الله المانع لم فلولا ما (. . .)[1] من بصائرهم لما تواهموا من عدم دلائلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما من دابةٍ فى الأرضِ ولا طائرٍ
يطير بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالُكم
مافرطنا فى الكتاب من شىء
ثُمَّ إلى ربهم يُحْشَرون ﴾

يعنى تساوت المخلوقات ، وتماثلت المصنوعات فى الحاجة إلى المُنْشِىء : فى حال الإبداع ثم فى حال البقاء ، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد والاختيار ، فما من شىء من عينٍ وأثر ، ورسم وطلل . . إلا وهو على وحدانيته شاهدٌ ، وعلى كون أنه مخلوق . . دليلٌ ظاهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كَذَّبوا بآيتنا صُمٌّ
وبُكْمٌ فى الظلمات ، من يشإ اللهُ
يُضْلِلهُ ومن يشأ يجعله على صراط
مستقيم ﴾

الذين فاتتهم العناية الأزلية سَدَّ الحرمانُ أسماعَهم ، وغَشَّى الخِذلانُ أبصارَهم .

---

(١) مشتبهة وربما كانت (سد) فهى فى الخط إلى ذلك أقرب .

والإرادة لا تُعارَض ، وللمشيئةُ لا تزاحم[1] ، والحقُّ — سبحانه — فى جميع الأحوالِ غالبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أرأيكم إنْ أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعةُ ، أغيرَ اللهِ تَدْعُون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشِفُ ما تدعون إليه إن شاء وتَنْسَوْن ما تُشْرِكون ﴾

إذا مَسَّكم الضُّرُّ ، ونَابَكُم أمرٌ فبِمَنْ ترومون كَشْفَه ؟ ومَنْ الذى تؤملون لُطْفَه ؟ أمخلوقاً شرقياً أم شخصاً غربياً ؟ أم مَلَكاً سماوياً أم عبداً أرضياً ؟

ثم قال : « بل إياه تدعون » : أى إنكم — إنْ تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً بقلوبكم — لن تجِدوا من دونه أحداً ، ولا عن حكمه مُلْتَحداً ، فتعودون إليه فى استكشاف الضر ، واستلطاف الخير والبِّر ، كما قيل :

ويرجعنى إليكَ — وإن تناءتْ   ديارى عنكَ — معرفةُ الرجال
و قد تركتـكَ للـذى تريد   فعسى إنْ خَبَرْتَه أنْ تعـودا

فإذا جرَّبْتَ الكل ، وذُقْتَ الحُلوَ والمُرَّ ، أفضى بك الضُّرُّ إلى بابه ، فإذا رجعت بنعت الانكسار ، وشواهد الذل والاضطرار ، فإنه يفعل ما يريد : إنْ شاء أتاح اليُسْر وأزال العُسر ، وإن شاء ضاعف الضُر وعوَّض الأجر ، وإنْ شاء ترك الحال على ما (قبل)[2] السؤال والابتهال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أُممٍ مِّن قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلَّهم يتضرعون ﴾

---

(١) وردت (تزام) بالهاء وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (قيل) وهى خطأ فى النسخ .

يخبر عن سالف سنته فى أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم ، وما أحلّ بمن خالفه من الآلام وفنون النّقَم .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسُنا تضرعوا ولكن قست قلوبُهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ۞ فلما نَسُوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شىء حتى إذا فَرِحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هُم مُبْلِسُون ﴾

يعنى أنهم لما أظَلّهُم البلاء ، فلو رجعوا بجميل التضرع وحسن الابتهال والتملق لكشفنا عنهم المحن ، ولأتحنا لهم المنن ، ولكن صدّهم الخذلان عن المقبى فأصروا على تمردهم ، فَقَسَتْ قلوبُهم وتضاعفت أسباب شقوتهم .

قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به » يخبر عن خَفِىِّ مكره بهم ، وكيف أنه استدرجهم ، ثم أذاقهم وبالَ أمرهم فقال : لما طالتْ عن الحضرة غيبتُهم ، ولم تنجحْ مواعظُنا فيهم سَهّلْنا لهم أسبابَ الموافق وصببنا عليهم عزالى[1] النِّعم ، وفتحنا لهم أبواب الرفاهية ، فلما استمكن الرجاء من قلوبهم أخذناهم بغتةً وعذبناهم فجأة ، وأذقناهم حسرةً فإذا هم من الرحمة قانطون ، ولِمَا خامر قلوبَهم — من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام المناجاة — آيسون .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُطِع دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا والحمد لله ربِّ العالمين ﴾

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبقَ منهم عين ولا أثر ، ولم يَرِدْ حديث منهم أو خبر ،

---

(١) العزالى : يقال أنزلت السماء عزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر

والله — سبحانه وتعالى — بنعت العِزِّ واستحقاق الجلال لا عن فَقْدِهِم له استيحاش، ولا بوجودهم استرواح أو استبشار[1]

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم
وأبصاركم وختم على قلوبكم مَّن إلهٌ
غيرُ اللهِ يأتيكم به انظُرْ كيف
نُصَرِّفُ الآياتِ ثم هُمْ يَصْدِفون ﴾

عرَّفهم محلَّ عجزهم، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم.

وحذَّرهم فقال: إنْ لم يُدِمْ عليهم نعمة أسماعهم وأبصارهم، ولم يوجِبْ لهم ما ألبسهم من العوافى — بكل وجهٍ فى كل لحظة — فمن الذى يهب ما سلبه، أو يضع ما منعه، أو يعيد ما نفاه، أو يَرُدُّ ما أبداه؟ كلا... بل هو الله تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ أرأيتكم إنْ أتاكم عذابُ الله
بغتةً أو جَهْرَةً هل يُهْلَكُ إلا القومُ
الظالمون ﴾[2]

يقول إنْ عجَّلَ موعودَه لكم من العقاب أفترون أن غيرَ المستوجِب يُبْتَلَى؟ أو أن المستحِقَّ له يجد من دونه مهرباً ومَنْجَى؟ إنَّ هذا محالٌ من الظن.

قوله جل ذكره: ﴿ وما نُرسِلُ المرسَلين إلا مُبَشِّرين
ومُنْذِرين فَمَنْ آمَنَ وأصلح
فلاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون *
والذين كذَّبوا بآياتنا يَمَسُّهُم العذابُ
بما كانوا يفْسُقُون ﴾

(١) فالحق — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة المطيع ولا شين بمعصية العاصى.
(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (الظالمين)

يعنى ليس أمرنا لهم إلا بالتزام ما فيه نجاتهم ، ثم بجميل الوعد لهم ، ومفارقة ما فيه هلاكهم ، ثم بأليم العقوبة فى الآجل ما يحصل من خلافهم .

فَمَنْ آمن وصدَّق أنجزنا له الوعد ، ومَنْ كفر وجحد عرضنا عليه الأمر ، وأدخلنا عليه الضُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لا أقول لكم عندى خزائن الله ،
ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم
إنى مَلَكٌ إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحَى
إلىَّ قُلْ هل يستوى الأعمى والبصير
أفلا تتفكرون ﴾

يعنى قل لهم إنى لا أتخطى خطى ، ولا أتعدَّى حدِّى ، ولا أُثْبِتُ من ذات نفسى شيئاً ، وإنما يقال لى أبلَغْتَ ؟ وأقول : أَجَلَ ، أَوْصَلْتُ .

ثم قال : « قل هل يستوى الأعمى والبصير » : هل يتشاكل الضوء والظلام ؟ وهل يتماثل الجُحْدُ والتوحيد ؟ كلا . . . لا يكون ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْذِرْ به الذين يخافون أن يُحْشَرُوا
إلى رَبِّهم ليس لهم مِّن دونه وَلِىٌّ
ولا شفيعٌ لعلهم يتقون ﴾

الإنذارُ إعلامٌ بمواضع الخوف ، وإنما خص الخائفين بالإنذار كما خصَّ المتقين بإضافة الهدى إليهم حيث قال : «هدىً للمتقين» لأن الانتفاع والاتِّباع بالتقوى ، والإنذار اختص بهم.

ويقال : الخوف هاهنا العلم ، وإنما يخاف من علم ، فأمَّا القلوب التى هى تحت غطاء الجهل فلا تباشرها طوارقُ الخوف .

قوله : « من دونه من ولى ولا شفيع » يعنى كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمدَ لهم من أفعالهم ، ولا مستندَ من أحوالهم ، ولا (يؤمنون)[1] شيئاً سوى صرف العناية وخصائص الرحمة .

---

(١) الصواب أن تكون (يأمنون) لأن ما بعدها منصوب ، ولو كانت يؤمنون لكان ما بعدها مجروراً ، والسياق يقوى اختيار (يأمنون) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربَّهم
بالغَدَاة والعَشىِّ يريدون وجهه
ما عليك من حسابهم من شىء
وما مِنْ حسابك عليهم من شىء
فتطردَهم فتكونَ مِنَ الظالمين ﴾

هذه وصية له — صلى الله عليه وسلم — فى باب الفقراء والمستضعفين ، وذلك لما قَصَّرُوا لسان المعارضة عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول — صلوات الله عليه وسلامه — مجلسه منهم ، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدى الله أرادَ أنْ يُبَيِّن له أثرَ حُسْنِ الابتهال فتولىَّ — سبحانه — خصيمتهم .

وقال : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » : لا تنظر يا محمد إلى خِرقتهم على ظاهرهم وانظر إلى حرقتهم فى سرائرهم[1]

ويقال كانوا مستورين بحالتهم فشهرهم بأن أظهر قصتهم ، ولولا أنه — سبحانه — قال « يريدون وجهه » فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد الحق سبحانه ؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق — فى التحقيق — إلا بالحدوث ، وحقيقة الصمدية متقدسة عن الاتصاف بالحدثان ، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة ، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها[2] .

فيقال تكلم الناس فى الإرادة : وأكثر تحقيقها أنها احتياج يحصل فى القلوب يسلب

(١) واضح من كلام القشيرى اتصاف هذا النفر بصفات كثيرة تدنو بهم من أهل التصوف ، وهكذا نجد أن السهروردى فى مقدمة « عوارفه » يوضح أن سبب نزول هذه الآية فى أهل الصُّفة الذين كانوا يلازمون صفة مسجد المدينة وليس لهم شغل سوى العبادة وتلاوة القرآن وكان أحدهم إذا ركع قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته لتمزق ثوبه . . . الخ (عوارف المعارف ص ٤٧) .

(٢) يقول القشيرى فى هذا المعنى فى « رسالته » : المريد — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم ، لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد — فى عرف هذه الطائفة من لا إرادة له ، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً (الرسالة ص ١٠١)

القرار من العبد حتى يصل إلى الله ؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ[1] ليلاً ولا نهاراً ، ولا يجد من دون وصوله إليه — سبحانه — سكوناً ولا قراراً ، كما قال قائلهم :

ثم قطعتُ الليلَ فى مَهْمَهٍ   لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبنى شوق فأطوى السُّرى   ولم يَزَلْ ذو الشوق مغلوبا

ويقال تقيَّدت دعوتهم بالغداة والعشىّ لأنها من الأعمال الظاهرة ، والأعمالُ الظاهرة مؤقتة ، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة ، والأحوال الباطنة مسرمدة غير مؤقتة ، فقال : « يدعون ربهم بالغداة والعشىّ » ثم قال : « يريدون وجهه » أى مريدين وجهه فهى فى موضع الحال[2] .

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم ، ولا مطالبة من عقباهم ، ولا همٌّ سوى حديث مولاهم ، فلما تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم ، فتولَّى حديثهم وقال : ولا تطردهم — يا محمد — ثم قال : ما عليك من حسابهم من شىء ؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مئونة ؛ قال تعالى : « ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء » . لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك ، بل كلٌّ يتولى الحقُّ — سبحانه — حسابَه ؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه ، وإن كان شراً فهو مقاسيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا أليس الله بأعلمَ بالشاكرين ﴾

أمَّا الفاضل فَلْيشكرْ ، وأمَّا المفضول فليْصبِرْ .

ويقال سبيل المفضول على لسان المحبة الشكر ، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل ، قال قائلهم فى معناه :

أتانى منكِ سبُّكِ لى فَسُبِّى   أليس جَرَى بفيكِ اسمى ؟ فَحَسْبِى

(1) وردت (ولا يهدى) والصواب أن تكتب (ولا يهدأ) منعاً للبس .
(2) أى إن الجملة الفعلية (يريدون وجهه) تعرب حالا

وقال آخر :

وإنَّ فؤاداً بعتَه — لكَ شاكرٌ   وإنَّ دَماً أجريته — لكَ حامدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فَقُلْ سلامٌ عليكم ﴾

أحلَّه محل الأكابر والسادة ، فإن السلام من شأن الجائى إلا فى صفة الأكابر ؛ فإن الجائى أو الآتى يسكت لهيبة المأتى حتى يبتدئ ذلك المقصودُ بالسؤال ؛ فعند ذلك يجيب الآتى .

ويقال إذا قاسوا تعبَ المجيء فأزِلْ عنهم المشقةَ بأن قُلْ : « سلام عليكم » .

ويقال السلام هو السلامة أى فَقُلْ لهم سلام عليكم ؛ سَلِمْتُمْ فى الحال عن الفُرقة وفى المآل عن الحُرْقة (1) .

قوله جل ذكره : ﴿ كتب ربُّكم على نفسه الرحمةَ ﴾

إنْ وَكَلَ بك من كتب عليك الزلة فقد تولَّى بنفسه لك كتابة الرحمة .

ويقال كتب بمعنى حَكَمَ ، وإنه ما حكم إلا بما علم .

ويقال كتابته لك أزلية ، وكتابته عليك وقتية ، والوقتية لا تبطِلُ الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ أنَّه مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب مِنْ بعده وأصلح فأنَّه غفورٌ رحيم ﴾

يعنى مَنْ تعاطى شيئاً من أعمال الجُهَّال ثم سوَّف فى الرجوع والأوبة قابلناه ، يعنى مَنْ تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال ، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بكلِّ لطف وقبول .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وكذلك نُفَصِّلُ الآياتِ ولِتَسْتَبِينَ سبيلُ المجرمين ﴾ .

---

(1) اى سلمتم فى الدنيا من عذاب تأبه وهجره ، وسلمتم فى الآخرة من عذاب جهنم ذات الحريق .

نزيل الإشكال ، ونفصح[1] طريق الاستدلال ، ونُطْلِعُ شموسَ التوحيد ، ونمد أهله بحسن التأييد ، ونَسِمُ قلوبَ الأعداء بوسم الخذلان ، ونذيقهم شؤمَ الحرمان لئلا يبقى لأحدٍ عذرٌ ، ولا في الطريق إشكال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعبد الذين تدعون من دون الله قُلْ لا أَتَّبِعُ أهواءكم قد ضَلَلْتُ إذاً وما أنا مِنَ المهتدين ﴾ .

يعنى صرِّح بالاعتراف بجميل ما خصصناكَ به من وجوه العصمة والنعمة ، وأخبرهم أنك فى كنف الإيواء مُتقلِّب ، وفى قبضة (الصون) مُصَرَّفٌ ؛ فلا للهوى عليك سلطان ، ولا لك من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ إِنِّي على بَيِّنَةٍ من ربى وكَذَّبْتُم به ما عندى ما تستعجلون به إِنِ الحكمُ إلا لله يَقُصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين ﴾ .

قلْ إنَّ الله — سبحانه — لم يغادرنى فى قطر الطلب والتباس التحيُّر ، وأغنانى عن (كَدِّ)[2] الاستدلال ، وَروَّحنى بشموس الحقيقة . ولئن بقيتم فى ظلمة الالتباس فليس لى قدرة على إزالة ما مُنيتم به من التحير ، ونفى ما امتُحِنْتُم به من الجهالة والتردد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لو أن عندى ما تستعجلون به لقُضِيَ الأمرُ بينى وبينكم والله أعلمُ بالظالمين * وعنده مفاتحُ الغيب

---

(١) من الافصاح وهو الابانة والايضاح .

(٢) وردت (قد) والمقصود هناء الاستدلال وكده ـ حسبما نعرف من أسلوب القشيرى فى مثل هذا الموضع .

لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البرِّ
والبحر وما تسقُطُ من ورقةٍ إلا يعلمها
ولا حَبَّةٍ فى ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ
ولا يابسٍ إلا فى كتابٍ مبين . ﴾

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم علىَّ — شفقةً عليكم ، لكن المتفرِّد بالحكم لا يُعَارَضُ فيما يريد .

« وعنده مفاتح الغيب » : للفتاح ما به يرتفع الغَلَقُ ، والذى يحصل مقصود كلِّ أحد ، وهو قدرة الحق — سبحانه ، فإنَّ التأثير لها فى الإيجاد ، والموصوفُ بقدرةِ الإيجاد هو الله :

ويقال أراد بهذا شمول علمه ، أى هو المتفرِّد بالإحاطة بكل معلوم ، وقطعاً لا يُسأل عن شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

ويقال عندك مفاتح[1] الغيب وعنده مفاتح الغيب فإنْ آمنتَ بغيبه مدَّ الشمس على غيبك .

قوله جل ذكره ﴿ وهو الذى يتوفَّاكم بالليل ويعلم
ما جرحتم بالنهار ثُم يبعثكم فيه
ليُقْضَى أَجَلٌ مسمَّى ثم إليه مرجعكم
ثم ينبئُكم بما كنتم تعملون ﴾ .

إنه يتوفَّى الأنفس فى حال النوم وفى حال الوفاة ، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك — إذا توفَّاك — على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك ، فبالحرىِّ ألا يعذِّبك غداً — إذا توفَّاك — على ما علمه من قبيح أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو القاهرُ فوق عباده ويرُسِلُ

---

(١) نسبة المفاتح إلى الانسان — إن صحَّ أن القشيرى قالها — يمكن تاويلها على انها جمع مفتح مصدر ميمى بمعنى الفتح والفتوح وها من فضل الله ، ولكنهما بالنسبة إلى المفاتح الالهية كنسبة ضوء المصباح إلى ضوء الشمس ، لهذا ظهر شعاع الشمس غمر ضوء المصباح . . . هكذا نفهم من السياق — والله أعلم .

عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم
الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾.

فوق عباده بالقهر والرفعة ، وفوقهم بالقدرة على أن يعذبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم والسخطة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا
له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ .

ردهم إلى نفسه . وما غابوا عن القبضة .

قوله جل ذكره : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر
والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن
أنجانا من هذه لنكونن من
الشاكرين ﴾ .

تذكير النعمة يوجب الزيادة فى المحبة ، فإنه إذا عرف جميلا أسداه تمكن من قلبه الحب .

قوله جل ذكره : ﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل
كرب ثم أنتم تشركون ﴾

المتفرد بالقدرة على إيجادكم الله ، والذى هو (الخلف)[1] عما يفوتكم الله ، والذى حكم بنجاتكم الله ، والذى يأخذ بأيديكم كلما عثرتم الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث
عليكم عذاباً من فوقكم أو من
تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ﴾

إذا أراد الله هلاك قوم أمر البلاء حتى يحيط بهم سرادقه كما يحيط بالكفار غداً إذا

---

(١) وردت (الخلق) بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

أدركتهم العقوبة ، وخرج بعضهم على بعض ؛ حتى يتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

قوله جل ذكره : ﴿ ويذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ ، انظُرْ كيف نصرِّف الآياتِ لعلهم يفقهون ﴾

لا طعمَ أردأ للإنسان من طعم الإنسان : إن شِئْتَ من الولاية والمحبة ، وإن شئت فى العداوة والبغضة ؛ فَمَنْ مُنِي بالبغضة مع أشكاله تنغَّصَ عليه عَيْشُه فى الدنيا ، ومَنْ مُنِيَ بمحبة أمثاله تكدَّر عليه حالُه مع المولى ، ومن صانَه عن الخلْق فهو المحفوظ (المعانى)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذَّبَ به قومُكَ وهو الحقُّ قُلْ لستُ عليكم بوكيل * لِكُلِّ نبأٍ مُسْتَقَرٌ وسوف تعلمون ﴾

يعنى قل لهم إنما على تبليغ الرسالة ، فأمَّا تحقيق الوصلة بالوجود والحال فَمِنْ خصائص القدرة وأحكام المشيئة الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعْرِضْ عنهم حتى يخوضوا فى حديثٍ غيره ﴾

لا توافقهم فى الحالة ، ولا ترد عليهم ببسط القالة . ذَرْهُم ووحشتَهم بِحُسْنِ الإعراض عنهم ، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحُسْن الانقباض .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا يُنسِيَنَّك الشيطانُ فلا تقعدْ بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾

---

(1) المحفوظ (المعانى) أى محفوظة معانيه ، وربما كانت فى الأصل (المُعَافَى) بالفاء المفتوحة أى المصون عن كل أذى وعلة .

أى إنْ بَدَرَ منك تغافلٌ فتداركْتَه بحسن التذكر وجميل التَّنَبُّه ، فاجتهدْ ألا (تزل[1]) فى تلك الغلطة قدمُك ثانيةً لئلا تقاسى أليمَ العقوبة مِنّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وما على الذين يتقون مِنْ حسابِهم مِّن شىءٍ ولكن ذِكْرَى لعلَّهم يتقون ﴾

أى من كان نقىَّ (الثوب)[2] عن ارتكاب الإجرام يُنْزَل يوم نشره عن ملاقاة تلك الآلام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذَرِ الذين اتخذوا دينَهم لَعِبًا ولهوا وغرَّتهم الحياة الدنيا وذكِّرْ به أن تُبْسلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ ليس لها من دون الله ولىٌّ ولا شفيع ، وإن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤخَذْ منها أولئك الذين أُبْسِلوا بما كَسَبُوا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون ﴾

أى كِلْهم وما اختاروه فإنَّا أعْتَدْنَا لهم (من خفىِّ المكر ما إذا أحللناه بهم كسرنا عليهم)[3] خُمار الوهم والغلطة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أندعواْ من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا اللهُ كالذى

---

(١) وردت (تذل) بالذال والصواب أن تكون بالزاى (تزل) اى تقع فهذا هو الملائم للسياق .
(٢) وردت (الثواب) والصواب أن تكون (الثوب) فهو الذى يوصف بالنقاء .
(٣) ما بين القوسين موجود فى هامش الورقة أثبتناه فى موضعه حسب العلامة المميزة .

استهوته الشياطينُ فى الأرضِ ،
حيران َ، له أصحابٌ يَدْعونه إلى
الهُدَى ائتنا ﴿ قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ
هو الهُدَى ، وأُمِرْنا لِنُسْلِمَ
لربِّ العالمين ﴾

أى كان الكفار يدعون المسلمين إلى الرجوع عن الدين والعوْد إلى الشِرْك ، فقال لهم الله : قل لهم — يا محمد — : أنُؤْثِرُ الضلالَ على الهدى بعد طلوع شمس البرهان ؟

ونَدَعُ الطريقة المُثْلى بعد ظهور البيان ؟ ونترك عِقوةَ الجَنَّة وقد نزلناها ؟ ونطلب الجحيم مثوىً بعد ما كُفِيناها ؟ إنَّ هذا بعيدٌ من المعقول ، محالٌ من الظنون .

وكيف يساعد أتباعُ الشيطانِ مَنْ وَجَدَ الخلاصَ من صحبتهم ، وأبصر الغىَّ من صفتهم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْ أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تُحْشَرون ﴾ .

أى أمَرَنا بملازمة محل المناجاة لأن اللسان إنْ تعوَّد نجوى السلطان متى ينطق (بمكالمة)[1] الأخَسِّ ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خلَقَ السموات والأرضَ بالحقِّ ويومَ يقول كُن فيكونُ قولُه الحقُّ وله المُلْكُ يومَ يُنفَخُ فى الصُّورِ عالِمُ الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ .

يعنى أنه لا يعترض على قدرته — سبحانه — حدوث مقصود ، ولا يتقاصر حكمه عن تصريف موجود .

---

(١) وردت (مكاملة) والأوفق بالنسبة للسان أن تكون (مكالمة) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قال إبراهيم لأبيه آزَرَ أتتَّخذُ أصناماً آلهةً إنِّى أرَاكَ وقومَك فى ضلالٍ مبين ﴾ .

الأصل متَّهمٌ فى الجحود ، والنَّسْلُ متصفٌ بالتوحيد ، والحقُّ — سبحانه — يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السمـٰواتِ والأرضِ وليكونَ منَ الموقنين ﴾ .

لاطفَه بسابق العناية ، ثم كاشفه بِلاحِقِ الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق فى (قضاء)[1] سرِّه شظية من غبار العيب ، فلمَّا صحا من غيم التجوز [2] سما سرُّه فقال بنفى الأغيار جملة ، وتبرأ عن الجميع ولم يغادر منها تهمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربى فلمَّا أفَلَ قال لا أُحِبُّ الأفلين * فلمَّا رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربى فلمَا أفَلَ قال لئن لم يَهْدِنى ربى لأكونَنَّ من القوم الظالين * فلمَّا رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربى هذا أكبرُ فلما أفَلَتْ قال ياقوم إنى برىء مما تُشْرِكُونَ ﴾

(١) ربما كانت (فضاء) بالفاء فالغبار والغيم يلتقان بالفضاء

(٢) المقصود من ذلك ما أصاب إبراهيم من اضطراب . وهنا لفتة ذكية من القشيرى حيث أراد وصم العقل بالتجوز لانحصار دائرته فى نطاق الحسّ ، وعدم استطاعته تجاوز هذا النطاق لأنه معتمد عليه .

يعنى أحاطت به (سجوف)[1] الطلب ، ولم يتجل له بعد صباح الوجود ، فطلع نجم العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان ، فقال : هذا ربى ثم يزيد فى ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه بشرط البيان ، « فقال هذا ربى » .

ثم (أسفر)[2] الصبح ومتع النهار فطلعت شموس (العرفان)[3] من برج شرفها فلم يبقَ للطلب مكان ، ولا للتجويز حكم ، ولا للتهمة قرار فقال : « يا قوم إنى برىءٌ مما تشركون » إذ ليس بعد العيان ريب ، ولا عقِبَ الظهور ستر .

ويقال قوله — عند شهود الكواكب والشمس والقمر — « هذا ربى » إنه كان يلاحظ الآثار والأغيار بالله ، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله ، ثم طالع الأغيار محواً فى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إنى وجهتُ وجهى للذى فطَرَ
السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا
من المشركين ﴾ .

أفردتُ قصدى لله ، (وطهَّرت)[4] عقدى عن غير الله ، وحفظت عهدى فى الله لله ، وخلصت وجدى بالله ، فإنى لله بالله ، بل (محو)[5] فى الله والله الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وحاجَّه قومُه قال أتحاجونى فى الله
وقد هدَان ولا أخاف ما تشركون
به إلا أن يشاء ربى شيئاً وَسِعَ ربى
كلَّ شىءٍ علماً أفلا تتذكرون ﴾ .

يعنى قال لهم أترومون سَتْرَ الشموسِ بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذيولكم وأن تُسْدِلوا سجوفكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانُه وتوالى بيانُه ؟

---

(١) سجوف جمع سَجف وسِجف وهو الستر ، وأرخى الليل سجوفه أى ظلمته .

(٢) وردت (أصفر) والصواب أن تكون (أسفر) الصبح

(٣) لاحظ كيف طبق القشيرى نظريته فى المعرفة على مدرج إبراهيم (عم) فى الوصول إلى حقيقة الألوهية من عقلية ونورها البرهان إلى قلبية ونورها البيان إلى كشفية ونورها العرفان ،

(٤) وردت (ظهرت) بالظاء والصواب أن تكون بالطاء

(٥) وردت (مهو) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف[1] أخاف ما أشركتم ولا تخافون
أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّلْ به
عليكم سلطانا فأيُّ الفريقين أحقّ
بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾

يعنى وأى خوفٍ يقع على قلبى لظله ولم أُلِمْ بشِركٍ ولم أَجْنَحْ قطُّ إلى جحد ؟ وأنتم ما شممتم رائحة التوحيد فى طول عمركم ، ولا ذقتم طعم الإيمان فى سالف دهركم ! ثم بسوء ظنكم تجاسرتم وما ارعويتم ، وخسرتم وما باليتم . فأيُّنا أَوْلى أن يُعْلِن بسرِّه ما هو بصدده من سوء مَكْرِه وعاقبةِ أمْرِه ؟

قوله جلت قدرته : ﴿ الذين آمنوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهم
بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مُهتدون ﴾

أى الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله ؛ فإن من قال « الله » ثم رجع بالتفضيل — عند حاجاته أو مطالباته أو شيء من حالاته إلى غير الله خَصْمُه — فى الدنيا والعقبى — اللهُ .

والظلمُ — فى التحقيق — وضعُ الشىء فى غير موضعه ، وأصعبه حسبان أن من الحدثان ما لم يكن وكان ؛ فإنَّ المنشىء اللهُ ، والمُجْرِىَ اللهُ ، ولا إله إلا الله ، وسقط ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفعُ
درجاتٍ مَّن نشاء إنَّ ربَّك حكيم عليم ﴾

أشار إلى ترقِّيه من شهود آياته إلى إثبات ذاته ، وذلك ترتيب أهل السلوك فى وصولهم إلى الله ، فالتحقق بالآيات التى هى أفعاله ومراعاة ذلك وهى الأولى ؛ ثم إثبات صفاته وهى الثانية ، ثم التحقق بوجوده وذاته وهو غاية الوصول ، فبرسومه يعرف العبد نعوته ، وبنعوته يعرف ثبوته[2] .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (فكيف)

(٢) للقشيرى كتابان (ترتيب السلوك) و (المقامات الثلاث) لم تصل بعد أيدينا إليها ، أولها توجد منه مخطوطة بالفاتيكان والثانى استعاره بعضهم من مكتبة جامعة القاهرة ولم يرده ، فهل يمكن أن نحدس أن هذه الفقرة خلاصة مقتضبة لوجهة نظره فى ترتيب مقامات السلوك وعددها .

قوله جل ذكره : ﴿ ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ
كُلاًّ هدينا ونُوحاً هدينا من قبل
ومن ذريته داود وسليمان وأيوب
ويوسف وموسى وهارون وكذلك
نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى
وعيسى وإلياس كُلٌّ من الصالحين
* وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً
وكُلاًّ فَضَّلنا على العالمين * ومن
آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم
وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك
هدى الله يهدى به من يشاء من
عباده ولو أشركوا لَحبِطَ عنهم
ما كانوا يعملون ﴾

ذَكَرَ عظيم المنَّة على كافَّتِهم — صلوات الله عليهم ، وبَيَّنَ أنه لولا تخصيصه إياهم بالتعريف ، وتفضيله لهم على سواهم بغاية التشريف ، وإلا لم يكن لهم استيجاب ولا استحقاق .

ثم قال : « ذلك هدى الله . . . . . يعملون » يعنى لو لا حظوا غيراً ، أو شاهدوا — من دوننا — شيئاً ، أو نسبوا شظية من الحدثان — إلى غير قدرتنا — فى الظهور لتلاشى ما أسلفوه من عرفانهم وإحسانهم ، فإن الله — سبحانه — لا يغفر الشِرْكَ بحالٍ ، وإن كان (يغفر)[1] ما دونه لِمنْ أراد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتابَ
والحُكْمَ والنبوةَ فإن يكفُرْ بها
هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بها قوماً ليْسوا بها
بكافرين ﴾

---

(١) وردت (يغفر) والصواب (يغفر) طبقاً للآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به . . . الخ) .

يعنى إنْ أعرض قومُك — يا محمد — فليس كلٌّ من (. . . . . .)[1] على الجحود أظهرناهم ، بل كثير من عبادنا نزَّهنا — عن الجحود — قلوبَهم ، وعجَنَّا بماء السعادة طينتهم وهم لا يحيدون عن التوحيد لحظةً ، ولا يزيغون عن التحصيل ثمةَ .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين هدى الله فَبِهُدَاهم
اقْتَدِه قُل لا أسألكم عليه أجراً
إنْ هو إلا ذكرى للعالَمين ﴾

أولئك الذين طهَّر اللهُ عن الجحد أسرارَهم ، ورَفَعَ على الكافة أقدارَهم ، فاقْتَفِ — يا محمد — هداهم ، فإنَّ مَنْ سلك الجادَّة أَمِن من العناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه إذ قالوا
ما أنزل اللهُ على بَشَرٍ مِّن شىء قلْ
مَنْ أنزل الكتابَ الذى جاء به
موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه
قراطيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُون كثيراً
وعُلِّمْتُمْ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم
قلِ اللهُ ثم ذَرْهم فى خوضِهم يلعبون ﴾

مَنْ توهَّم أنْ العلومَ[2] تحيط بجلاله فالإحاطة غير سائغة فى نعته ، كما أنَّ الإدراك غير جائز فى وصفه ، وكما أن الإشراف مُحالٌ على ذاته .

ثم قال : « قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً » أى سَلْهم عن الأحوال ، وخاطِبْهم فى معانى أحكام الرسوم والأطلال ، فَإِنْ بقوا فى ظلمة (الحيرة)[3] فَقُلْ : الله تعالى ، ثم ذَرْهُم . يعنى صَرِّح بالإخبار عن التوحيد ، ولا يهولنَّك تماديهم فى الباطل ، فإنَّ تمويهات الباطل لا تأثير لها فى الحقائق .

---

(١) مشتبهة .

(٢) يقصد بها علوم العقل .

(٣) وردت (الجيرة) والخطأ فى النقط .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ، مُبارَكٌ
مُصَدِّقُ الذى بين يديه ولِتُنذِرَ أُمَّ
القرى ومَنْ حَولَها والذين يؤمنون
بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم
يحافِظون ﴾

كتابُ الأحبابِ عزيزُ الخَطَرِ جليلُ الأثرِ ، فيه سلوة(1) عند غلبات الوجد ، ومن بقى عن الوصول تذلّل للرسول ، وقيل :

وكُتْبُكَ حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتِمُ
كأنى ملحوظٌ من الجِنِّ نظرةً ومِنْ حوالىَّ الرُّقى والتمائمُ

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كَذِبًا
أو قال أُوحِىَ إلىَّ ولم يُوحَ إليه شىء
ومَن قال سأُنزِلُ مثلَ ما أنزل اللهُ
ولو ترى إذ الظّالِمون فى غمراتِ
الموتِ والملائكةُ باسِطوا أيديهم
أخرِجوا أنفُسَكم اليومَ تُجزَوْن
عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على
اللهِ غيرَ الحقِّ وكنتم عن آياته
تستكبِرون ﴾

يعنى إن الذين يَنزِلون منزلة المُحدَّثين ، ولم تُلق إلى أسرارهم خصائصُ الخطاب — فالحقُّ — سبحانه عنهم برىء . والمتَّبِعُ بما لم ينَلْ كلابسِ ثوبى زور ، وفى معناه أنشدوا :

إذا اشتبكت دموع فى خدود تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى

---

(1) وردت (صلوة) بالصاد وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جئتمونا فُرَادَى كما خلقناكم أوَّلَ مرة وتركتم ما خوَّلناكُم وراء ظهوركم وما نرى معكم شُفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطَّعَ بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تَزْعُمُون ﴾

دَخَلْتَ الدنيا بخرقةٍ ، وخَرَجْتَ منها بخرقة ، ألاَ وتلك الخرقة أيضاً (.....)[1] ، وما دخلت إلا بوصف التجرد ، ولا خرجتَ إلا بحكم التفرد . ثم الأثقالُ والأوزارُ ، والأحمالُ والأوضارُ لا يأتى عليها حَصْرٌ ولا مقدار ؛ فلا مالكم أغنى عنكم ولا حالكم يَرْفَعُ منكم ، ولا لكم شفيعٌ يخاطبنا فيكم ؛ فقد تَقَطَّعَ بَيْنُكم . وتَفَرَّق وَصْلُكم ، وتبدَّد شملُكم ، وتلاشى ظنُكم ، وخانكم — فى التحقيق — وسعُكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ والنَّوى يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميت ومُخرِجُ الميتِ مِنَ الحىِّ ذلكم الله فأنَّى تُؤفَكُون ﴾

موجِد ما فى العالَم من الأعيانِ والآثار والرسوم والأطلال يُسَلِّط العَدَمَ على ما يريد من مصنوعاته ، ويحكم بالبقاء لما يريد من مخلوقاته ، فلا لحكمه ردٌّ ، ولا لحقِّه جحدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فالِقُ الإصباحِ وجعل الليل سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسْبَاناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم ﴾

وكما فَلَقَ صبحَ الكون فأشرقتْ الأنوارُ كذلك فَلَقَ صبحَ القلوبِ فاستنارت به الأسرار ، وكما جعل الليل سَكَناً لِتَسْكُنَ فيه النفوس من كدِّ التصرف عن أسباب المَعَاش

---

(١) مشتبهة .

كذلك جعل الليلَ سَكَناً للأحباب يَسكُنونَ فيه إلى روْح المناجاة إذا هدأت العيونُ من الأغيار .

وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان[1] معلوم على حد معلوم ، فالشمس بوصفها مذ خُلِقَت لم تنقص ولم تَزِدْ ، والقمر لا يبقى ليلةً واحدةً على حالة واحدة فأبداً فى الزيادة والنقصان ، ولا يزال ينمو حتى يصير بدراً ، ثم يتناقص حتى لا يُرى ، ثم يأخذ فى الظهور ، وكذلك دأبُه دائماً إلى أنْ تَنْقَضَ عليه العادة .

قوله جل ذكره : ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا
بها فى ظلماتِ البرِّ والبحر قد فصَّلْنا
الآياتِ لقومٍ يعلمو ﴾

كما أن نجوم السماء يُهتدى بها فى الفلوات فكذلك نجوم القلوب يهتدى بها فى معرفة ربٍّ الأرضين والسموات .

قوله جل ذكره : ﴿وهو الذى أنشأكم مِّن نَّفْسٍ واحدة
فمستقر ومستودَعٌ قد فصَّلْنا الآيات
لقومٍ يفقهون﴾

ذكَرَهم وصفَهم حين خَلَقَهم من آدم عليه السلام . وكما أن للنفوس والأبشار مستقراً ومستودعاً فللأسرار والضمائر مستقر ومستودع ، فَمِنْ عَبْدٍ مُسْتَقَرُّ قلبِه أوطانُ الشهوات والمنى ، ومن عبدٍ مستقره موقع الزهد والتقى ، ومن عبدٍ مستقره — حيث لا مسكن ولا مأوى — وراء الورى[2] .

قوله جل ذكره : ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء
فأخرجنا به نباتَ كل شىء فأخرجنا

---

(١) وردت (بحسان) بالميم والصواب أن تكون (بحسبان)
(٢) أى فى حال الفناء يتلاشى فى الوجود الذى لا تحده حدود .

منه خَضِراً نُخْرِجُ منه حَبّاً
مُتراكِباً ، ومِنَ النخلِ مِن طلعها
قِنوانٌ دانية وجنّاتٍ من أعناب
والزيتون والرُّمّان مُشْتَبِهاً وغير
متشابِهٍ ، انظروا إلى ثَمَرِه إذا أثمر
وينعِهِ إنَّ فى ذلكم لآياتٍ لقومٍ
يؤمنون ﴾

تجانست أجزاء الأرض وتوافقت أقطارُ الكون ، وتباين النبات فى اللون والطَّعم واختلفت الأشياء ، ودلَّ كلُّ مخلوقٍ بلسان فصيح ، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُسْتَقِلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخَلَقَهم
وخرقوا [1] له بنينَ وبناتٍ بغير علمٍ
سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفون ﴾

سُدَّت بصائرهم فاكتفوا بكل منقوصٍ أن يعبدوه ، وتلك عقوبةٌ لأرباب الغفلة عن الله تعالى عُجِّلَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿ بديعُ السمواتِ والأرضِ أنَّى يكونُ
له ولد ولم تكن له صاحبةٌ وخَلَقَ
كلَّ شئٍ وهو بكل شئ عليم ﴾

البديع الذى لا مثل له ، أو هو المنشئ لا على مثال ، وكلاهما فى وصفه مستحق .

والواحد يستحيل له الوَلَدُ لاقتضائه البعضية ، والتوحيد ينافيه .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلكم اللهُ ربُّكم لا إله إلا هو

(١) خَرَقَ الإفكَ = اختلقه ، أو من خرق الثوبَ إذا شقه فيكون المعنى : (اشتقوا له) وإشارة القشيرى تعتمد على المعنيين .

خالِقُ كُلِّ شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾

تعرَّف إليهم بآياته ، ثم تعرَّفَ إليهم بصفاته ، ثم كاشفهم بحقائق ذاته .

فقوله : « لا إله إلا هو » تعريف للسادات والأكابر ، وقوله : « خالق كل شيء » تعريف للعوام والأصاغر .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾

قَدَّسَ الصمديةَ عن كل لحوقٍ ودَرَك ، فأنَّى بالإدراك ولاحدٌ له ولا طرف ؟! « وهو اللطيف » الذى لا يخفى عليه شىء ، « الخبير » الذى أحاط علمُه بكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جاءَكُم بصائرُ من ربِّكم فمَنْ أبْصَرَ فَلِنَفْسِه ومَنْ عَمِىَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾

أوْضحَ البيانَ وألاحَ الدليلَ ، وأزاحَ العِلَلَ وأنارَ السبيلَ ، ولكن قيل :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُصَرِّف الآياتِ وَلِيقولوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَه لقوم يعلمون ﴾

أوقع الفتنةَ فى قلوبهم فَخَنِسَتْ عليهم الأحوال : فمِنْ شُبْهةٍ دَاخَلَتْهم ومن حَيْرةٍ مَلَكَتْهم . ومن تحقيق أدركه قوم ، وتعريفٍ توقف على آخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ﴾

العَجَبُ ممن أقرَّ بقصور حاله عن استحقاق المدح ببقائه عن مراده ، وكيف يصف معبوده بجواز ألا يرتفع فى ملكه مراده ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ولا تَسُبُّوا الذين يدعون من دون الله فَيَسُبُّوا الله عَدْوًا بغير علم﴾

يعنى خاطِبْهم بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفى الشبهة ، ولا تُكَلِّمْهم على موجب نوازع النَّفْس والعادة ، فيَحْمِلَهم ذلك على ترك الإجلال لذكر الله .

ويقال لا تطابِقْهُم على قبيح ما يفعلون فيزدادوا جرأة فى غيِّهم ، فيكون فِعْلُكَ سبباً وعِلَّةً لزيادةِ كفرِهم وفِسقِهم .

قوله جل ذكره : ﴿كذلك زيَّنا لكلِّ أمةٍ عَمَلَهم ثم إلى ربهم مَرْجِعهم فينبِّئُهم بما كانوا يعملون﴾

لبَّسْنا عليهم حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيحَ جميلاً ، ولم يَرَوْا لسوء حالتهم تبديلا ، فركنوا إلى الهوى ، ولم يميزوا بين العوافى والبَلا .

قوله جل ذكره : ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانِهم لئن جاءتهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها قُلْ إنَّما الآياتُ عند الله وما يشعِرُكُم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ .

وعدوا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان ، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم ، وما يُغْنِى وضوحُ الأدلة لمن لا تساعده سوابقُ الرحمة ، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرةٍ ونَذَرُهُم فى طغيانهم يعمهون﴾

العَجَبُ ممن تبْقَى على قلبه شبهةٌ فى مسألة القَدَر(١) ، والحقُّ — سبحانه — يقول :

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى القدرية الذين يقولون بخلق الأعمال ، فسموا قدرية من قبيل تسمية الشىء بضده ، بيتحامى خصومهم بالجبرية .

ويوصف القدرية بأنهم مجوس هذه الأمة ، لأنه كما أن أتباع زرادشت يعارضون خالق الخير بمبدإ ثان هو علة الشر كذلك هم — أى القدرية — يخرجون أعمال الإنسان السيئة من دائرة خلق الله ، فالله ليس هو الذى يخلق المعصية بل إرادة الإنسان المستقلة .

« ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به » ، لا بل من حقائق التقليب بقاء إشكال هذا الأمر — مع وضوحه — على قلوب مَنْ هو منْ جملة العقلاء ، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع وضوحه ! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أننا نَزَّلنا إليهم الملائكة وكلمهم
الموتى وحشرنا عليهم كلَّ شيء قُبُلاً
ما كانوا لِيُؤْمِنوا إلا أن يشاء اللهُ
ولكنَّ أكثرهم يجهلون ﴾

لأن الآيات وإنْ توالت ، وشموس البرهان وإنْ تعالَتْ فمَنْ قَصَمَتْهُ العِزَّةُ وكَبَسَتْه القِسمة لم يَزِدْه ذلك إلا حيرة وضلالا ، ولم يستنجز إلا الشقوة حالاً .

قوله جل ذكره ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عَدُوّاً
شياطينَ الإنسِ والجنِّ يوحِي بعضُهم
إلى بعضٍ زُخْرُفَ القوْلِ غروراً
ولوشاء ربُّك ما فعلوه فَذَرْهُم
وما يفترون ﴾

كلمَّا كان المحلُّ أعلى كانت البلايا أوفى ، وللطالبات أقوى ، فلمَّا كانت رتبُ الأنبياء — عليهم السلام — أشرفَ كانت العداوة معهم أشد وأصعب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِتَصْغَى إليه أفئدةُ الذين
لا يؤمنون بالآخرة وليرضَوْه
وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾

وكلت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فرَضُوا لأنفسهم أخَسَّ الأنصباء[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكَماً وهو الذي

---

(١) الأنصباء جمع نصيب وهو الحصة من الشيء (المنجد) .

أنزل إليكم الكتابَ مُفَصَّلاً والذين
آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ
مِّن ربك بالحقّ فلا تكونَنَّ مِنَ
الممتَرِين ﴾

قلْ لهم أترون أنى — بعد ظهور البيان ووضوح البرهان — أَذَرُ اليقين ، وأوثر التخمين وأفارق الحقّ ، وأقارن[1] الحظ ؟ إن هذا محال من الظن .

قوله جل ذكره : ﴿ وتمّتْ كلمة ربِّك صِدْقاً وَعدْلاً
لامُبَدِّل لكلماته وهو السميع العليم ﴾

تقدّستْ عن التغيير ذاتُه ، وتنزهت عن التبديل صفاتُه . والتمام ينفي النقصان . وكلُّ نقصانٍ فمن الحدَثِ أصلُه ، وأنّى بالنقص — والقِدَمُ وصفُه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تُطِعْ أكثر مَن فى الأرض
يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون
إلا الظن وإنْ هُمْ إلا يَخْرُصُون ﴾

أهلُ الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخَطَراً ، وأمّا الأعداء ففيهم كثرة . فإنْ لاحظتَهم — يا محمد — فَتَنُوكَ ، وإنْ صاحبتهم منعوك عن الحق وقلبوكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ربَّك هو أعلم مَن يَضِلُّ عن سبيله
وهو أعلم بالمُهْتَدِين ﴾

تقاصرت علومُ الخَلْق عن إدراك غيبه إلا بقدر ما عَرَّفهم من أمره ، والذى لا يخفى عليه شىء فهو الواحدُ — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه إن
كنتم بآياته مُؤمنين ﴾

هذا فى حكم التفسير مختص بالذبيحة ، وفى معنى الإشارة منع الأكل على الغفلة ، فإنمن

---

(١) ربما كانت فى الأصل (أفارق) بالفاء ، وكلاهما صحيح فى السياق .

أُكل على الغفلة فما دامت تلك القوةُ باقيةً فيه فخواطره إما هواجس النَّفْس أو وساوس الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَكُمْ ألا تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ
الله عليه وقد فصَّل لكم ما حَرَّمَ
عليكم إلا ما اضطُرِرْتم إليه وإنَّ
كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم
إنَّ ربَّك هو أعلم بالمعتدين ﴾

يعنى أى شيء عليكم لو تركتم الغفلة ؟ وما الذى يضركم لو استدمتم الذكر ؟

وقد تبيَّن لكم الفَرْقُ بين أُنْس الذكر ووحشة الغفلة فى الحال والوقت ، (ألاَّ)[1] تعرفوا حكم الثواب والعقاب فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وذروا ظاهرَ الإثم وباطنه إنَّ
الذين يكسِبون الإثمَ سَيُجْزَوْن
بما كانوا يقترفون ﴾

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع ، وباطن الإثم هو سرٌّ بينك وبين الله ، لا وقوف لمخلوقٍ عليه .

ويقال باطن الإثم خَفِيُّ العقائد و (. . . .)[2] الألحاظ .

ويقال باطن الإثم ما تمليه عليك نفسك بنوع تأويل .

ويقال باطن الإثم — على لسان أهل المعرفة — الإغماض عمَّا لَكَ فيه حظ ، ويقال باطن الإثم — على لسان أهل المحبة — دوام التغاضى عن مطالبات الحب ؛ وإنَّ بِناء مطالبات الحب على التجنى والقهر[3] ، قال قائلهم :

---

(١) وردت (إلى) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) مشتبهة .

(٣) وفى هذا المعنى أنشدوا :

بنى الحب على القهر فلو عدل المحبوب يوما لَسَمِج
ليس يستحسن فى شرع الهوى عاشق يطلب تأليف الحجج

إذا قلتُ : ما أذنبتُ ؟ قالت مجيبةً :
حياتُك ذنبٌ لا يقاس به ذنبُ

ويقال أسبغتُ عليكم النِّعم ظاهراً وباطناً ، فذروا الإثم ظاهراً وباطناً ، فإنَّ من شرط الشكر تركَ استعمال النعمة فيما يكون إثماً ومخالفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يُذْكَرُ اسمُ الله عليه وإنَّه لَفِسْق وإنَّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإنْ أطعتموهم إنَّكم لمشركون ﴾ .

ما كانت (....)[1] من الأحوال عاصيًا ولربَّه ناسياً فتوقِّيه شرط عند أصحاب (...)[2] .

ثم قال : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » فهذا يدل على أنَّ مَنْ توقَّى ذلك انحدت لله خواطرُه ، وانقطعت عنه خواطر الشيطان . وأصلُ كل قسوةٍ متابعةُ الشهوات ، ومَنْ تعوَّد مُتَابَعَتَها فليودِّعْ صفوةَ القلب .

قوله جل ذكره : ﴿ أوَمَن كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُه فى الظلمات لَيْسَ بخارجٍ منها، كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ .

الإيمان عند هؤلاء القوم حياةُ القلب بالله . وأهل الغفلة إذْ لَهُمْ الذكر فقد صاروا أحياء بعد ما كانوا أمواتاً ، وأربابُ الذكرِ لو اعتراهم نسيانٌ فقد ماتوا بعد الحياة . والذى هو فى أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفى روْح الاستبصار لا يدانيه مَنْ هو فى (أسْر)[3] الظلمات ، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات .

---

(١) مشتبهة .
(٢) مشتبهة .
(٣) وردت (أصر) بالصاد وقد آثرنا (أسر) لتلائم (رهين) الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿وكذلك جعلنا فى كل قريةٍ أكابرَ
مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون
إلا بأنفسِهم وما يشعرون﴾ .

لبَّسنا عليهم حقائق التوحيد ، وسوّلت لهم ظنونهم أن بهم شظية من المحو والإثبات ؛ فانهمكوا ظانين أنهم يَمْكرون ، وهم فى التحقيق مخادعون ، وسيعلمون حين لا ينفعهم علم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمنَ حتى
نُؤْتَى مثلَ ما أوتى رُسُلُ الله اللهُ
أعلمُ حيث يجعل رسالتَه سيصيبُ
الذين أجرموا صَغَارٌ عنـد الله
وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون﴾ .

بعد إزاحة العلة ، وبيان الحجة ، وزوال الشبهة (فالتعلُّل)[1] باستزادة البصيرة (إعلام)[2] عن سوء الأدب ، وذلك منهم من التعدى ؛ لمساواة مَنْ جاء بالاستحقاق بمَنْ جاء بنوعٍ من تسويلات النَّفْس يوجب مقاساة الهوان . وملازمةُ الحدود ، وتركُ التعدى على الحقِّ قضيةُ التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يهديَه يشرحْ
صدره للإسلام﴾ .

المُسْلِمُ لا يتحرك فى باطنه عِرْقٌ للمنازعة مع التقدير ، فإن الإسلام يقتضى تسليم الكل بلا استئثار ، ومَنْ استثقل شيئاً من التكليف أو بقى منه نَفَسٌ لكراهية شىء فيعدُّ غير مستسلمٍ لحكمه .

ويقال نورٌ فى البداية هو نور العقل ، ونورٌ فى الوسائط هو نور العلم ونور فى النهاية هو

(١) وردت (فالتعليل) والسياق يتطلب (التعلل) فيها يقوى ويتضح .
(٢) وردت (إقلام) ولا معنى لها ، ونرجح أنها فى الأصل (إعلام) أى علامة .

نور العرفان ؛ فصاحب العقل مع البرهان ، وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة فى حكم العيان .

ويقال مَنْ وَجدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شىء من ذوات الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

ويقال أول أثر لأنوار الغيب فى العبد يُنَبِّهه إلى نقائص قَدَرِه ومساوىء غَيِّه ، ثم يشغله عن شهود نفسه بما يلوح لقلبه من شهود ربه ، ثم غَلَبَاتُ الأنوار على سِرِّهِ حتى لا يشهد السرَّ بعد ما كان يشهد ؛ كالنَّاظِرِ فى قُرصِ الشمس تُستَهْلَكُ أنوار بصره فى شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة فى حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية ، وبقاء الأحدية بنعت السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يُرِدْ أن يُضلَّه يجعل صدرَه ضَيِّقًا حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ فى السماءِ كذلك يجعلُ الله الرِّجسَ على الذين لا يؤمنون ﴾ .

وذلك حتى لا يسعى فى غير مراد الحق سبحانه[1] ، وحدُّ البشرية ضيق القلب ، وصاحبه فى أَسْرِ الحدثان والأعلال ، ولا عقوبةَ أشدُّ من عقوبة الغفلة عن الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا صراطُ ربِّك مستقيماً قدْ فَصَّلنا الآياتِ لقوم يذكَّرون ﴾ .

الصراطُ المستقيمُ إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيَّدٌ بجمع ، وجمعٌ مقيدٌ بشرع ، وإثباتٌ للعرفان بغاية الوسع ، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد ، والتحقق بأنَّ المُجْرِى

---

(١) تبدو فى هذه العبارة رائحة الجبرية . . نعم ، ولكنها جبرية الحب ، فالإرادة والمريد والمراد كلها تدور فى فلك الحب ، وهذا فرق بين النزعتين الكلامية البحتة والصوفية ، عند تصديهما لهذا الموضوع .

واحدٌ لاشريك له ، ثم تركُ الاعتماد ونفى الاستناد ، لاعلى (حركاته)[1] يعتمد ، ولا إلى سكناته يستند ، (بل)[2] ينتظر مايفتح به التقدير ، فإن زاغ صاحبُ الاستقامة لحظةً ، والتفت يمنةً أو يسرةً سقط سقوطاً لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ لَهُم دارُ السلامِ عِندَ ربِّهم ﴾ .

دار السلام أى دار السلامة ، ومَنْ كان في رِقِّ شيءٍ من (الأغراض)[3] والمخلوقات لم يجد السلامة ، وإنما يجد السلامة مَنْ تحرر عن رِقِّ المُكَوَّنَات ، والآية تشير إلى أنَّ القومَ فى الجنة لكنهم ليسوا فى أَسْرِ الجنة ، بل تحرروا من رِقِّ كل مُكَوَّن .

ويقال مَنْ لم يُسلِّمْ — اليوم — على نفسه وروحه وكلِّ ماله من كل كريمه وعظيمة تسليمَ وداعٍ لايجد — غداً — ذلك الفَضْل ، فمن أراد أن يُسلِّم عليه ربُّهُ — غداً — فَلْيُسَلِّمْ على (الكون)[4] بجملته ، وأولا على نفسه وروحه .

ويقال دار السلام غداً لمن سَلِمَ — اليوم — لسانُه عن الغيبة ، وجَنانه عن الغيبه ، وأبشاره وظواهره من الزَّلَّة ، وأسراره وضمائره من الغفلة ، وعقله من البدعة ، ومعاملته من الحرام والشبهة ، وأعماله من الرياء والمصانعة ، وأحواله من الإعجاب .

ويقال شرفُ قَدْرِ تلك الدار لكونها فى محل الكرامة ، واختصاصها بعنْدية الزُّلفة ، وإلا فالأقطار كلها ديار ، ولكن قيمة الدار بالجار ، قال قائلهم :

إنِّى لأحسد داراً فى جِوارِكُمُ ... طوبى لمن أضحى لدارك جاراً
يا ليت جارَكَ يعطينى من داره شِبراً ... إذاً لأعطيه بِشِبْرٍ داراً[5]

ويقال : وإن كانت الدارُ منزهةً عن قبول الجار ، وليس القرب منه بتدانى الأقطار ، فإطلاقُ هذا اللفظ لقلوب الأحباب مؤنسٌ ؛ بل لو جاز القربُ فى وصفه من حيث المسافة لم يكن لهذا

---

(١) وردت (حرقاته) والصواب أن تكون (حركاته) لتتلاءم مع (سكناته) .
(٢) أضفنا (بل) ليتضح المعنى وهى غير موجودة فى النص .
(٣) (الأغراض) جمع غرض ، وليس بمستبعد أن تكون (الأعراض) بالعين جمع عرض ، وكلاهما مقبول .
(٤) وردت (الكون) وهى خطأ من الناسخ .
(٥) البيت الثانى مكسور ولكننا حرصنا على إثباته كما جاء فى النسخة .

كبير أثر ، وإنما حياة القلوب بهذا ، لأن حقيقته مقدسة عن هذه الصفات ؛ فهو لِأَجْلِ قلوب الأحباب يُطْلق هذا ويقع العلماء فى كد التأويل ، وهذا هو أمارة الحب ، قال قائلهم :

أنا من أَجْلِكَ حُمِّلْتُ الأ   ذى الذى لا أستطيع

قوله جل ذكره : ﴿ وهو وليُّهم بما كانوا يعملونَ ﴾[1] .

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال : « وهو وليهم » لأنه إذا كان — سبحانه — هو وليَّهم فإنَّ المنازل بأسْرِها طابت كيفما كانت ، قال قائلهم :

أهوى هواها لمن قد كان ساكنها   وليس فى الدار لى همٌّ ولا وَطَرُ

هو وليُّهم فى دنياهم ، ووليُّهم فى عقباهم ، هو وليهم فى أولاهم وفى أخراهم * وليهم الذى استولى حديثه على قلوبهم ، فلم يَدَعْ فيها لغيره نصيباً ولا سِوىً * وليهم الذى هو أَوْلَى بهم منهم * وليُّهم الذى آثرهم على أضرابهم وأشكالهم فآثروه فى جميع أحوالهم * وليهم الذى تطلب رضاهم ، وليهم الذى لم (يَكِلْهُم)[2] إلى هواهم ، ولا إلى دنياهم ، ولا إلى عقباهم .

وليهم الذى بأفضاله يلاطفهم ، وبجماله وجلاله يكاشفهم .

وليُّهم الذى اختطفهم عن كل حظ ونصيب ، وحال بينهم وبين كل حميم وقريب ، فحرَّرهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب ، ووليُّهم الذى هو مؤْنِس أسرارهم .

مَشاهِدُه مُعْتَــكَفُ أبصارهم ، وحضرَتُه مرْتَعُ أرواحهم .

ووليُّهم الذى ليس لهم سواه ، وليهم الذى لا يشهدون إلا إياه ، ولا يجدون إلا إياه ، لا فى بدايتهم يقصدون غيره ، ولا فى نهايتهم يجدون غيره ، ولا فى وسائلهم يشهدون غيره[3]

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشرَ الجِنِّ قد استكثرتم مِّنَ الإِنسِ وقال أولياؤهم من الإِنسِ ربَّنا استمتعَ .

(١) وقع الناسخ فى ثلاثة أخطاء كتابية ونقلية فى هذه الآية إذ كتبها (فهو وليهم اليوم بما كانوا يكسبون) اذ التبست عليه مع آية اخرى .

(٢) وردت (يكلمهم) بزيادة ميم وهى خطأ فى النسخ .

(٣) لاحظ هنا هذا الترتيب : قصود ثم شهود ثم وجود .

بعضنا ببعضٍ وبلغنا أجلنا الذى
أجّلتَ لنا ، قال : النار مثواكم
خالدين فيها إلا ما شاء اللهُ إنَّ ربَّك
حكيم عليم ﴾

يعتذرون فلا يسمع ، ويحتجون بما لا ينفع ، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقلِّ منه قُبِلَ منهم ، لكنْ سبقت القسمة فحقت لهم الشقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُوَلِّى بعضَ الظالمين بعضاً
بما كانوا يكسبون ﴾

يعنى نجمع بين الأشكال ، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض ، والأعداء مجموعون يفرُّ بعضهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ يامعشرَ الجنِّ والإنس ألم يأتِكم رُسُلٌ
منكم يقصُّون عليكم آياتى وينذرونكم
لقاء يومِكُم هذا قالوا شَهِدْنا على
أنفسنا وغرَّتهم الحياةُ الدنيا وشهدوا
على أنفسِهم أنهم كانوا كافرين ﴾

عرَّفهم أنه أزاح لهم العِلَلَ من حيث التزام الحجة ، لكنه حكم لهم بالشقوة فى الأزل ، (فَلبَّسَ)[1] عليهم الحجة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك أن لَّمْ يكن ربُّكَ مُهْلِكَ القُرى
بِظُلْمٍ وأهلُها غافلون ﴾

متى يصحُّ فى وصفه توهم الظلم والمُلكُ مُلكه والخَلْقُ خلقُه ؟
ومتى يقبح منه تصرُّفٌ فى شخصٍ بما أراد ، والعبد عبده والحكم حكمه ؟

---

(١) وردت (فلبس) وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وما ربك بغافلٍ عما يعملون ﴾

المحسن فى روْح الثواب متنعِّم ، والمذنب فى نوْح العذاب متألم .

قوله جل ذكره : ﴿ وربُّك الغَنِيُّ ذو الرحمة إن يشأ يُذْهِبْكم ويستخلِف مِنْ بعدِكم مايشاء كما أَنشأ كم مِّن ذرية قومٍ آخَرين ﴾

« الغنيُّ » يشير إلى كشفه ، « وذو الرحمة » يشير إلى لطفه .

أخبرهم بقوله « الغنى » عن جلاله ، وبقوله : « دو الرحمة » عن أفضاله ؛ فبجلاله يكاشفهم فيُفْنِيهم ، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم .

ويقال سماع غِناه يوجِب محوَهم ، وسماع رحمته يوجب صحوهم ، فهم فى سماع هذه الآية مترددون بين بقاء وبين فناء ، وبين إكرام وبين اصطلام ، وبين تقريبٍ وبين تذويب ، وبين اجتياحٍ وبين ارتياح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم بِمُعْجِزين ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى قِصَر الأمل ، ومَنْ قَصُرَ أمله حَسُنَ عمله ، وكل ماهو آتٍ فقريبٌ أجَلُه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عاملٌ فسوف تعلمون مَن تكون له عاقبةُ الدار إنه لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان فى صيغة الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرثِ والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصِلُ

إلى اللهِ وما كان لله فهو يصِلُ إلى
شركائهم ساء ما يحكمون ﴾

لما بَنَوْا قاعدة أمرِهم على موجب الهوى صارت فروعُهم لائقةً بأصولهم ؛ فهو كما قيل .

إذا كان القضاء إلى ابن آوى فتعويل الشهود إلى القرود

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لكثيرٍ من المشركين
قتلَ أولادِهم شركاؤهم ليردوهم
وليَلبِسُوا عليهم دينَهم ولو شاء اللهُ
ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل فقبلت نفوسهم ذلك ؛ إذْ الأشكالُ يتناصرون ، فالنَّفْسُ لا تدعو إلا إلى الأجنبية ، لأنها مُدَّعيةٌ تتوهم أن منها شيئاً ، وأصلُ كلِّ شِرْكٍ الدعوى ، والشيطان لا يوسوس إلا بالباطل والكفر ، فهم أعوانٌ يتناصرون .

ثم قال : « ولو شاء الله ما فعلوه » صَرَّح بأن المراد على المشيئة ، والاعتبار (بسابق)[1] القضية .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ
لا يَطْعَمُها إلا مَن نشاء بزعمهم
وأنعامٌ حُرِّمت ظهورُها ، وأنعام
لا يذكرون اسمَ اللهِ عليها افتراء
عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون ٭
وقالوا ما في بطون هذه الأنعام
خالِصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا
وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء ،
سيجزيهم وَصفَهُم إنه حكيم عليم ﴾

(١) وردت (بسائق) وهي خطأ من الناسخ إذ المقصود بما سبق من القضاء .

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا ، وأمور شرعوها على الوجه الذى اعتادوا ، ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل ، وشرعوها بلا حجة من إذن رسول ، والاشارة فيه أن من (نحا نحوهم)[1] فى زيادة شىء فى الدين ، أو نقصان شىء من شرع المسلمين فضاهٍ لهم فى البطلان ، ينخرط فى سلكهم فى الطغيان .

قوله جل ذكره : ﴿ قد خسِرَ الذين قتلوا أولادَهم سَفَهًا بغير عِلْمٍ وحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على اللهِ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشيةُ الفقر على قتل الأولاد ، ولذلك قال أهل التحقيق : من أمارات اليقين وحقائقه كثرة العيال على بساط التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ والنخلَ والزرعَ مختلفًا أُكُلُهُ والزيتونَ والرُّمَّان متشابهًا وغيرَ متشابهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِه إذا أثمر ﴾

يعنى كما أنشأ فى الظاهر جناتٍ وبساتينَ كذلك أنشأ فى السِّر جناتٍ وبساتين ، ونزهة القلوب أتم من جنات الظاهر ؛ فأزهار القلوب مونقة ، وشموس الأسرار مشرقة ، وأنهار المعارف زاخرة .

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تماثل الأحوال ، وكما تختلف طعومها وروائحها مع تشاكلها من وجه ، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا ، وإن اشتركت فى كونها أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتوا حقَّه يَوْمَ حصادِه ﴾

---

(١) وردت (نحا نحوم) وهى خطأ من الناسخ .

حَقٌّ الواجبِ يومَ الحصاد إقامةُ الشكر ، فأمَّا إخراج البعض فبيانه على لسان العلم[1] ، وشهودُ المنعِم فى عين النعمة أتمٌّ من الشكر على وجود النعمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُسْرِفوا إنَّه لا يُحِبُّ المسرفين ﴾

الإسراف – على لسان العلم – مجاوزة الحد .

وعلى بيان الإشارة فالإسرافُ كلٌّ ما أنفقْتَه فى حظ نَفْسِكَ – ولو كانت سمسمة ، وما أنفقته فى سبيله – سبحانه – فليس بإسراف ، ولو أربى على الآلاف .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الأنعامِ حَمُولَةً وفَرْشاً ﴾

يعنى تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية فى الفضيلة على المخلوقات . وكما سخَّر الأعيان للإنسان كذلك سخَّر الأزمان فى تصريف الحدثان لخواصِّ الإنسان[2]

قوله جل ذكره . ﴿ كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطواتِ الشيطانِ إنه لكم عدو مُّبين * ثمانيةَ أزواجٍ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ..... ﴾ إلى قوله : ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائعٌ فى جميع ما يحصل به الانتفاع .

وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر ، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكَرَم بل الجود فى وجود القِدَم .

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان ، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر عن الأكوان ، وللسِّر رزق وهو الشهود الذى يكون للعبد وهو قرين العيان .

---

(١) أى إخراج مقدر على حسب المعروف فى الزكاة .

(٢) يشير بذلك إلى ما يحدث على أيدى الأولياء من كرامات

قوله « ثمانية أزواج من الضأن اثنين » الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدَّب العبدُ باستدامة السكون والتزام حُسْنِ الخُلُق ، فإنَّ الضانية مستسلمةٌ لمن يلي عليها ، فلا بصياحها تُؤْذِي[1] ولا (بـ . . . وها)[2] ، يعني كذلك سبيل من وَطِيء هذا البساط .

وكذلك « في الإبل آيات » منها انقيادها لمن جرَّ زِمَامَها ، واستناختها حيثما تُنَاخ بلا نزاع ولا اختيار . ومنها ركوبها عند الحَمْل ، ومنها صبرها على مقاساة العطش ، وذوبانها في السير .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا
عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً
أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ
رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

بيَّن أنَّ الشارِعَ اللهُ ، والمانعَ عن الخلْق هو الله ، وما كان من غيرِ الله فضائعٌ باطِلٌ عند الله . بيَّن أنه إذا جاء الاضطرارُ زال حكمُ الاختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي
ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا
أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

---

(١) في هذه الإشارة الدقيقة نلمح أن القشيري يدعو إلى إيثار الكتمان وعدم البوح بالأسرار ، وعلى ذلك كبار الشيوخ . يقول الشبلي . على أثر محنة الحلاج « كنت وابن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر وأنا كتمت » .

(٢) مشتبهة ، وربما كانت (بعدوِّها) ، وعندئذ قد تكون العبارة فلا بصياحها تؤذي ولا بعدوها.

بيَّن أن ما حرَّم عليهم ضيَّعوه ؛ إذ لما لم يعاقبهم عليه لم يشهدوا مَكْرَه العظيم فيما ابتدعوه من قِبَلِ نفوسهم — فأهملوه ولم يحافظوا عليه ، فاستوجبوا عظيم الوِزْر وأليم الهجر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإن كذَّبوك فَقُل ربُّكم ذو رحمةٍ
واسعة ولا يُرَدُّ بأسُهُ عنِ القوم
المجرمين ﴾

الإشارة منه بيان تخصيص الأولياء بالرحمة ، وتخصيص الأعداء بالطرد واللعنة . والصورة الإنسانية جامعة (لهم)[1] ولكن القسمةَ الأزلية فاصلةٌ بينهم .

قوله جل ذكره ﴿ سيقولُ الذين أشركوا لو شاء اللهُ
ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنا
مِن شيءٍ كذلك كَذَبَ الذين مِن
قبلِهم حتى ذاقوا بأسَنا ، قُلْ هل
عندكم مِّنْ علمٍ فتخرجوه لنا ؟ إن
تتبعون إلا الظنَّ وإنْ أنتم إلاَّ
تخرُصُون ﴾

كذبت قالتُهم لأنها لم تَصْدُرْ عن تصديق ، فَذُمُّوا على جهالتهم وإن كانت (. . . .)[2] فى التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ فلله الحجةُ البالِغةُ فلو شاء
لهداكم أجمعين ﴾

صَرَّحَ بأن إرادته — سبحانه — لا تتقاصر عن مراد ، وليس عليه اعتراض .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون
أنَّ اللهَ حَرَّم هذا فإن شَهِدوا

(١) وردت (له) والصواب أن تكون (لهم) لتشمل الأولياء والأعداء .
(٢) مشتبهة .

فلا تَشْهَدْ معهم ، ولا تتبع أهواء
الذين كذبوا بآيتنا والذين لا يؤمنون
بالآخِرةِ وهم بِرَبِّهم يَعْدِلُون ﴾

أشار إلى أنَّ مَنْ تجرَّد عن برهانٍ يُصَرِّحه وبيان (يُوَضِّحُه)[1] فغيرُ مقبول من فاعله.

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّم ربُّكم عليكم
ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين
إحساناً ، ولا تقتلوا أولادَكم مِّنْ
إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ،
ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهر منها
وما بَطن ، ولا تقتلوا النَّفسَ التى
حرَّم الله إلا بالحقِّ ذلكم وصاكم به
لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال
اليتيم إلا بالتى هى أحسنُ حتى يبلغَ
أشدَّه وأوفوا الكيل والميزانَ
بالقِسْطِ لا نُكَلِّف نَفْساً إلَّا وُسْعَها
وإذا قلتم فاعدِلوا ولو كان ذا قُربَى
وبعهدِ الله أوْفُوا ذلكم وصَّاكم به
لَعَلَّكم تذَكَّرون * وأنَّ هذا
صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا
السُّبلَ فتفرَّقَ بكم عن سبيله ، ذلكم
وصَّاكم به لعلكم تتقون ﴾

(١) وردت (يوضعه) والصواب أن تكون بالحاء ليقوى المعنى والموسيق اللفظية ونرجح أن الناسخ اشتبه عليه شكل الحاء فظنها عيناً

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشِرْك فإنه رأس المحرمات ، والذى لا يقبل معه شىء من الطاعات، وينقسم ذلك إلى شِرك جَلِىّ وشِرْك خَفِىّ ؛ فالجلىُّ عبادةُ الأصنامِ ، والخفىُّ ملاحظةُ الأنامِ ، بعين استحقاق الإعظام .

والثانى من هذه الخصال ترك العقوق ، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق .

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق ، وإراقة دمائهم بغير استحقاق .

ثم ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا وما استتر ، ويدخل فى ذلك جميع أقسام الآثام .

ثم قتل النَّفس بغير الحق ؛ وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق .

ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم .

ثم بذل الإنصاف فى المعاملات والتوقى من جميع التبعات (١)

ثم الصدق فى القول والعدل فى الفعل .

ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل .

فَمَنْ قابل هذه الأوامر بجميل الاعتناق سعد فى داريه وحظى بعظائم منزلته .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم آتينا موسى الكتابَ تَماماً على الذى أَحْسَنَ وتفصيلاً لكلِّ شىءٍ وهدىً ورحمةً لَعلَّهم بلقاء ربِّهم يؤمنون ﴾

يهوِّن عليهم مشقة مقاساة التكليف بما ذكر من التعريف بأنَّ الذين كانوا قبلنا كانوا فى الضعف والعجز مثلنا ، ثم صَبرُوا فظَفروا ، وأَخْلَصوا فخَلَصُوا .

---

(١) أى الاحتراز عما فيه تبعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مُبَارَكٌ
فاتَّبِعُوه ، واتقوا لعلكم تُرْحَمُون ﴾

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب ، وإذا بَقِيَ العبدُ عن سماع الخطاب تسلى بقراءة الكتاب ، ومن لم يجدْ في قراءة القرآن كالَ العيشِ والأُنس فلأنَّه يقرأ ترسماً لا تحققاً [1]

قوله جل ذكره : ﴿ أن تقولوا إنَّما أُنزِلَ الكتابُ
على طائفتين مِن قبلنا وإن كُنَّا
عن دِرَاسَتِهِم لغافلين * أو تقولوا
لو أنَّا أُنزِل علينا الكتابُ لكُنَّا
أهدى منهم فقد جاءكم بَيِّنَةٌ مِّن
ربكم وهدى ورحمةٌ ﴾

أزاح كلَّ عِلَّة ، وأبدى كل وصلة ، فلم يُبْقِ لك تعللا ، ولا في آثار الالتجاء إلى العذر موضعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أظلَمُ ممن كذَّب بآياتِ الله
وصَدَفَ عنها سنجزى الذين
يَصْدِفون عن آياتنا سوء العذابِ
بما كانوا يصدِفون ﴾

عقوبةُ كلُّ جُرْمٍ مؤجلة ، وعقوبة التكذيب معجلة ، وهى ما يوجب بقاءهم فى أسْرِ الشك حتى لا يستقر قلبهم على شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ
أو يأتىَ رَبُّكَ أو يأتىَ بعضُ آياتِ
ربِّكَ يومَ يأتى بعضُ آياتِ ربِّك

---

(١) يمكن ان يصلح هذا الرأى لتحديد موقف القشيرى من قضية « السماع » ومدى تأثير القرآن والشعر في الوجدان الصوفي . أنظر قصة يوسف بن الحسين الرازى (الرسالة ص ١٧١) .

لا ينفع نَفْساً إيمانُها لم تكن آمنت
مِن قبلُ أو كَسَبَتْ فى إيمانها خيراً
قُلِ انتظروا إنَّا مُنتظِرون ﴾

أخبر أنه بعدما (أزاح)[1] لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم ، و (اغتروا)[2] بطول السلامة لهم ، ثم بيَّن أنه إذا أمضى عقوبة عبدٍ حُكْماً فلا معارِضَ لتقديره ، ولا مُناقِضَ لتدبيره .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا
شِيَعاً لستَ منهم فى شىء إنَّما أمْرُهم
إلى الله ثم يُنَبِّئُهُم بما كانوا يفعلون ﴾

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم ، (فكانوا)[3] مجتمعين جهراً بجهر ؛ متفرقين — فى التحقيق — سِرّاً بسِرٍّ .

قوله : « لستَ منهم فى شىء » . لا نجمعك وإياهم ، يعنى شِقُّكَ شِقُّ الحقائق ، وشِقُّهم شِقُّ الباطل ، و (لا اجتماعَ)[4] للضدين .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن جاء بالحسنةِ فله عشر أمثالها ﴾

هذه الحسنات للظاهر ؛ وأمّا حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة .

ويقال الحسنة منْ فضله تعالى تَصْدُر ، وبلطفه تحصل ، فهو يُجْرى ، ثم يَقْبَلُ ويثنى ، ثم يجازى ويُعطى .

ويقال إحسانه — الذى هو التوفيق — يوجِبُ إحسانك الذى هو الوفاق ، وإحسانه — الذى هو خلق الطاعة — يوجِبُ لك نعت الإحسان الذى هو الطاعة ؛ فالعناء منك فِعْلُه والجزاء لك فَضْلُه[5] .

---

(1) وردت (دعم) وذبح العلة وإراحتها كلاهما مقبول ولكننا آثرنا أزاح لأنه استعملها فى هذا السياق قبل قليل .

(2) وردت (اعتروا) بالعين والصواب (اغتروا) بالغين .

(3) وردت (فكا . . .) فأكملناها .

(4) وردت و (الاجتماع) والمعنى يرفضها ويقبل و (لا اجتماع) .

(5) تعبر هذه الفقرة عن موقف القشيرى بالنسبة لقضية وجوب المثوبة والعقوبة على الله بالنسبة للمطيع والعاصى ، فبينما يقول المعتزلة بهذا الوجوب ، يرفض القشيرى كل وجوب على الله ، ويعود بالأمر كله إلى الفضل الإلهى .

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيَةُ الخدمة ، وإحسان القلوب حفظ الحرمة ، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة .

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه فى السرائر ، فالذى منك مجاهدتُك ، والذى إليك مشاهدتك .

ويقال إحسان الزاهدين تَرك الدنيا ، وإحسان المريدين رفض الهوى ، وإحسان العارفين قطع المنى ، وإحسان الموحدين التخلِّى عن الدنيا والعقبى ، والاكتفاء بوجود المولى .

ويقال إحسان المبتدئين الصدق فى الطلب ، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب ، فشرطُ الطلب ألا يبقى ميسورٌ إلاَّ بَذَلْتَه ، وشرط الأدب ألا تسمولك هِمَّةٌ إلى شىء إلا قطعتَه وتركته .

ويقال للزهاد والعبَّاد ، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاء محصور معدود ، ولأهل المواجيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن جاَء بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مثلَها وهم لا يُظْلمون ﴾

يعنى (يُكالُ)(١) عليه بالكيل الذى يكيل ، ويوقَفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفا .

قوله جل ذكره : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

أرشده إلى الطريق الصحيح . ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى ماسواه . ومَنْ وَجَدَ سبيلا إلى مخلوق عرج فى أو طاف الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظيه ، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأميلاً أو قدَّم عليهم تعويلاً ، فقد استشعر تسويلاً ، وجُرِّعَ تضليلا .

---

(١) وردت (يقال) وهى خطأ فى النسخ .

و « الصراط المستقيم » ألاّ ترى من دونه مثبتاً لذرةٍ ولا سنة .

و « الدين القيم » مالا تمثيلَ فيه ولا تعطيل ، ولا نفى للفَرْقِ الذى يشير إلى العبودية ، ولا رد للجمع الذى هو شهود الربوبية(١) .

والحنيف المائل إلى الحق ، الزائغ عن الباطل ، الحائل عن ضد الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّ صلاتى ونُسكى ومحياى
ومماتى لله ربِّ العالمين * لا شريكَ
له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أولُ
المسلمين ﴾

مَنْ كوشِفَ بحقائق التوحيد شهدَ أن القائم عليه والمجرى عليه والممسك له والمُنَقِّل إياه من وصفٍ إلى وصف ، و (... .)(٢) عليه فنون الحدثان — واحدٌ لا يشاركه قسيم ، وماجدٌ لا يضارعه نديم .

ويقال مَنْ عَلِمَ أنه بالله علم أنه لله ، فإذا علم أنه لله لم يَبْقَ فيه نصيب لغير الله ؛ فهو مستسلمٌ لحكم الله ، لا مُعترِضٌ على تقدير الله ، ولا معارِضٌ لاختيار الله ، ولا مُعْرِضٌ عن اعتناق أمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أغيرَ الله أبغى رَبًّا وهو ربُّ
كلِّ شىءٍ ولا تَكسِبُ كلُّ نفسٍ
إلا عليها ولا تزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى
ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم
فيه تختلفون ﴾

---

(١) من اقوال القشيرى التى توضح مقصوده هنا : ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فمن أشهده الحق — سبحانه — أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة ، ومن أشهده الحق — سبحانه — ما يوليه من أفعال نفسه — سبحانه — فهو عبد يشاهد الجمع ؛ فإثبات الخلق من باب التفرقة ، واثبات الحق من نعت الجمع ، ولا بد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له (الرسالة ص ٣٨) .

(٢) مشتبهة وهى قريبة من (المجرى) .

كيف أوثِر عليه بَدَلاً وإنى لا أجد عن حكمه حِوَلا ، وكيف أقول بغيرٍ أو ضدٍ أو شريك ؟ أو أقول بدونه معبود أو مقصود ؟ وإنْ لاحظتُ يمنةً ما شاهدتُ إلا مُلْكَه ، وإنْ طالعتُ يَسْرةً ما عاينْتُ إلا مُلكَه ! بل إنى إنْ نظرتُ يمنةً شهدت يُمْنَه ، وإنْ نظرتُ يَسْرَةً وجدتُ نحوى يُسْرَه[1] !

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرض
ورفع بعضَكم فوق بعضٍ درجاتٍ
ليبلوَكم فيما آتاكم إنَّ ربَّك سريعُ
العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾

صير التوبة إليكم ، وقَصَرَ حكم عصركم عليكم ، فأنتم المقصودون اليوم دون من هو سواكم . ثم إنه جعلكم أصنافا ، وخلقكم أخيافاً[2] فمنْ مُسَخَّرٍ له ، مُرَفَّهٍ ، مُرَوَّحٍ ، يتعب لأجله كثيرٌ . ومن مُعَنَّىً ، وذى مشقة أُدير عليه رأسُه . وجاء البلاء ليختبركم فيما آتاكم ، ويمتحنكم فيما أعطاكم . إنَّ حسابه لكم لا حِقٌ ، وحكمه فيكم سابق . والله أعلم .

السورة التى يذكر فيها الأعراف

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الباء مكسورة فى نفسها وعملها الخفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء ، وهى صغيرة القامة فى الخط ، ونَقْطُها الذى تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القِلَّة ، ثم موضع هذه النقطة أسفل الحرف ، فهى تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه .

والسين « من بسم الله » حرفٌ ساكنٌ فالإشارة من الباء ألا تَذَرَ — فى الخضوع والتذلل ، والجهد والتوسل — ميسوراً ، ثم تسكن منتظراً للتقدير ، فإنْ مَنَّ القبولَ بفضله

---

(١) وردت (يمنه ويسره) بتاء مربوطة والصواب أن تكونا (اليمن واليسر) مضافتين لله — سبحانه .

(٢) يقال هم إخوة أخياف : أى إنَّ امهم واحدة والآباء شتى فهم مختلفون (المنجد)

فذلك المأمول ، وإنْ ردَّ بحكمٍ فله الحكم ، فتوافق تقديره بالموافقة فى الرضا به ، إذا الميم تشير إلى مِنته إن شاء ، ثم إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إنْ لم يَمُنَّ .

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق — سبحانه — بذلك من دون الخلق ، فهم على بيانٍ مما يخفى على الخلق ، فالغيب لهم كشف ، والخبرُ لهم عيان ، وما للناس عِلْم فلهم وجود .

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البَسط بما (. . . .)[1] فيه من وجوه المراعاة ؛ وصنوف لطائف المناجاة ، فهم فى جنات النعيم ، وعيشِ بسطٍ وتكريم ، ودوام رَوْحٍ مقيم .

والميم تشير إلى محبة الحق — سبحانه — لهم بدءاً فإنها هى للموجبة لمحابِّهم ، إذ عنها صَدَرَ كلُّ حب فبمحبته لهم أحبوه ، وبقصده إليهم طلبوه ، وبإرداته لهم أرادوه .

ويقال نزهة أسرار الموحدين فى الإناخة بعقوة بسم الله ، فَمَنْ حلَّ تلك الساحة رَتَعَ فى حدائق القُدْس ، واستروح إلى نسيم الأُنْس .

ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم ؛ فللأغنياء موقفهم عرفات ، وللفقراء موقفهم المكاشفات والمشاهدات .

ويقال قالة « بسم الله » ربيع الأحباب ؛ أزهارها لطائف الوصلة ، ونَوْرُها زوائد القربة .

قوله جل ذكره : ﴿ المص ﴾ .

هذه الحروف من المتشابه فى القرآن على طريقة قومٍ من السَّلَف ، والحق — سبحانه — مستأثر بعلمها دون خلقه . وعلى طريقة قومٍ فلها معانٍ تُعْرَف ، وفيها إشارات إلى أشياء توصَف : فالألف تشير إلى أُلفة الأرواح العطرة أصابت الشكلية مع بعض الأرواح العطرة ، فهى — فى التحقيق — فى ذلك للمعنى كالمتحدة ؛ فمنه تقع الألفة بين المتشاكلين ، ولأجل اتحاد المقصود يتفق القاصدون .

ويقال أَلِفَ القلبُ حديثَه فلم يحتشم من بَذْل روحه .

---

(١) مشتبهة .

ويقال الألف تجرَّد مَنْ قَصَدَه عن كل غَيْرٍ فلم يتصل بشيء ، وحين استغنى عن كل شيء اتصل به كل شيء على جهة الاحتياج إليه .

ويقال صورة اللام كصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف ؛ فمرةً أصبحت مفتوحة ، ومرةً (مسكونة)[1] ، ومرة مرفوعة ، وأمَّا الألف التى هى بعيدة عن الاتصال بالملاقات (فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهى على سكونها الأصلى)[2] .

وأمَّا الصاد فتشير إلى صدق أحوال المشتاقين فى القصد ، وصدق أحوال العارفين فى الوجد ، وتشير إلى صدق قلوب المريدين وأرباب الطلب ، إذ العطش نعت كلِّ قاصد ، كما أن الدهشة وصف كل واجد .

ويقال الصاد تبدى محبةً الصدور وهو بلاء الأحباب .

ويقال الصاد تطالبك بالصدق فى الود ، وأمارة الصدق فى الود بلوغ النهاية والكمال ، حتى لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالمنع .

قوله جل ذكره : ﴿ كتابٌ أُنزِلَ إليك فلا يكن فى صدرك حرجٌ منه لتنذِرَ به وذِكْرى للمؤمنين ﴾ .

كتاب الأحباب تحفة الوقت ، وشفاء لمقاساة ألم البعد ، وهو لداء الضنى مُزيل ، ولشفاء الشكِّ مُقيل ، وقال تعالى : « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ولم يقل : فى قلبك ؛ فإن قلبه — عليه السلام — فى محل الشهود ، ولذلك قال : ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون»[3] وكذلك قال موسى عليه السلام : « ربِّ اشرح لى صدرى »[4] . وقال للمصطفى صلوات الله

---

(١) وردت (مسكونه) بسقوط النون وهى خطأ فى النسخ .

(٢) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من المتن حسب العلامة المميزة .

(٣) آية ٩٧ سورة الحجر .

(٤) آية ٢٥ سورة طه

عليه : « ألم نشرح لك صدرك »[1] . فإن القلب فى محل الشهود ، وهو أبداً بدوام أُنس القرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « تنام عينى ولا ينام قلبى »[2] وقال : « أسألك لذة النظر »[3] وصاحب اللذة لا يكون له حرج .

قوله جل ذكره : ﴿ اتَّبِعُوا ما أُنزل إليكم من ربِّكم ولا تتبعوا مِن دونه أولياء قليلاً مّا تَذَكَّرون ﴾ .

اسْتَسْلِموا لمطالبات التقدير ، قِفُوا حيثما وقفتم ، وتحققوا بما عرفتم ، وطالعوا بما كوشفتم ، ولا تلاحظوا غيراً ، ولا تركنوا إلى عِلّةٍ ، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكم من قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسُنا بياتاً أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذْ جاءهم بَأْسُنا إلاَّ أن قالوا إنّا كنا ظالمين ﴾ .

يعنى كم من قرية ركنوا إلى الغفلة ، واغتروا بطول المهلة ، باتوا فى (خَفْضِ)[4] الدعة وأصبحوا وقد صادفتهم البلايا بغتة ، وأدركتهم القضية فجأة ، فلا بلاء كُشِف عنهم ، ولا دعاء سُمِع لهم ، ولا فرار نَفَعَهم ، ولا صريخ أنقذهم . فما زالوا يفزعون إلى الابتهال ، ويصيحون : الويل ! ويدعون إلى كشف الضر ، ويبكون من مسِّ السوء ؟ ! بادوا وكأنه لاعين ولا أثر ، ولا لأحدٍ منهم (خبر)[5] . تلك سُنَّةُ الله فى الذين خَلَوْا من الكافرين ، وعادته فى الماضين من الماردين .

---

(١) آية ١ سورة الشرح .

(٢) فى رواية سعيد بن منصور فى سننه عن ابن سعد بن الحسن مرسلا : (تنام عيناى ولا ينام قلبي) ص ١٢٠ الجامع الصغير .

(٣) وردت ضمن دعاء طويل رواه النسائى فى سننه والحاكم فى مستدركه عن عمار بن ياسر — هكذا (. . . وأسألك لذة النظر الى وجهك) .

(٤) وردت (حفض) بالحاء والصواب أن تكون (خفض العيش) بالخاء .

(٥) وردت (خير) بالياء والصواب أن تكون (خبر) بالباء .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾

« فلنسألن الذين أرسل إليهم » : سؤال تعنيف وتعذيب .

« ولنسألن المرسلين » : سؤال تشريف وتقريب .

« فلنسألن الذين أرسل إليهم » عن القبول فيتقنَّعون بذل الخجل .

« ولنسألن المرسلين » عن البلاغ فيتكلمون ببيان الهيبة ، فالكلُّ بسِمةِ العبودية والتوقير ، والحقُّ بنعت الكبرياء والتقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنقُصَّنَّ عليهم بِعِلْمٍ وما كُنَّا غائبين ﴾

فلنخبرنَّهم يومَ الفصلِ ماهم عليه اليوم ، ونوقفهم على ما أسلفوه ، ونقيمنهم فى مقام الصَّغارِ ومحل الخزى ، وسيعلمون أنه لم يَغِبْ عن علمنا صغير ولا كبير .

ويقال أجرى الحقُّ — سبحانه — سُنَّتَه بتخويف العباد بعلمه مرة كما خوَّفهم بعقوبته تارة ؛ فقال تعالى : « واتقوا يوماً »[1] يعنى العذاب الواقع فى ذلك اليوم ، وقال فى موضع آخر : « ويحذِّركم الله نفسه »[2] وهذا أبلغ فى التخويف ، وقال « ألم يعلم بأن الله يرى »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ والوزن يومئذٍ الحقُّ فمَن ثَقُلَتْ موازينُه فأولئك هم المفلحون * وَمَنْ خَفَّتْ موازينه فأولئك الذين خَسِروا أنفسَهم بما كانوا بآياتنا يَظلِمُون ﴾

يَزِنُ أعمالهم بميزان الإخلاص ، وأحوالهم بميزان الصدق . فَمَنْ كانت أعمالهم بالرياء

(١) آية ٤٨ سورة البقرة
(٢) آية ٢٨ سورة آل عمران
(٣) آية ١٤ سورة العلق

مصحوبة لم يَقْبَلْ أعمالَهم ، ومَنْ كانت أحوالُهم بالاعجاب مشوبةٌ لم يرفع أحوالَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد مكنَّا كم فى الأرض وجعلنالكم
فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾

مَهَّلْنا عليكم أسباب للعيشة ، ويسَّرنا لكم أحوال التصرف ، ثم أراد منكم أنْ تتخذوا إليه سبيلاً ، ولم يعتص عليه مراد .

« قليلا ما تشكرون » لاستعمالكم — فى الخلاف — أبدانكم ، ولإنفاقكم — بالإسراف — أحوالكم ، ولاستغراقكم — فى الحظوظ — أوقاتكم . فلا نعمة الفراغ شكرتم ، ولا من مسِّ العقوبة شكوتم . . . خسرتم وما شعرتم !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خلقنا كم ثم صَوَّرنا كم ثُمَّ قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا
إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

ثَبَّتْنَاكم على النعت الذى أردنا كم ، وأقمنا كم فى الشواهد التى اخترنا لكم ؛ فمِنْ قبيحٍ صورته خَلْقاً ومن مليح ، ومن سقيم حالته خُلُقاً[1] ، ومن صحيح . ثم إنا نعرفكم سابق آيادينا إلى أبيكم ، ثم لاحِقَ خِلافه بما بقى عِرْقٌ منه فيكم ، ثم ما علمنا به (من مكان يحسدكم)[2] ويعاديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ما مَنَعَكَ ألا تسجُدَ إذ أمَرْتُكَ
قال أنا خيرٌ منه خلقتنى من نارٍ
وخلقته من طين ﴾

أى لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما مُوجِبُ امتناعك عن السجودِ لآدم لو كُنْتَ تُعَظِّمُ أمرى ؟ فيتحقق الموحدُّون أن موجبٌ امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصلُ ، ولوساعده التوفيق لم يبرح بعد من السجود .

---

(١) ضبطنا خلقاً وخلقاً حسبما يتطلبه السياق

(٢) هكذا فى ص ونرجح أن الناسخ قد اخطأ فى النقل ؛ فما بين قوسين لا معنى له ، وربما كانت فى الأصل (ثم ما علمنا بمن كان يحسدكم ويعاديكم) والمقصود إبليس كما فى الآية

قال: « أنا خير منه » ادَّعى الخيرية، وكان الواجب عليه — لولا الشقوة — أنْ يُؤْثِرَ التذلُّلَ على التكبُّر، لا سيما والخطاب الوارد عليه من الحقِّ.

ثم إنه وإنْ سَلَكَ طريق القياس فلا وجه له مع النَّفْس لأنه بِحَظٍّ، فلم يزِدْه قياسُه إلا في استحقاق نفيه إذ ادَّعى الخيرية بجوهره[1]، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه — سبحانه — وقسمته.

قوله جل ذكره: ﴿قال فاهبطْ منها فما يكونُ لكَ أن تتكبَّر فيها فاخرُجْ إنَّكَ منَ الصَّاغرين﴾.

فارقْ بساطَ القربة؛ فإنَّ التكبُّرَ والترفُّعَ على البساط ترك الأدب، وتركُ الأدب يوجِب الطرد.

ويقال مَنْ رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبِّر، والمتكبِّر بعيد عن الحق سبحانه، ورؤية المقام قَدْحٌ في الربوبية إذ لا قَدْرَ لغيره تعالى، فَمَنْ ادَّعى لنفسه محلا فقد نازع الربوبية.

قوله جل ذكره: ﴿قال أَنظِرْني إلى يوم يُبْعثُون * قال إنَّكَ مِنَ المُنظَرين﴾.

أجاب دعاءه في الحال ولكن كان ذلك مكراً به لأنه مكَّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة، فلم يَزِدْه بذلك التمكين إلا شِقوةً. ليعلمَ الكافةُ أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمةً ولطفاً بل قد تكون بلاء ومكراً.

قوله جل ذكره: ﴿قال فبما أغويتني لَأَقْعُدَنَّ لهم صِراطك المستقيم﴾.

جَاهَرَ الحقيقةَ بالخلاف بعدما أظهر من نفسه غايةَ الخلوص في العبودية، فَعُلِمَ أن جميع ما كان منه في (سالف)[2] حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق.

---

(١) حيث اعتبر النار خيراً من الطين.

(٢) وردت (سالك) والصواب ان تكون (سالف) اى سابق عهده قبل عصيانه.

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِنْ بينِ أيديهم ومِنْ خلفِهم
وعن أَيْمانِهم وعن شمائلِهم ولا تجدُ
أكثرَهم شاكرين﴾ .

أخبر أنه يأخذ عليهم جوانبهم ، ويتسلطُ عليهم من جميع جهاتهم ، ولم يَعْلَمْ أن الحقَّ سبحانه قادر على حفظهم عنه ، فإنَّ ما يكيدُهم مِنَ القدرةِ حَصلَ ، وبالمشيئة يوجد ، ولو كان الأمر به أو إليه لَكانَ أَوْلى الخلقِ بأنْ يُؤَثِّرَ فيه كدُّه نَفْسَهُ ، وحيث لم ينفعه جهدُه في سالفِ أحواله لم يضرهم كيده بما توعدهم به من سوء أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اخْرُجْ منها مذءوماً مَدْحوراً لمن
تَبِعَك منهم لأملأنَّ جهنم منكم
أجمعين﴾ .

أخرجه من درجته ، ومن حالته ورتبته ، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته ، ثم تخليده أبداً في عقوبته ، ولا يذيقه ذرةً من بَرْدِ رحمته ، فأصبح وهو مقدَّمٌ على الجملة ، وأمسى وهو أبعد الزُّمرة ، وهذه آثار قهر العزَّة . فأيُّ كَبِدٍ يسمع هذه القصة ثم لا ينفتت ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجُك الجنَّةَ
فكُلا مِنْ حيثُ شِئْتُما ولا تَقْرَبا
هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ .

لما أسكن آدمَ الجنةَ خَلَق معه سبب الفتنةِ ، وهو ما أكرمه به من الزوجة . وأى نقصٍ يكون في الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لولا ما أخفى من سِرِّ القسمة ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ فوسوس لهما الشيطانُ ﴾ .

نِسْبَتُهُ ما حَصلَ منهما إلى الشيطان من أمارات العناية ، كانت الخطيئةُ منهما لكنَّه تعالى قال : «فوسوس لهما الشيطان» .

ويقال التقى آدمُ بإبليس بعد ذلك فقال له : ياشَقِىُّ ! وسوستَ إلىَّ وفعلتُ ! ، فقال إبليس لآدم . ياآدم ! هَبْ أنى كنتُ إبليسَك فَمَنْ كان إبليسى !؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُبْدِىَ لهما ما وورى عنهما مِن سوءاتِهما ﴾ .

وفى ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال : «ليبدىَ لهما» فلم يطلع على سوأتهما غيرهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

تاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكين — لا لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام — ولكن لانقطاع الشهوات والمنى عنهما .

ويقال لمَّا طمعا فى الخلود وقعا فى الخُود ، ووقعا فى البلاء والخوف ؛ وأصلُ كلِّ محنةِ الطمعُ .

ويقال إذا كان الطمع فى الجنة — وهى دار الخلود — أوْجَبَ كُلَّ تلك المحن فالطمع فى الدنيا — التى هى دار الفناء — متى يسلم صاحبه من ذلك ؟ ويقال إن يكونا إنما ركنا إلى الخلود فلا لنصيبِ أنفسهما ، ولكن لأجْل البقاء مع الله تعالى ، وهذا أوْلى لأنه يوجب تنزيه محلُّ النبوة . وقيل ساعاتُ الوصال قصيرة وأيام الفراق طويلة ، فما لبثا فى دار الوصلة إلا بعضًا من النهار ؛ دَخَلاَ ضحوةَ النهار وخَرَجَا نِصفَ النهار ! ويقال إن الفراقَ عينٌ تصيب أهلَ الوصلة ، وفى معناه قال قائلهم :

إنْ تكُنْ عينٌ أصابتك فما إلا لأنَّ العين تصيب الحَسَنَا

وقال حين تمَّتْ لهما أسباب الوصلة ، ووَطَّنَا نفوسهما على دوام القربة بدا الفراق من مكامنه فأباد من شملهما (ما)[1] انتظم ، كما قيل :

---

(١) وردت (فانتظم) والصواب (ما انتظم)

حين تمَّ الهوى وقلنا سُرِرْنا وحَسِبْنَا مِنْ الفراق أَمِنَّا
بَعَثَ البَيْنُ رُسْلَه فى خفاء فأبادوا من شملنا ما جمعنا

قوله جل ذكره: ﴿ وقَاسَمَهُمَا إِنِّى لكما لَمِنَ الناصحين * فدَلاَّهما بغرور ﴾

(حُسْنُ ظنِّ آدم — عليه السلام — حَمَلَه على سكون قلبه إلى يمين العدو لأنه لم يخطر بباله أن يكذب فى يمينه بالله ، ثم لمَّا بان له أنه دلاَّهما بغرور تاب إلى الله بصدق الندم ، واعترف بأنه أساء وأجرم ، فَعَلِمَ — سبحانه — صِدْقَه فيا ندم ، فتداركه بجميل العفو والكرم) [1]

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذاقا الشجرةَ بَدَتْ لهما سوءاتُهُمَا ﴾

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشيرُ العقاب ، وتنَغَّص الحال ، وكذا صفة مَنْ آثر على الحق — سبحانه — شيئاً يبقيه عنه ، فلا يكون له بما آثر استمتاع . وكذلك مَنْ ادَّخر عن الله — سبحانه — نَفْسَه أو مالَه أو شيئاً بوجهٍ من الوجوه — لا يبارك الله فيه ، قال تعالى فى صفة الأعداء : « خسر الدنيا والآخرة » .

ويقال لمَّا بَدَتْ سوأتهما احتالا فى السَّتْر ، وطَفِقاً يخصفان عليهما من ورق الجنة فبعدما كانت كسوتهما حُلَلَ الجنة ظلَّا يستتران بورق الجنة ، كما قيل :

لله دَرُّهمُ مِنْ فِتْيَةٍ بكروا مثل الملوك ، وراحوا كالمساكين
وأنشدوا : لا تعجبوا لمذلتى فأنا الذى عَبَثَ الزمان بمهجتى فأذَلَّها

ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان فى الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلُّها تتطاول وتأبى أن يأخذ آدم — عليه السلام — شيئاً من أوراقها . وقبل ذلك كان لا يلاحظ الجنة فكان يتيه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال :

وكانت — على الأيام — نفسى عزيزة فلمَّا رأت صبرى على الذلِّ ذلَّتِ

---

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من المتن .

ولمّا أُخرج آدمُ من الجنة وأُسكِن الأرض كلّف العملَ والسعىَ والزرع والغرسَ ، وكان لا يتجدد له حال إلا تجدّد بكاؤه ، وجبريل — عليه السلام — يأتيه ويقول : « أهذا الذى قيل لك : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى » ؟

فَلِمْ تعرِف قدره . « فَذُقْ جزايا خِلافِك » فكان يسكن عن الجزع . ويقال بل الحكم بالخنوع كما قيل :

وجاشتْ إلىَّ النفسُ أوّلَ مرةٍ وزيدت على مكروهها فاستقرتِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وطَفِقاً يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألَمْ أنهكُماَ عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدو مبين ﴾

كانت لا تصل يدُه إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه ، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة — التى هى شجرة المحنة — لكان ذلك عنايةً بشأنه ، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة ، تتمةً للبلاء والفتنة ، ولو لم تصل يده إلى شجرة الستر — إبلاغاً فى القهر — لمّا خالف الأمر ، ولمَاَ حَصَلَ ما حَصَل .

« وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » : فكان ما دَاخَلَهما من الخجل أشدَّ من كل عقوبة ؛ لأنهما لو كانا فى الغيبة عند سماع النداء فإن الحضور يوجب الهيبة ، فلما ناداهما بالعتاب حَلَّ بهما من الخجل ما حلّ ، وفى معناه أنشدوا :

واخجلتا من وقوفى وَسْطَ دَارِهِمُ إذ قال لى مغضبا : من أنت يارجل ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ قالا ربّناَ ظلمنا أنفُسَناَ وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين ﴾

اعترفا بالظلم جهراً ، وعرفا الحكم فى ذلك سِرّاً ؛ فقولهما : « ربنا ظَلَمْناَ أنفسنا » اعتراف بالظلم من حيث الشريعة ، وعرفان بأن المدارَ على الحكم من حيث الحقيقة ، فَمَنْ لم يعترف بظلم الخلْق طوى الشريعة[1] ، ومن لم يعرف جريان حكم الحق فَقَدْ جَحَدَ الحقيقة ،

(١) حتى يكون الشر منسوباً للإنسان كسْباً .

فلمَّا أقرّا بالظلم قالا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » نطقا على عين التوحيد حيث لم يقولا بظلمنا خَسِرْنا ، بل قالا : ظَلَمْنا فإنْ لم تغفر لنا خسرنا ، فبِتَرْكِ غفرانك نخسر لا لارتكاب ظلمنا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اهبطوا بعضُكم لبعضٍ عدو ﴾

أهْبَطَهم ، ولكنه أهبط إبليسَ عن رتبته فوقع فى اللعنة ، وأهبط آدم عن بقعته فتداركْته الرحمة .

ويقال لم يُخْرِج آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإنْ أُخرِجَ عن دار الكرامة ، فلذلك قال الله تعالى : « ثم اجتباه ربُّه » وأما إبليس — لعنةُ الله عليه — فإنه أُخْرِجَ من الحالة والرتبة ؛ فلم ينتعش قط عن تلك السَّقْطة .

قولهُ جل ذكره : ﴿ ولكم فى الأرض مُسْتَقَرٌ ومتاع إلى حين ﴾

« ولكم فى الأرض مستقر » هذا عامٌ « ومتاع إلى حين »: أراد به إبليسَ على الخصوص .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فيها تَحْيَوْنَ وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُون ﴾

أخبر أنه يستقبلهم اختلافُ الأحوالِ فى الدنيا ، ويتعاقب عليهم تفاوتُ الأطوار ، فَمِنْ عُسْرٍ ومن يُسْر ، ومن خير ومن شر ، ومن حياةٍ ومن موت ، ومن ظَفَرٍ ومِنْ فَوْت ... إلى غير ذلك من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلك خير ذلك منْ آيات الله لعلهم يذَّكَّرون ﴾

سترناكم عن الأسباب الظاهرة ، ويَسَّرنا لكم ما تدفعون به صنوفَ المضار عنكم بما مَكَّنَّا لكم من وجوه المنافع .

ثم قال : « ولباسُ التقوى ذلك خير » فإن اللباس الظاهر بقى آفاتِ الدنيا ، ولباس التقوى يصون عن الآفات التى توجب سخط المولى ، ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه . وللنَّفْس لباسٌ من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب ، لباس من التقوى وهو صدق القصد بنفى الطمع . وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق . وللسرِّ لباسٌ من التقوى وهو نفى للمساكنات والتصاون من الملاحظات .

ويقال تقوى العُبَّاد ترك الحرام ، وتقوى العارفين نفى مساكنة الأنام . ويقال للعوام التقوى ، وللخواص لباس التقوى عن شهود التقوى .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطانُ
كما أَخْرَجَ أبويكم من الجنة ينزع
عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ليريَهما سوءاتِهما ﴾

من أصغى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشكَّ بين وسواس الشيطان وهاجِس النَّفْس ، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطرُ القلبِ وزواجرُ العلمِ مغمورةً مقهورةً — فعن قريبٍ تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها ، وينخرط فى سلك موافقة الهوى فيسقط فى مهواة الزلة ، فإذا لم يحصل تداركٌ بوشيك التوبة صارت الحالةُ قسوةً فى القلب ، وإذا قسا القلبُ فارقته الحياة وتمَّ له البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث
لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء
للذين لا يؤمنون ﴾

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق — سبحانه — بقلبه ، فيستغيث إليه من كيده ، فيُدْخِلْه — سبحانه — فى كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها
آباءنا والله أَمَرَنا بها ، قُلْ إن اللهَ

لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله
مالا تعلمون ﴾

استروحوا فى التعلل إلى سلوكهم نهجَ أسلافِهم ، فاستمسكوا بحبلٍ واهٍ فزلّت بهم أقدامُ الغرور ، وقصوا فى وهدة المحنة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أمَرَ ربِّى بالقِسْطِ ﴾

القِسط العدل ، ويقع ذلك فى حق الله تعالى ، وفى حق الخلْق ، وفى حق نفسك ؛ فالعدلُ فى حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير فى المأمور بهِ أو إقدامٍ على المنهِّى عنه ، ثم ألا تدخر عنه شيئاً مما خوّلك ، ثم لا تُؤْثِرَ عليه شيئا فيما أحلَّ لك . وأمّا العدل مع الخلْق — فعلى لسان العلم — بذلُ الإنصاف ، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف . وأمّا العدل فى حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها ، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها ، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال فى كل نَفَس .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا وجوهَكم عند كل مسجد
وادعوه مخلصين له الدِّين ﴾

الإشارة منه إلى إستدامة (شهوده فى كل حالة ، وألا تنساه لحظةً فى كلِّ ما تأتيه وتذره وتقدمه)[1] وتؤخره .

قوله جل ذكره : ﴿ كما بدأكم تعودون * فريقاً هَدَى
وفريقاً حَقَّ عليهم الضلالةُ إنهم
اتخذوا الشياطينَ أولياء من دون
الله ويَحْسَبون أنهم مُهْتَدون ﴾

من كانت قِسمتُه — سبحانه — له بالسعادة كانت فطرته على السعادة ، وكانت حالته بنعت السعادة ، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة ، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالضد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان بحالةٍ لقى الله بها » .

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص .

وجملة العلم بالقضاء والقَدَرِ أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون ، وأراد أن يكون كما علم . وما عَلِم ألا يكون — مما جاز أن يكون أراده ألا يكون — أخبر أنه لا يكون . وهو على وجه الذى أخبر ، وقضى على العبد وقدَّر أجرى عليه ما سبق به الحكم ، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف ..

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدمَ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾

على لسان العلم : يجب سَتْرُ العَوْرة فى الصلاة ، وعلى موجِب الإشارة : زينة العبد بحضور الحضرة ، ولزوم الشُّدَّة ، واستدامة شهود الحقيقة .

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود ، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود ؛ فالعابد على الباب بنعت العبودية ، والعارف على البساط بحكم الحرية . وشتَّان بين عبدٍ وعبد !

قوله جل ذكره : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تُسْرِفوا إنَّه لا يحبُّ المسرفين ﴾

الإسراف ما تناولته لكَ ولو بقدر سمسمة .

ويقال الإسراف هو التعدى عن حدِّ الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظًّا بأى وجهٍ كان .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّم زينةَ اللهِ التى أخرج لعباده والطيبات مِنَ الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفَصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمون ﴾

الإشارة منها إلى زينة السرائر ؛ فزينة العابدين آثار التوفيق ، وزينة الواجدين أنوار التحقيق ، وزينة القاصدين ترك العادة ، وزينة العابدين حسن العبادة .

ويقال زينةُ النفوس صدارُ الخدمة ، وزينة القلوب حفظ الحرمة ، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة .

ويقال زينة اللسان الذكر وزينة القلب الشكر .

ويقال زينة الظاهر السجود وزينة الباطن الشهود .

ويقال زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات ، وزينة القلوب دوام المواصلة من حيث المشاهدات .

ومعنى قوله : « قل من حرم زينة الله التى . . . . » يعنى إن الله لم يمنع هذه الزينة عمن تعرض لوجدانها ، فمن تصدى لطلبها فهى مباحة له من غير تأخير قصود .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيِّباتِ مِنَ الرِّزق ﴾

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه ، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى .

ويقال أرزاق المريدين إلهام ذكر الله ، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّما حرَّم ربى الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطَن والإثمَ والبَغْىَ بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾

ما ظهر منها الزَّلَّةُ ، وما بطن منها الغفلة .

ويقال ما ظهر منها كان بفسيان الشريعة ، وما بطن بإشارة الحقيقة .

ويقال لقوم تركُ الرخص يكون علة ، والأَوْلى بهم والأفضل لهم الأخذ به . وقوم لو ركنوا إلى الرُّخص لقامت عليهم القيامة .

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة أو سِنَّة .

ويقال فاحشة الأحبابِ الصبر على المحبوب(1)

---

(1) لأنهم عندئذ يستطيعون الصبر بعيداً عن رضا محبوبهم عزَّ وجلَّ . (الرسالة ص ١٦٢)

ويقال فاحشةُ الأحبابِ أن تبقى حيّاً وقد منيت بالفراق ، قال قائلهم :

لا عيشَ بعد فراقهم هذا هو الخطب الأَجلْ

ويقال فاحشة قومٍ أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق ، قال قائلهم :

يا قُرَّةَ العين سَلْ عينى هل اكتحلت بمنظر حسنٍ مذ غبت عن عينى ؟

ويقال فاحشةُ قومٍ أنْ تبقى لهم قطرةٌ من الدمع ولم يسكبوها للفرقة ، أو يبقى لهم نَفَسٌ لم يَتَنَفَّسُوا به فى حسرة ، وفى معناه أنشدوا :

لئن بقيَتْ فى العين منِّى دمعةٌ فإنى إذاً فى العاشقين دخيلُ

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلِّ أُمَّةٍ أَجلٌ فإذا جاء أجلهُم لا يستأخِرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾

لكلٍّ قومٍ مدةٌ مضروبةٌ ، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة ؛ فلنعمةِ المُترَفين مُدَّةٌ ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشِّدَّة ، ولمحنةِ المستضعفين مدةٌ فإذا انقضت تلك المدة زالت تلك الشدة .

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة ، فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدم إمّا يأْتينَّكم رُسُلٌ منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

إذا أتاكم الرُّسُلُ فلا تركنوا إلى مجوزاتِ الظنون ، واحملوا الأمرَ على الجِدِّ فإنَّا — مع استغنائنا عن الأغيار ، وتَقَدُّسِنا عن المنافع والمضار — نُطَالِبُ بالقليل والكثير ، ونحاسِبُ على النقير والقطمير .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

مَنْ قَابَلَ ربوبيتَنا بالجحْدِ ، وحكمنا بالرد ، لَقِيَ الهوانَ ، وقاسى الآلام والأحزان ، ثم العَجْزُ يلجئه إلى الخنوع ، ولكن بعد ألا ينفع ولا يسمع[1]

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتابِ حتى إذا جاءتهم رُسُلُنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تَدْعُون من دون الله ؟ قالوا ضَلُّوا عنا ، وشَهِدوا على أنفُسِهم أنهم كانوا كافرين ﴾

يصيبهم من الكتاب ما سبق لهم به الحكم ، فمن جرى بسعادته الحكمُ وقع عليه رقم السعادة ، ومن سبق بشقاوته الحكمُ حُقّ عليه عَلَمُ الشقاوة .

ويقال من سبقت له قسمة السعادة فلو وقع فى قَعْرِ الَّلظى تداركته العنايةُ وأخرجته الرحمةُ ، ومَنْ سَبَقَتْ له قسمةُ الشقاوةِ .. فلو نزل الفراديس تداركته السخطة وأخرجته اللعنة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ادخلوا فى أُمَمٍ قد خَلَتْ من قبلكم مِّنَ الجنِّ والإنسِ فى النار كُلَّما دَخلتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أختها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت

(١) توضح هذه العبارة فى ضوء ما سيرد بعد قليل هكذا : (ولكن بعد الا ينفعهم بكاء ولا يسمع لهم دعاء) .

أُخراهم لأُولاهم رَبَّنا هؤلاء أضلونا فآتِهِمْ عذاباً ضعفاً من النارِ ، قال لكلٍ ضِعْفٌ ولكن لَّا تعلمون ✽ وقالت أولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكسِبُون ﴾

آثار إعراض الحق عنهم أورثتْ لهم وحشةَ الوقت ؛ تبرَّم بعضُهم ببعض ، وضاق كلُّ واحدٍ منهم عن كل شيء حتى عن نفسه ، فدعا بعضهم على بعض ، وتبرَّأ بعضهم من بعض ، وكذلك صفة المطرودين .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كَذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماء ولا يدخلون الجنَّة حتى يَلِجَ الجملُ فى سَمِّ الخياط وكذلك نجزى المجرمين ✽ لهم من جهنم مهاد ﴾

فلا دعاؤهم يُسمَع ، ولا بكاؤهم ينفع ، ولا بلاؤهم يكشف ، ولا عناؤهم يُرْفَع .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾

كما أحاطت العقوبات بهم فى الدنيا فَتَدَنَّس بالغفلة باطنُهم ، وتلوَّثَ بالزَّلة ظاهرهم[1] ، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم ؛ فَمَنْ فوقهم عذاب ومن تحتهم عذاب ، وكذلك من جوانبهم فى القلب من ضيق العيش واستيلاء الوحشة ما يفى ويزيد على الكل .

(١) نذكِّر أن القشيرى منذ قليل أوضح أن (ما ظهر من الفواحش هى الزلة وما بطن منها هى الغفلة)

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات
لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا أولئك
أصحاب الجنَّة هم فيها خالدون ﴾

رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة العمل فيسَّرنا عليهم الطاعاتِ بحسن التوفيق ، وخَفَّفْنَا عنهم العباداتِ بتقليل التكليف .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَزَعْنا ما فى صدورهم من غِلٍّ ، تجرى من تحتهم الأنهار ﴾

طهرنا قلوبهم من كل غش ، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة . وطَهَّرَ قلوب العارفين من كل حظ وعلاقة ، كما طهَّر قلوب الزاهدين عن كل رغبة ومُنْية ، وطهَّر قلوب العابدين عن كل تهمة وشهوة ، وطهَّر قلوب المحبين عن محبة كل مخلوق وعن غل الصدر — كل واحد على قدر رتبته .

ويقال لمَّا خَلَق الجنة وَكَلَ ترتيبها إلى رضوان ، والعرش ولى حفظه إلى الجملة[1] ، والكعبة سلَّم مفتاحها إلى بنى شيبة ، وأمَّا تطهير صدور المؤمنين فتولاَّه بنفسه .

وقال : « ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ » .

ويقال إذا كان نزع الغل من الصدور مِنْ قِبَله فلا محلّ للغرم الذى لزمهم بسبب الخصوم حيث كان منه سبحانه وجه أدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا
وما كُنَّا لنَهتدىَ لولا أن هدانا الله
لقد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحق ﴾

فى قولهم اعترافٌ منهم وإقرارٌ بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطيات،

---

(١) هل المقصود بها جملة الملائكة إشارة إلى قوله تعالى : « والملائكة من حول العرش يسبحون بحمد ربهم . . . » ؟

وعظيم تلك الرتب والمقامات بجهدهم واستحقاق فعلهم ، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف .

قوله جل ذكره : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾

تسكينٌ لقلوبهم ، وتطييبٌ لهم ، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوبة بالتقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النارِ
أن قد وجدنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حقاً
فهل وَجَدتُم ما وَعَدَ ربُّكم حقاً ؟
قالوا : نعم ، فأذَّنَ مُؤذِّنٌ بينهم أن
لَّعنَةُ اللهِ على الظالمين * الذين
يَصُدُّون عن سبيل الله ويبغونها
عِوَجاً وهم بالآخرةِ كافرون ﴾

اعترف أهل النار بحقيقة الدِّين ، وأقروا بسوء ما عملوا ، ولكن حين لم ينفعهم إقرارٌ بحالٍ من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وبينهما حِجابٌ ﴾

ذلك الحجاب الذى بينهما حصل من الحجاب السابق ؛ لمَّا حُجِبوا فى الابتداء[1] فى سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبوا فى الانتهاء عما خُصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال حجاب وأى حجاب ! لا يُرفَع بحيلة ولا تنفع معه وسيلة .

حجابٌ سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرْم .

---

(١) وردت فى (الابتداع) والصواب أن سابق القسمة فى (الابتداء) قبل الطاعة والجرم — كما سيأتى بعد قليل ، وكما نعرف من مذهب القشيرى فى هذا الخصوص .

قوله جل ذكره: ﴿وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم﴾

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم، ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم

ويقال يعرفونهم غداً بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار القرب، وآخرون موضومون[1] بأنوار الرد والحجب.

قوله جل ذكره: ﴿ونادَوْا أصحابَ الجنّةِ أن سلامٌ عليكم لم يَدْخُلُوها وهم يطمعون﴾

سلِمُوا اليومَ عن النكرة والجحود، وأُكرِموا بالعرفان والتوحيد.

وسلموا غداً من فنون الوعيد، وسَعِدُوا بلطائف المزيد. وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب مالم يَسْمُ إليه طَرْفُ تأميلهم، ولم يُحِطْ بتفصيله كُنْهُ عقولهم.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تِلقاءَ أصحابِ النّارِ قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

إنما يصرف أبصارهم اليومَ تقديراً عليهم عظيم المِنّة التي بها نجاتُهم، فيزيدون في الاستغاثة وصدق الابتهال، فتكمل بهم العارفة[2] بإدامة مالاطفهم به من الإيواء والحفظ.

قوله جل ذكره: ﴿ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جَمْعُكُم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاءِ الذين أقسمتم لا ينالُهُمُ اللهُ برحمةٍ ادخلوا الجنةَ لاخوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾

---

(١) قال أحمد بن عطاء: (الوسم يظهر على المقبولين والمطرودين) اللمع ص ٤٢٧.

(٢) العارفة هي الفضل والمعروف والمنة.

ذلك مايرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد ، وهي مما لايخفى على ذي عينين، فيقولون لهم : هل يُغني عنكم ماركنتم إليه من أباطيلكم ، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم ، وباطل تأويلكم ؟ فشاهِدوا — اليومَ — تخصيصَ الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم ، وانظروا هل يغنى عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ أنْ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللهُ قالوا إنّ اللهَ حرّمَهُما على الكافرين * الذين اتخذوا دينَهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياةالدنيا فاليوم ننساهم كما نَسُوا لِقَاء يومِهِم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾

دلّت الآية على أن من أواخر مايبقى على الإنسان الأكلَ والشربَ؛ فإنهم في تلك العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوعُ والعطش حتى يتضرعون كلَّ ذلك التضرع ؛ فيطلبون شربة ماء أو لقمة طعام وهم في غاية الآلام ، والعادة — اليومَ — أن من كان في ألم شديد لا يأكل ولا يشرب ، وهذا شديد .

ثم أبْصِرْ كيف لا يسقيهم قطرةً — مع استغنائه عن تعذيبهم ، وقدرتِه على أن يعطيهم مايريدون ! ولكنه قهر الربوبية وعِـزُّ الأحدية ، وأنه فَعَّالٌ لِما يريد . فكما لم يرزقهم — اليومَ — من عرفانه ذرة ، لايسقيهم غداً في تلك الأحوال قطرة ، وفي معناه أنشدوا :

وأقسَمْنَ لا يسقيننا —الدهرَ— قطرةً ولو فُجِّرت من أرضهن بحورُ

ويقال إنما يطلبون الماء ليبكوا به بعدما نفدت دموعهم ، وفي هذا المعنى قيل :

يا نازحاً نَزَفَتْ دمعى قطيعتُه هَبْ لى من الدمعِ ما أبكى عليكَ به.

وفي هذا المعنى أنشدوا .

جرف البكاء دموعَ عينك فاستعِرْ عيناً لغيرك دمعها مدرار

مَنْ ذا يُعيرك عينه تبكى بها أرأيتَ عيناً للبكاء تُعار ؟

قوله جل ذكره : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً
وغرَّتهم الحياةُ الدنيا فاليومَ ننساهم
كما نسُوا لقاء يومهم هذا وما كانوا
بآياتنا يجحدون ﴾ .

كما تركوا أمره وضيَّعوه تركهم فى العقوبة ، ولا (. . .)[1] فيما يشكون ، فتأتى عليهم الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا بَرْد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرامٌ بخطاب ذلك جزاء لِمَنْ لم يعرف قَدْرَ الوصلة فى أوقات المهلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جئناهم بكتابٍ فصَّلناه على علمٍ هدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قابلوه بالتصديق وصاحَبُوه بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد ، ونالوا الضياء بقرب الوداد ، ووصلوا فى الدنيا والعقبى إلى جميل المراد ، ولكنه — سبحانه — أبَى القسمة فى نصيبهم إلا الشقْوة .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا تأويلَه يومَ
يأتى تأويلُه يقول الذين نَسُوه من
قَبْلُ قد جاءت رُسُلُ ربنا بالحقِّ
فهل لَّنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرَدُّ
فنعملَ غير الذى كُنَّا نعملُ
قد خَسِروا أنفُسَهم وضَلَّ عنهم
ما كانوا يفترون ﴾

إذا كُشِفَ جلالُ الغيب ، وانتفت عن قلوبهم أغطيةُ الرِّيْب ، فلا بكاء لهم يَنْفَع ، ولا دعاء منهم يُسْمَع ، ولا شكوى عنهم تُرْفَع ، ولا بلوى من دونهم تُقْطَع

---

(١) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن ربَّكم اللهُ الذى خَلقَ السمواتِ
والأرضَ فى ستَّةِ أيامٍ ثم استوى
على العرشِ يُغشِى الليلَ النهارَ يطلبه
حَثِيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ
مُسخراتٍ بأمره ألاَ له الخلقُ والأمرُ
تبارك اللهُ رَبُّ العالمين ﴾

تعرّف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهى أفعاله ، وتعرّف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التى هى أفضاله وإقباله ، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية[1] التى هى جماله وجلاله ، فشتان بين قوم وقوم !

ثم كما يدخل فى الظاهر الليلَ على النهار والنهارَ على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط والبسط على القبض. ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب : فَمِنْ عبد أحواله أجمع قبض ، ومن عبدٍ أحواله أجمع بسط ، ومن عبد يكون مرة بعين القبض ومرةً بعين البسط كما أن بعض أقطار العالَم فيها نهار بلا ليل ، وفى بعضها ليل بلا نهار ، وفى بعضها ليل يدخل على نهار ونهار يدخل على ليل .

« ألا له الخلق والأمر » : فمنه الخير والشر ، والنفع والضر ، فإن له الخلْقَ والأمر .

« تبارك الله رب العالمين » هذه الكلمة مجمع الدعاء لاشتمالها على إفادة معنى قِدَمِه ودوامِ ثبوته من حيث يُقال بَرَكَ الطيرُ على الماء .

وأفادت معنى جلاله الذى هو استحقاقه لنعوت العزّ لأنه قد تبارك أى تعظّم . وأشارت إلى إسداد النِّعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البَرَكة هى الزيادة فهى مجمع الثناء والمدح للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ادعُوا ربَّكم تضرعا وخُفيةً

---

(١) لاحظ حرص القشيرى الشديد حين يقرر أن أقصى حالات المشاهدة لا تكون مشاهدة الذات — فقد جلت الصمدية أن يستشرف من عهود ذاتها عبد ، إنما هى مشاهدة نعوت الذات . الجمال والجلال .

إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا
فى الأرض بَعْدَ إصْلاَحِهاَ وادعوه
خوفاً وطمعاً ﴾

الأمر بالدعاء إذنٌ — فى التسلّى — لأرباب المحنة ، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود المأمول استروحوا إلى روْح المناجاة فى حال الدعاء ، والدعاء نزهةٌ لأرباب الحوائج ، وراحةٌ لأصحاب المطالبات ، ومعجل من الأُنس بما (. . . .)[1] إلى القلب عاجل التقريب . وما أخلص عبدٌ فى دعائه إلا رَوَّحَ — سبحانه — فى الوقت قلبَه .

ويقال علَّمهم آداب الدعاء حيث قال : « تضرعا وخفية » وهذا أدب الدعاء ، أن يَدْعُوا بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطرار . ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه جعل إمساكَكَ عن دعائه — الذى لابد منه — اعتداء منك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُفْسِدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾

من الإفساد بعد الإصلاح إهمالُ النفس عن المجاهدات بخلع عذارها حتى تتبع هواها بعدما كَبَحْتَ لجامَها مدةً عن العَدْوِ فى ميدان الخلاف ، ومن ذلك إرسالُ القلب فى أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة ، ومن ذلك الرجوعُ إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق ، ومن ذلك استشعارُ محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بألا تحب سواه ، ومن ذلك الجنوحُ إلى تتبع الرُّخص فى طريق الطلب بعد حمل النَّفْس على ملازمة الأَوْلى والأشق ، ومن ذلك الانحطاطُ بحَظٍّ إلى طلبِ مقامٍ منه أو إكرام ، بعد القيام معه بترك كل نصيب

وفى الجملة : الرجوعُ من الأعلى إلى الأدنى إفسادٌ فى الأرض بعد الإصلاح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين ﴾

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً ، فالأول العابدون والثانى العاصون[2]

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربه ولا ناسياً لحقِّه .

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق .

(١) مشتبهة (٢) تأمل كيف يفسح الصوفية صدورهم ويفتحون أبواب الأمل أمام العصاة

ويقال المحسن الذى لم يخرج (. . . .)[1] عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشطر كلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى يرسل الرياحَ بُشرى
بين يدى رحمته ﴾

تباشير القرب تتقدم فيتأدى نسيمُه إلى مشام الأسرار ، وكذلك آثار الإعراض تتقدم فتوجد ظلمة القبض فى الباطن ، فظلُّ الوحشة يتقدمها ، ونسيم الوصلة بعدها ، وفى قريبٍ منه قال قائلهم :

ولقد تشمَّمْتُ القضاء لحاجتى فإذا له من راحتيك نسيم

قوله جل ذكره : ﴿ حتىٰ إذا أقلّتْ سحاباً ثِقالاً
سُقْناه لبلدٍ ميِّتٍ فأنزلنا به الماء
فأخرجنا به مِن كل الثمرات كذلك
نخرج الموتى لعلكم تذكَّرون ﴾

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبَرِّحُ به الوجد ويَنْحلُ به الجسم ، بل يُبْطِلُ كلَّه البعدُ ، فيأتيه القُرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً ، ويصير دارس حاله عقيب السقوط نديا ، كما قال بعضهم :

كُنّا كمن أُلْبِسَ أكفانه وقُرِّبَ النعشُ من المَلحد
فجالتْ الروحُ فى جسمه وردَّه الوصلُ إلى المولد

قوله جل ذكره : ﴿ والبلد الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نباتُه بإذن
ربِّه والذى خبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِداً
كذلك نُصَرِّفُ الآياتِ لقومٍ
يشكرون ﴾

إذا زكا الأصلُ نما الفرع ، وإنْ خبُثَ الجوهر لم يَطبْ ما تَحلّل منه ، وإن طاب العنصر

---

(١) مشتبهة .

فالجزء يحا كي أصلَه ، والأسِرَّةُ تدل على السريرة ، فمَنْ صفا باطنُ قلبه زكا ظاهرُ فعله ، ومن كان بالعكس فحاله بالضد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أَرسلنا نوحاً إلى قومه فقالَ ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غَيْرُه ، إنى أخاف عليكم عذابَ يوم عظيم ﴾

بَلَّغَ الرسالةَ فلم ينجعْ فيهم ما أظهر من الآلاء ، لأنَّ محرومَ القسمة لا ينفعه مجهودُ الحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين * قال ياقومِ ليس بى ضلالة ولكنى رسولٌ مِّن ربِّ العالمين ﴾

قوله « ليس بِى ضلالة » : نسبوا نوحاً — عليه السلام — إلى الضلالة ، فتولىَّ إجابتهم بنفسه فقال « ياقوم ليس بِى ضلالة » ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — نُسِبَ إليه فتولىَّ الحق — سبحانه — الردَّ عنه فقال : « ما ضلَّ صاحبُكم وما غوى »[1] فشتّان بين مَن دافع عن نفسه ، وبين مَنْ دافَع عنه ونفى عنه ربُّه[2] !

قوله جل ذكره : ﴿ أُبَلِّغُكم رسالاتِ ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

إنى أعلم أنى وإنْ بالغت فى تبليغ الرسالة فمَنْ سبقت له القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحى ، ولا يُؤَثِّرُ فيه قولى ، فمَنْ أسقطته القسمةُ لم تنعشه النصيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أن جاءكم ذِكْرٌ مِّن ربِّكم

---

(١) آية ٢ سورة النجم .

(٢) من عادة القشيرى أن يلتمس نوعاً من المقارنة بين المصطفى صلوات الله عليه وبين سائر الأنبياء عليهم السلام ليظهر علو مقامه ورفعة مرتبته بينهم .

على رجلٍ منكم لِيُنْذِرَكُمْ ولتتقوا
ولعلكم تُرحمون ﴾

عجبوا مِنْ كَوْنِ شخص رسول الله ، ولم يتعجبوا من كون الصنم شريكاً لله ، هذا فَرْطُ الجهالة وغاية الغباء !

قوله جل ذكره : ﴿ فكَذَّبوه فأنجيناه والذين معه
فى الفُلْكِ وأغرقنا الذين كذَّبوا
بآياتنا إنَّهم كانوا قوماً عَمِين ﴾

تسمر بلوا غِبَّ التكذيب لمَّا ذاقوا طعم العقوبة ، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا إلى ما أمّلوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال ياقومِ
اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره
أفلا تتقون * قال الملأُ الذين كفروا
مِن قومه إنا لنراك فى سفاهةٍ
وإنَّا لنظنك من الكاذبين * قال
ياقوم ليس بى سفاهةٌ ولكنى رسولٌ
من ربِّ العالمين * أبلغكم رسالات
ربى وأنا لكم ناصحٌ أمين *
أوَعجِبتم أن جاءكم ذِكرٌ مِن ربكم
على رجلٍ منكم لينذركم ﴾

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم ، فوقعوا فى وهدتهم ، ومُنُوا بمثل حالتهم . فلا خيرَ فيمن آثر هواه على رضاءِ الله ، ولا رَبِحَ مَنْ قَدَّم هواه على حقِّ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء منْ بعد
قومِ نوحٍ ﴾

جعل الله الخلقَ بعضهم خَلَفاً عن بعض، فلا يُفْنِي فوجاً منهم من جنسٍ إلا أقام فوجاً منهم مِنْ ذلك الجنس . فأهل الغفلة إذا انقرضوا خَلَفَ عنهم قوم ، وأهل الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم ، ولا ينبغي للعبد أن يسمو طَرْفُ[1] تأميله إلى محل الأكابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله ، فما لم تنتهِ نوبةُ أولئك لا تنتهي النوبة إلى هؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وزادكم في الخلق بَسْطَةً ﴾

كما زاد قوماً على من تقدمهم فى بسطة الخَلْقِ زاد قوماً على من تقدمهم فى بسطة الخُلُق ، وكما أوقع التفاوتَ بين شخصٍ وشخص فيما يعود إلى المبانى أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعانى .

قوله جل ذكره : ﴿ فاذكروا آلاء اللهِ لعلكم تفلحون ﴾

النَّعماء عام ، والآلاء خاص ، فتلك تتضمن ترويح الظواهر ، وهــذه تتضمن التلويح فى السرائر ، تلك بالترويح بوجود المبار ، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبدَ اللهَ وحدَه ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا فَأْتِنا بما تَعِدنا إن كُنتَ مِنَ الصَّادقين ﴾

طاحوا فى أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً فى ساحات التوحيد ، فَشَقَّ عليهم الإعراضُ عن الأغيار ، وفى معناه قال قائلهم :

أراكَ بقيةً من قوم موسى   فهم لا يصبرون على طعام

ويقال شخص لا يُخْرِجُه من غش التفرقة ، وشخص لا يحيد لحظةً عن سَنَنِ التوحيد [فهو لا يعبد إلا واحداً ، وكما لا يعبد إلا واحداً لا يشهد إلا واحداً ، قال قائلهم :

لا يهتدى قلبى إلى غيركم   لأنه سُدَّ عليه الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد وَقَعَ عليكم مِّن رَبِّكم

(١) وردت (طرق) بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

رِجْسٌ وغَضَبٌ أتجادلوننى فى أسماء
سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها
من سلطان فانتظروا إنّى معكم من
المُنتَظِرين ﴾

إذا أراد اللهُ هوانَ عبدٍ طَرَحَهَ فى مغازات التفرقة ؛ وإنَّ من علامات غضبه وإعراضه ردَّ العبد إلى شهود الأغيار ، وتغريقَه إياه فى بحار الظنون ، إذ لا تحصيل للأغيار فى معنى الإثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة مِنَّا وقطعنا
دابِرَ الذين كَذَّبوا بآياتنا وما كانوا
مؤمنين ﴾

لا رتبةَ فوق رتبة النبوة ، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة .

وأخبر — سبحانه — أنه نجَّى هوداً برحمته ، وكذلك نجَّى الذين آمنوا معه برحمته ، ليُعْلَمَ أنَّ النجاةَ لا تكون باستحقاق العمل ، وإنما تكون بابتداء فضلٍ من الله ورحمته ؛ فما نجا مَنْ نجا إلا بفضل الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا قال يا قوم
اعبدوا اللهَ مالكم مِنْ إلهٍ غيره
قد جاءتكم بيِّنَةٌ مِن ربِّكم هذه
ناقةُ اللهِ لكم آيةً فذروها تأكل
فى أرضِ اللهِ ولا تمسُّوها بسوء
فيأخذَكُمْ عذابٌ أليم ﴾

غاير الحقُّ — سبحانه — بين الرسل من حيث الشرائع ، وجمع بينهم فى التوحيد ؛ فالشرائع[1]] التى هى العبادات مختلفة ، ولكن الكل مأمورون بالتوحيد على وجه واحد.

(١) كل هذه المساحة فيما بين القوسين موجودة فى الهامش بخط دقيق جداً .

ثم أخبر عن إمضاء سُنَّتِه تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام ، وإمهال أُمَمِهم ريثما ينظرون فى معجزات الرسل .

ثم أخبر عما دَرَجُوا عليه فىْ مقابلتهم الرسل بالتكذيب تسليةً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله — فيما كان يقاسى من بلاء قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ جَعَلَكُمْ خلفاء من بعد
عادٍ وبوَّأكُم فى الأرضِ تتخذون
من سهولها قصوراً وتنحتون الجبالَ
بُيُوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا
فى الأرض مفسدين ﴾

أزاح علتهم فى بسط الدلالة ، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتُهم .. فلا الدليلَ تأمَّلُوه ، ولا السبيل لازموه ، ولا النعمة عرفوا قدرها ، ولا المِنَّةَ قدَّموا شكرها ، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ الذين استكبروا من
قومه للذين استُضْعِفوا لمن آمن منهم
أتعلمون أن صالحاً مُرْسَلٌ مِّن ربِّه
قالوا إنا بما أُرْسِلَ به مؤمنون * قال
الذين استكبروا إنَّا بالذى آمنتم به
كافرون * فعقروا الناقة وعَتَوْا عن
أمْرِ ربِّهم وقالوا ياصالح ائتنا
بما تَعِدُنا إن كنتَ من المرسَلين *
فأخَذَتْهم الرَّجفةُ فأصبحوا فى دارِهم
جاثمين * فتولَّى عنهم وقال يا قوم
لقد أبلغتُكم رسالةَ ربى و نصحتُ لكم
ولكن لَّا تحبون النَّاصحين ﴾

أجرى الله — سبحانه — سُنَّتَهُ ألا يخص بأفضاله، وجميل صنعه وإقباله — في الغالب من عباده — إلا مَنْ يسمو إليه طَرْفُهُ بالإجلال، وألاّ يوضحَ له قَدْرَه بين الأضراب والأشكال؛ فأنصار كلّ نبي إنما هم ضعفاء وقته، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاحتقار، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام، ولا كما يعتقد فيهم الأنام، بل الجواهر مستورة في معادنها، وقيمة المَحالّ بساكنيها، قال قائلهم:

وما ضرَّ نصلَ السيف إخلاقُ غمده ... إذا كان عَضْباً حيث وجهته فرى

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه»[1]

قوله تعالى: «ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين» الحيلة تدعو إلى وفاق الهوى؛ فتستثقل النفسُ قولَ الناصحين، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم العائبون، قال قائلهم:

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ ... وقد يستفيد البغضة المتنصح

قوله جل ذكره: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشةَ ماسبقكم بها من أحدٍ من العالمين * إنكم لتأتون الرجالَ شهوةً من دون النساءِ بل أنتم قومٌ مسرفون * وما كان جوابَ قومِهِ إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهرون * فأنجيناه وأهلَه إلا امرأتَه كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبةُ المجرمين﴾

(1) في رواية الترمذي (كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء ابن مالك). الجامع الصغير ص ٢٣٧

أباح الحقُّ — سبحانه — فى الشرع ما أزاح به العذر ، فمن تخطَّ هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوى استقبل هوانه ، واستوجب إذلاله ، واستجلب — باختياره — صغره .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى مدين أخاهم شُعيباً قال يا قوم
اعبدوا الله مالكم من إله غيره
قد جاءتكم بَيِّنَةٌ من ربكم فأوْفوا
الكيلَ والميزان ولاتبخسوا النَّاسَ
أشياءهم ولا تُفْسِدُوا فى الأرضِ بعد
إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم
مؤمنين ﴾

خسَّت هِمَمُ قومِ شعيبٍ فقنعوا بالتطفيف فى المكيال والميزان عند معاملاتهم ، ثم إن الحق — سبحانه — لم يُساهِلْهم فى ذلك ليُعْلَمَ أنَّ الأقدار ليست من حيث الأخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقعدوا بكلِّ صِراطٍ توعِدون
وتَصُدُّون عن سبيل اللهِ مَنْ آمن به
وتبغونها عِوَجاً ﴾

من المعاصى مالا يكون لازماً لصاحبه وحدَه بل يكون متعدِّياً عنه إلى غيره . ثم بِقَدْرِ الأثر فى التعدِّى يحصل الضر للمبتدىء[1]

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركُمْ
وانظروا كيف كان عاقبةُ المُفْسِدين *
وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى
أُرْسِلْتُ به وطائفةٌ لم يؤمنوا

---

(١) مثلما يحدث فى حالة البدعة ، فصاحب البدعة يحمل وزر ابتداعه ووزر من اقتدى به (انظر رأى القشيرى فى كتاب التحبير تحت « البديع ») وهنا قد تكون (المبتدى) أى البادىء بالابتداع وقد تكون (المقتدى) ويقصد بها من اقتدى به ، فكلاهما يناله الضر هذا جزاء اتباعه وذاك لابتداعه .

﴿فاصبروا حتى يحكمَ اللهُ بيننا وهو
خير الحاكمين﴾

مَنّ عليهم بتكثير العدد لأن بالتناصر والتعاون تمشى الأمور ويحصل المُراد .

ويقال كما أن كل أمرٍ بالأعوان والأنصار (خيراً أو شراً ، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار في الخير ، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان)[1] في الشر .

قوله جل ذكره : ﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومه
لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيبُ والذين آمنوا
معك من قريتنا أوْلتَعُودُنَّ في مِلّتنا
قال أوَ لَوْ كُنّا كارهين﴾

كما أن (أهل)[2] الخير لا يميلون إلا إلى أشكالهم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم ، والأوحد في بابه مَنْ بايَنَ نهج أضرابه .

قوله جل ذكره : ﴿وما يكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن
يشاء اللهُ ربُّنا وسِعَ ربُّنا كلَّ شيء
علماً على الله توكّلنا ، ربَّنا افتحْ
بيننا وبين قومنا بالحقِّ وأنت خير
الفاتحين﴾

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا : « قد افترينا على الله كذبا إن عُدْنا في ملتكم » ، ثم أقروا بالشكر حيث قالوا : « بعد إذ نجانا الله منها » ، ثم تبرأوا عن حولهم وقوتهم حيث قالوا : « ومايكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا » يعني إنْ يُلْبِسنا لِباسَ الخذلان نُرَدُّ إلى الصغر والهوان .

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا : « على الله توكّلنا » أي به وَثِقْنا ، ومنه الخيرَ أمّلنا .

---

(١) ما بين القوسين موجود في الهامش أثبتناه في موضعه من المتن .

(٢) وضعنا (أهل) ليتضح المعنى وهي غير موجودة في المتن .

ثم فوضوا أمورهم إلى الله فقالوا : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » فتداركهم الحقُّ — سبحانه — عند ذلك بجميل العِصْمة وحسن الكفاية [1]

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الملأُ الذين كفروا مِن قومِهِ
لَئِن اتبعتم شعيباً إنَّكم إذاً
لخاسِرون * فأخذَتْهم الرَّجْفَةُ
فأصبحوا في دارِهم جاثمين ﴾

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيِّهم ، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته ، وكانوا مخطئين في حكمهم ، مبطلين في ظنهم ، فعُلِمَ أنَّ كل نصيحة لا يجب قبولها ، وكل إشارة [2] لا يَحْسُنُ اتباعُها .

قوله تعالى : « الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها » كانت لهم غلبتهم في وقتهم ، ولكن لما اندرست أيامُهم سَقَطَ صِيتُهم ، و (خمد)[3] ذكرهم ، وانقشع سحابُ مَنْ توَهَّمَ أنَّ منهم شيئا .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين كذَّبوا شُعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾

الحقُّ غالبٌ في كل أمر ، والباطل زاهق بكل وصف ، وإذا كانت العِزَّةُ نعتَ مَنْ هو أزليُّ الوجود ، وكان الجلال حقَّ مَنْ هو المَلِك فأى أثر للكثرة مع القدرة ؟ وأى خطر للعلل مع الأزل ؟ ولقد أنشدوا في قريب من هذا :

استقبلني وسيفه مسلول ... وقال لي واحدنا معذول

قوله جل ذكره : ﴿ فتولَّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتُكم

---

(١) لاحظ من هذه الفقرة ترتيب السلوك : صحة العزم ثم الشكر ثم التبرى عن الحول والقوة ثم التوكل ثم التفويض .

(٢) إشارة هنا معناها مشورة أى نصيحة .

(٣) وردت (خمر) بالراء ، وقد صوبناها (خمد) ذكرهم وليس بمستبعد أن تكون (خمل) ذكرهم لخمود الذكر وخموله معنى متقارب .

رسالاتِ ربي ونصحتُ لكم فكيف
آسَى[1] على قومٍ كافرين ﴾

بيَّنَ أنه راعى حدَّ الأمر ؛ فإذا خرج عن عهدة التكليف فى التبليغ فما عليه من إقرارهم أو إنكارهم ، من توحيدهم أو جحودهم ؛ إنْ أحسنوا فالميراثُ الجميلُ لهم ، وإن أساءوا فالضررُ بالتألم عائدٌ عليهم ، ومَالِكُ الأعيان أولى بها من الأغيار ، فالخَلْقُ خَلْقُه والمُلْكُ مُلْكُه ؛ إن شاء هداهم ، وإن شاء أغواهم . فلا تأسُّفَ على نفيٍ وفقد ، ولا أثر من كَوْنٍ ووجود[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا فى قريةٍ مِّن نبيٍّ
إلاَّ أخذْنَا أهلَها بالبأساء والضَّراء
لعلَّهم يضرَّعون * ثُمَّ بَدَّلْنَا
مكان السيئةِ الحسنةَ حتى عَفَوا
وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراءُ والسَّراءُ
فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾

حرَّكهم بالبلاء الأهْوَنِ تحذيراً من البلاء الأصعب ، فإذا تمادوا فى غيهم ، ولم ينتبهوا من غفلتهم مَدَّ عليهم ظلالَ الاستدراجِ ، ووسَّع عليهم أسبابَ التفرقة مكراً بهم فى الحال ، فإذا وَطَّنُوا — على مساعدة الدنيا — قلوبَهم ، وركنوا إلى ما سوَّلت لهم من امتدادها ، أبرز لهم من مكامن التقدير ما نَغَّصَ عليهم طيبَ الحياة ، واندق بغتةً عُنُقُ السرور ، وشَرِقُوا بما كانوا ينهلون من كاسات المنى ، فتبدَّل ضياء نهارهم بِسُدْفَةِ الوحشة ، وتكدَّر صافى مشربهم بيد النوائب ، كما سبقت به القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنَّ أهل القُرى آمنوا واتقوا

---

(١) اخطأ الناسخ إذ كتبها (عسى) بالعين .

(٢) ربما كان (ووَجْد) فالوجد يقابل الفقد ، ولكن حيث هو هنا لا يتحدث عن طائفة الصوفية ، وإنما يتحدث عموماً ، فالوجود مرادف للكون .

لفتحنا عليهم بركاتٍ مِنَ السماء
والأرض ، ولكن كذَّبوا فأخذناهم
بما كانوا يكسبون * أفأمِنَ أهلُ
القُرى أن يأتيَهم بأسُنا بَياتاً
وهم نائمون ﴾

لو آمنوا بالله ، واتَّقُوا الشِّرْكَ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض بأسباب العطاء — ولكن[1] سَبَقَ بخلافه القضاء — وأبوابِ الرضاء ، والرضاء أتمُّ من العطاء .

ويقال ليست العِبْرة بالنعمة إنما العبرة بالبركة في النعمة ، ولذا لم يَقُلْ أضعفنا لهم النعمة ولكنه قال : باركنا لهم فيما خوَّلنا .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَ أمِنَ أهلُ القرى أن يأتيَهم بأسُنا ضُحىً وهم يلعبون ﴾

أكثر ما ينزل البلاء ينزل فجأةً على غفلةٍ من أهله ، ويقال مَنْ حَذِرَ البيات لم يجدْ رَوْحَ الرُّقاد .

ويقال رُبَّ ليلةٍ مُفْتَتَحةٍ بالفَرَحِ مختتمةٌ (بالترح)[2] . ويقال رُبَّ يومٍ تطلع شمسه من أُوج السعادة قامت ظهيرته على قيام الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ أفأمِنوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرون ﴾

يقال مَنْ عرف علوَّ قدره — سبحانه — خشي خفيَّ مكره ، ومَنْ أمِنَ خفيَّ مكره نَسِيَ عظيم قَدْرِه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ للذين يرِثون الأرضَ

---

(١) وردت (وإن سبق . . .) وعند ذلك يضطرب السياق فوجدنا ان الأوفق ان تكون (ولكن سبق . . .) لأنهم في الآية كذبوا . . . ، ثم وضعنا الجملة المبدوءة بلكن بين علامتي جملة اعتراضية ، فانتظم السياق ، ونرجح ان ما صنعناه قريب من الأصل او هو الأصل .
(٢) وردت (بالطرح) بالطاء ، وهي خطأ من الناسخ فالترح ضد الفرح .

مِنْ بعدِ أهلها أن لو نشاء أصَبْناهُم
بذُنوبِهم ونطبعُ على قلوبِهم فَهُمْ
لا يَسْمعون ﴾

أوَ لا يعلم المغترون بطول سترنا أن لو أردنا لعجَّلنا لهم الانتقام ، أو بلغنا فيهم الاصطلام ، ثم لا ينفعهم ندم ، ولا يُشكَى عنهم ألم .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك القرى نَقُصُّ عليكَ مِنْ
أنبائها ولَقَدْ جاءَتْهم رُسُلُهم
بالبيِّنَاتِ فما كانوا ليؤمنوا
بما كَذَّبوا مِن قبلُ كذلك يطبع
اللهُ على قلوبِ الكافرين ﴾

سلكوا طريقاً واحداً فى التمرد ، واجتمعوا فى خط واحد فى الجحد والتَّبلُّد ؛ فلا للإيمان جَنَحُوا ، ولا عن العدوان رجعوا ، وكذلك صفة من سَبقَتْ بالشقاء قِسمتُه ، وحقت بالعذاب عليه كلِمتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما وجدنا لأكثرِهم مِّنْ عَهْد
وإن وَجدْنا أكثَرَهم لفاسقين ﴾

نجم فى الغدر طارِقُهم ، وأفَلَ من سماء الوفاء شارِقُهم ، فَعَدِمَ أكثرُهم رعاية العهد ، وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد .

ويقال : شكا مِنْ أكثرِهم إلى أقلِّهم ، فالأكثرون مَنْ ردَّتْهم القسمة ، والأقلون مَنْ قَبِلَتْهم الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا
إلى فرعونَ ومَلإِه فظلموا بها فانظر
كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾

لما انقرضت أيامُهم ، وتقَاصر عن بساط الإجابة إقدامُهم[1] بعث موسى نبيَّه ، وضمَّ

---

(١) ويجوز أن تكون (أقدامهم) فالقشيرى يستعمل وطء القَدَم البساط كثيراً

إليه هارون صفيَّه ، فقُوبِلا بالتكذيب والجحود ، فسلك بهم مسلك إخوانهم في التعذيب والتبعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من ربِّ العالمين * حقيقٌ عَلَى ألا أقولَ على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربِّكم فأرسِلْ معى بنى إسرائيل * قال إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأتِ بها إن كُنْتَ مِنَ الصادقين ﴾

الرجوعُ إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعبٌ شديد ، ولكنه لمَّا وَرَدَ الأمرُ قابله بحسن القبول ، فلما ترك اختيار نفسه أيّده الحق — سبحانه — بنور التأييد حتى شاهَدَ فرعونَ محواً في التقدير فقال : « حقيقٌ عَلَى ألا أقول على الله إلا الحق » فإذا لم يصح له أن يقول على الخلق ، فالخلق محوٌ فيما هو الوجود الأزلى فأىُّ سلطانٍ لآثار التفرقة في حقائق الجمع ؟

قوله : « قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إنْ كنتَ من الصادقين » : من المعلوم أن مجرَّد الدعوى لاحجة فيه ، ولكن إذا ظهر برهانٌ لم يبق غيرُ الانقياد لما هو الحق ، فَمَنْ استسلم (. . .)[1] ، ومَنْ جَحَدَ الحقائق بعد لوح البيان سقط سقوطا لا ينتعشَ .

قوله جل ذكره : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبينٌ ﴾

إنما أظهر له المعجزةَ مِنْ عَصاَه لطولِ (مقارنته)[2] إياها ، فالإنسانُ إلى ما ألِفَه أسكَنُ بقلبه . فلَمَّا رأى ما ظهر في العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام في الفرار لتحققه بأن ذلك من قهر الحقائق ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ السكونَ إلى شيء غِرَّةٌ وغفلةٌ (إيش)[3]

(١) لا بد ان كلمة هنا سقطت من الناسخ مثل (سلم) او (نجا) او نحوهما .
(٢) (مقارنته) هنا معناها مصاحبته لها بدليل قوله فيما بعد (إلى ما ألِفَه) .
(٣) (إيش) هذه كلمة دارجة استعملها القشيرى كثيراً في رسالته ومعناها (اى شيء) .

ما كان ، فإنَّ تقلب العبد فى قبْضِ القدرة ، وهو فى أسْرِ التقلُّب ، وليس للطمع فى الكوْن مساغٌ بحال .

قوله جل ذكره : ﴿ ونزَعَ يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾

العصا — وإنْ كانت معه من زمنٍ — فيَدُه أخص به لأنها عضو له ، فكاشَفَهَ أولاً(١) برَسْمٍ مِنْ وَسْمِه ثم أشهده من ذاته فى ذاته ما عَرَفَ أنه أوْلى به منه ، فلما رأى انقلابَ وصفٍ فى يده عَلِمَ أنه ليس بشىء من أمره بيده .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ من قومِ فرعونَ إنَّ هذا لساحرٌ عليم * يريد أن يُخرجَكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾

إذا أراد الله هوان عبدٍ لا يزيد الحقُّ حُجّةً إلا ويزيد لذلك المُبْطِل فيه شبهةً ؛ فكلّما زاد موسى — عليه السلام — فى إظهار للمعجزات ازدادوا حيرةً فى التأويلات .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أرْجِه وأخاه وأرْسِلْ فى المدائن حاشرين * يأتوك بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾ .

توَهَّمَ الناسُ أنهم بالتأخير ، وتقديم التدبير ، وبذل الجهد والتشمير يُغيِّرون شيئاً من التقدير بالتقديم أو بالتأخير ، ولم يعلموا أن القضاء غالبٌ ، وأنَّ الحكمَ سابقٌ ، وعند حلول الحكم فلا سلطانَ للعلم والفهم ، والتسرع(٢) والحِلْم . كلا ، بل هو الله الواحد القهار العلاّم .

---

(١) فى هذه الإشارة نلحظ تأثر القشيرى بالمكاشفة ، فالحق سبحانه يتجلى للعبد اولا بنعت من نعوت صفاته ثم يتجلى له بنعت من نعوت ذاته .

(٢) وردت (التشرع) حيث التبست علامة التضعيف التى على السين على الناسخ ، والتسرع مقبول فى السياق لأنه يقابل الحلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاء السَّحَرَةُ فِرعونَ قالوا إن
لنا لأجراً إن كنَّا نحن الغالبين *
قال نَعَمْ وإنكم لَمِنَ المقربين *
قالوا يا موسى إما أن تُلقِيَ وإمَّا أن
نكون نحن المُلْقِين * قال ألقُوا
فلما ألقَوْا سحروا أعين النَّاسِ
واسترهبوهم وجاءوا بِسحْرٍ عظيمٍ ﴾

ظنوا أنهم يَغلِبُون بما يسحرون ، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثيرسحرهم، وأنه لا يرد عنهم مازَوَّرُوه فى أنفسهم من فنون مكرهم فكادوا وكِيدَ لهم ، فهو كما قيل :

ورمانى بأسهم صائباتٍ وتعمدته بسهم فطاشا

فبَيْنَاهم فى توهم أنَّ الغلبة لهم فُتِحَ عليهم — من مكامن القدرة — جيشٌ ، فوجدوا أنفسهم — فى فتح القدرة — مقهورين بسيف المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحينا إلى موسى أنْ ألقِ عَصَاك
فإذا هى تلقَفُ ما يأفِكون *
فوَقَعَ الحقُّ وبَطَلَ ما كانوا يعملون *
فغُلِبُوا هنالك وانقلبوا صاغرين *
وأُلقِيَ السحرةُ ساجدين * قالوا
آمنَّا بربِّ العالمين * ربِّ موسى
وهارون ﴾

مَوَّهُوا بسحرهم أنهم غَلَبُوا ، فَأَدْخَلَ الله — سبحانه — على تمويهاتهم قهرَ الحق وطاشت تلك الحِيَلُ ، وخاب منهم الأمل ، وجذب الحقُّ — سبحانه — أسرارهم على الوهله فأصبحوا فى صدر العداوة ، وكانوا — فى التحقيق — من أهل الود . فسبحان مَنْ يُبْرِز

العدوَّ فى نعت الولى ، ثم يقلب الكتابَ ويُظْهِرُ الولىَّ فى نعت العدو ، ثم يأبى الحالُ إلا حصولَ المَقْضِىِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فرعون ءامَنتُم به قبل أنْ آذنَ لكم إنَّ هذا لَمَكرٌ مكرتموه فى المدينة لتُخرِجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لَأُقَطِّعنَّ أيديَكم وأرجُلَكم[1] مِنْ خِلافٍ ثم لأُصلِّبنكم أجمعين ﴾

خاطبَهم معتقداً أنهم هم الذين كانوا[2] ، وهم يعلمون أن تلك الأسرار قد خرجت عن رِقِّ الأشكال ، وأن قلوبهم طهرت عن تو التفرقة ، وأن شمسَ العرفان طلعت فى سماء أسرارهم ، فأشهدوا الحقَّ بنظر صحيح ، ولم يبقَ لتخويفات النفس فيهم سلطان ، ولا لشىء من العلل بينهم مساغ .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا إنَّا إلى ربِّنا مُنقَلِبون ﴾

لمَّا كان مصيرهم إلى الله سَهُلَ عليهم ما لقوا فى مَسيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تَنقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمنا بآياتِ ربِّنا لمَّا جاءَتْنا ، ربَّنا أفرِغْ علينا صَبْراً وتَوَفَّنا مُسْلِمين ﴾

لما عَملُوا لله ، وأوذوا فى الله ، صدقوا القصد إلى الله ، وطلبوا المعونة من قِبَلِ الله ؛ كذا سُنَّةُ مَنْ كان لله أن يكون كلُّه على الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الملأُ من قومِ فرعون أتَذَرُ موسى وقومَه ليُفْسِدوا فى الأرضِ ويذَرَكَ وآلهتَكَ ، قال سَنُقَتِّل

---

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (أيديهم وارجلهم) .

(٢) نعرف من عبارات القشيرى : « كانوا لكنهم بانوا » و « العارف كائن بائن » .

أبناءهم و نَسْتَحْيِي نساءهم وإنا فوقهم
قاهرون ﴾

لما استزادوا من فرعون فى التمكين من موسى وقومه استنكف أن يقر بعجزه ، ويعترف بقصور قدرته ، فتوعد موسى وقومَه بما عكس الله عليه تدبيره ، وغلب عليه تقديره.

قوله جل ذكره : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله
واصبروا إنَّ الأرضَ لله يورِثُها مَن
يشاء مِنْ عباده والعاقبةُ للمتقين ﴾

أحالهم على الله فإن رجوعَه إليه ، فقال لهم : إن رجوعى — عند تحيرى فى أمورى — إلى ربى ، فليكن رجوعُكم إليه ، وتوكُّلكم عليه ، وتعرَّضوا لنفحات يُسْرِه ، فإنه حَكَمَ لأهل الصبر بجميل العُقبى .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أُوذينا مِن قبلِ أن تأتيناَ ومِنْ
بعدِ ما جِئْتنا قال عسى ربكُم أن
يُهْلِكَ عدُوَّكم ويستخلفكم فى الأرضِ
فينظرَ كيف تعملون ﴾

خفى عليهم شهودُ الحقيقة ، وغُشِيَ على أبصارهم حتى قالوا توالت علينا البلايا ، ففى حالك بلاء ، وقَبْلَكَ شقاء .. فما الفضل ؟ فأجابهم موسى — عليه السلام — بما علق رجاءهم بكشف البلاء فقال : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » فوقفهم على الانتظار . ومن شهد ببصر الأسرار شهد تصاريف الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أَخَذْنَا آلَ فرعونَ بالسِّنينَ
ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذَّكرون ﴾

شدَّد عليهم وطأة القدرة بعدما ضاعف لديهم أسباب النعمة ، فلا الوطأة أصلحتهم شدَّتُها ولا النعمة نبهتهم كثرتها ، لا بل إنْ مَسَّهم يُسْرٌ لاحظوه بعين الاستحقاق ،وإن مَسَّهم عُسْرٌ حملوه على التَّطَيُّرِ بموسى — عليه السلام — بمقتضى الاغترار .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنةُ قالوا لنا هذه
وإن تُصِبْهُم سيئة يَطَّيَّرُوا بموسى
ومَن معه ﴾

الكفورُ لا يرى فضل المنعم ، فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق ، ثم إذا اتصل به شيء مما يكرهه تجنَّى وحمل الأمر على ما يتمنَّى :

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعة مَلَّ الوصال وقال كان وكانا
إن الكريم إذا حَبَاكَ بودِّه سَتَرَ القبيح وأظهر الإحسانا

قوله جل ذكره : ﴿ ألا إنما طائرُهم عند اللهِ ولكنَّ
أكثرَهم لا يعلمون ﴾

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة ، وعقولهم عن شهود الحقيقة مصدودة ، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة

قوله جل ذكرُه : ﴿ وقالوا مهما تأتِنا به مِنْ[1] آية
لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾

جعلوا الإصرارَ على الاستكبار شعارَهم ، وهتكوا بألسنتهم — فى التمرد — أستارهم .

قوله جل ذكرُه : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ
والقُمَّلَ والضفادِعَ والدَّمَ آياتٍ
مُفَصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا
قوماً مجرمين ﴾

جَنَّسَ عليهم العقوباتِ لمَّا نوَّعوا وجَنَّسوا فنونَ المخالفات ، فلا إلى التكفير عادوا ، ولا إلى التطهير تصدوا ، وعوقبوا بِصَرْفِ قلوبهم عن شهود الحقائق

(١) سقطت (من) فى النسخ فأثبتناها

وذلك أبلغُ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا .... ونعوذُ بالله من السقوط عن عين الله.

قوله جل ذكره: ﴿ولَمَّا وقع عليهم الرِّجزُ قالوا ياموسى ادْعُ لنا ربَّكَ بما عَهِد عندَكَ لئن كَشَفْتَ عنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لك ولَنُرْسِلنَّ معك بنى اسرائيل﴾

لم يقولوا ادع لنا ربَّنا ، بل قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك ، فهم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بعداً وأجنبية..

قوله جل ذكره : ﴿فلما كشفنا عنهم الرجزَ إلى أَجَلٍ هم بالغوه إذا هُمْ يَنكثُون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنَّهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾

أبرموا العهد ثم نقضوه ، وقدموا العهد ثم رفضوه ، وكما قيل :

إذا ارعوى عاد إلى جهله　　كذى الضنى عاد إلى نكسه
والشيخُ لا يترك أخلاقَه　　حتى يُوارى فى ثرى رمسه

قوله جل ذكره : ﴿وأورثنا القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفُون مشارِقَ الأرض ومغارِبَها التى باركنا فيها وتمَّتْ كَلِمةُ ربِّكَ الحُسْنى على بنى اسرائيل بما صَبَرُوا ودَمَّرْناَ ما كان يَصْنَعُ فِرعونُ وقومُهُ وما كانوا يَعْرِشون﴾

مَنْ صبر على مقاساة الذُّلِّ فى الله وضع الله على رأسه قلنسوة العرفان ، فهو العزيز سبحانه ، لا يُشْمِتُ بأوليائه أعداءهم ، ولا يضيع من جميل عهده جزاءهم.

قوله جل ذكره : ﴿وجاوزنا ببنى اسرائيل البحرَ

﴿فأتوا على قوم يعكفون على
أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل
لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم
قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر
ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾

لم تخلص فى قلوبهم حقائقُ التوحيد فتاقت نفوسهم إلى عبادة غير الله ، حتى قالو لنبيهم موسى — عليه السلام — : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . وكذا صفة من لم يتحرر قلبُه من إثبات الأشغال والأعلال ، ومن للساكنة إلى الأشكال والأمثال .

ويقال مَنْ ابتغى بالصنم أن يكون معبودَه متى يُتَوَهَّم فى وصفه أنْ يُخلِصَ إلى الله قصودَه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال أغيرَ الله أبغيكم إلها وهو
فضّلكم على العالمين ﴾

ذكَّرهم انفرادَه — سبحانه — بإنشائهم وإبداعهم ، وأنه هو الإله المتفرد بالإيجاد ، ونَبَّهَهُم أيضاً على عظيم نعمته عليهم ، وأنه ليس حقُّ إتمام النعمة عليهم مقابلتَهم إياها بالتولى لغيره والعبادة لِمَنْ سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أنجيناكم مِنْ آلِ فرعون
يسومونكم سوء العذاب يُقَتِّلون
أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى
ذلكم بلاء مِّن ربِّكم عظيم ﴾

ما ازداد موسى — عليه السلام — فى تعديد إنعام الله عليهم ، وتنبيهم على عظيم آلائه إلا ازدادوا جحداً على جحد ، وبُعْداً بالقلوب — عن محل العرفان — على بُعْد ، وهذه أمارة من بلاه — سبحانه — فى السابق بالقطع والرد .

قوله جل ذكره : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة

وأتممناها بعشرٍ فتمّ ميقاتُ ربِّه
أربعين ليلة ﴾

عِدَةُ الأحباب عزيزة ، فإذا حصلت المواعدة بين الأحباب ، فهى عذبة حلوة كيفما كانت ، وفى هذا المعنى أنشدوا :

أمطلينـا وسوِّفى وعِدينـا ولا تَفِى

ويقال عَلَّلَ الحقُّ — سبحانه — موسى بالوعد الذى وعده بأن يُسْمِعَه مرةً أخرى كلامَه ، وذلك أنه فى المرة الأولى ابتلاه بالإسماع من غير وعد ، فلا انتظار ولا توقع ولا أمل ، فأخذ سماعُ الخطاب بمجامع قلب موسى — عليه السلام — فعلَّق قلبه بالميقات المعلوم ليسكون تأميله تعليلاً له ، ثم إن وعد الحقِّ لا يكون إلا صدقاً ، فاطمأن قلبُ موسى — عليه السلام — للميعاد ، ثم لمَّا مضت ثلاثون ليلة أتى كما سَلَفَ الوعد فزاد له عشراً فى الموعد . والمطل فى الإنجاز غير محبوب إلا فى سُنَّةُ الأحباب ، فإن المطل عندهم أشهى من الإنجاز ، وفى قريب من هذا المعنى أنشدوا :

أقيمى لعمرك لا تهجرينا ومَنِّينا المنى ، ثم امطلينا
عِدينا موعداً ما شِئْتِ إنَّا نحبُّ وإنْ مطلت تواعدينا
فإما تنجزى وعدَكِ أو فإنا نعيش نؤمل فيك حينا

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى لأخيه هرُون اخْلُفنى فى قومى وأصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سبيلَ المُفسدين ﴾

كان هارون — عليه السلام — حمولاً بحسن الخُلُق ، لمَّا كان المرورُ إلى فرعونَ استصحب موسى — عليه السلام — هارونَ ، فقال الله — سبحانه — : « أشركه فى أمرى » بعد ما قال : « أخى هارون هو أفصح منى لساناً » . ولمَّا كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه ، فقال : « اخلُفنى فى قومى » وهذا غاية التَّحمُّلِ من هارون ونهاية التصبر والرضاء ، فلم يَقُلْ : لا أقيم فى قومك . ولم يقل : هلَّا تحملنى مع نفسك كما

استصحبتنى حال المرور إلى فرعون ؟ بل صبر ورضى بما لزم ، وهذه من شديدات بلاء الأحباب ، وفى قريب منه أنشدوا :

قال لى من أحب والبين قد حلَّ وفاقاً لزفرتى وشهيقْ
ما تُرى فى الطريق تصنع بعدى قلت : أبكى عليك طول الطريق

ثم إن موسى لما رجع من سماع الخطاب ، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العِجْل أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون — عليه السلام — فى الخطاب ، فقال : « يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسى » .

ويقال لو قال هارون — عليه السلام : إن لم تعوضنى عما فاتنى من الصحبة فلا تعاتبنى فيما لم أذنب فيه بحال ذرةً ولا حبَّةً .. لكان موضع هذه المقالة .

ويقال الذنبُ كان من بنى إسرائيل ، والعتاب جرى مع هارون ، وكذا الحديث والقصة ، فما كلُّ مَنْ عصى وجنى استوجب العتابَ ، فالعتابُ ممنوعٌ عن الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه قال ربِّ أرِنى أنظُرْ إليكَ ، قال لن ترانى ولكن انظرْ إلى الجَبَلِ فإنِ استقرَّ مكانه فسوف ترانى ، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل جعله دَكًّا وخرَّ موسى صعقاً ﴾

جاء موسى مجىء المشتاقين مجىء المُهيَّمين ، جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى ولم يَبْقَ من موسى شىء لموسى . آلافُ الرجال قطعوا مسافاتٍ طويلة فلم يذكرهم أحد ، وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأ الصبيان : « ولما جاء موسى »

ويقال لما جاء موسى لميقات باسطر الحقّ — سبحانه — سقط بسماع الخطاب ، فلم يتمالك حتى قال : « أرنى أنظر إليك » ، فإنّ غَلَبات الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من التسهود ، وكذا قالوا :

وأبرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً   إذا دَنَتْ الخيامُ من الخيـام

ويقال صار موسى — عليه السلام — عند سماع الخطاب بعين السُّكْر فنطق ما نطق ، والسكران لا يُؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس فى نص الكتاب معه عتاب بحرف ؟

ويقال أخذته عِزَّةُ السَّماعِ فخرج لسانه[1] عن طاعته جرياً على مقتضى ما صحبه من الأَرْيَحِيَّةَ وبَسْطِ الوصلة .

ويقال جمع موسى — عليه السلام — كلماتٍ كثيرةً يتكلم بها فى تلك الحالة ؛ فإن فى القصص أنه كان يتحمل فى أيام الوعد كلمات الحق ، ويقول لمعارفه : ألكم حاجة إلى الله ؟ ألكم كلام معه ؟ فإنى أريد أن أمضى إلى مناجاته .

ثم إنه لمـا جاء وسمع الخطاب لم يذكر — مما دبَّره فى نفسه ، وتحمله من قومه ، وجمعه فى قلبه — شيئاً ولا حرفاً ، بل نطق بما صار فى الوقت غالباً على قلبه ، فقال : ربِّ : أرِنى أنظر إليك ، وفى معناه أنشدوا :

فيا ليلَ كم من حاجةٍ لى مهمة   إذا جئتكم ليلى فلم أدرِ ماهيا

ويقال أشدُّ الخلْقِ شوقاً إلى الحبيب أقربُهم من الحبيب ؛ هذا موسى عليه السلام ، وكان عريق الوصلة ، واقفاً فى محل المناجاة ، محدقة به سجوفُ التولى ، غالبة عليه بوادِهُ الوجود ، ثم فى عين ذلك كان يقول : « ربِّ أرِنى أنظر إليك » كأنه غائبٌ عن الحقيقة . ولكن ما ازداد القومُ شُرْباً إلا ازدادوا عطشاً ، ولا ازدادوا تياً إلا ازدادوا شوقاً ، لأنه لا سبيل إلى الوصلة إلا بالكمال ، والحقُّ — سبحانه — يصونُ أسرار أصفيائه عن مداخلة الملال[2] .

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال : « ربِّ أرِنى أنظر إليك » ولاأقلَّ

---

(١) تعليل القشيرى لموقف الإفصاح الذى وقفه موسى يوضح كيف يلتمس هذا الباحث مبررا لشطحات الصوفية — بطريق غير مباشر ، ويعزو ذلك تارة للسكر الروحى وتارة لوقوع العبد تحت تأثير العزة الإلهية ، فيخرج اللسان عن طاعته .

(٢) وفى ذلك أنشدوا :

فما مل ساقينا وما مل شارب   عقار لحاظ كأسه يسلب اللبا

من نظرة — والعبد قتيل هذه القصة — فقوبل بالردّ ، وقيل له : « لن تراني » وكذا قهر الأحباب ولذا قال قائلهم :

جَوْرُ الهوى أحسن من عَدْلِهِ ويخله أظرف من بذله

ويقال لما صرّح بسؤال الرؤية ، وجهر صريحاً رُدّ صريحاً فقيل له : « لن تراني » ، ولما قال نبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — بسِرّه في هذا الباب ، وأشار إلى السماء منتظراً الرد والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها »[1] فردّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعزُّ من أن يطمح إلى شهوده — اليومَ — طَرْفٌ ، بل الألحاظ مصروفة موقوفة — اليومَ — على الأغيار[2] .

ويقال لما تمّتْ همّتُهُ إلى أسنى المطالب — وهي الرؤية — قوبل « بِلَنْ » ، ولمّا رجعَ إلى الخلْق وقال للخضر « هلْ أتبعك على أن تُعلّمَني مما علمت رشدا » ، قال الخضر : « إنك لن تستطيع معي صبراً »[3] فقابله بلن ، فصار الردُّ موقوفاً على موسى — عليه السلام من الحق ومن الخلْق ، ليكون موسى بلا موسى ، ويكون موسى صافيا عن كل نصيب لموسى من موسى ، وفي قريب منه أنشدوا :

(. . . . . .)[4] نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البيْن فينا ينعق

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال : « ربِّ أرِني أنظر إليك » فأجيب بلن لأن عين الجمع أتمّ من عين الفَرْق . فزع موسى حتى خَرَّ صعقاً ، والجبل صار دَكّاً . ثم الروْح بعد وقوع الصعقة على القالب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية ، ويكون الحقُّ — بعد امتحاء معالم موسى — خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى ، فعلى الحقيقة : شهود الحقائق بالحقِّ أتمُّ من بقاء الخلْق بالخلْق ، كذا قال قائلهم :

---

(١) آية ١٤٤ سورة البقرة .

(٢) من هنا — وبما أوضحه في رسالته — نعرف أن القشيري لا يرى بجواز رؤية الله بالبصر في هذه الدنيا .

(٣) آية ٦٧ سورة الكهف

(٤) هنا لفظتان مطموستان ونعرف أنهما «أبني أبينا ... » .

ولوجهها من وجهها قمرٌ ولعينها من عينها كحل

ويقال البلاء الذى ورد على موسى بقوله : « فإن استقرَّ مكانه فسوف ترانى » « ولما تجلَّى ربُّه للجبل جعله دَكًّا » أتمُّ وأعظم منه قولُه : « لن ترانى » لأن ذلك صريحٌ فى الرد ، وفى اليأس راحة . لكنَّه لما قال فسوف أطمعُه فيما مُنِعه فلما اشتد موقفُه جعل الجبل دكاً ، وكان قادراً على إمساك الجبَل ، لكنه قهر الأحباب الذى به جرَتْ سُنَّتُهم .

ويقال فى قوله : « أنظُرْ إلى الجبل » بلاء شديد لموسى لأنه نُهِيَ عن رؤية مقصوده رُمِيَ برؤية الجبل ، ولو أُذِنَ له أنْ يُغْمِضَ جفنَه فلا ينظر إلى شىء بعدما بقى عن مراده من رؤيته لكان الأمرُ أسهلَ عليه ، ولكنه قال له : « لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل » .

ثم أشدُّ من ذلك أنه أعطى الجبل التَّجلىَ ؛ فالجبل رآه وموسى لم يَرَه ، ثم أَمَرَ موسى بالنظر إلى الجبل الذى قدم عليه فى هذا السؤال ، وهذا — والله — لصعبٌ شديد !! ولكن موسى لم ينازع ، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرَكَ لا أنظر إلى غيرك بل قال : لا أرفع بصرى عما أمرتنى بأن أنظر إليه ، وفى معناه أنشدوا :

أريدُ وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريدُ

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله : « ولكن انظر إلى الجبل » تداركَه قلبَ موسى — عليه السلام — حيث لم يتركه على صريح الرد بل علله برفق كما قيل :

فذريني أفنى قليلا قليلا

ويقال لما رُدَّ موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال : « تُبْتُ إليك » يعنى إن لم تكن الرؤية هى غاية المرتبة فلا أقل من التوبة ، فَقَبِلَه — تعالى — لسمو همته إلى الرتبة العلية .

قوله جل ذكره : ﴿ تُبْتُ إليك ﴾

هذه إناخة بعقوة العبودية ، وشرط الإنصاف ألا تبرحَ محلَّ الخدمة وإنْ حيل بينك وبين وجود القربة ؛ لأن القربةَ حظُّ نفسك ، والخدمةَ حقُّ ربك ، وهى تتم بألا تكون بحظ نفسك .

قوله جل ذكره: ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتُكَ على النَّاسِ برسالاتى وبكلامى فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وكُن مِّنَ الشاكرين ﴾

هذا الخطاب لِتَدَارُكِ قلب موسى — عليه السلام — بكل هذا الرِّفق، كأنه قال: يا موسى، إنى منعتُكَ عن شيء واحد وهو الرؤية، ولكنى خصصتُك بكثيرٍ من الفضائل؛ اصطفيتك بالرسالة، وأكرمتُك بشرف الحالة، فاشكرْ هذه الجملة، واعرفْ هذه النعمة، وكنْ من الشاكرين، ولا تتعرضْ لمقام الشكوى، وفى معناه أنشدوا:

إنْ أعرضوا فهم الذين تَعَطَّفُوا ... وإنْ جَنَوْا فاصبرْ لهم إن أخلفوا

وفى قوله سبحانه: «وكن من الشاكرين» إشارة لطيفة كأنه قال: لا تكن من الشاكين، أى إنْ منعتُكَ عن سُؤْلِكَ، ولم أعطِك مطلوبَك فلا تَشْكُنِى إذا انصرفتَ.

قوله جل ذكره: ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىءٍ مَّوعظةً وتفصيلاً لكلِّ شىءٍ ﴾

وفى الأثر: أن موسى عليه السلام كان يسمع صريرَ القلم، وفى هذا نوع لطف لأنه إنْ منع منه النظر أو منعه من النظر فقد علله بالأثر[1].

قوله جل ذكره: ﴿ فَخُذْها بقوة ﴾

فيه إشارة إلى أن الأخذَ يُشير إلى غاية القرْبِ، والمراد هاهنا صفاء الحال، لأن قربَ المكانِ لا يَصِحُّ على الله سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿ وَأْمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها ﴾

فَرْقٌ بين ما أمر به موسى من الأخذ وبين ما أمره أن يأمر به قومه من الأخذ، أَخْذُ موسى عليه السلام من الحق على وجهٍ من تحقيق الزلفة وتأكيد الوصلة، وأَخْذُهم أخذُ قبول من حيث التزام الطاعة، وشتان ما هما!.

---

(١) نلاحظ أن القشيرى كان ممتعاً أشد ما يكون الإمتاع حين استغل موقف شهود موسى استغلالا جيلا أوشك أن يحيط بكل جوانب هذه اللحظات الحاسمة فى الحياة الروحية، فاجتمعت إشاراته لتكون درساً فى غاية الدقة والإفادة.

قوله : « بأحسنها » يعنى بِحُسْنِها ، ويحتمل أن تكون الهمزة للمبالغة يعنى : بأحسنها ألا تعرِّج على تأويل وارجعْ إلى الأَوْلَى[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ سَأُورِيكم دار الفاسقين ﴾

يعنى عليها غَبَرةُ العقوبة ، خاوية على عروشها ، ساقطة على سقوفها ، مُنْهَدِّ بنيانُها ، عليها قَتَرَةُ العقاب .

والإشارة من دار الفاسقين إلى النُّفوس المتابعة للشهوات ، والقلوب التى هى معادن المنى وفاسد الخطرات ، فإنَّ الفِسقَ يوجب خرابَ المحل الذى يجرى فيه ؛ فمن جرى على نفسه فِسْقٌ خربت نفسه . وآيةُ خراب النفوس انتفاء ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات ، فكما تتعطل المنازل عن قطانها إذا تداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل المعاصى فتلتفى عنها لوازم الطاعات ومعتادها ، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة ، حتى لو خُيِّر بين ركعتى صلاة وبين مقاساة كثير من المشاق آثر تحمل المشاقّ على الطاعة . . وعلى هذا النحو ظلمُ القلوب وفسادُها فى إيجاب خراب محالها .

قوله جل ذكره : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبَّرون
فى الأرض بغير الحقِّ وإن يروا
كلَّ آيةٍ لَّا يؤمنوا بها ﴾

سأحْرِمُ المتكبرين بركاتِ الاتباع حتى لا يقابلوا الآياتِ التى يُكاشَفُون بها بالقبول ، ولا يسمعوا ما يُخَاطَبُون به بسمع الإيمان .

والتكبُّر جحدُ الحق — على لسان العلم ، فَمَنْ جَحَدَ حقائقَ الحقِّ فجحودُه تكبُّره واعتراضُه على التقدير مما يتحقق جحودُه فى القلب .

---

(١) يوجه القشيرى هذه الإشارة نحو موضوع الرخص ، فمن المعلوم أنه يرى ان من الأفضل الا يلجأ المريد للرخصة ، وفعل الأولى عنده هو ترك الرخصة لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من الكافة ، والمريد لا حاجة له ولا شغل إلا لربه وبربه .

ويقال التكبُّر توهمُ استحقاقِ الحقِّ لك .

ويقال من رأى لنفسه قيمةً فى الدنيا والآخرة فهو متكبِّر .

ويقال مَنْ ظنَّ أنَّ شيئاً منه أو له أو إليه — من النفى والإثبات — إلا على وجه الاكتساب فهو متكبِّر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِن يَرَوْا سبيلَ الرُّشدِ لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغَىِّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حَبِطَتْ أعمالُهم هل يُجْزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون ﴾

تبيَّن بهذا أنه لا يكفى شهودُ الحقِّ حقّاً وشهودُ الباطلِ باطلاً بل لا بُدَّ من شهود الحق من وجود التوفيق للحق ، ومنع شهود الباطل من وجود العصمة من اتباع الباطل .

ويقال إنَّ الجاحِدَ للحقِّ — مع تحققه به — أقبحُ حالةً من الجاهل به المُقصِّر فى تعريفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخَذَ قومُ موسى مِنْ بعدِه مِن حُلِيِّهم عِجْلاً جَسَدًا له خُوارٌ ﴾

لم يُطَهِّرْ قلوبَهم — فى ابتداء أحوالهم — عن توهم الظنون ، ولم يتحققوا بخصائص القِدَم وشروط الحدوث ، فعثرت أقدام فكرهم فى وهاد المغاليط لما سلكوا المسير .

ويقال إن أقواماً رضوا بالعِجْلِ أن يكونَ معبودَهم متى تشم أسرارُهم نسيمَ[1] التوحيد ؟ هيهات لا ! لا ولا مَنْ لاحظ جبريلَ وميكائيلَ والعرشَ أو الثَّرى ، أو الجنَّ أو الورى . وإنَّ مَنْ لَحِقَهُ ذلك أو وجد من قبيل ما يقبل نعوت الحدثان ، أو صحَّ فى التجويز أن ترتقى إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغيرُ صالحٍ لاستحقاق الإلهية .

---

(١) وردت (تشيم) وهى خطأ فى النسخ .

ويقال شتّان بين أمة وأمة : أمة خرج نبيهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العِجْلَ ، وأمة خرج نبيُّهم — عليه السلام — من بينهم وأتى نيف وأربعمائة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشموس والأقمار أو شيئاً من الرسوم والأطلال تستحق الإلهية أحرقوه بهممهم

ويقال لا فصلَ بين الجسم والجسد ، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما فى معناه ، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَاكَّةُ الأجرام الصلبة ، والتوحيد الأزلى ينافى هذه الجملة .

ويقال أَجْهِلْ بقومٍ آمنوا بأن يكونَ مصنوعُهم معبودَهم ! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما يشاء — فأىُّ عقلٍ يُقِرُّ مثل هذا التلبيس ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾

جعل من استحقاقه[1] نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية ، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت[2] بأنه متكلِّمٌ فى حقائق آزاله ، وأنه متفرِّد بهداية العبد لا هادىَ سواه . وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق — سبحانه — وتكليمه مع العبد ، وإنَّ الملوكَ إذا جلَّتْ رتبتهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم :

وما عَجَبٌ تناسى ذِكْرِ عبدٍ على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ

وبخلاف هذا أجرى الحقُّ — سبحانه — سنَّتَه مع عباده المؤمنين ، أما الأعداء فيقول لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون »[3] وأمَّا المؤمنون فقال صلى الله عليه وسلم : « ما منكم إلا يكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان »[4] ، وأنشدوا فى معناه .

وما تزدهينا الكبرياء عليهمُ إذا كلَّمونا أن نكلمهم مَرْدَاً

---

(1) وردت (استحقاقهم) وهى خطأ فى النسخ .

(2) يشير القشيرى بذلك إلى معارضة المعتزلة الذين ينفون الصفات الإلهية منعاً للتعدد ، واقتضاء حامل ومحمول .

(3) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(4) فى رواية مسلم عن عدى بن حاتم قال رسول الله (ص) :
« ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان » ص ٧٠٣ - ٢ ط الحلبى .

قال تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحرُ قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً »(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا سُقِطَ فى أيديهم ورأوا أنهم
قد ضَلُّوا قالوا لئن لم يرحمنا ربُّنا ويغفرْ
لنا لنكونن من الخاسرين ﴾

حين تحققوا ابقبح صنيعهم تجرَّعوا كاساتِ الأسف ندماً ، واعترفوا بأنهم خسِروا إنْ لم يتداركهم من الله جميلُ لُطفِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما رَجَعَ موسى إلى قومِه غضبان
أسِفاً قال بئسما خلَفْتُمونى مِنْ بَعْدِى
أعَجِلْتُم أمْرَ ربِّكم ﴾

لو وجد موسى قومه بألف ألف وفاقٍ لكان متنغِّصَ العيش لِمَا منى به من حرمان سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار .. فكيف وقد وجد قومه قد ضلوا وعبدوا العجل ؟ !
ولا يُدْرَى أىُّ المحن كانت أشدَّ على موسى :

أفقدانُ سماع الخطابِ ؟ أو بقاؤه عن سؤال الرؤية ؟ أو ماشاهد من افتتان بنى اسرائيل ، واستيلاء الشهوة على قلوبهم فى عبادة العجل ؟ سبحان الله ! ما أشدَّ بلاءه على أوليائه !

قوله جل ذكره : ﴿ وألقى الألواحَ وأخَذَ برأسِ أخيه
يجرُّه إليه قال ابنَ أُمَّ إنَّ القوم
استضعفونى وكادوا يقتلوننى
فلا تُشمِتْ بى الأعداء ولا تجعلْنى
مع القومِ الظالمين * قال ربِّ اغفرْ لى
ولأخى وأدخِلْنا فى رحمتك وأنت
أرحمُ الراحمين ﴾

---

(١) آية ١٠٩ سورة الكهف .

إن موسى عليه السلام وإنْ كان سَمِعَ من الله فِتَنَ قومه فإنه لما شاهَدَهم أثَّرت فيه المشاهدةُ بما لم يؤثر فيه السماع ، وإنْ عُلِمَ قطعاً أنه تأثر بالسماع إلا أن للمعاينة تأثيراً آخر .

ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يجره إليه استلطفه هارونُ فى الخطاب .

فقال : « يا ابنَ أمَّ » فذَكَرَ الأمّ هنا للاسترفاق والاسترحام .

وكذلك قوله : « لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » يريد بهذا أنه قد توالت المحنُ علىَّ فَذَرْنى وما أنا فيه ، ولا تَزِد فى بلائى ، خلفتنى فيهم فلم يستنصحونى . وتلك علىَّ شديدةٌ . ولقيتُ بَعْدَكَ منهم ما ساءنى ، ولقد علمت أنها كانت على عظيمة كبيرة ، وحين رجعتَ أخذتَ فى عتابى وجر رأسى وقصدْتَ ضربى ، وكنت أود منك تسليتى وتعزيتى . فرفقاً بى ولا تُشْمِتْ بى الأعداء ، ولا تضاعِفْ علىَّ البلاء .

وعند ذلك رقَّ له موسى — عليه السلام ، ورجع إلى الابتهال إلى الله والسؤال بنشر الافتقار فقال : « ربِّ اغفر لى ولأخى وأدْخِلنا فى رحمتك » وفى هذا إشارة إلى وجوب الاستغفار على العبد فى عموم الأحوال ، والتحقق بأنَّ له — سبحانه — تعذيبَ البرىء ؛ إذ الخلْق كلُّهم مِلْكُهُ ، وتَصَرُّفُ المالكِ فى مِلكه نافذٌ .

ويقال : ارتكابُ الذَّنْبِ كان من بنى اسرائيل ، والاعتذارُ كان من موسى وهارون عليهما السلام ، وكذا الشرط فى باب خلوص العبودية .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين اتخذوا العِجْلَ سينالهُم غَضَبٌ مِّن ربهم وذِلَّةٌ فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾

يعنى إن الذين اتخذوا العِجْلَ معبوداً سَيَنالُهم فى مستقبل أحوالهم جزاء أعمالهم . والسين فى قوله « سينالهم » للاستقبال ، ومَنْ لا يضره عصيان العاصين لا يبالى بتأخير العقوبة عن الحال ، وفرْقٌ بين الإمهال والإهمال ، والحق — سبحانه — يمهل ولكنه لا يهمل ، ولا ينبغى لِمَنْ يذنب ثم لا يُؤَاخَذُ فى الحال أنْ يَغترَّ بالإمهال .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين عَملوا السيئاتِ ثم تابوا

مِنْ بعدها وآمنوا إنَّ ربَّك مِنْ
بعدها لغفور رحيم ﴾

وَصَفَهُم بالتوبة بعد عمل السيئات ثم بالإيمان بعدها، ثم قال: « من بعدها لغفور رحيم ».
والإيمان الذى هو بعد التوبة يحتمل آمنوا بأنه يقبل التوبة، أو آمنوا بأن الحق سبحانه لم يُضِرْه عصيانٌ، أو آمنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله، أو آمنوا أى عَدُّوا ما سبق منهم من نقض العَهْدِ شِرْكاً.

ويقال استداموا للإيمان فكان موافاتهم على الإيمان.

أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا من عين الله، إذ ليس كل مرة تسلم الجرة.

قوله جل ذكره: ﴿ ولمَّا سَكَتَ عن مُوسى الغضبُ
أخذ الألواحَ وفى نُسْخَتِها هُدىً
ورحمة للذين هم لربِّهم يرهبون ﴾

تشير إلى حسن إمهاله — سبحانه — العبد إذا تغيَّر عن حدِّ التمييز، وغَلَبَ عليه ما لا يطيق ردَّه من بواده الغيب

وإذا كانت حالة الأنبياء — عليهم السلام — أنه يغلبهم ما يعطلهم عن الاختيار فكيف الظن بمنْ دونهم[1]؟

قوله جل ذكره: ﴿ واختار موسى قومَه سبعين رَجُلا
لميقاتنا فلما أخذتْهم الرَّجفةُ قال ربِّ
لو شِئْتَ أهلكتَهم مِن قبلُ وإياى
أتهلكنا بما فعل السُّفهاء منَّا؟ إنْ
هِيَ إلا فِتْنَتُكَ تضلُّ بها من تشاء
وتهدى من تشاء، أنتَ وليُّنا،
فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين ﴾

(١) يستشفع القشيرى للواله إذا خرج عن حد التمييز إن كان صادقاً وله عذر.

شتَّان بين أمة وأمة ، أمة يختارهم نبيُّهم — عليهِ السلام ، وبين أمة اختارها الحقُّ — سبحانه ، فقال : « ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين »[1] .

الذين اختارهم موسى قالوا : « أرِنَا الله جهرة حتى أخَذَتْهم الصاعقةُ » والذين اختارهم الحق — سبحانه — قال الله تعالى فيهم : « وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة »[2] .

ويقال إن موسى — عليه السلام — جاهر الحقَّ — سبحانه — بنعت التحقيق وفارق الحشمة وقال صريحاً : « إنْ هي إلا فتنتكَ » ثم وَكَلَ[3] الحكمَ إليه فقال : « تُضِلُّ بها مَنْ تشاء وتَهْدِى مَنْ تشاء » ثم عقَّبها ببيان التضرع فقال : « فاغفر لنا وارحمنا » ، ولقد قدَّم الثناء على هذا الدعاء فقال : « أنت ولِيُّنا فاغفر لنا وارحمنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ واكتُبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة ﴾

نَطَقَ بلسان التضرع والابتهال حيث صَفَّى إليه الحاجة ، وأخلص له في السؤال فقال . « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة » أي اهدنا إليك .

وفي هذه إشارة إلى تخصيص نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — في التبري من الحول والقوة والرجوع إلى الحقِّ لأن موسى — عليه السلام قال : « واكتب لنا في .... » ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكلني إلى نفسي طرفة عين » ولا أقلَّ من ذلك ، وقال : « واكفلني كفالة الوليد » ثم زاد في ذلك حيث قال : « لا أحصي ثناء عليك »[4] .

---

(1) آية ٣٢ سورة الدخان والمقصود أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .
(2) آية ٢٢ سورة القيامة
(3) وردت (وقل) والصواب أن تكون (وكل) إليه الحكم .
(4) قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اكفلني كفالة الوليد ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وجهت وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » .
اللهم اكفلني كفالة الوليد علمها النبي (ص) لبعض أصحابه ، الشيخين من حديث البراء . اللهم امتعني بسمعي وبصري : الترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة « ولا تكلني الى نفسي طرفة عين » الحاكم من حديث أنس قال : صحيح على شرط الشيخين ، وعلّمه صلى الله عليه وسلم لابنته الزهراء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا هُدْنا إليك ﴾

أى مِلْنا إلى دينك ، وصِرْنا لكَ بالكلية ، من غير أنْ نترك لأنفسنا بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ قال عذابى أصيب به مَنْ أشاء ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شىء ﴾

وفى هذا لطيفة ، حيث لم يقل : عذابى لا أخلى منه أحَدَاً ، بل علَّقَهَ على المشيئة . وفيه أيضاً إشارة ، أنْ أفعاله — سبحانه — غيرُ مُعَلَّلَة بأكساب الخلق ، لأنه لم يقل : عذابى أصيب به العصاة بل قال : « من أشاء » ، وفى ذلك إشارة إلى جواز الغفران لمن أراد لأنه قال : « أصيب به من أشاء » فإذا شاء ألا يصيب به أحداً كان له ذلك ، وإلا لم يكن حينئذٍ مختاراً .

ثم لمَّا انتهى إلى الرحمة قال : « ورحمتى وسعت كل شىء » لم يُعَلِّقها بالمشيئة ، لأنها نفس المشيئة ولأنها قديمة ، والإرادة لا تتعلق بالقديم . فلمَّا كان العذابُ من صفات الفعل علَّقه بالمشيئة ، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات .

ويقال فى قوله تعالى : « وسعت كل شىء » مجالٌ لآمالِ العُصَاة ، لأنهم وإن لم يكونوا من جملة المطيعين والعابدين والعارفين فهم « شىء »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاةَ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾

أى سأوجبها لهم ، فيجب الثواب للمؤمنين من الله ولا يجب لأحدٍ شىء على الله إذ لا يجب عليه شىء لعزِّه فى ذاته[2] .

قوله ها هنا : « الذين يتقون » أى يجتنبون أنْ يروا الرحمة باستحقاقهم ، فإذا اتقوا هذه الظنون ، وتيقنوا أن أحكامه ليست معلَّلةً بأكسابهم — استوجبوا الرحمة ، ويحكم بها لهم .

(١) اى ضمن (شىء) التى فى الآية « ورحتى وسعت كل شىء » .

(٢) أى بخلاف المعتزلة الذين يقولون بالوجوب (على) الله ، وشتان بين الوجوب (من) الله والوجوب (عليه) ، فالوجوب من الله فضل ، والوجوب على الله إلزام .

« والذين هم بآياتنا يؤمنون » أى بما يكاشفهم به فى الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال ، وبما يلاطفهم به فى الأسرار مما يجدونه فى أنفسهم من فنون الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يتّبعون الرسولَ النبىَّ الأمىَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المُنكر ويُحلُّ لهم الطيباتِ ويُحَرِّمُ عليهم الخبائث ﴾

أظهر شرفَ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بقوله : « النبى الأمى » أى أنه لم يكن شىء من فضائله وكمال علمه وتهيؤه إلى تفصيل شرعه مِنْ قِبَلِ نَفْسِه ، أو من تعلُّمه وتكلُّفه ، أو من اجتهاده وتصرُّفه . . بل ظهر عليه كلُّ ما ظهر مِنْ قِبَله — سبحانه — فقد كان هو أميّاً غير قارىءٍ للكتب ، ولا مُتَتَبِّعٍ للسِّير .

ثم قال : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » : والمعروف هو القيام بحق الله ، والمنكر هو البقاء بوصف الحظوظ وأحكام الهوى ، والتعريج فى أوطان المُنَى ، وما تصوِّره العبد تزويراتُ الدعوى[1] . والفاصلُ بين الجنسين ، والمميِّزُ بين القسمين — الشريعةُ ، فالحسَنُ من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعيان فلَهُم ذلك ، والقبيح ما كان موافقاً للنَّهْى[2] والزجرِ فليس لهم فعل ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ويضع عنهم إصْرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم ﴾

الإصرُ الثِّقلُ ، ولا شىء أثقلُ من كَدِّ التدبير ، فمَنْ ترك كد التدبير إلى روْح شهود التقدير ، فقد وُضِع عنه كلُّ إصر ، وكُفِىَ كُلَّ وِزر وأمر

والأغلالُ التى كانت عليهم هى ما ابتدعوه مِنْ قِبَلِ أنفسهم باختيارهم فى التزام طاعات

---

(١) يقصد بها دعوى النفس أنها على شىء وذلك زور وباطل .

(٢) وردت (الهنى) وهى خطأ فى النسخ .

الله ما لم يُفْتَرضْ عليهم ، فوُكِلُوا إلى حَوْلِهِمْ ومُنَّتِهِم فيها ؛ فأهملوها ، ونقضوا عهودهم .

ومَنْ لَقِيَ — بخصائص الرضا — ما تجرى به المقادير ، وشَهِدَ الحقَّ فى أجناس الأحداث — فقد خُصَّ بكل نعمة وفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ فالذين آمنوا به وعَزَّروه ونصروه
واتبعوا النُّور الذي أُنزِلَ معه
أولئك هم المُفْلِحُون ﴾

اعترف لهم[1] بنصرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإلا فالنبى صلى الله عليه وسلم كان الله حسيبه ، ومَنْ كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يأيها الناسُ إنى رسولُ اللهِ
إليكم جميعاً الذى له مُلْكُ السمواتِ
والأرضِ لا إله إلا هو يحيى ويميت
فآمِنوا باللهِ ورسولِهِ النبيِّ الأمِّى
الذى يؤمنُ باللهِ وكلماتِهِ ، واتبِعوه
لعلكم تهتدون ﴾

صَرِّحْ بما رَقَّيْناكَ إليه من المقام ، وأفصِحْ عما لقيناك به من الإكرام ، قُلْ إنى إلى جماعتكم مُرسَلٌ ، وعلى كافتكم مُفَضَّل ، وديني — لِمَنْ نظر واعتبر ، وفكَّرَ وسَبَرَ — مُفصَّل . فإلهى الذى لا شريكَ له ينازعه ، ولا شبيهَ يُضارِعه له حقُّ التصرف فى مُلْكِه بما يريد من حكمه . ومن جملة ما حكم وقضى ، ونفذ به التقدير وأمضى — إرسالى إليكم لتطيعوه فيما يأمركم ، وتحذروا من ارتكاب ما يزجركم . وإنَّ مما أمَرَكُمْ به أنه قال لكم : آمِنوا بالنبيِّ الأمِّى ، واتبعوه لتُفْلِحوا فى الدنيا والعقبى ، وتستوجبوا الزُّلفى والحسنى ، وتتخلصوا من البلوى والهوى .

---

(١) (اعترف لهم) أى عرف لهم هذا العمل وأشاد به .

قوله جل ذكره : ﴿ومن قوم موسى أُمَّةٌ يَهْدُون بالحقِّ وبه يَعْدِلون﴾

هم الذين سبقت لهم العناية ، وصدقت فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير تحريف ولا تحويل ، وأدركتهم الرحمةُ السابقةُ ، فلم تتطرق إليهم مفاجأةُ تغيير ، ولا خوفُ تبديل .

قوله جل ذكره : ﴿وقطعناهم اثنتى عَشْرةَ أسباطاً أُمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومُه أنِ اضرب بعصاك الحجَرَ فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد عَلِمَ كُلُّ أناسٍ مَشربَهم وَظَلَّلْنَا عليهم الغَمامَ ، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوى كلوا مِن طيباتِ ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفُسَهم يَظلِمون﴾

فرَّقهم أصنافاً ، وجعلهم فى التحزب أخيافاً ، ثم كفاهم ما أَهمَّهُم ، وأعطاهم ما لم يكن لهم بُدٌّ منه فيما نابَهم ؛ فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحرِّ والبرد ، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسلْوى مما نفى عنهم تعبَ الجوعِ والجهد والسعى والكد ، وفجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونهم عياناً ، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين ، ولكن ليست العِبْرةُ بأفعال الخَلْقِ ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق ، سبحانه وتعالى فيما يُمضِى عليهم من فنون أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القريةَ وكُلُوا منها حيث شِئْتُمْ وقولوا حِطَّةٌ وادْخلوا البابَ سُجَّداً نَغفِرْ لكم خَطِيئاتِكمْ سَنَزِيدُ المحسنين﴾

يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود، وما حصل منهم من نقض العهود. وعما ألزمهم من التكليف، ولقاهم به من صنوف التعريف، وإكرامه من (شاء)[1] منهم بالتوفيق والتصديق، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فما لقوا تعريفاً، وأذاقهم من سوء الجزاء، حُكْماً — من الله — حتما، وقضاء جزماً.

قوله جل ذكره: ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظلموا منهم قولاً غيرَ
الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رِجْزاً
مِنَ السماء[2] بما كانوا يَظْلِمون ﴾

جاء فى التفسير أنهم زادوا حرفاً فى الكلمة التى قيلت لهم فقالوا: حنطة بدل «حطة» فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادةَ فى الدِّين، والابتداعَ فى الشرع عظيمُ الخَطَر، ومجاوزةُ حدِّ الأمر شديدُ الضرر.

ويقال إذا كان تغييرُ كلةٍ هى عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب — فما الظنُّ بتغيير ما هو خبرٌ عن صفات للمعبود؟

ويقال إنَّ القولَ أنقصُ من العمل بكلِّ وجهٍ — فإذا كان التغيير فى القول يُوجِبُ كلَّ هذا.. فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل؟

قوله جل ذكره: ﴿ وَسأَلْهم عن القرية التى كانت
حاضِرةَ البحرِ إذْ يَعْدُون فى السَّبْتِ
إذ تأتيهم حِيتانُهم يومَ سبتِهم شُرَّعاً
ويومَ لا يَسْبِتُون لا تأتيهم كذلك
نَبْلُوهم بما كانوا يَفْسُقُون ﴾

كان دينهم الأخذ بالتأويل، وذلك رَوَغَانٌ — فى التحقيق[3]، وإن الحقائق تأبى

---

(١) سقطت (شاء) وقد أثبتناها قياساً على ما حدث فيما بعد.
(٢) سقطت (من السماء) من الناسخ.
(٣) تأمل مفهوم (التأويل) عند القشيرى، وكيف يعارضه إذا كان باطلاً.

إلا الصدق ، وإنَّ التعريج فى أوطان الحظوظ والجنوحَ إلى محتملات الرُّخَص فسْخٌ لأكيد مواثيق الحقيقة ، ومن شاب شوَّبَ له ، ومن صَفَّى صفى له .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قالت أُمَّةٌ منهم لِمَ تَعِظُون قوماً اللهُ مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهُم عذاباً شـديداً قالوا مَعْذِرةً إلى ربِّكم ولعَلَّهم يتَّقُون ﴾

الحقائق — وإن كانت لازمة — فليست للعبد عنه لوازم الشرع عاذرةً[1] بل الوجوبُ يُفْتَرَضُ شرعاً ، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به أنجيْنا الذين ينهوْن عن السُّوءِ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يَفْسُقُون ﴾

إذا تمادى العبد فى تَهَتُّكِه ، ولم يُبالِ بطول الإمهال والسَّتر لم تُهْمِلْ يدُ التقدير عن استئصال العين ، ومحو الأثر ، وسرعة الحساب ، وتعجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر . ثم البرىء فى فضـاء السلامة ، وتحت ظِلِّ الحفظ ، ودوام روْح التخصيص وبَرْدِ عيش التقريب .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما عَتَوْا عمَّا نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئين ﴾

إذا انتهت مدةُ الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال ، وإذا سقط العبدُ من عين الله لم ينتعشْ بعده أبداً ، فمن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبول له بعد الردِّ ، وفى معناه أنشدوا :

إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىء لم تكَدْ   إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ تأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة مَن يسومُهم سُوءَ

(1) أى لا ينبغى نصرة الحقيقة على حساب الشريعة بحال .

العذابِ ، إنَّ ربَّكَ لسريعُ العقابِ
وإنَّه لغفورٌ رحيم ﴾

إذا الحقُّ — سبحانه — أمضى سُنَّتَه بالإنذار وتقديم التعريف بما يستحقه كلُّ أحد على ما يحصل منه من الآثار إبداء العذر — وإنْ جلت[1] رتبته عن كل عذر — فإنْ يَنْجَعْ فيهم القولُ وإلا دَمَّرَ عليهم بالعذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقطعناهم فى الأرضِ أُمَمًا منهم
الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم
بالحسناتِ والسيئات لعلَّهم
يَرجِعون[2] ﴾

أجراهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاحٍ وسداد ، ومَعَاصٍ وفساد . ثم ابتلاهم بفنون الأفعال من محنٍ أزاحها ، ومن مِنَنٍ أتاحها ، وطالبهم بالشكر على ما أسدى ، والصبرِ على ما أبلى ، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرَهم فى الخلاف والوفاق ، والإخلاص والنفاق ؛ فأمَّا الحسناتُ فهى ما يُشْهِدهم المُجْرى ، ولا يُلْهيهم عن المُبْدى ، وأمَّا السيئاتُ فالتردد بين الإنجاز والتأخير ، والإباحة والتقصير .

ويقال الحسنة أن يُنْسِيَك نفسك ، والسيئةُ أنْ يُشْهِدَكَ نفسك .

ويقال الحسنات بتيسيرِ وقتٍ عن الغفلات خالٍ وتسهيل يومٍ عن الآفات بائن . والسيئاتُ التى ابتلاهم بها خذلانٌ حاصل وحرمانٌ متواصل .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا
الكتابَ يأخذون عَرَضَ هذا
الأدنى ويقولون سَيُغْفَرُ لنا ﴾

استوجبوا الذم بقوله — سبحانه : « فخلف من بعدهم خلف » لأنهم آثروا العَرَضَ[3]

---

(١) وردت (حلت) بالحاء وهى خطأ فى النسخ .
(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لعلهم يرجعون) .
(٣) وردت (الأرض) وهى خطأ فى النسخ فلفظة (عرض) مذكورة فى الآية .

الأدنى ، وركنوا إلى عاجل الدنيا ، وجعلوا نصيبهم من الآخرة للى فقالوا : « سيغفر لنا » .

ويقال من أمارات الاستدراج ارتـكابُ الزلة ، والاغترارُ بزمان المُهْلة ، وحَمْلُ تأخيرِ العقوبة على استحقاق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يأتِهم عَرَضٌ مثلُه يأخذوه ﴾

أخبر عن إصرارهم على الإغترار بالمنى ، وإيثار متابعة الهوى .

قوله جل ذكر : ﴿ ألَمْ يُؤْخَذْ عليهم ميثاقُ الكتابِ ألاَّ يقولوا على اللهِ إلا الحق ﴾

استفهام فى معنى التقرير[1] ، أى أُمِروا ألا يَصِفُوا الحقَّ إلا بنعت الجلال ، واستحقاق صفات الكمال ، وألا يتحاكموا عليه بما لم يأتِ منه خبر ، ولم يشهد بصحته برهانٌ ولا نظر .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَرَسُوا ما فيه ، والدارُ الآخِرة خيرٌ للذين يتقون ، أفلا تعقلون ﴾

يعنى تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان . يعنى التعرضُ لنفحات فضله — سبحانه — خيرٌ لمن أمَّلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بَذَلَ — فى تحصيل عوله — مجهودَه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتابِ وأقاموا الصلاة ﴾ .

يمسكون بالكتاب إيمانا ، وأقاموا الصلاة إحسانا ، فبالإيمان وجدوا الأمَان ، وبالإحسان وجدوا الرضوان ، فالأمانُ مُعَجَّل والرضوان مؤجل . ويقال « يمسكون بالكتاب » سبب النجاة ، وإقامة الصلاة تحقق المناجاة . فالنجاة فى المآل والمناجاة فى الحال .

ويقال أفرد الصلاة هاهنا بالذكر عن جملة الطاعات ليُعْلَمَ أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات .

---

(١) وردت (التقدير) بالدال وهى خطأ فى النسخ لأن المعنى يرفضها ، والاستفهام التقريرى مصطلح بلاغى

قوله جل ذكره : ﴿ إنا لا نُضِيعُ أجرَ المصلحين ﴾

مَنْ أَمَّلَ سببَ إنعامنا لم تَخْسِرْ له صفقة ، ولم تخفق[1] له فى الرجاء وفقة ، ويقال من نقل (. . . .)[2] إلى بابه قَدَمَه لم يَعْدِمِ فى الآجل نِعَمه ، ومَنْ رَفَعَ إلى ساحاتِ جوده هِمَّتَه نالَ فى الحالِ كرمه

ويقال مَنْ توَصَّلَ إليه بجوده نال فى الدارين شرَفَه . ومن اكتفى بجوده[3] كان اللهُ عنه خَلَفَه.

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ نتَقْنا الجَبَلَ فوقهم كأنه ظُلَّةٌ وظنوا أنه واقِعٌ بهم خُذُوا ما آتيناكم بقوةٍ ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾

ليس من يأتى طوعاً كن يأتى جَبْراً ، فإن الذى يأتى قهراً لا يعرف للحق — سبحانه — قدراً ، وفى معناه أنشدوا :

إذا كان لا يرضيك إلا شفاعة ... فلا خير فى ود يكون لشافعِ

وأنشدوا :

إذا أنا عاتبتُ الملولَ فإنما ... أَخُطُّ بأقلامى على الماء أحْرُفَا
وَهَبْهُ ارْعَوَى بعد العتاب ... ألم يكن توددُه طبعاً ، فصار تكلُّفا ؟

ويقال قصارى من أتى خيراً أن ينكص على عقبيه طوعاً ، كذلك لمَّا قابلوا الكتاب بالإجبار ما لبثوا حتى قابلوه بالتحريف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذ ربُّكَ مِن بنى آدمَ مِن

(١) وردت (تحقق) وهى خطأ فى النسخ لأن المعنى يرفضها .
(٢) مشتبهة وربما كانت (فى العاجل) .
(٣) الأصوب أن تكون هذه (بوجوده) أى من فنى عن نفسه وبقى بالحق كان الحق عنه خلفه .

ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على
أنفسهم ألستُ بربكم؟ قالوا:
بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة
إنَّا كُنَّا عن هذا غافلين * أو تقولوا
إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكُنَّا
ذُرِّيةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل
المُبْطِلُون؟﴾

أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق وعده، وتأكيد عناج[1] ودِّه، بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

سُقْياً لليلى والليالي التي كُنَّا بِلَيْلَى نلتقي فيها
أفديكِ بل أيامُ دهري كلها يفدين أياماً عَرَفْتُكِ فيها

ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بَصَرٌ، أو ظهر في قلوبهم لمصنوع أثَرٌ، أو كان لهم من حميم أو قريب أو صديق أو شفيق خبر، وفي معناه أنشدوا:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى وصادَفَ قلبي فارغاً فتمكنَّا

ويقال جمعهم في الخطاب ولكنه فرَّقهم في الحال. وطائفةٌ خاطبهم بوصف القربة فعرَّفهم في نفس ما خاطبهم، وفِرْقةٌ أبقاهم في أوطان الغيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم.

ويقال أقوام لاطَفَهم في عين ما كاشَفَهم فأقروا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم في نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود.

ويقال وَسَمَ بالجهل قوماً فألزمهم بالإشهاد ببيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد، وآخرين أشهدهم واضِحَ الحجة (. . . . . .)[2]

---

(1) العناج حبل يشد في أسفل الدلو العظيمة (المنجد).
(2) لابد أن هنا عبارة ساقطة.

ويقال تجلّى لقوم فتولّى تعريفهم فقالوا : « بلى » عن حاصل يقين ، وتعَزَّزَ عن آخرين فأثبتهم فى أوطان الجحد فقالوا : « بلى » من ظنٍّ وتخمين .

ويقال جمع المؤمنين فى الأسماع ولكن غاير بينهم فى الرتب ؛ فجَذَبَ قلوبَ قومٍ إلى الإقرار بما ألمحها فيه من المبارّ ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان وكاشفهم به من الأسرار .

ويقال فرقةٌ ردّهم إلى الهيبة فهاموا ، وفرقةٌ لاطفهم بالقربة فاستقاموا .

ويقال عرّف الأولياء أنه مَنْ هو فتحققوا بتخليصهم ، ولَبَّسَ على الأعداء فتوقفوا لحيرة عقولهم .

ويقال أسمعهم وفى نفس ما أسمعهم أحضرهم ، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم ، وقام عنهم فأنطقهم بحكم التعريف ، وحفظ عليهم — بحسن التولى — أحكامَ التكليف[1] وكان — سبحانه — لهم مُكَلِّفاً ، وعلى ما أراده مُصَرِّفاً ، وبما استخلصهم له مُعَرِّفاً ، وبما رقاهم إليه مُشَرِّفاً .

ويقال كاشف قوماً — فى حال الخطاب — بجماله فطوحهم فى هيمان حبه ، فاستكنت محابُّهم فى كوامن أسرارهم ؛ فإذا سمعوا — اليومَ — سماعاً تجددت (تلك الأحوال ، فالانزعاجُ الذى يَظْهَرُ فيهم لِتَذَكُّرِ ما سَلَفَ لهم)[2] من العهد المتقدم[3] .

ويقال أسمع قوماً بشاهد الربوبية فأصحاهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق ، وأسمع آخرين بشاهد الربوبية فمحاهم عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحود .

ويقال أظهر آثارَ العناية بدءاً حين اختصَّ بالأنوار التى رشت عليهم قوماً ، فَمَن حَرَمَتْه تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة ، ومَنْ أصابَتْه تلك الأنوارُ أفصحَ بما خُصَّ به من غير مقاساة كُلْفَة .

---

(١) لاحظ مدى إلحاح القشيرى على التزام أحكام التكليف ما سنحت له مناسبة .

(٢) ما بين القوسين مذكور فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامات المميزة

(٣) من هنا ومما تلاه يتضح كيف ارتبطت الولاية بالفطرة والاجتباء والخصوصية منذ يوم الذر وكذلك الشأن فى العداوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نفصِّل الآياتِ ولعلهم يرْجعُون ﴾

إذا سُدَّت[1] عيونُ البصائر فما ينفع وضوح الحُجَّة.

قوله جل ذكره : ﴿واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتِنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يظهر الأعداء فى صدار الخُلَّة ثم يردُّهم إلى سابق القسمة ، ويُبْرِزُ الأولياء بنعتِ الخلاف والزَّلة ، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة .

ويقال أقامه فى محل القربة ، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدَّ له من سابق التقدير ؛ فأصبح والكلْبُ دونه رتبة ، وأمسى والكلب فوقه — مع خساسته ؛ وفى معناه أنشدوا :

فبينا بخيرٍ والدُّنى مطمئنة وأصبح يوماً — والزمان تَقَلَّبا

ويقال ليست العِبْرَةُ بما يلوح فى الحال ، إنما العبرة بما يئول إليه فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾

لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تَلْحقْه الشقاوةُ الأبدية ، ولكن من قصمته السوابق لم تنعشه اللواحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾

إذا كانت مساكنةُ آدمَ للجَنَّةِ وطمعُه فى الخلود فيها أوجبا خروجَه عنها ، فالركونُ إلى الدنيا — متى يوجب البقاء فيها ؟

قوله جل ذكره : ﴿واتَّبعَ هواه﴾

موافقة الهوى تُنْزِلُ صاحبَها من سماء العِزِّ إلى تراب الذُّل ، وتلقيه فى وهدة الهوان ؛ ومن لم يُصَدِّق عِلْماً فعن قريبٍ يقاسيه وجوداً .

---

(١) وردت (شدت) والمعنى يرفضها ويبدو أن الناسخ قد حسب ضمة السين ثلاث نقط انظر (ولولا انسداد البصائر ص ٥٨٩ من هذا المجلد) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَثَلُه كَمَثَلِ الكلب ﴾

من أخلاق الكلب التعرُّضُ لِمَنْ لم يُخِفْه على جهة الابتداء ، ثم الرضاء عنه بلقمة .. كذلك الذى ارتدَّ عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر ، سيء الخُلُق ، يبدأ بالجفاء كُلَّ بريء ، ثم يبدأ طياشه بتَنْيل كُلَّ غَرَضٍ خسيس .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركه يلهث ذلك مَثَلُ القومِ الذين كذَّبوا بآياتنا فاقصُصِ القصصَ لعلّهم يتفكرون ﴾

المحجوب عن الحقيقة عنده الإساءةُ والإحسانُ (سيان)[1] ، فهو فى الحالين : إمَّا صاحب ضَجَر أو صاحب بَطَر ؛ لا يحمل المحنة إلا على زوال الدولة ، ولا يقابل[2] النعمة إلا بالنهمة ، فهو فى الحالين محجوبٌ عن الحقيقة .

ويقال الكلب نجاسته أصلية ، وخساسته كلية ، كذلك المردود فى الصفة ؛ له نقصان القيمة وحرمان القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ساءَ مَثَلاً[3] القومُ الذين كذَّبوا بآياتنا وأنفسَهم كانوا يظلمون ﴾

أى صفته أدنى من نعت من بُلِيَ بالإعراضِ الأزلىّ ، وأىُّ نعتٍ أعلى من وصف مَنْ أُكْرِمَ بالقبول الأبدىّ ؟ وأىُّ حيلةٍ تنفع مع مَنْ يخلق الحيلة ؟[4] وكيف تَصِحُّ الوسيلةُ إلا لمن منه الوسيلة ؟

---

(١) (سيان) زيادة أضفناها ليستقيم بها والمعنى ويقوى .

(٢) وردت (ولا يقال) وهى خطأ فى النسخ والمعنى يتطلب (ولا يقابل) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مثلان) .

(٤) نعرف من مذهب القشيرى أن (الحيلة) تنصرف إلى الإنسان ، وهو هنا يقرر أن الحيلة من خلق الحق ، وبهذا يتأكد اتجاهه الكلامى نحو جعل الله خالق كل شيء حتى أكساب العباد .

قوله جل ذكره: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فهو المهتدى
ومَن يُضْلِلْ فأولئك هم الخاسرون ﴾

ليست الهدايةُ من حيث السعاية، إنما الهداية من حيث البداية، وليست الهداية بفكر العبد وتَفَكُّرِه، إنما الهداية بفضل الحق وجميل ذكره.

قوله جل ذكره: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ
والإنس ﴾

مَنْ خَلَقَه لجهنم — متى يستوجب الجنَّاتِ؟
ومَنْ أهلَه للسخطة — أنَّى يستحق الرضوان؟
ولولا انسداد البصائر وإلا فأىُّ إشكالٍ بقى بعد هذا الإيضاح؟[1]

ويقال هم — اليومَ — فى جحيم الجحود، مُقَرَّنين فى أصفاد الخذلان، مُلْتَبِسين ثياب الحرمان، طعامُهم ضريع الوحشة، وشرابهم حميم الفرقة، وغداً هُمْ فى جحيم الحرقة[2].. كما فَصَّلَ فى الكتاب شرحَ تلك الحالة.

قوله جل ذكره: ﴿ لهم قلوبٌ لَّا يفقهون بها ولهم أعيُنٌ
لَّا يُبْصِرون بها ولهم آذانٌ لَّا يسمعون
بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ
أولئك هم الغافلون ﴾

أى لا يفقهون معانى الخطاب كما يفهم المُحَدَّثون[3]، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق

---

(١) يغمز القشيرى هنا بمن يقول بحرية الإنسان فى اختطاط مصيره باختياره وإرادته، ويرجع الأمر كله للقسمة.

(٢) لاحظ مفهوم الجحيم، فى تصور الصوفية، وهو جحيم الفراق — هنا فى هذه الدنيا. وبعده جحيم الاحتراق فى النار الآخرة.

(٣) يقول السراج فى شرح «المحدَّث» التى وردت فى الحديث الشريف:
«قد كان فى الأمم محدثون ومكلمون فان يكُ فى هذه الأمة فعمر» المحدَّث أعلى درجة من درجات الصديقين، ودلائل ذلك ظهرت عليه حين صاح فى خطبه: ياسارية الجبل، وكان سارية فى نهاوند فسمع صوت عمر وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو (اللمع ص ١٧٣).

وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان ، ولهم أعينٌ لا يُبْصِرون بها شواهدَ التوحيد وعلاماتِ اليقين ؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة ، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة ، ولا ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة .

« أولئك كالأنعام بل هم أضل » : لأنّ الأنعامَ قد رُفِعَ عنها التكليفُ ، وإن لم يكن لها وِفاقُ الشرع فليس منها أيضاً خلاف الأمر .

والأنعامُ لا يَهُمُّها إلا الاعتلاف ، وما تدعو إليه الجبلة من مباشرة الجنس ، فكذلك مَنْ أقيم بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النَّفْس ، وفي معناه أنشدوا :

نهارك يا مغرورُ سَهْوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ والرَّدى لك لازِمَ
وسعيك فيها سوف تكره غِبَّه كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

قوله جل ذكره : ﴿ وللهِ الأسماء الْحُسنَى فادعوه بها ، وذَرُوا الذين يُلحِدون في أسمائه سَيُجزَوْن[1] ما كانوا يعملون ﴾

سبحان مَنْ تعرَّف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرَّفهم أنه مَنْ هو ، وبأى وصفٍ هو ، وما الواجب في وصفه ، وما الجائز في نعته ، وما الممتنع في حقِّه وحكمه ، فتجلى لقلوبهم بما يكاشفهم به من أسمائه وصفاته ، فإن العقولَ محجوبةٌ عن الهجوم بذواتها لِمَا يَصِحُّ إطلاقُهُ في وصفه ، وإنْ كانت واقفةً على الواجب والجائز والممتنع في ذاته ، فبالعقل العرفان بالجملة ، وبالشرع الإطلاق والبيان في الإخبار ، والقول فيما وَرَدَ به التوفيق يُطْلَق ، وما سَكَتَ عنه التوفيق يُمْنَع . ويقال مَنْ كان الغالب عليه وصفٌ من صفاته ذَكَره بما يقتضى هذا الوصف ؛ فمن كان مكاشَفاً بعطائه[2] ، مربوطَ القلبِ بأفضاله فالغالب على قالته الثناء عليه بأنه الوهاب والبار والمُعطِي وما جرى مجراه . ومن كان مجذوباً عن شهود الإنعام ، مكاشَفاً بنعت الرحمة

---

(1) أخطأ الناسخ إذ زاد واواً قبل (ما كانوا) والصواب بدونها .

(2) وردت (بغطائه) بالغين والصواب ان تكون (بعطائه) بدليل (افضاله) و (الإنعام) فيما بعد فضلا عن الأسماء والصفات الإلهية المختارة (الوهاب والبار والمعطى) .

فالذى يغلب على ذكره وصفه بأنه الرحمن والرحيم والكريم وما فى معناه . ومَنْ مُحِقَتْ هِمَّتُهُ عن شهود وجوده ، واستهلك فى حقائق وجوده فالغالب على لسانه الحق . ولذلك فأكثر أقوال العلماء فى الإخبار عنه : « البارىء » لأنهم فى الترقى فى شهود الفعل إلى شهود الفاعل . وأمَّا أهل المعرفة فالغالب على لسانهم « الحق » لأنهم[1] مُخْتَطَفُون عن شهود الآثار، متحققون بحقائق الوجود .

ويقال إنَّ الله — سبحانه — وقف الخلق بأسمائه فهم يذكرونها قالةً ، وتعزَّزَ بذاته ، والعقول — وإنْ صَفَتْ — لا تهجم على حقائق الإشراف ، إذ الإدراك لا يجوز على الحق ؛ فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عند التعرض للإحاطة ، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذات ، والأبصار حسيرةٌ عند طلب الإدراك فى أحوال الرؤية ، والحق سبحانه عزيز ، وباستحقاق نعوت التعالى مُتَفَرِّد[2] .

قوله « وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » : الإلحاد هو الميل عن القصد ، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان ؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

أجرى الحقُّ — سبحانه — سُنَّتَهُ بألا يُخْلِيَ البسيطةَ من أهل لها هم الغياث وبهم دوام الحق فى الظهور ، وفى معناه قالوا :

إذا لم يكن قطبٌ فمن ذا يديرها ؟

فهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق، ويدلون على الحق، ويتحركون بالحق ، ويسكنون

---

(١) وردت (إليهم) ولا معنى لها فى السياق والصواب أن تكون (لأنهم) .

(٢) يلح القشيرى على هذا المعنى دائما فيقول فى تحديد العرفان (تنزه عن الدرك والوصول ، ليس بين الخلق إلا عرفان الحقائق بنعت التعالى فى شهود أفعاله ، فاما الوقوف على حقيقة إنيته جلت الصمدية عن شراف عرفان عليه) اللطائف (م) ص ٣٩٨ .

(٣) (لا تمثيل ولا تعطيل) هذا أصل من أصول المذهب الكلامى عند هذا الإمام .

للحق بالحق ، وهم قائمون بالحق ، يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غياث الخَلْق ، بهم يُسْقَوْنَ إذا قحطوا ، ويُمْطَرون إذا أجدبوا ، ويُجَابُون إذا دَعَوْا[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم
من حيث لا يعلمون * وأُمْـلى لهم
إنَّ كيدى متين ﴾

الاستدراج أن يلقى فى أوهامهم أنهم من أهل الوصلة ، وفى الحقيقة : السابقُ لهم من القسمة حقائقُ الفُرْقة .

— ويقال الاستدراجُ انتشار الصيت بالخير فى الخلْق ، والانطواء على الشر — فى السر — مع الحق .

ويقال الاستدراج ألا يزداد فى المستقبل محبةً إلا ازداد فى الاستحقاق نقصان رتبة .

ويقال الاستدراج الرجوع من توهم صفاء الحال إلى ركوب قبيح الأعمال ، ولو كان صادقاً فى حاله لـكان معصوماً فى أعماله .

ويقال الاستدراج دعوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة .

ويقال الاستدراج إفاضة البِّر مع (. . . .)[2] الشكر .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَ لَمْ يتفكروا ما بصاحبهم مِّن جِنَّةٍ
إنْ هُوَ إلا نذيرٌ مبين ﴾

أو لم يتأملوا بأنوار البصائر ليشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله — عليه السلام — ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متخرص .

ويقال إن برود[3] الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — كانت بنسيم القربة

---

(١) هذه نظرة القشيرى الى الولاية والأولياء ومعنى القطب وأهميته .
(٢) مشتبهة .
(٣) جمع بُرْد

معطرة (١)، ولكن لا يُدْرِكُ ذلك النَّشْرُ إلا بِشَمِّ العرفان، فمَنْ فَقَدَ ذلك — فأى خبر (٢) له عن حقيقة حاله — صلوات الله عليه .

قوله جل ذكره : ﴿أَوَ لم ينظروا فى ملكوتِ السمواتِ والأرض وما خَلَقَ اللهُ مِن شىء﴾

أطلع الله — سبحانه — أقمار الآيات، وأماط عن ضيائها سحابَ الشبهات؛ فمَنْ استضاء بها ترقَّى إلى شهود القدرة .

ويقال ألاح الله تعالى — لقلوب الناظرين بعيون الفكر — حقائقَ التحصيل؛ فمَنْ لم يُعَرِّج فى أوطان التقصير أَنْزَلَتْه مراكبُ السِّرِّ بساحات التحقق .

قوله جل ذكره : ﴿وأَنْ عسى أن يكونَ قد اقترب أجَلُهم فبأىِّ حديثٍ بعده يؤمنون﴾

الناس فى مغاليط آمالهم ناسون لو شيك آجالهم، فكم من ناسجٍ لأكفانه! وكم من بانٍ لأعدائه! وكم من زارعٍ لم يحصد زرعه!

هيهات! الكبش يعتلف والقَصَّابُ مُسْتَعِدٌ له!

ويقال سرعة الأَجل تُنَغِّص لذة الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فلا هَادِىَ له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾

مَنْ حَرَمَه أنوارَ التحقيق فهو فى ضباب الجهل، فهو يَزِلُّ يميناً ويسقط شمالاً .

قوله جل ذكره : ﴿يسألونك عن الساعة أيَّان مُرساها
قُلْ إنما علمها عند ربى لا يجلِّيها
لوقتها إلا هو، ثَقُلَتْ فى السمواتِ
والأرضِ لاتأتيكم إلابَغْتَةً، يسألونك

---

(١) وردت (مطرة) بدون عين، والسياق يتطلب (معطرة) لتناسب النسيم والشم والنشر
(٢) وردت (خير) والمقصود هاى (خبر) أى فأى علم له عن حقيقة المصطفى (ص) .

كأنك حفِيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ،
ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾

السائلُ عن الساعةِ رجلان ؛ مُنْكِرٌ يتعجَّبُ لفَرْطِ جهله ، وعارفٌ مشتاقٌ يستعجل لِفَرْطِ شوقه ، والمتحقق بوجوده ساكنٌ في حاله ؛ فسيان عنده قيام القيامة ودوام السلامة .

ويقال الحق — سبحانه — استأثر بعلم الساعة ؛ فلم يُطلِعْ على وقتها نبيًّا ولا صفيًّا ، فالإيمان بها غيبي ، ويقين أهلِ التوحيد صادق[1] عن شوائب الرَّيْب . ثم مُعَجَّلُ قيامتهم يُوجِبُ الإيمانَ بمؤجلها[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لا أملِكُ لنفسي نفعاً ولا ضَرّاً
إلا ماشاء اللهُ ، ولو كنتُ أعلمُ
الغيبَ لاستكثرتُ من الخيْر ،
وما مَسَّنِيَ السُّوء إنْ أنا إلا نذيرٌ
وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون ﴾

أمَرَه بتصريح الإقرار بالتبري عن حوله ومُنَّتِه ، وأن قيامه وأمرَه ونظامَه بطوْل ربه ومنَّتِه ؛ ولذلك تتجنَّسُ عليَّ الأحوال ، وتختلف الأطوار ؛ فَمِنْ عُسْرٍ[3] يَمَسُّني ، ومِنْ يسرٍ[4] يخصني ، ولو كان الأمر بمرادي ، ولم يكن بيَدِ غيري قيادي لتشابهت أحوالي في اليسر ، ولتشاكلت أوقاتي في البعد من العسر .

قوله جل ذكره ﴿ هو الذي خلقكم مِّن نَّفْسٍ واحدةٍ
وجعل منها زوجها ﴾

أخرج النَّسَمَة من نَفْسٍ واحدة وأخلاقهم مختلفة ، وهممهم متباينة ، كما أن الشخص من

---

(١) وربما كانت (صاف) في الأصل

(٢) القيامة المعجلة التي يشير إليها هي (التي تقوم في اليوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق) اللطائف (م) ٣٥١ ، فالمقصود من العبارة إذاً أن أهل الخصوص يؤمنون إيمان يقين بالقيامة المؤجلة لأنهم يشهدون ويتذوقون القيامة المعجلة ، وقد صدق القشيري إذ يقول في رسالته : (فما الناس غيب فلهم ظهور) الرسالة ص ١٩٨ .

(٣) وردت (عصر) . (٤) وردت (يستر) وقد صوبناهما (عسر ويسر) في ضوء ما قالاها .

نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاؤه مختلفة . فمَنْ قَدرَ على تنويع النطفة المتشاكلة أجزاؤها فهو القادر على تنويع أخلاق الخلْق الذين أخرجهم من نَفْس واحدة .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَسْكُنَ إليها فلمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفاً فَمَرَّتْ به فلمَّا أثقلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهما لئن آتَيْتَنَا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾

ردَّ المِثْل إلى المِثْل ، وربط الشَّكلَ بالشكل ، ليَعْلَمَ العالمون أن سكون الخلْق مع الحق لا إلى الحق ، وكذلك أُنسل الخلْق من الخلق لا من الحق ، فالحقُّ تعالى قدوس ؛ منه كل حظ للخلق خلْقا ، منزه عن رجوع شيء إلى حقيقته حقًّا

قوله جل ذكره ﴿ فلمَّا آتاهُمَا صالحًا جَعَلاَ له شركاء فيما آتاهما فتعالى اللهُ عما يُشْرِكون ﴾

شرُّ الناس من يبتهل إلى الله عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء ، وشدة التضرع والبكاء ، فإذا أزيلت شكاتُه ، ودُفِعت ـــ بمِنَّتِه ـــ آفاتُه ضيَّعَ الوفاء ، ونَسِيَ البلاء، وقابل الرِّفْدَ[1] بنقْضِ العهد ، وأبدل العقدَ برفض الود ، أولئك الذين أبعدهم الله فى سابق الحكم ، وخرطهم فى سِلْك أهل الرد[2]

قوله جل ذكره : ﴿ أَيُشْرِكون ما لا يَخْلُقُ شيئاً وهم يُخْلَقُون ﴾

كما لا يجوز أن يكون الربُّ مخلوقاً لا يجوز أن يكون غير الرب خالقاً ، فَمَنْ وَصَفَ الحقَّ بخصائص وصف الخلْق فقد ألْحَدَ ، ومَنْ نَعَتَ الخلْقَ بما هو من خصائص حق الحق فقد جحدَ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يستطيعون لهم نَصْراً ولا أنفُسَهم يَنصُرون ﴾

مَنْ حَكَمَ بأنه ليس فى مقدور الحق شيء (لو فعله اسم الجاهل طوعاً إلا فعله)[3] فقد

---

(1) (الرفد) هو العطاء .

(2) وردت (الود) وهى خطأ فى النسخ

(3) ما بين القوسين جاء فى النسخة المصورة هكذا ، وفيه غموض وربما نشأ من خطأ فى النسخ .

وصف بأنه لا يقدر على نصره فَمُضَاهٍ الذى يعبد الجماد ، ونعوذ بالله من الضلالة عن الرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تَدْعُوهُم إلى الهُدَى لايتَّبِعُوكم
سَوَاءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم
صامتون ﴾ .

المعبودُ هو القادر على هداية داعيه ، وعِلْمُ العبد بقدرة معبوده يوجِبُ تبرِّيه عن حوْله وقوته ، وإفرادَ الحق — سبحانه — بالقدرة على قضاء حاجته ، وإزالة ضرورته فتتقاصر عن قَصْدِ الخَلْق خطاه[1] ، وتنقطع آماله عن غير مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين تدعون من دون الله
عِبادٌ أمثالُكم،فادعوهم فلْيَسْتَجِيبُوا
لكم إن كنتم صادقين ﴾

إذا قُرِنَتْ الضرورةُ بالضرورة تضاعف البلاء ، وترادف العناء ؛ فالمخلوق إذا استعان بمخلوقٍ مثلِه ازداد بُعْدُ مرادِه عن النُّجح . وكيف تشكو لمن هو بنو شكاية ؟! هيهات ! إن ذلك خطأ من الظن ، وباطل من الحسبان .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَهُمْ أرْجُلٌ يمشون بها أمْ لهم
أيدٍ يَبْطِشُون بها أمْ لهم أعينٌ
يُبْصِرون بها ، أمْ لهم آذانٌ
يسمعون بها ﴾

بيَّن بهذه الآيات أن الأصنام التى عبدوها دونَهم فيما اعتقدوا فيه صفة المدح ، ثم لم يعبد بعضهم بعضاً فكيف استجازوا عبادةَ ما فاقهم[2] فى النقص ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكم ثم كِيدُونِ
فلا تُنظِرُونِ ﴾

---

(١) وردت (خطاؤه) والصواب أن تكون (خطاه)

(٢) وردت (فوقهم) والأرجح أنها ما (فاقهم) فى النقص لأن الأصنام أقل قدراً من الإنسان ، حيث لا تملك يداً او عيناً أو أذناً ، ولاتمشى ولا تبطش ولا تضر ولا تنفع ، فإذا كان الإنسان مع ذلك موصوفاً بالنقص فالصنم أشد نقصاً .

صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله ، كيف لا .. والمتفرِّدُ بالقدرة — على النفع والضرر ، والخير والشر — اللهُ ؟.

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الذى نَزَّلَ الكتابَ وهو يتولَّى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصرَكم ولا أنفُسَهم يَنصُرون ﴾

مَنْ قام بحقِّ الله تولَّى أمورَه على وجه الكفاية ، فلا يخرجه إلى أمثاله ، ولا يَدَعَ شيئاً من أحواله إلاَّ أجراه على ما يريده بِحُسْنِ أفضاله ، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبدَ راضياً بما يفعل ، ورَوْحُ الرضا على الأسرار أَتَمُّ من راحة العطاء على القلوب

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تَدْعُوهم إلى الهُدَى لا يسمعوا ، وتراهم يَنظرون إليكَ وهم لا يُبْصِرون ﴾

شاهدوه بأبصارهم لكنهم حُجِبُوا عن رؤيته ببصائر أسرارهم وقلوبهم فَلَمْ يُعْتَدَّ برؤيتهم .

ويقال رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم ، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب ، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذِ العفْوَ وأمُرْ بالعُرْف وأعْرِضْ عنِ الجاهلين ﴾

من خصائص سُنَّةِ الله فى الكرم أنه أمر نبيَّه — صلوات الله عليه وعلى آله — بالأخذ به ، إذ الخبر وَرَدَ بأنَّ المؤمن أخذ من الله خُلُقاً حسناً . وكلما كان الجُرْمُ أكبرَ كان العفو عنه أجَلَّ وأكمل ، وعلى قَدْرِ عِظَمِ رتبة العبد فى الكرم يتوقف العفو

عن الأصاغر والخدم، قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الجراحات[1] التى أصابته فى حرب أُحُد : « اللهم اغفِرْ لقومى فإنهم لا يعلمون » .

قوله « وَأْمُرْ بالعُرْفِ » : أفضل العرف أن يكون أكمل العطاء لأكثر أهل الجفاء ، وبذلك عامل الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ الناسَ .

قوله : « وأعرض عن الجاهلين » : الإعراض عن الأغيار بالإقبال على من[2] لم يَزَلْ ولا يزال ، وفى ذلك النجاة من الحجاب ، والتحقق بما يتقاصر عن شرحه الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ ، فاستَعِذْ باللهِ إنَّهُ سميعٌ عليم ﴾

إنْ سَنَح فى باطنك من الوساوس أثرٌ فاستعِذْ بالله يدركك بحسن التوفيق ، وإنْ هَجَسَ فى صدرك من الحظوظ خاطر فاستعِذْ بالله يدركك بإزالة كل نصيب ، وإنْ لَحِقَتْكَ فى بذل الجهد فَتْرَةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة آلائه ، وإنْ اعترتْكَ فى الترق إلى محل الوصول وقفةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة التحقيق ، وإنْ تقاصر عنك شيء من خصائص القرب — صيانةً لك عن شهود المحل — فاستعِذْ بالله يُثْبِتْك له بدلاً مِنْ لَكَ بِكَ[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين اتَّقَوْا إذا مسَّهُم طائِفٌ مِنَ الشيطانِ تذكَّروا فإذا هم مُبْصِرُون ﴾

إنما يمس للتقين طيفُ الشيطانِ فى ساعات غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا

(١) وردت (الجراهات) بالهاء وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (ما لم يزل) وقد آثرنا (من لم يزل) لأن (من) للعاقل

(٣) تصلح هذه الفقرة وصية للمريدين ، وتبين عن أسلوب القشيرى فى الوصية من الناحيتين الصوفية والأدبية .

ذكر الله بقلوبهم لما مسّهم طائف الشيطان ، فإن الشيطانَ لا يَقرَبُ قلباً في حال شهوده الله ، لأنه ينخنس عند ذلك . ولكن لكل صارمٍ نبوة ، ولكلّ عالمٍ هفوة ، ولكل عابدٍ شدة ، ولكل قاصدٍ فترة ، ولكل سائر وقفة ، ولكل عارفٍ حجبة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليُغان على قلبي . . . . »[1] أخبر أنه يعتريه ما يعتري غيرَه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الحِدَّةُ تعترى خيار أمتى »[2] ، فأخبر أنَّ خِيارَ الأمة — وإنْ جَلَّتْ رُتبَتهُم لا يتخلصون عن حِدَّةٍ تعتريهم في بعض أحوالهم ، فتخرِجُهم عن دوام الحِلْم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإخوانُهم يَمُدُّونَهم في الغَيِّ ثم لا يُقصِرون ﴾

إخوانُ الشيطانِ أربابُ دوامِ الغيبة ؛ فهم في كال الغفلة تدوم بهم الحجبة ؛ فمنهم بالزَّلَّة مَنْ لم يُلِمْ ، أو ألَمَّ ولكن لم يُصِرّ فهم خِياره[3] ، ومنهم مَنْ غَفَلَ واغترّ ، وعلى دوام الغيبة أصَرّ — فهم المحجوبون قطعاً ، والمُبْعَدُون[4] — عن محلّ القربِ — صدًّا[5] وردًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لم تأتِهم بآيةٍ قالوا لولا اجتَبَيْتَها ، قُلْ إنما أتّبِع مايوُحَى إلىَّ مِن رَّبى ، هذا بصائرُ مِن

---

(١) « إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة »
أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، وفى رواية لمسلم : « توبوا الى ربكم فوالله إنى لأتوب الى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة »
ويقول صاحب اللمع : الغين الذى كان يتوب منه الرسول مثله مثل المرآة اذا تنفس فيها الناظر فينتقص من ضوئها ثم تعود إلى حالة ضوئها (اللمع ص ٤٥١) .
(٢) قال (ص) (انى بشر أغضب كما يغضب البشر) الشيخان عن أبى هريرة وأحمد ومسلم عن جابر
(٣) من هذا يتضح مدى انفساح الأمل أمام العصاة ، وكيف أن باب التوبة يتسع لأمالهم .
(٤) وردت المبودون وهى خطأ فى النسخ
(٥) وردت (صمد) وهى خطأ فى النسخ وقد تقدم معنى الصد والرد

ربكم وهدىً ورحمةٌ لقوم
يؤمنون ﴾

مَنْ شاهَدَ الحقَّ من حيث الخلْق سقط فى مهواة المغاليط ، فهو فى متاهات الشكّ يجوب منازلَ الرّيب ، ولا يزداد إلا عمىً على عمىً . ومَنْ طالَعَ الخَلْق بعين تصريف القدرة إيام تحقق بأنهم لا يظهرون إلا فى معرض اختيار الحق لم ، فهو ينظر بنور البصيرة ، ويستديم شهود التصريف بوصف السكينة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قُرِىء القرآنُ فاستمِعُوا له
وأنصِتوا لعلكم تُرْحَمُون ﴾

اسْتَمِعُوا بسمع الإيمان والتصديق ، وأنْصِتوا (بصون) الخواطر عن معارضات الاعتراض ، ومطالبات الاستكشاف . ومن باشرَ التحقيقُ سِرَّه لازم التصديقُ قلبَه .

والإنصات — فى الظاهر — من آداب أهل الباب ، والإنصات — بالسرائر — من آداب أهل البِساط ، قال الله تعالى فى نعت تواصى الجنّ بعضهم لبعض عند شهود الرسول صلى الله عليه وسلم « فلما حضروه قالوا أنصتوا »[1] ، فإذا كان الحضور إلى الواسطة عليه السلام يوجب هذه الهيبة فلزومُ الهيبة وحفظُ الأدب عند حضور القلب بشهود الربّ أولى وأحق ، قال تعالى : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكرْ ربك فى نفسك تضرعاً
وخيفةً ودونَ الجهر من القول بالغُدُوِّ
والآصالِ ولا تكن من
الغافلين ﴾[3] .

التضرعُ إذا كوشِفَ العبدُ بوصف الجمال فى أوان البسط ، والخيفة إذا كوشف بنعت الجلال فى أحوال الهيبة ، وهذا للأكابر .

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .
(٢) آية ١٠٨ سورة طه .
(٣) أخطأ الناسخ اذ كتبها (الغافلون)

فأمَّا مَنْ دونَهم فتَنَوُّعُ أحوالهم من حيث الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . ومن فوق الجميع فأصحاب البقاء والفناء ، والصحو والمحو ووراءهم أرباب الحقائق مُثْبَتُون فى أوطان التمكين ، فلا تلَوُّنَ لهم ولا تجنُّسَ لقيامِهم بالحق ، وامتحائهم عن شواهدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين عند ربِّك لا يستكبِرون عن عبادته ويُسَبِّحونه وله يسجدون ﴾ .

أثبت لهم عندية الكرامة ، وحفظ عليهم أحكام العبودية لئلا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم[1] ، وهذه سُنَّة الله تعالى مع خواص عباده ؛ يلقاهم بخصائص عين الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين الفَرْق لئلا يُخِلُّوا بآداب العبودية فى أوان وجود الحقيقة[2] .

السورة التى تذكر فيها الأنفال

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله إخبار عن قدرته على الإبداع والاختراع ، الرحمن الرحيم إخبار عن تصرفه بالإقناع وحُسْنِ الدِّفاع ؛ فبقدرته أوجد ما أوجد من مراده ، وبنصرته وَحَّدَ مَنْ وحَّد

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونَكَ عنِ الأنفالِ قُلِ الأنفالُ لله والرسولِ ﴾ .

الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين ، وكان سؤالهم عن حكمها ، فقال الله تعالى : قُلْ لهم إنها لله مِلْكًا ، ولرسوله — عليه السلام — الحُكمُ فيها بما يقضى به أمراً وشرعاً .

---

(١) وردت فوقهم بالواو والصواب (فرقهم) بالراء ، فالكلام عن الجمع والفرق .

(٢) لاحظ هنا كيف يلح القشيرى دائماً على عدم الإخلال بأى شرط من شروط الشريعة مهما أوغل العبد فى الفناء ، بل يعتبر حفظ الله لِعبده فى هذه المرحلة الحاسمة علامة صدق القصد وآية خصوصيته .

قوله جل ذكره : ﴿فاتقوا اللهَ وأصلحوا ذاتَ بينِكم﴾.

أى أجيبوا لأمر الله ، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالكم ، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقِّ على مراد النفْس ، وأصلحوا ذات بَيْنِكم ، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفْس ، وإيثار حقِّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظِّ ، وتنقية القلوب عن خفايا الحسد والحقد .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا اللهَ ورسولَه ﴾ :

أى فى الإجابة إلى ما يأتيكم من الإرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أى سبيلُ المؤمنِ ألا يخالفَ هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زَادَتْهم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾ .

الوَجَل شِدَّة الخوف ، ومعناه ها هنا أنْ يُخْرِجَهم الوَجَلُ عن أوطان الغفلة ، ويزعجهم عن مساكن الغيبة . فإذا انفصلوا عن أوْدية التفرقة وفاءوا إلى مَشَاهِدِ الذكر نالوا السكون إلى الله — عز وجل ؛ فيزيدُهم مايُتْلَى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق ، وتحقيقاً على تحقيق . فإذا طالعوا جلال قَدْرِهِ ، وأيقنوا قصورَهم عن إدراكه ، توكلوا عليه فى إمدادهم بالرعاية فى نهايتهم ، كما استخلصهم بالعناية فى بدايتهم .

ويقال سُنَّة الحقِّ — سبحانه — مع أهل العرفان أن يُرَدِّدَهم بين كَشْفِ جلالٍ ولُطْف جمال ، فإذا كاشفهم بجلاله وَجِلَتْ قلوبُهم ، (وإذا لاطفهم بجماله سَكَنَتْ قلوبهم ، قال الله تعالى : « ولتطمئن قلوبهم بذكر الله » . ويقال وجلت قلوبهم)[1] بخوف فراقه ، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروْح وصاله . وذكر الفراق يُفْنيهم وذكر الوصال يُصْحيهم ويُحْيِيهم .

---

(١) ما بين القوسين مذكور فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

ويقال الطالبون فى نَوْحِ رهبتهم ، والواصلون فى روْح قربتهم ، والموحِّدون فى محو غيبتهم ؛ استولت عليهم الحقائق فلاهم تطلع لوقتٍ مستأنف فيستفزهم خوف أو يجرفهم طمع ، ولا لهم إحساس فَتَمْلِكَهُم لذة ؛ إذ لمّا[1] اصْطُلِمُوا ببوادهٍ ما ملَكَهُمْ فهُمْ عنهم مَحْوٌ ، والغالبُ عليهم سواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يقيمون الصلاةَ ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقّاً لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم ﴾

لا يرضَوْن فى أعمالهم بإخلال ، ولا ينصفون بجمْعِ مال من غير حلال ، ولا يُعَرِّجون فى أوطان التقصير بحال ، أولئك الذين صفتهم ألا يكون للشريعة عليهم نكير ، ولا لهم عن أحكام الحقيقة مقيل .

« فهم المؤمنون حقّاً » أى حققوا حقّاً وصدقوا صدقاً . ويقال حق لهم ذلك حقاً .

قوله : « لهم دَرَجاتٌ عند ربهم » على حسب ماأَهَّلَهُمْ له من الرُّتَبِ ؛ فبِسَابقِ قِسْمَتِه لهم استوجبوها ، ثم بصادقِ خِدْمَتِهم — حين وفَّقَهم لها — بلغوها .

ولهم مغفرةٌ فى المآل ، والسَّتْرُ فى الحال لأكابرهم ؛ فالمغفرة الستر ، والحق سبحانه يستر مثالبَ العاصين ولا يفضحهم لئلا يحجبوا عن مأمول أفضالهم ، ويستر مناقبَ العارفين عليهم لئلا يُعْجَبُوا بأعمالهم وأحوالهم ، وفَرْقٌ بين سَتْرٍ وَسَتْرٍ ، وشتَّان ماهما !

وأمَّا الرزق الكريم فيحتمل أنه الذى يعطيه من حيث لا يحْتَسَبُ ، ويحتمل أنه الذى لا يَنْقُصُ بإجرامهم ، ويحتمل أنه مالا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق ، ويحتمل أنه رزق الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات .

قوله جل ذكره : ﴿ كما أخرجَكَ ربُّك مِنْ بيتِكَ بالحقِّ وإنَّ فريقاً مِنَ المؤمنين لكارِهون ﴾

---

(١) وردت (لم) والسياق يقتضى (لما) .

بَيْنَ — سبحانه — أن الجدالَ منهم عادة وسَجِيَّةٌ ، ففى كل شىء لهم جدال واختيار ؛ فكرهُوا خروجَه إلى بَدْر، كما جادلوا فى حديث الغنيمة ، قال تعالى: « يسألونك عن الأنفال» وما يكون من خصال العبد غير متكرر ويكون على وجه الندرة كان أقربَ إلى الصفح عنه والتجاوز ، فأمَّا إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب

ويقال مالم تباشر خلاصةُ الإيمان القلبَ لا يوجد كمالُ التسليم وترك الاختيار ، وما دام يتحرك من العبد عِرْقٌ فى الاختيار فهو بعيدٌ عن راحة الإيمان .

ولقد أجرى الله سُنَّتَه مع أوليائه ، وكذلك كانت سُنَّتُه مع أنبيائه ألا يفتح لهم كمالَ النُّعمى إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان ، والتجرد عن مساكنة مافيه[1] حظ ونصيب مِنْ كل معهود

ويقال إن فى هجرة الأنبياء — عليهم السلام — عن أوطانهم أماناً لهم من عادية الأعادى ، وإحياء لقلوب قومٍ تقاصرتْ أقدامُهم عن المسير[2] إليهم .

وكذلك هجرة الأولياء من خواصه ؛ فيها لهم خلاصٌ من البلايا ، واستخلاصٌ للكثيرين من البلايا .

قوله جل ذكره : ﴿ يُجادِلونكَ فى الحقِّ بعدما تبيَّن
كأنَّما يُساقون إلى الموتِ
وهُم يَنظُرُون ﴾

جحودُ الحقِّ بعد وضوح برهانه علمٌ[3] لاستكبار صاحبه ، وهو — فى الحال — فى وحشة غَيِّه ، معُاقَبٌ بالصد وتنغُّص العَيْش ، يَمَلُّ حياتَه ويتمنى وفاتَه ؛ « كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ يَعِدُكُم اللهُ إحدى الطائفتين
أنَّها لكم وتودُّون أنَّ غيرَ ذاتِ
الشوكةِ تكون لكم ويريد الله أن

---

(١) وردت (ما لم فيه) وربما كانت (ما لهم فيه)
(٢) وردت (المصير) والصحيح (مسير) الذين لم تتح لهم فرصة الانتقال إلى أماكن الأنبياء .
(٣) ضبطنا (علم) هكذا لكى تؤدى معنى (علامة) على الاستكبار ، فهكذا يتطلب السياق .

يُحِقَّ الحقَّ بكلماته ويقطعَ دابرَ
الْـكافِرِينَ ﴾.

التمريجُ فى أوطان الـكسل ، ومساكنة مألوفات الراحه من خصائص أحكام النَّفْس . فهى بطبعها تؤثِرُ فى كل حالٍ نصيباً ، وتتعجل لذةً حظًّا . ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النعم إلا بتجرُّع كاسات الشدائد ، والانسلاخ من معهودات النصيب . « ويريد الله أنْ يُحَـقَّ الحق بكلماته » أى إذا أراد اللهُ — سبحانه — تخصيصَ عبدٍ بولايته قضى على طوارقِ نفسه بالأفول ، وحكم لبعض شهواته بالذبول ، وإلى طوالع الحقائق بإشراقها ، ولجوامع للوانع باستحقاقها .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُحِـقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ
ولو كَرِهَ المجرمون ﴾

ليحق الحقَّ بالتوفيق فيا يحصل ببذل المجهود ، والتحقيق لما يظهر من عين الجود .

ويقال ليُحِقَّ الحقَّ بنشر أعلام الوصل ، ويُبْطِلَ الباطلَ بقهر أقسام العزل .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تستغيثون ربَّـكم فاستجابَ لـكم
أنِّى مُمِدُّكم بألفٍ من الملائـكة
مُرْدِفين * وما جعله الله إلا بُشْرى
ولتطمئِنَّ به قلوبُـكم وما النَّصرُ إلا مِنْ
عند اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾.

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنة والطاقة ، والتحقق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشـكاة تيسيرٌ للمسئول وتحقيق للمأمول . فإذا صدقت الاستغاثة بتَعَجُّلِ الإجابة حَصَلَتْ الآمالُ وقُضِيَتْ الحاجة . . بذلك جرَتْ سُنَّتُهُ الـكريمة .

ويقال بَشَّرَهم بالإمداد بالمَلَك ، ثم رقَّاهم عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من المَلِكِ ، ولم يَدَّرْهم فى المساكنة إلى الإمداد بالمَلَك فقال : « وما النصر إلا من عند الله » ثم قال : « إن الله عزيز » فالنجاة من البلاء حاصلة ، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة ، والدعوات مسموعة ، والإجابة غير ممنوعة ، وزوائد الإحسان مُتَاحة ، ولـكن الله عزيز

الطالبُ واجدٌ ولكن بعطائه، والراغب واصل ولكن إلى مبارِّه . والسبيلُ سهلٌ ولكن إلى وجدان لطفه، فأمّا الحقُّ فهو عزيز وراء كل وصل وفصل، وقُرْبٍ وبُعْد، وما وَصَلَ أحدٌ إلا إلى نصيبه، وما بقي أحدٌ إلا عن حظه، وفي معناه أنشدوا :

وقُلْنَ لنا نحن الأهِلَّةُ إنما نضيء لمن يسرى بليلٍ ولا نُقْرِى

فلا بَذْلَ إلا ما تَزَوَّدَ ناظرٌ ولا وصلَ إلا بالجمال الذى يسرى

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً منه ويُنَزِّلُ عليكم مِّنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكم به ويُذْهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطانِ ولِيَرْبِطَ على قلوبكم ﴾

غَشِيَهم النُّعاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم(١) ونفوسهم كَدَّ الأغيار والكلال، وأنزل على قلوبهم رَوْحَ الأمن، وأمطرت السماء فاغتسلوا بعدما لزمتهم الطهارة الكبرى بسبب الاحتلام، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترسب الأقدام في رَملها، وانتفى عن قلوبهم ما كانت الشياطين توسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناء بسلوك رَمْلِها وبالانتفاء عن الغُسْل، فلمّا (. . . .)(٢) الإحساس، واستمكن منهم النُّعاس، وتداركتهم الكفاية والنصرة استيقنوا بأن الإعانة من قِبَل الله لا بسكونهم وحركتهم، وأشهدهم صرف التأييد وإتمام الكفاية

وكما طَهَّرَ ظواهرهم بماء السماء طهَّر سرائرهم بماء التحقيق عن شهود كلِّ غير وكلِّ عِلَّة، وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوساوس، وربط على قلوبهم بشهودهم جريان التقدير على حسب ما يجرى الحقُّ من فنون التصريف.

قوله جل ذكره : ﴿ ويُثَبِّتَ به الأقدامَ ﴾ .

---

(١) وردت (زواهرم) والصواب أن تكون (ظواهرم) لتتلاءم مع (نفوسهم)
(٢) مشتبهة وربما كانت (زايلهم)

أقدامَ الظاهر فى مَشَاهِدِ القتال ، وأقدامَ السرائر على نهج الاستقامة بشهود مجارى التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يُوحِى ربُّكَ إلى الملائكة أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا[1] الذين آمَنُوا سأُلقِى فى قلوب الذين كفروا الرُّعبَ ﴾ .

عَرَّفَنَا أنَّ الملائكة محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد وتثبيتُ الملائكة للمؤمنين : قيل كانوا يَظْهَرُون للمسلمين فى صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد المشركين واستيلاء المسلمين عليهم ، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة .

وقيل تثبيتهم إياهم بأن كانوا يلقون فى قلوبهم ذلك مِنْ جهة الخواطر ، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك ، فكما يُوَصِّلُ الحق سبحانه — وساوسَ الشيطان إلى القلوب يوصل خواطرَ المَلَكِ ، وأَيَّدَهم بإلقاء الخوف والرعب فى قلوب الكفار .

قوله جل ذكره : ﴿ فاضربوا فوقَ الأعناق واضربُوا منهم كلَّ بَنَانٍ * ذَلِك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه ﴾ .

وذلك بأمر الله وتعريفه من جهة الوحى والكتاب ، ويكون معناه إباحة ضربهم ونيلهم على أى وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليهم . ويحتمل فاضربوا فوق الأعناق ضرباً يوجِبُ قَتْلَهم ؛ لأنه لا حياةَ بعد ضَرْبِ العُنُقِ ، ولفظُ فوق يكون صلة .

« واضربوا منهم كُلَّ بنان » أى ضرباً يُعْجِزهم عن الضرب ومُقَاتلَةِ للمسلمين ؛ لأنه لا مقاتلةَ تحصل بعد فوات الأطراف .

« ذلك بِأَنَّهُمْ شاقوا الله ورسوله » بَيَّنَ أنهم فى مَغَاليط حسبانهم وأكاذيب ظنونهم . والمُنْشِىء — بكلِّ وجه — اللهُ ، لانفراده بقدرة الإيجاد

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (فثبت)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يشاقِقِ اللهَ ورسولَه فإنَّ الله شديدُ العقاب ﴾ .

يُمْهِلُ المجرمَ[1] أياماً ثم لا يهمله ، بل يُذيقه بأسَ فعله ، ويزيل عنه شُبْهةَ ظنِّه

قوله جل ذكره : ﴿ذلكم فذوقوه وأنَّ للكافرين عذاب النار[2] ﴾ .

ذلكم العذاب فذوقوه — أيها المشركون — مُعَجَّلا ، واعلموا أن للكافرين عذاباً مؤجَّلاً ، فللعاصين عقوبتان مُحَصَّلٌ بنقد ومؤخَّرٌ بوعد .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا[3] إذا لقيتُم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومَن يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو مُتحيزاً إلى فئة فقد باء بغضبٍ مِنَ اللهِ ومأواه جهنَّمُ وبئس المصيرُ ﴾ .

يقول إذا لقيتم الكفار فى المعركة زحفاً مجتمعين فاثبتوا لقتالهم ، ولا تنهزموا فالشجاعة ثبات القلوب ، وكما قيل الشجاعة صبر على الطاعة وفى الجهاد مع العدو ، فالواجب الثبات عند الصولة — هذا فى الظاهر ، وفى الباطن جهاد مع الشيطان ، والواجب فيه الوقوف عن دواعيه إلى الزَّلة ؛ فَمَنْ وقَفَ على حدِّ الإمساك عن إجابته ، بلا إنحيازٍ لما يدعوه بوساوسه فقدْ وفَّى الجهاد حقَّه .

وكذلك فى مجاهدة النَّفس ، فإذا وقف العبدُ عن إجابة النَّفْس فيما تدعوه بهواجسها ،

(١) وردت (المحرم) بالحاء وهى خطأ فى النسخ

(٢) أخطأ الناسخ إذ جعلها (عذاباً أليما) .

(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فأثبتناها

ولم يُطِع[1] شهوته فيما تحمله النفسُ عليه من البلاء إلى ابتغاء حقِّه فقد وفَّى الجهادَ حقَّه .

والإشارة فى قوله : « إلا متحرِّفاً لقتال » بإيثار بعض الرُّخص ليتقوّى على ما هو أشد ؛ كأكْله مثلاً ما يُقِيم صُلْبَه ليقوى على السَّهر ، وكترفقه بنفسه بإيثار بعض الراحة من إزالة عطش ، أو نفى مقاساة جوع أو بَرْدٍ أو غيره لئلا يبقى عن مراعاة قلبه ، ولاستدامة اتصال قلبه به ، فإنْ تَرَكَ بعضَ أوراد الظاهر لئلا يبقى به عن الاستقامة فى أحكام واردات السرائر أَخَذَ فى حقِّ الجهاد بحزم .

والإشارة فى قوله : «أو متحيزاً إلى فئة» إلى اعتضاد المريد بصحبة أقرانه فيما يساعدونه فى المجاهدة ، ويُبْقِى شهودُ ماهم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته . ثم باستمداده من همم الشيوخ؛ فإن المريدَ ربيبُ همَّةِ شيخه، فالأقوياءمن الأغنياء ينفقون على خَدَمِهم من نعمهم ، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هِمَمِهم ؛ يجبرون[2] كَسْرَهم ، ويتوبون منهم ، ويساعدونهم بحسن إرشادهم . ومَنْ أهمل مريداً وهو يعرف صِدْقه ، أوخالَفَ شيخاً وهو يعرف فضلَه وحَقَّه فقد باء من الله بسخطٍ ، واللهُ تعالى حسيبُه فى مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ فلم تقتلوهم ولكنَّ اللهَ قَتَلَهم ﴾

الذى نَفَى عنهم من القتل هو إماتة الروح وإثبات الموت ، وهو من خصائص قدرته — سبحانه ، والذى يُوصَفُ به الخلْق من القتل هو ما يفعلونه فى أنفسهم ، ويحصل ذهاب الروح عقيبه .

وفائدة الآية قطع دعاواهم فى قول كل واحد على جهة التفاخر قتلتُ فلاناً ، فقال : « فلم تقتلوهم » أى لم تكن أفعالكم مما انفردتم بإيجادها بل المنشىء والمبدىء[3] هو الله عزَّ وجل . وصانَهم بهذه الآية وصان نبيَّه — عليه السلام — عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم .

---

(1) وردت (لم يطلع) وهى خطأ فى النسخ

(2) وردت (يخبرون) والمناسب للكسر (يجبرون)

(3) وردت (المهدى) بالهاء وقد جعلناها (المبدى) لأن الكلام متجه إلى الإنشاء والإيجاد والإبداع والخلق .

وكذلك قال جل ذكره : ﴿ وما رَمَيْتَ إذ رمَيْتَ ولكنَّ الله رمى ﴾

أى ما رَمَيْتَ بنفسك ولكنك رميت بنا ، فكان منه (صلوات الله عليه)[1] قبضُ التراب وإرساله من يده ولكن من حيث الكسب ، وكَسْبُهُ مُوَجدٌ من الله بقدرته ، وكان التبليغ والإصابة مِن قِبَل الله خَلْقًا وإبداعاً ، وليس الذى أثبت ما نفى ولا نفى ما أثبت إلا هو ، والفعلُ فِعْلُ واحدٍ ولكن التغاير فى جهة الفعل لا فى عينه .

فقوله : « إذ رميت » فرْقٌ ، وقوله : « ولكن الله رمى » جمع . والفرق صفة العبودية ، والجمع نعت الربوبية ، وكلُّ فرقٍ لم يكن مُضَمَّناً بجمعٍ وكلُّ جمع لم يكن — فى صفة العبد — مُؤَيَّداً بفرق فصاحبُهُ غير سديد الوتيرة .

وإن الحقَّ — سبحانه — يَكِلُ الأغيار إلى ظنونهم ، فيتيهون فى أودية الحسبان ، ويتوهمون أنهم منفردون بإجراء ما منهم ، وذلك منه مكرٌ بهم .

قال الله تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[2] وأما أرباب التوحيد فَيَشْهَدهم مطالِعَ التقدير ، ويعرِّفهم جريان الحُكم ، ويُريهم أنفُسَهم فى أَسْرِ التصريف، وقهر الحُكم . وأمَّا الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيُجرى عليهم ما يُجْرِى و (ما)[3] لهم إحساس بذلك ، مأخوذون يثبتّهم بشواهد النظر والتقدير ، ويتولى حفظهم عن مخالفة الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حَسَنًا ﴾

البلاء الاختبار[4] ، فيختبرهم مرة[5] بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم ، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم ، أو ذِكْرهم أو نسيانهم.

---

(١) أضفنا (صلوات الله عليه) ليتضح اتجاه المعنى .
(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .
(٣) سقطت (ما) من الناسخ والمعنى يتطلبها إذ م لا إحساس لهم بما يجرى عليهم من حكم وتصريف .
(٤) وردت (الاختيار) بالياء وهى خطأ فى النسخ .
(٥) وردت (مر) بدون تاء مربوطة والصواب أن تكون بها .

« البلاء الحسن » : توفيق الشكر فى المِنْحة ، وتحقيق الصبر فى المحنة ، وكل ما يفعله الحقُّ فهو حَسَنٌ من الحقِّ لأنَّ له أنْ يفعَلَه . وهذه حقيقة الحَسَن : وهو ما للفاعل أن يفعله[1]

ويقال حُسْنَ البلاء لأنه منه و (. . .)[2] البلاء لأنه فيه .

ويقال البلاء الحسن أن تَشْهَدَ المُبْلِى فى عين البلاء .

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إنْ كان نعمة ، ولا شكوى إن كان محنة .

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إنْ كان عُسْراً ، ولا بطر إن كان يسراً .

ويقال بلاء كلِّ أحدٍ على حسبِ حاله ومقامه ؛ فأصفاهم ولاءً أوفاهم بلاءً ، قال عليه السلام: « أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل »[3]

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ سميع عليمٌ ﴾

تنفيسٌ لقومٍ وتهديدٌ لقومٍ ؛ أصحابُ الرِّفق يقول لهم إن الله « سميعٌ » لأنينكم ؛ فيُرَوِّح عليهم بهذا وَقْتَهم ، ويحمل عنهم ولاءهم[4] ، وأنشدوا :

إذا ما تمنَّى الناسُ روْحاً وراحةً　　تمنيتُ أنْ أشكو إليك فتسمعا

وقالوا :

قُلْ لى بألسنة التَّنفُّس　　كيف أنت وكيف حالك ؟

وأمَّا الأكابر فلا يُؤْذَنُ لهم فى التَّنَفُّس ، وتكون للطالبةُ متوجِّهةً عليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهارٍ ولا شكوى ، فيقول : لو ترشح منك ما كُلِّفْتَ بِشُرْبِه تَوَجَّهَتْ عليك الملامةُ ، فإن لم يكن منك بيانٌ فإنِّى سميعٌ لقالتك ،عليمٌ بحالتك.

(١) لاحظ الفرق بين (وهو ما للفاعل أن يفعله) فى مسألة الحَسَن فقد جعل فعل الحَسَن حقاً لله وبين (عليه أن يفعله) عند المعتزلة إذ جعلوه واجباً عليه .

(٢) مشتبهة .

(٣) رواه الترمذى ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجه ، والحاكم عن سعد بن أبى وقاص . والإمام أحمد والنسائى وابن ماجه والدارمى من حديث عاصم . والطبرانى من حديث فاطمة .

(٤) وربما كانت فى الأصل (بلاءهم) فذلك يناسب التنفيس والترويح والرفق .

ويقال فى قوله « عليم » تسلية لأرباب البلاء ؛ لأنّ من عَلِم أنّ مقصودَه يعلم حالَه سَهُل عليه ما يقاسيه فيه ، قال — سبحانه — لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ .

موهن كيدهم : بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين ، والثبات على انتظار الفضل من قِبَلِ الله ، وموهن كيدهم : بأن يأخذَ الكافرين من حيث لا يشعرون ، ويظفر جندُ المسلمين عليهم.

قوله جلّ ذكره : ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ .

قال المشركون — يومَ بدر — اللهم انصرْ أَحبَّ الفئتين إليك ، فاستجابَ دعاءهم ونصر أحبَّ الفئتين إليه . وهم المسلمون ، فسألوا بألسنتهم هلاكَ أنفسِهم ، وذلك لانجرارهم فى مغاليط ما يُعَلِّقون من ظنونهم، فهم توهَّموا استحقاق القربة ، وكانوا فى عين الفرقة وحُكْمِ الشِّقْوَة ، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم ، والوقوع فى شقائهم؛ فباختيارهم مُنُوا ببوارِهم.

ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فَزَلُّوا ، فلما كُشِفَ السترُ خابوا وذَلُّوا ، فعند ذلك علموا أنهم زاغوا فى ظنهم وضلوا .

قوله جل ذكره : ﴿وإن تنتهوا فهو خيرٌ لكم[2]﴾ .

فيغفر لكم ما قد سَلَفَ من خلاف محمد صلى الله عليه وسلم .

« فهو خير لكم » ليس المراد منه المبالغة ؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثانى ليس فيه شر ، وترك موافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم — بكل وجه — هو شرٌّ لهم ، ولكنه أراد به فى الأحوال الدنيوية ، وعلى موجب ظنِّهم .

---

(١) آية ٩٧ سورة الحجر

(٢) أخطأ الناسخ فى كتابة الآية إذ جاءت هكذا « وإن تنتهوا يغفر لهم » .

قوله جل ذكره: ﴿وإن تعودوا نَعُدْ﴾.

يعني إنْ عُدْتُم إلى الجميل من السيرة عُدْنا عليكم بجميل المِنَّة، وإنْ عاودتم الإقدام على الشرِّ أعَدْنا عليكم ما أذقناكم من الضُّرِّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عنكم فِئَتُكم شيئاً ولو كَثُرَتْ وأنَّ اللهَ مع المؤمنين﴾

مَنْ غَلَبَتْهُ قدرةُ الأحد لم تغنِ عنه كثرة العدد.

قوله جل ذكره: ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ ورسولَه﴾.

الناس في طاعة الله على أقسام: فطيعٌ لخوفِ عقوبتِه، ومطيعٌ طمعاً في مثوبته، وآخر تحققاً بعبوديته، وآخر تشرفاً بربوبيته.

وكم بين مطيعٍ ومطيعٍ؛ وأنشدوا:

أحبك يا شمسَ النهارِ وبَدْرَه وإن لامني فيك السُّها والفراقدُ

وذاك لأنَّ الفضلَ عندك زاخرٌ وذاك لأنَّ العَيْشَ عندك باردُ

قال تعالى: «أطيعوا الله ورسوله» ولم يقل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وفي ذلك نوع تخصيص، وحزب تفضيل يَلْطُفُ عن العبارة ويَبْعُد عن الإشارة[1]

قوله جل ذكره: ﴿ولا[2] تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعون﴾

أي تسمعون دعاءه إياكم، وتسمعون ما أُنزِلَ عليه من دعائي إياكم.

قوله جل ذكره: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سَمِعْنا وهم لا يَسْمَعُون﴾.

لا تكونوا ممن يشهد جهراً، ويجحد سِرّاً.

---

(١) هنا من المواضع التي يشعر فيها القارئ أن القشيري يريد أن يقول شيئاً ولكنه يتركه لفطنة القارئ، يستشف ما وراء السطور.

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (ولو تولوا).

ويقال لا تقرّوا بلسانكم، وتصرّوا على كفرانكم.

ويقال مَنْ نطق بتلبيسه تشهد الخبرة بتكذيبه.

قوله جل ذكره: ﴿إنَّ شر الدوابِ عند اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون﴾.

دواعى الحق بحسن البيان ناطقة، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة، وخواطر الغيب بكشف ظُلَم الرِّيَب مُفْصِحة، وزواجر التحقيق عن متابعة التمويه للقلوب ملازمة. فمَنْ صُمَّ عن إدراك ما خوطب به سرُّه، وعمِيَ عن شهود ما كوشف به قلبه، وخَرِسَ — عن إجابة ما أُرْشِدَ إليه من حجة — فَهْمُه وعقله فدُونَ رُتْبةِ البهائم قدْرُه، وفوق كل (....)[1] من حكم الله ذُلُّه وصغره.

قوله جل ذكره: ﴿ولو علِمَ اللهُ فيهم خيراً لأَسْمَعَهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم مُعْرِضون﴾.

منْ أقصتْه سوابقُ القسمة لم تُدْنِه لواحقُ الخدمة، ومنْ علِيه اللهُ بنعت الشقوة حرَمَهُ مايوجب عفْوَه.

ويقال لو كانوا فى متناولات الرحمة لألبسهم صدارَ العصمة، ولكن سبَق بالحرمان حكْمهم، فخُتم بالضلالةِ أمرُهم.

قوله جل ذكره: ﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسولِ إذا دعَاكم﴾.

أجاب واستجاب بمعنىً مثل أوقد واستوقد، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية[2] بأنها تكون طوعاً لا كرهاً، وفَرْقٌ بين من يجيب لخوفٍ أو طمعٍ وبين من يستجيب لا بعِوَضٍ ولا على ملاحظة غَرَضٍ. وحقُّ الاستجابة أن تجيب بالكلية من غير أنْ تذَرَ من المستطاع بقية.

---

(١) مشتبهة.

(٢) لاحظ كيف يتفق مذهب القشيرى فى المصطلح مع القاعدة اللغوية: زيادة المبنى فيها زيادة المعنى.

والمستجيبُ لربه محوٌ عن كلِّه باستيلاء الحقيقة ، والمستجيب للرسول — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — قائم بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له — سبحانه ، وبالاستجابة للرسول ؛ فالعبدُ المستجيبُ — على الحقيقة — من قام بالله سرّاً ، واتصف بالشرع جهراً ، فيُفْرِده الحقُّ — سبحانه — بحقائق الجمع و (. . . .)[1] فى مشاهدة الفرق ، فلا يكون للحدثان فى مشرب حقائقه تكدير ، ولا لمطالبات الشرع على أحواله نكير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُم ﴾ .

إذْ لمَّـا أفناهم عنهم أحياهم به .

ويقال العابدون أحياهم بطاعته بعد ما أفناهم عن مخالفته ، وأما العالمون فأحياهم بدلائل ربوبيته ، بعد ما أفناهم عن الجهل وظُلْمته . وأمَّا المؤمنون فأحياهم بنور موافقته بعد ما أفناهم بسيوف مجاهدتهم . وأمَّا المَوحِّدون فأحياهم بنور توحيده بعد ما أفناهم عن الإحساس بكل غير ، والملاحظة لكل حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أن الله يحولُ بين المرء وقلبه وأنَّه إليه تُحْشَرُون ﴾

يصون القلوب عن تقليب أربابها فيُقلِّبها كما يشاء هو ، من بيان هداية وضلال ، وغَيبةٍ ووصالٍ ، وحُجْبةٍ وقُرْبة ، ويقينٍ ومرية ، وأُنسٍ ووحشة .

ويقال صان قلوب العُبَّادِ عن الجنوح إلى الكسل ، فجدُّوا فى معاملاتهم ، وصان قلوب المريدين عن التعريج فى أوطان الفشل فصدقوا فى منازلاتهم ، وصان قلوب العارفين — على حدّ الاستقامة — عن المَيْل فتحققوا بدوام مواصلاتهم .

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لئلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله ، فإذا سنح لهم أمر فليس لهم إلى الأغيار سبيل ، ولا على قلوبهم تعويل . وكم بين من يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين من لا يهتدى إلى شىء إلا إلى ربِّه ! كما قيل :

---

(١) مشتبهة ، ولكن حسبما نعلم فى مواضع سبقت أن المقصود أن الحق (يتولى) العبد أثناء الفرق الثانى - حيث يعود بالعبد المأخوذ ليقوم بفرائض الشرع ، حتى لا يكون فى تحققه مقصراً فى شىء من مطالبات الشريعة ، وقد نرجح أن الكلمة الناقصة هى : (ولا يتركه) أو ما فى معناها .

لا يهتدى قلبى إلى غيركم ... لأنه سدَّ عليه الطريق

ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم ، قال تعالى : «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب» .
والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً واعلموا أنَّ اللهَ شديدُ العقاب ﴾ .

احذروا أن ترتكبوا زلَّةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها ، بل يعمُّ شؤمُها من تعاطاها ومن لم يتعاطها .

وغير المجرم لا يُؤْخَذ بجُرْم من أذنب ، ولكن قد ينفرد أحدٌ بجرمٍ فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرْم ، كأن يتعصبوا له إذا أُخِذَ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم ؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً فى الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً فى المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه ، ورضاه به ، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر . فأمَّا من جهة الإشارة : فإن العبدَ إذا باشر زلَّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهى العقوبة المعجلة ، وتصيب النَّفْس منها العقوبة المؤجلة ، والقلبُ إذا حصلت منه فتنة الزلة — عندما يهم بما لا يجوز — تعدَّتْ فتنته إلى السِّر وهى الحُجْبَةُ .

والمُقَدَّمُ فى شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركاتُ التى كانت تتعدى منه إلى مُتَّبِعيه وتلامذته ، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً . ويقال إن الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر عند تَرْكِهم الأذكار أصابتهم فتنةُ ما فعلوه ؛ فلقد قيل إنَّ السفيهَ[1] إذا لم يُنْهَ مأمورٌ . فعلى هذا تصيب فتنةُ الزَّلةِ مرتكبَها ومَنْ تَرَكَ النَّهى عن المنكر — مثل مَنْ تَرك الأمر بالمعروف — يؤخذ بجُرْمه .[2]

---

(١) وردت (السفينة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وردت هذه العبارة حافلة بالكثير من الأخطاء التى سببت فى غموض المعنى فقومناها حسبما يقتضى السياق — دون أن يكون اقتحامنا خطيراً على النص .

ويقال إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع فى أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية — وإن كان من وجهٍ حلال — تؤدى فتنته إلى من يخرج به من المبتدئين ، فبجملة ما أبدى من الرغبة فى الدنيا ، وتَرْكِ التقلل يؤدى إلى الانهماك فى أودية الغفلة والأشغال الدنيوية .

والعابد إذا جَنَحَ عن الأشقِّ وتَرَكَ الأولى[1] تعدَّى ذلك إلى من كان ينشط فى المجاهدة ؛ فيستوطنون الكسل ، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل:

إن الشبابَ والفراغ والجدة مَفْسَدَةٌ للمرء أى مفسدة

وهكذا يكون نصيبهم من الفتنة .

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظٌّ له ، نَظَرَ إليه المريدُ ، فتتداخله فترة فيما هو به من صدق المنازلة ، ويكون ذلك نصيبه من فتنة العارف .

وفى الجملة إذا غفل المَلِكُ ، وتَشَاغل عن سياسة رعيته تَعَطَّلَ الجندُ والرعية ، وعَظُمَ فيهم الخَلَلُ والبَلِيَّة ، وفى معناه أنشدوا :

رُعَاتُكَ ضَيَّعوا — بالجهل منهم — غُنَيْماتٍ فَسَاسَتْها ذِئابُ

« والله شديد العقاب » بتعجيله ذلك ، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبداً ليُعَاقِبَه لا يُمَكِّنه من تلافى موجِب تلك العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ
فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ
النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾

يُذَكِّرهم ما كانوا فيه من القِلَّة والذِّلَّة وصنوف (...)[2] ثم ما نَقَلَهم إليه من الإمكان والبَسْطة ، ووجوه الأمان والحيطة ، وقوَّاهم إلى إقامة الشكر على جزيل تلك القِسَم ،

(١) وردت (الأولاد) وهى خطأ فى النسخ ، والجنوح عن الأشق وترك الأولى تعبيران مألوفان عندما يتحدث القشيرى عن إيثار الصوفى للرخص .

(٢) مشتبهة وربما كانت (الحيطة) أى نقصان المنزلة ، فإنها قريبة للسياق ، وملسجمة مع الموسيقى اللفظية .

وإدامة الحمد على جميل تلك النعم ، فمهّدَ لهم فى ظل أبوابه مقيلا ، ولم يجعل للعدوّ إليهم — بيُمْنِ رعايته — سبيلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ورزقكم من الطيبات لعلكم تَشْكُرُون ﴾

رَزَقَ الأشباحَ والظواهرَ من طيبات الغذاء ، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء . وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق فى شهود المُنْعِم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسولَ وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون ﴾

الخيانة الاستبطان بخلاف ما يُؤَمَّلُ منك بحق التعويل ، فخيانةُ اللهِ بتضييع ما ائتمنك عليه ، وذلك بمخالفة النُّصح فى دينه ، وخيانة الرسولِ بالاتصاف بمخالفة ما تبدى من مشايعته .

والخيانة فى الأمانات بترك الإنصاف ، والاتصاف بغير الصدق .

وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة ، فمن اؤتمِنَ فى مالٍ فتصرَّفَ فيه بغير إذن صاحبه — خيانة ، ومن اؤتمن على الحُرَمِ فلاحظته إياهن — خيانة . فعلى هذا : الخيانةُ فى الأعمال الدعوى فيها بأنها من قِبَلِك دون التحقيق بأنَّ مُنْشِئها اللهُ .

والخيانة فى الأحوال ملاحظتُك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك فى شهود الحق ، إن لم يكن استهلاكك فى وجود الحق . وإذا أخللتَ بِسُنَّةٍ من السُّنَنِ أو أدبٍ من آداب الشَّرع فتلك خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والخيانة فى الأمانات — بينك وبين الخلْق — تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين ، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أنما أموالُكم وأولادُكم فتنة وأنَّ اللهَ عنده أجرٌ عظيم ﴾

أموالكم وأولادكم سبب فتنتكم لأن المرء — لأجل جمع ماله ولأجل أولاده — يرتكب ماهو خلاف الأمر، فيورثه فتنة العقوبة .

ويقال الفتنةُ الاختبارُ ؛ فيختبرك بالأموال .. هل تؤثرها على حقِّ الله ؟

وبالأولاد .. هل تتركُ لأجلهم مافيه رضاء الله ؟

فإنْ آثرتم حقَّه على حقِّكم ظهرت به فضيلتُكم ، وإنْ اتصفتم بضدِّه عوملتم بما يوجبه العكس من محبوبكم .

ويقال المالُ فتنةٌ إذا كان عن اللهِ يشغلكم ، والأولادُ فتنةٌ إذا لأجلهم قصَّرتُم فى حقِّ الله أو فرَّطتُم .

ويقال المال — ما الكفافِ والعفافِ[1] — نِعْمَةٌ ، وما التقاصرِ والتفاخرِ فتنةٌ ، وفى الجملة ما يشغلكَ عن اللهِ فهو فتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا اللهَ يجعل لكم فُرْقاناً ويُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم ويغفِرْ لكم واللهُ ذو الفضل العظيم[2] ﴾ .

الفرقان مابه يفرق بين الحق والباطل مِنْ عِلْمٍ وافر وإلهامٍ قاهر ، فالعلماء فرقانُهم بجلوبُ برهانهم ، والعارفون فرقانُهم موهوبٌ[3] عرفانهم ؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم ، وهؤلاء بمقتضى جُودِ ربِّهم .

الفرقانُ تعريفٌ من الله ، والتكفيرُ[4] تخفيفٌ من الله ، والغفرانُ تشريفٌ للعبد من الله .

---

(١) وردت (والعتاب) وهى خطأ من الناسخ إذ لا تؤدى المراد ، ونظن أن (العفاف) تنسجم مع السياق ، ومع التركيب الداخلى للأسلوب .

(٢) أخطأ الناسخ إذ جعل خاتمة الآية (والله سميع عليم) .

(٣) وردت (موهوم) وهى خطأ من الناسخ ، والصواب أن تكون (موهوب) فهكذا يتطلب السياق .

(٤) (التكفير) هنا تشير الى ما ورد فى الآية : « ويكفر عنكم سيئاتكم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ يمكُرُ بكَ الذين كفروا ليُثْبتوك أو يقتلوك أو يُخْرِجوك ويمكرون ويمكر اللهُ واللهُ خير الماكرين ﴾

ذكره عظيم مِنَّتِه عليه حيث خلَّصه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة ، وهمُّوا بقتله ، وحاولوا أن يمكروا به فى السِّر ، فأعلمه الله ذلك .

والمكرُ إظهارُ الإحسانِ مع قَصْدِ الإساءة فى السِّر ، والمكرُ من الله الجزاء على المكر ، ويكون المكرُ بهم أَنْ يُلْقِيَ فى قلوبهم أنه مُحْسِنٌ إليهم ثم — فى التحقيق — يعذِّبُهم ، وإذا شَغَلَ قوماً بالدنيا صَرَفَ همومهم إليها حتى يَنْسَوْا أمر الآخرة ، وذلك مكرٌ بهم ؛ إذ يُوطِّنُون نفوسهم عليها ، فيتيح لهم من مأمَنِهم سوءاً ، ويأخذهم بغتةً

ومن جملة مكره اغترارُ قومٍ بما يرزقهم من الصيت الجميل بين الناس ، وإجراء كثير من الطاعات عليهم ، فأسرارهم تسكون بالأغيار منوطةً، وهم عن الله غافلون ، وعند الناس أنهم مُكْرَمون ، وفى معناه قيل :

وقد حسدونى فى قرب دارى منكم   وكم من قريب الدار وهو بعيد

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا قالوا قد سَمِعْنا لو نشاء لَقُلْنا مِثْلَ هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولينَ ﴾

فَرْطُ جهلهم ، وشؤم جحدهم سَتَرَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم فى القدرة على معارضة القرآن فافتضحوا عند الامتحان بعدم البرهان ، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان ، وقديماً قيل :

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه   فَضَحَ الامتحان(١) ما يدَّعيه

---

(١) وردت (الامتهان) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

ويقال لمّا لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حرموا بركات الفهم فعدوه من جملة أساطير الأولين ، وكذلك مَنْ لا يراعى حرمة الأولياء ، يُعَاقَبُ بأنْ تُسْتَرَ عليه أحوالُهم ، فيظنهم مثله فى استحقاق مثالبه ، فيطلق فيهم لسان الوقيعة ، وهو بذلك أحَقُّ ، كما قيل : « رَمَتْنِي بدائِها وانْسَلَّتْ »

قوله جل ذكره : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ
مِنْ عندِك فأَمْطِرْ علينا حجارةً
من السماء أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ﴾

دَلَّ سؤالهم العذابَ على تصميم عقدهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستيقنوا عند أنفسهم بأنه لا يُسْتجَابُ فيهم ما يدعونه على أنفسهم .

وفى هذا أظهر دليل على أن سكون النَّفس إلى الشيء ليس بعلم ؛ لأنه كما يوجد مع العلم يوجد مع الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿وما كان الله لِيُعَذِّبَهم وأنت فيهم﴾

ما كان الله معذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله ليعذِّبَ أسلافهم وأنت فى أصلابهم ، وليس يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم إجلالاً لقَدْرِك ، وإكراماً لمحلِّك ، وإذا خرجتَ من بينهم فلا يعذبهم وفيهم خدمك الذين يستغفرون ، فالآية تدل على تشريف قَدْر الرسول — صلى الله عليه وسلم .

ويقال للجوَارِ حُرْمةٌ ، فَجَارُ الكرام فى ظل إنعامهم ؛ فالكفار إن لم يَنْعَمُوا[1] بقرب الرسول — صلى الله عليه وسلم — منهم فقد اندفع العذاب — بمجاورته — عنهم :

وأُحبُها وأُحبُّ منزلَها الذى   نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزلِ

---

(١) وردت (ينعموا) والملائم للمعنى (ينعموا) لترتبط بالإنعام الذى جاء ذكره فى الجملة السابقة ، ويؤكد اختيارنا أيضاً وجود (الباء) فى (بقرب الرسول) إذ يقال (نعم بكذا) ولا يقال (منع بكذا) .

ويقال إذا كان كون الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الكفار يمنع العذاب عنهم فكون المعرفة فى القلوب أَوْلَى بدفع العذاب عنها .

ويقال إن العذاب — وإنْ تأخَّر عنهم مدة مقامهم فى الدنيا مادام هو عليه السلام فيهم — فلا محالة يصيبهم العذابُ فى الآخرة؛ إذ الاعتبار بالعواقب لا بالأوقات والطوارق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهم يستغفرون ﴾

علم أنه — عليه السلام — لا يَتأبَّد مُكْثُهُ فى أمته إذ قال له : « وما جعلنا لِبَشَرٍ مِنْ قبلِكَ الخُلْد »[1] ، فقال إنى لا أضيعُ أُمَّتَهُ وإن قضى فيهم مُدَّتَه ، فما دامت ألسنتُهم بالاستغفار مُتَطَلِّقةً فصنوف العذاب عنهم مرتفعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَهُمْ ألاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ
وهم يَصُدُّونَ عنِ المسجدِ الحرامِ
وما كانوا أولياءه ﴾

نَفَى العذابَ عنهم فى آية ، وأثْبَتَه فى آية ، فالمنفىُّ فى الدنيا والمُثْبَتُ فى الآخرة .

ثم بيَّنَ إيصالَ العذاب إليهم فى الآخرة بقوله تعالى . « وهم يصدون عن المسجد الحرام » دليل الخطاب أن إعانة المسلمين على ما فيه قيام بحق الدين يوجب استحقاق القربة والثواب

وفى الآية دليلٌ على أنه لا يعذِّب أولياءه بقوله : « وما كانوا أولياءه » فإذا عذَّبَ مَنْ لم يكونوا أولياءه دلَّ على أنه لا يعذِّب من كان من جملة أوليائه . والمؤمنون كلُّهم أولياء الله لأنه قال :«الله ولىُّ الذين آمنوا »[2] . والمؤمنَ — وإنْ عذِّب بمقدار جُرْمِه زماناً فإنه لا يُخَلَّد فى دار العقوبة ، فما يُقاسون بالإضافة إلى تأبيد الخَلاصِ جَلَلٌ ، وقيل :

إذا سَلِمَ العهدُ الذى كان بيننا   فوُدِّى وإنْ شطَّ المزار سليمُ

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ أولياؤه إلا المتقون ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون ﴾

---

(١) آية ٣٤ سورة الأنبياء .
(٢) اية ٢٥٧ سورة البقرة .

وليس أولياؤه إلا المتقون، وهم الذين اتقوا الشِّرك.

قوله جل ذكره: ﴿ وما كان صلاتُهم عند البيت
إلا مُكاءً وتصديةً ﴾.

تجردت أعمالهم بظواهرهم عن خلوص عقائدهم، فلم يوجد — سبحانه وتعالى — لها احتساباً؛ فزكاء القالة لا يكون إلا مع صفاء الحالة، وعناء الظاهر لا يُقْبَلُ إلا مع ضياء السرائر.

قوله جل ذكره: ﴿ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون ﴾

كان العذابُ مُعَجَّلا وهو حسبانهم أنهم على شيء، قال الله تعالى: « وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً »، ومؤجلاً وهو كما قال الله تعالى: ﴿ ولَعَذابُ الآخرة أشق ﴾[1].

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّ الذين كفروا يُنفِقون أموالَهم
ليَصُدُّوا عن سبيلِ الله فسينفقونها
ثم تكونُ عليهم حسرةً ثُمَّ يغلَبون
والذين كفروا إلى جهنَّمَ يُحشَرون ﴾

يرومون بإنفاقهم صنوفَ أموالهم صلاحاً ونظاماً لأحوالهم، ثم لا يَحْظَوْن إلا بخسران، ولا يحصلون إلا على نقصان. خَسِروا وهم لا يشعرون، وخابوا وسوف يعلمون:

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تحتك أم حِمارُ ؟

قوله: « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » إنهم وإن ألهتهم أموالُهم فإلى الهوان والذلة مآلُهم، لم تغْنِ عنهم أموالُهم، ولم تنفعهم أعمالُهم، بل خُتِمَتْ بالشقاوة أحوالُهم.

قوله جل ذكره: ﴿ ليَميزَ اللهُ الخبيثَ منَ الطيِّب
ويجعل الخبيثَ بعضَه على بعضٍ
فيرْكُمَه جميعاً فيجعلَه في جَهَنَّم
أولئك هم الخاسرون ﴾.

---

(١) آية ٣٤ سورة الرعد.

الخبيث ما لا يصلح لله، والطيب ما يصلح لله.

الخبيث ما حكم الشرعُ بقبحه وفساده، والطيب ما شهد العلم بحسنه وصلاحه.

ويقال الخبيث الكافرُ، والطيِّبُ المؤمنُ.

الخبيثُ ما شَغَلَ صاحبَه عن الله، والطيِّبُ ما أوصل صاحبه إلى الله.

الخبيثُ ما يأخذه المرء وينفقه لحظِّ نفسه، والطيب ما ينفقه بأمر ربه.

الخبيث عملُ الكافرِ يُصَوَّر له ويُعَذَّبُ بإلقائه عليه، والطيِّبُ عملُ المؤمن يُصَوَّرُ له في صورةٍ جميلة فيحمل المؤمن عليه.

قوله جل ذكره: ﴿ قُل للذين كفروا إن يَنتَهُوا يُغفَرْ لَهُم مّا قد سَلَفَ وإن يعودوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾.

إنْ كبحوا لجام التمرد، وأقلعوا عن الركض في ميدان العناد والتَّجَبُّر أَزَلْنا عنهم صَغارَ الهوان، وأَوْجَبْنا لهم رَوْحَ الأمان.

ويقال إن حَلُّوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقال البعاد.

ويقال إن أبصروا قُبْحَ فعالهم جُدْنا عليهم بإصلاح أحوالهم.

ويقال إنْ جنحوا للاعتذار ألقينا عليهم حالة الاغتفار.

ويقال إن عادوا إلى التَّنَصُّل(1) أبحنا لهم حُسْنَ التَّفَضُّل:

أناسٌ أعرضوا عنّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
أساءوا ظَنَّهم فينا فهلاً أحسنوا الظنَّا
فإن كانوا لنا — كُنّا، وإنْ عادوا لنا عُدْنا
وإن كانوا قد استغنَوْا فإنّا عنهمُ أغنى

قوله جل ذكره: ﴿ وقاتِلوهم حَتَّى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ

---

(1) تنصَّل من ذنبه أي تبرَّأ

الدينُ كُلُّهُ للهِ فإنِ انتهوْا فإنَّ اللهَ
بما يعملون بصير ﴾

أمرهم بمقاتلة الكفار والإبلاغ فيها حتى تُستأصل شأفتُهم بحيث يأمَن المسلمون مَضَرَّتَهم، ويكْفَوْن بالكلية فتنتهم. وحَيّةُ الوادي لا تُؤمَنُ ما دامت تبقى فيها حركة؛ كذلك العدو إذا قُهِر فحقُّه أن تُقْتَلعَ جميعُ عروقه، وتُنَقَّى رِباعُ الإسلام من كل شكيرة[1] تنبت من الشرك.

قوله جل ذكره: ﴿ وإن تَوَلَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم
نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير ﴾

فإن أبَوْا إلاَّ عُتُوّاً، وعن الإيمان إلا نُبُوّاً، فلاَ على قلوبكم ظِلٌّ مخافةٍ منهم؛ فإن اللهَ — سبحانه — وليُّ نصرتكم، ومتولِّي كفايتكم؛ إنْ لم تكونوا بحيث نِعْمَ العبيد فهو نِعْمَ المولى لكم ونِعْمَ الناصر لكم.

ويقال نِعمَ المولى لكم يوم قسمة العرفان، ونِعْم الناصرُ لكم يوم نعمة الغفران.

ويقال نِعْم المولى لك حين لم تكن، ونِعْمَ الناصر لك حين كنتَ.

ويقال نعم المولى بالتعريف قَبْلَ التكليف، ونعم الناصر لكم بالتخفيف والتضعيف؛ يُخَفِّفُ عنكم السيئات ويضاعف الحسنات:

وهواكِ أولُ ما عَرَفْتُ مِنَ الهوى والقلبُ لا ينسى الحبيبَ الأوَّلا

قوله جل ذكره: ﴿ واعلموا أنَّ ما غَنِمْتُم مِن شيء
فأنَّ لله خُمُسَه وللرسولِ ولذي
القُرْبَى واليتامى والمساكين وابنِ
السبيل إن كنتم آمَنْتُم باللهِ
وما أنزلْنا على عَبْدِنا يومَ الفُرْقانِ
يومَ التقى الجَمْعَانِ، والله على
كل شيء قدير ﴾

(١) شكرت الشجرة أي خرجت منها الشكيرة وهي ما ينبت حولها من أصلها.

الغنيمةُ ما أخذه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند المجاهدة والقتال معهم . فإذا لم يكن قتال — أو ما في معناه — فهو فَيْء .

والجهاد قسمان : جهاد الظاهر مع الكفار ، وجهاد الباطن مع النَّفْس والشيطان وهو الجهاد الأكبر — كما في الخبر[1]

وكما أن في الجهاد الأصغر غنيمةً عند الظَّفَر ، ففي الجهاد الأكبر غنيمة ، وهو أن يملك العبدُ نَفْسَه التي كانت في يد العدو : الهوى والشيطان . فبعد ما كانت ظواهرُه مَقَرًّا للأعمال الذميمة ، وباطنُه مستقراً للأحوال الدَّنيَّة يصير محلُّ الهوى مَسْكَنَ الرِّضا ، ومَقَرُّ الشهواتِ والمُنى مُسَلَّمًا لِمَا يَرِدُ عليه من مطالبات المولى وتصير النَّفْسُ مُسْتَلَبَةً مِنْ أَسْرِ[2] الشهوات ، والقلبُ مُخْتَطَفًا من وصف الغفلات ، والرُّوحُ مُنْتَزَعَةً من أيدي العلاقات ، والسِّرُّ مَصُونًا عن الملاحظات . وتصبح غاغةُ النَّفْسِ مُنْهَزِمةً ، ورياسةُ الحقوقِ بالاستجابة لله خافقةً .

وكما أن من جملة الغنيمة سَهْمًا لله وللرسول ، وهو الخُمُسُ فما هو غنيمة — على لسان الإشارة — سهمٌ خالِصٌ لله ؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب ، لا من كرائم العُقْبى ، ولا من ثمرات التقريب ، ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبدُ عند ذلك مُحَرَّرًا عن رِقِّ كل نصيب ، خالصاً لله بالله ، يمحو ما سوى الله ، كما قيل :

مَنْ لم يكن بِكَ فانياً عن حظِّه — وعن الهوى والإِنْسِ والأحبابِ
فكأنه — بين المراتب — واقفٌ — لمنالِ حظٍّ أو لِحُسْنِ ثوابِ

قوله جل ذكره : ﴿ إذ أنتم بالعُدْوَةِ الدُّنيا وهم بالعُدْوَةِ القُصْوَى والرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكم ، ولو تواعدتُّم لاختلفتم

(١) إشارة الى ما قاله الرسول بعد إحدى الغزوات : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس » .

(٢) وردت (أسرار) وهي خطأ في النسخ .

في الميعادِ ، ولـكن ليقضيَ اللهُ
أمراً كان مفعولاً ﴾

يخبر — سبحانه — أنَّ ما جرى يومَ بدرٍ من القتال ، وما حَصَلَ من فنون الأحوال كان بحكم التقدير ، لا بما يحصل من الخَلْق من التدبير ، أو بحكمٍ تقتضيه رَوِيَّةُ التفكير . بل لو كان ذلك على اختيار وتَوَاعُد ، كنتم عن تلك الجملة على استكراه وتَباعُد ، لجرى على ما جرى ليقضيَ الله أمراً كان مقضيًّا ، وحصل من الأمور ما سَبَقَ به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنة
ويَحْيَىٰ من حَيَّ عَنْ بَيِّنة وإنَّ اللهَ
لسميعٌ عليم ﴾

أى ليُضِلَّ مَنْ زاغ عن الحقِّ بعد لزومه الحجبة ، ويهتدىَ مَنْ أقام على الحقِّ بعد وضوح الحُجّة .

ويقال الحقُّ أوْضَحَ السبيلَ ونَصَبَ الدليلَ ، ولكن سَدَّ بصائرَ قومٍ عن شهود الرشد ، وفَتَح بصائرَ آخرين لإدراك طرق الحق .

الهالك من وقع فى أودية التفرقة ، والحيُّ مَنْ حَيِيَ بنور التعريف .

ويقال الهالك من كان بحظِّه مربوطاً ، والحيُّ من كان من أسْرِ كلِّ نصيبٍ مُسْتَلَبا مجذوباً[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يُرِيكَهُمُ اللهُ فى منامِكَ قليلاً
ولو أراكَهُم كثيراً لَفَشِلْتُم
ولَتَنَازَعْتُم فى الأمرِ ، ولـكنَّ اللهَ
سَلَّمَ إنه عليمٌ بذات الصدور *
وإذ يُرِيكُمُوهُم إذِ التقيتم فى أعيُنِكم
قليلاً ويُقلِّلُكُم فى أعيُنِهم ليَقضِيَ

(١) كلمة (مجذوب) بهذا الاستعمال قد تؤدى المعنى الذى تطلق به فى أوساط الصوفية اليوم

اللهُ أمراً كان مفعولاً وإلى اللهِ
تُرجَعُ الأمور ﴾

قيل أراه إيام فى نومه — صلى الله عليه وسلم — بوصف القِلّة ، وأخبر أصحابه بذلك فازدادوا جسارة عليهم .

وقيل أراه فى منامه أى فى محل نومه أى فى عينيه ، فسناه قلّلهم فى عينيه ، لأنهم لو استكثروهم لفشلوا فى قتالهم ، ولانكسرت بذلك قلوبُ المسلمين .

وفى الجملة أراد اللهُ جريانَ ما حصل بينهم من القتال يوم بدر ، وإنّ اللهَ إذا أراد أمراً هَيّأ أسبابَه ، فقلّلَ الكفارَ فى أعين المسلمين فزادوا جسارةً ، وقلّلَ المسلمين فى أعين الكفار فازدادوا — عند نشاطهم إلى القتال — صغراً فى حكم الله وخسارةً .

« والله عليم بذات الصدور » : وكيف لا ؟ ومنه تَصدُرُ المقاديرُ ، وإليه تُرْجَعَ الأمور .

ويقال إذا أراد الله نصرة عبدٍ فلو كَادَ له جميعُ البشر ، وأرادته الكافةُ بكل ضَرَرٍ ، لا ينفع مَنْ شاء مَضَرّتَهَ كَدٌ ، ويحصل بينه[1] وبين متاح لطفه به سَدٌّ .

وإذا أراد بعبدٍ سوءاً فليس له رَدٌّ ، ولا ينفعه كَدٌّ ، ولا ينعشه بعد ما سقط فى حكمه جَهْدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فِئةً
فاثْبتُوا واذكروا الله كثيراً
لعلكم تُفْلِحون ﴾

أراد إذا لقيتم فئةً من المشركين فاثبتوا . والثباتُ إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين ، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة ، والتحقق بالله ، وشهود الحادثات كلها منهُ ، فعند ذلك يستسلم لله ، ويرضى بحكمه ، ويتوقع منه حُسْنَ الإعانة ، ولهذا أحالَهم على الذكر فقال : « واذكروا الله كثيراً » .

ويقال إنّ جميعَ الخيراتِ فى ثبات القلب ، وبه تَبِينُ أقدارُ الرجالِ ، فإذا وَرَدَ على الإنسان خاطرٌ يزعجه أو هاجِسٌ فى نفسه يهيجه .. فَمَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ توَقفَ ريثما

---

(١) الضمير فى (بينه) يعود على الضرر أو من شاء الضرر ، والضمير فى (به) يعود على العبد المنصور .

تَتَبيَّنُ له حقيقةُ الوارد ، فيثبتُ لكونه رابطَ الجأش ، ساكنَ القلب ، صافىَ اللُّب . . وهذا نعت الأكابر .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا اللهَ ورَسُولَه ولا تَنَازَعوا
فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكم واصبِروا
إنَّ اللهَ مع الصابرين ﴾

الموافقة بين المسلمين أصلُ الدِّين . وأولُ الفساد ورأسُ الزَّلَلِ الاختلافُ . وكما تجب الموافقة فى الدين والعقيدة تجب الموافقة فى الرأى والعزيمة[1] .

قال تعالى فى صفة الكفّار : « تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتّى » ، وإنما تتحد عزائمُ المسلمين لأنهم كلّهم يجمعهم التبرّى مِنْ حَوْلِهم وقُوَّتهم ، ويشحضون فى رجوعهم إلى الله ، وشهودهم التقدير ، فيتحدون فى هذه الحالة الواحدة .

وأمّا الذين تَوَهَّمُوا الحادثاتِ من أنفسهم فضَلُّوا فى ساحات حسبانهم ، وأجْرَوْا الأمور على ما يسنح لرأيهم ، فكلٌّ يبنى على ما يقع له ويختار ، فإذا تنازعوا تَشَعَّبَتْ بهم الآراء ، وافترقت بهم الطرقُ ، فيضعفون ، وتختلف طُرُقُهم . وكما تجب فى الدين طاعةُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تجب طاعة أولى الأمر ، ولهذا يجب فى كل وقت نَصْبُ إمامٍ المسلمين ، ثم لا تجوز مخالفته ، قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أطيعوه ولو كان عبداً مجدعا »[2] وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إذا بعث سَرِيَّةً أمّر[3] عليهم أميراً وقال : « عليكم بالسواد الأعظم » .

وإجماعُ المسلمين حُجَّةٌ ، وصلاة الجماعة سُنّةٌ مؤكّدة ، والاتّباعُ محمودٌ والابتداع ضلالة .

قوله « واصْبِروا » الصبر حَبْسُ النَّفْس على الشىء ، والمأمور به من الصبر ما يكون على خلاف هواك .

---

(1) وردت (العظيمة) والملائم للرأى ولما جاء بعد قليل تتحد : (عزائم المسلمين) كلمة (العزيمة)

(2) فى رواية مسلم وابن ماجه عن ام الحصين : « إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا » ص ١٤٦ - ٢ من منتخب كنز العمال .

(3) وردت (اثر) والصواب (أمّر) اميراً ، وربما اشتبهت علامة التضعيف على الناسخ فحسبها نقطاً ثاء .

« إن الله مع الصابرين » يتولى بالكفاية إذا حصل منهم الثباتُ وحَسُنَ التفويضُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من
ديارهم بَطَراً ورِئَاء الناسِ ويَصُدُّون
عن سبيل اللهِ واللهُ بما يعملون
مُحيطٌ ﴾

يريد أنَّ أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير مَلَكَتْهُم العِزَّةُ ، واستمكن منهم البَطَرُ ، وداخلَهم رياء الناس ، فارتبكوا فى شِبَاكِ غَلَطِهم ، وحصلوا على مالم يحتسبوه . وأمَّا المؤمنون فَنَصَرَهم نَصْراً عزيزاً ، وأزال عن نبيِّه — عليه السلام — ما أظلَّه من الخوف وبِصِدْقِ تبريه عن حوله ومُنَّته — حين قال : (لا تكلنى إلى نفسى)[1] — كفاه بحسن التولِّى فقال (وَمارميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

قوله جل ذكره : « وإذ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم وقال
لا غالبَ لكم اليومَ مِنَ الناسِ
وإنى جارٌ لكم فلمَّا تراءتِ الفِئَتَانِ
نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وقال إنى برىء
منكم إنِّى أرى مالا ترَوْنَ إنِّى أخافُ
اللهَ واللهُ شديدُ العِقابِ » .

الشيطان إذا زيَّن للانسان بوساوسه أمراً ، والنَّفْسُ إذا سوَّلت له شيئاً عَمِيَتْ بصائرُ أرباب الغفلة عن شهود صواب الرُّشد ، فيبقى الغافل[2] فى قِياد وساوسه ، ثُم تلحقه هواجمُ

(١) « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين »
الحاكم من حديث أنس قال صحيح على شرط الشيخين . وهو فى اليوم والليل ، وعلمه صلى الله عليه وسلم لابنته الزهراء رضى الله عنها .
(٢) وردت (العاقل) وهى خطأ فى النسخ فالكلام عن أرباب الغفلة .

التقدير من كوامن المكر[1] من حيث لا يرتقب ، فلا الشيطان يفى[2] بما يَعِدُه ، ولا النفس شيئاً مما تتمناه تجده ، وكما قال القائل :

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تَخَفْ سوء ما يأتى به القَدَرُ
وسالمتْكَ الليالى فاغتَرَرْتَ بها وعند صفوِ الليالى يَحْدُثُ الكَدَرُ

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مَرَضٌ غَرَّ هؤلاء دينُهم ومَن يتوكل على اللهِ فإنَّ الله عزيزٌ حكيم ﴾

إن أصحابَ الغفلة وأربابَ الغِرَّة إذا هبَّتَ رياحُ صَوْلَتِهم فى زمان غفلتهم يلاحظون أهلَ الحقيقة بعين الاستحقار، ويَحْكُمون عليهم بضعف الحال ، وينسبونهم إلى الضلال ، ويعدونهم من جملة الجهَّال ، وذلك فى زمان الفترة ومدة مُهْلةِ أهل الغيبة .

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم ، يَرَوْن الغائبات عن الحواس بعيون البصيرة من وراء ستر رقيق ؛ فلا الطوارقُ تهزمهم ، ولا هواجم[3] الوقت تستفزهم[4] ، وعن قريب يلوح عَلَمُ اليُسْرِ ، وتنجلى سحائبُ العُسْر ، ويمحق اللهُ كيد الكائدين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَو ترى إذ يَتَوفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم وذوقوا عذابَ الحريق ﴾ .

يُسَلِّيهم[5] عندما يُقَاسُون من اختبارات التقدير بما يُذَكِّرهم زوالَ المحنة ، ووَشْكَ رَوْحِ

---

(1) هكذا فى المتن ، وفى الهامش (كوامن المكر) ولكن الصواب ماجاء بالمتن إذ المقصود ما يهجم على الغافل من (مكر) الله — سبحانه .
(2) وردت (يفنى) والملائم لما (يعده) كلمة (يفى) .
(3) وردت (هوام) .
(4) وردت (تستقرهم) ويكون معنى الجملة بعد هذين التصويبين هو ماجاء فى الرسالة (ص ٤٤) [الهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت ، وسادات الوقت لا تصرفهم الهواجم]
(5) وردت (يسليهم) والمقصود (تسليته) المؤمنين فى أوقات الاختبار .

اليسر ، وسرعةَ حصول النصر ، وحلولَ النِّقَم بمرتكبي الظلم . والمؤمن كثيرُ الظَّفَر ، فإذا شاهد بأرباب الجرائم حلولَ الانتقام رقَّ قلبهُ لهم ، فلا ينخرط في سِلْكِ الشماتة ؛ إذ يخلو قلبه من شهوة الانتقام ، بل يجب أن يكون كل أحد بحُسْنِ الصفة ، وكما قيل .

قومٌ إذا ظَفِروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ذلك بما قدَّمَتْ أيديكم وأن الله ليس بظلَّامٍ للعبيد﴾ .

يُعَرِّفهم أنَّ ما أصابهم مِنْ شِدَّةِ الوَطْأةِ جزاءٌ لهم على ما أسلفوه من قبيح الزَّلَّة ، كما قيل :

سَنَنْتَ فينا سننا قنف البلايا عُقَبُهْ
يصبر على أهوالها مَنْ برَّ يوماً ربَّهُ[1]

« وأن الله ليس بظلام للعبيد » أى كيفما يعاملهم في السَّراء والضرَّاء فذلك منه حَسَنٌ وعَدلٌ ، إذ المُلْكُ مُلْكُه ، والخلقُ خَلْقُه ، والحكمُ حُكْمُه .

قوله جل ذكره : ﴿كدأبِ آلِ فرعون والذين مِن قَبْلِهم كفروا بآيات الله فأخذهم اللهُ بذنوبهم إنَّ الله قوىٌّ شديدُ العِقابِ﴾

لمَّا سلكوا مسلكَ أهلِ فرعون في الضلال، سَلَكْنا بهم مسلكهم فيما أذقناهم من العذاب وسوء الحال ، وسُنَّةُ الله ألا تغيير في الإنعام ، وعادته ألا تبديلَ في الانتقام ، ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بما يشهد[2] اعْتَبَرَ بما يصنعه به .

قوله جل ذكره : ﴿ذلك بأنَّ اللهَ لم يكُ مغيِّراً نِعمةً أنعمها على قومٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم وأنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ﴾

(١) فى الشعر اضطراب ، ونرجح أن هناك خطأ فى النقل .
(٢) أى بما يشهده يحدث لغيره .

إذا أنعَمَ الحقُّ — سبحانه — على قومٍ نعمةً وأراد إمهالَهم أكرمهم بتوفيق الشكر ، فإذا شكروا نعمته فبقدر الشكر دامت فيهم.

وإذا أراد — سبحانه — إزالةَ نعمةٍ عن عبدٍ أذَلَّه بخذلان الكفر ، فإذا حالَ[1] عن طريق الشكر عرَّض النِّعمة للزوال . فما دام العبدُ يشكر النعمة مقيماً كان الحقُّ فى إنعامه عليه مُديماً ، فإذا قابل النعمة بالكفرانِ انتثر سِلْكُ نظامه ، فبقدر مايزيد فى إصراره يزول الأمر عن قراره .

قوله جل ذكره : ﴿كَدَأْبِ آلِ فرعون والذين مِن قبلهم
كذَّبوا بآياتِ ربِّهم فأهلكناهم
بذنوبهم وأغرقنا آلَ فرعون وكُلٌّ
كانوا ظالمين﴾

تنوَّعَتْ من آل فرعون الذنوب فَنَوَّعَ لهم العقوبة ، وكذلك هؤلاء : عُوقِبوا بأنواعٍ من العقوبة لَمَّا ارتكبوا أنواعاً من الزَّلة .

وفائدةُ تكرارِ ذِكْرِهِم تأكيدٌ فى التعريف أنه لا يهمل المُكَلَّفَ أصلاً ، وإنْ أمهله حيناً ودهراً .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ شَرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا
فَهُمْ لا يؤمنون﴾

« عند الله » : فى سابق علمه وصادق حكمه ؛ فإذا كانوا فى عِلْمِهِ شَرَّ الخلائق فكيف يسعدون باختلاف السعايات وصنوف الطوارق ؟

هيهات أن تتبدل الحقائق !

وإذا قال : « فهم لا يؤمنون » — وكلامُه صِدقٌ وقولُه حَقٌّ — فلم يبقَ للرجاء فيهم مساغٌ، ولا ينجع فيهم نُصْحٌ وإبلاغ .

قوله جل ذكره : ﴿الذين عَاهدتَ منهم ثم يَنقضون
عَهْدَهم فى كلِّ مرةٍ وهُم لا يتقون﴾

---

(١) (حال) اى تغير متبولة فى المعنى ، ولكن لا نستبعد أنها (حاد) فى الأصل .

أى الذين صار نقضُ العهد لهم سجيةً ، فلم يذَروا من استفراغ الوسع فى جهلهم بقية .

وإن من الكبائر التى لا غفران لها فى هذه الطريق أن ينقض العبدُ عهداً ، أو يترك عقداً التزمه بقلبه مع الله . أولئك الذين سقطوا عن (....)[1] الله ، فرفع عنهم ظلَّ العناية والعصمة .

قوله جل ذكرُه : ﴿ فإمَّا تَثْقَفَنَّهم فى الحرب فَشَرِّدْ بهم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهم يَذَّكَّرُون ﴾

يريد إنْ صادَفْتَ واحداً من هؤلاء الذين دأبُهم نقضُ العهد فاجعلهم عِبْرَةً لمن يأتى بعدهم لئلا يسلكوا طريقهم فيستوجبوا عقُوبتَهم .

كذلك مَنْ فَسَخَ عقده مع[2] الله بقلبه برجوعه إلى رُخَصِ التأويلات ، ونزوله إلى السكون مع العادات[3] يجعله الله نكالا لمن بعده ، بحرمانه ما كان خوَّله ، وتنغيصه عليه ما من حظوظه أمَّلَه ، فيفوته حق الله ، ولا يكون له امتناع عما آثره على حق الله :

تبدَّلت وتبدَّلنا واحسرتا لمن ابتغى عِوضاً لليلى فلم يجد

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا تخافَنَّ مِن قَوْمٍ خيانةً فانبِذْ إليهم على سَوَاءٍ إنَّ الله لا يحب الخائنين ﴾

يريد إذا تحقَّقْتَ بخيانة قوم منهم فَصَرِّح بأنه لا عهدَ بينك وبينهم ، فإذا حصلت الخيانةُ زال سَمْتُ الأمانة ، وخيانةُ كلِّ أحدٍ على ما يليق بحاله ، ومَنْ ضَنَّ[4] بميسورٍ له فقد خانَ فى عهده ، وزاغ عن جده ، وعقوبته معجَّلة ، فهو لا يحبُّه الله ، وتكون عقوبته بإذلاله وإهانته .

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (من) والصواب عقده (مع) الله .

(٣) وردت (العدالات) والصواب (العادات)

(٤) وردت (ظن) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ولا يحسبنّ الذين كفروا سبقوا
إنّهم لا يُعجزون ﴾

كيف يعارضُ الحقَّ أو ينازعه مَنْ في قبضتِه تقلّبُه ، وبقدرته تصرُّفه ، وبتصريفه إياه عدَمُه وثبوتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتم مِن قوةٍ
ومن رِباط الخيل ﴾

أعدوا لقتالِ الأعداءِ ما يبلغ وسعكم ذلك من قوة ، وأتمُّها قوةُ القلب باللهِ ، والناسُ فيها مختلفون : فواحدٌ يقوِّى قلبهُ بموعود نَصْره ، وآخرُ يقوى قلبُه بأنَّ الحقَّ عالِمٌ بحاله ، وآخر يقوى قلبه لتحققه بأن يشهد من ربه ، قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا »[1] ، وآخر يقوى قلبهُ بإيثار رضاء الله تعالى على مراد نفسه ، وآخر يقوى قلبه برضاه بما يفعله مولاه به .

ويقال أقوى محبة للعبد في مجاهدة العبد وتبرِّيه من حوله وقوّته .

قوله جل ذكره : ﴿ تُرْهِبُون به عدوَّ اللهِ وعَدُوَّكُم
وآخَرين مِن دونِهم لا تعلمونَهم ،
اللهُ يعلمهم ، وما تُنفقوا مِن شيء
في سبيل اللهِ يُوَفَّ إليكم وأنتم
لا تُظلَمون ﴾

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها ، أو لاشتفاء صدره من قضية حقد ، بل قصده أن تكون كلمةُ اللهِ هي العليا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لها
وتوكّلْ على اللهِ إنه هو السَّميعُ العليم ﴾

(١) آية ٤٨ سورة الطور .

بعث الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — بالرحمة والشفقة على الخلق ، وبمسالمة[1] الكفار رجاء أن يؤمنوا فى المُسْتأنَف فإنْ أبَوْا فليس يخرج أحدٌ من قبضة العِزّة .

ويقال العبودية الوقوفُ حيثما وقفت ، إنْ أُمِرْتَ بالقتال فلا تُقَصِّرْ ، وإنْ أُمِرْتَ بالمواعدة فرحباً بالمُسالَمة ، « وتوكّلْ على الله » فى الحالين فإنه يختار لك ما فيه الخيرة ، فيوفّقك لِمَا فيه الأَوْلَى ، ويختار لك ما فيه من قِسمى الأمرِ — فى الحرب وفى الصُّلح — ما هو الأعلى .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يُريدوا أن يَخدعوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ هو الذى أيَّدك بِنَصْرِهِ وبالمؤمنين * وألَّفَ بين قلوبِهم لو أنفَقْتَ ما فى الأرضِ جميعاً مَّا ألَّفْتَ بين قلوبِهم ولكنَّ اللهَ ألَّفَ بينهم إنه عزيزٌ حكيم ﴾

أى إنْ لَبَّسُوا عليك ، وراموا خِداعَك بطلب الصُّلح منك — وهم يستبطنون لك بخلاف ما يظهرونه — فإنَّ اللهَ كافِيكَ ، فلا تَشْغَلْ قلبَك بغفلتك عن شرِّ ما يكيدونك ؛ فإنى أعلمُ ما لا تعلم ، وأقدر على ما لا تقدر .

هو الذى بنصره أفْرَدَكَ ، وبلطفه أيَّدَكَ ، وعن كل سوء ونصيبٍ طَهَّرَك ، وعن رقِّ الأشياء جَرَّدَكَ[2] ، وفى جميع الأحوال كان لك .

هو الذى أيّدك بمن آمن بك من المؤمنين ، وهو الذى ألَّف بين قلوبهم المختلفة فجَمَعَها على الدِّين ، وإيثارِ رضاء الحق . ولو كان ذلك بِحِيَلِ[3] الخلْق ما انتظَمَتْ هذه الجملة ، ولو أبلغتَ بكلِّ ميسورٍ من الأفعال ، وبذلتَ كُلَّ مُستطاعٍ من المال — لَمَا وَصَلْتَ إليه . .

---

(١) وردت (بمسامحة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وردت (حررك) بالحاء وهى خطأ فى النسخ والصواب أن تكون بالجيم .

(٣) وردت (بحيل) بياءين وهى خطأ فى النسخ فهى (حيل) جمع حيلة .

قوله جل ذكره . ﴿ يأيها النبي حَسْبُكَ اللهُ ومَنِ اتَّبَعَكَ
من المؤمنين ﴾

أحسنُ التأويلات فى هذه الآية أن تكون « مَنْ » فى محل النَّصب ؛ أى ومَنْ اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله .

ومن التأويلات فى العربية أن تكون « مَنْ » فى محل الرفع أى حسبُك مَنْ اتبعك من المؤمنين .

وقد عُلِمَ أن استقلال الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان بالله لا بمن سوى الله ، وكلُّ مَنْ هو سوى الله فمحتاجٌ إلى نصرة الله ، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرة الله(1) .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبىُّ حَرِّضِ المؤمنين على القتال ﴾

المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفاً إلاّ ازداد بقلبه قوةً ، لأن الاستقلالَ بقوة النَّفس نتيجةُ الغفلة ، وقوةُ القلب بالله — سبحانه — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن يَكُن مِّنكم عشرون صابرون
يغلبوا مائتين وإن يكُن منكم مِائة
يَغْلِبُوا ألفاً مِن الذين كفروا بأنهم
قومٌ لا يفقهون * الآن خَفَّفَ اللهُ
عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعفاً فإن
يَكُن منكم مِّائةٌ صابِرةٌ يغْلِبُوا
مِائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا
ألفين بإذن الله ، واللهُ مع الصابرين ﴾

هذا لهم ، فأمّا النبى — صلى الله عليه وسلم — فهو بتوحيده كان مُؤمّلاً بأنْ يَثْبُتَ لجميع الكفار لكمال قوّته بالله تعالى ، قال عليه السلام : « بِكَ أصول »(2) ، وفى تحريضه للمؤمنين

(1) لاحظ كيف تؤثر النزعة الصوفية فى اختيار الفكرة النحوية .

(2) « اللهم بك أصول وبك أجول وبك أسير » .

كان هذا من دعائه صلوات الله عليه — إذا أراد سفراً (الإمام أحمد والبزاز عن على كرم الله وجهه ، وقال الحافظ البيهقى : رجاله ثقات) .

على القتال كانت لهم قوة ، وبأمر الله كانت لهم قوة ؛ فقوة الصحابة كانت بالنبي — عليه الصلاة والسلام ، وتحريضه إياهم وقوتهم بذلك كانت بالله وبأمره إياه . . وشتّان ما هما !

قوله : « الآن خفّفَ الله عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضعفاً » : والضَّعْفُ الذى علم فيهم كان ضَعْفَ الأشباح فخفّفَ عنهم ، أما القلوبُ فلم يتداخلها الضعف فحُمِلَ من ممارسة القتال بالعذر المذكور فى الكتاب .

والعوام يحملون للشاقّ بنفوسهم وجسومهم ، والخواص بقلوبهم وهممهم ، وقالوا : « والقلبُ يحْمِلِ مالا يَحْمِلُ البَدَنُ » وقال آخر .

وإنْ تَرَوْنِى أُعاديها فلا عَجَبٌ على النفوسِ جناياتٌ من الهِمَمِ

قوله جل ذكره : ﴿ما كان لِنَبِيٍّ أن يكونَ له أَسْرَى حتى يُثْخِنَ فى الأرضِ تريدون عَرَضَ الدنيا واللهُ يُرِيدُ الآخرة واللهُ عزيزٌ حكيم﴾

أى لا ينبغى لنبى من الأنبياء — عليهم السلام — أن يأخذ أسارى من أعدائه ثم يرضى بأن يأخذ منهم الفِداء ، بل الواجب عليه أن يُثْخِنَ فى الأرض أى يبالغ فى قتل أعدائه — إذ يُقال أثخنه المرضُ إذا اشتدَّ عليه . وقد أخذ النبى — صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ منهم الفِداء ، وكان ذلك جائزاً لوجوب القول بعصمته ، ولكن لو قاتلهم كان أوْلى . وأراد « بعَرَضِ الدنيا » أخذ الفداء ، والله جعل الفداء ، والله جعل رضاه فى أن يقاتلوهم ، وحرمة[1] الشرع خلاف رحمة الطبع ؛ فشرطُ العبودية أن يؤثر العبدُ اللهَ ، وإذا كان الأمر بالغلظة فكما قال تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله »[2] .

---

(١) وردت (ورحمة) الشرع والصواب (وحرمة الشرع) والمعنى إن اتباع الأمر أولى من تحكيم عاطفة الرحمة .م

(٢) آية ٢ سورة النور .

« واللهُ عزيزٌ » : بالانتقام من أعدائه ، « حكيمٌ » : فى جميع ما يصنع من التمليك والإملاك ، والتيسير والتدبير .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا كتابٌ من الله سبَقَ لَمَسَّكُمْ فيما أخذتُم عذابٌ عظيم ﴾

لولا أن الله حكم فى آزاله بإحلال الغنيمة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته لَمَسَّكُم — لأجل ما أخذتُم من الفداء منهم يومَ بدر — عذابٌ عظيم ، ولكن الله أباح لكم الغنيمة فأزال عنكم العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ فكلوا مما غَنِمْتُم حلالاً طيباً واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾

الحلال ما كان مأذوناً فيه ، والحلالُ الطيبُ أنْ تعلم أن ذلك مِنْ قِبَلِ الله فضلاً ، وليس لك مِنْ قِبلِكَ استحقاقاً .

ويقال الحلال الصافى ما لم يَنْسَ صاحبُه فيه معبوده .

ويقال هو الذى لا يكون صاحبُه عن شهود ربِّه — عند أخذه — غافلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبيُّ قُل لِمَن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم اللهُ في قلوبكم خيراً يُؤْتِكم خيراً مما أُخِذَ منكم ويغفرْ لكم واللهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾

الذى يعطَوْنه خيرٌ مما أُخِذَ منهم . ويحتمل أن يكون ما فى الآخرة من حسن الثواب ، ويحتمل أن يكون ما فى الدنيا من جميل العِوَض . ويقال هو ما يوصلهم إليه من توفيق الطاعات ، وحلاوة الإيمان ، وهو خيرٌ مما أُخِذَ منهم .

ويقال ما أعطاهم من الرضاء بما هم فيه من الفقر ، بعدما كانوا أغنياء فى حال الشِّرْك .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يريدوا خِيانَتَك فقد خانوا اللهَ

مِن قبلُ فأمْكَنَ منهم واللهُ عليمٌ
حكيمٌ ﴾

يريد إنْ عادوا إلى قتالك بعدما مَنَنْتَ عليهم بالإطلاق وخانوا عَهْدَكَ ، فالخيانة لهم دأب وطريقة ، ثم إنَّا نُمَكِّنُكَ منهم ثانياً كما أمْكَنَّاكَ من أسْرِهم أولاً ، وقيل :

إنْ عَادَتْ العَقْربُ عُدْنا لها وكانت النَّعْلُ لها حاضرة

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا
بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ اللهِ
والذين آوَوْا وَّ نصروا أولئك بعضُهم
أولياء بعضٍ والذين آمنوا ولم يهاجِروا
ما لَكُم مِّن وَلايتهم من شيء
حتى يُهاجروا وإنِ استنصروكم في
الدِّينِ فعليكم النَّصْرُ إلاَّ على قومٍ
بينكم وبينهم ميثاقٌ ، واللهُ بما تعملون
بصيرٌ ﴾

ذَكَرَ صفةَ المهاجرين مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصفتهم أنهم آمنوا ثم هاجروا مع الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، ثم « جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » هؤلاء هم المهاجرون .

أما الذين آووا فهم الأنصار ؛ آووا الرسول — عليه السلام — والمؤمنين .

فهذان الفريقان بعضهم أولياء بعض في النصرة والدين .

وأما الذين آمنوا ولكن لم يهاجروا فليست لهم هذه الموالاة إلى أن يهاجروا ، وإنْ استعانوا بكم فعليكم نصرهم .

« إلا على قومٍ » وهم المُعاهدون معكم .

وكمالُ الهجرةِ مفارقةُ الأخلاق الذميمة ، وهجران النَّفْس في تَرْكِ إجابتها إلى ما تدعو

إليه من شهواتها . ومن ذلك هجران إخوان السوء ، والتباعد عن الأوطان التى باشر العبدُ فيها الزَّلة ، ثم الهجرة من أوطان الحظوظ إلى أوطان رضاء الحق .[1]

وأما قوله « والذين آووا ونصروا » فهم الذين يؤثِرون إخوانَهم على أنفُسِهم ولو كان بهم خصاصة ، عَوَامُّ هؤلاء فى الأمور الدنيوية ، وخواصُّهم فى الكرائم فى الآخرة ، وخاصُّ الخاصِّ فى كل ما يصحُّ به الإيثار من سنِىِّ الأحوال إلى ما لا يدرك الوهم .

قوله جل ذكره : ﴿والذين كفروا بعضُهم أولياء بعضٍ
إلاَّ تفعلوه تكُن فتنةٌ فى الأرضِ
وفسادٌ كبير * والذين آمنوا
وهاَجَرُوا وَجاَهدُوا فى سَبِيل اللهِ
وَالَّذِينَ آوَوا وَّنصروا أولئك هُمُ
المؤمِنون حقًّا لهم مغفرةٌ ورِزْقٌ كريم﴾

قطَعَ العصمةَ بينهم وبين المؤمنين ، فالمؤمِن للأجانبِ مُجانِبٌ ، وللأقارب مقارِبٌ . والكفارُ بعضهم لبعضهم ، كما قيل : « طيرُ السماء على ألاَّفها تقعُ »

قوله جل ذكره : ﴿والذين آمنوا مِنْ بَعْدُ وهاجروا
وجاهدوا معكم فأولئك منكم ،
وأولوا الأرحامِ بعضُهم أولَى ببعضٍ
فى كتابِ اللهِ إنَّ اللهَ بكلِّ شىءٍ عليم﴾

يريد مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهم فى الحال ، ومَنْ سيلحق بهم فى الاستقبال وآتى الأحوال فالالفَةُ تجمعهم ، والولاية تشملهم ، فلهم من الله فى العقبى جزيلُ الثواب ، والنجاةُ من العذاب. ولهم فى الدنيا الولايةُ والتناصُر ، والمودة والتقارب ، والله أعلم

---

(١) القشيرى من الشيوخ القائلين بأهمية السفر إذا دعت الضرورة يشرط أن يصحب السفر عن المكان سَفَرٌ عن النفس (انظر الرسالة ص ٢٠٠) .

« تنبيـه »

ذكر السيد المحقق فى الصحيفة ٢٠ موقفه من أخطاء الناسخ بأنه اتخذ منها ثلاثة مواقف (١) موقفا نجد فيه الخطأ مؤكدا ، ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلمة أو حرف أو تزيد كلمة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

ولما كانت الطبعة الأولى كثيرة الأخطاء خاصة فى الآيات القرآنية ، فقد قمت بتصويبها وتصحيحها قبل هذه الطبعة الثانية (أفست)..

أما ماورد فى ب . ج ، فقد تركته كما هو حسب منهج السيد المحقق وسأقوم بمشيئة الله تعالى بتصويب المجلدين : الثانى ، الثالث ، على هذا النحو ، وأرجوا الله التوفيق والعون .

متولى خليل عوض الله
الباحث الأول - مركز تحقيق التراث

فهرس

تم المجلد الأول ويليه المجلد الثانى
وأوله سورة التوبة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٢٥ / ٢٠٠٠

I.S.B.N. 977 - 01 - 6594 - 8

يسر إدارة التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب أن تعيد تقديم هذا التفسير الصوفى الكبير للإمام القشيرى بتحقيق العالم الدكتور إبراهيم بسيونى.. وهذا كتاب تشعر خلال قراءته أن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية لها أصل من القرآن، ويتجلى ذلك بصفة خاصة حيثما ورد المصطلح الصوفى صريحا فى النص القرآنى كالذكر، والتوكل، والرضا، والولى، والولاية، والحق، والظاهر، والباطن، والقبض والبسط... وغير ذلك. فلا تملك إلاّ أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما يحلو لبعض الباحثين حين يتهمون التصوف الإسلامى بالتأثر بالتيارات الأجنبية ـ وإلى الجزء الثانى.

١٣٠٠ - ق ٣٩٠٠٠٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب